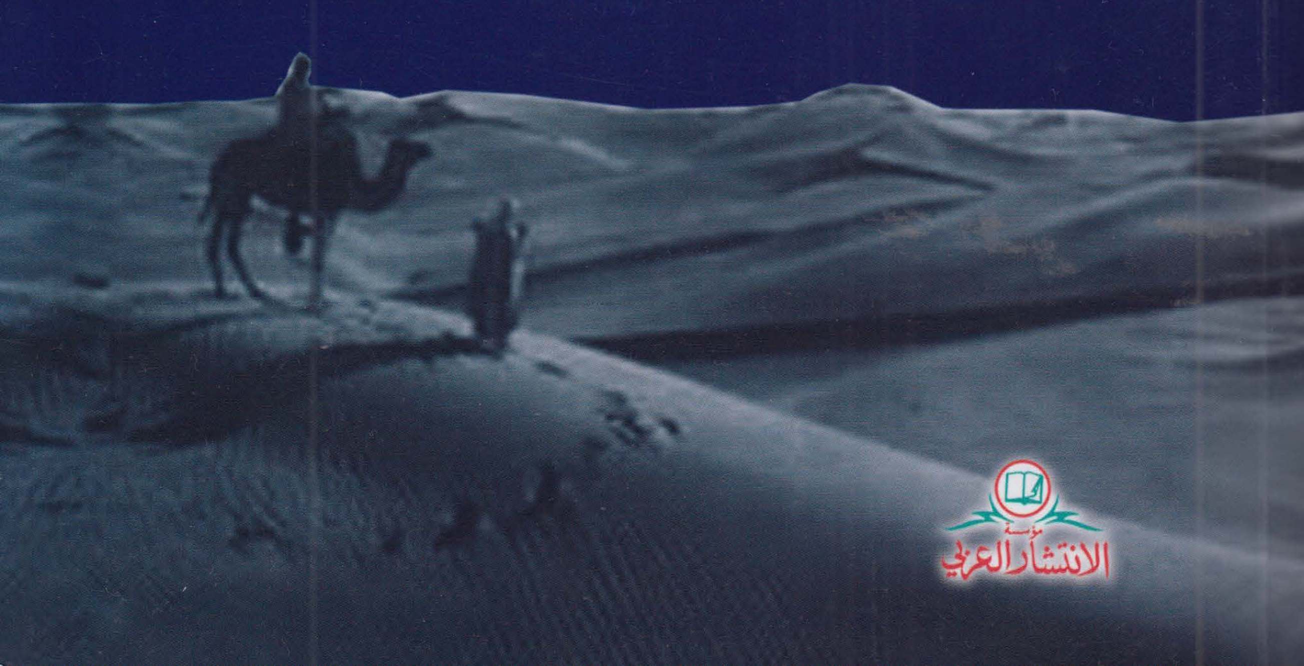
الطبعة الثانية

جون لويس بيركهارت

رحلات إلى شبه الجزيرة العربية



مؤسسة الانتشار العربي

جون لويس بيركهارت

رحلات إلى شبه الجزيرة العربية

الطبعة الثانية

الانتشار العربي

جون لويس بيركهارت

رحلات إلى شبه الجزيرة العربية

الطبعة الثانية

الانتشار العربي
ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-370-7

الطبعة الثانية 2013

المحتويات

الملاحق

تمهيد المحرّر

لقد ولّت بضعُ سنوات الآن منذ تقديم جزأين منفصلين من أعمال بيركهارت (أسفاره في النوبة وسوريا) إلى الجمهور ولقي الجزءان استحساناً كبيراً؛ وكان وراء نجاحها جدارتها الهامّة فضلاً عن شهرة محرّرها عالماً وجامعاً للكتب القديمة النادرة، ورحّالةً وعالماً بالجغرافيا. يجب ألاّ يستنتج من التأخير في نشر هذا الكتاب بأن محتوياته أقل شأناً من تلك الأجزاء التي ثبتت أهميتها وفائدتها للعديد من القرّاء. ولطالما وُجدت النية في إصدار هذا الكتاب وأعمال أخرى للكاتب نفسه، تباعاً ويقول الكولونيل ليك (Leake) في تمهيده للكتاب عن الأسفار في سوريا، «ما تزال هناك مخطوطات تكفي لملء كتابين: سيحتوي الأول على رحلاته في شبه الجزيرة العربية، والتي حُصرت في منطقة الحجاز أو أرض المسلمين المقدّسة، وهو الجزء الذي يصعب على المسيحيين إيجاده والحصول عليه؛ وسيحتوي الكتاب الرابع على ملاحظات وافرة عن عرب الصحراء وبشكل أخص الوهابيين».

فيما يتعلق بالجزء الذي بين يدي القارىء الآن، يعبّر الكولونيل Leake، في موضع آخر، عن إعجابه الشديد. ويقول «لقد قدّم بيركهارت إلى «الجمعية» أدق وأشمل تقرير وصل إلى أوروبا عن الحجاز، بما في ذلك مدينتا مكة والمدينة. فإن معرفته باللغة العربية وبعادات المسلمين، قد مكّنته من انتحال صفة المسلم وشخصيته بنجاح لا نظير له، بحيث أقام في مكة خلال موسم الحج كله، وأدى الشعائر الواجبة في هذه المناسبة، دون أن يُثير أي شكوك، مهما كانت بسيطة، حول شخصيته الحقيقية». (راجع كتابه «الرحلات إلى بلاد النوبة» قصة حياته المرفقة بالكتاب، ص lvii، الطبعة ١٨١٩).

ولو أن عملاً لرحالة أقل شأناً بكثير من صاحبنا لقي كل هذا الإطراء لكان حرياً بأن ينال اهتمامنا وهذا يظهر في استحقاق آخر، حيث إن محرر كتابات بيركهارت السابقة، هو الذي قام بتصحيحها جزئياً وتحضيرها للنشر. إلاّ أن بعض الاهتمامات الأدبية قد حالت دون إشراف الكولونيل Leake على سير العمل بهذا الكتاب وصولاً إلى المطبعة. غير أن المحرر الحالي قد تبنى خطته من غير تغيير تقريباً، وخاصة في انطباعات الكاتب وأحاسيسه في المناسبات كلها بشكل وفيّ ودقيق وكذلك في المحافظة على لغته الأصلية دون الاهتمام بأسلوب الكتابة الأنيق أو الحرص على انتقاء التعبيرات، وذلك كلما لم تدعُ الحاجة

إلى بعض التعديلات غير الضرورية لخلق الانسجام مع نظام لغتنا وتراكيبها النحويّة، فيما يتعلق ببعض العبارات الأجنبية التي تسلّلت إلى كتاباته الإنكليزية[١].

قد تبدو الخريطة المرفقة بهذا الكتاب غير ضرورية، وإذ إن مواقع جدة ومكة و«المدينة» والطائف ويُنبع، وهي الأماكن الرئيسية التي زارها بيركهارت في الحجاز، قد تمت الإشارة إليها بدقة في الخرائط البارعة التي تحدّد رحلاته إلى بلاد النوبة وسوريا. لكن، بما أن القارىء لهذا الكتاب ليس من المفترض منطقياً أن تكون تلك النسخ في حوزته للرجوع إليها مباشرة، فقد قمنا بوضع خريطة هنا، قام السيد Sydney Hall في أثناء وضعها وتحديد خطوطها، بالاهتمام بالاقتراحات كلها التي قدّمها المحرر الذي أوصى بلفظ أسماء الأماكن حسب طريقة بيركهارت وأسلوبه، مهما اختلفتْ عن تلك الشائعة بيننا[٢].

وحسب نصيحة المحرّر، تم كذلك إدراجُ عدة أماكن واقعة خلف حدود الحجاز الشرقية في هذه الخريطة، حيث إن بيركهارت قد أعطى بعض الوُجهات التي تُذكر فيها تلك الأماكن، بالرغم من أنه لم يقم شخصياً بزيارتها.

ومن الواضح أن تلك الأماكن لا تدخل ضمن المنطقة التي تُسمى بالحجاز؛ لكننا لا نستطيع تحديد المسافة التي تمتد فيها تلك المنطقة شرقاً؛ وتستوقفنا الصعوبات نفسها فيما يتعلق باتجاهات مختلفة. وقد قام المحرّر بالاطلاع على أعمال العديد من الكتّاب، الأوروبيين منهم والمستشرقين، وذلك للتأكد من الحدود التي تفصل الحجاز عن باقي المناطق في شبه الجزيرة. غير أن نتيجة بحثه لم تكن مُرضية؛ إذ إن بعض الكتّاب قد أدرجوا مُدناً ومحطات ومقاطعات ضمن أراضي البلاد المجاورة، وهي نفسها التي يضعها كتّاب آخرون بالمستوى نفسه، في الحجاز.

قد يكون هذا الالتباس ناشئاً من البيانات المختلفة عن عدد المقاطعات وامتدادها وأسمائها الواقعة في المنطقة نفسها. ويقسم الكتاب الأوروبيون هذه المساحة إلى ثلاث مناطق رئيسية هي الجزيرة الصخرية، والجزيرة الصحراوية، والجزيرة السعيدة. بينما يقوم علماء الجغرافيا الشرقيون بتجزيئها إلى مقاطعتين أو خمس أو ست أو سبع أو أكثر بأسماء لا تتوافق أبداً في المعنى مع الألقاب المذكورة أعلاه والتي استعرناها من اليونانيين والرومانيين.

لذلك، فإن مهمة تحديد تخومِ كل مقاطعة في تلك المنطقة بدقة هي من الصعوبة بمكان أو هي مهمة لا تكاد تكون ممكنة وهذا ما يعترف به الجغرافي البارع دانفيل (D'Anville)؛ إلاّ أنه يميل إلى الخلط بين المنطقة

---

(١) لقد كان من المناسب أن نضع الكلمات العربية التي تتبع مباشرة بعض الكلمات في الكتاب الأصلي، أو تلك التي تظهر بين الأسطر أو في الهامش مع بعضها في نهاية الكتاب، في ملحق يتضمن الصفحات التي وردت فيها تلك العبارات؛ وذلك لأسباب تتعلق بالطباعة بهدف تسهيل نشر هذا الكتاب وتعجيله.

(٢) بالتالي، قد تكون مدينة Mekka قد تمّ لفظها Mecca في خريطة هذا الكتاب؛ والحجاز Hejaz وجدة Jidda ونجد Nejed، حيث إنه بلفظها هكذا ستعطي اللفظ نفسه إذا ما كُتبت Hedjaz وDjidda وNedjed؛ وتكون بالوقت نفسه قريبة من طريقة الكتابة العربية الأصلية، حيث إن حرف (j) الإنكليزي (كما في كلمات Jar وJames، الخ) تُكتب دون مساعدة حرف (d)؛ على الرغم من أن زيادة هذا الحرف الأخير إلى حرف (j) قد يحول دون أن يلفظ الفرنسي هذا الحرف كما يلفظ كلمات jour وjamais، الخ.

التي تحتـوي على مكة وجدة ويَنبع (وهي مناطق نعلم جيداً أنها، دون أي لَبس، تقع في الحجاز)، وArabia Felix[١]. أما D'Herbelôt فهو يقول مرة إن الحجاز هي Arabia Petraea[٢]، ومرة أخرى يعرّفها Arabia Desertat[٣].

من بين الكتّاب الشرقيين، بعضهم يقسّم شبه الجزيرة إلى جزأين: اليمن والحجاز؛ وبعضهم الآخر يُقسمها إلى خمس مقاطعات كبيرة، اليمن والحجاز ونجد وتهامة واليمامة. وقد أدخلت البحرين كذلك؛ كما أن العروض تُسمى كمقاطعة عربية، لكن يبدو أنها واليمامة المقاطعة نفسها. أما حضرموت وبلاد المهرة والشعر وعُمان وأجزاء أخرى صغيرة فقد اعتبرها كذلك بعضهم مقاطعات مستقلة، بينما يمزجها العديد مع المناطق الكبيرة كاليمن والحجاز. وتُنسب غالباً إلى الحجاز نجد وتُهامة واليمامة.

فيما يتعلّق بحدود تلك المقاطعات، برز حرج بالغ بسبب الإفادات المتناقضة التي قدمها العديد من الجغرافيين الشرقيين البارزين كالإدريسي وأبو الفداء والمدائني وابن حوقل وابن الوردي والبكوي وغيرهم. أما السيد رومل، وهو معلّق بارع على «كتاب جزيرة العرب» لأبي الفداء، فغالباً ما يضطر إلى الاعتراف بالصعوبة في تحديد المكان الذي تبدأ فيه مقاطعة والمكان الذي تنتهي فيه أخرى بطريقة دقيقة. أما بالنسبة إلى حدود الحجاز خاصة، يلزم أبو الفداء الصمت؛ لكن يبدو أن رأيه لا يتوافق في الأمور كلها مع إفادات جغرافيين[٤] معروفين آخرين حسبما استطاع السيد رومل تجميعه من شذرات متفرقة عن الأماكن الداخلية ضمن تلك المقاطعة والأراضي المجاورة.

---

(١) دانفيل، جغرافيا قديمة.

(٢) أنظر وراجع المكتبة الشرقية في «Higiaz أو Hegiaz» ـ«اسم مقاطعة في شبه الجزيرة العربية، التي نسميها حجرية» (»Nom d'une Province de l'Azabie& que nous appelon Pierreuse?«)، وريتشاردسون كذلك، في قاموسه العربي والفارسي يشرح كلمة حجاز بـ «مكة والبلاد المجاورة Arabia Petraea وDemetrias Alexandrides»؛ الذي ترجم نسبة من جغرافيا أبو الفداء إلى اليونانية، يستبدل الحجاز دائماً بـ ApeuBia Tetppaia.

(٣) مقاطعات تهامة واليمامة كأنها في قلب البلاد، والحجاز أصبحت أكثر شهرة بسبب مكة و«المدينة»، ويشكل مع الاثنين اللتين ذكرناهما، ما نسميه l'Arabie Deserte ـ المكتبة الشرقية في «عرب».

(٤) راجع: «Christophori Rommel Abulfedea Arabiae Descriptio, commentario perpetuo illustrata» Gottingac, 1802.

«Ambitum et fines hujus provinciae Abulfeda designare supersedet. Al Madaieni haec profert: 'Hegiaz est provincia complectens illum tractum montium qui inde ab Yaman expansus usque ad Sham (Syrian) protenditur. In co tractu sitae sunt Madhinah et Amman'- Cum hoc dissidere Abulfedea mon dubium est. - Ibn al Arabi: 'Quod est inter Tehamah et Nagd, illud est Hhegiaz.' - Fusius Ibn Haukal: 'Quod protenditur a limite Serrain urbis sitae ad mare Kolzum adusque viciniam Madian, et inde reflectendo per limitem tendentem in ortum urbis Hhegr, ad montom Tai Transeundo juxta tergum yamamah ad mare persicum, hoc totum ad Hhegiaz pertinet.' Et alio loco: 'Hhegiaz ea est provincia, quoe Maccah et Madinah et Yamamah cum earumdem territoriis comprehendit'. - Ibn al Vardi Hhegiaz appellat provinciam secus Simum Arabicum et a regione Habyssiniac sitam - Bakui eam inter Yaman et Syriam posuisse satis habet, simul longitudinem ejus mensis itimere emetins.» - (pp. 57-58).

ولعل سائلاً يسأل لماذا لم يقم رحّالتنا الباحث بالاطلاع بدقة على مساحة الحجاز وحدودها في أحد المواطنين اللامعين. والمقطع التالي (الذي كتبه بيركهارت في نهاية هذا الكتاب، والذي شكل ربما جزءاً من الملحق) قد يشكل جواباً عن هذا السؤال. وهو يُظهر أيضاً أن السكّان الحاليين لا يتفقون في تسمية الحجاز. ويقول «هذه التسمية لا يستعملها بدو شبه الجزيرة في الاستعمال المعتاد للكلمة. فهم يدعون الحجاز، حصرياً، البلاد الجبلية وتضمّ عدة أودية خصبة إلى الجنوب من الطائف حتى مناطق سكنى عرب عسير حيث بدأت تُزرع أشجار القهوة بكثافة. هذا هو الاستعمال العام للكلمة بين كل بدو تلك البلاد؛ ويستخدمها أبناء المدن في مكة وجدة كذلك بهذا المفهوم بين بعضهم بعضاً. لكنهم، حين يتحادثون مع الغرباء ويتبنون مفاهيمهم بلياقة، يطلقون اسم الحجاز على البلاد بين الطائف ومكة و«المدينة» ويَنْبُع وجدّة. ويُطلق البدو تسمية «الغور» (El Ghor) أو الأرض الجنوبية على المقاطعة كلها إلى الغرب من الجبال، من مكة صعوداً حتى بدر ويَنْبُع؛ في حين أن الجبال تلك نفسها، إلى الشمال من الطائف تُسمى حجاز الشام، أو الحجاز الشمالية»[1].

بالرجوع إلى الصفحات رقم ٣٩٦ و٣٩٧ (في الكتاب الأصلي)، نجد ملاحظة تتعلق بالاستعمالات المختلفة لتلك التسمية (الحجاز) بين أولئك الذين يسكنون على الساحل والبدو الذين يقطنون داخل البلاد؛ وسيظهر أن الشكوك تحوم حتى حول ما إذا كانت المدينة المقدسة (المدينة) تنتمي إلى نجد وليس إلى الحجاز.

وبمثل هذه التقديرات الغامضة المبهمة، ستبدو أي محاولة لتحديد حدود أي بلد من البلدان بدقة، محاولة عبثية بغير جدوى: غير أن المنطقة وحدودها على البحر الأحمر والتي يدعوها أبناؤها بلا شك «الحجاز» مرسومة على خريطتنا وعلى أي خريطة أخرى صدرت هنا، بتلك التسمية نفسها، بحيث تُكتب أول أحرفها حيث يفترض الناشر أن Arabia Petraea تنتهي حدودها، وأحرفها الأخيرة حيث يفصل الحجاز عن تِهامة[2].

ولأولئك الذين يسعون وراء المعلومات الدقيقة فيما يتعلق بالأماكن غير المعروفة جيداً، فإن ما يزكي هذا الكتاب هو اسم كاتبه والبلد الذي يصفه. يقول السير ويليام جونز: «إن عادات عرب الحجاز استمرت من زمن سليمان وحتى العصر الحالي»[3]. ويقول غيبون: «إن مفاهيمنا عن مكة يجب

(١) قد يؤكد هذا اشتقاق كلمة حجاز (التي ذكرها Golius) من احتجزت، لكن آخرين يأخذونها من الكلمة العربية يحجز لأن الحجاز يقسم نجداً عن تهامة، أو لأنه يربط اليمن بسوريا اللتين تقع بينهما. بما أن أصغر ملاحظة يكتبها بيركهارت يجب اعتبارها ذات أهمية، فإننا سندرج هنا بضعة أسطر تلي مباشرة المقطع المذكور أعلاه من كتابه: «إني أُحصي عدد السكان في المنطقة التي تُسمى عادة الحجاز، وتشمل كل الأراضي التابعة لشريف مكة، مع سكان «المدينة» والمدن الواقعة هناك، وكل القبائل البدوية، بنحو مئتين وخمسين ألف نسمة؛ وهو رقم يمثل الحدَّ الأعلى وليس الأدنى والجزء الأكبر منه هم البدو الذين يسكنون الجبال وخاصة قبائل بني حرب القوية».

(٢) بيركهارت (الأسفار السورية، ص ٥١١) يستشهد بالمؤرخ المصري المقريزي، الذي يقول، في الفصل عن أيلة (العقبة) «من هنا يبدأ الحجاز: في السابق كان موضع الحدود اليونانية».

(٣) مقالة عن العرب، أبحاث آسيوية، المجلد II.

استخلاصها من العرب حيث يُمنع على أي من غير المسلمين الدخول إلى المدينة، ويلزم رحّالتنا الصمت؛ كما أن تلميحات Thevenot القصيرة نستقيها من لسان مرتد إفريقي مشبوه».

غير أن قارىء هذا التمهيد يجب ألاّ يمتع عن قراءة ومتابعة تقارير بيركهارت الأصلية والمهمة عن الأماكن التي زارها والشعائر الغريبة التي شهدها وعن الشعب الذي عاش بينه بشخصية رجل مسلم.

ونحن نقدم في الصفحة التالية بعض الملاحظات القصيرة المكتوبة على أوراق منفصلة ، والتي أرادها الكاتب بلا شك مقدمة لهذا العمل، لأن الرحلات في شبه الجزيرة العربية يجب أن تبدو كما أرادها الكاتب وهذا ما أولاه الناشر عنايته واهتمامه.

وليام أوسلي

لندن، كانون الثاني/ يناير ١٨٢٩

(١) الإمبراطورية الرومانية، الفصل ٥٠، ملاحظة ١٨.

مقدمة الكاتب

غالباً ما استشهدتُ، في صفحات هذا الكتاب، ببعض المؤرّخين العرب الذين أملكُ أعمالهم. ويتملّكني الندم الآن لأن تلك المخطوطات لم تكن بحوزتي في الحجاز. حيث إني ابتعتُ الكتابين الأوّلين من القاهرة، بعد عودتي من شبه الجزيرة العربية.

تلك الأعمال هي:

١ ـ تاريخ مكة، بعنوان «أخبار مكّة»، وهو كتاب ضخم كتبه أبو الوليد الأزرقي الذي اشتهر سنة ٢٢٣ للهجرة، وقد سطّر حوليّات مدينته التي نشأ فيها حتى ذلك التاريخ. هذا الكتاب من الأهمية بمكان بسبب ملاحظاته الطوبوغرافية واطلاع كاتبه العميق على وضع شبه الجزيرة قبل الإسلام أو (الدين المحمدي)[١]. وتبدو المخطوطة، من الخط الذي كُتبت فيه. أن عمرها ست مئة أو ربما سبع مئة سنة.

٢ ـ تاريخ مكة، بعنوان «العقد الثمين» وهو في ثلاثة أجزاء. بقلم تقي الدين الفاسي، الذي كان هو نفسه قاضي مكة. وتمتد تغطية الكتاب إلى سنة ٨٢٩ للهجرة، في الجزء الأول؛ أما الجزءان الآخران فيحتويان على سِيَر ذاتية لأبناء مكة اللامعين.

٣ ـ تاريخ مسجد مكة، الذي امتزج فيه تاريخ المدينة، وهو بعنوان: «الإعلام في أعلام بلد الله الحرام» في جزء واحد ضخم، بقلم قطب الدين المكي، الذي شغل مناصِبَ عالية في مكة، ويغطي فترة تمتد إلى سنة ٩٩٠ للهجرة.

٤ ـ تاريخ الحجاز، وخاصة تاريخ مكة، بقلم عبد الملك العصامي. أملكُ من هذا العمل الجزء الثاني فقط، وهو مخطوطة كبيرة تحتوي على تقارير تاريخية من أيام بني أمية، إلى سنة ١٠٩٧ للهجرة. ولم أتمكن من التأكد من عنوان هذا الكتاب الذي يزخر بالمعلومات الغرية والثمينة. والكاتب العصامي كان من أبناء مكة.

(١) «إن الدين عند الله الإسلام» وليس «الدين المحمدي».

٥ ـ تاريخ المعبد و«المدينة»، بعنوان: «وفاء الوفاء في دار المصطفى»، بقلم نور الدين علي بن أحمد السمهودي[١]، وهو من جزء واحد، ويغطي الفترة التي تمتد حتى عام ٩١١ للهجرة.

(١) يشير بيركهارت إلى هذا الكتاب الأصلي في الصفحة ٣٢٣ (من الكتاب)، بالأحرف (V.S.) أو (أ. س.). انظر «سمهودي».

رحلات
في
منطقة الحجاز العربية

مدينة جدة

لقد أحاط بوصولي إلى الحجاز بعض الظروف غير السارة، فعند دخولي إلى مدينة جدة في صباح الخامس عشر من شهر تموز/ يوليو، سنة ١٨١٤، قصدتُ منزل رجل أحمل له معي خطاب ائتمان نقدي، سلّمته عند مغادرتي القاهرة في شهر كانون الثاني/ يناير، سنة ١٨١٣، ولم أكن حينها قد عزمتُ أمري تماماً على تمديد فترة أسفاري في شبه الجزيرة العربية. وكان استقبال الرجل لي فاتراً جداً إذ إن الخطاب كان من القدم بمكان حتى يحظى بالاهتمام. ومما لا شك فيه أن مظهري المهمَل الرثّ كان ليحمل أي شخص على الحذر والاحتراس من التورط مع مُراسليه، وذلك بإعطائي مبلغاً كبيراً من المال على حسابهم. فضلاً عن ذلك، فإن السندات وخطابات الائتمان النقدي غالباً ما تكون موضع استخفاف في التعامل المتبادل بين التجار الشرقيين. وهكذا، فقد جوبهت برفض تام، غير أنه رفض مصحوب بعرض وهو إقامتي في منزل الرجل ذاك. وقد قبلت العرض لليومين الأولين ظاناً بأني قد أنجح، عبر معرفة شخصية أكثر حميمية، في إقناعه بأني لستُ أحد المغامرين أو الدجّالين، إلاّ أني انتقلتُ، بعد أن ألفيتُه صلباً وعنيداً[*]، إلى واحد من أشهر الرجال في القاهرة وهو عربي الجيلاني، أغنى التجار في جدّة. إلاّ أني كنت أعلم أنه لن يُجديني نفعاً، فلم أقدم له الخطاب ذلك[1]. لذلك، عقدتُ النيّة أخيراً على مقابلة الباشا محمد علي شخصياً. كان الباشا قد وصل إلى الحجاز مع نهاية

(*) سقطت صفحتان من المترجم.

(١) أصبحتُ فيما بعد على معرفة وطيدة بجيلاني في مكة؛ وما رأيته منه أقنعني بأني لم أكن مخطئاً في التقدير الذي شهدت له به لاستعداده الدائم لمساعدة الغرباء.

فصل الربيع من سنة ١٨١٣، وهو يقيم الآن في مدينة الطائف حيث أسّس مركز الجيش الرئيسي الذي ينوي به مهاجمة معاقل الوهابيين وخصومهم. وكنت قد رأيت الباشا مرات عديدة، في القاهرة قبل رحيلي إلى شمال مصر وأطلعتُه بشكل عام على شدة شغفي بالسفر (كما أسماه هو نفسه بعد ذلك مازحاً في الطائف). تجدر بي الملاحظة هنا أن التجار في شمال مصر هم فقراء بشكل عام ولا ينفّذ أي منهم أحكام سندٍ أو صكّ بالدفع مباشرة، لذلك، فقد رأيت من الضروري، خلال فترة إقامتي هنا، ولكي أحصل على مؤونة من المال، أن أطلب من مراسلي في القاهرة أن يدفع المبلغ الذي أردتُه من خزينة الباشا، لأحصل على أمر منه لابنه إبراهيم باشا، حاكم شمال مصر آنذاك، بأن يدفع لي المبلغ. وبما أني كنتُ قد حصلتُ على بعض المال من الباشا، خطر لي، لكي لا أُتّهم بالوقاحة، أن أسعى لتجديد مطلبي في الحجاز. فضلاً عن ذلك، فقد علمتُ أنه عبّر رسمياً عن إعجابه بشخصي وبمساعيّ. لذلك، عندما هدأت حدة انفعالي، كتبت لطبيبه، وهو أرمني يُدعى بوساري (Bosari)، كنتُ أيضاً قد عرفته في القاهرة حيث سمعتُ ما سمعتُه عن سيرته الحسنة وكان حينها مع سيّده في مدينة الطائف.

وقد رجوتُه في كتابي أن يعرض للباشا وضعي السيىء ويُعلمه بأن خطاب الائتمان النقدي الذي أحمله لم يتمّ الأخذ به في جدة وأن يسأله إذا ما كان يقبل سنداً على مراسلي في القاهرة ويأمر أمين خزينته في جدة بدفع المبلغ.

على الرغم من أن مدينة الطائف تبعد عن جدة مسافة خمسة أيام فقط، فإن طبيعة البلاد جعلت المسافرين نادراً ما يغامرون لعبور الجبال بين مكة والطائف، وتغادر القوافل التي تنقل رسائل الناس في البلاد على فترات متباعدة من ثمانية أو عشرة أيام فقط، لذلك لم أكن أتوقّع جواباً عن كتابي في أقل من عشرين يوماً.

خلال هذه الفترة، أمضيت أوقات فراغي في جدة في تدوين يوميات رحلاتي في «بلاد النوبة». إلاّ أن الحر في ذلك الموسم كان من الشدة بمكان، خاصة في حالتي الصحية الضعيفة، بحيث إنني لم أجد الراحة والسكينة إلاّ في الظلال الباردة في مدخل الخان حيث أقمتُ، باستثناء بعض ساعات الصباح الأولى، وكنتُ أمضي القسم الأكبر من النهار ممدداً على مقعد حجري. وكان مُراسل بوساري (Bosari) في جدة، الذي بعثتُ من خلاله كتابي إلى مدينة الطائف، قد ذكر اسمي أمام يحيى أفندي وهو طبيب طوسون باشا، نجل محمد علي وحاكم جدة الحالي الذي كان في شمال مصر لدى وجودي هناك، غير أني لم أحظَ برؤيته. وكان الطبيب هذا قد سمع في أثناء وجوده في القاهرة اسمي يُذكر كمسافر أو رحّالة، بعدما فهم الآن أني آتٍ من البلاد السوداء (إفريقية) فانتابه الفضول لرؤيتي وأبدى رغبته لصديق بوساري

(Bosari) في أن يقدمني له. وقد استقبلني بلياقة ودعاني بشكل متكرّر إلى منزله، وخلال شروحات إضافية قدمتُها له باتَ على اطّلاع ومعرفة شخصية بمطالبي وبالخطوات التي قمتُ بها لتحقيقها. وقد صادف في ذلك الوقت أنه يحضر للقيام برحلة إلى «المدينة» مع طوسون باشا وكان يُرجع حقائبه غير اللازمة كلها إلى القاهرة، وكان يتوق إلى أن يرسل معها إلى عائلته مدّخراته في السنة الفائتة، البالغة ثلاثة آلاف درهم، وكان من اللُطف أنه عرض عليَّ المال كسند مسحوب على القاهرة، يُدفع وجهاً لوجه، وهي ميزة يعرف هو تماماً بأن تجار جدة لا يتعهّدون بها لمن يأخذ سنداتهم. ولا يُعتبر عرض كهذا بأن ينقل أي التزامات عبر مدن أوروبا التجارية وإنما في الشرق وضمن الظروف التي وُضعت فيها، وهذا شيء مميّز.

وأضاف يحيى أفندي أن أحد أصدقائه قد أثنى على شخصيتي حين كان في القاهرة ولذلك، فإنه لا يستطيع أن ينتابه الشك ولو قليلاً حول قدرتي على إيفاء الديون جميعها وكوني جديراً بالاحترام. وقد ثبت رأيه عند قراءته لخطاب الائتمان النقدي الذي أحضرته معي. وبما أن نتيجة الطلب الذي أرسلتُه إلى الباشا في الطائف لم تكن أكيدة فقد قبلتُ بسرور وامتنان اقتراح يحيى، وتسلّمتُ المال فوراً وسُحبت (الفواتير) وبعد أيام قليلة، رحل صديقي الكريم إلى «المدينة» بصحبة طوسون باشا حيث كان لي متعة لقائه مرة ثانية في بداية السنة اللاحقة.

لقد أصبح بحوزتي الآن مبلغ من المال يكفي لإزالة كل خوف من الفقر وما يجرّه من معاناة قبل وصول مؤونة جديدة من مصر، مهما تكن نتيجة الطلب الذي أرسلته إلى الباشا. لكن، ما إن رحل يحيى أفندي حتى تسلمتُ جواباً إيجابياً نوعاً ما على الرسالة التي بعثتُها إلى الطائف. لقد كان بوساري (Bosari) على ما يبدو غير عازم إلى حد ما على استعجال طلبي إلى الباشا، لعل ذلك يعود إلى خوفه من أن يُصبح هو نفسه يرزح تحت وطأة المعاناة نفسها.

من ناحية ثانية، فقد سمع الباشا بوجودي في جدة عبر شخص آخر من حاشيته كنتُ قد رأيته هناك وقد وصل إلى الطائف. وحين سمع الباشا بأني أتنقل بثياب بالية رثّة، بعث فوراً برسول مع جملين إلى جابي الضرائب في جدة، سيد علي أوجقلي الذي كان يدير شخصياً الأعمال كلها في المدينة، يأمره بأن يزوّدني بثياب وحقيبة تحتوي على خمس مائة درهم مالاً للسفر، كل هذا مصحوباً بطلب يدعوني فيه للذهاب فوراً إلى الطائف مع الرسول نفسه الذي أحضر الرسالة. وقد فُرضَ على سيد علي أوجقلي، في ملحق للرسالة، بأمر الرسول أن يأخذني إلى الطائف من الطريق العلوية التي تترك مكة إلى الجنوب، حيث إن الطريق السفلية المعتادة تمر في وسط المدينة تلك.

إن دعوة باشا تركي تُعتبر كأمر مُلطّف؛ لذلك، ومهما تكن معارضتي أو رغبتي عن الذهاب إلى الطائف في ذلك الوقت، فإني لم أكن، في ظل الظروف الراهنة، قادراً على تجنب الإذعان لرغبات الباشا. ورغم كرهي السري لتلقي هدية منه بدل القرض، إلاّ أني لا أستطيع الممانعة في قبول الثياب والمال من غير الإساءة إلى كرامة وعزّة قائد وإثارة امتعاضه وسخطه، الآن وقد باتت استمالة رحمته وفضائله هدفي الرئيسي[1]. ولقد أدركتُ أيضاً معنى حاشية الرسالة مع أن سيد علي لم يتنبّه له. لكني، في هذه النقطة أقنعتُ نفسي بأني، ندّ للباشا وشعبه.

بما أن الدعوة كانت مُلحّة، غادرتُ جدة عند المساء في اليوم نفسه الذي وصل فيه الرسول، بعد تناول طعام العشاء مع سيد علي بصحبة عدد كبير من الحجّاج من مختلف أقطار العالم حيث إن صيام رمضان كان قد بدأ آنذاك، وخلال هذا الشهر، يُبدي الجميع جُلّ ما في استطاعتهم من حسن الضيافة والبشاشة خاصة عند العشاء بعد غياب الشمس. ولما كنت لا أثق كثيراً بنوايا الباشا فقد رأيت من الضروري أن تكون محفظتي مليئة بالمال عند ذهابي إلى الطائف. لذلك، فقد حوّلتُ الثلاثة آلاف درهم كلها التي حصلتُ عليها من يحيى أفندي إلى ذهب ووضعتها في حزامي. فالذي يملك المال ليس لديه ما يخشاه بين العثمانيين سوى خسارة ذلك المال، إلاّ أني لربما أحتاج إليه إما لدفع رشوة وإما لتسهيل رحيلي من الطائف. لكني كنتُ مع ذلك مخطئاً لحسن الحظ في توقّعاتي، من الناحيتين.

يجدر بي إضافة بعض الملاحظات عن مدينة جدة وسكّانها. فقد شُيّدت المدينة على أرض مرتفعة قليلاً يصل البحر إلى الجزء الأدنى منها. وتمتد على طول الشاطىء بما يناهز الألف والخمسمائة خطوة، بينما لا يتعدى عرضها نصف تلك المساحة، في أعرض الأماكن. وقد أحاطها من جهة اليابسة جدار لا بأس بحالته ولكنه غير متين، ولم يمضِ على بنائه سوى بضع سنوات وقد بناه السكان أنفسهم عبر اتحاد جهودهم، لاعتقادهم بأنهم لا يملكون حماية من الوهابيين بوجود الحائط القديم وكان قد دُمّر تقريباً بعد أن شيّده قانصوه الغوري (Kansoue El

(١) بعض الأشخاص ربما يعتبرون الحصول على الهدايا من الباشوات، شرفاً لكني أنظر إلى ذلك بشكل مختلف. فأنا أعلم أن الدافع الحقيقي لتركي في تقديم الهدايا، هو إما الحصول على ضعف القيمة في المقابل، (وهو ما لا ينطبق على حالتي)، أو لإشباع أنفته وكبريائه الخاص عبر إظهاره لحاشيته بأنه يتنازل ليكون سخياً تجاه شخص يعتبره أدنى منه بكثير في المنزلة أو القيمة. لقد شهدتُ أحياناً سخريات الواهب وشعبه عند تقديم مثل هذه الهدايا؛ ويعبرون أحياناً عن مشاعرهم بالقول، «انظروا، لقد رمى بعظمة إلى ذلك الكلب!» ولعل القليل من الأوروبيين يوافقونني في هذا الصدد لكن معرفتي تسمح لي بتكوين هذا الرأي؛ والنصيحة الوحيدة التي أستطيع تقديمها للمسافرين الذين لا يريدون الحطّ من قدرهم في نظر النبلاء الأتراك، هي أن يكونوا دائماً جاهزين، في ظروف مماثلة لإعادة المعروف المزعوم بضعفي قيمته. أما فيما يتعلق بي، فلم أحظ إلاّ نادراً بفرص أو مناسبات لأقدم فيها الهدايا خلال أسفاري؛ وهذه كانت المرة الوحيدة التي أُجبرتُ على قبولها أبداً.

(Ghoury)، سلطان مصر، سنة ٩١٧ للهجرة(١). أما بنية الحائط الحالية فإنها تُعتبر حاجزاً كافياً للعرب الذين لا يمتلكون أي مدفعية. وقد تمَّ تدعيم الحائط عند كل أربعين أو خمسين خطوة بوساطة أبراج مراقبة مجهّزة ببعض البندقيات الصدئة. وقد حُفر خندق ضيّق على طول امتداده لدعم وزيادة وسائل الدفاع. وهكذا، تتمتّع جدة بشهرة في شبه الجزيرة العربية بأنها قلعة حصينة منيعة. ويقف الحائط القديم على الشاطىء بمواجهة المدينة لكنه في حالة متداعية. ويقع قصر الحاكم عند الطرف الشمالي، قرب النقطة التي يتلاقى فيها الحائط الجديد مع البحر، وعند الطرف الجنوبي قلعة صغيرة مجهزة بثماني أو عشر بندقيات. فضلاً عن ذلك، هناك بطارية مدفعية لحراسة مدخل المدينة وحمايته من جهة البحر وللسيطرة على الميناء بأسره، وهنا أيضاً نُصب مدفع قديم ضخم عليه «كُلَّة» تزن خمسمائة باوند، وهي من الشهرة بمكان في منطقة البحر الأحمر كلها بحيث إن شهرتها هذه فقط تُعدُّ حماية لمدينة جدة.

يتم الوصول بحراً إلى المدينة عبر رصيفين، عليهما تُنزل قوارب صغيرة حمولة السفن الكبيرة التي يُحتم عليها أن ترسو في موضع قرب الشاطىء يبعد عنه نحو ميلين. ولا تدنو قريباً من الشاطىء إلاّ المراكب المسماة «سعي» (وهي المراكب الأصغر حجماً التي تُبحر في البحر الأحمر). وتُقفل أرصفة الميناء كل مساء عند الغروب، فتُمنع بالتالي أي اتصالات ليلية بين المدينة والسفن بمجملها.

إن لمدينة جدة، من جهة البر، بوّابتين وهما باب مكة في الجانب الشرقي وباب «المدينة» في الجانب الشمالي. وقد أُغلقت مؤخراً بوابة صغيرة في الحائط الجنوبي. كما أن المنطقة المحاطة بالحائط الجديد (ويبلغ محيطها نحو ثلاثة آلاف خطوة) وبالبحر لا تكثر فيها الأبنية. فهناك أرض خالية فسيحة تمتد على طول الحائط من الداخل، وهناك كذلك مساحة كبيرة من الأرض غير المستغلّة قرب باب «المدينة»، وفي الطرف الجنوبي. فبعد عبور تلك المساحة قدوماً من البوابة، تدخل ضواحي المدينة وهي لا تشمل سوى أكواخ مصنوعة من القصب والقش (نبات السمّار) فضلاً عن الأجمة، وتحيط الضواحي بالمدينة الداخلية المؤلفة من أبنية حجرية. ويسكن البدو غالباً في تلك الأكواخ أو الفلاحون الفقراء والعمال الذين يعيشون هنا على الطريقة البدوية. كما نجد أحياء مماثلة لهذا النمط من الناس في كل مدينة في شبه الجزيرة العربية.

لقد قُسّمت مدينة جدة من الداخل إلى مناطق مختلفة، فأهل سواكن الذين يرتادون هذا المكان يقطنون قرب باب «المدينة»، وتُدعى أحياؤهم حارة السواكني وهم يعيشون هنا في بضعة منازل فقيرة لكنهم غالباً ما يسكنون في أكواخ كثيراً ما تلوذ بها الطبقة الدنيا من الناس،

---

(١) انظر قطب الدين، تاريخ مكة.

كما تقطن فتيات الهوى وأولئك اللاتي يبعن الشراب المسكِر ويدعى «بوسة». أما أحياء الناس من ذوي الشأن فتقع قربَ البحر حيث يمتد شارع طويل بموازاة الشاطىء وقد غصَّ بالدكاكين واتّسع لعدد غير قليل من الخانات التي يرتادها التجار باستمرار بصورة خاصة. ومدينة جدة مُتقنة البناء، بل إنها تفوق في ذلك أي مدينة تركية بالحجم نفسه قد زرتها حتى الآن. كما أن طرقاتها فسيحة ومُهوّاة مع أنها غير معبّدة، والمنازل عالية وقد بُنيت بأكملها من الحجر الذي أحضر من شاطىء البحر وهو من حجر المرجان والأحجار البحرية الأخرى. ولكل منزل تقريباً طابقان مع نوافذ صغيرة عديدة ومصاريع خشبية. وبعضها لها نوافذ مقوّسة تُبدي عرضاً رائعاً لأعمال النجارين. وهناك بشكل عام، ردهة فسيحة عن المدخل لاستقبال الغرباء وهي، خلال فترة النهار الحارة، أبرد من أي جزء آخر من المنزل ذلك أنهم يحرصون على إبقاء أرضها مبللة تقريباً باستمرار. كما أن توزيع الغرف في تلك المنازل مماثل تقريباً لتوزيعها في منازل مصر وسوريا، إنما مع فارق واحد وهو أن جدة تفتقر إلى ذلك العدد من الشقق الواسعة الفخمة كما في تلك البلاد، حيث إن قلة من المنازل فقط، على الأقل منازل سكان البلاد، لها طابقان، بينما تتميز الغرف في الطابق الأرضي بارتفاعها. ولذلك فإن البقعة الوحيدة الباردة في منازل عديدة في الحجاز هي الردهة أو ردهة الدخول. وهنا، عند الظهيرة، يمكن رؤية سيّد المنزل، مع كل مرافقيه وخدمه وعبيده الذكور، يتمتع بأخذ قيلولته[1].

وبما أن صناعة البناء باهظة الكلفة في هذه البلاد، فقليلة هي المنازل التي اهتمت بمظهرها الخارجي إذا ما استثنينا الشبك الخشبي للنوافذ المقوّسة التي غالباً ما طُليت بأشد الألوان بهرجة في الخارج كما من الداخل. وفي منازل عدة، تشغل الزوجة الشرعية قسماً منها. وتقطن الجاريات الحبشيات في شقق منفصلة خاصة. وهكذا تُدرسُ عملية توفير وسائل الراحة الملائمة في المبنى أكثر من الحجم أو المظهر الخارجي الجمالي، ومع ذلك، فإن كثيراً من المنازل العادية في مصر لها غرف فسيحة جميلة.

لا تُراعى في جدة وحدة الشكل الهندسي، فبعض المنازل بُنيت بأحجار صغيرة وأخرى بأحجار مربعة كبيرة، ويظهر الوجه الأملس من الخارج ويُملأ من الداخل بالطين. وأحياناً يكون الحائط مبنياً بالكامل من الأحجار وأحياناً أخرى يكون في الحائط طبقة رقيقة من الألواح الخشبية الموضوعة على مسافة ثلاث أقدام بين الطبقة والأخرى. ويعتقد العرب أن هذه الألواح

---

(١) على الرغم من أن النسمات الباردة تأتي فقط من الشمال، فإن العرب لا يبدو أنهم يستفيدون منها في منازلهم كالمصريين الذين صمّموا غرفهم الرئيسية عامة بحيث تكون مكشوفة باتجاه الشمال. كما أن المراوح الكبيرة المبنية على التراس في المنازل في مصر والتي تنشر تياراً هوائياً عبر كل الشقق السفلية، هي معروفة في الحجاز.

تزيد من قوة ومتانة الحائط. وعندما يكون الحائط مكسواً بالجصّ، يُترك الخشب بلونه الطبيعي فيعطي المبنى مظهراً بهيجاً كما لو أن المبنى قد زُيّن بشرائط عديدة، غير أن لون الحائط الأبيض الباهر في وضح النهار يؤذي العين بشدة. ولمعظم البوابات رأس حادّ ولبعضها رأس مستدير، وهذه الأخيرة نراها ولو قليلاً على بوابات المنازل الخاصة في كل جزء من مصر. ولا نرى أبنية قديمة التاريخ في جدة حيث إن طبيعة الحجر المرجاني الخاصة تجعله يتلف إذا ما تعرّض للمطر والجو الرطب المسيطر في هذه المنطقة[1]. وإلى جانب عدد كبير من المساجد الصغيرة، نجد مسجدين كبيرين وقد شيّد أحدهما الشريف سرور (Serour)، سلف الحاكم الأخير الشريف غالب (Ghaleb).

أما مسكن الحاكم حيث يقطن الشريف نفسه أحياناً كثيرة، فهو مبنى متواضع كذلك الذي يسكن فيه جابي الضرائب. وفي المدينة بعض الخانات العامة المتقنة البناء وفيها كافة وسائل الراحة، يسكن فيها التجار الأجانب خلال إقامتهم القصيرة هنا. وفي هذه الخانات ساحات عريضة ومفتوحة مع ممرات مقنطرة تؤمن الظل البارد في القسم الأكبر من النهار. وباستثناء فترة الرياح الموسمية، حين تكون جدة مكتظة بالناس إلى حد بعيد، يسهل تأمين المساكن الخاصة في الأحياء النائية عن المدينة. وتعود أفضل المنازل الخاصة في جدة إلى المؤسسة التجارية الكبيرة التي يملكها جيلاني الذي يشغل مع عائلته مساحة صغيرة خلف الشارع الرئيسي. وتتألف هذه المساحة من ثلاثة أبنية كبيرة هي الأكثر ملاءمة والأغلى كلفة بين المنازل الخاصة في الحجاز كلها. ولكل منزل متوسط الحجم خزان ماء خاص. لكن، وبما أن المطر لا يهطل بشكل منتظم وكافٍ أو غزير ليملأ تلك الخزانات على سطوح المنازل (كما في سوريا)، تُزوَّد تلك الخزانات بالماء من الأحواض التي تتكون خارج المدينة في مواسم المطر. وتعتبر مياه تلك الخزانات غير ملائمة للاستهلاك في جدة. وتُجرُّ الكمية الكبرى من مياه الشرب من بعض الآبار التي تبعد ميلاً ونصف الميل في الجهة الجنوبية. في الواقع، تتوافر المياه في كل مكان على عمق خمس عشرة قدماً لكنها عامة رديئة الطعم وتُشرب بصعوبة في بعض الأمكنة. وليس هناك سوى بئرين للمياه التي نستطيع تسميتَها عذبة. لكن حتى تلك المياه تُعتبر ثقيلة[2]، وإذا ما وُضِعَتْ لمدة أربع وعشرين ساعة في إناءٍ فإنها تصبح ملأى بالحشرات. وبما أن المياه الصالحة في تينك

---

(١) بشكل عام، يمكن أن يقال عن جدة أنها مدينة حديثة؛ حيث إن أهميتها كسوق للسلع الهندية يمكن إرجاعها فقط إلى القرن الخامس عشر، على الرغم من أنها قد عُرفت في قديم الزمان من تاريخ شبه الجزيرة بأنها مرفأ مكة.

(٢) ثقيلة وخفيفة، صفتان تُطلقان على المياه، وهما سائدتان في معظم لغات الشرق حيث إن أهل البلاد إلى جانب الغرباء، بسبب الكمية الكبيرة التي يستهلكونها، يصبحون أكثر حساسية وشفافية في تذوقهم فيما يتعلق بها أكثر من الشعوب التي تعيش في مناخنا الشمالي.

البئرين قليلة ونادرة، يصعب تأمينها دائماً بغير مساعدة أصدقاء أقوياء. في الواقع، ليس هناك أكثرِ من مائتين إلى ثلاثمائة شخص هم القادرون على الحصول عليها، بينما يُضطر باقي السكّان إلى الاكتفاء بالمياه التي تؤمّنها باقي الآبار. ويمكن أن نعزي الضعف الصحي للسكان بشكل أساسي إلى ذلك السبب. وبما أن جدة تحمل اسم قلعة تركية، يمكن أن نفترض أن تلك الآبار كانت محمية بقلعة، إلاّ أن الأتراك قد أهملوا اتخاذ هذا التدبير الوقائي. وفي شهر كانون الأول/ دبسمبر، سنة ١٨١٤، عندما فهم الشعب أن الوهابيين كانوا يتقدمون من ناحية مدينة القنقذة، قام حاكم جدة بعجلة بملء بعض الصهاريج التي تخص الحكومة ومنازلها بالمياه من الآبار وقام بالحفاظ عليها لعدة أيام بما يؤمن الاستهلاك الضروري لحياة السكان كلهم. كما أن عدة آبار هي ملك خاص يؤمّن لمالكيه مردوداً هاماً.

مدينة جدة خالية من الحدائق أو الخضرة من أي نوع باستثناء بضع نخلات بمحاذاة أحد المساجد. وحتى خارج المدينة، فالبلاد بأكملها صحراء جرداء مغطاة على الشاطىء بتربة مالحة وبالرمال في مناطق أكثر ارتفاعاً حيث نجد بعض الشجيرات وبعض الأقاقيا. يمكن زيادة عدد الآبار حول المدينة بشكل كبير وكذلك مياه الريّ، إلاّ أن سكان جدة يعتبرون أن إقامتهم ليست إلاّ مؤقتة، وكسكان منطقة الحجاز كلهم فهم يخصصون اهتمامهم بالكامل في التجارة وكسب الثروات وهم بالتالي أقل اهتماماً بمباهج ومهن الريف من أي عرق آخر من المسلمين الذين عرفتهم على الإطلاق.

هناك العديد من الأكواخ خلف باب مكة وقريباً من المدينة، وتمر في وسطها طريق مكة. ويسكن تلك الأكواخ سائقو الجمال الذين ينتقلون بين تلك المدينة وجدة، والبدو الفقراء الذين يكسبون رزقهم من قطع الأخشاب من مسافة نائية في الجبال، والحجاج الزنوج الذين يعتمدون الوسائل نفسها ليُعيلوا أنفسهم خلال إقامتهم في جدة. وهنا تُقام سوق جُملة للماشية والخشب والفحم والفاكهة والخضراوات. كما تُباع القهوة في عدد من السقائف في هذا المكان، تتردد إليها لوقت قصير في ساعة مبكرة الطبقة الدنيا من التجار الذين يلجأون إلى هذا المكان للاطلاع على المعلومات من مكة حين يصل ساعي البريد كل صباح بعد شروق الشمس. وتقع المقبرة الرئيسية على بُعد ميل من تلك الأكواخ من الناحية الشرقية من المدينة، وهي تحتوي على قبور العديد من المشايخ، غير أن هناك بعض المقابر الصغيرة داخل سور المدينة. وقد عُرضَ ضريح حواء، أم البشر، على نحو ميلين شمال المدينة؛ وقد بلغني أنه، عبارة عن بناء حجري خشن يبلغ طوله أربع أقدام وارتفاعه ثلاث أقدام وكذلك عرضه، فهو يُشبه بالتالي ضريح نوح الذي شوهد في وادي البقاع في سوريا.

خلال فترة هيمنة الوهابيين، كانت مدينة جدة في حالة تدهور، وقد تحول العديد من الأبنية إلى أنقاض، ولم يقم أحد ببناء منزل جديد، وكانت التجارة تمر في فترة ركود وكساد نتيجة لوقف الحج من تركيا ولغياب النية لدى التجار في إحضار بضائعهم إلى هنا للبيع. لكن، ومنذ استرجاع المدينتين المقدّستين وإعادة فتح باب الحج، فضلاً عن وصول الجنود اليومي وعدد من التجار والتابعين للجيش، فقد استعادت المدينة حالتها السابقة وهي الآن في ازدهار يضاهي ازدهارها السابق. ويقدر عدد سكانها عموماً بنحو اثني عشر إلى خمسة عشر ألفاً، لكن تدفّق الغرباء يزيد بشدة في الأشهر التي تسبق الحج وفي أشهر الصيف التي تتوافق مع الرياح الموسمية، مما يزيد العدد المذكور بمعدل النصف تقريباً.

إن سكان جدّة هم في الأغلبية الساحقة تقريباً من الغرباء، كسكان مكة و«المدينة»، إذ إن المتحدرين من العرب القدماء الذين سكنوا المدينة في وقت من الأوقات قد هلكوا على أيدي الحكام، أو هاجروا إلى بلدان أخرى. فسكان البلاد الأصليون هم فقط بعض عائلات الأشراف وهم متعلّمون وملتحقون بالمساجد أو المحاكم. وكل من تبقى من سكان جدة هم من الأجانب أو من نسلهم. وإن من أتى منهم من «حضرموت» و«اليمن» هم الأكثر عدداً، فهناك جاليات من كل مدينة ومقاطعة في تلك البلدان قد استقرت في جدة، وهم يحافظون على إبقاء تجارة ناشطة مع بلادهم الأصلية. كما أن هناك ما يزيد عل مائة عائلة هندية (خاصة من سورات وبعضهم من بومباي) قد استقروا هنا، ذلك فضلاً عن بعض الملاويين، وهم سكان شبه جزيرة الملايو، كذلك سكان مسقط (Maskat). والذين استقروا هنا من مصر وسوريا والبرابرة وتركيا الأوروبية وبلاد الأناضول، يمكن تعرّفهم من خلال ملامح سلالاتهم التي امتزجت كلها في جماعة عامة واحدة، وتحاكي في عيشها وأزيائها الطريقة العربية ذاتها. ويبقى الهنود وحدهم عرقاً متميّزاً في العادات والزيّ والوظائف. وليس هناك مسيحيون يقيمون في جدة، باستثناء بعض اليونانيين من جزر الأرخبيل اليوناني الذين يأتون ببضائع إلى هذا السوق من مصر. وفي زمن الأشراف كانوا يتعرضون أكثر للمضايقات والتحرش ويُكرَهون على ارتداء ثوب خاص ويُمنعون من الاقتراب من بوابة مكة. لكن، وبعد أن أصبح الأتراك أسياد الحجاز وحكّامه، ألغوا هذه القيود، ويتمتع المسيحي الآن بحرية كاملة هنا، وإذا ما تُوفّي فهو لا يُدفن على الشاطىء (لأن الأرض هناك مقدسة وطاهرة وتخص المدينة المقدسة)، لكنه يُدفن في واحدة من الجزر الصغيرة في خليج جدة.

وكان اليهود في السابق هم سماسرة هذه المدينة إلاّ أنهم أُخرجوا منها منذ ثلاثين أو أربعين عاماً على يد «سرور» (serour) سلف «غالب» (Ghaleb) إذ إن بعضهم تسبّب بالإزعاج نتيجة

سلوكهم غير السوي. وقد انكفؤوا كلهم إلى اليمن أو إلى صنعاء. ويزور بعض البانيانيين الهنود جدة في سفن هندية لكنهم يعودون معها، ولم يستقر أحد منهم هنا.

إن مزيج الأعراق في جدة هو نتيجة الحج الذي يزور خلاله التجار الأثرياء منطقة الحجاز ومعهم كميات كبيرة من البضائع. ومنهم من لا يتمكن من تصفية حساباته على الفور فينتظر حتى السنة التالية، وخلال هذه الفترة، يتعايش هؤلاء التجار، حسب تقاليد البلاد، مع بعض الجاريات الحبشيات، ثم لا يلبثون أن يتزوجوا منهن. وبعد أن يجدوا أنفسهم في النهاية مع عائلات، يستحثهم ذلك على الاستقرار في البلاد. وهكذا، فمع كل موسم حج، تُضاف أعداد جديدة إلى السكان، ليس في جدة فحسب بل في مكة كذلك، وهو بالفعل أمر ضروري، حيث إن نسبة الوفيات في المدينتين تتعدى نسبة الولادات بأشواط. يتعاطى سكان جدة كلهم تقريباً التجارة ولا يسعَوْن وراء الصناعات أو الحِرَف بل وراء كل ما يُعتبر ضرورة مباشرة. ويعمل كلهم إما في صناعة البحر أو الاتجار البحري، أو يزاولون التجارة مع شبه الجزيرة العربية. ولا تستمد جدة ثروتها من كونها مرفأ مكة فحسب بل يمكن اعتبارها مرفأ مصر والهند وشبه الجزيرة العربية أيضاً، فصادرات تلك البلاد كلها والمتوجهة إلى مصر، تمر أولاً عبر أيدي تجار جدة. لذلك، فإنها تُعتبر ربما أغنى من أي مدينة تضاهيها حجماً من المدن الخاضعة لسيادة وحكم الأتراك. ولذلك، فإن اسمها العربي، الذي يعني «ثريّا» قد جاء مناسباً لها تماماً.

من المعروف أن أكبر وأعظم تاجرين في المنطقة هما «جيلاني» و«سقّاط»، والاثنان متحدّران من أصل مغربي[1]، وقد كان أجدادهما أول من استقر في المنطقة، وهما يمتلكان من مئة وخمسين إلى مائتي ألف جنيه استرليني. وهناك العديد من الهنود الذين اكتسبوا رؤوس أموال شبيهة تقريباً، وهناك ما يفوق الاثني عشر منزلاً ممن يمتلك أصحابها من أربعين إلى خمسين ألف جنيه استرليني وتُمارس هنا تجارة الجملة بسهولة وربح أكبر بكثير وبأقل خداع وغش من أي مكان آخر رأيته في الشرق. ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى أن الصفقات كلها تقريباً تتم بالدفع الفوري ولا يتم التعامل بالدين أبداً أو نادراً جداً. ولا يجدر الاستنتاج من ذلك بأننا نلمح إلى أي شيء إيجابي فيما يتعلق بشخصية التجار أو طباعهم، فهم مشهورون بذمتهم الفاسدة بقدر ما هم معروفون بثرواتهم. غير أن طبيعة المهنة والعُرف المترسّخ يجعلان من العمل هنا أقل إزعاجاً وصعوبة ومخادعة من أي بلد آخر في الشرق.

يمكن أن نقسّم التجارة في جدة إلى فرعين أساسيّين: تجارة القهوة والتجارة الهندية، وهما

(١) مغربي، «سكان المغرب»، هو الاسم الذي يطلقه العرب الشرقيون كلهم على أبناء بلاد البرابرة.

متصلتان بتجارة مصر. وتصل السفن المحمّلة بالقهوة من اليمن على مدار السنة دون أن تحدّ بموسم معيّن. تُبحر تلك السفن باستمرار خلال الرحلة بمحاذاة الشاطىء فتستفيد بالتالي من النسيم الآتي من اليابسة خلال الفصل الذي تسود فيه الرياح الشمالية، التي تجعل من الرحلة صعبة وسط القناة. توزّع تلك السفن حمولتها مقابل الدولار الأميركي وهي تقريباً العملة الوحيدة التي يأخذها تجار اليمن في المقابل.

إن تجارة القهوة عُرضة لتقلبات كبيرة، ويمكن اعتبارها ضرباً من ضروب الحظ الذي لا يتورّط فيه سوى أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة الذين يحتملون الخسائر الكبيرة أحياناً. ويتغيّر سعر القهوة في جدة مع وصول كل سفينة من السويس، وقد عُدِّل سعرها بالنصائح الآتية من القاهرة. كما أن سعر القهوة في السويس هو عرضة للتقلبات كذلك وهذا يتوقف على الطلب على البن اليمني (المخاوي) في تركيا. وحين وصلتُ إلى جدة، كان سعر البن غير المطحون (الحب) خمسة وثلاثين دولاراً لمئة كيل، وبعد ثلاثة أسابيع هبطت الأسعار لتصل إلى أربعة وعشرين دولاراً وذلك نتيجة السِلم بين أميركا وإنكلترا ونشوء التوقعات باستيراد البن من غرب الهند مجدداً بكميات كبيرة في Smyrna والقسطنطينية. ومن جراء طبيعة هذه التجارة التي تنطوي على المخاطرة، هناك العديد من التجار الذين لا يتورطون فيها إلاّ كوكلاء، وهناك آخرون يرسلون القهوة على حسابهم إلى مصر حيث يتم الجزء الرئيسي من التجارة على أيدي تجار الحجاز المقيمين هناك. وخلال السنوات الست الأخيرة، عانت تجارة القهوة بين شبه الجزيرة العربية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط بشكل هام بسبب استيراد القهوة من غرب الهند إلى مرافىء تركيا، التي كانت سابقاً تُزوَّد حصرياً بالبن اليمني (المخاوي) الذي حلَّ محله بشكل كامل تقريباً في تركيا الأوروبية وآسيا الصغرى وسوريا البن الآتي من غرب الهند. مع ذلك، فقد منع الباشا في مصر بشكل صارم استيراد البن من غرب الهند إلى البلاد التي تقع تحت سيطرته إلى اليوم.

إن الاتجار بالبضائع الهندية أكثر أماناً وأقل خطورة، كما أنه مربح بالدرجة نفسها. وتصل الأساطيل الآتية بشكل خاص من «كالكوتا» و«سورات» وبومباي إلى جدة في بداية شهر أيار/ مايو، عندما يجدون أن التجار قد تحضّروا لوصولهم وجمعوا كمية كافية من الدولارات والسكوين (نقد ذهبي تركي قديم) بالقدر الذي سمحت به الظروف، بحيث يعقدون صفقات الجملة عند أول وصول السفن. كما يتم كذلك إرسال مبالغ كبيرة إلى هنا من تجار القاهرة لشراء سلع لحسابهم، إلاّ أن حمولة السفن تُشترى بجزئها الأكبر من تجار جدة الذين يرسلونها بدورهم إلى القاهرة لتُباع هناك لمصلحتهم. وتعود الأساطيل الهندية في شهر حزيران/ يونيو، أو

تموز/ يوليو، وذلك عندما ترتفع مباشرة أسعار كل سلعة أحضروها بأنفسهم[١]. ويحدث عادة أنه في اليوم نفسه الذي تُبحر فيه آخر سفينة، يمكن الحصول على ربح بنسبة عشرة في المئة من السعر الأولي. غير أن التجار لا يبيعون في ذلك الوقت إلاّ إذا ما كانوا في حاجة ماسة وسريعة إلى المال، وإنما يبقون سلعهم في مستودعات لأربعة أو خمسة أشهر، تتابع خلالها الأسعار في الارتفاع حتى إذا ما اختاروا الانتظار حتى شهر كانون الثاني/ يناير أو شباط/ فبراير الآتي، فبإمكانهم تحقيق ربح تبلغ نسبته من ثلاثين إلى أربعين في المئة دون أي مخاطرة. وإذا نقلوا قسماً من بضاعتهم إلى مكة ليبيعوها في الحج، تكون كذلك أرباحهم كبيرة جداً. في الواقع، إن طبيعة تلك التجارة هي التي تجعل من جدة مدينة مكتظة جداً خلال وجود الأساطيل. يأتي الناس إلى هنا من كل مرفأ في البحر الأحمر لعقد الصفقات التجارية بالدرجة الأولى، ويجمع تجار مكة ويَنْبُع وجدة سوياً كل دولار في حوزتهم لينفقوها في هذه الصفقات[٢]. والسبب الآخر الذي يجعل من التجارة بين الهند وجدة تجارة أكثر ربحاً وأقل خطورة هو وصول سفن التجارة مرة واحدة في السنة ليس إلاّ، وفي فترة محددة وبقاؤها لعدة أسابيع، فلا شيء بالتالي يفسد السوق حيث إن سعر السلع يُحدَّد نسبة إلى الطلب المعروف وكمية الاستيراد. ولم يحدث أبداً أن هبط ذلك السعر حتى عودة الأسطول التالي. أما في تجارة القهوة، فكانت الحال معكوسة.

في مصر وسوريا، يتطلب إتمام صفقة بين تاجرين مقدارها ألف دولار أميركي عملاً لعدة أيام وجهود ثلاثة أو أربعة من السماسرة. أما في جدة فتتم عمليات البيع والشراء لكامل حمولة السفن خلال نصف ساعة، ويُدفع المال في اليوم التالي. ويُشحن القسم الأكبر من البضاعة المشتراة إلى السويس وتُباع في القاهرة حيث تجد طريقها إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط. ويتم الدفع إما بالبضائع التي يجري ترويجها في الحجاز أو بالدولار أو بالسَّكوين الذي يحصل الأسطول الهندي على كمية كبيرة منه سنوياً مما يسبِّب نقص الفضة في مصر. وتأخذ سفن القهوة القادمة من اليمن بعض السلع من الصناعة المصرية في المقابل، كالمِلايات (وهي أقمشة قطنية مخططة بالأزرق) والقمصان الكتّانية والسبحات الزجاجية، غير أن مبيعاتهم الرئيسية تتم مقابل دفعات نقدية.

---

(١) تغادر السفن القادمة من بلاد البنغال جدة في حزيران/يونيو، وتلك القادمة من بومباي وسورات تغادرها في شهر تموز/ يوليو أو بداية شهر آب/ أغسطس. وتصل السفن من مسقط والبصرة والسفن المحمَّلة بالعبيد من الموزامبيق، في الوقت نفسه.

(٢) بعد فترة من إبحار السفينة الهندية من جدة، كنت حاضراً حين طلب تاجر ذو ثروة واحترام كبيرين استدانة مئة دولار من شخص كنت على معرفة به، قائلاً إنه وضع كل فلس من أمواله في السلع الهندية التي لم يكن بعد راغباً في بيعها، فلم يعد يملك في هذه الأثناء أي مال لمصروفه اليومي، كان هذا يحصل تكراراً معهم كما فهمت.

لو أن السويس تشارك في التجارة المباشرة مع الهند، لكان الوضع الحالي المزدهر في جدة قد تقلّص جداً دون أدنى شك، ولما تبقَّت للمدينة سوى مكانتها التي تؤمنها لها موقعها ومركزها، كمرفأ لمنطقة الحجاز عوضاً عما هي عليه اليوم أي مرفأ مصر. وكان من الطبيعي أن يسعى شرفاء مكة الذين كانوا يتحكّمون بالجمارك بكل ما أوتوا من وسائل، لجعل جدة مركزاً للتجارة الهندية، إذ كانت الرسوم الجمركية المصدر الأساسي لتأمين مدخولهم. على أي حال، فالسويس ليست مكاناً تتوافر فيه دائماً رؤوس الأموال الجاهزة لعقد الصفقات وحتى القاهرة عاجزة، مباشرة على الأقل، عن التعاطي في هذه التجارة بشكل مميز لو انتقلت إلى السويس؛ لأنه وحسب الأعراف والتقاليد القديمة التي نادراً ما يخالفها الشرقيون، فالمال الجاهز غير معروف تقريباً في المعاملات التجارية في هذه المدينة، ونتيجة لذلك، لا تُباع السلع الهندية هناك أبداً إلاّ بدين طويل الأمد. ومما لا شك فيه أنه كان بوسع المال أن يجد طريقه إلى السويس في الوقت المناسب كما يحصل الآن في جدة، إلاّ أن طبيعة القناة التجارية تجعل أسطول السفن القادم مباشرة من الهند إلى السويس لا يستطيع بسهولة إنزال حمولته بربح أو خلال الوقت المناسب. كما أن هناك سبباً آخر قد ساهم في تفضيل مرفأ جدة وهو أن السفن الهندية،مع أن معظمها يبحر تحت العلم الإنكليزي، إلاّ أن بحارتها[1] هم كلياً من شعب البلاد وهم العرب وأبناء المشرق. وقد اعتمدوا طريقة الإبحار في محاذاة الساحل وهي الطريق نفسها المتَّبعة في كل مكان من البحر الأحمر، وهم لا يغامرون أبداً في عرض البحر مما يقودهم حتماً إلى المرور من جدة وينْبُع وهما مرفآ «الشريف» الذي يستطيع بسهولة إجبارهم على الرسوّ في مرافئه ودفع الرسوم كما هو معروف عنه، فقد فعل هذا مع عدة سفن قهوة متجهة مباشرة من اليمن إلى السويس.

غير أن هذه الأسباب لم يعد من أثر لها حيث إن محمد علي، باشا مصر الذي يمتلك المرافىء ومراكز الرسوم الجمركية في منطقة الحجاز بإمكانه نقل الرسوم الجمركية من جدة إلى السويس فيفتح بهذا صلة مباشرة مع الهند. لكن العوائق الرئيسية لتغيير كهذا، وقد ظهرت بشكل جلي هنا، هي الغيرة والمزاعم الزائفة المضلِّلة لتجار جدة، فضلاً عن جهل الباشا بمصالحه الشخصية الحقيقية، يُضاف إليها ربما الخوف من إثارة استياء مليكه. ومع ذلك فقد كان يفكر بتغيير هذا النظام، وقد قدمت المثل على ذلك المؤسسة التجارية الإنكليزية في الإسكندرية التي

(١) لم يكن أي قبطان إنكليزي قد أتى إلى جدة منذ خمس سنوات، حين وصل الرسول الكابتن بوغ، من بومباي عام ١٨١٤ محملاً بالأرز، ولا يدير السفن الإنكليزيون، كما أن القليل جداً من التجار الإنكليزيين المقيمين في الهند قد مارسوا التجارة في البحر الأحمر، التي تتم حصرياً تقريباً برؤوس أموال التجار المسلمين من جدة ومسقط وبومباي وسورات وكالكوتا، ونادراً ما يزور الأميركيون أي مرفأ آخر على هذا البحر غير مرفأ مكة.

أبرمت، بالاتفاق مع مراسليها في مدينة بومباي، معاهدة مع الباشا للسماح للسفن الإنكليزية بالمجيء مباشرة إلى السويس ولتأمين الحماية للبضائع عبر الصحراء إلى القاهرة، وذلك سنة ١٨١٢، عندما لم تكن منطقة الحجاز بعد تحت سيطرة الباشا. إلاّ أن اندلاع الحرب الوهابية وانتشار السفن المعادية في البحر الأحمر، قد منع التجار من تطبيق المعاهدة تلك والاستفادة منها حتى سنة ١٨١٥ حين أُرسلت سفينة ضخمة من بومباي إلى السويس. إلاّ أن الباشا، الذي كان في مكة حين بلغت تلك السفينة جدة، وعبر خرقٍ مباشر لتعهداته، قام بإيقاف السفينة ومنعها من مواصلة إبحارها إلى السويس وأجبر قبطانها على بيع الحمولة بالخسارة، في الوقت الذي كان فيه الطاعون منتشراً في المدينة، وفرض عليه الرسوم الجمركية نفسها التي تُفرض على سفن البلاد، وذلك في انتهاكٍ للتعاقد المبرم بين بريطانيا العظمى والباب العالي. كان يمكن معالجة هذه القضية التي أثارت امتعاضاً شديداً بين الأوروبيين في مصر، وبسهولة تامة، عبر اعتماد المعاملة بالمثل مع سفن الباشا التجارية التي تصل إلى مالطة، وكان بإمكان تلك الطريقة أن تلقنه درساً في احترام العَلَم الإنكليزي حيثما التقاه. غير أن الضباط الإنكليز، انطلاقاً ربما من مفهوم غير صحيح لسلطته وأهميته، ومن الرغبة في الحفاظ على علاقة طيبة وودية معه، وبدل أن يُظهروا أي استياء، فضّلوا الخضوع للإساءة بصمت، وقد فاتهم أنه لا يمكن الفوز بعطف وتأييد حاكم تركي عن طريق الاسترضاء بل باتخاذ موقف التحدي. وكنتيجة لذلك كله. فقد أجبر التجار على عقد اتفاقية ثانية مع الباشا والتي أُقرت بشكل رسمي. وكان مطلبه الأول أن على السفن أن تدفع في السويس الرسوم الجمركية المشتركة بين ذلك المرفأ ومرفأ جدة والتي كانت تعادل نحو اثني عشر في المئة. إلاّ أنه وُعد أخيراً بنسبة تسعة في المئة على الواردات كلها إلى السويس من الهند والتي كانت تعادل ستة في المئة، أي أكثر من الضريبة المعتادة التي يدفعها التجار الأوروبيون في مرافىء «السيد الأعظم». كان من المفترض أن يؤدي هذا التدبير إلى إطلاق تجارة ناشطة. كما أن الباشا نفسه كان ميالاً إلى المضاربة التجارية لحسابه الخاص، وكانت أول مغامرة قام بها حين أرسل إلى بومباي في ربيع سنة ١٨١٦، ليأتوا له بفيل مكسوّ بغطاء مزركش بطريقة غنية وأنيقة أراد أن يقدمه هدية إلى عاهله في القسطنطينية. لكن، ورغم ذلك، أخشى ما أخشاه من ألاّ يحترم الاتفاقية الثانية كما فعل في الأولى، إذ إن طمعه لا يعرف حدوداً إذا لم يتمّ ضبطه بطريقة فعّالة. كما أنه يستطيع في أي وقت من الأوقات انتزاع ضرائب ورسوم إضافية طالما أن الأرباح التي تؤمّنها هذه الطريق التجارية الجديدة قادرة على تحمّلها، وذلك عبر تهديد أمن الطريق من السويس إلى القاهرة بما أن البدو في الصحراء المجاورة هم تحت سيطرته وخاضعين لأوامره كلياً.

لقد كان حاكم جدة السابق، الشريف غالب، يتعاطى بشكل ناشط في التجارة الهندية،

وكان يملك سفينتين حمولة كل منهما أربعمائة طن كان يوظّفها في تلك التجارة، فضلاً عن عدة زوارق صغيرة يستخدمها في تجارة القهوة إلى اليمن. وكان بالفعل مُضارباً ذكياً في كل فروع تجارة البحر الأحمر.

كما كان يضطهد تجار جدة بفرض رسوم باهظة عليهم فضلاً عن منافسته القوية لهم. لكن لم يُعرف عنه أبداً أنه كان يمارس الابتزاز عليهم، وكان إذا ما اقترض مالاً فإنه يرجعه في الوقت المتعاقَد عليه ولا يذهب إلى حد فرض مساهمات استثنائية على الأفراد، مع أنه مارس ذلك مع المجتمع ككل عبر زيادة الضرائب بطريقة تعسفية. لقد كان الأمن الذائع الصيت الذي تتمتع به الممتلكات في ظل ولايته هو الذي يُغري التجار ويدفعهم إلى زيارة مرفأ جدة، حتى عندما غالب بمحنة صعبة وعسيرة على أيدي الوهابيين. لكن سلوكه من هذه الناحية لم يكن بسبب حبه وشغفه بالعدالة، إذ إنه كان يحكم بكل استبداد وطغيان، ولكنه كان يعرف تماماً أنه إذا ما ذُعر التجار وفرّوا بعيداً ستستحيل مدينته إلى مدينة تافهة غير ذات شأن. وقبيل انتهاء حكمه، رفع الضريبة على القهوة من دولارين ونصف للقنطار الواحد (مائة كيلوغرام) إلى خمسة دولارات أو إلى ما يعادل خمسة عشر في المئة. وكانت الضريبة على السلع الهندية من ستة إلى عشرة في المئة، وذلك حسب نوعيتها. وكان غالب، إذا عجز عن بيع القهوة أو السلع الهندية فوراً، التي استوردها لحسابه، يعمد إلى توزيع حمولة سفنه على تجار البلدة بسعر السوق الحالي وبكميات تُقدَّر حسب ملكية كل تاجر بعد أن يُجبَر على الشراء بالمال الجاهز. ولم يكن غالب من هذه الناحية وحيداً، فالباشا الحالي في مصر كثيراً ما كان يوزّع قهوته على التجار، لكن مع فارق واحد، وهو أن السعر الذي كان يفرضه الباشا يكون دائماً فوق سعر السوق الحقيقي.

تُدار الأعمال في جدة دائماً من خلال السماسرة وهم في غالبيتهم هنود ذوو أملاك بسيطة وسمعة سيئة. وعدد السفن التي تخصّ جدة كبير جداً مع الأخذ في الحسبان كل السفن الصغيرة الموظّفة في تجارة البحر الأحمر، وهو مئتان وخمسون سفينة يمكن إحصاؤها وتخص إما تجار المدينة وإما مالكي السفن الذين يديرونها ويعتبرون المرفأ موطنهم الأساسي. إن الأسماء المختلفة للسفن كسعي وسوم ومركب (Merkeb) وسمبوك والدّو تدل على حجمها، والأخيرة فقط هي الكبرى حجماً وتُبحر إلى الهند. ويُدير السفن بشكل أساسي أشخاص من اليمن ومن الساحل الصومالي (في الجهة المقابلة لعدن، بين الحبشة ورأس Guardafui)، بالإضافة إلى العبيد الذين نجد منهم ثلاثة أو أربعة في كل سفينة بشكل عام. ويتقاضى الطاقم مبلغاً معيناً للرحلة، وكل بحار هو في الوقت نفسه تاجر صغير يعمل لحسابه الخاص. وهذا سبب إضافي لمجيء الأجانب إلى جدة خلال موسم التجارة حيث إن الأفراد الذين يملكون أصغر رأس مال بإمكانهم شراء البضائع بمقادير قليلة مباشرة من طاقم تلك السفن. ولا تتم صناعة السفن من

أي نوع في جدة الآن حيث إن الخشب الضروري لذلك بات نادراً جداً، حتى إنه بات من الصعب إيجاد الوسائل اللازمة لترميم سفينة ما وإصلاحها. وتُعاني ينبع من المشكلة نفسها، أما السويس والحديدة والمخا فهي المرافىء الوحيدة في البحر الأحمرحيث يتم بناء السفن. ويتم نقل خشب البناء المستعمل في السويس إلى هنا عبر البر من القاهرة، وهو يأتي في الأصل من ساحل آسيا الصغرى[١]. أما الخشب المستعمل في الحديدة والمخا فيأتي جزء منه من اليمن وجزء آخر من الساحل الإفريقي. ويتم شراء سفن عدة في بومباي ومسقط، أما تلك التي تُبنى في السويس فهي الأكثر شيوعاً في البحر شمال اليمن. وكان هناك طلب كبير على السفن في جدة خلال السنوات الثلاث المنصرمة بعد أن قام الباشا بالاستيلاء على عدد كبير من السفن وبإجبار مالكيها على نقل المؤونة والذخيرة والأمتعة من مصر إلى الحجاز مقابل أجور ضئيلة جداً. وخلال إقامتي في جدة، نادراً ما كان يمر يوم دون وصول السفن خاصة من يَنْبُع وقُصير وكان هناك في المرفأ أربعون أو خمسون سفينة بشكل دائم. وكان هناك أيضاً ضابط مُلقَّب بأمير البحر يتصرَّف كسيد المرفأ فيأخذ من كل سفينة مبلغاً معيناً لكي يسمح لها بالرسو في المرفأ. وكان لهذا المنصب منزلة رفيعة ومهمة جداً في زمن الشريف لكنه الآن لم يعد ذا شأن أبداً. وقد فوجئت نوعاً ما حين علمتُ أنه في مرفأ ناشط إلى هذا الحد كمرفأ جدة، لم يكن هناك أي سفينة للمتعة والتسلية من أي نوع في المرفأ ولا حتى أي مراكبيّين عموميّين. لكني علمت أن السبب في ذلك يعود إلى حذر ضباط مركز الرسوم الجمركية وحرصهم الشديد حيث كانوا يمنعون كل ممارسة من هذا النوع وكانوا يصرون على أن تعود قوارب السفن إلى سفنها بعد غياب الشمس. ولا تُمارَس في جدة أي تجارة برية سوى مع «المدينة» ومكة حيث تنطلق قافلة إلى «المدينة» مرة كل أربعين أو خمسين يوماً محمَّلة بالسلع الهندية والأدوية خاصة، ويُضاف إليها دائماً حشد من الحجاج الذين يرغبون في زيارة قبر النبي محمد(ص). وهذه القوافل عبارة عن ستين إلى مائة جمل يقودها البدو من قبيلة حرب. غير أن العلاقات بين جدة و«المدينة» تتم عادة عبر طريق يَنْبُع المتوسطة حيث تُرسل البضاعة عبر البحر. وإلى جانب القوافل المذكورة آنفاً، تنطلق قوافل أخرى إلى مكة كل مساء تقريباً ومرتين في الأسبوع على الأقل، محملة بالسلع والمؤن. وخلال الأشهر الأربعة التي تسبق الحج، حين تأتي كل سفينة بالحجاج إلى جدة، تتطور هذه العملية، فتنطلق القوافل حينها بانتظام من بوابة مكة كل مساء بعد مغيب الشمس. وتحتاج الجمال المحملة ليلتين لإتمام الرحلة وتستريح في منتصف الطريق في

(١) إن الأشرعة المستعملة في أنحاء البحر الأحمر كلها هي من صناعة مصرية والحبال من شجر البلح. إن السفن القادمة من الهند الشرقية لها حبال مصنوعة من شجر جوز الهند، ويؤتى بكمية منها للبيع كذلك.

الهدا خلال النهار، لكن فضلاً عن ذلك، تنطلق قوافل صغيرة من الحمير بحمولة خفيفة كل مساء، وتقوم برحلة تدوم خمس عشرة أو ست عشرة ساعة في ليلة واحدة فتصل بانتظام إلى مكة في الصباح الباكر[١]. وعبر قوافل الحمير تلك تُنقل الرسائل بين المدينتين. وفي زمن السلم، تلتقي أحياناً بقوافل على ساحل البحر متّجهة إلى اليمن وتهامة والمُخوا (Mokhowa)، حيث يتم استيراد الحنطة (انظر الملحق حول جغرافيا الحجاز).

قد يُلقي التعداد التالي للمتاجر المختلفة في الشارع التجاري الرئيسي في جدة بعض الضوء على التجارة في هذه المدينة وكذلك على نمط حياة سكانها.

إن المتاجر هنا (كما هي في كل أنحاء تركيا) ترتفع عدة أقدام عن الأرض، ويبرز أمامها، باتجاه الشارع، مقعد حجري يجلس عليه الزبائن، وهو محمي من الشمس بوساطة مظلّة تُصنع عادة من حصير مشدود إلى أعمدة عالية. ويبلغ عرض واجهات العديد من المتاجر ست أقدام أو سبعاً أما العمق فهو عامة من عشر أقدام إلى اثنتي عشرة قدماً مع غرفة صغيرة خاصة أو مخزن في الخلف. وهناك سبعة وعشرون مقهى. وتُشرب القهوة بإفراط في الحجاز. فمن الشائع جداً أن يشرب الناس من عشرين إلى ثلاثين فنجاناً في يوم واحد، أما العمال الفقراء فلا يشربون أقل من ثلاثة أو أربعة فناجين.

وفي عدد قليل من المقاهي يمكن تناول «القشرة» وهي مشروب يُصنع من قشرة حب القهوة، وهو لا يقل في نكهته غالباً عن المشروب المصنوع من الحب نفسه. ويقصد أحد المقاهي أولئك الذين يدخنون الحشيش، أو مُستحضر من زهرة القنّب الممزوجة مع التبغ ينتج عنه نوع من التخدير. لكن الحشيش لا يزال يُستعمل بدرجة أكبر في مصر، خاصة بين الفلاحين[٢].

---

(١) حين تكثر الجمال، تبلغ أجرة الواحد من جدة إلى مكة من عشرين إلى خمس وعشرين ليرة. وفي وقت قلّتها، أو مع اقتراب الحج، تبلغ من ستين إلى سبعين ليرة. خلال إقامتي، كانت أجرة حمار من جدة إلى مكة عشرين ليرة، تُعتبر هذه الأسعار باهظة في أي جزء آخر من الشرق، حيث إن أجرة جمل من القاهرة إلى السويس تبلغ خمس عشرة ليرة فقط، وهي ضعف المسافة بين جدة ومكة.

(٢) من زهرة القنب هذه يستعملون لهذا الغرض الأوراق الصغيرة حول البذرة (تُدعى شرانق). ويضع عامة الناس كمية صغيرة منها فوق التبغ الذي يملأون به الغليون. أما الطبقات العليا فيأكلونها في معجون يُصنع بالطريقة التالية: تُغلى كمية من الأوراق مع الزبدة لساعات عديدة ثم تُعصر؛ فيُمزج العصير المستخرج مع العسل وعقاقير أخرى حلوة الطعم، وتُباع علناً في مصر، حيث هناك متاجر خاصة بذلك. إن معجونة الحشيش يُطلق عليها تسمية أكثر لياقة وهي (Bast) البسط، ويقال لمن يبيعها بسطي. وفي أحد المهرجانات التي أقيمت بمناسبة زواج ابن أحد النبلاء الرئيسيين في القاهرة، تم استعراض مختلف الحرف في المدينة في موكب استعراضي. ورغم أن مهنة البسطي ممنوعة قانوناً إلا أن أصحاب المهنة كانوا الأكثرين ظهوراً وبهرجة في الموكب.

ويُدخَّن الغليون الفارسي في تلك المقاهي كلها، وهو على ثلاثة أنواع مختلفة:

أولاً، هناك القدرة، وهو الأكبر ويرتكز على مِنصب ثلاثي القوائم، وهو مشغول دائماً بدقة وإتقان، ونجده في المنازل الخاصة.

ثانياً: الشيشة، وتُدعى في سوريا «الأرجيلة» وهي أصغر حجماً، لكنها كالأول موصولة إلى أنبوب مُلتف ويُدعى لية (lieh)، يتم تنشق الدخان عبره.

ثالثاً: **البوري**، وهو عبارة عن قشرة جوز الهند غير المصقولة التي تحوي ماء. وتحل قصبة غليظة محل الأنبوب. هذا النوع هو الرفيق الدائم للطبقات الدنيا ولكل البحارة في البحر الأحمر الذي يُفرطون في استعماله بغلو فائق. ويأتي التبغ المستعمل في الصنفين الأولين من الخليج الفارسي، والنوع الأفضل مصدره مدينة شيراز. وهناك نوع من التبغ أقل جودة ويُدعى «التمباك» ويأتي من البصرة وبغداد، فورقة التبغ هذه لها لون أصفر فاتح وطعمها أقوى بكثير من التبغ المعتاد، لهذا فهو يُغسل قبلاً ليصبح أقل حدة. والتبغ المستخدم في البوري يأتي من اليمن وهو من فصيلة النوع الآخر نفسه إلاّ أنه أقل جودة ونوعية. وتُعتبر التجارة في هذا النوع مهمة جداً إذ إن استهلاكه في منطقة الحجاز كبير إلى حد بعيد. كما تُرسل كميات كبيرة منه إلى مصر عبر البحر. والغليون الاعتيادي قليل الاستعمال في الحجاز إلاّ بين الجنود الأتراك والبدو. وينتج التبغ في مصر أو يأتي من Sennar حيث يُنقل إلى Sowakin. وقليل جداً من التبغ السوري الجيد النوعية يجد طريقه عبر البحر الأحمر.

تغص المقاهي بالناس طول النهار، وأمامها تُنصب سقيفة يجلس الناس تحتها أيضاً. أما الغرف والمقاعد والكراسي الصغيرة المنخفضة فهي قذرة جداً وتشكّل تناقضاً كبيراً مع النظافة والأناقة التي نراها في المقاهي في دمشق. فلا يمكن رؤية التجار المحترمين أبداً في المقاهي، إنما من هم من الطبقة الثالثة والذين يعملون في صناعة البحر يجعلون من تلك المقاهي ملاذهم الدائم. وكل شخص يملك منزلاً خاصاً يلتقي فيه مع من له عمل معهم. والعربي الذي لا يملك دعوة صديق على العشاء فإنه يدعوه من المقهى حين يراه ماراً ليدخل ويشرب فنجاناً من القهوة، وإذا ما رُفضت دعوته يكون قد أُهين إهانة بالغة. وحين يدخل صديقه يأمر (النادل) بإحضار فنجان من القهوة ويقوم النادلُ عند تقديمه بالصّراخ عالياً بحيث يسمعه كل من في المقهى قائلاً: «جيبا!!». وبإمكان عربي أن يغش دائنيه أو أن يُتَّهم في ذمته في معاملاته ومع

ويستخدم العديد من أهل النخبة البسط بشكل أو بآخر؛ فهي تُبهج الروح وتنمّي الخيال بالقوة نفسها التي يُحدثها الأفيون. ويمزج بعض الأشخاص كذلك العجينة أو المعجون ببذور الـ «البنج» الذي يأتي من سوريا.

ذلك لا يلقى انتقاداً علنياً، إلاّ أن الخزي والعار سيلحق به إذا ما عُرف أنه حاول غش النادل في المقهى عند دفع حسابه.

وقد قام الجنود الأتراك ببذل أقصى جهدهم في ممارسة ذلك لزيادة الازدراء والاحتقار الذي ينظر به العرب تجاههم. ولم أرَ في مقاهي الحجاز أبداً أياً من أولئك «الحكواتية» الشائعين جداً في مصر، وهم أكثر شيوعاً في سوريا. والمنقل[1] هي اللعبة الأكثر استعمالاً في المقاهي كلها عامة، وكذلك لعبة الداما وهي تختلف بشكل من الأشكال عن اللعبة الأوروبية، إلاّ أنه لم يصادف أبداً أن رأيت لعبة الشطرنج تستعمل في الحجاز رغم أني سمعتُ عن شيوعها خاصة بين الأشراف المولعين بها بشكل خاص.

بالقرب من كل مقهى تقريباً، يأخذ شخص منصّته ويبيع الماء البارد في جرار صغيرة معطّرة.

وهناك واحد وعشرون بائع زبدة يبيعون كذلك العسل والزيت والخل بالمفرد. وتشكل الزبدة المادة الأساسية في المطبخ العربي وهي دهنية أكثر حتى من الزبدة الإيطالية. والزبدة الطازجة، كما يدعوها العرب، نادرة في الحجاز. وإنها لعادة شائعة بين الطبقات كلها بأن يشربوا كل صباح فنجاناً مليئاً بالزبدة المذوّبة أو السمن وتُشرب بعدها القهوة[2]، إذ يعتبرونها منشطاً قوياً وقد اعتادوا عليها كثيراً منذ نعومة أظفارهم وقد يشعرون بانزعاج كبير إذا ما انقطعوا عن استعمالها. وتكتفي الطبقات العليا بشرب كمية الزبدة لكن الطبقات الدنيا تُضيف نصف فنجان بعدُ، يتنشّقونه من ثقبي أنفهم معتقدين أنهم بذلك يمنعون الهواء القذر من دخول الجسم عبر هذه القناة. إن هذه العادة عامة وشاملة بين سكان المدينة كما هي بين البدو. وتتّبع الطبقات الدنيا كذلك عادة فرك صدورهم وكتفَيهم ويديْهم ورجلَيْهم بالزبدة كما يفعل الزنوج، وذلك لإنعاش البشرة. وقد توقف استيراد هذه المادة من الداخل كلياً تقريباً خلال الحرب، وحتى في زمن السلم، فهذا لا يكفي لاستهلاك جدة، لذلك يقوم البعض بإحضارها من السواقين، إلاّ أن النوع الأفضل والمتوفر بكثرة، يأتي من المصوَّع ويُدعى هنا زبدة دَهلك. وتصل كل حمولة السفن من هناك، ويُنقل القسم الأكبر منها إلى مكة مرة ثانية. كما تُستورد الزبدة من القصير، وهذه تأتي من شمال مصر، وهي مصنوعة من حليب الجاموس. أما سمنة سواقين ودهلك فتأتي من حليب النعاج.

---

(١) أنظر رحلات Niebuhr.

(٢) غالبا، يشرب الشرقيون الماء قبل القهوة لكن ليس بعد ذلك مباشرة أبداً. لقد عُرفتُ مرة في سورية بأني أجنبي أو أوروبي لأني طلبتُ الماء مباشرة بعد شرب القهوة. إذ قال النادل: «لو أنك كنت من هذه البلاد لما أزلتَ طعم القهوة من فمك بغسله بالماء».

ويزخر الحجاز بالعسل في كل جزء من الجبال. والنوع الأفضل يأتي من الجبال التي يسكنها بدو النواصرة، إلى الجنوب من الطائف. ويسود بين الطبقات الدنيا فطوراً مؤلفاً من مزيج من السمن والعسل المسكوب فوق كسرات الخبز الساخن الخارج لتوه من الفرن. والعرب المولعون بالعصيدة لا يأكلونها أبداً دون العسل.

إن الزيت المستعمل للمصابيح هو زيت السمسم (السيرج، الآتي من مصر). ولا يستعمل العرب الزيت في المطبخ سوى لقلي السمك أو مع العصيدة التي تُعطى إلى الفقراء. كما أن (السلطة) التي يحبها جداً الأتراك الشماليون، لا نراها أبداً على طاولة عربية.

كما نرى أيضاً ثماني عشرة منصة للخضراوات أو الفاكهة. وقد ازداد عددها الآن بشكل كبير بسبب وجود فرق الجنود الأتراك الذين هم من أكثر الملتهمين للخضراوات. وتأتي الفاكهة كلها من الطائف، خلف مكة، وهي غنية بالحدائق. فقد وجدتُ هنا في شهر تموز/ يوليو أفضل أنواع العنب الذي تزخر به الجبال خلف مكة، والرمان بنوعية متوسطة، والسفرجل الذي ليس له الطعم الجاف نفسه كما في أوروبا، ويمكن أكله نيئاً، ثم الخوخ والدراق والليمون الحامض بأصغر حجم كما في مصر تماماً، والبرتقال المر والموز... وهي فاكهة لا تنمو في الطائف ولكن يؤتى بها عن طريق «المدينة» من الصفرا خاصة والجديدة وخُليص، وتدوم هذه الفاكهة حتى شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي شهر آذار/ مارس يؤتى بالبطيخ الأحمر من وادي فاطمة، ويقال إن حجمه صغير ولكنه لذيذ الطعم. ولا يأكل العرب الكثير من الفاكهة باستثناء العنب فهو كما يقولون، يساعد على تكوين الصّفراء ويسبّب امتلاء البطن بالغازات، وهو أمر على الأرجح أنهم لم يخطئوا بشأنه. والفاكهة التي تُباع في جدة غير صحية أبداً وذلك لأنها غُلِّفت وعُبِّئت في الطائف وهي بعدُ غير ناضجة، فهي تكتسب نضوجاً مصطنعاً عبر التخمُّر خلال الرحلة. ويتشاجر الأتراك ويتعاركون كل صباح أمام المتاجر، يجاهدون للحصول على الفاكهة لأنها بكميات قليلة بحيث أصبحت عزيزة جداً. وتأتي الخضراوات إلى جدة من وادي فاطمة وهو يبعد ستة أو ثمانية أميال إلى الشمال، كما أنه يزوّد مكة أيضاً. والأصناف المعتادة هي الملوخية والبامية والباذنجان والخيار واللفت الصغير جداً الذي تؤكل منه الأوراق وتُرمى الجذور باعتبارها غير نافعة. أما الفجل والكُراث فهي الخضراوات الوحيدة التي تُستعمل يومياً وبانتظام في المطبخ العربي، فهي صغيرة الحجم ويأكلها عامة الناس نيئة مع الخبز.

بشكل عام، فإن العرب يستهلكون القليل القليل من الخضراوات، إذ إن أطباقهم أُعدت من اللحم والأرز والدقيق والزبدة. ويُباع كذلك التمر الهندي في متاجر الفاكهة تلك (ويُدعى هنا Homar) ومصدره الهند الشرقية. وهو لا يأتي على شكل أقراص كذلك الذي يأتي من بلاد

الزنوج ولكن في شكله الطبيعي رغم أنه كثيراً ما يكون فاسداً وعفناً. وحين يُغلى في الماء فهو يشكل شراباً منعشاً، ويقدَّم للمرضى مطهياً بالغلي البطيء مع اللحم.

وهناك ثمانية بائعي تمور فمن كل ما يأكله ويستهلكه العرب، يُعتبر التمر الأكثر تفضيلاً، كما أن لهم عادات وتقاليد عديدة من نبيِّهم يُظهر فيها تفوُّق التمر على أنواع الطعام الأخرى كلها. وإن استيراد التمر يتم بشكل متواصل خلال السنة كلها. وفي نهاية شهر حزيران/ يونيو، تأتي الفاكهة الجديدة وتُدعى «رطب» وتدوم لشهرين، يتم بعدها بيع عجينة التمر وتدعى «عجوة» لما تبقى من السنة. وتُصنع عجينة التمر هذه عبر كبسه عندما يكون ناضجاً كلياً، في سلال واسعة بطريقة قاسية وقوية جداً بغية تحويله إلى قرص أو عجينة قاسية وصلبة، وتزن كل سلة عامة نحو مائتي كيل؛ ويصدِّر البدو العجوة، ويُقطع في السوق ويُباع بالكيلوغرام. وتشكل هذه العجوة جزءاً من الطعام اليومي لدى كل الطبقات. أما في السفر، فهي تذوب في الماء فتتحول إلى شراب حلو منعش. وهناك ما يزيد عن اثني عشر نوعاً من العجوة، ويأتي الصنف الأفضل منه من منطقة (ترابا) خلف الطائف (يحتلها الآن الوهابيون). أما الصنف الأكثر شيوعاً في الوقت الحاضر في الأسواق فهو ذلك الآتي من وادي فاطمة، والنوع الأجود من خليص والجديدة على الطريق إلى «المدينة». وخلال فترة الرياح الموسمية تُحضر السفن القادمة من الخليج الفارسي العجوة من البصرة للبيع في سلالٍ صغيرة تزن كل منها نحو عشرة كيلوغرامات وهذا النوع هو النوع المفضَّل على الأنواع الأخرى كلها. أما سفن الهند الشرقية، وعند عودتها، فتأخذ كمية كبيرة جداً منه، وهو يُباع بربح عالٍ جداً بين المسلمين في الهند.

وهناك أربعة من صانعي الفطائر المحلاة، وهم يبيعون في الصباح الباكر فطائر مقلية بالزبدة وهي تعتبر فطوراً محبوباً ومرغوباً.

وهناك خمسة بائعي فول: وهم يبيعون للفطور أيضاً في ساعة مبكرة، فولاً مصرياً مغلياً في الماء ويؤكل مع الفلفل والسمن. إن الفول المغلي يُدعى «مُدَمَّس» وهو يشكل طبقاً محبوباً عند الشعب المصري وقد أخذه العرب منهم.

خمسة بائعي مربيات و(بونبون) وسكاكر، وأصناف مختلفة من الحلويات التي يعشقها أهل الحجاز أكثر من أي من الشرقيين الذين عرفتهم، فهم يأكلونه بعد طعام العشاء، وعند المساء تُحاط منصّات الحلوانيين بالعديد من الشُراة. والهنود هم من أفضل صانعي الحلويات، ولم أر هنا أي نوع منها لم يسبق لي رؤيته في مصر؛ كالبقلاوة والكنافة والغريْبة الشائعة هنا كثيراً كما في حلب والقاهرة.

وهناك متجران للكباب حيث يُباع اللحم المشوي. ويدير هذه المتاجر الأتراك، إذ إن الكباب ليس طبقاً عربياً.

وهناك بائعا حساء، وهم يبيعون أيضاً رؤوس الخرفان وأقدامها المغلية ويقصدهم الناس في منتصف النهار أي عند الظهيرة.

وهناك بائع واحد للسمك المقلي بالزيت والذي يزوره البحارة الأتراك واليونانيون كلهم. وهناك عشر منصات أو اثنتا عشرة منصّة يُباع عليها الخبز، والبائعات هنّ غالباً من النساء. وللخبز نكهة غير محببة إذ إن الجريش (دقيق الذرة أو القمح) لم يتم تنظيفه كما يجب كما أن الخميرة سيئة ويُباع الرغيف هنا بثماني بارات، وهو بحجم الرغيف نفسه الذي يُباع في القاهرة بارتين فقط، على الرغم من أن نوعيته أسوأ بكثير.

وهناك باعة للّبن، وهو نادر جداً في أنحاء الحجاز كلها. وقد يبدو غريباً، أن يكون هناك ندرة في الحليب بين الرعيان في شبه الجزيرة العربية، بالرغم من أن جدة ومكة كانتا تعانيان من الندرة نفسها. لكن، في الواقع، فإن المنطقة المجاورة مباشرة لهاتين المدينتين هي قاحلة كلياً لا تلائم رعي الماشية، ويعيش عدد من الناس من إطعامها من أجل الحصول على الحليب فقط. وعندما كنتُ في جدة كان رطل الحليب، أو الكيلوغرام الواحد منه (لأنه يباع بالوزن) يكلِّف ليرة ونصف الليرة ولا يمكن الحصول عليه إلاّ بخدمة أو معروف. كما أن ما يدعوه أتراك الشمال (Yoghort) لبنة، ويدعوه السوريون والمصريون لبن حامض لا يبدو أنه طبق من أصل عربي، فبدو شبه الجزيرة العربية على الأقل لم يقوموا بتحضيره أبداً.

وهناك متجران يديرهما أتراك يبيعون فيها الجبنة اليونانية واللحم المجفَّف والتفاح المجفف والتين والزبيب والمشمش المجفّف، أو ما يسمى بقمر الدين. وسعرها هنا ثلاثة أضعاف السعر في القاهرة. وتأتي الجبنة من Candia ويكثر الطلب عليها بين كل الجنود الأتراك. وهناك نوع مماثل من الجبنة يُصنع في الحجاز وهو ناصع البياض ولا يدوم طويلاً مع أنه مملَّح وليس مغذياً كثيراً. ولا يهتم البدو أنفسهم إلاّ قليلاً بالجبنة، فهم إما يشربون الحليب أو يحوّلونه إلى زبدة. واللحم المجفّف الذي يباع في تلك المتاجر هو لحم البقر المملَّح والمدَخّن الآتي من آسيا الصغرى، وهو معروف في أنحاء تركيا كلها باسم «بسطرمة»، وأكثر من يتلذذ به المسافرون. كما يعشقه بشكل خاص الأتراك الجنود والحجاج، إلاّ أنه من الصعب جداً إقناع العرب بتذوّقه إذ إن العديد منهم يصرّون على اعتباره كلحم الخنزير لأنهم يرونه مختلفاً في الشكل عن كل نوع آخر من أنواع اللحم التي اعتادوا عليها. وليس من المرجح أن تغيِّر نظرتهم إلى الجنود الأتراك وما يحملونه من تمسك ضعيف بالدين من تحامل العرب بشأن هذا النوع من اللحوم.

وتأتي الفاكهة المجفّفة المذكورة كلها أعلاه، باستثناء المشمش، من الأرخبيل. ويُرسل المشمش من دمشق إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها حيث تُعتبر ترفاً، خاصة بين البدو. ويتم استخراج لبّ أو بذر المشمش وتُحول الفاكهة إلى عجينة وتُنشر على أوراقها لتجفّ تحت الشمس. وعند إذابتها في الماء تتحول إلى صلصة لذيذة الطعم. وتعيش فصائل الجنود الأتراك بالكامل تقريباً على البسكويت وهذه الفاكهة في أثناء مسيراتهم عبر الحجاز.

وهناك أحد عشر متجراً لتجار وبائعي الحنطة حيث يمكن شراء القمح والشعير والفول والعدس والذرة[1] المصرية والأرز المصري والهندي والبسكويت، الخ. ويأتي القمح الوحيد الذي يُباع الآن في الحجاز من مصر. وفي زمن السلم، يتم استيراد هام من اليمن إلى مكة وجدة، ومن نجد إلى «المدينة». إلاّ أن الاستيراد من مصر هو أهم بكثير حيث يمكن القول حقاً إن الحجاز يعتمد على مصر للحصول على الحبوب. كانت تجارة الحبوب في السابق في أيدي الأفراد، كما دخل الشريف غالب أيضاً في هذه التجارة. لكن، في الوقت الحاضر، استولى محمد علي باشا كلياً على هذه التجارة، فلا يُباع شيء في السويس أو القصير إلى الأفراد، حيث تُشحن كل حبة لحساب الباشا. وهذه هي الحال كذلك بالنسبة إلى المؤن الأخرى كالأرز والزبدة والبسكويت والبصل الذي يتمّ استيراد كميات كبيرة منه.

في الوقت الذي كنت أسكن فيه في الحجاز، لم يكن إنتاج البلاد كافياً فقام الباشا ببيع الحبوب إلى جدة بسعر يتراوح بين مئة وثلاثين إلى مئة وستين ليرة لكل «إردب» وكل نوع آخر من المؤن حسب النسب نفسها. كانت كلفة الحبوب تصل إلى اثني عشر ليرة للإردب الواحد في شمالي مصر، يُضاف إليها تكاليف النقل من الجنة إلى القصير ثم أجرة الشحن إلى جدة، لتصبح أخيراً خمساً وعشرين أو ثلاثين ليرة. وكان هذا الربح الهائل وحده يكفي ليتحمل الباشا نفقات إشعاله الحرب على الوهّابيين، لكنه لم يأخذ في الحسبان استرضاء الشعب واستمالة ودّه. غير أن أنصاره قد وجدوا له الأعذار حيث زعموا أن الحفاظ على ارتفاع سعر الحبوب قد ضمن إبقاء بدو الحجاز في صفّه لأنهم يعتمدون على مكة وجدة في تأمين مؤنهم فيصبحون بالتالي ملزمين بالدخول في خدمته للحصول على المال وتجنب الموت جوعاً.

يستعمل عامة الناس في الحجاز القليل من القمح، فخبزهم يُعدُّ إما من طحين الذرة أو من طحين الشعير وكلاهما أرخص من القمح بنسبة الثلث، وإما يعيشون كلياً على الأرز والزبدة. هذه هي الحال كذلك لدى معظم بدو تهامة على الساحل. ولا يأكل شعب اليمن في جدة إلاّ

(١) وتأتي من سواقين، التي تجلبها بدورها من تقا في المناطق الداخلية من النوبة، وهناك نوع من الذرة ذات الحبات الصغيرة يأتي من اليمن، وتباع هنا أيضاً.

الذرة وأكثر الأرز المستعمل في جدة يأتي بشكل «صابورة» (ثقل يُستعمل في سفينة ما للحفاظ على التوازن) للسفن القادمة من الهند. ويأتي الصنف الأجود من غوزيرات Guzerat ومن كَتش Cutch، وهو يشكّل المادة الرئيسية في الطعام بين سكان الحجاز الذين يفضلونه على الأرز المصري لأنه، كما يعتقدون، صحي أكثر من الأخير الذي يستهلكه الأتراك حصرياً وغرباء آخرون من ناحية الشمال. إن حبة الأرز الهندي أعرض وأطول من النوع العادي المصري ولونه مائل إلى الأصفر، بينما أن للأخير لون مائل إلى الاحمرار قليلاً، لكن النوع الأجود من الصنفين ناصع البياض. كما أن الأرز الهندي ينتفخ أكثر من المصري عند غلْيه، لهذا السبب يفضّله العرب إذ إن كمية صغيرة منه بإمكانها أن تملأ طبقاً كاملاً. غير أن الأرز المصري مغذٍ أكثر. والأرز الهندي أرخص ثمناً وهو يُنقل من جدة إلى مكة والطائف و«المدينة» ويبلغ «نجداً».

ويشكل مزيج من الأرز والعدس، بكميات متساوية، تُسكب فوقه الزبدة، طبقاً محبباً عند الطبقة الوسطى، بل هو عادة طبقهم الوحيد عند العشاء[1]. وقد اكتشفتُ أن البدو، في أنحاء الحجاز كلها لا يحملون عند سفرهم مؤناً أخرى غير الأرز والعدس والزبدة والتمر. كما أن استيراد البسكويت من مصر أصبح منذ عهد قريب ذا شأن كبير وذلك بسبب استهلاك الجيش التركي الكبير. أما العرب، فهم لا يحبون البسكويت ونادراً ما يأكلونه حتى على متن سفنهم حيث يخبزون كعكتهم (بعجينة غير مُخمَّرة) كل صباح في تلك الأفران الصغيرة التي نجدها في السفن كلها مهما كان حجمها والتي تبحر في البحر الأحمر.

ويبيع تجار الحبوب الملح الذي يُجمع قرب جدّة من البحر، ويحتكره الشريف. ويفضّل سكان مكّة الملح الصخري الذي يحضره البدو من بعض الجبال قرب الطائف.

وهناك واحد وثلاثون متجراً لبيع التبغ حيث يُباع التبغ والتمباك المصري والسوري، أو التبغ الخاص بالغليون الفارسي، ورأس الغليون فضلاً عن أنابيب الأرجيلة (نربيش) وجوز الكاكاو وحبوب القهوة والقشرة والصابون واللوز وزبيب الحجاز وأشياء أخرى خاصة بالبقالة. والتبغ المصري المزوج أحياناً مع تبغ سنّار Sennar هو الأرخص ثمناً ويكثر الطلب عليه جداً في أنحاء الحجاز كلها وهناك نوعان منه: الأول ذو ورقة خضراء وإن تكُ جافة ويُدعى «الرُّبة» ويأتي من شمالي مصر، والثاني ذو ورقة بنية اللون، والأنواع الجيدة منه تُزرع في طهطا إلى الجنوب من أسيوط. وخلال سيطرة الوهابيين، لم يكن التبغ يُباع علناً، لكن، بما أن كل بدو الحجاز شغوفون به إلى حد بعيد، كان الأفراد يبيعونه خلسة في متاجرهم ليس كتبغ أو دخان، بل تحت اسم «متطلبات الرجل». ويتم استيراد الأنابيب الطويلة للغليون الفارسي من اليمن، وهي

(١) يُعرف هذا الطبق في سوريا بالمجدّرة لأن حبوب العدس في الأرز تشبه وجه شخص مصاب بمرض الجدري.

مشغولة بجمالية رائعة. ويأتي جوز الكاكاو من الهند الشرقية وكذلك من الساحل الإفريقي الجنوبي الشرقي ومن بلاد الصومال، ويمكن الحصول عليه طازجاً وبأسعار متدنيّة خلال فترة الرياح الموسمية. ويبدو أن شعب مكة وجدة مولع بها جداً. وتُستعمل الجوزات الكبيرة التي سبق أن ذكرناها، للبوري أو الغليون الفارسي الشائع، وتُستعمل الجوزات الصغيرة لعلب السعوط أو «النشوق».

يأتي الصابون من السويس حيث يُنقل من سوريا التي تمد ساحل البحر الأحمر كله به. وتجارة الصابون مهمة جداً، ويسيطر تجار مدينة الخليل على الجزء الأكبر منها، وهم يأتون به إلى جدة حيث نجد دائماً بعضاً من أولئك التجار. ويأتي اللوز والزبيب من جبال الطائف والحجاز ويتم تصدير كميات كبيرة منها حتى إلى الهند الشرقية. واللوز ذو نوعية ممتازة أما الزبيب فصغير وداكن اللون لكنه حلو المذاق جداً ويُحضَّر منهما شراب مُسكر.

وهناك ثمانية عشر بائع أدوية. وكلهم من أبناء الهند الشرقية وهم غالباً من سورات. وفضلاً عن أنواع الأدوية كافة، فهم يبيعون الشموع والورق والسكر والعطورات والبخور. ويُستعمل هذا الأخير بكثرة بين سكان المدن حيث تُعطّر العائلات المحترمة كلها غرفها المفضّلة كل صباح. ويُستعمل لهذا الغرض بخور المستكي وخشب الصّندل المحروق فوق الفحم النباتي. كما تُستعمل عامة في الحجاز التوابل على أنواعها كافة وخاصة الحارُّ منها في الأحوال والأمكنة جميعها. ونادراً ما تُشرب القهوة في المنازل الخاصة دون مزيج من حب الهال أو القرنفل. كما يدخل الفلفل الأحمر الآتي من الهند أو مصر في تكوين أي طبق من الأطباق. ويُعتبر برعم الورد مادة مهمة للتجارة بين بائعي الأدوية في جدة ومكة وهو يأتي من حدائق الطائف. ينقعه أهل الحجاز، خاصة السيدات منهم، في الماء الذي يستعملونه بعد ذلك للوضوء، وهُنَّ أيضاً يغلين تلك الورود مع السُكر ويُعدون منه المربّى. ويأتي السُكر الذي يُباع في متاجر بائعي الأدوية من الهند وهو ذو لون أبيض مائل قليلاً إلى الأصفر، وهو مُكرَّر ومُنقى بعناية ويأتي في شكل (بودرة). كما تُستورد كمية صغيرة من السكر المصري لكن الناس هنا لا يرغبون فيه إذ إنهم يفضلون بشكل عام كل ما يأتي من الهند لأنه بنظرهم أرقى وأجود نوعية. وهم في ذلك تماماً كما في المنتجات والمصنوعات الإنكليزية التي يفضلها الأوروبيون على منتجاتهم. إن بائعي الأدوية الهنود كلهم رجالٌ ذوو أملاك هامة، كما أن تجارتهم مربحة جداً ولا يستطيع أي عربي منافستهم في هذا المضمار. إن بائعي الأدوية في مكة والطائف ويُنبع و«المدينة» كلهم متحدِّرون من أصل هندي، وقد استقروا في هذه البلاد منذ أجيال عديدة وتطبّعوا بطباعها، غير أنهم يواصلون التكلم باللغة الهندية ويميزون أنفسهم بأزياء بسيطة عن العرب الذين لا يحبونهم عامة ويتهمونهم بالجشع والغش.

وهناك أحد عشر متجراً تُباع فيها سلع صغيرة من صناعة هندية، كالخزف الصيني ورأس الغليون والملاعق الخشبية والعقود الزجاجية والسكاكين والسُّبحات والمرايا والبطاقات، الخ. ويدير هذه المتاجر الهنود ومعظمهم من بومباي. وقليلة جداً هي الأدوات المعدنية الأوروبية التي تجد طريقها إلى هنا باستثناء الإبر والمقصّات والكشتبانات والمبارد. ويأتي كل شيء آخر من هذا النوع تقريباً من الهند كما يلقى الخزف الصيني في الحجاز تقديراً عظيماً. ويعرض السكان الأغنياء مجموعات غالية الثمن منها وقد وُضعت على رفوف في غرف جلوسهم، وهذا ما نلاحظه كذلك في سوريا. ولقد رأيتُ في مكة كما في جدة، أطباقاً على الموائد قطر الواحد منها قدمان ونصف القدم على الأقل، يحملها شخصان وتحتوي على خروف مشوي كامل.

إن العقود الزجاجية المصدّرة من جدة كانت في الأساس مُعدَّة لسوق السواقين والحبشة، وهي بجزء منها من صناعة البندقية وبجزء آخر من صناعة الخليل. وتضع تلك العقود المرأة البدويّة في الحجاز على الرغم من أن الأساور المصنوعة من القرن الأسود وعقود الكهرمان رائجة أكثر بينهنَّ. وتُباع في هذه المتاجر عقود العقيق التي تُدعى رَيْش Reysh[1]، وتأتي من بومباي وتُستعمل في قلب إفريقية. كما نشاهد هنا نوعاً من العقود الحمراء اللون المصنوعة من الشمع، بكميات كبيرة، وهي تأتي من الهند ومعدة بأكثرها لبلاد الحبشة. وتُباع كذلك أصناف كبيرة من السّبحات، منها ما هو مصنوع من حجر اليُسر (yosser)[2] وهي الأغلى ثمناً، فاليُسر هو نوع من المرجان ينمو في البحر الأحمر. ونجد النوع الأجود منه بين جدة والقنفذة، وله لون أسود قاتم ويتم تلميعه جيداً. وتُباع السبحة التي تحمل كل منها مائة حبة بدولار واحد إلى أربعة دولارات وذلك حسب حجمها. ويصنعها الخرّاطون في جدة ويكثر الطلب عليها لتصديرها إلى ماليزيا. وهناك سُبحات أخرى (تأتي من الهند) مصنوعة من القلمبق Kalambac العطِر ومن خشب الصندل. ويكثر الطلب عليها في كل أنحاء مصر وسوريا وقلّما تجد حاجاً يغادر الحجاز من غير أن يأخذ معه بعضاً من هذه السّبحات من المدينتين المقدستين كهدايا لأصدقائه في الوطن.

وهناك أحد عشر متجراً للثياب وفيها أنواع مختلفة من الأثواب التي تُباع كل صباح بالمزاد العلني. وقد اتّبعت في الجزء الأكبر من هذه الأثواب الزِيّ التركي التي تبنّاها التجار من الطبقة الأولى والثانية مع إضافة بعض التعديلات الوطنية الطفيفة على قصّة الثياب. تُقصد هذه المتاجر بشكل خاص خلال موسم الحج وذلك لشراء «الحِرام» أو «الإحرام» وهو العباءة أو الغطاء الذي

(١) راجع الرحلات في نوبيا، المقال shendy.

(٢) ومنه يُدعى الزقاق الرئيسي في جدة «حوش يُسر».

يؤدَّى به الحج، وهو عبارة عن قطعتي قماش قطني أو كتّاني هندي ناعم وطويل. ويأتي بدو الحجاز إلى هنا أيضاً لشراء العباءات الهندية الصوفية أو العباءات البدوية الآتية من مصر التي يعتمدون عليها كلياً للحصول عليها. من هنا يبدو أنهم يملكون الطبع الكسول نفسه كمعظم سكان الحجاز إذ إنه معروف عن زوجات البدو الآخرين أنهن يَصْنَعْنَ عباءاتهن الخاصة بأنفسهن. وإلى هنا أيضاً يحضرون السجاد التركي ذا النوعية المتدنية والذي يشكّل جزءاً من الأثاث الذي لا يمكن الاستغناء عنه في خيمة شيخ بدوي. ويُباع كذلك في هذه المتاجر، بالتجزئة، كل ما يُستورَد من مصر وكل ما هو ضروري للملبس كالملايات والعباءات واللُّحف القطنية والكتّان لصناعة القمصان المخططة المصبوغة باللون الأرزق والتي يرتديها الفلاحون والخُفّان باللونين الأحمر والأصفر ويستعملها التجار الأوفرون غنى والسيدات كلهن، فضلاً عن القبعات الحُمر والأثواب الجوخيّة «الصوفية» وشالات الكشمير من الدرجة الثانية، وشالات الموصلين، الخ.

وهناك ستة متاجر كبيرة للسلع والأقمشة الهندية التي تُباع بالقطعة، ويُباع فيها الجوخ الفرنسي وشالات الكشمير، إلخ. يدير هذه المتاجر تجار محترمون، ويقوم البائعون لديهم بالبيع بالتجزئة. كما أن التجار الأساسيين كلهم تقريباً يمارسون البيع بالتجزئة في منازلهم الخاصة باستثناء التجار الهنود الكبار المستقرين هنا والذين لا يتاجرون إلاّ في الأقمشة والمنسوجات الهندية. أما التجار الآخرون في جدة فيعملون في كل فرع من التجارة. وقد رأيت في إحدى المرات شقيق الجيلاني يتشاجر مع بائع متجول من ينبع حول سعر مِلاية أو عباءة تُساوي نحو خمسة عشر شلناً. لكن الحال هي كذلك أيضاً في مصر وسوريا حيث يقوم تجار البلاد الأوفرون غنى بالبيع بالتجزئة كما يدخلون في كل تفصيل دقيق في العمل إنما من غير أن يحتفظوا بأي فريق من الباعة والمحاسبين، إذ إن أسلوبهم في إدارة أعمالهم يجعل من ذلك أمراً غير ضروري. إن التاجر التركي لا يحتفظ أبداً بأكثر من دفتر حسابات واحد يدوّن عليه مبيعاته ومشترياته بعد نقلها أسبوعياً من دفتر الجيب الخاص به. وليس لديهم نظام المراسلة الواسع الشامل ذاك الذي يضطر التجار الأوروبيون على الحفاظ عليه؛ وهم يمارسون الكتابة بدرجة أقلّ كثيراً من نظرائهم الأوروبيين رغم أنهم أكثر وضوحاً ومباشرة في كتاباتهم عندما يكتبون. وهم يحتفظون في كل مدينة لهم فيها معاملات تجارية، بصديق واحد يُسوّون معه الحساب كل سنة. أما التجار الأتراك، باستثناء الذين يعيشون في المرافىء البحرية، فَهُمْ لا يزاولون إلاّ فرعاً واحداً من التجارة ولا يُجرون مراسلة إلاّ مع المدينة التي يحصلون منها على بضاعتهم ومع المدينة التي ينقلون إليها تلك البضاعة. هكذا وعلى سبيل المثال، فإن تجار بغداد في حلب، وهم تجار يملكون رأسمالاً بين ثلاثين إلى أربعين ألف جنيه، يتسلمون السلع من أصدقائهم في بغداد،

ثم يرسلونها من حلب إلى القسطنطينية «استنانبول». وقد عرفتُ الكثير منهم ممّن ليس لديهم باعة وإنما يقومون بأعمالهم كافة بأنفسهم. وفي القاهرة، يتاجر التجار السوريون بالبضائع الآتية من دمشق وحلب ولا صلة لهم بتاتاً بتجار الغرب وسوريا وجدة.

ومما يسهل الصفقات التجارية أكثر هو أن التجار يستخدمون رؤوس أموالهم الخاصة، حيث لا ينتشر نظام العمولة كما هو الحال في أوروبا. وحين يقوم تاجر بتسليم كمية كبيرة من البضائع إلى منطقة ما، فإنه يُرسل معها شريكاً أو ربما قريباً إذا لم يكن له شريك مقيم في المنطقة. أما شؤون المصارف و«الكمبيالات» فهي غير معروفة أبداً بين أهل البلاد مما يوفّر عليهم الكثير من المتاعب. أما في تلك المدن التي توجد فيها المصانع الأوروبية، فيمكن إيجاد «الكمبيالات» لكنها غير متداولة بين أهل البلاد، حيث لا يشيع بينهم إلاّ النقل الشرعي للدَيْن أو الملكية من شخص لآخر.

إن الأسلوب الذي يستوي في اتباعه التجار المسلمون والمسيحيون واليهود في الشرق من عدم وضع موازنة محددة للوضع الحالي لرأس مالهم، هو سبب آخر يجعل من التفاصيل المدوّنة في مسك الدفاتر أقل ضرورة وإلحاحاً هنا منها في أوروبا. وللأسباب نفسها التي لا تدفع البدوي إلى إحصاء الخيم في قبيلته أو العدد الدقيق لقطيعه ولا تجعل العسكري يعدّ الرقم الدقيق لرجاله ولا تحثّ الحاكم على تحديد عدد سكان مدينته، كذلك، فإن التاجر لا يحاول أبداً أن يتأكد من القدر الدقيق لأملاكه، فجلّ ما يريده هو مقاربة بسيطة. ينبع هذا من الاعتقاد بأن العدّ هو عرض متباهٍ للثروة تُعاقب عليه السماء بتخفيضها بسرعة.

نادراً ما يدخل التاجر الشرقي في مضاربات تنطوي على مخاطرة، لكنه يحصر مبادلاته أو عملياته التجارية في حدود رأس ماله. ولا يُعطى قرضٌ بمقدار كبير إلاّ بصعوبة فأعمال الأفراد هي معروفة للعامة أكثر منها في أوروبا؛ لذلك، فنادراً ما تقع الخسائر؛ وإذا ما بات أحد الرجال في وضع حرج. إما من جرّاء مضاربة غير ناجحة أو نتيجة خسائر لا يمكن تفاديها، يمتنع الدائنون عن الضغط في طلباتهم وهم عادة يحصلون على أموالهم بعد بضع سنوات من الصبر، فيُنقذون بهذه الطريقة سمعة التاجر الطيّبة ويتفادَوْن عواقب الإفلاس.

ومن جهة أخرى عادة ما يكون التجار الشرقيون غير مأمونين في مواعيد سدادهم التي غالباً ما يؤخرّونها إلى ما بعد الفترات المحددة. ولا يتردّد التجار المحترمون حتى في تأجيل دفع الدين المستحق عليهم لأشهر عدة، ويمكن اعتبار ذلك قاعدة عامة في مصر وسوريا حيث لا يتم دفع المبلغ بكامله حتى مرور فترة زمنية تقرب من ضعف الوقت المحدد. إلاّ أن ذلك، كما أكّد لي أكثر الناس اطّلاعاً هنا، لم يصبح شائعاً إلاّ خلال السنوات العشرين أو الثلاثين المنصرمة وهو

نتيجة للضعف العام الذي لحق بالتجارة والنقص في رؤوس الأموال في الشرق. وفي جدة، كما سبق أن ذكرت، تتم كل الصفقات التجارية تقريباً بالدفع النقدي.

وهناك ثلاثة تجار للآنية النحاسية. يمكن إيجاد مجموعة منوّعة من الآنية النحاسية المصبوغة جيداً في كل مطبخ عربي. وحتى البدو يملكون على الأقل حَلَّة واحدة واسعة في كل خيمة، وتأتي كلها من مصر. وأكثر تلك الآنية تميزاً هو الإبريق الذي يتوضأ منه المسلم. ولا يصل أي من الحجاج الأتراك إلى الحجاز بغير واحد من تلك الأباريق أو على الأقل، يشتري واحداً من جدة. كما نجد في السوق بعض الآنية النحاسية الصينية، وقد أتى بها الماليزيون إلى هنا لكنها غير مصبوغة. والعرب لا يحبون استعمالها على الرغم من أن النحاس يبدو بنوعية أجود بكثير من ذلك الآتي من بلاد الأناضول والذي يصل من القاهرة.

وهناك أربعة دكاكين للحلاقين. إن الحلاقين هم في الوقت نفسه جرّاحو هذا البلد وأطباؤه فهم يعرفون الحجامة ويركّبون أنواعاً مختلفة من الأدوية المليّنة. إن العدد القليل من العرب الذين لديهم لحية أطول وأغزر من غيرهم من أهالي البلاد، يحرصون كل الحرص على إبقائها مقصوصة بشكل مُتقن بحيث لا تبرز شعرة عن الأخرى. ويُقص الشارب قصيراً دائماً فلا يُترك أبداً ليتدلى فوق الشفتين. وهم يختلفون في هذا عن أتراك الشمال الذين نادراً ما يلمس المقص شاربهم الغزير الأشعث. ويرتاد دكاكين الحلاقين المتسكعون من الطبقات الدنيا الذين يأتون إلى هنا لسماع الأخبار ولتسلية أنفسهم بالتحادث. وقد وجدتُ في إحدى الدكاكين تلك حافر خواتم من أصل فارسي وكان عمله مزدهراً، حيث إن الحجاج، بعد أن يتمّوا زيارة الأماكن المقدسة، يقومون عادة بإضافة لقب حاج على الاسم في خاتمه.

وهناك أربعة خيّاطين، وآخرون كثيرون يعيشون في أجزاء مختلفة من المدينة، وهم في أغلبهم من الأجانب. فخيّاط بلاط طوسون باشا كان مسيحياً من البوسنة، وكان يتمتع بسلطة على الخياطين الآخرين كلهم في المدينة الذين كانوا يشتكون بمرارة ليس من تعرّضهم للأوامر والإهانات فقط بل أيضاً لعصا المسيحيّ هذا.

وهناك خمسة صانعي نعال. وليس في الحجاز أي صانع أحذية، فأولئك الذين ينتعلون الأحذية يشترونها من التجار الذين يستوردونها من مصر.

إن شكل النعال في شبه الجزيرة العربية يختلف من مقاطعة إلى أخرى. وإلى تلك الأشكال التي وصفها «نيبوهر» تفصيلاً، يمكن إضافة أشكال أخرى. وبعضها خاص بطبقات معيّنة من الناس، فإن تاجراً مثلاً لا يمكن أن ينتعل صندل بحّار. وهذه هي الحال كذلك في تركيا فيما

يتعلّق بالأحذية، فللأحذية شكل خاص في كل منطقة ولدى كل طبقة. ويأتي الجلد السميك المستعمل في صنع النعال من مصر والحبشة.

وهناك ثلاثة متاجر تُباع فيها قِرَب المياه الجلدية الآتية من السواقين ومصر ويتم كذلك تصليحها. والقسم الأكبر من الحجاز تتوافر فيه القِرَب من السواقين ويكثر الطلب عليها لأنها خفيفة جداً وتُخاط بإتقان كبير. وتدوم تلك القِرَب، عند الاستعمال اليومي نحو ثلاثة أو أربعة أشهر.

وهناك خرّاطان، يحفران أنابيب الغليون ويصنعان السّبحات، الخ.

وهناك ثلاثة بائعي زيت، من الزيوت الحلوة، والعطور والزّباد (طيب يخرج من بعض غدد سنّور الزّباد) وخشب الألوة والبلْسَم من مكة وماء الزهر من الفيوم في مصر. ونادراً ما يمكن شراء الزّباد وبلْسم مكة في حالتهما الطبيعية النقيّة إلاّ من مصدرهما. ويأتي التجار الحبشيون أو الأثيوبيون بالزّباد في قرون الأبقار ويبيعونه بأربع ليرات للوحدة، وذلك في العام ١٨١٤. ويباعُ المِسك كذلك في تلك المتاجر حيث يُباع أفضله بدولارين للمثقال ويأتي به الحجاج الهنود والفرس.

وهناك ساعاتي تركي واحد. ويستخدم تجار مكة وجدة كلهم الساعات، وهي من صناعة إنكليزية جيدة في أغلبها وتأتي إلى هنا من الهند أو مع الحجاج القادمين من القسطنطينية «استنابول». وكما يحدث عادة، يحتاج الحجاج الأتراك إلى المال في الحجاز، فيُجبرون أحياناً على التخلي عن أغراضهم الثمينة، وتأتي الساعة في الدرجة الأولى ثم تليها المسدّسات والسيوف وأخيراً الغليون ونسخة جميلة من القرآن. وهكذا تغص أسواق المزاد العلني في جدة ومكة بتلك الأغراض.

وهناك بائع واحد للغليون والتبغ التركي والفارسي، ويأتي الأخير من بغداد خاصة. ويعرض الأغنياء عادة في غرف جلوسهم أنواعاً كاملة من الأراجيل الجيدة الصنع والتي تكلّف ما يساوي مائة دولار للقطعة.

وهناك سبعة متعاملين بالمال أو صرّافين. وهم يجلسون على مقاعد في الشوارع العامة مع علبة كبيرة أمامهم تحتوي على المال. كان هؤلاء الصرافون في السابق كلهم من اليهود كما هي الحال الآن، لكن مع بعض الاستثناءات في القاهرة ودمشق وحلب. لكن، منذ أن قام الشريف سرور بإخراج اليهود من الحجاز، تسلّم أهل جدة هذه المهنة بأنفسهم وهي مهنة يميلون إليها بطبيعتهم الفطرية وعاداتهم. وعادة ما يكون هناك عند كل منصّة عدة شركاء ربما بلغوا خمسة أو ستة. وتتطلب ممارسة هذه المهنة مبلغاً كبيراً من المال، لكنها مربحة جداً. وتتغيّر قيمة المال

هنا بسرعة لم أشهدها في أي جزء آخر من الشرق. ويتقلب سعر الدولار والسّكوين يومياً تقريباً، والصرّافون هم دائماً الواثقون من جني الأرباح. وترتفع قيمة الدولار ارتفاعاً ملحوظاً خلال فترة بقاء أسطول السفن الهندية. وحين كنتُ في جدّة ارتفعت هذه القيمة لتبلغ أحد عشر واثني عشر ليرة. وبعد رحيل السفينة، أي حين ينعدم الطلب المباشر على الدولار، تهبط قيمته بسرعة. كان سعر الدولار في شهر كانون الثاني/ يناير من سنة ١٨١٥، تسع ليرات، كما يتغيّر سعر العملة الذهبية نسبة لذلك.

في السابق، كانت العملة القديمة المتداولة في الحجاز هي سكوين البندقية والتّكوين الهنغاري والدولارات الإسبانية والعملة المضروبة في القسطنطينية. أما العملة المصرية فكانت مُبعدة تماماً[١] لكن، منذ وصول جيوش محمد علي باشا. وُضعت العملة المصرية كلها في التداول قسراً، وتوازي العملة المصرية الفضيّة الآن قيمة الدولار الإسباني. وقد استغل باشا مصر الذي كان يتمتع بحق ضرب العملة باسم السلطان، هذا الحق مؤخراً إلى حد بعيد. وقام سنة ١٨١٥ بتضمين دار سك العملة إلى جهة أخرى لقاء مبلغ سنوي مقداره سبعة ملايين ليرة، الذي يعادل حسب المعدَّل الحالي للصرف، نحو مائتي ألف جنيه استرليني، مُجبِراً الناس على شراء الدولار مقابل ثماني ليرات من دراهمه رغم أنه، كما هو معروف تماماً، يساوي الآن اثنتين وعشرين أو ثلاث وعشرين ليرة.

أما في الحجاز فهو لا يملك الوسائل نفسها التي تمكنه من فرض إجراءاته الاستبدادية التعسفية إلى أقصى حد. فيبلغ بالتالي سعر الدولار ثماني ليرات أو تسع عشرة ليرة داخل البلاد حيث يتمركز الجيش التركي. غير أن البدو يرفضون أخذ الليرات المصرية حتى بسعر منخفض ولا يقبلون إلاّ الدولار وهم يصرّون على ذلك إصراراً أُجبر معه الباشا نفسه على الخضوع لهم مرات عديدة.

أما «البارة» (Pára)، أو أصغر عملة تركية (تُدعى هنا «ديواني») فهي شائعة في أنحاء الحجاز كلها ويكثر الطلب عليها لأنها تتمتع بقيمة حقيقية وفعلية أكثر من الليرة رغم أنه مثلها، يتم سكّه في القاهرة. وكل أربعين بارة تساوي ليرة واحدة، لكن في وقت الحج، حين تكون العملات الصغيرة ضرورية لمقايضات الحجاج اليومية الهائلة، لا يعطي الصرّاف سوى خمسٍ وعشرين بارة فقط مقابل الليرة. كما نرى بعض الروبيات الهندية في سوق جدة غير أنها ليست منتشرة ولم أرَ أي عملة مسكوكة من إمام اليمن.

(١) حسب مؤرخي مكة، يبدو أن الشرفاء هناك احتكروا امتياز ضرب عملتهم الخاصة، باسم سلطان القسطنطينية «استانبول»، حتى القرن السابع عشر؛ لكن ذلك تمّ التخلي عنه الآن.

وهناك، في شارع المتاجر الكبير نفسه، عشرة أنزال [فنادق] واسعة وتكتظ دائماً بالغرباء والبضائع. وكان أكثرها ملكاً للشريف سابقاً أما الآن فهي ملك الباشا الذي يفرض على التجار إجارة سنوية. وتُدعى هذه الأبنية في سوريا «خان»، وفي الحجاز «حوش»، وهي كلمة تعني في اللهجة المصرية ساحة أو فناء.

ويعيش في الشارع المحاذي لمكان السوق الكبير بعض الحرفيين والحدادين والنجارين وبعض اللَّحامين، الخ.، ومعظمهم من أهل مصر.

سيُدرك القارىء مما مضى من الصفحات أن جدة تعتمد في سلعها كلياً على المستوردات إما من مصر أو الهند الشرقية، وهذه هي الحال لكل غرض وإن يكُ تافهاً.

إن الحاجة إلى اليد العاملة وارتفاع أجر العمّال والأهم من ذلك الكسل وقلة المثابرة والكدّ المتأصلين في أهالي الحجاز قد منعتهم حتى الآن من تأسيس أي نوع من أنواع الصناعة باستثناء الأغراض الضرورية جداً. وهم، في هذا الصدد، يشكلون نقيضاً للعرب السوريين والمصريين المثابرين عموماً والذين قاموا بتأسيس صناعات عدة على الرغم من العوائق التي تضعها الحكومة أحياناً في طريقهم. وقد جعلتهم هذه الصناعات في بعض أجزاء البلاد مستقلين تماماً بعد أن استغنوا عن الإمدادات الخارجية. ويبدو أن لسكان الحجاز صنعتين فقط، التجارة ورعي الماشية. وتشغل التجارة عقل كل مدينيّ تقريباً بغير استثناء العلماء والمثقفين. فالناس كلهم يسعوْن إلى توظيف ما يملكون من رأس مال في بعض العمليات التجارية المربحة والمفيدة بحيث يتمكن من العيش دون إجهاد جسدي بما أنهم يُبغضون ذلك حتى إنهم لا يمانعون في تحمّل الهموم والمخاطر كلها التي تُلازم التجارة. ومن الصعب حتى إيجاد أشخاص يمارسون العمل العادي الذي يقوم به الحمّال مثلاً وغيره، والذين يقومون بأعمال كهذا هم بأغلبهم غرباء من مصر أو سورية أو حجاج زنوج يكسبون بهذه الطريقة وسائل حياة مريحة، وهم يقيمون عادة في جدة بشكل موقت. إن العرقَ الوحيد الذي عرفته عرقاً مثابراً بين أهل شبه الجزيرة العربية هو شعب حضرموت أو كما يُدعَوْن «الحضارمة»، حيث يعمل العديد منهم خداماً في بيوت التجار، وبوّابين ومراسلين وحمّالين، وهم مفضلون على غيرهم لمثابرتهم ونزاهتهم. إن كل مدينة في الشرق تقريباً فيها حمّالون من عِرقٍ معين، ففي حلب هم الأرمن القادمون من جبال آسيا الصغرى، وفي دمشق هم سكان جبل لبنان وفي القاهرة هم البرابرة النوبيون، وفي مكة وجدة هم «الحضارمة»، وهم كما في سوريا، من سكان الجبال. ومن المعروف أن المواصفات المشابهة لتلك التي يتطلبها هذا العمل تتوافر في مواطنيٌ من سكان جبال الألب للوظيفة نفسها في باريس. وهناك تشابه بارز ومُلفت آخر يجمع بين سكان تلك البلاد كلها وهو أنهم عامة

يعودون إلى بلادهم مع أرباحهم ويُمضون بقية حياتهم مع عائلاتهم. وعلى الرغم من توافر هذا المورِد الهام للأيدي العاملة، إلاّ أن هناك انعداماً شبه كامل للخدم الأحرار في الحجاز. وإن أي رجل قد وُلد في واحدة من المدن المقدسة لن يقوم أبداً بمهنة خادم منزلي إلاّ إذا ما دفعه إلى ذلك الخوف من الموت جوعاً، ولا تلبث أن تتحسّن حاله حتى يتوقف عن هذا العمل ويتحول إلى بائع متجول أو متسوِّل. إن عدد المتسوّلين في مكة وجدة مرتفع جداً، ويتندر تجار جدة بالقول إن شخصاً من جدة لن يعمل أبداً طالما أنه يستطيع تأمين حياته عن طريق التسوُّل. ويشجِّع الحجاج كثيراً التسوُّل فهم يعشقون عرض إحسانهم منذ أن تلمسَ أقدامهم الأرض المقدسة في هذا المكان.

فيما يتعلق بشعب جدة وبطبيعتهم، سأجد الفرصة لتقديم بعض الملاحظات في وصف سكان مكة الذين يشبهونهم عامة. وفي الواقع، تملك العائلات المحترمة كلها بيوتاً في المكانين وهم ينتقلون غالباً من مكان إلى آخر.

يحكم جدة باشا ذو ثلاث أشرطة، وهو يأخذ الأسبقيّة على معظم الآخرين لارتباط هذا المكان بالمدينتين المقدستين، لكن نبلاء الأتراك قلما يقدِّرون هذا المنصب المحترم، فهم كثيراً ما اعتبروا جدة مكاناً للنفي أكثر منه للترقية، وغالباً ما كان توليه يُسند إلى رجال الدولة المغضوب عليهم. ولا ينصَّبُ الباشا نفسه والياً أو حاكماً لجدة فقط بل لسواقين والحبشة؛ وهو، لدعم وتعزيز منصبه، يضع مأمورين للجمارك في سواقين والمصوع، وهما منطقتان كانتا ـ قبل حكومة محمد علي ـ تابعين كلياً للشريف.

وقد هُمِّشت الباشاوية كلياً في جدة تحت سلطة شريف مكة وباتَ اللّقب مجرد تميز معنوي يتمتع به حاملوه وهم يسكنون في مدينة ريفية في تركيا والقسطنطينية من غير أن يحاولوا أبداً السيطرة على الحكم إلاّ أنه حصل استثناء سنة ١٨٠٣، عندما ذهب شريف باشا إلى جدة مع أربعمائة أو خمسمائة جندي، بعد إخلاء مصر كلياً على يد الفرنسيين؛ لكنه، كأسلافه، بات مجرَّد أداة في أيدي الشريف غالب. وفي سنة ١٨٠٤، انتهت سيرته بالموت المفاجىء وهو مصير عدة باشاوات سابقين في جدة ومكة.

وعلى وفق أوامر السلطان الذي كانت سيادته الاسمية على الحجاز معترفاً بها حتى آخر فتح وهابي، كان من المفروض أن تُقسم العائدات المجبيّة من جدة بالتساوي بين الباشا وشريف مكة، في حين أنه كان للأول حصرياً إمرة المدينة. وعندما بدأ الأتراك بإخضاع آسيا، تلقّى الشريف ثلث هذه العائدات فقط، ولم يحصل على النصف حتى سنة ١٠٤٢ للهجرة[1]. غير أن

(١) راجع الأعصمي، تاريخ الحجاز.

الشريف قام بالتالي، ليس فقط باغتصاب حكومة جدة، لكنه خصَّص الضرائب كلها كذلك لاستعماله الشخصي، وبات الباشا معتمداً كلياً على عطائه وسخائه.

بعد موت شريف باشا بقليل، أُجبرَ الشريف غالب على تسليم مكة إلى الوهابيين بعد أن تمّت محاصرته في جدة في العام الذي سبق ذلك من قبل «سعود»، ثم أعلن نفسه مُلتزماً بالدين الوهابي وأحد رعايا القائد الوهابي على الرغم من أنه بقي يحتفظ كلياً بوضع اليد على جدة وما تنتجه من ضرائب كانت تشكل الجزء الأساسي من دخله. ولم يدخل الوهابيون المدينة التي تظاهرت بتأيدها لعقائدهم. وأُجبر الجنود الأتراك بالتالي على الانسحاب باتجاه مصر أو مكان آخر. ومنذ تلك الفترة وحتى سنة ١٨١١، أُبعدت السلطات التركية كلها من الحجاز.

في سنة ١٨١١، بدأ محمد علي باشا حملاته ضد الوهابيين بإرسال فرقة من الجنود بقيادة نجله طوسون بك الذي هُزم في الممرات بين يَنْبُع و«المدينة». وتمت الحملة الثانية سنة ١٨١٢، وكانت أكثر نجاحاً، ففي حين استولى طوسون على «المدينة» في شهر أيلول/ سبتمبر من السنة نفسها، اتجه مصطفى بك، وهو صهر الباشا، مباشرة إلى جدة ومكة والطائف مع الفرسان بإمرته، وقد استسلمت تلك المدن تقريباً دون سفك الدماء. إن الشريف غالباً الذي قام باتصال سري مع مصر منذ اللحظة التي بدأ يُدرك فيها إمكانية نجاح حملة محمد علي، أعلن نفسه صراحة صديقاً للأتراك الذين دخلوا جدة كأصدقاء. وسريعاً بعد ذلك، منح الباب العالي طوسون لقب «باشا» مكافأة له على خدماته. وستُقدَّم تفاصيل تلك الحرب لاحقاً. لذلك، سأكتفي هنا بأن أذكر أنه، بعد أن دخل العثمانيون أو الأتراك إلى جدة، نشأ خلاف بين الباشا والشريف فيما يتعلق بالضرائب التي كان يجب أن تُقسَّم بينهما والتي احتفظ بها الباشا كلها لنفسه بعد أن أصبح متفوقاً في قوته وسلطته، وقام بإرسال الشريف سجيناً إلى تركيا. ومنذ تلك الحادثة، بقيت المدينة تحت تصرفه إذ إن الشريف الجديد، يحيى كان في خدمة طوسون.

كان يحكم جدة على زمن الشريف غالب، هو نفسه حين كان يقيم هناك أو يتولى ذلك خلال غيابه ضابط يُدعى «وزير» كانت شرطة المدينة تحت إمرته، بينما عُهِد بجبْي الضرائب أو الجمرك إلى ضابط آخر ويُدعى «الجمركجي»؛ وسُلِّمت شرطة المرفأ، إلى «أمير البحر» وهو لقب يوازي لقب «سيد المرفأ». في وقت لاحق، كان الوزير عبداً أسود من عبيد غالب وكان مكروهاً جداً لغروره وسلوكه الاستبدادي. ونادراً ما كان غالب يقيم في جدة لأن مكائده المتواصلة مع البدو ومخططاته ضد القبائل الوهابية، كل ذلك كان يتطلب وجوده في الموقع المركزي في مكة.

لم يغيّر العثمانيون شكل الحكومة التي كانت في عهد غالب. وما حدث أن طوسون باشا

كان نادراً ما يستطيع الإقامة في عاصمته كونه تحت إمرة أبيه الذي كان يتلقى التعليمات كاملة عن حرب الحجاز من الباب العالي، إضافة إلى تنظيم الموارد في هذا البلد. وكان استخدام طوسون في التنقّل مع فصائل تحت إمرته أكثر نفعاً، إلى أن عاد إلى القاهرة في شتاء سنة ١٨١٥. ومنذ العام ١٨١٢ كان يقيم في المدينة بشكل دائم قائد عسكري مع فرقة من مائتين إلى ثلاثمائة رجل كان الباشا يحرص على تبديلهم كل ثلاثة أو أربعة أشهر. كما أن جبي الضرائب والتنظيم الكامل للشؤون المدنية والاتصال مع القاهرة ومكة وإرسال الجنود والذخائر والتجارة الحكومية بين مصر وجدة فضلاً عن خزينة الباشا، كل ذلك كان في أيدي هذا القائد واسمه سيد علي أوجقلي. وكان والده من آسيا الصغرى وهو ينتمي إلى فيلق الإنكشاريين (أوجق) الذي جاء منه لقب «أوجقلي». ويكرهه تجار جدة لأنهم يتذكرونه وهو يبيع الفستق في الشوارع منذ عشرين عاماً. وقد كان في زمن الشريف غالب موظفاً لديه في أعماله التجارية الخاصة، لأنه يمتلك مواهب عديدة ونشاطاً كبيراً فضلاً عن معرفة واسعة باللغة التركية، كان من الصعب على محمد علي اختيار شخص أكثر كفاءة منه ليشغل المنصب الذي يتولاّه الآن.

يأتي دخلُ جدة العام كله تقريباً من الضرائب وتُدعى هنا «العُشُور». وقد علمت أن هذه يجب أن تكون قانونياً عشرة في المئة على السلع المستوردة كلها؛ لكن، نتيجة سوء استعمال ذلك القانون والذي مورِسَ لوقت طويل، كان يُفرض على بعض السلع ضريبة أعلى من ذلك بكثير في حين أنها أقل بكثير على سلع أخرى. وخلال الفترة الأخيرة من سلطة الشريف، كانت الضريبة على القهوة تبلغ خمسة دولارات للقنطار الواحد أي ما يعادل خمسة عشر إلى عشرين في المئة. وكانت الضريبة على التوابل أقل من عشرة في المئة إلى حد ما، وعلى السلع الهندية كانت أكثر بقليل. لذلك كان هناك عدم دقة وانتظام في فرض الضرائب. كما يدخل ضمن صلاحيات ضابط الجمارك وسلطته الحق في محاباة أصدقائه دون أن يتعرّض لأي مسؤولية.

بعد أن اعتنق الشريف مذهب الوهابيين انخفض دخله بشكل كبير لأن «سعوداً»، وهو زعيم الوهابيين وقائدهم، أصرَّ على أن تمرَّ السلع التي تخص أتباعه بلا ضريبة. فأصبح بالتالي الجزء الأكبر من تجارة القهوة مُعفى ومُستثنى من الضريبة، وقد سمعتُ من شخص لديه الوسيلة لمعرفة الحقائق وليس لديه الدافع لإخفائها عني، أن معدل الضرائب المجبيّة في جدة سنة ١٨١٤ كان أربعمائة ألف دولار، أي ما يعادل ثمانية آلاف كيس دراهم أو أربعة ملايين ليرة، التي قد تؤمن استيراداً سنوياً بنحو أربعة ملايين دولار وهو مبلغ أقل من الحقيقة والواقع بالطبع وليس أكثر منها. وتُفرض الضريبة نفسها وبالمعدّل نفسه عند بوابتي المدينة، أي باب مكة وباب «المدينة»، على كل المؤن الآتية من داخل البلاد وخاصة الماشية والزبدة والتمور، وهي تصبح

ذات أهمية فائقة في زمن السلم، وعندما يكون الاتصال مع الداخل غير مقطوع. وما عدا تلك، فإن سكان المدينة لا يدفعون أي نوع من الرسوم أو الضرائب.

خلال إقامتي، جعل الأتراك من جدة المستودع الرئيسي لجيشهم. وكان هناك مستودع حنطة كبير يعود إلى الباشا كان يتلقى تقريباً مخزوناً يومياً من مصر، وكانت القوافل تُرسلُ إلى مكة والطائف كل يوم. كذلك، فقد ازدهرت تجارة المدينة بسبب احتياجات الجيش وطلباته والتابعين له. وقد تمّ تنظيم الشرطة في المنطقة بشكل جيد، وقد أعطى الباشا الأوامر الصارمة إلى جنوده يمنعهم بموجبها من القيام بأي تجاوزات، لأنه كان يعرف تماماً أن العرب ذوي المبادىء السامية لا يخضعون بصمت وسهولة للمعاملة السيئة كالمصريين المستعبدين. فأينما ينشأ عراك بين عرب وأتراك، كان للعرب عامة الأفضلية. ولم يُمارَس أي عمل جائر هدفه القمع والظلم على الأفراد تحت أي ادّعاء، باستثناء احتلال الباشا لعدد من أفضل المنازل ليجعل منها مسكناً لزوجاته. إلاّ أن التجار كانوا يعانون، كما في زمن الشريف من معدّلات الضرائب العشوائية ومن ضرورة شراء أنواع السلع كلها من الباشا غالباً، الذي بدا، وهو في الحجاز، حريصاً على تجارته حرصه على طموحاته العسكرية. لكن، وبعد إلقاء نظرة مجرَّدة على حسنات الحكومتين وسيِّئاتهما، يمكن القول إن سكان جدة قد ربحوا بالتأكيد مع العثمانيين؛ ولكن من الغريب أننا لا نجد أي عربي، غنياً كان أم فقيراً، متعلّقاً بصدق بأسياده الجُدد، وقد عمّ الندم والأسف بين الناس أجمعين لانتهاء عهد الشريف. ولا يجب أن نردّ ذلك كله إلى التقلب المعتاد الذي نشهده لدى الجماهير وخاصة منهم رعايا الباب العالي أكثر مما نشهده في أي دولة أوروبية. فالحاكم أو الباشا العثماني يتغيّر باستمرار حيث يصبح كل حاكم جديد الحاكم الأعلى الذي يعطي أسباباً وافرة كافية تدفع بهم إلى الشكوى والتذمّر والكره والبغض. في حين أن تعاقبهم السريع يعطي الناس الأمل بالتخلص قريباً منهم ومن استبدادهم الحالي ثم يتطلّعون بعد ذلك إلى الإمام بسرور لأن الأشهر الأولى للحاكم الجديد تتميّز عامة بالرأفة والعدل.

إن عرب شبه الجزيرة العربية أمّةٌ أبية شجاعة، وهذا ينطبق حتى على سكان المدن، وذلك مهما كان فساد الشخصية الحقيقية للبدوي بين هذا العرق المنحطّ. فهم يحتقرون كل أمة لا تتكلم اللغة العربية أو تختلف عنهم في أسلوب عيشها. إلى جانب ذلك، فقد اعتادوا لسنوات عديدة أن ينظروا إلى الأتراك كشعب أدنى مرتبة كلما دخل إلى الحجاز كان يُرهب بسلطة الشريف.

إن الطقوس والشعائر الصارمة في البلاط التركي لم تكن تناسب الرعايا الجدد لمحمد علي

ولا مفاهيمهم الراسخة. فالشريف، في أعلى سلطته، كان يشبه شيخاً بدوياً كبيراً يرضى بأن يُخاطَب بطريقة وقحة وأحياناً قاسية. أما الباشا التركي فكان يُخاطب بأكثر أشكال العبودية إذلالاً. وقد روى لي أحد أكبر تجار الحجاز «أن الشريف غالباً، كان كلما أراد قرضاً مالياً يُرسل في طلب ثلاثة أو أربعة منّا، وكنّا نبدأ محادثات مغلقة معه لبضع ساعات وكنا أحياناً نتشاجر عالياً حيث كنا دائماً نخفّض المبلغ إلى أقل بكثير مما طُلب في البداية. وحين كنا نذهب في أعمال عادية إليه كنا نكلّمه كما أكلّمك الآن، إلاّ أن الباشا كان يُبقينا واقفين أمامه بشكل مذل كالكثير من العبيد الحبشيّين، وكان ينظر إلينا بنظرة متعالية كما لو كنا كائنات وضيعة حقيرة». ثم ختم قائلاً: إنه يفضّل أن يدفع غرامة للشريف على أن يحصل على معروف من الباشا.

إن المعرفة القليلة البسيطة التي يملكها الأتراك للغة العربية ولفظهم السيئ لها حتى وهم يتلون آيات من القرآن، وجهلهم لشبه الجزيرة وخصوصياتها التي ينتهكونها في كل فعل يقومون به، كلها أسباب عديدة إضافية لجعلهم مكروهين ومحتقرين في نظر العرب. ويبادلهم الأتراك ذلك الشعور بنسبة الازدراء والكره نفسها. فإن كل من لا يتكلم لغة الجندي التركي أو لا يرتدي زيّه، يعتبرونه «فلاّحاً» أو ريفياً ساذجاً وهي عبارة اعتادوا أن يطلقوها على الفلاحين المصريين كونهم كائنات يعيشون تحت أدنى حالة من العبودية والقمع. أما كرههم للعرق العربي فأكبر بكثير لأن هذا العرق لا يمكنه التساهُل مع تصرُّفاتهم الاستبدادية وتمريرها بلا عقوبة، كما اعتادوا في مصر، فهم مُقتنعون بأن العربي إذا ما ضُرب فإنه سيضربُ مرة أخرى. ويتّهم العربُ الأتراكَ خاصة بالغدر والخيانة حين قبضوا على الشريف وأرسلوه إلى تركيا بعد أن أعلن موالاته للباشا، وسمحوا للجيوش التركية باحتلال جدة ومكة وهم، كما يؤكدون، ما كانوا ليُحرزوا تقدّماً أبداً في شبه الجزيرة دون مساعدة الشريف، أو أن يحصلوا حتى على موطىء قدم هنا.

إن عبارة «خائن» تُطلق على كل تركي عموماً في شبه الجزيرة تُرافقها تلك الثقة الفخورة بالتفوُّق، وهو أمر اشتهر به العرب في هذا الصدد باستحقاق. وقد اكتشفت الطبقات الدنيا من العرب توكيداً خيالياً للتهمة التي تطلقها على الأتراك، وذلك في اللقب الذي يُطلق على السيد الأعظم وهو «خان»، وهي كلمة تتريّة قديمة وتعني الخيانة باللغة العربية، فهي صيغة الماضي من فعل يخون. وهم يدّعون أن أحد أسلاف السلطان حصل على التسمية الحقيرة بعد أن خان أحد اللاجئين: «السلطان خان»، وأن خلفاءه احتفظوا باللّقب لجهلهم اللغة العربية.

كلما ضعفت سلطة الأتراك وقوّتهم في الحجاز، وهذا ما سيحدث حين لا تعود الموارد المصرية موجّهة إلى تلك الوُجهة، من حاكم بقدرة ورسوخ محمد علي نفسها في مصر،

فسوف يثأر العرب للخنوع والتسليم، وإن يكن خفيفاً، الذي يُظهرونه الآن على مضض لفاتحيهم؛ وربما ينتهي حكم العثمانيين في الحجاز بمشاهد دموية عديدة.

الطريق من جدة إلى الطائف(*)

في الرابع والعشرين من شهر آب/أغسطس، سنة ١٨١٤ (الموافق للحادي عشر من شهر رمضان سنة ١٢٣٠هـ) انطلقتُ من جدة في ساعة متأخرة من المساء برفقة دليلي وعشرين من سائقي الجمال المنتمين لقبيلة حرب والذين كانوا يحملون المال إلى مكة لخزينة الباشا. وبعد أن غادرنا ضواحي المدينة عبر طريق تمر بهضبات صغيرة من الرمل حيث تقع مدافن السكان، اجتزنا سهلاً رملياً قاحلاً يرتفع قليلاً نحو الشرق وقد خلا من الأشجار وغُطّي بالملح حتى ميلين من المدينة. وبعد ثلاث ساعات من السير دخلنا بلداً كثير التلال حيث يقع مقهى بالقرب من بئر تُدعى رغامه. وتابعنا سيرنا في وادٍ فسيح متعرّج بين تلك التلال، منها الرملي ومنها الصخري، وبعد مرور خمس ساعات ونصف توقّفنا لفترة قصيرة عند المقهى والبئر التي تُدعى «البياضية»، وإن مياه هذه الآبار ليست جيدة. من هنا، بلغنا خلال ساعة ونصف (سبع ساعات في الإجمال) محطة مشابهة تدعى الفراينة حيث أدركنا قافلة حجاج كانوا ينقلون السلع والمؤن المعدَّة للجيش، وكانوا قد تركوا جدة قبلنا في المساء. وللمقاهي بُنية بائسة والجدران نصف متداعية والأسطح من الأغصان المقطوعة، لا يقدّمون فيها سوى القهوة والماء. يُقال إنه في السابق، كان هناك اثنا عشر مقهى على هذه الطريق حيث كانت تُقدم المرطبات من كل نوع إلى المسافرين بين جدة والمدينة المقدسة؛ لكن أغلب هذه المقاهي قد هُجرت الآن لأن الرحلات أصبحت تقام ليلاً ولأن الجنود الأتراك لا يدفعون لقاء شيء إلاّ بالقسر والإكراه. ويُشرف على العدد القليل الباقي بعض العرب من قبيلة لهيان (وهي فرع من عرب هُذيل)

(*) كنتُ عاجزاً خلال هذه الرحلة عن تحديد أي اتجاه لأن البوصلة الوحيدة التي كنتُ أملكها. والتي ساعدتني خلال رحلتي في بلاد النوبة، توقّفت عن العمل، ولم تسنح لي فرصة استبدالها حتى شهر كانون الأول/ ديسمبر من هذه السنة حين حصلت على واحدة من سفينة هندية وصلت إلى جدة.

والمطارفة وعائلاتهم من البدو ويعيشون بين التلال مع قطعانهم. ومن محطة «الفراينة» يتّسع الوادي، والتلال التي تنفرج وتتباعد على الجانبين تزيد ارتفاعاً بشكل ملحوظ. وعند الفجر، بعد مرور ثماني ساعات، بلغنا بحره، وهي عبارة عن مجموعة من عشرين كوخاً تقع على أرض منبسطة يبلغ طولها أربع ساعات وعرضها ساعتان وتمتدّ نحو الشرق. وفي بحره، هناك الكثير من المياه في الآبار، بعضها عذب وبعضها الآخر مالح قليلاً. ويُباع الأرز في صف من ثمانية أو عشرة متاجر، وفيها أيضاً البصل والزبدة والبلح وحب القهوة أو البن وترتفع أسعارها بنسبة ثلاثين في المئة من سعر سوق جدة. هذا ما يدعوه العرب «سوق»، وتوجد هذه الأمكنة المماثلة في كل محطة في هذه السلسلة من الجبال وصولاً إلى اليمن. وكان ثمة فرقة خيّالة تركية متمركزة في بحره لحراسة الطريق. وبعد أن ابتعدنا عن السهل لساعتين، توقفنا على بُعد عشرة ساعات من جدة، عند الهدَّة وهي سوق مشابهة للأولى. وبين بحره والهدة، فوق رابية معزولة في السهل، بقايا حصن قديم.

في الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس، تتوقّف القافلة المتّجهة من جدة إلى مكة في بحره والهدة خلال النهار لترتاح، مُتّبعة بذلك العادة الشائعة عند العرب في الحجاز الذين لا يسافرون إلاّ ليلاً. وهذه هي العادة المتَّبعة في الشتاء كما في الصيف، ليس بهدف تفادي الحر بقدر ما هو لمنح الجمال فرصة للأكل، لأن هذه الحيوانات لا تأكل في الليل. إن هذه المسيرات الليلية لا تُلائم المسافر الباحث الذي يجتاز البلاد في وقت لا يتمكن فيه من رؤية أي شيء؛ كما أن التعب والرغبة في النوم خلال النهار تجعل من كل جهد مصدر إزعاج وضيق.

ترجّلنا عند الهدة، تحت سقيفة مقهى فسيح حيث وجدتُ حشداً يتألف من مزيج من عرب وأتراك في طريقهم من أو إلى مكة، كلٌّ متمدد على سجادته الصغيرة. وقد أحضر بعض التجار من الطائف للتوّ حمولة من العنب؛ وعلى الرغم من شعوري الدائم والمستمر بالضعف والوهن جراء الحمّى، فإني لم أستطع مقاومة الإغراء فأخذت بعضاً منه؛ إذ إن السّلال، ما إن فُتحت حتى انقضّ الجميع عليها وما لبثوا أن التهموا الحمولة بأكملها، لكن أصحابها تقاضوا المال بعد ذلك. في الهدّة يلبس سكّان جدة «الإحرام» أو ملابس الحج عند الحج إلى مكة. وعلى وفق الشرع الإسلامي، فإن على كل شخص ارتداءه مهما كانت مكانته، كي يدخل إلى الأرض المقدسة في مكة، إما ليحُجّ أو لأي أهداف أخرى، ويُمنع من خلعه حتى يفرغ من زيارة المعبد «المسجد الحرام». غير أن العديد من الناس ينتهكون هذا الشرع، إلاّ أن الرجل التقي من أهل مكة لا يذهب أبداً إلى جدة من غير أن يأخذ «الإحرام» معه، وعند عودته إلى دياره، يرتديه في هذا المكان. وفي فترة بعد الظهر وضع بعض الجنود الأتراك الذين كانوا هنا هذا الزي متمّمين كذلك الشعائر المفروضة وهي عبارة عن وضوء، أو إذا أراد الحاجّ، اغتسالاً كاملاً،

وجهراً بالنية وصلاة من ركعتين وترديد الهُتافات الدينية وتُدعى التلبية. وبما أن الوقت كان وقت حربٍ استمر الجنود في حمل أسلحتهم فوق العباءة.

في فترة بعد الظهر، قام مدير المقهى بترتيب المؤن التي أحضرتها معي وتلك التي تخصُّ كثيرين آخرين في المجموعة. وكانت الفوضى تعم المكان فلم يستطع أحد معها النوم. وبعد وصولنا بقليل، مرّت فصيلة من الجنود ونصبوا خيمهم على مسافة أبعد بقليل في السهل. ثم دخلوا إلى المقاهي وأخذوا الماء العذب كله الذي أُحضر من بئر تبعد مسافة نصف ساعة واحتفظوا بها في الهدّة في جرارٍ كبيرة. وهكذا، فإن الأكواخ الخاصة ببعض السكان الفقراء مُعرَّضة دائما لكل المصادفات المحتملة الحدوث والتي تصاحب مرور فصائل الجند المتواصل. وهي مصنوعة من الأغصان المقطوعة ولها شكل مخروطي مسطح ولا يدخل إليها النور إلاّ من المدخل: هنا تعيش العائلة بأجمعها مجتمعة في غرفة واحدة. والمقاهي العديدة عبارة عن سقائف فسيحة، مرتكزة على قوائم أو أعمدة وفيها موقد للنادِل موضوع في زاوية. وفيها عدد هائل من الجرذان الضخمة التي لم أرَ أجرأ منها أبداً.

غادرنا الهدّة نحو الساعة الخامسة مساء، وتتواصل الطريق على السهل. والتربة رملية وهي ممزوجة بالطَّفل في بعض الأجزاء، ويمكن زراعتها بسهولة على ما أعتقد وذلك عبر حفر الآبار. وقد رأينا، على مسافة ساعة واحدة من الهدة، إلى يسارنا في السهل، بعض أشجار النخيل. وكما علمت، يجري هنا جدول صغير كان يروي فيما مضى بعض الحقول. أما الأشجار فهي مُهملة في الوقت الحاضر. غادرنا الآن السهل وانحرفنا قليلاً باتجاه الجنوب من مسيرتنا شرقاً، ودخلنا مرة أخرى منطقة كثيرة التلال ووصلنا بعد ساعتين من الهدة إلى مقهى آخر يدعى شميسة وخلفه يقع جبل شميسة الذي استخرجوا منه، حسب مؤرخي مكة، الرّخام المستعمل في صنع عدة أعمدة في مسجد تلك المدينة المقدسة. وهناك بئر في الجبل قرب المقهى من شميسة، اجتزنا وادياً فسيحاً وقد غطّته الرمال العميقة ونمت فيه الأشجار الشائكة. ومررنا، على بعد أربع ساعات من الهدة، بمقهى سالِم أو قهوة سالِم وببئر حيث التقينا بقافلة قادمة من مكة. ولم تترك الجبال المتقاربة جداً في هذا المكان إلاّ وادياً ضيّقا ومستقيماً يتقاطع بين فسحة وأخرى مع عدة أودية أخرى. ثم تابعنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى الحجلية وهو مقهى يبعد مسافة سبع ساعات عن الهدّة وبالقرب منه بئر كبيرة تزوِّد سائقي الجمال في قافلة الحج السورية في طريقها من وإلى مكة.

ولأني لم أتمتع بلحظة رقاد منذ أن غادرتُ جدة، فقد استلقيتُ على الرمال ونمتُ حتى مطلع الفجر، بينما تابع رفاقي طريقهم إلى مكة. ولم يبق معي إلاّ دليلي، لكن خوفه على

سلامة جماله لم يسمح له بإغماض جفنيه، لأن الطريق من جدة إلى مكة كثيراً ما يرتادها أشخاص مشبوهون؛ وبما أن الجميع يُسافر ليلاً، يُسرق ويُنهب التائهون بسهولة. وبالقرب من الحجلية آثار قرية قديمة بُنيت من الحجر كما في الوادي آثار زراعة سابقة قديمة.

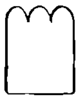
في السادس والعشرين من شهر آب/أغسطس، وعلى بُعد نصف ساعة من الحجلية، وصلنا إلى مزرعة نخيل صغيرة يحيطها جدار. وتتجه الطريق إلى مكة من هناك يميناً وتدخل المدينة عبر حي يدعى جروِل. وكان لدى دليلي أوامر تقضي بأخذي عبر طريق فرعية إلى الطائف تمر في شمالي مكة وتتفرع عند الهدة، وتقطع الطريق من مكة إلى وادي فاطمة ثم تلتقي بالطريق الكبيرة من مكة إلى الطائف، خلف وادي منى. وقبل أن نغادر الهدّة بقليل، قام دليلي، الذي كان يجهل أي شيء يختص بي سوى أن لديَّ عملاً مع الباشا في الطائف وأني أدّيت الشعائر والطقوس الظاهرية كلها لحاج مسلم وأني كنت سخياً معه قبل رحيلنا، قام بطرح سؤال عليَّ لمعرفة السبب الذي أُمِر لأجله بأخذي من الطريق الشمالية، فأجبته بأن السبب يعود ربما إلى أن هذه الطريق أقصر من الأخرى، فقال إن ذلك خطأ، لأن طريق مكة قصيرة أيضاً وأكثر أماناً، وسألني إذا لم يكن لدي من مانع أو اعتراض فإننا سوف نتابع طريقنا عليها. وكان هذا ما تمنّيته تماماً رغم أني حرصت على عدم إبداء أية لهفة بالنسبة إلى هذا الموضوع، وهكذا، فقد تبعنا الطريق العادية الكبيرة برفقة المسافرين الآخرين. لكن عوضاً عن أخذي عبر الطريق الاعتيادية التي جعلتني أمرّ بالمدينة على كامل طولها، فقد قادني دون أن أتنبّه لذلك على طريق مختصرة، إذ لم يكن لديه فضول يُشبعه فحرمني بالتالي من فرصة رؤية مكة بالكامل في هذه المرة.

من مزرعة النخيل خلف الحجلية، وبعد نصف ساعة، بلغنا السهل الذي تخيّم فيه عادة قافلة الحج السورية، وقد أُطلق عليه اسم «شيخ محمود» من قبر قدّيس يُدعى بالاسم نفسه وقد بُني في وسطه. وهو مطوّق بجبال منخفضة ويبلغ طوله ميلين إلى ثلاثة أميال، وميل واحد عرضاً وتفصله عن وادي مكة سلسلة من التلال الضيّقة وقد شُقّت عليها طريق عبر الصخور بجهد وعناء كبيرين. وقد صعدنا على هذه الطريق، وعلى قمة التلة برجان للمراقبة بناهما الشريف غالب على جانبي الطريق. وحين نزلنا من الجهة الأخرى حيث عُبّدت الطريق، بدا أمامنا منظر مدينة مكة. وبعد ساعة ونصف الساعة من الحجلية دخلنا الحي الشرقي من المدينة قرب قصر الشريف (أُشير إليه برقم ٥٠ على الخريطة). وهناك، عند الجزء الأكبر من المدينة إلى يميننا، وقد حجبت جزءاً منها منعطفات الوادي. وعلماً مني بأني سأعود إلى مكة، لم أُلحّ على دليلي بأن يدعني ألقي نظرة شاملة على المدينة حيث إننا سنضطر لهذه الغاية إلى الرجوع نحو ميلين في الاتجاه المعاكس. فكبحتُ فضولي وتبعته وأنا أُردد تلك الهتافات المعتادة عند الدخول إلى المدينة المقدّسة.

لقد سافرتُ بعد ذلك مرات عديدة بين مكة وجدة في الاتجاهين. ومعدل سرعة سير القافلة هنا بطيء جداً ونادراً ما يتعدى ميلين في الساعة. وقد سافرتُ من مكة إلى جدة على ظهر حمار في ثلاث عشرة ساعة. إن بالإمكان تقدير المسافة تماماً بست عشرة أو سبع عشرة ساعة من السير أو بنحو خمسة وخمسين ميلاً، ويميل الاتجاه قليلاً إلى الشمال الشرقي. وعندما استدرنا يساراً مررنا بعد مسافة قصيرة، بثكنات الشريف الكبيرة، ثم ترجّلنا في الضاحية المدعوة الموابدة عند منزل عربي صادف أن كان دليلي على معرفة شخصية به. وكان الوقت وقت صيام شهر رمضان، إلاّ أن المسافرين قد أُعفوا، حسب الشريعة، من الالتزام به. وقد حضّرت لنا ربة المنزل، وكان زوجها غائباً، فطوراً دفعنا لها ثمنه وبقينا في المنزل حتى بعد منتصف النهار. ثم ركبنا جمالنا واستدرنا عند حديقة الشريف الواقعة في أقصى الطرف الشرقي من الضاحية وأخذنا الطريق العليا إلى وادي مِنى. وتؤدي إلى مِنى أودية متعرّجة عريضة أو أقل عرضاً وقد غطّتها الرمال وخلت بأكملها تقريباً من الخضرة، وقامت على الجانبين تلال جرداء كذلك. وعلى بُعد نصف ساعة من حديقة الشريف، تتكشّف المنطقة قليلاً إلى الشمال. وتمر هناك القناة التي تزوّد مكة بالمياه العذبة. ورأينا، على بُعد ميلين، عند طرف الفتحة، جبلاً مخروطي الشكل يُدعى جبل النور ويعتبره الحجاج مقدّساً كما سيُذكر فيما بعد. ومررنا، بعد ساعة ونصف الساعة بخزان كبير إلى يميننا وقد بُني من الحجر ويُملأ بالماء في موسم الحج من القناة التي تمر بالقرب منه. وأعتقد أن هذا المكان هو الذي يُدعى «سبيل الست». ويُدعى أحد الأودية الجانبية بين مكة ومِنى، وادي محصب. ويقول الفاسي، مؤرخ مكة، إنه كان هناك سابقاً ستة عشر بئراً بين تلك المدينة ومِنى. وبعد مرور ساعتين، بعد أن صعدنا قليلاً على ممر معبّد شُقّ عبر الوادي، ويبلغ عرضه أربعين ياردة، دخلنا وادي مِنى. وشاهدنا قرب الممر حقلاً صغيراً يُروى بواسطة بئر مالحة قليلاً حيث زرع بعض البدو البصل والكرّاث لسوق مكة. وسأعطي فيما بعد وصفاً مفصّلاً أكثر عن وادي مِنى حيث يبقى الحاج ثلاثة أيام بعد عودته من عرفات.

تابعنا طريقنا بين المنازل المهدّمة في مِنى ومررنا بالأعمدة القصيرة التي يرشقها الحاج بالحصى، ثم بقصر الشريف وولجنا البلاد المفتوحة التي تمتد من هناك باتجاه المزدلفة على بُعد ثلاث ساعات وثلاثة أرباع الساعة من مكة. وقد أُعطي هذا الاسم لمسجد صغير يكاد يكون مهدّماً الآن وتقع بالقرب منه بركة أو خزّان مياه. تُلقى هنا خُطبة من على منبر عالٍ أمام المسجد في حضور الحجاج بعد عودتهم من عرفات. ويقول المؤرخ الفاسي إن هذا المسجد قد بُني سنة ٧٥٩هـ ويُدعى أحياناً المشعر الحرام. لكن، وحسب الكاتب نفسه، يعود هذا الاسم لتلة صغيرة على طرف وادي المزدلفة والتي تحمل أيضاً تسمية الكازه. وهناك طريقان من

المزدلفة تؤديان إلى عرفات. وتُدعى تلك الواقعة إلى اليسار في موازاة السهل أو الوادي «ضُب» (Dhob) والأخرى تقود مباشرة عبر الجبال وتلتقي بالأولى قرب العلَميْن. باشرنا مسيرتنا على الطريق الواسعة في الوادي. وبعد أربع ساعات وربع الساعة، تقترب الجبال من بعضها بعضاً مرة أخرى ويقود ممر ضيقّ يدعى المضيق أو El Mazomeyn عبرها مسافة نصف ساعة يتكشف المنظر بعدها على سهل عرفات. وبعد مضي أربع ساعات وثلاثة أرباع الساعة نمرُّ في هذا السهل، ببركة تدعى بير باسان وقد بُنيت من الحجارة ويقع معبد «مسجد» صغير في محاذاتها. وتتكشف البلاد هنا بشكل واسع إلى الشمال والجنوب، وتُرى جبال الطائف باتجاه الشرق لأول مرة في كامل شموخها وارتفاعها[1]. وبعد مضي خمس ساعات بلغنا العَلَميْن، وهما هيكلان حجريان يقفان على كلتا الجهتين من الطريق، ويبعد الواحد عن الآخر من ثمانين إلى مائة خطوة، على الحجاج أن يمروا بينهما في طريق الذهاب وخاصة عند عودتهم من عرفات. وقد تم بناؤهما من الحجارة الخشنة وكُسيا بالجِصّ الأبيض. والشكل التالي يمثل شكلهما:



يقول الفاسي إنه كان هناك ثلاثة منها في السابق وقد بُنيت سنة ٦٠٥هـ وإن واحداً منها قد وقع. ومما بقي منها، هناك واحد لا يزال كاملاً والآخر نصف مهدّم. وبعد خمس ساعات وربع الساعة، مررنا إلى يميننا بمسجد كبير منعزل في حالة تآكل وتداعٍ ويدعى جامع نَمِرة أو جامع إبراهيم، وقد بناه، كما هو الآن، السلطان كايل بيك، حاكم مصر. وأصبح الآن جبل عرفات المنخفض على بعد ميلين إلى يسارنا على طرف السهل. وتابعنا التقدم على السهل دون توقّف وقد غطّته جنبات عالية وأشجار (الأقاقية) القصيرة التي يُمنع منعاً باتاً أن يأخذ الواحد حتى أصغر غصن منها لأنها أرض مقدسة. وعندما بلغنا حدود السهل الشرقية، وصلنا، بعد خمس ساعات وثلاثة أرباع الساعة، إلى قناة مكة التي تنبع من الأرض الجبلية. وبالقرب منها هناك خزان صغير، وفي المنطقة المجاورة لها مجموعة أكواخ عربية مشابهة لتلك التي في الهدّة، وتحمل اسم قهوة عرفات، ويسكنها بشكل خاص بنو قريش الذين يزرعون الخضراوات في واد يمتد من هنا باتجاه الجنوب. وقد استرحنا هنا بضع ساعات، ووصلت في الوقت نفسه قافلة من الطائف مؤلفة من حمير وبغال.

(١) عند عودتي من الطائف إلى مكة، حين كنتُ سيد نفسي تماماً، دوّنت وصفاً أكثر دقة وتفصيلاً عن الطريق مما قدمته هنا: لكني فقدتُ الأوراق التي كانت تحتوي عليه؛ والوصف الحاضر قد كتبته بالتالي معتمداً على ذاكرتي والملاحظات القليلة القصيرة التي دوّنتها بسرعة على الطريق إلى الطائف.

وتصبح الطريق من قهوة عرفات صخرية والجبال قريبة جداً تقطعها أودية تقطع بدورها الطريق في كل اتجاه. وتنمو هنا أشجار الأقاقيا بوفرة. وبعد سبع ساعات ونصف الساعة دخلنا مجدداً في أرض رملية في وادٍ يُدعى وادي نُعمان، حيث هناك، باتجاه الجنوب بعض الآبار والأشجار التي زرعتها قبائل كباكب والريشية العربية. وبعد مضي ثماني ساعات ونصف مررنا بمخيم تابع لقبيلة هذيل البدوية، حيث هاجمت الكلاب جمالنا بوحشية بحيث أني وجدتُ صعوبة وأنا على ظهر الجمل في تفادي أنيابهم. وبعد مرور ثماني ساعات وثلاثة أرباع الساعة مررنا بمجموعة أكواخ ومقاهي تدعى شداد وهناك آبار فيها مياه عذبة. وبعد تسع ساعات ونصف. أضعنا طريقنا باتّباع تعرُّجات وادٍ جانبي إذ كانت الليلة غائمة وحالكة الظلمة، وبما أننا عجزنا عن الرجوع إلى الطريق الصحيحة، استلقينا على الرمال واستغرقنا في نوم عميق حتى مطلع الفجر.

في السابع والعشرين من شهر آب/ أغسطس، وجدنا أنفسنا بالقرب من الطريق، وبتقدُّمنا باشرنا الصعود لنصف ساعة، على سلسلة الجبال الكبيرة. كانت طريقنا، من جدة إلى هذا المكان أرضاً منبسطة جداً على الرغم من مرورها عبر التلال والجبال، في أودية تتصاعد شيئاً فشيئاً بحيث لا يلاحظه المسافر إلاّ حين يرى البلاد من على قمة الجبال التي تبدّت الآن أمام ناظرينا. ويبلغ علو التلال الأقل ارتفاعاً أكثر من أربعمائة أو خمسمائة قدم. والسلسلة الأقل ارتفاعاً فوق جدة كلسية إلاّ أنه سرعان ما تتبدل صخورها لتصبح صوّانية أو نوعاً من الغرانيت مع تورمالين أسود بدل سليكات الألمنيوم فضلاً عن كتل كبيرة وطاغية من الكوارتز وبعض الميكة (مادة شبه زجاجية). وتستمر هذه الصخور على طول الطريق، مع بعض التنوع الطفيف، حتى المنطقة المجاورة لجبل النور، إلى الشرق من مكة حيث يبدأ الغرانيت. وقد علمتُ في مكة أنه، إلى الجنوب من الهدّة وعلى بُعد بضع ساعات، هناك جبل غني بالرخام جيد النوعية، ساهم في رصف أرضية المسجد الكبير. وتتألف الجبال التي تكوّن وادي مِنى من هذا الغرانيت الأحمر والرمادي، ويستمر على هذا الشكل من هنا إلى هذه السلسلة المرتفعة ويمتزج في بعض الأماكن بطبقة من صخور Grunstein. وتتألف الجبال الأكثر انخفاضاً من سلسلة الجبال الشاهقة التي كنا نصعدها الآن من الغرانيت الرمادي، ونحو الوسط وجدتها وقد تلوّنت بكل الألوان وامتزجت بطبقة من صخور Grunstein وTrappe والرخام السُّماقي Schistus، وهذا الأخير متآكل جداً، فعلى قمة السلسلة، هناك الغرانيت الأحمر مرة أخرى وقد تحول سطحه كلياً إلى اللون الأسود بفعل أشعة الشمس.

وصعدنا في طريق وعرة كذلك على الرغم من أن محمد علي باشا كان قد أصلحه مؤخراً. وكانت المنطقة المحيطة برية جداً وقد غطّيت بكتل صخرية منفصلة قد جرفتها إلى الأسفل

سيول الشتاء ونُثرت هنا وهناك بعض أشجار الأقاقيا والنبق. وصلنا بعد ساعة إلى بناء مؤلف من أحجار غير مثبتة ويُدعى «قبر الرّفيق»، والمعتقد السائد المتعلّق به والذي سأذكره الآن قد رواه لي دليلي: ففي القرن الماضي، كان بدوي عائداً من الحج وقد التقى به خلف بوابات مكة مسافر كان قد أخذ الطريق نفسها، وقد وصلا إلى هذه البقعة معاً، وعندها شعر أحدهما بالمرض الشديد الذي منعه من متابعة سيره. وفي اليوم التالي، انتشر مرض التفلس فجأة على جسده وما كان صاحبه ليتركه على هذه الحال. فبنى كوخين بأغصان الأقاقيا، واحد لصديقه والآخر له واستمرّ في رعايته ملتمساً الصدقات له من المسافرين المارين إلى أن تعافى. لكن في المقابل أصابه هو المرض نفسه فقام رفيقه برعايته بدوره وهو بعد متماثل للشفاء، بدرجة اللطف نفسها على الرغم من أنه لم يلاقِ النجاح ذاته فتُوفي الرجل ودفنه صديقه في هذه البقعة حيث يمثّل قبره نُصباً تذكارياً للسخاء والكرم البدوي ويطبع في الذهن النزعة إلى عمل الخير نحو رفاق الطريق الطارئين.

وبعد مرور ساعة ونصف الساعة، وكنا ما نزال نصعد، بلغنا بعض الأكواخ المبنية بين الصخور بالقرب من ينبوع غزير، وتُدعى تلك الأكواخ «قهوة قرى» بسبب الجبال التي تحمل كلها اسم جبل قرى. وقد وجدتُ هنا جندياً تركياً مكلفاً بنقل المؤن لجيش الباشا فوق الجبل. وتمرّ القافلات هنا بشكل متواصل بما أنها الطريق الأقصر من مكة إلى الطائف. تودع حمولات الجمال في هذا المكان ثم تُرسل إلى قمة الجبل على ظهر البغال والحمير وهناك منها نحو المائتين هنا، كما أن الجمال مهيأة على الجبل لنقل الحمولات إلى الطائف. أما الطريق الواقعة أكثر إلى الشمال التي تؤدي إلى الطائف، والتي سأتكلم عنها لاحقاً، فهي سالكة للجمال على طول الخط، لكنها أطول من هذه الطريق بيوم واحد.

إن الأكواخ في قرى مبنية بين الصخور على منحدر الجبل حيث نادراً ما تتوفر مساحة منبسطة من الأرض. والسكان هم من البدو من قبيلة هذيل. ولا يمكن الحصول إلاّ على القهوة والماء في كوخين أو ثلاثة. وقد جلب الجندي التركي على نفسه مؤخراً استياء الباشا بعد أن سرق جمل سيدة من قبيلة هذيل وقام ببيعه. وقد ذهبت السيدة لتقدم شكواها أمام سيده، الباشا في الطائف. وقد عاملني هذا الجندي بلطف وكياسة بالغة بعدما سمع أني ذاهب لزيارة الباشا ورجاني أن أتشفّع له وألتمس له الرحمة. مع ذلك، هذا ما تجنّبتُ القيام به قائلاً له إني - كنت أنا نفسي ذاهباً لألتمس من الباشا ما يهمني.

وبقينا حتى منتصف النهار في هذه البقعة اللطيفة من الأرض المطلة على منظر جميل للبلاد في الأسفل. وقد أمّنت لي الظل شجرة نبق [سدر] كبيرة قرب الينبوع الذي يجري إلى أسفل

الصخور، وهدّأت نسمة منعشة لذيذة من وطأة الحرارة المتقدة التي عانينا منها منذ رحيلنا من جدة. وعند مغادرتنا لقرى كانت الطريق شديدة الانحدار ووعرة رغم إصلاحها مؤخراً، بحيث لا يكاد المسافر الرّاكب يأمل ببلوغ القمة دون أن يترجل عن ظهر جمله. وقد شُكلت درجات في أماكن فسيحة عديدة خفّفت من درجة صعود المنحدر إلى القمة في عدة منعطفات. وبُنيت كذلك ستة أماكن لالتقاط الأنفاس على جانب الجبل حيث تستريح القافلات فليس هناك مكان تبلغ مساحته ثماني أقدام مربّعة من الأرض المنبسطة. ويتقاطع الينبوع نفسه الذي يأتي من قرب القمة عدة مرات. وقد قابلتُ العديد من بدو قبيلة الهذيل بالقرب من الطريق مع عائلاتهم وقطعان أغنامهم. وقد أعطاني أحدهم بعض الحليب ولم يقبل المال في المقابل لأن بيع الحليب يُعتبر فضيحة بين هؤلاء البدو على الرغم من أنهم يستطيعون جني الأرباح الكبيرة منه في مكة حيث يُباع الرطل الواحد من الحليب بليرتين. وتحادثت براحة وحرية مع الرجال ومع زوجة أحدهم وقد بدوا أنهم من سلالة الجبليين الشجعان. وعلى الرغم من أنهم فقراء كما يبدو ذلك بجلاء، فإن لهم أجساماً أكثر قوة من بدو الشمال وأردُّ ذلك بوجه خاص إلى صحّة المناخ وجودة المياه، وبنو هذيل الذائعو الصيت في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، كانوا اسمياً من أتباع شريف مكة الذي يعيشون على أرضه إلاّ أنهم كانوا في الواقع مستقلين إلى حد بعيد وغالباً ما كانوا في حالة حرب معه.

ومضت ساعتان كاملتان صعوداً من المقاهي إلى قمة الجبل حيث استمتعنا بمنظر خلاّب للبلاد في الأسفل. وقد استطعنا رؤية وادي مِنى ولكن ليس مكة. وظهرت سلاسل من التلال التي بدت فوق مساحة مسطّحة باتجاه الشمال والجنوب، على امتداد البصر، مع خطوط ضيّقة من الرّمال بينها وقد غابت الخضرة تماماً. وقامت إلى يميننا هضبة من جبل قرى وتُدعى «نقب الأحمر»، وهي أعلى من المكان الذي كنا نقف فيه بأربعمائة إلى خمسمائة قدم وبدت أنها تعلو كل السلسلة المجاورة. وإلى الشمال، بدا الجبل الذي يبعد ثلاثين ميلاً أنه يخف في الارتفاع جداً، لكن باتجاه الجنوب كان ما يزال في الارتفاع نفسه. وبعد السير لنصف ساعة من القمة، وصلنا إلى قرية صغيرة تُدعى «رأس القرى». وبعد أن ألفيتُ نفسي منهكاً خائر القوى، أصررت على النوم هنا، وقد أذعن دليلي لذلك على مضضٍ لأنه تلقى الأوامر بالسّفر بسرعة.

في الثامن والعشرين من شهر آب/أغسطس. تُعدُّ قرية رأس القرى والمنطقة المجاورة لها من أجمل البقع في منطقة الحجاز، بل أكثر فتنة وروعة وبهجة من أي مكان رأيته منذ رحيلي من لبنان، في سوريا. وقمة جبل قرى مسطّحة وقد تناثرت عليها كتل من الغرانيت كبيرة،

وسطحها، كسطح صخور الغرانيت قرب شلال النيل الثاني، قد اسودّ لونه بفعل أشعة الشمس.

وتتدفق من تلك الهضبة عدة سواقي صغيرة تروي السهل المغطّى بحقول خضراء وأشجار مظلَّلة كبيرة على جانب صخور الغرانيت. وللذين لم يعرفوا إلاّ رمال البلاد في الأسفل، اللاّذعة والكئيبة الموحشة في الحجاز، فإن هذا المشهد يبعث على الدهشة والمفاجئة تماماً كما هو الهواء الحاد القوي الذي يهب هنا فينعش النفس. ونجد هنا العديد من أشجار الفاكهة الآتية من أوروبا كأشجار التين والمشمش والخوخ والتفاح وشجر الجميز المصري واللّوز والرّمان، وخاصة الكروم التي تنتج أفضل نوعية من العنب. ولا يوجد هنا نخيل إنما فقط بعض أشجار النبق. وتنتج الحقول القمح والشعير والبصل. لكن هذه المزروعات لا تنتج هنا كالفاكهة لأن التربة صخرية. وكل «بلد»، كما يدعون الحقول هنا، مغلق بحائط منخفض ويملكه بدوي من قبيلة هذيل. وعندما استولى «عثمان المضايفة» على الطائف من الشريف، دُمّر هذا المكان، وكذلك الحقول والعديد من الجدران التي لم يكن قد أعيد بناؤها إلى الآن.

بعد أن مررنا بهذه المنطقة المبهجة، بعد مرور نصف ساعة، أي عند بزوغ الشمس تماماً، حين كانت كل أوراق العشب والنبات مغطّاة بالندى المنعش، وكل شجرة وشُجيْرة تنشر عبيراً لذيذاً عطراً في الأنف لا توازيه إلاّ روعة المشهد الطبيعي للعين، توقفتُ قرب أكبر الجداول والذي يغذّي على ضفافه مرجاً أخضر جبلياً، لا يستطيع نهر النيل العظيم، مع كل خصوبته أن ينمّيه في مصر، رغم أن ذلك الجدول لا يتعدى عرضه الخطوتين. وقد أحضر العرب لنا بعض اللّوز والزبيب وقدّمنا لهم في المقابل البسكويت، ومع أن عناقيد العنب كانت ناضجة، إلاّ أننا لم نستطع الحصول على بعض منها لأنها بشكل عام، تُشترى وهي بعدُ على الكرمة، من تجار الطائف الذين يصدّرونها إلى مكة ويبقونها مراقبة عن كثب من جماعتهم حتى يتم قطافها. وقد تمركز هنا جندي تركي يُنادى بلقب الآغا تحت خيمة ليُرسل المؤن الآتية من المركز في الأسفل إلى الطائف. كما لاحظتُ بشيء من الدهشة أنه لم يتم بناء أي مركز للتسلية على هذا المنبسَط المرتفع. وكان لتجار مكة في السابق مركز أو مقرّ ريفي في الطائف يحاكي الصحراء والكآبة كما يحاكي هذا الموقع البهجة والترف، لكن أياً منهم لم يفكّر أبداً في بناء بيت له هنا؛ وهذا دليل آخر جديد يثبت الرأي الذي طالما احتفظتُ به وهو أن الشرقيين، وخصوصاً العرب منهم أقل حساسية من الأوروبيين تجاه الجمال الطبيعي. كما أن مياه رأس القرى ذائعة الصيت في كل أنحاء الحجاز لجودتها. وبينما كان محمد علي يسكن في مكة وجدة، كان يحصل على مؤونة منتظمة من مياه النيل العذبة الصالحة للشرب، من مصر في

كل سفينة، وتأتي معبّأة في أوعية كبيرة. لكن، بمروره في هذا المكان وجد أن المياه فيه تستحقُّ أن تُستبدل بالأخرى. وهكذا، يأتي إلى هنا يومياً جملٌ من الطائف ليحمل كمية منها.

إن منازل قبيلة هذيل، التي تملك هذه المزارع، متناثرة على الحقول في مجموعات من أربعة إلى خمسة منازل. وهي صغيرة من الحجر والطين لكنها مبنية بعناية وإتقان يفوق ما يمكن توقّعه الأيدي البدائية لساكنيها، ويحتوي كل منزل على ثلاث أو أربع غرف وقد فُصلت الواحدة عن الأخرى بمساحة ضيّقة مكشوفة بحيث تشكل كل منها، كوخاً صغيراً منفصلاً. ولا يتسرّب الضوء إلى هذه المساكن إلاّ من المدخل، وهي نظيفة ومرتّبة جداً، وتحتوي على أثاث بدوي وبعض السجاد الفاخر وأكياس صوفية وجلدية وبعض السلطانيات الخشبية وقُدور القهوة الفخارية وبندقية فتيل تُولى عناية كبيرة وتُحفظ عادة في غطاء جلديّ. استلقيت ليلاً على جلد بقرة كبير مدبوغ وكان الغطاء مؤلفاً من قطع من جلد الغنم وقد خيطت معاً بطريقة مرتّبة، مماثلة لتلك المستعملة في النوبة، وأخبرتني هذه القبيلة أنه قبل مجيء الوهابيين وإجبارهم على دفع جزية عن حقولهم، لم يعرفوا أي ضرائب على الأرض، لكن على العكس، فقد كانوا يتلقّون الهدايا من الأشراف سنوياً ومن كل المكيين الذين كانوا يمرون من هنا إلى الطائف. وتمتد رأس القرى من الشرق إلى الغرب نحو ميلين ونصف إلى ثلاثة أميال وهي تقريباً بعرض ميل واحد. وحسب تصريحات العرب، هناك مناطق عديدة باتجاه الجنوب خصبة كذلك وجميلة كتلك التي رأيناها في السلسلة التي ذكرناها أعلاه. تحرث تربتها وتزرعها القبائل البدوية مثل قبيلة هذيل وذلك في أجزاء منفصلة من الجبل.

غادرنا هذا الرأس الذي سأظل أذكره طالما استمرّت المناظر الطبيعية الرومنسية الخلاّبة تشدني، وسرنا نحو ساعة واحدة على أرض قاحلة غير مستوية، فيها منحدرات وارتفاعات خفيفة حتى وصلنا إلى منحدر حاد، تطلّب منا نزوله نصف ساعة، وإن ضعف هذه المدة سيكون حتماً ضرورياً لصعوده. والصخر مؤلف بأكمله من الحجر الرملي. ويمكن رؤية الطائف من بُعد من على قمة المنحدر المذكور. ثم دخلنا في وادٍ خصب يُدعى وادي مُحرَم، يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي على مسافة نصف ساعة من الجبل. وهو مثل المنطقة العليا، مليء بأشجار الفاكهة، لكن الحقول القليلة المزروعة يتم ريُّها من الآبار وليس من جداول جارية. وهناك قرية تقع على المنحدر قد دمّرها الوهابيون بأكملها تقريباً. ولها برج صغير شيّده السكان لحماية منتجات حقولهم من غزو الأعداء.

هنا تبدأ أراضي الطائف ومنطقة القبيلة العربية «ثقيف» التي كانت سابقاً في حرب مع جيرانها، من قبيلة هذيل. ويُدعى الوادي «مُحرَم» من جرّاء ما كان يحدث هنا حيث إن

الحجاج والزوار الذاهبين إلى مكة من جهة الشرق، كانوا يكسون أنفسهم هنا بالإحرام. وبالقرب من الطريق هنا بركة صغيرة حجرية مهدّمة. إن قافلة الحجاج اليمنيين وتُدعى «حج الكبسي» التي تقع طريقها في موازاة تلك الجبال، كانت تحتفل دائماً بالشعائر والطقوس هنا ومن ثم تملأ البركة بالماء للوضوء. ويقوم مزارعو وادي مُحرَم بجر الماء من آبارهم في دِلاءٍ جلدية معلّقة في طرف سلسلة حديدية مُمَرَّرة حول بكرة ويربطون عند الطرف الآخر بقرة تسير لمسافة كافية من البئر لسحب الدلو ثم يتم جرّها إلى الوراء لتُكرِّر العملية نفسها. والأبقار التي رأيتها هنا، ككل الأبقار في الحجاز، صغيرة ذات بُنية قوية بدينة وكثيرة العظام، ولها عادة جَدَعات قصيرة من القرون فقط وحَدَبة على الظهر فوق الكتفين تماماً، وهي ترتفع عن الأرض خمس بوصات ويبلغ طولها ست بوصات، فتشبه في ذلك الأبقار التي رأيتها على ضفاف النيل في النوبة. وحسب أهل البلاد، فإن سلسلة الجبال كلها. من هنا حتى الريف باتجاه الجنوب حيث تبدأ مزارع البن، تقطعها أودية مزروعة مشابهة تفصل الواحد عن الآخر مسافة معينة، والمساحة المتوسطة عبارة عن تربة صخرية جرداء بوجه خاص.

من وادي مُحرَم، مررنا مجدداً بأرض جبلية غير مستوية حيث وجدتُ صخراً رملياً كذلك صخر السيلكس. كما تظهر أشجار الأقاقية في أودية رملية عديدة متفرّعة عن الطريق. وعلى مسافة ساعتين ونصف الساعة من وادي مُحرَم باشرنا بالصعود وعلى قمة التلة تجلّت لناظرينا مدينة الطائف وقد امتدت أمامنا. ووصلنا إليها في ثلاث ساعات ونصف من وادي مُحرَم بعدما قطعنا السهل الرملي القاحل الذي يفصلُهما عن التلال المحيطة. وكان معدّل سرعة سيرنا من مكة لا يقل عن ثلاثة أميال وربع الميل في الساعة، وذلك حين كنا لا نزال وحدنا تماماً على جمالنا وقادرين على زيادة سرعة تقدّمها بسهولة. وهكذا، فقد أحصيتُ، من مكة إلى سفح جبل قرى، نحو اثنين وثلاثين ميلاً، وإلى قمته عشرة أميال، ومنها حتى الطائف، ثلاثين ميلاً، مما يجعلها اثنين وسبعين ميلاً في مجموعها. إن وُجهة الطريق من عرفات إلى الطائف كانت نحو اثنتي عشرة أو خمس عشرة درجة على البوصلة، إلى الجنوب من الطريق التي تؤدي من مكة إلى عرفات؛ غير أني لا أستطيع تحديد الوجهة تلك بدقة تامة لأنه لم يكن بحوزتي أي بوصلة.

الإقامة في الطائف

وصلتُ إلى الطائف نحو منتصف النهار وترجّلت عند منزل البوصيري، طبيب الباشا الذي كنتُ قد تعرفت به عن قرب في القاهرة. لأننا كنا في شهر رمضان الذي ينام خلاله كُبراء الأتراك في النهار دائماً، فلم يكن بالإمكان إبلاغ الباشا بوصولي إلى ما بعد غياب الشمس. في هذه الأثناء، وبعدما أسمعَني خطاباته الشرقية الاعتيادية التي تؤكد تفانيه الكامل لمصالحي وصدق صداقته، سألني البوصيري عن ماهيّة تطلّعاتي لقدومي إلى الحجاز. فأجبته إني آتٍ لزيارة مكة والمدينة ثم العودة إلى القاهرة. أما عن نواياي فيما يتعلق بمصر، فقد بدا مرتاباً ورجاني أن أكون ودوداً وصادقاً معه كما أكون مع صديق لي وأن أقول الحقيقة بعدما اعترف بشكّه في أني كنتُ ذاهباً إلى الهند الشرقية. وهذا ما أنكرته تماماً. وفي معرض حديثنا، لمحّ لي بالبقاء معهم في مراكز القيادة إذا ما كنتُ عازماً فعلاً على العودة إلى مصر، حتى يُباشر الباشا نفسه رحلته إلى القاهرة. ولم يتطرّق إلى موضوع المال على الرغم من أن البوصيري كان يجهل بأن احتياجاتي المالية قد سُدَّت في جدة.

عند المساء، ذهب البوصيري بصورة شخصية وسرية إلى الباشا في مقرّ النساء الخاص حيث لم يكن يستقبل إلاّ زيارات الأصدقاء أو المعارف الحميمة جداً. وعاد بعد نصف ساعة ليُعلمني أن الباشا يرغب في رؤيتي في ساعة متأخرة من المساء في قاعته العامة. وأضاف بأنه وجد مع الباشا قاضي مكة الذي كان حينها في الطائف لأسباب صحية، وبأن الباشا، بعد أن اطّلع على رغبتي في زيارة المدينتين المقدّستين، علّق مازحاً: «ليست اللّحية[1] وحدها التي تثبت بأن الرجل ما هو مسلم حقيقي»، لكنه التفت نحو القاضي قائلاً: «أنت أفضل مني حكماً في هذه

(١) كان لديّ لحية آنذاك، كما كنتُ في القاهرة، حين رآني الباشا.

المسائل»، نعلّق القاضي بدوره: بما أنه لا يُسمح لأي شخص غير مسلم برؤية المدينتين المقدستين، وهو أمر لا أظنه يخالني أجهله، فإنه لا يعتقد بأني سأُعلن نفسي موحداً إلاّ إذا كنتُ مسلماً فعلاً. عندما علمتُ بهذه التفاصيل، أخبرت البوصيري أنه يستطيع العودة إلى الباشا وحده وأن مشاعري قد جُرحت بما فيه الكفاية حتى الآن جرّاء الأوامر التي أُعطيت إلى دليلي بعدم اصطحابي عبر مكة، وأني لن أذهب حتماً إلى الباشا في مقابلة رسمية عامة إذا لم يقم باستقبالي كتركيّ.

لقد ذُعر البوصيري لدى سماع هذا التصريح وسعى جاهداً دون جدوى لثنيي عن هذا الموقف والسلوك قائلاً لي إن لديه أوامر لا يستطيع عصيانها بأخذي إلى الباشا. إلاّ أني التزمتُ بعزم وإصرار بما قلته وعاد هو على مضض إلى محمد علي الذي ألفاه وحده بعد أن غادره القاضي. وعندما سلّم البوصيري رسالتي ابتسم الباشا وأجاب بأنه يُرحّب بي سواء أكنتُ تركياً أم لا ذهبتُ إلى القصر نحو الساعة الثامنة مساء، وهو مسكن بائس شبه متداع ويخصّ الشريف غالب، وقد ارتديت الحلة الجديدة التي تلقيتُها في جدة بأمر من الباشا. وجدتُ سمُوَّهُ جالساً في بهو واسع، مع القاضي من جهة وحسن باشا، قائد جنود الأرناؤط من جهة أخرى، وثلاثين أو أربعين من ضباطه الرئيسيين وقد شكّلوا نصف دائرة عند الأريكة التي جلسوا عليها، فضلاً عن عدد من شيوخ البدو جالسين القُرفصاء وسط نصف الدائرة. فتوجّهت نحو الباشا وألقيتُ عليه التحية بالسلام عليكم وقبّلتُ يده، فأشار إليّ بالجلوس بجانب القاضي ثم خاطبني بكياسة فائقة مُستعلماً عن صحّتي وعن أخبار المماليك في بلاد الزنوج التي زرتها، إلاّ أنه لم يأتِ على ذكر أي شيء يتعلق بالموضوع البالغ الأهمية بالنسبة إليّ.

وقد قام بالترجمة لنا، أمين أفندي، ترجمانه العربي حيث أني لم أكن أتكلّم اللغة التركية، كما أن الباشا لا يتكلم العربية بإتقان أبداً. وبعد خمس دقائق، قام بمواصلة عمله الذي قاطعته أنا مع البدو. وعندما فرغ من ذلك وغادر حسن باشا الغرفة، أمر الجميع بالانسحاب باستثناء القاضي والبوصيري وأنا. لقد توقعتُ الآن أن أخضع للامتحان وكنتُ مستعداً لذلك أشد الاستعداد، لكن كلمة واحدة لم تُذكر عن شؤوني الشخصية وهذا ما فعله محمد علي في كل محادثاتنا اللاحقة التي يذهب فيها إلى أبعد من التلميح باقتناعه بأني كنتُ في طريقي إلى بلاد الهند الشرقية. وما أن بِتْنا وحدنا، تطرّق الباشا إلى السياسة. فقد كان تلقّى للتو معلومات عن دخول الحلفاء إلى باريس ورحيل بونابارت إلى ألبا، وقد أُرسلت له من مصر جرائد عديدة مالطية تُعطي تفاصيل تلك الأحداث التي بدا أنه مهتم بها إلى أبعد حد وبوجه خاص لأنه كان قلقاً من الاحتمال في أن تسعى إنكلترا بعد سقوط بونابرت لزيادة قوتها في منطقة البحر المتوسط فتجتاح بالتالي مصر.

بعد أن بقيتُ لساعتين أو ثلاث ساعات مع الباشا في حديث خاص كنا نتكلم إما باللغة العربية، بواسطة القاضي الذي كان يتقنُ تلك اللغة تماماً رغم أنه متحدِّر من القسطنطينية «استانبول»، وإما باللغة الإيطالية، عبر البوصيري الذي كان أرمنياً اكتسب معرفة سطحية بهذه اللغة في القاهرة، قمتُ مغادراً فقال حينها الباشا إنه ينتظرني مجدداً في الساعة نفسها من يوم غد.

في التاسع والعشرين من شهر آب/أغسطس، قمتُ بزيارة للقاضي قبل المغرب فوجدته بصحبة مرافقه وسكرتيره وهو رجل متعلم من القسطنطينية. كان القاضي «صادق أفندي» رجلاً ودّياً ذا طباع شرقية حقيقية وسلوك فاتن لبق وجذّاب. وكان يمتلك تلك الدماثة كلها في الخُلُق والتعبير التي يتميزُ بها أهالي استانبول الكريمي الأصل. وبعد أن تبادلنا بعض جمل الإطراء، عبّرت له عن دهشتي في أني أجد الباشا يُعبّر عن شكوكه في كوني مسلماً حقيقياً بعد أن أصبحت الآن مُهتدياً إلى هذا الدين منذ سنين عديدة. فأجابني بأن محمد علي قد سلّم بأنه، أي القاضي، أفضل حكماً في تلك المسائل مُضيفاً بأنه يأمل في أن نُصبح على معرفة شخصية أكثر حميمية. ثم بدأ بسؤالي عن رحلاتي إلى النوبة. وفي سياق الحديث تطرّقنا إلى مواضيع أدبية فسألني عن الكتب العربية التي طالعتها وعن كتب تفسير القرآن والسُنّة، وربما قد ألفاني على اطّلاع بعناوين مثل تلك الأعمال على الأقل، وكان هذا أكثر مما توقّع حيث إننا لم نتعمّق أكثر في الموضوع. وفي معرض حديثنا أعلن أذان المغرب انتهاء صيام هذا اليوم، فتناولتُ طعام الإفطار مع القاضي ثم أدّيت صلاة المغرب برفقته حيث حرصتُ على تلاوة أطول سورة استطعت تذكرها في تلك اللحظة. ذهبنا بعد ذلك إلى الباشا الذي أمضى مجدداً قسماً من الليل في حديث خاص معي تناول خاصة المسائل السياسية دائماً دون التطرّق إلى شؤوني الشخصية.

بعد مقابلة أخرى، كنتُ أذهب كل مساء، أولاً إلى القاضي ومن ثم إلى الباشا، لكن، على الرغم من الاستقبال اللطيف في القصر، تمكنتُ من معرفة أن كل تصرّفاتي كانت مراقبة عن كثب. وقد سألني البوصيري إذا ما كنت أحتفظ بدفتر يوميات فأجبته بأن الحجاز لم يكن مثل مصر، مليئاً بالآثار، ولأنني في تلك الجبال الجرداء لم أر ما يستحق الملاحظة. لم يُسمح لي بالبقاء وحدي أبداً للحظة واحدة. وكانت لي أسباب تدفعني إلى الشك في أن البوصيري، مع كل تأكيداته بالصداقة، لم يكن إلاّ جاسوساً. إن البقاء في الطائف لمدة غير محددة في الوضع الذي أنا فيه الآن، لم يكن مُحبباً، غير أني لا أستطيع التكهن بنوايا الباشا فيما يتعلق بي. من الواضح أني كنتُ في نظرهم جاسوساً أُرسل إلى هذه البلاد من قبل الحكومة الإنكليزية بهدف التأكد من وضعها الحالي والتبليغ بهذا في بلاد الهند الشرقية، وأعتقد أن هذا هو رأي الباشا

الشخصي، فقد عرفني رجلاً إنكليزياً، وهي صفة اتخذتها خلال رحلاتي كلما كان يبدو لي الظهور كأوروبي أمراً ضرورياً، (وأرجو أن لا يكون في ذلك ما يسيء لبلادي) إذ لم يكن أحد يتمتع بأمان حقيقي في الشرق في ذلك الوقت إلاّ الفرنسيون والإنكليز لأنهم يتمتعون بحماية جيدة سواء من حكوماتهم في الوطن أم من سفرائهم في القسطنطينية بحيث لا يتم الاستهتار بهم من قبل حكّام محليين. أكثر من ذلك، فإن الباشا ظنَّ أني رجل من طبقة معيّنة لأن كل رجل إنكليزي يُسافر في الشرق كان يُلقَّب باللورد، وكان هو الأشد اقتناعاً بذلك بسبب سمتِ الأنفة الذي كان التظاهر به أمراً ضرورياً بالنسبة إليَّ في بلاط تركي حيث التواضع والدماثة في السلوك أمران لا يُلائمان ذلك المكان. وبما أنه كان خائفاً من بريطانيا العظمى في ذلك الوقت فلعله ظنَّ أنه من غير الحكمة معاملتي بطريقة سيئة على الرغم من أنه لم يقم بأي شيء يساعد على القيام بمشاريعي. وكنت، على حد علمه، لا أملك سوى الخمسمائة ليرة التي أمر بإعطائي إياها في جدة والتي لم تكن تكفي لدفع مصاريفي لوقت طويل في الحجاز. ولم يذكر شيئاً، لا هو ولا البوصيري، عن مسألة أخذ السند المسحوب على القاهرة كما طلبتُ منه أن يفعل، لكني لم أطلب هذه الخدمة مرة أخرى كوني أحمل مالاً كافياً في الوقت الحاضر وكنتُ أتوقّع دفعات جديدة من مصر.

لقد كان البقاء في الطائف لوقت طويل، في نوع من السجن، أمراً لا يروق لي، غير أني لم أكن قادراً على استعجال رحيلي دون التسبب في زيادة شكوكه. كان ذلك واضحاً بعد أول مقابلة لي مع الباشا والقاضي، كما علمتُ أن تقارير البوصيري، قد تؤثر جداً في رأي محمد علي. وفكّرت، في ظل هذه الظروف، بأن أفضل وسيلة هي في جعل البوصيري يسأمُ مني فيقنعه بالتالي لا إرادياً بتشجيع فكرتي. لذلك، فقد شرعتُ أتصرّف في منزله بكل الوقاحة التي يتمتع بها عثماني. وبما أننا كنا في شهر رمضان، كنت أصوم خلال النهار وفي الليل أطلب عشاء مستقلاً ثم أطلب في فجر اليوم التالي سحوراً وافراً وغنياً قبل بدء الصيام. كما حجزتُ لنفسي أفضل غرفة كان يحتوي عليها بيته الصغير وجعلتُ خدمَه دائمي الحضور أمامي. والواقع أن الضيافة الشرقية تمنع إظهار أي امتعاض أو استياء من سلوك مماثل، فضلاً عن أني كنتُ رجلاً مهماً وفي زيارة إلى الباشا. وفي معرض حديثي مع البوصيري كنت أؤكّد له دائماً بأني أشعر بنفسي في أفضل حال في الطائف وبأن مناخها يلائم صحتي تماماً ولم أكن أُبدي أي رغبة في الرحيل عن هذا المكان في الوقت الحاضر. إن استضافة شخص بمثل هذه الشخصية لوقت طويل في الطائف حيث المؤن بكل أنواعها كانت عزيزة ونادرة أكثر منها في لندن، كانت مسألة ليست بالهيّنة. كما أن الضيف الثقيل هو باعث للانزعاج أينما كان.

وأعتقد أن الخطة قد نجحت كلياً، حيث أن البوصيري سعى جاهداً لإقناع الباشا بأني كنتُ شخصاً غير مؤذٍ وذلك لكي يتم صرفي في أقرب وقت ممكن.

لقد مرّت ستة أيام على وجودي في الطائف لكني كنتُ نادراً ما أخرج إلاّ إلى القصر في المساء، حتى سألني البوصيري إذا ما كانت أعمالي مع الباشا ستمنعني لوقت أطول من متابعة رحلتي وزيارة مكة. فأجبته بأني لم يكن لديَّ أي أعمال مع الباشا على الرغم من أني أتيتُ إلى الطائف على وفق رغبته، وأن وضعي كان مُستساغاً جداً لي كوني أملك صديقاً حميماً وكريماً مثله، أي البوصيري. وفي اليوم التالي أعاد فتح الموضوع مُلمِّحاً لي بأن العيش كلياً بين الجنود لا بدَّ أن يكون متعباً دون أي من أسباب الراحة والتسلية فضلاً عن أني لم أكن أتقن اللغة التركية. وقد وافقته على ذلك إلاّ أني عقبتُ عليه بأني لم أكن قادراً على اتخاذ أي قرار طالما أني أجهل رغبات الباشا ونواياه. وكان هذا ما أوصله إلى النقطة التي كنتُ أسعى إليها، فقال: بما أن القضية كذلك، فإني، إذا رغبتَ سأتكلم مع سُمُوه في الموضوع. وقد فعل ذلك في المساء قبل أن أذهب إلى القصر، وقد أخبرني الباشا في سياق حديثه بأنه علم عن رغبتي في تمضية آخر أيام رمضان في مكة (وهو اقتراح آتٍ من البوصيري) فالأفضل لي أن انضمَّ إلى جماعة القاضي الذاهبة إلى هناك من أجل العيد والتي ستُسرُّ كثيراً برفقتي. وكان هذا بالتحديد ما تمنّيته، وقد حُدِّد رحيل القاضي بالسابع من أيلول/ سبتمبر، فاستأجرت حمارين وهي الطريقة المعتادة لوسائل النقل في هذه البلاد، بهدف اللحاق به.

بما أني كنتُ عاقِد العزم على متابعة السير بعدها إلى المدينة حيث كان طوسون باشا، نجل محمد علي، حاكماً، فقد توسّلتُ البوصيري إلى بأن يطلب من الباشا جواز سفر يسمح لي بالتنقل عبر الحجاز كله، مع رسالة توصية إلى ابنه. وقد أجابني البوصيري بأن الباشا لا يحبُّ التدخل شخصياً في رحلاتي. وبأني أستطيع التصرف كما يحلو لي وعلى مسؤوليتي الشخصية وبأن معرفتي باللغة تجعل من جواز السفر أمراً غير ضروري. وكان هذا تماماً كقوله لي: «افعل ما يحلو لك، ولن أُعيق مشاريعك كما أني لن أسهّلها»، وكان هذا في الوقت الراهن أكثر مما كنت أتوقّع أو أتمنى.

في السادس من أيلول/سبتمبر، غادرتُ الباشا الذي قال لي عند رحيلي بأنه إذا ما حملتني رحلاتي إلى الهند، فبوسعي أن أؤكد للشعب الإنكليزي هناك بأنه كان مهتماً جداً بمصالح التجارة الهندية. وباكراً في اليوم السابع من الشهر، أرسلَ لي القاضي يقول إنه لن يبدأ الرحلة حتى المساء، وإنه سيسافر خلال الليل ويأمل في لقائي عند جبل القرى، في منتصف الطريق إلى مكة. وهكذا، فقد غادرتُ الطائف وحدي كما دخلتُ إليها، بعد إقامة دامت عشرة أيام.

وأكد لي البوصيري عند رحيلي إخلاصه البالغ والدائم لمصالحي. وقد حمدت الله على حسن طالعي عندما غادرتُ تخوم المدينة مُنهياً بذلك إقامتي في بلاط تركي كان تجنب الخطر فيه أصعب من تجنبه وأنا بين بدو النوبة المتوحشين.

خلال إقامتي في الطائف، قمتُ بخمس أو ست مقابلات مع الباشا، وستُظهر المقتطفات التالية من دفتر يومياتي النتائج العامة لما جرى بيننا في هذه المناسبات المختلفة:

سؤال: شيخ إبراهيم، أرجو أن تكون بصحة جيدة.

جواب: أنا في أتم الصحة وتغمرني السعادة لشرف رؤيتك مجدّداً.

س: لقد سافرت كثيراً منذ أن رأيتك في القاهرة. إلى أين وصلتَ إلى بلاد الزنوج؟

على هذا السؤال، أجبتُ بإعطاء تقرير قصير عن إقامتي في النوبة.

س: أخبرني، كيف هم المماليك في دنقلة؟

وقد رويتُ له ما يجده القارىء في كتاب «رحلتي إلى النوبة».

س: علمتُ بأنك تعاملت مع اثنين من بكوات المماليك في إبريم Ibrim، أهذا صحيح؟

إن كلمة «تعاملت» (إذا ما فسّر المترجم الكلمة التركية بشكل صحيح) قد أجفلتني كثيراً، إذ إن الباشا حين كان في مصر، قد سمع أني، خلال رحلتي باتجاه دنقلة، قابلتُ اثنين من بكوات المماليك في الدرّ Derr، وبما أنه يشكُّ في أن الإنكليز يميلون سراً لصالح المماليك، فإنه لربما أعتقد أني كنتُ أحملُ رسالة ما إليهم من الحكومة. لذلك، فقد أكّدتُ له بأن الاجتماع ذاك كان محض مصادفة وبأن الاستقبال غير السّار الذي خَبِرتُه في محاص Mahass كان بسببهما، وقد أضمرتُ الخوف من خططهم التي تستهدف حياتي. وبدا الباشا راضياً من هذا التفسير.

س: دعنا فقط نسوّي المسائل هنا مع الوهابيين وسأتمكن قريباً من التخلّص من المماليك. كم من الجنود تظنه ضرورياً لإخضاع البلاد حتى سنّار Senaar؟

ج: خمسمائة رجل في فِرَق جيدة التدريب يمكن أن تصل إلى هذه النقطة، لكنها لن تستطيع الحفاظ على السيطرة على البلاد، كما أن الغنائم لا تكاد توازي نفقات ذلك.

س: ما الذي يمكن أن تعطيه تلك البلاد؟

ج: الجمال والعبيد، وباتجاه Senaar هناك الذهب الآتي من الحبشة؛ لكن هذا كله ملك للأفراد، لأن الملوك والقادة في هذه البلاد لا يملكون الثروات.

س: كيف هي حالة الطرقات من مصر إلى سنّ Senaar؟

قدمتُ وصفاً للطريق بين أسوان وشندي ومن سواكن إلى المكان نفسه.

س: كيف أمضيت وقتك بين الزنوج؟

رويتُ له بعض القصص المضحكة التي بدت أنها تسليه جداً.

س: والآن، شيخ إبراهيم، إلى أين تعتزم الذهاب؟

ج: أرغب في تأدية الحج والعودة إلى القاهرة وثم متابعة السفر لزيارة بلاد الفرس.

(لم أرَ أنه من الحكمة ذكر خطّتي في العودة إلى داخل إفريقية).

س: أسأل الله أن يُمهّد الطريق أمامك. لكني أعتقد أنه من الجنون والحماقة السفر إلى هذا الحد. دعني أسألك، ما كانت نتائج رحلتك الأخيرة؟

ج: إن حياة الإنسان مقدَّرة سلفاً وكلّنا نرضخ لقدرنا. وفيما يخصُّني، فأنا أستمتع في استكشاف بلاد جديدة وغير معروفة وأن أصبح مطّلعاً عن كثب على أعراق الإنسان المختلفة. كما يستميلني القيام بالرحلات بدافع الرِضى الشخصي والخاص الذي يؤمّنه السفر لي ولا أُبالي أبداً بالتعب.

س: هل سمعتَ الأخبار القادمة من أوروبا؟

ج: فقط بعض التقارير المبهمة في جدّة.

عندها قدّم لي الباشا تقريراً عن الأحداث التي انتهت بنفي بونابارت إلى جزيرة البا Elba بعد دخول الحلفاء إلى باريس. وقال إن بونابارت تصرّف كرجل جبان وكان حَرِيّ به أن يبحث عن الموت بدل أن يعرض نفسه في قفص ليكون مبعث سخرية الكون. فالأوروبيون، كما قال، هم خَونة تماماً كالعثمانيين، فقد تخلى عن بونابارت أصدقاؤه الحميمون وجنرلاته كلهم الذين يدينون له بثرواتهم كلها.

لقد كان توّاقاً في أسئلته إلى معرفة العلاقات السياسية بين بريطانيا العظمى وروسيا. واحتمال نشوب حرب بينهما بسبب النوايا العدائية الروسية تجاه الباب العالي (حول هذه النقطة، كان قد تلقى معلومات غير صحيحة). وقد بدا أن خوفه الوحيد ناجم عن أن الجيش الإنكليزي الذي استُخدم في جنوب فرنسا وفي إسبانيا سيكون الآن حرّاً لغزو مصر، وقال: «السمكة الكبيرة تبتلع الصغيرة ومصر ضرورية لإنكلترا، لتزويد مالطة وجبل طارق بالحنطة». وقد حاولتُ عبثاً مناقشة هذا الموضوع معه بشكل منطقي ولاحظتُ أن المترجم لم يقم دائماً بترجمة أجوبتي على نحو صحيح خوفاً من مناقضة آراء سيّده المعروفة. لقد كانت هذه الآراء متجذِّرة فعلاً عميقاً وساهمت في تعزيزها البعثة الفرنسية في مصر. ومضى قائلاً: «أنا صديق

الإنكليز، (هذا الكلام الموجّه من تركي إلى مسيحي لا يعني إلاّ أنه يخشاه أو يريد ماله). «لكن لأقلْ لك الحقيقة، إننا نرى بين الرجال العظماء كثيراً من الإطراءات وقليلاً جداً من الصدق. وإني آملُ بأن لا يقوموا بغزو مصر خلال إقامتي في الحجاز، وإذا ما كنتُ هناك بنفسي فإني سأحظى على الأقل بشرف الدفاع عن الأراضي الخاضعة لسيطرتي. كما أني لستُ خائفاً من السلطان، (لقد كرّر التأكيد على ذلك غير أني أشكّ في صدقه) وسأعرف كيف أفوقه حيلة ودهاء في إجراءاته كلها. إن جيشاً قادماً من سوريا لا يستطيع أبداً مهاجمة مصر من البر بمجموعات كبيرة جداً بسبب النقص في الجمال كما يسهُل تدمير فيالِق منفصلة ما أن تمرّ عبر الصحراء».

وقد قلت له بحرية إنه يشبه شاباً لديه فتاة جميلة، ورغم أنه أكيد من حبها، فإنه سيظل دائماً يغارُ من كل غريب. فأجاب: «لقد أحسنتَ القول، فأنا أحب مصر بالتأكيد بكل غيرة الحبيب وحماسته، ولو كانت لي عشرة آلاف روح لضحيت بها عن طيب خاطر لامتلاكها».

لقد سألني عن الوضع الذي وجدتُ فيه شمال مصر وإذا ما كان نجله الحاكم إبراهيم شاباً محبوباً هناك. فأجبته بلسان الحقيقة إن كل زعماء القُرى يكرهونه (لأنه أجبرهم على التخلي عن معاملتهم الاستبدادية للفلاحين) إلاّ أن الفلاحين أنفسهم متعلّقون به كثيراً. (الواقع هو أنه بدلاً من أن يكونوا مقموعين، كما في السابق، من بكوات المماليك وال Kashefs، كذلك من شيوخهم هم، أصبح لهم مستبد واحد وهو الباشا نفسه الذي يفرض على حكام المقاطعات نظاماً صارماً).

لقد رغب محمد علي في الحصول على رأيي فيما يختص بعدد الفِرق الضرورية للدفاع عن مصر ضدّ جيش أجنبي. فأجبته بأني أجهل كل شيء عن الحرب إلاّ ما كنتُ قد قرأته في الكتب. فأوضح قائلاً: «لا، لا، فأنتم المسافرون تُبقون أعينكم مفتوحة دائماً وتدققون وراء كل شيء». وأصرّ في سؤاله وحين أصبحت مُجبراً على الردّ قلتُ إن خمسة وعشرين ألفاً من الفِرق المختارة قد تستطيع مقاومة أي هجوم. فقال: «لديَّ الآن ثلاث وثلاثون ألفاً» ـ وهو ادِّعاء مزيَّف، لأني كنتُ متأكداً من أنه لم يكن لديه في ذلك الوقت أكثر من ستة عشر ألفاً من الرجال منتشرين في مصر والحجاز.

ثم شرح لي بعد ذلك النظام الجديد في الانضباط والقوانين العسكرية، وقال إن طمع القادة فقط وليس كره عامة الجنود هو الذي أعاق تأسيس جيش جيّد التنظيم في تركيا وعطّل التعبئة الضرورية لمنع الضباط من فرض أنفسهم على الخزينة العامة». وأضاف قائلاً: «لكني سوف أنظّم قوات دائمة من الجنود الزنوج». هذا ما حاوله سلفه خورشيد باشا لكن بقليل من النجاح.

إن موضوع النظام الجديد قد استؤنفَ ما أن رجع محمد علي إلى مصر من بعثته، إلاّ أن تمرّد جنوده الذين سلبوا عاصمته، أجبره على التخلي عن المشروع الذي لم يُحسن التخطيط له. وفي الدفاع عن مصر، قال إن عليه بوجه خاص استخدام خيّالته ومدفعيته التي تجرها الخيول حيث تدمر الخيالة مقدِّماً كل المؤن لدى العدو، كما فعل الروس مؤخراً، كما أن المدفعية ستضايقهم من كل الجهات دون أن تستقر أبداً في مكان واحد.

خلال إقامتي في الطائف وصلت عبر الصحراء رسائل من القسطنطينية، عن طريق دمشق وأُحضرت للباشا ترجمة تركية لمعاهدة السلام الموقَّعة في باريس. وبعدما قرأها عدة مرات أمر كاتبه التركي بشرحها لي باللغة العربية كلمة كلمة. وقد شغلنا هذا الأمر لساعات عدة في غرفة خاصة، ثم عدتُ إلى الجماعة، وكان الباشا قد تمنّى أن أعطيه رأيي في المعاهدة. وبالرجوع إلى أطلس تركي منقول عن خرائط أوروبية ومطبوع في القسطنطينية، جعلني أدلّه على حدود بلجيكا الجديدة وجُزر موريشيوس وتوباغو وعلى موقع جنوة، إلخ. فيما يتعلق بالمكان الأخير، حدث خطأ غريب، فلقد قيل لي إن جنوة قد خضعت للسويديين، وهذا ما لم أستطع تصديقه. وبعد البحث وجدتُ أن المقصود كان جنيف وسويسرا وهما مدينة وبلد يؤسفني القول إنهما لا يدخلان في ثقافة نائب الملك التركي الجغرافية. إلاّ أن الخطأ كان ارتكابه سهلاً لأن جنيف باللغة التركية تُكتب كجنوة والسويد تُلفظ «شويت» Shwit. وقد علّق الباشا بأن الطريق طويل قبل أن تُسوَّى الخلافات بين الفرقاء؛ وقد لاحظت بوضوح كيف أنه يتطلع بلهفة إلى نشوب حرب بين القوى الأوروبية التي ستريحه من أي خوف على سلامته الخاصة، وتُسبب في الوقت نفسه طلباً كبيراً على الحنطة في الإسكندرية. وفيما يختص ببونابارت، فقد بدا متأكداً بأن الإنكليز سوف يقبضون عليه يوماً ما في ألبا. وأعلن قائلاً: «هل قام الإنكليز بالحرب إذاً لأجل لا شيء في هذه السنوات العشرين؟ إنهم لم يحصلوا إلاّ على مالطة وبعض الجزر الأخرى!». وإن ما خلف في نفسه انطباعاً قوياً الخشية من وجود بنود سرية في معاهدة السلام تخولهم بالاستيلاء على مصر. كما أن الفكرة العامة القائلة بأنهم أعادوا تثبيت ميزان القوى في أوروبا، وضمنوا سلامتهم واستقلالهم، لم تُقنعه وتابع قائلاً: «لا يجب أن يتركوا إسبانيا دون أن يدفع لهم الإسبانيون بسخاء، ولماذا يتخلّون الآن عن صقلية؟». وما لم يستطع فهمه هو أن الإنكليز كانوا موجّهين في سياستهم بقوانين الشرف وبحس ووعي للخير العام الأوروبي. وصرّح قائلاً بحرارة: «إن ملكاً عظيماً لا يعرف إلاّ سيفه وكيس الدراهم خاصته، يستلّ الأول ليملأ الثاني، وليس هناك كلمة شرف بين الفاتحين» ـ وهذا اعتراف صريح بالمشاعر التي تواجه حتى أكثر الحكام الأتراك مرتبة. وكان لدى محمد علي بعض الأفكار العامة عن البرلمان الإنكليزي وكان اسم ولينغتون مألوفاً لديه، فقال: «لقد كان جنرالاً عظيماً»،

إلاّ أنه أعرب عن شكه فيما كان يمكن للقائد الإنكليزي أن ينجزه لو كان جنوده بسوء الجنود الأتراك نفسه وهل كان بوسعه تحقيق ما قد حقّقه الباشا نفسه في فتح مصر والحجاز. وقد كشف عن قلق كبير حول مصير كورفو Corfu والاستيلاء المستقبلي عليها، كذلك وضع الجزر السبع. فمن جهة، لقد تمنى أن يشن الروس حرباً على الباب العالي، ويجروا السلطان خارج أوروبا، وخشيَ من جهة ثانية، من أن يقوم الروس بالإمساك بتركيا في أوروبا حيث إن الإنكليز لن يبقوا مكتوفي الأيدي ومجرّد مشاهدين لكنهم سيأخذون حصتهم من الامبراطورية التركية وكان مقتنعاً بشدة بأن تلك الحصة لن تكون سوى مقاطعة مصر.

ما زلتُ أجهل رأي الباشا الحقيقي فيما يتعلق بصدقي في اعتناق الدين الإسلامي. وقد عاملني كمسلم بالتأكيد. وأقنعت نفسي بأن سلوكي الجريء في الطائف قد أقنعه حتماً بأني كنتُ أحد المهتدين الحقيقيين إلى الدين الإسلامي. أما بالنسبة إلى القاضي الذي كان قسطنطينياً ذكياً لمّاحاً، فإن أغلب الناس كانوا يعتقدون أن الباب العالي أرسله لمراقبة سيرة محمد علي وإعطاء المعلومات لذلك إلى السلطان، وقد فوجئت بسلوكه معي المرتبط بنية اتّهام الباشا عند عودته إلى القسطنطينية، بحمايته لمسيحي في زيارته إلى المدينتين المقدستين، وهي جريمة لا تُغتفر إذا ما أتت من باشا. وبعد عودته إلى القاهرة (حيث التقى بي بعكس توقّعاته، وقد رأيته مرة واحدة)، قام محمد علي بانتهاز فرص متكررة لإقناع السيد «سالت» Salt والسيد «لي» Lee، قنصلا جلالة الملك وقنصلا الشركة الشرقية، فضلاً عن العديد من الرحالة الإنكليز ذائعي الصيت الذين مرّوا بالقاهرة، بأنه كان يعرف حق المعرفة بأني لم أكن مسلماً حين كنتُ في الحجاز، لكن صداقته للدولة الإنكليزية جعلته يُغفل الحقيقة ويسمح لي بالتطفّل على القاضي. لقد أضمر الباشا فكرة أوحاها إليه بعض مستشاريه الفرنسيين في القاهرة ومفادها أنني، وفي رواية مستقبلية عن رحلاتي، ربما أتباهى بخداعه كما فعل علي بك العباسي الذي كان كتابه قد وصل للتو إلى القاهرة وهو يعلن فيه أنه لم يخدع الباشا فحسب بل علماء القاهرة أيضاً. وبالنسبة إلى محمد علي لا يأبه لاعتباره مسلماً سيئاً بقدر ما يكره اعتباره مغفلاً.

رغم آراء الباشا هذه التي أسرّها للرجلين الإنكليزيين والتي لم يُسبّبها أي كلام طائش وغير حكيم مني، فقد تابعتُ حياتي بعد عودتي إلى القاهرة بغير مضايقة أو ازعاج، كمسلم في الحي التركي. ويجدر بي تقديم الشكر له لاستقباله اللطيف لي في الطائف ولأنه لم يضع العوائق في طريق رحلتي عبر الحجاز.

كنتُ في مكة في شهر كانون الأول/ديسمبر، وفي المدينة في شهر نيسان/ أبريل التالي، حين كان الباشا في المدينتين، لكني لم أعتقد أنه من الضروري أو من المستحسن القيام بزيارة

رسمية له في أي من المكانين حيث كنتُ غير معروف بتاتاً. فإن طريقتي وأسلوبي في السفر يقضيان بأن أعيش منعزلاً قدر الإمكان، وباستثناء فترة زيارتي القصيرة إلى الطائف حيث أرغمتني الظروف على أن أظهر بطريقة بارزة نوعاً ما، فقد كنتُ معروفاً في الحجاز كحاج فقط، رجل من مصر لم يكن أحد على معرفة شخصية به إلاّ بعض ضباط الباشا الذين التقيتهم في الطائف.

إن معلوماتي التي تتعلّق بالطائف غير كافية ولم أعمد إلى تدوينها على الورق إلاّ بعد مغادرة المدينة. ولم أعان أبداً من البقاء وحيداً خلال إقامتي هناك كما أنني لم يكن لي أي معارف أستطيع منهم الحصول على معلومات وافية شافية، وأن الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبقات العليا ممن عشتُ بينهم، كانوا نادراً ما يتحركون خارج منازلهم خلال النهار في شهر الصيام.

تقع مدينة الطائف وسط سهل رملي يبلغ محيطه نحو أربع ساعات من المشي، ويكسوه نوع من النبات وتطوّقه جبال منخفضة تدعى جبال غزوان Ghazoan. هذه الجبال هي عبارة عن سلسلة تابعة لسلسلة الجبال الكبيرة، وهي تمتد لأربع أو خمس ساعات بعيداً إلى الشرق ثم تتلاشى في السهل. ولمدينة الطائف شكل مربّع غير منتظم ويبلغ محيطها خمس وثلاثون دقيقة من المشي السريع، وهي محاطة بجدار وخندق بناهما حديثاً عثمان المضايفة . للجدار ثلاث بوابات وتحميه عدة أبراج لكنه أقل صلابة بكثير من أسوار جدة والمدينة ويَنبُع التي تبلغ سماكتها في بعض الأماكن ثماني عشرة بوصة. وفي الجهة الغربية، داخل المدينة، يقف القصر على مرتفع صخري وهو يشكل جزءاً من جدارها، وقد بناه الشريف غالب. لكنه لا يستحق لقب القصر إلاّ في أنه أكبر من الأبنية الأخرى في المدينة وفي أن جدرانه الحجرية أكثر صلابة. وعلى الرغم من كونه الآن نصف مهدّم، فقد جعل محمد علي منه مركزه الرئيسي. إن منازل المدينة في معظمها صغيرة لكنها مُتقنة البناء وهي من الحجر؛ تقع غرف الجلوس في الطابق العلوي منها؛ كما أني على الأقل لم أرَ أي صالونات في الطابق الأرضي كما هي العادة في تركيا. والشوارع أعرض من تلك التي في معظم المدن الشرقية، ويقع المكان العام الوحيد في مواجهة القصر، وهو مساحة فسيحة ومكشوفة تُستخدم كسوق.

في الوقت الحاضر، يمكن القول بأن مدينة الطائف في حالة شبه مهدّمة، لأن عدداً قليلاً فقط من المنازل في حالة جيدة. فقد دمّر الوهابيون العديد من الأبنية حين استولوا على المدينة سنة ١٨٠٢، وبما أنها كانت شبه مهجورة منذ تلك الفترة فإن كل شيء يتجه نحو التداعي والسقوط. وقد رأيتُ مسجدين صغيرين. أفضلها هو للهنود. كما أن ضريح العباس الذي تعلوه

قبة جميلة والذي يزوره الحجاج أحياناً، قد دمّره الوهابيون كلياً. وباستثناء أربعة أو خمسة أبنية يقطنها الآن الضباط الرئيسيون للباشا، فإني لم أر أي بناء يفوق الحجم الأكثر شيوعاً.

وتتزوّد مدينة الطائف بالمياه من بئرين غزيرتين تقع إحداهما ضمن الجدران وتقع الأخرى تماماً مقابل إحدى البوابات. وللمياه مذاق جيد لكنها ثقيلة. وتشتهر المدينة في شبه الجزيرة العربية كلها بحدائقها الجميلة الغناء، ولكن تلك البساتين تقع على سفح الجبال التي تحيط بالسهل الرملي. ولم أر أي حدائق أو حتى شجرة واحدة ضمن أسوار المدينة، كما غابت الخضرة تماماً عن المنطقة المجاورة مما يجعل من الإقامة هنا مبعثاً على الكآبة كما في أي مدينة أخرى في شبه الجزيرة. ويبدو أن أقرب الحدائق تقع على الطرف الجنوبي الغربي على مسافة تبلغ نحو نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة. كما تقع على هذا الطرف أيضاً ضاحية مهجورة منفصلة عن المدينة فيها بعض أشجار النخيل بين أنقاضها، وقد هُجرت قبل اجتياح الوهابيين بفترة طويلة.

لم أقم بزيارة أي من الحدائق. في بعضها مقصورات أو خيم كبيرة حيث يمضي سكان الطائف ساعات المرح والبهجة. أبرزها وادي متنى ووادي سلامة، ووادي شمال. وتروي الآبار والجداول التي تنزل من الجبال تلك الحدائق، كما نجد هنا العديد من أشجار الفاكهة مع حقول من القمح والشعير. والفاكهة التي تذوّقتها في الطائف كانت العنب، بحجم كبير وطعم لذيذ، والتين والرمان والسفرجل لكننا نجد هنا كذلك الأنواع الأخرى كلها التي ذكرتها في جبل قرى. كما تشتهر حدائق الطائف كذلك بوفرة وكثرة ورودها التي يتم نقلُها، كالعنب، إلى أنحاء الحجاز كلها. وكان يلجأ إلى هذه الحدائق في فصل الصيف أكبر تجار مكة، كما كان الشريف نفسه يمضي أحياناً جزءاً من الفصل الحار هنا، وكانت تقع هنا كذلك منازلهم ومؤسساتهم كلها، لذلك فقد خسروا أملاكاً مهمّة حين نهب الوهابيون الطائف.

إن سكان الطائف الأصليين هم عرب من قبيلة ثقيف[1] أصبحوا مستوطنين حيث يملكون الحدائق المحاذية للمدينة كلها وكذلك معظم مخازن المؤن داخل جدرانها. وقد استقر هنا أيضاً بعض المكيين إلاّ أن الأغلبية الساحقة من الأجانب هم من أصل هندي. وهؤلاء الأشخاص ما زالوا يحافظون على زي المسلم الهندي وعاداته على الرغم من أنهم قد وُلدوا هنا في شبه الجزيرة واستقروا في بعض المراحل منذ عدة أجيال. إن بعضهم تجار لكن الأغلبية الساحقة منهم هم تجار أدوية وتعتبر تجارتهم من الأهمية بمكان في الحجاز أكثر منها في أي بلاد أخرى، وذلك بسبب ولع طبقات المجتمع كلها بالأدوية والعطورات الخ. وأعتقد أنه لا يوجد تجار جملة في

(١) من قبائل الطائف أيضاً، قبيلة الحمدة وبني محمد، والثمل.

الطائف وقد أحصيتُ نحو خمسين متجراً في مجموعها. قبل الغزو الوهابي، كانت هذه المدينة مدينة تجارية يأتي إليها العرب من البلدان المحيطة على مسافة عدة أيام لشراء الألبسة، في حين كان يأتي أهل الجبال بقافلات القمح والشعير. وكان المدينة أيضاً مركزاً تجارياً لبيع القهوة، يأتي بها البدو من جبال اليمن على الجمال فيتجنبون بالتالي دفع الرسوم الكبيرة المفروضة في المرافىء على ساحل شبه الجزيرة. كما أن كل شيء في المدينة يشير إلى البؤس والفقر المدقع. إن المستوردات الوحيدة من الداخل في الوقت الحاضر هي التمر الذي يأتي به عرب العتيبة من مزارع الفاكهة العديدة في منطقتهم. وتكتظ الشوارع الرئيسية بالمتسولين وبينهم عدد كبير من الهنود الذين يتعرضون أحياناً للهلاك من الجوع التام، فخلال إقامتي، كان على الفرد دفع ليرتين على الأقل (تعادلان حسب سعر الصرف الحالي، سدس الدولار أو عشرة بنسات) للحصول على الخبز الكافي لسد رمق رجل في اليوم. وكانت قوافل المؤن تصل كل أسبوع، غير أن النقص في الجمال لم يكن يسمح باستيراد كافٍ من الساحل لخفض أسعار الطعام، بالرغم من أن عامة الشعب كانت تقتات بشكل رئيسي من التمر، فلم تكن بالتالي تستهلك أياً من المؤن الآتية إلى هنا من مكة. لكني علمتُ من مصدر موثوق في السلطة أنه كان هناك مؤن في الطائف للجيش التركي لا تكفي إلاّ لعشرة أيام.

في زمن الشريف، كان يحكم هذه المدينة ضابط يعيّنه هو يُدعى «الحاكم» وكان هو نفسه شريفاً وقد أفلت بالكاد من سيف الوهابيين. ثم أعاده محمد علي إلى مركزه، إلاّ أن هذا المركز أصبح مجرد منصب شرفي. وقد استقرت هنا العديد من العائلات الشريفة من مكة، ويبدو أن نمط حياتهم وزيّهم وعاداتهم هي تلك نفسها التي في مكة، إلاّ أني لم أحصل سوى على القليل من فرص الملاحظة في هذا الموضوع.

في السابع من شهر أيلول/سبتمبر. انطلقتُ في الصباح الباكر من الطائف إلى مكة متّبعاً الطريق نفسها التي أتيتُ منها. وكما سبق أن ذكرت، هناك طريق تقع أكثر إلى الشمال تتجنّب عبرها القوافل الصعوبات التي يتطلبها المرور عبر جبل قرى. إن المحطة الأولى من مكة على هذه الطريق هي زيمه Zeyme وقبلها بنحو عشرة أميال ارتفاعات شديدة الانحدار. وزيمه هي قصر شبه مهدَّم يقع على الطرف الشرقي من وادي ليمون مع ينابيع غزيرة من المياه الجارية. إن وادي ليمون هو وادٍ خصب، يمتدُّ لساعات عديدة باتجاه وادي فاطمة وفيه عدة مزارع نخيل. وقد كانت الأرض مزروعة في السابق، إلاّ أن ذلك قد توقّف منذ الغزو الوهابي على ما أعتقد. كما أن حدائق الفاكهة فيه قد دُمّرت كذلك. هذه هي آخر مرحلة من طريق قافلة الحج السورية الآتية من الشرق، أو الطريق التي تقع باتجاه الشرق من سلسلة جبال الحجاز الكبرى الممتدة من «المدينة» إلى مكة. وإلى الجنوب الشرقي أو الشرق الجنوبي الشرقي من وادي ليمون،

وادٍ خصب آخر يُدعى وادي مضيق حيث استقر بعض الأشراف وحيث كانت للشريف غالب أراضٍ وأملاك.

من زيمه، في اليوم الثاني، أي من مكة إلى «السيل»، وهو جدول أسموه بهذا الاسم ويجري عبر سهل خالٍ من الأشجار لكن فيه عشباً وافراً غنياً. وعند سيل، تدخل الطريق في بقعة أرض جبلية يمر خلالها ممرٌ صعب وضيّق جداً يبلغ نحو ست ساعات. والمحطة التي نمر بها هذا اليوم هي Akrab وتقع في السهل العلوي وتبعد نحو ثلاث ساعات عن الطائف باتجاه الشمال وتقع على المستوى نفسه من المدينة تلك. وهكذا يصل المسافر إلى الطائف في اليوم الرابع من انطلاقه من مكة. وقد باتت هذه الطريق الآن غير سالكة إلاّ للقوافل الكبيرة والمحميّة جداً حيث إن عرب قبيلة العتيبة العدائيين قد قاموا مراراً بغزوات على هذا الموقع وسلبوا القوافل الصغيرة.

قريباً من الطائف، أدركتُ ثلاثة جنود أرناؤط. وكان كل منهم يركب حماراً مثلي أنا. وقد قاموا في الطائف بتبديل أموالهم حيث حصلوا على ثلاث عشرة ليرة (من عملة القاهرة) مقابل دولار إسباني واحد، الذي كان يُساوي في جدة إحدى عشرة ليرة فقط. وهكذا، فقد صنعوا كيساً مشتركاً وضعوا فيه ألف دولار وسافروا من جدة إلى الطائف، حين كانت الطريق آمنة، لأجل الليرتين اللتين ربحوهما لقاء كل دولار. وحملوا المال وقد خيط داخل أكياس على حميرهم، وبما أنهم نسوا ربما ترك بعض المال بين أيديهم من أجل مصاريف السفر، فقد انضموا إليّ بعد أن وجدوا كيس سفري مليئاً بمخزون جيد من المؤن، وتركوني أدفع مصاريفنا المشتركة على الطريق كلما توقّفنا عند المقاهي. لكنهم كانوا رفاقاً خفيفي الظل وظُرفاء فلم يذهب المصروف سُدىً.

وعند المرور بوادي مُحرَم، ارتديت الإحرام بما أني كنتُ على وشك زيارة مكة ومسجدها لأول مرة. ويتألف الإحرام من قطعتي قماش كتاني أو صوفي أو قطني، تُلفُّ الأولى حول الخاصرة وتُرمى الثانية على العنق والكتفين لكي يُترك جزء من الذراع اليُمنى مكشوفاً. ويجب أن يوضع كل ثوب جانباً قبل ارتداء الإحرام. إن أي قطعة نسيج تفي بالغرض لكن الشرع يقضي بألاّ يكون فيه أي درزة ولا أي خيط من الحرير أو أي زينة كما أن اللون الأبيض هو اللون المفضل على أي لون آخر. ويُستعمل عادة القماش الكتّاني الأبيض الناعم الهندي لهذا الغرض. لكن الحجاج الأغنياء يستعملون عوضاً عنه شالات الكشمير الأبيض دون أطراف مزيّنة برسومات زهرية. ويبقى الرأس مكشوفاً بالكامل وليس مسموحاً حلق الرأس، على وفق العادات الشرقية، حتى يُسمح بترك الإحرام جانباً. كذلك فإن مشط القدم أو سطحها الأعلى يجب أن يكون مكشوفاً: وهكذا، فإن أولئك الذين ينتعلون الأحذية، يعمدون إما لقص قطعة

من الجزء الأعلى من الجلد ونزعها، أو يأتون بأحذية مصنوعة لهذا الغرض كتلك التي يحضرها الحجاج الأتراك معهم عادة من القسطنطينية «استانبول». وكنتُ، كمعظم أهل البلاد، أنتعلُ صندلاً وأنا أرتدي الإحرام.

إن التقدم في السن والمرض هما عذران لإبقاء الرأس مغطى، إلاّ أن هذا التساهُل يجب أن يُدفع ثمنه عبر تقديم الصدقات إلى الفقراء. وتصبح أشعة الشمس مزعجة إلى حد بعيد للأشخاص حاسري الرأس؛ لكن، وبالرغم من أن الشرع يحرّم حماية الرأس بأي شيء يلامسه مباشرة، فليس هناك ما يحرّم استعمال المظلات التي يتجهَّز بها أغلب الحجاج الشماليين، في حين يقوم أهل البلاد إما بتحمل أشعة الشمس بشجاعة، وإما يربطون خِرقة على عصا فيؤمّنون الظل بإدارتها نحو الشمس.

إن الإحرام ـ سواء وُضع صيفاً أم شتاء ـ غير مريح بقدر ما هو مضرّ بالصحة، خاصة بين مسلمي الشمال المعتادين على الألبسة الصوفية السميكة فيُجبَرون في هذه الفترة على تركها لعدة أيام. إلاّ أن الحماسة الدينية لدى بعض من يزورون الحجاز، متّقدة جداً بحيث أنهم ينذرون عند أخذ الإحرام وهم يقتربون من مكة بألا يخلعوه حتى بعد إتمام حجهم إلى عرفات، وإن وصلوا قبل الحج بعدة أشهر؛ وهكذا، فهم يبقون لأشهر مكسوين ليلاً نهاراً بهذه العباءة الرقيقة(١)، حيث أن الشرع يحرّم أي كساء آخر حتى في الليل، وهذا ما لا يلتزم به بشدة إلاّ قليل من الحجاج.

وعندما كان العرب القدماء يؤدون فرائض الحج إلى أوثانهم في مكة، كانوا يرتدون كذلك الإحرام. إلاّ أن هذا الحج كان محدداً في فترة معينة من السنة، ربما في الخريف، فعلى الرغم من أن العرب كانوا يعدون وفق الأشهر القمرية، فقد قاموا بإدخال شهر كل ثلاث سنوات، وهكذا، لم يتغيّر الحج في الفصول كما هي الحال الآن. إن زيادة يوم إلى الشهر، والتي ترسّخت منذ مائتي عام قبل الإسلام، قد حرّمها في القرآن الذي فرض أن تستمر تأدية الحج لله الحي القيوم، والذي كان يتم تكريماً للأوثان، إنما يجب تحديده على وفق شهر قمري، فأصبح بالتالي موعده غير منتظم، وفي خلال ثلاثة وثلاثين عاماً يتغير بالتدريج من عمق الشتاء إلى أوج الصيف.

إن من يرتدي الإحرام، أو كما يدعونه «المحرِم»، ليس مجبراً على الامتناع عن تناول أنواع

---

(١) يروي المؤرخون العرب أن هارون الرشيد وزوجته زبيدة قاما ذات مرة بتأدية الحج سيراً على الأقدام، من بغداد إلى مكة، وهما يرتديان الإحرام ليس إلاّ؛ وأنه كان هناك عند كل محطة للقافلة قصر فيه شقق مفروشة بروعة؛ وأن الطريق كلها كان تُكسى يومياً بالسجاد الذي كانا يمشيان عليه!!؟

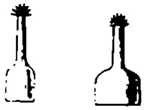
معينة من الطعام كما كان يفعل العرب القدماء الذين كانوا، خلال الفترة التي يرتدون فيها الإحرام، يمتنعون عن تذوُّق الزبدة من بين الأصناف الأخرى. إلاّ أن على المحرِم التصرف بحشمة وعدم التلفّظ بالشتائم أو الدخول في شجار أو قتل أي حيوان وإن تكُ ذبابة على جسده ولا حتى الاتصال بالجنس الآخر. أما إحرام النساء فيتألف من عباءة يَلْفُفْنَها كلياً عليهن مع خمار ملاصق لدرجة يصعب معها رؤية أعينهن، وحسب الشرع، عليهن بتغطية أيديهن وكواحلهن. إلاّ أن النساء يتجاهلن هذه القاعدة عموماً.

وعلى الرغم من أن رفاقي الجنود كانوا ذاهبين مثلي إلى مكة، فلم يروا من الضرورة أخذ الإحرام الذي، كما سبق وذكرت، يفرضه الشرع، على مدار السنة، على كل من يسافر باتجاه المدينة المقدَّسة.

بقينا على قمة جبل قرى المبهجة لساعة واحدة، ثم نزلنا الجبل مع حلول المساء. وقد أجبرنا وابل من المطر على البحث عن مأوى داخل كهف فسيح بجانب الطريق، وهو الكهف الذي يستخدمه الرعيان من قبيلة هذيل في ظروف مشابهة. ووصلنا بعد غياب الشمس إلى المقاهي المذكورة سابقاً، الواقعة على طرف الجبل، حيث تترجّل القوافل من مكة. وقمنا هنا بإضرام نار كبيرة واستأجرنا قِدراً فخارية من العرب أعددنا فيها بعض الأرز للعشاء. إن مسيرة اليوم الطويلة والمطر وردائي الخفيف قد أدت كلها إلى إصابتي بحمّى خفيفة، لكني حرصتُ على تدفئة نفسي جيداً خلال الليل فأصبحتُ في اليوم التالي بصحة جيدة. وقد ساعد على شفائي كلياً من تأثيرات مرضي الشديد في جدة عوامل عديدة منها تغيير الهواء خلال رحلتي إلى الطائف والمناخ الأكثر برودة نسبياً في ذلك المكان. وخلال الليل، وصل قاضي مكة من الطائف.

في الثامن من أيلول/سبتمبر، ذهبت عند بزوغ الفجر لزيارة القاضي الذي ألفيتُه يدخّن الغليون ويشرب القهوة مستفيداً بذلك من الامتياز الممنوح للمسافرين في شهر رمضان بالإعفاء من الصيام. وحسب اتفاقنا في الطائف، كان عليَّ الانضمام إليه هنا في طريقه إلى مكة، لذا فلم أستطع تجنّب ذلك، إلاّ أني كنت غير راغب في مواصلة الرحلة معه لاحتمال أن يأخذني إلى منزله في مكة حيث كنتُ سأوضع مجدداً في وضع مشابه لذلك الذي كان مزعجاً في الطائف. غير أنه بدا مستعداً لتجنب تكبُّد عناء ضيف ومصاريفه. فحين عبّرت له عن خشيتي في ألاّ يتمكن حماري المنهك القوى من مجاراة بغله القوي، أجابني بأنه يأمل في مطلق الأحوال في أن يلتقي بي مجدداً في مكة. ولذلك رحلتُ مع الجنود تاركاً القاضي ليأخذ قسطاً من الراحة. وأمضينا ساعات الظهيرة في مقهى يُدعى «شداد» حيث كان عدد من البدو يسلّون أنفسهم بإطلاق النار على هدف ما. وقد برهنوا على براعة فائقة، فكانوا أحيانا يصيبون درهماً

على مسافة نحو أربعين ياردة. ولا يمكن الحصول على أي شيء آخر في المقاهي على هذه الطريق باستثناء القهوة والماء. كما أن القهوة لا تقدّم في فناجين مفردة، كما هي العادة في معظم أجزاء الشرق، لكن من يطلبها يحصل على إناء فخاريّ صغير من القهوة الساخنة أمامه تحتوي على عشرة إلى خمسة عشر فنجاناً، ويشرب المسافر هذه الكمية أحياناً ثلاث أو أربع مرات يومياً. ويدعى هذا الإناء «مشْرَبة»، (انظر الشكل في الرسم المرفق) وقد غُرزت في فم الإناء رزمة صغيرة من الأعشاب المجففة يُصبُّ السائل من خلالها. وقد سبق أن ذكرتُ الاستهلاك المفرط للقهوة في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية، كما يقال أنها تنتشر أكثر بعد إلى الجنوب ونحو المنطقة المجاورة لبلد القهوة.



على الطريق من «شداد» التي تقع على طول السهول المنخفضة بين الجبال الحادة الرأس، فوجئنا بأعنف وابل من المطر والبرد الذي أجبرنا على التوقُّف. وفي وقت قصير جداً تدفقت المياه من الجبال، وحين انحسر البرد وتوقف بعد نحو الساعة، وجدنا أن المطر الذي كان مستمراً، قد غطى وادي نعمان بالمياه بعمق ثلاث أقدام، بينما قطعت الطريق سيول يبلغ عرضها ما يقارب الخمس أقدام وذلك باندفاع وعنف جعل من المستحيل لنا قطعها. فبتنا عاجزين في هذه الحالة عن التقدم أو التراجع علماً منا بأن تيارات مشابهة قد تكوّنت خلفنا، لذلك، فقد اتّخذنا مركزاً على جانب الجبل حيث كنا في مأمن من أن يجرفنا التيار وحيث نستطيع الانتظار بأمان إلى أن تخمد العاصفة. وسرعان ما بدت على طرف الجبال شلالات صغيرة لا تُعدُّ ولا تُحصى وانغمر كل شيء، بينما تواصل المطر يرافقه الرعد والبرق بدرجة العنف نفسها. وقد رأيت القاضي الذي غادر «شداد» بعدنا بقليل، على مسافة منا، وقد فصله عن جماعتنا تيار عميق، بينما أُجبرت كذلك العديد من نسائه الراكبات على البغال بالبقاء بعيداً على مسافة منه. واستقررنا في هذا الوضع المزعج لنحو ثلاث ساعات حين توقّف المطر وخفّت حدة التيارات سريعاً، إلاّ أنه كان من الصعب لنا دفع حميرنا لتحاول السير على الأرض الزلقة التي كانت لا تزال مغمورة بالمياه، فكنا أخيراً مُجبرين على الترجُّل عنها ودفعها أمامنا حتى وصلنا إلى مساحة من الأرض أكثر ارتفاعاً. وكان القاضي وجماعته كلها مضطرين لفعل الشيء نفسه. وداهمنا الليل الآن وغشيتنا السماء الغائمة بظلمة حالكة، لكن، وبعد السير المحفوف بالمخاطر لثلاث أو أربع ساعات، حيث كنا نتعثّر أو نقع تقريباً عند كل خطوة. بلغنا مقهى عرفات مما أراح رفاقي الجنود الذين عبّروا عن مخاوفهم المتعلّقة بأكياس أموالهم. ولم

أكن أنا نفسي أقل سروراً حيث أني كنتُ في حاجة ماسة إلى النار بعد أن تبلّلتُ بهذه الطريقة وأنا أرتدي فقط كساء الإحرام الرقيق الهزيل.

كانت المقاهي لسوء الحظ، قد غمُرت بالمياه كذلك فلم نجد مكاناً جافاً نجلس عليه كما تمّ إضرام النار بصعوبة في إحدى الأكواخ العربية الصغيرة والمقاومة للمناخ، حيث انسلّ القاضي وبعض من جماعته وأنا فقمنا بتحضير القهوة. وكانت نساؤه يبكين في كوخ آخر من شدة البرد. ولم يرغب القاضي في تعريضهن للنتائج المترتّبة على المبيت ليلاً في وضع كهذا، فركب مجدداً بعد نصف ساعة وتابع سيره باتجاه مكة تاركاً إياي وجماعتي نستحوذ على النار التي استنبطنا وسيلة بعد بعض الوقت لنرتاح حولها.

في التاسع من أيلول/سبتمبر. انطلقنا باكراً لنجد أن عاصفة الأمس لم تمتد إلى أبعد من سهل عرفات. وكثيراً ما تحدث فيضانات وعواصف مماثلة في هذه البلاد حيث تبدو الفصول أقل انتظاماً منها في أماكن أخرى تقع على الارتفاع نفسه. وقد سمعتُ أن الفصل الممطر في الجبال الشرقية وفي الطائف هو أكثر ثباتاً منه في المنطقة الجنوبية من مكة وجدة حيث تكون السماء، حتى في منتصف فصل الصيف، غائمة غالباً بالأمطار والعواصف؛ وذلك على الرغم من أنه غير منتظم كما هو في المنطقة الاستوائية في إفريقية. وقد سجّل مؤرّخو مكة عدة فيضانات مُروِّعة في تلك المدينة، وحدثت الأكثر فظاعة في السنوات ٨٠/ ١٨٤/ ٢٠٢، ٢٨٠، ٢٩٧، ٥٤٩، ٦٢٠، ٨٠٢، ٨٢٩، للهجرة. وقد غمرت المياه في بعض هذه الفيضانات كل مدينة مكة والكعبة حتى ارتفاع الحجر الأسود، وقد دُمرت العديد من المنازل في كل هذه الفيضانات وزهقت الأرواح. ويقدم «الأعصمي» تفاصيل فيضان دمّر مكة سنة ١٠٣٩هـ، أو سنة ١٦٢٦ حسب تقويمنا، حين زُهق خمس مئة شخص ودمّرت الكعبة في المسجد. كما حدث فيضان مروّع آخر سنة ١٦٧٢.

وصلتُ إلى مكة عند منتصف النهار تقريباً وذهب رفاقي بحثاً عن معارفهم بين الجنود وتركوني لأتدبر أمري، وأنا لا أعرف أحداً في المدينة، ولم يُوص بي أحد إلاّ القاضي الذي، كما سبق أن ذكرت، أملت في تجنبه.

إن كل من يدخل مكة، سواء أكان حاجاً أم لا، مرغم وفق الشرع على زيارة المسجد مباشرة[1]، ودون القيام بأي من الشؤون الدنيوية قبل القيام بذلك. اجتزنا سلسلة المتاجر والمنازل إلى بوابات المسجد حيث أنزلني سائق الحمار وأخذ أجرته. وهنا دنا مني ستة من المطوّفين ـ أي المرشدين إلى الأماكن المقدسة ـ وقد عرفوا من الإحرام الذي أرتديه أنني أنوي زيارة الكعبة.

(١) يذكر المؤلف بعض الملاحظات غير الصحيحة عن شعائر الحج، وانظر الصفحة التالية أيضاً.

فاخترتُ واحداً منهم كدليل لي، وبعد أن أودعتُ متاعي في متجر مجاور، دخلتُ المسجد من البوابة التي تُدعى باب السلام، وهي البوابة التي يُنصح الوافد الجديد بالدخول منها.

إن الشعائر الواجب تأديتها خلال زيارة المسجد هي التالية:

١ ـ بعض الشعائر الدينية الواجب تأديتها داخل الحرم.

٢ ـ السعي بين الصفا والمروة

٣ ـ تأدية العُمرة

وعلى كل مسلم إعادة هذه الشعائر كلما دخل مكة من رحلة تبعد عن مكة أكثر من يومين، ثم عليه القيام بها مجدداً عند الحج إلى عرفات بشكل خاص. وسأصف هنا تلك الشعائر باختصار شديد، إذ إن تقديم تفاصيل كاملة وشروحات وافية للشرع الإسلامي في هذا الموضوع سيكون أمراً مضجراً إلى حد بعيد. بل إن هناك مجلدات ضخمة باللغة العربية لا تعالج إلاّ هذا الموضوع وحده.

١ . الشعائر الواجب تاديتها داخل الحرم:

عند المدخل تُتلى بعض الأدعية تحت صف الأعمدة عند رؤية الكعبة، ثم تصلَّى ركعتان، أو أربع سجدات موجّهة إلى الله شكراً له لبلوغ البقعة المقدسة وتحية للمسجد نفسه، يقترب بعدها الحاج من الكعبة عبر إحدى الطرق المعبّدة إليها ماراً بالمنطقة المكشوفة التي تقوم عليها الكعبة. وعند العبور تحت القنطرة المعزولة مقابل الكعبة وتُدعى باب السلام، تُتلى بعض الأدعية. وتُتلى أدعية أخرى بصوت منخفض يقوم عندها الزائر بالوقوف مقابل الحجر الأسود في الكعبة ويُصلي ركعتين يتمّ في نهايتهما مسّ الحجر الأسود باليد اليُمنى، أو تقبيله، إذا لم يكن هناك حشد كبير من الناس. يبدأ حينها المؤمن بالطواف أو السير في دوران حول الكعبة مُبقياً ذلك البناء باتجاه يده اليسرى. من الواجب إعادة هذه الشعيرة سبع مرات، حيث تتم الثلاث الأولى بخطوات سريعة تقليداً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي قام بالرّكض حول الكعبة ثلاث مرات بأقصى سرعة[1] لينقُضَ أقوال أعدائه وادعاءاتهم بأنه مريض مرضاً خطيراً. ويجب أن تترافق كل دورة مع أدعية محددة تُتلى بصوت منخفض وتتناسبُ مع أجزاء البناء المختلفة التي يمر الحاج بجانبها، كما يتم لمس الحجر الأسود أو تقبيله عند انتهاء كل دورة، فضلاً عن حجر آخر رُكّز في الحائط عند زاوية من الحجر الأسود. وعند انتهاء الدورات السبع،

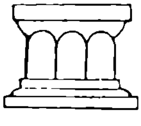
(١) في السعي بين الصفا والمروة هرولة بسيطة للرجال في جزء من المسعى وليس الركض السريع حول الكعبة كما يزعم المؤلف.

يقترب الزائر من حائط الكعبة بين الحجر الأسود وباب البناء، وتُدعى تلك المساحة «الملتزم». هناك، يقوم الحاج بالتضرُّع إلى الله ليغفر ذنوبه، فاتحاً يديه الممدودتين وصدره ملتصق بالحائط. ثم يعود باتجاه مقام إبراهيم المجاور حيث يُصلي ركعتين تدعيان «سُنّة الطواف»، يذهب بعدها إلى بئر زمزم المحاذية للمقام، وبعد خطبة ورِعَة تكريماً للبئر، يشرب منها الماء بقدر ما يحلو له أو بقدر ما يستطيع حين يكون الحشد هائلاً. هنا تنتهي الشعائر الواجب إتمامها داخل الحرم.

بإمكاني أن أضيف هنا بأن «الطواف» هو شعيرة إسلامية لا تؤدى في الحرم المكي فحسب. ففي صيف سنة ١٨١٣، كنتُ حاضراً في الاحتفال السنوي الذي يُحتفى فيه بقديس بلدة قنا في شمال مصر ويُدعى عبد الرحمن القناوي. وكان عدة آلاف من الناس قد احتشدوا على السهل الذي يقع عليه قبر هذا الولي الذي يبعد ميلاً واحداً عن المدينة. وكان كل شخص، حيث يصل، يدور سبع مرات حول المسجد الصغير الذي يحتوي على القبر. وكانوا حين يعتزمون وضع الكسوة الجديدة على قبره لتلك السنة، يأتون به في موكب ديني يتبعه الحشد كله سبع مرات حول البناء يتمّ بعدها وضعه على القبر.

٢ ـ السعي بين الصفا والمروة:

إن دليلي الذي كان يتبعني على الأثر خلال تأدية الشعائر المذكورة أعلاه وهو يتلو كل الصلوات المطلوبة والتي كنت أردّدها بعده، أرشدني الآن خارج المسجد عبر بوابة تُدعى باب الصفا. تقع ثلاث قناطر صغيرة مفتوحة متّصلة بعضها ببعض بوساطة عارضة في الأعلى، وفي الأسفل ثلاث درجات حجرية عريضة تقود إليها (انظر الرسم أدناه)، على بُعد خمسين ياردة من الطرف الجنوبي الشرقي للمسجد على أرض مرتفعة قليلاً.



هذا هو ما يُدعى بتلّ الصفا، يقف الحاج هنا، على الدرجة العليا، ووجهه باتجاه المسجد الذي حجبته عن الرؤية المنازل الواقعة بينهما، ويرفع يده باتجاه السماء ويتوجّه إلى الله بدعاء قصيرة ملتمساً عونه على إتمام المسيرة المقدّسة أو «السعي» كما تُدعى. ثم ينزل ليباشر السير على طول شارع منبسط يبلغ طوله نحو ست مائة قدم ويدعوه المؤرخون العرب «وادي الصفا»، وهو يقود إلى المروة التي تقع على طرفه الآخر حيث وُضعت منصّة حجرية ترتفع نحو ست أو ثماني أقدام عن مستوى ارتفاع الشارع، مع عدة درجات عريضة تؤدي إليها. وعلى الزائر أن

يسعى بخُطى سريعة من الصفا إلى المروة. ثم عليه أن يعدو لمسافة قصيرة حُدِّدت بأربعة أحجار أو أعمدة وتُدعى «الميلَيْن الأخضرين»، بُنيت في جدران المنازل على الجانبين، ويبدو أن اثنين من تلك الأحجار أخضرا اللون ظهرت عليها العديد من النقوش التي يصعب على المرء قراءتها لكونها على علو شاهق في الجدران. كما تُتلى الأدعية بلا توقف وبصوت منخفض خلال هذا السعي. وبإمكان المتوعّكين صحياً الركوب أو الجلوس في حمّالة. يصعد الحاج، عند بلوغ المروة، الدرجات بيدين مرفوعتين ويُردِّد دعاء قصيراً كتلك في الصفا وهو المكان الذي سيعود إليه الآن. إن السير بين المكانين يجب أن يُكرَّر سبع مرّات حيث يُختتم عند المروة، وبذلك يكون أربع مرات من الصفا إلى المروة وثلاث مرات من المروة إلى الصفا.

٢ ـ أداء العُمرة:

هناك عدة دكاكين للحلاقين في المنطقة المجاورة للمروة، يدخل إلى أحدها الحاج بعد أن يُتمّ «السعي» فيحلُقَ رأسه والحلاق يتلو أدعية معينة يُردِّدها خلفه الحاج. أما الأحناف، وهم أتباع أحد المذاهب الإسلامية الأربعة الأساسية، فهم يحلقون فقط ربع الرأس، وتظل ثلاثة الأرباع الباقية كما هي حتى يعودوا من العمرة(١). وبعد تأدية شعيرة الحلاقة هذه يصبح بإمكان الزائر أن يضع الإحرام جانباً ويرتدي زيّه العادي، أو يستطيع، إذا ما شاء ذلك، الذهاب مباشرة من هنا إلى العمرة فيبقى بالتالي مرتدياً ثياب الإحرام ويصلّي ركعتين فقط عند الانطلاق. غير أن ذلك نادراً ما يحصل حيث أن شعيرتي الطواف والسعي تنهكان القوى بحيث تصبح الراحة أمراً مرغوباً بعد إتمامهما. وهكذا، يرتدي الزائر ثيابه الاعتيادية، لكنه في اليوم الثاني، أو في أي يوم تالٍ، يرتدي الإحرام مع الشعائر نفسها الواجبة عند ارتدائه أول مرة، وكلما كان ذلك اليوم قريباً كان ذلك أفضل. ويبدأ حينها المسير إلى العمرة، وهو مكان يبعد مسافة ساعة ونصف الساعة عن مكة. وهنا يصلّي ركعتين في مُصلى صغير ويعود إلى المدينة مترنماً على طول الطريق بالأدعية الدينية التي تُدعى التلبية وتبدأ بالكلمات التالية: «لبّيك اللهم لبّيك». ثم عليه الآن أن يُتم مجدداً شعيرتي الطواف والسعي ويحلق رأسه كلياً(١) ويضع الإحرام جانباً مختتماً بذلك الشعائر كلها. إن تأدية العمرة يفرضها الشرع لأنها ضرورية جداً، إلاّ أن العديد من الأشخاص يعفون أنفسهم منها على الرغم من ذلك. لقد ذهبتُ إلى هناك في اليوم الثالث لوصولي إلى المدينة وكنتُ أمشي خلال الليل وهذا أمر دارج في الفصل الحار.

يجب أن تُكرَّر تلك الشعائر كلها في موسم الحج وذلك بعد العودة من وادي منى ثم تُعاد

---

(١) هذا زعم المؤلف.

أيضاً عند مغادرة مكة. كذلك، فإن الطوّاف أو المشي حول الكعبة، يجب أن يُؤدى قدر المستطاع. ويعيش بعض الأجانب في مكة ممن لا يجدون حرجاً في القيام بذلك مرتين في اليوم، عند المساء وقبل طلوع النهار.

قبل عهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين كانت الوثنية سائدة في شبه الجزيرة العربية، كانت الكعبة شيئاً مقدساً وتتم زيارتها بتبجيل ديني حيث يزورها الأشخاص الذين كانوا يؤدّون الطواف بالطريقة نفسها تقريباً كما يفعل أحفادهم في الوقت الحاضر. غير أن البناء في ذلك الوقت كان مُزداناً بثلاثمائة وستين وثناً، وكان هناك فرق واحد شاسع في هذه الشعيرة، حيث كان الرجال والنساء في ذلك الوقت مُرغمين على الظهور في حالة عُري تام، وذلك لكي تُرمى خطاياهم مع أثوابهم. وهكذا، فإن الحج الإسلامي وزيارة الكعبة ليسا إلاّ استمراراً وتثبيتاً للعُرف أو العادة القديمة[1]. وبالطريقة نفسها، كان العرب القدماء يعتبرون الصفا والمروة مكانين مقدّسين يحتويان على رسومات للآلهة Motam مطعم وNehyk نهيك، وهنا اعتاد الوثنيون على السير من مكان إلى الآخر بعد عودتهم من الحج إلى عرفات. وهنا أيضاً، إذا ما آمنا بالعُرف الإسلامي[1]، فإن «هاجر» وهي أم اسماعيل هامت في الصحراء بعد أن أُخرجت من منزل إبراهيم كي لا تشهد موت ابنها الذي وضعته وهو يكاد يحتضر من العطش، حين ظهر الملاك جبريل وضرب الأرض بقدمه مما جعل بئر زمزم تتفجّر. ويُقال إن المشي من مكان إلى آخر فُرِض إحياء لذكرى طواف «هاجر»، التي هامت من حزنها وألمها سبع مرات بين الصفا والمروة[2].

ويروي الأزرقي أنه، حين كان الوثنيون يختتمون شعائر الحج إلى عرفات، كانت القبائل المختلفة الحاضرة كلها تجتمع هناك، في عودتها إلى مكة، في المكان المقدس الذي يُدعى «الصفا» ليمجّدوا بنبرة عالية ومتّقدة، مجد أسلافهم ومعاركهم وشُهرة أمتهم. ثم يطلعُ شاعرٌ من كل قبيلة، كل واحدة بدورها، ويتوجّه إلى الحشد هاتفاً: «من قبيلتنا كان البطل المغوار الفلاني والجواد الكريم الفلاني، ولدينا الآن مثلهم نباهي بهم». ثم يُعدِّد أسماءهم ويكيل لهم المديح ويختم بأغنية من الشعر الملحمي، ودعوة للقبائل التالية الأخرى: «فمن كان ينفي حقيقة ما قلت أو يدَّعي لنفسه حقاً في مجد بهذا القدر، وفخر وفضيلة مثلنا نحن، فليقُم وليثبت ذلك هنا!» عندها، يصعد شاعر خصم ويحتفل بلغة مماثلة بمجد قبيلته المماثل أو الأرفع شأناً ومقاماً، ساعياً في الوقت نفسه للتقليل من قيمة ادّعاءات خصمه والسخرية منها.

---

(١) كان ذلك عبادة لا عرفاً ولا عادة.

(٢) يقصد السعي بين الصفا والمروة.

وقد ألغى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك ليهدّىء من حدة العداوة والحسد الناتجين عن هذا التقليد، أو ربما ليكسر حدة الروح الاستقلالية عند البدو الأشداء. فقد ورد في القرآن المقطع التالي: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً﴾.

ولعل ذلك قد أزال أسباب العديد من الشجارات، ولكن هذا المشرّع الصارم قام في الوقت نفسه بتدمير التأثير الذي كانت تمارسه قصائد أولئك الشعراء القبليين المتنافسين على الفضائل الحربية والعبقرية الأدبية الكامنة في مواطنيهم[1].

لقد كانت تأدية العمرة كذلك عادة قديمة. وقد حافظ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ممارستها، كما يُقال أنه كثيراً ما كان يؤدي صلوات المساء في هذه البقعة.

بعد أن أتممتُ شعيرتي الطواف والسعي المنهكتين، حلقتُ جزءاً من رأسي وبقيتُ جالساً في دكان الحلاّق بما أني لا أعرف أي مكان آخر أستريح فيه. وقد بحثت عن مساكن، لكني علمتُ أن المدينة كانت قد امتلأت بالحجاج وبآخرين عديدين قاموا بحجز الشقق قبل وصولهم. لكني وجدتُ بعد قليل من الوقت رجلاً عرض عليَّ غرفة جاهزة مفروشة وقد استأجرتها وسكنتُ مع المالِك بما أني لا أملك خادماً. وقد أوى هو وعائلته المؤلفة من زوجة وولدين إلى فناء الدار المفتوح بجانب غرفتي. وكان المالِك رجلاً فقيراً من المدينة يعمل كمطوّف أو دليل. ورغم أنه كان ينتمي إلى طبقة أدنى من الطبقة الثانية حتى من المكيين، فقد كلّفني خمس عشرة ليرة في اليوم، ووجدتُ، بعد رحيلنا أن العديد من قطع الثياب خاصتي قد سُرقت من كيس سفري. لكن ذلك لم يكن كل شيء، ففي عيد الفطر، دعاني إلى عشاء فاخر في غرفتي برفقة ستة من أصدقائه، وفي صباح اليوم التالي، قدم لي فاتورة تضم كل مصاريف الضيافة تلك[1].

إن آلاف المصابيح التي تُضاء خلال شهر رمضان في المسجد الكبير قد جعلت منه الملاذ الليلي لكل الأجانب في مكة، فهنا يتنزَّهون أو يجلسون للمسامرة إلى ما بعد منتصف الليل. ويقدِّم المنظر بمجمله مشهداً هو ـ لولا غياب النساء عنه ـ أشبه بتجمع ليلي أوروبي من أي شيء كنت أتصوره عن مكان إسلامي مقدس. ولم تشهد الليلة التي تختتم شهر رمضان عروض الابتهاج الرائعة تلك التي تُشاهد في أجزاء أخرى من الشرق. وقد خلت كذلك الأيام الثلاثة التالية للاحتفال من التسلية العامة. وقد وُضعت بعض الأراجيح في الشوارع لتسلية الأطفال، وكان بعض المشعوذين المصريين يعرضون أعمالهم أمام الجماهير المحتشدة في

(١) تكثر إشارات المؤلف الكاذبة ـ على طريقة المستشرقين ـ عن المسلمين وشعائرهم وصفاتهم.

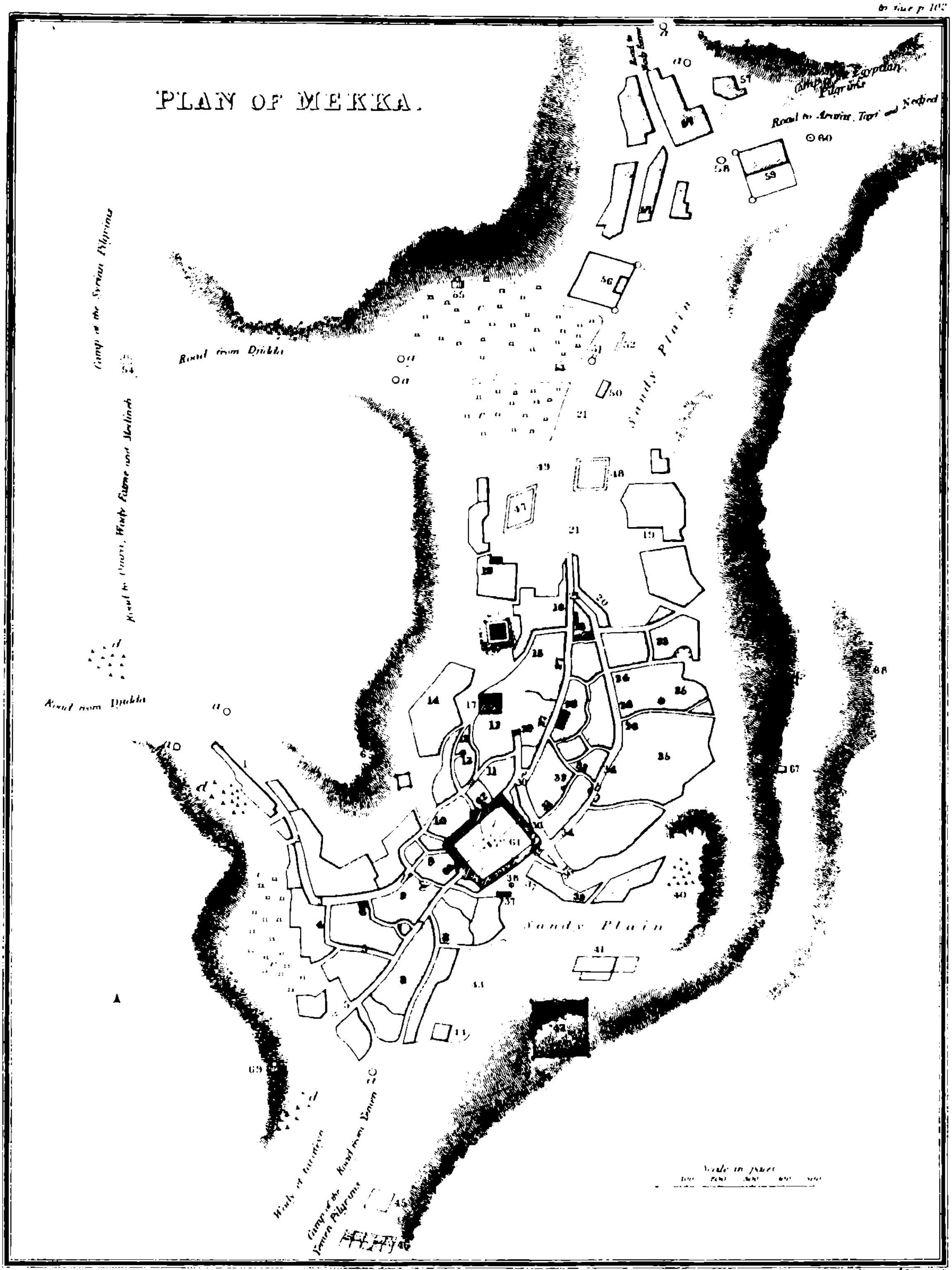
الشوارع، لكن قليلاً ما تحصل أشياء أخرى تدخل على العيد باستثناء ارتداء ملابس مبهرجة يفوق فيها عرب شبه الجزيرة إخوانهم السوريين والمصريين.

قمتُ بزيارة القاضي وهي زيارة معتادة بمناسبة هذا العيد. وعند انتهاء اليوم الثالث (الخامس عشر من شهر أيلول/ سبتمبر) انطلقتُ إلى جدة لإتمام شراء عدّة للسفر يمكن الحصول عليها هناك بسهولة أكبر منها في مكة. وفي طريقي إلى الساحل، كدتُ أصبح سجيناً في البحرة على يد مجموعة من الوهابيين الخارجين عن القانون. وقد مدّدتُ فترة إقامتي في جدة ثلاثة أسابيع إضافية بسبب قدميَّ المتقرّحتين، وهو داء واسع الانتشار على هذا الساحل غير الصحي، إذ إن كل لدغة بعوضة تُصبح جُرحاً خطيراً إذا ما أُهملت.

عدتُ إلى مكة نحو منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر، وكان يرافقني عبد اشتريته. كان هذا الصبيّ في القافلة التي ذهبتُ فيها من بلاد الزنوج إلى سواقين وقد ذُهل جداً عند رؤيتي في حالة أرفع منزلة وأفضل مما كنتُ فيه حين عرفني. وأخذتُ معي حمولة جمل من المؤن أغلبها من الطحين والبسكويت والزبدة، أحضرتها من جدة بثلث الثمن المطلوب في مكة حيث استأجرتُ، مباشرة عند وصولي، سكناً لائقاً في حي من المدينة قليلاً ما يتردد إليه الناس ويُدعى حارة المسفلة. وكنتُ أتمتّع بميزة هنا هي عدة من أشجار كبيرة نمت أمام النوافذ، وهي خُضرة كانت بالنسبة إليّ بين الصخور الجرداء الملتهبة من حرارة الشمس في مكة، أكثر بهجة وإنعاشاً من أفضل منظر طبيعي في ظل ظروف مختلفة. وقد تمتّعتُ في هذا المكان بحرية واستقلال أحسدُ عليهما لا تتوفران إلاّ للقاضي وأتباعه الذين ما لبثوا أن رحلوا. وبقي الباشا وحاشيته في الطائف إلى أيام الحج. وقد تردّدتُ فقط على الأجواء الاجتماعية التي تحلو لي واختلطتُ مع حشد كبير من الحجاج الأجانب القادمين من أصقاع العالم كلها، دون أن أتعرّض لملاحظات وقحة أو تحقيقات مزعجة. وكنتُ، إذا ما سُئلتُ عن أصلي (وهو أمرٌ نادر الحدوث في مكان يعجّ دائماً بالغرباء) أزعم أني جندي سابق أخنى عليه الدهر من جنود المماليك في مصر، وقد كان من السهل عليّ تجنُّب أولئك الأشخاص الذين هم على معرفة وطيدة بذلك البلد مما قد يمكنهم من كشف الكذبة. لكن لم يكن هناك ما أخشاه حتى من نتائج كذبي، لأن انتحال شخصية مزيّفة يتكرّر باستمرار بين المسافرين الشرقيين كلهم خاصة في مكة حيث يتظاهر الجميع بالفقر بغية الهروب من ثقلاء الضيوف أو من جرّهم إلى مصاريف كبيرة. ولم أتمتّع أبداً خلال رحلاتي إلى الشرق كلها بشعور مماثل من الراحة والطمأنينة كما في مكة، وسأحتفظ دائماً بذكرى مفرحة عن إقامتي هناك، على الرغم من أن وضعي الصحي لم يسمح لي بالاستفادة من الميزات كلها التي قدّمها لي وضعي هناك. وسأبدأ الآن بوصف المدينة وسكانها والحج ومن ثم سأتابع سرد قصة أسفاري.

وصف مكة

يُبَجّل العرب مكة بالعديد من الألقاب الرفيعة الرنّانة. والأكثر شيوعاً هي: «أم القرى»؛ «المشرفة»؛ «البلد الأمين» وقد قام الفيروزأبادي، الكاتب المشهور لمعجم «القاموس»، ببحث كامل حول أسماء مكة المختلفة. تقع هذه المدينة في وادٍ ضيق ورملي، يتجه بشكل رئيسي من الشمال إلى الجنوب، إلاّ أنه يميل باتجاه الشمال الغربي قرب الطرف الجنوبي من المدينة. ويتغيّر عرضه من مئة إلى سبعمائة خطوة، ويقع الجزء الأساسي من المدينة حيث الوادي أكثر عرضاً. وفي الجزء الأضيق صفوف منفردة من المنازل أو المتاجر المنفصلة فقط. ويبلغ طول المدينة نفسها نحو ألف وخمسمئة خطوة، من الحي الذي يُدعى الشبيكة إلى طرف «معلا»؛ لكن كل امتداد الأرض الداخلة ضمن تسمية مكة، من الضاحية المدعوة «جرول» (حيث يقع المدخل من جدة) إلى الضاحية المدعوة «معابدة» (على طريق الطائف)، يبلغ طولها ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة. ويبلغ ارتفاع الجبال التي تحيط بهذا الوادي (الذي سماه العرب، قبل بناء المدينة، وادي مكة أو بكّة) من اثنتين إلى خمسمائة خطوة، وهي جرداء تماماً وخالية من الأشجار. وتقع السلسلة الرئيسية على الطرف الشرقي من المدينة، ويميل الوادي باعتدال باتجاه الجنوب حيث يقع حي «المسفلة» (المكان المنخفض). وتضيع مياه الأمطار الآتية من المدينة في الوادي المكشوف نحو جنوب «المسفلة» وهو وادي «الطرفين». ويقع الجزء الأكبر من المدينة في الوادي نفسه؛ لكن هناك أيضاً أجزاء منها قد بُنيت على جوانب الجبال، خاصة السلسلة الشرقية حيث تقع المساكن البدائية لقبيلة قريش، وحيث تقع المدينة القديمة.



London, Published by Henry Colburn, New Burlington Str. Feb. 1829.
Sid. Hall, sculp. Bury Str. Bloomsb.

شرح مخطط مكة

١ ـ حي جرول	٢ ـ حي الباب	٣ ـ حي شبيكه
٤ ـ الخندريسة (حي)	٥ ـ حي الحجلة	٦ ـ منزل للشريف
٧ ـ الحي المدعو «سوق الصغير»	٨ ـ الحي المدعو «المسفلة»	٩ ـ حي باب العمرة
١٠ ـ حي الشاميه	١١ ـ حي السويقه	١٢ ـ حي قراره
١٣ ـ منزل عائلة جيلاني	١٤ ـ حي شبه مهدّم يسكنه الفقراء	١٥ ـ حي ركوبه
١٦ ـ وادي النقا	١٧ ـ قصر الشريف الرئيسي	١٨ ـ حي السليمانية
١٩ ـ حي شعب عامر	٢٠ ـ شارع الحدادين	٢١ ـ حي المعلا
٢٢ ـ مسجد صغير	٢٣ ـ حي المعامله	٢٤ ـ حي غزّه
٢٥ ـ حي شعب المولد	٢٦ ـ حي سوق الليل	٢٧ ـ حي المدعه
٢٨ ـ متجران للحنطة	٢٩ ـ المروه	٣٠ ـ المسعى
٣١ ـ حي زقاق الحجر	٣٢ ـ مولد سيّتنا فاطمة	٣٣ ـ درب العيني
٣٤ ـ حي القشاشية	٣٥ ـ حي شعب علي	٣٦ ـ الصفا
٣٧ ـ منزلان للشريف	٣٨ ـ آبار للمياه المالحة في أجزاء مختلفة من المدينة	٣٩ ـ حي الجياد
٤٠ ـ أكواخ يسكنها عبيد الشريف	٤١ ـ قصر الشريف ويدعى بيت السعاده	٤٢ ـ القلعة الكبرى
٤٣ ـ حي مهدّم	٤٤ ـ خان مهدّم للحجاج اليمنيين	٤٥ ـ بركة معجن، خزّان للحجاج اليمنيين
٤٦ ـ بعض الحقول المزروعة	٤٧ ـ بركة الشامي	٤٨ ـ بركة المصري
٤٩ ـ حقول مزروعة	٥٠ ـ منزل للشريف	٥١ ـ مقام ابن طالب
٥٢ ـ خزّان ماء كبير مليء من مياه القناة	٥٣ ـ طريق معبّدة تؤدي إلى شيخ محمود	٥٤ ـ شيخ محمود عند موضع تخييم القافلة السورية
٥٥ ـ قبر خديجة زوجة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ	٥٦ ـ قصر كبير للشريف يُستعمل كثكنة	٥٧ ـ ضاحية تُدعى معابده
٥٨ ـ سبيل عام من مياه القناة	٥٩ ـ منزل صيفي للشريف مع حديقة	٦٠ ـ بئر
٦١ ـ المسجد الكبير المدعو «الحرم»	٦٢ ـ منزل القاضي مُلحق بالمسجد	٦٣ ـ قبر سيد عجيل، تاجر كبير، مُلحق بالمسجد
٦٤ ـ مساكن كانت تخص أصلاً مدرسة حكومية، حيث يسكن الباشاوات القادمون إلى مكة	٦٥ ـ جبل هندي	٦٦ ـ الجبل المدعو جبل لعلع أو جبل قعيقعان
٦٧ ـ جبل أبو قبيس	٦٨ ـ أعلى قمم جبال مكة وتُدعى خندمة	٦٩ ـ جبل عُمر أ ـ أبراج مراقبة مستديرة في أجزاء مختلفة ب ـ حمامات في أحياء مختلفة ج ـ مقابر، تُدعى الأولى شيكة والأخرى المعلا د ـ مخيّمات صغيرة للبدو هـ ـ سبل ماء من مياه القناة

بالإمكان تصنيف مكة كمدينة أنيقة، فشوارعها عامة أعرض منها في المدن الشرقية الأخرى والمنازل عالية وقد بُنيت من الحجر، وتضفي عليها النوافذ العديدة التي تطل على الشوارع مظهراً حياً وأوروبياً أكثر منها في مصر وسوريا حيث هناك عدد قليل من النوافذ في المنازل تُطل على الخارج. ومكة (كجدّة) تحتوي على منازل عديدة بثلاثة طوابق، والبعض منها في مكة قد تمَّ تبييضه بالكِلس؛ إلاّ أن لون الحجر الرمادي القاتم يُفضَّل على الأبيض الساطع الذي يؤذي العين في جدة، وفي معظم المدن في الشرق يُساهم ضيق الشارع في الحفاظ على برودته حيث أن مساحة تسمح بمرور جملَيْن محمَّلين تكفي في البلاد التي لا تُستعمل فيها المركبات التي تسير على عجلات. لكن كان ضرورياً في مكة ترك الممرات فسيحة للزوار الذين يحتشدون هنا سنوياً؛ كما أن النوافذ في المنازل المعدة لاستقبال الحجاج والمقيمين المؤقّتين الآخرين، قد خُططت بطريقة تُشرف فيها على الشوارع.

والمدينة مفتوحة من كل جانب، لكن الجبال المجاورة، إذا ما تم الدفاع عنها بشكل ملائم، فإنها تشكل حاجزاً صلباً جداً في وجه العدو. كان للمدينة في السابق ثلاثة جدران لحماية أطرافها؛ وقد بُني واحد منها عبر الوادي عند شارع «المعلا» وآخر عند حي «شبيكة» وثالث عند الوادي المنفتح على «المسفلة». وقد تمّ ترميم تلك الجدران سنة ٨١٦هـ و٨٢٨، وقد بقيت آثارها قائمة بعد قرن من الزمن[١].

إن المرفق العام الوحيد في قلب المدينة هو المربّع الفسيح للمسجد الكبير؛ وقد غابت الأشجار والحدائق التي تبهج العين وتسرُّ الناظرين، ولا يصبح المشهد مفعماً بالحيوية والحياة إلاّ في موسم الحج من خلال العدد الكبير للمتاجر المليئة بالمؤن والتي نجدها في كل حي. ولا تستطيع مكة التباهي بأي صروح عامة باستثناء أربعة أو خمسة منازل كبيرة تخص الشريف ومدرستين (حُوّلتا الآن إلى مستودعات للحنطة) والمسجد، مع بعض المباني والمدارس المرتبطة به، لهذا ربما هي أكثر نقصاً من أي مدينة شرقية أخرى بالحجم نفسه. ولا نجد هنا الخانات التي تؤمّن الراحة للمسافرين أو التي تُستعمل لإيداع البضائع والقصور التي تخص الوجهاء والمساجد التي يزدان بها كل حي في المدن الأخرى من الشرق. وبالإمكان ربما أن نعزو النقص في المباني الخلابة إلى التبجيل الذي يضمره سكانها للمسجد الحرام؛ مما يمنعهم من بناء أي صرحٍ يمكن أن يدّعي منافسته.

إن أُسلوب البناء هو نفسه المعتمد في جدة مع زيادة النوافذ المشرفة على الشوارع، منها ما يبرزُ من الحائط ولها إطار منقوش بإتقان فائق ومنها المطلي بطريقة مزخرفة. وقد عُلِّقت أمام

(١) راجع الأزرقي والفاسي وقطب الدين.

تلك النوافذ ستائر مصنوعة من القصب الرفيع الذي يمنع دخول الذباب والبعوض بينما يسمح بدخول الهواء المنعش. ولكل منزل مصطبة (مؤلفة من تركيبة من حجر الكِلس) مبنية مع انحدار طفيف حتى تنحدر مياه الأمطار عبر مجارٍ إلى الشارع. لأن الأمطار هنا غير منتظمة لدرجة يصبح فيها تجميع تلك المياه في خزانات أمراً لا يستحق العناء كما يجري في سوريا. وقد حُجبت المصطبات عن الرؤية بحواجز جدارية صغيرة، ففي كل مكان من الشرق يُعتبر ظهور رجل على المصطبة أمراً مخزياً ومضراً بالسمعة حيث من المحتمل اتهامه باستراق النظر إلى النساء في المنازل المجاورة اللواتي يُمضين معظم وقتهن يعملْن على المصطبات في أشغال منزلية متنوعة كتجفيف الحنطة ونشر الغسيل، الخ. وحدهم الأوروبيون في حلب يتمتعون باستخدام مصطباتهم المبنية غالباً من الحجر بطريقة جميلة، فيخرجون إليها خلال أمسيات الصيف وأحياناً لتناول طعام العشاء وإمضاء الليل. لقد تمَّ بناء منازل المكيين كلها، باستثناء منازل السكان الأصليين والأكثرين غنى، بطريقة تسمح بتأجير غرف منها للنزلاء، فقد قُسمت إلى العديد من الشقق المفصولة عن بعضها بعضاً، وكل واحدة مؤلفة من غرفة جلوس ومطبخ صغير.

منذ الحج، الذي بدأ بالانحسار، (حدث ذلك قبل الفتح الوهابي)، وجد العديد من المكيين أنفسهم عاجزين عن دفع نفقات الترميم، بعد أن توقّفوا عن جني الأرباح عبر تأجير مساكنهم، فألمَّ الخراب بالعديد من الأبنية في الضواحي، كما تعرض المدينة نفسها، في كل شارع، منازل تتداعى سريعاً لتصبح آيلة للسقوط. وقد رأيت واحداً فقط بُني حديثاً، وكان في حي «الشبيكة» ويخصّ أحد شرفاء المدينة. وذُكر أن كلفته بلغت مائة وخمسين محفظة دراهم؛ وكان من شأن منزل كهذا أن يُبنى في القاهرة بستين محفظة.

إن الشوارع كلها غير معبّدة؛ وفي فصل الصيف تصبح الرمال والغبار التي تلفُّها مزعجة جداً تماماً كالوحل في المواسم الممطرة التي تصبح خلالها الشوارع غير سالكة بعد وابل من المطر. فالمياه داخل المدينة لا تتسرَّب بل تبقى حتى تجفّ. بإمكاننا أن نعزو ذلك إلى الأمطار المتلِفة والمخرِّبة التي تنهمر بعنف كبير رغم أنها تدوم لمدة أقصر منها في أي بلد استوائي آخر، حتى إننا لا نجد في مكة أياً من الأبنية القديمة. وقد خضع المسجد نفسه للعديد من الترميمات في ظل سلاطين مختلفين، بحيث يمكننا تصنيفه كبناء عصري حديث. كما أني لا أظن أن أياً من البيوت يعود بناؤه إلى أقدم من أربعة قرون، لذلك لا يجب على المسافر أن يبحث في هذا المكان عن نماذج مهمّة للهندسة أو عن تلك الآثار العائدة للأبنية العربية المسلمة كتلك التي نجدها في سوريا ومصر وإسبانيا وبلاد المغرب، حيث إن أصغر المدن الريفية في سوريا ومصر تفوق مكة القديمة والذائعة الصيت في هذا المجال. ويُقال الشيء نفسه عن «المدينة»، كما أعتقد أن مدن اليمن هي أيضاً فقيرة عامة في الآثار الهندسية المعمارية.

تفتقر مكة إلى قوانين الشرطة تلك الشائعة في المدن الشرقية. والشوارع مظلمة تماماً في الليل، فليس هناك مصابيح مضاءة من أي نوع وليس لأحيائها المختلفة أي بوابات. كما أنها تختلف في هذا الصدد عن معظم المدن الشرقية التي يتم فيها إغلاق كل حي بعد صلاة العشاء. وهكذا، يمكن عبور المدينة في أي وقت من الليل. كما أن الاهتمام والعناية ذاتها لا تولى هنا إلى أمن التجار والأزواج فيتم إغلاق الأحياء على حسابهم، كما هي الحال في المدن السورية والمصرية التي توازي مكة مرتبة وأهمية وشأناً. وتُرمى أوساخ المنازل ونفاياتها في الشوارع فتصبح غباراً أو وحلاً حسب الفصل. ويبدو أن العادة نفسها كانت سائدة كذلك في الأزمان القديمة، لأني لم أرَ في ضواحي المدينة أياً من أكوام النفايات تلك التي نجدها عادة قرب المدن التركية الكبرى.

فيما يتعلق بالمياه، أهم الموارد على الاطلاق. والتي تشكل موضوع البحث الأول بين الآسيويين، فإن مدينة مكة لا تتزوَّد به أفضل بكثير من جدة. فليس هناك سوى عدد قليل من الخزانات لتجميع مياه الأمطار كما أن مياه الآبار مالحة قليلاً بحيث إنها تُستعمل فقط لأغراض مطبخية إلاّ في موسم الحج حيث تشربها الطبقة الدنيا من الحجاج. إن بئر زمزم الشهيرة، في المسجد الكبير، هي بالفعل بئر غزيرة بما يكفي لتزويد المدينة بكاملها بالمياه؛ لكنها، رغم قداستها، ثقيلة الطعم وتُعيق عملية الهضم. وفوق ذلك، تُمنع الطبقات الأكثر فقراً من ملء قرباتهم منها بقدر ما يحلو لهم. ويتمّ إحضار أفضل نوع من المياه في مكة عبر قناة من منطقة عرفات وهي تبعد مسافة ست أو سبع ساعات. وبدل أن تقوم الحكومة الحالية بإنشاء هكذا مشاريع فإنها تُهمل حتى القيام بالتصليحات والتنظيفات الضرورية لهذه القناة. والقناة مبنية بالكامل من الحجر وقد غُطيت تلك الأجزاء منها كلها التي تظهر فوق الأرض بطبقة سميكة من الحجر والاسمنت؛ وقد سمعتُ أنه لم يتم تنظيفها خلال الخمسين سنة الماضية؛ ونتيجة لهذا الإهمال تضيع معظم كمية المياه في مرورها عبر الفتحات والمنافذ في طريقها إلى المدينة، أو تشق طريقها ببطء عبر الترسُّبات المعيقة. رغم أنها تنصب في تدفق قوي عند بداية القناة عند عرفات. كما أن الكمية التي تؤمنها في الأوقات العادية لا تكاد تكفي لاستعمال السكّان، وتصبح المياه العذبة خلال موسم الحج نادرة كلياً، فتُباع حينها قربة الماء الصغيرة (بإمكان الشخص أن يحمل اثنتين منها) بشلن واحد ـ وهو سعر مرتفع جداً بين العرب.

هناك مكانان داخل مكة حيث تجري القناة فوق الأرض؛ تُطلقُ المياه داخل قنوات أو نوافير، وقد تمركز عندها عبيد الشريف لينتزعوا منها ضريبة من الأشخاص الذين يطلبون الماء. تحيط بتلك النوافير في موسم الحج حشود الناس ليلاً نهاراً وتتعارك وتتشاجر للوصول إلى الماء.

وخلال الحصار الأخير، قطع الوهابيون مخزون المياه من القناة؛ ولم يتم إصلاح هذا الضرر الذي لحق بهذه المنشأة إلى مدة قريبة.

ويتحدث المؤرخون العرب بالتفصيل عن تاريخ هذه القناة التي كلفت جهوداً عظيمة بالغة. كانت «زبيدة»، زوجة هارون الرشيد، أول من قام بجر الينبوع الذي يُدعى «عين النعمان» من مصدره في جبل قرى إلى المدينة. وقد تمّ بعد ذلك جرُّ الينبوع المسمى «عين عُرف» من سفح جبل «شامخ» إلى شمال جبل قرى الذي يروي الوادي الخصب المسمى «وادي حُنين»، ليلتقي بعين نُعمان؛ ثم تم أخيراً إضافة أربعة مصادر أخرى إلى القناة وهي: «البرود» و«زعفران» و«ميمون» و«عين مشاش». لكن يبدو أنها أُعيقت فيما بعد؛ لكن ملك أربيلا Arbela كوكبوري قام بإصلاحها سنة ٦٤٣هـ، وسنة ٧٦٢هـ بأمر من السلطان السيد خدانبيدة؛ ومرة ثالثة سنة ٨١١هـ، لكن ليس بالكامل، بأمر من الشريف حسن بن عجلان الذي كان يحكم حينها. وقد صرف سلطان مصر قايتباي Kaiabey» مبلغاً كبيراً عليها سنة ٨٧٩؛ وسنة ٩١٦هـ ساهم في إصلاحها قانصوه الغوري أحد آخر ملوك مصر الشركس؛ إلاّ أن القناة كانت تُعاق أحياناً وكلما حدث ذلك، كان الحجاج والمكيون يتعرضون لحرمان عظيم الشأن. سنة ٩٣١هـ، حاول السلطان سليمان إعادة بنائها مجدداً إلاّ أن التصميم لم يكتمل وأخيراً، قام نجله سليم بن سليمان أو سليم الثاني، بعد سنوات عديدة من العمل وبتكاليف باهظة، بشق ممر عبر الصخور خلف عرفات، فشكل مجرى جديداً ما زال باقياً وحده الآن. وقد نجح في جر المياه إلى المدينة بغزارة سنة ٩٧٩هـ. ويبلغ طول القناة كله مسافة سبع أو ثماني ساعات.

هناك ينبوع صغير يتسرّب من تحت الصخور وراء قصر الشريف الكبير الذي يُدعى بيت السعد يُقال إنه يؤمّن أفضل مياه في هذه البلاد إلاّ أن الكمية ضئيلة جداً، وقد طُوّق هذا الينبوع وتملكته عائلة الشريف بالكامل.

يقوم المتسوّلون والحجاج العُجُز أو العوز أحياناً بتوسل المارة لشراء جرعة من الماء العذب. وهم يحيطون خاصة بمنصّات المياه التي نراها في كل زاوية وحيث يمكن الحصول على المياه ما يملأ جرّة لقاء بارتين في موسم الحج، وبارة واحدة في الأوقات الأخرى.

سأتابع الآن وصف الأحياء المختلفة في مكة محتفظاً بوصف المسجد الكبير إلى النهاية، وأضيف بعدها بعض الملاحظات فيما يتعلق بالسكان والحكومة.

أحياء مكة

يرى المسافر عند مدخل المدينة، من جانب جدة، وعند الالتفاف حول زاوية وادٍ رملي، بُرجَي مراقبة مستديري الشكل قد بناهما الشريف غالب للدفاع عن عاصمته. كما نرى أبراجاً مماثلة عند مداخل المدينة الأخرى وهي فسيحة بما يكفي لاحتواء نحو عشرين رجلاً. وتُشرف هذه الأبراج على الممر بما أن التلال تقترب جداً من بعضها بعضاً عند مدخل المدينة. ويبدو أنه كان هناك بوابة لم يبق منها سوى العتبة، وهي قريبة من مبنى صغير حيث يجمع ضابط الشريف الضرائب على السلع، الخ. التي تُنقل إلى المدينة. وهنا أيضاً نرى صفاً من المتاجر والمساكن القليلة الارتفاع وهي مهدَّمة وتُعرف باسم «حارة» أو «حي الجرول» ويحتوي على مخيم إلى اليمين يعيش فيه البدو الذين يديرون تجارة النقل بين مكة وجدة. وهم من قبائل حرب والمطرفي واللهاوي.

خلف جرول، يتغير اسم الشارع ليصبح «حارة الباب» وهو شارع فسيح مع منازل عدة جيدة وهو يؤدي إلى حي الشبيكة الذي يمتد نحو اليمين بشكل رئيسي، وهو يدعى كذلك لأن أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد هوجموا هنا، في حربهم ضد قُريش، وضيّق عليهم أعداؤهم الخناق جداً. وهناك العديد من المنازل الجيدة في شبيكة وهو أحد أنظف الأحياء في المدينة وأجودها تهوية. ويقيم الكثير من أهل جدة هنا كما يملك الشريف غالب منزلاً هنا أيضاً حيث استمرت بالعيش فيه، بعد خلعه، عائلته المؤلفة من عدة أولاد صغار وابنة راشدة. وتمتد المقاهي على طول الطريق التي ينطلق منها البريد كل مساء، على ظهور الحمير، حاملاً الرسائل إلى جدة. وهذه هي خدمة نقل الرسائل الوحيدة التي رأيتها في الشرق إلى جانب ذلك البريد الذي أسّسه الأوروبيون في القاهرة، بين تلك المدينة والإسكندرية، إلاّ أن عملية تسليم الرسائل هي أقل انتظاماً منها في مكة حيث يتم في حينه وكما ينبغي وبكلفة

ضئيلة تبلغ بارتين لكل رسالة، ويتقاضى الشخص الذي يوزّع الرسائل الآتية من جدة أكثر من ذلك لقاء توزيعها.

يعيش في المقاهي المذكورة آنفاً سماسرة القوافل، ومن خلال وساطة هؤلاء يقوم البدو بتأجير جمالهم للقيام بالسفر إلى جدة و«المدينة».

في الجانب الغربي من «شبيكة»، باتجاه الجبل، تقع مقبرة كبيرة تتناثر فيها أكواخ البدو وخيمهم وبعض المساكن البائسة التي تعود إلى الطبقة الدنيا من نساء الهوى وتُدعى الخندريسة. وعلى الرغم من أن العُرف يقول إن عدداً كبيراً من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشيعته قد دُفنوا هنا، فقد بات أمراً غير رائج دفن الميت فيها. وتستخدم كل من الطبقتين الأولى والثانية من المكيين المقبرة الواسعة التي تقع شمال المدينة. وهناك عدد قليل من المتاجر في «شبيكة»؛ ولا تحتوي على العديد من النزلاء الأجانب خلال موسم الحج حيث يسكنها الأشخاص الميسورون الذين يعتبرون تأجير الشقق أمراً مُشيناً.

عند متابعة طريقنا من «شبيكة»، على طول الشارع العريض، باتجاه الشمال، نصل إلى حمام أقل شأناً من أمثاله في المدن الآسيوية الأخرى على الرغم من أنه يتفوّق على الثلاثة الأخر في مكة، وذلك لندرة المياه؛ وقد بُني سنة ٩٨٠هـ بأمر من محمد باشا. وزير السلطان سليمان الثاني، ويُعتبر من أفضل الأبنية في المدينة[١]. ويرتاده بشكل أساسي الأجانب، لأن العرب الأصليين لم يعتادوا استعمال الحمام العام ويختارون اتمام الوضوء المفروض في دينهم في منازلهم الخاصة.

إن الحمّام، فضلاً عن عدة شوارع أخرى فرعية تؤدي إلى المسجد، يشكل الحي المدعو «حارة باب العمرة» الذي يسكنه عدد من المرشدين أو المطوِّفين كما يعجّ بالحجاج خاصة أولئك القادمين من تركيا. والشوارع ضيقة وقذرة بشكل مبالغ فيه؛ لكن الحجاج يفضّلون هذا الحي لأنه الأرخص في المنطقة المجاورة للمسجد الذي يتوقون إلى الإقامة بقربه حتى يتأكدوا من عدم تفويت الصلوات؛ أو كما يقولون، فإن المسجد يبدِّد أحلامهم المزعجة في أثناء نومهم. فنشاهد الرجال في منتصف الليل يعدون نحو المسجد بلباس النوم، وهنا يطوفون حول الكعبة ويلثمون الحجر الأسود ويتلون أدعية قصيرة ويشربون من ماء زمزم ثم يعودون إلى فراشهم. ويقع مبنى فسيح قرب بوابة المسجد التي تُدعى «باب العمرة» والتي يأخذ الحي اسمه منها. وكان أصلاً مدرسة حكومية لكن يشغلها الآن حسن باشا، حاكم مكة. وهي ربما المدرسة التي ذكرها الفاسي والتي بُنيت قرب باب العمرة سنة ٨١٤هـ بأمر من «منصور غياث الدين أعظم شاه»

(١) انظر قطب الدين.

سيد البنغال. وأمر كذلك حاكم عدن، سنة ٥١٩هـ ببناء مدرسة في الجوار كانت تدعى دار السلسلة. وهناك أيضاً في هذا الحي إحدى نوافير أو سُبل المياه العذبة الآتية من القناة فضلاً عن عدة آبار للمياه المالحة.

بالعودة إلى «شبيكة»، ومن ثم الالتفاف جنوباً في شوارع مختلفة مؤلفة من أبنية جيدة لكنها متداعية، نزلنا في منحدر خفيف إلى شارع يُدعى «سوق الصغير» وينتهي عند بوابة المسجد الكبير «باب إبراهيم». كما أن المنازل على جانبي الطريق هذه قليلة الارتفاع وتقطنها الطبقات الدنيا. وهناك صف متواصل من المتاجر التي تُباع فيها أنواع المؤن كلها، وخاصة الحبوب والزبدة والبلح. ويُباع في بعض المتاجر خشب الخرنوب حسب الوزن. ويرتاد السوق عادة بدو الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة، الذين يأتون بالفحم النباتي. ويتخذ أيضاً بعض الحجاج الزنوج الفقراء الإفريقيون مساكنهم في الأكواخ البائسة والمنازل المهدمة في هذا الجزء من المدينة، وقد أسسوا هنا سوقاً لحطب الوقود الذي يجمعونه من الجبال المحيطة.

يُدعى طرف «السوق الصغير» باتجاه الجبل، حارة خجلة أو حجلة بالتكية صادق حيث هناك بعض المنازل المبنية بشكل مقبول ويقطنها المخصيّون الذين يحرسون المسجد وزوجاتهم. فهم كلهم متزوجون من جوارٍ زنجيات. هذا هو الجزء الأدنى من المدينة، وكلما غمرت الفيضانات الكبيرة الوادي خلال فصل الممطر، تجري المياه عبر هذا الشارع في طريقها إلى السهل الخارجي. كما أن بعض بقايا القناة ظاهرة للعيان هنا، ففي الفترات التي كانت صيانتها جيدة. كانت مياهها تزوِّد المدينة ثم تُوجَّه في هذا الاتجاه إلى الوادي الجنوبي حيث تُستعمل لري بعض الحقول.

ويدخل السوق الصغير أحياناً ضمن حارة «مسفلة» و«مسفلة» هو اسم الحي الذي يقع على الجهتين الشرقية والجنوبية من السوق؛ إلاّ أن هذا الاسم يُطلق أكثر، على وجه الحصر، على المنطقة الأخيرة. وقد تمّ بناء «مسفلة» جيداً وبشكل مقبول وهو يحتوي مثل «شبيكة»، على بعض المنازل الجديدة؛ لكن الجزء الذي يقع باتجاه تلة القلعة الكبرى هو الآن في حالة خراب تامة تقريباً. ويسكنه التجار العرب والبدو الذين يسافرون في زمن السلم إلى اليمن وخصوصاً إلى «مخوع» حيث يستوردون الحبوب، وحب البن والعنب المجفف. وهو أيضاً محل إقامة العديد من الهنود الفقراء الذين استقروا في مكة؛ يؤجر هؤلاء منازلهم إلى مواطنيهم الذين يزورون هذه المدينة وقت الحج. وفي المنازل المتداعية، يتّخذ الحجاج الزنوج مسكناً مؤقتاً لهم. وقد استقر بعضهم في مكة وتحضِّر زوجاتهم الشراب المسكِر المصنوع من الذرة ويُدعى «بوزة» الذي أولع به السكان الوضيعون. وقد اتخذت مسكناً في «مسفَلة» كما سبق وذكرت، عند

عودتي من جدة، وكان ذلك في البدء في منزل مستوطن مغربي انتقلت منه بعد ذلك إلى منزل تاجر يمني مجاور. وكان الشخص الذي استأجرتُ منه المنزل من صنعاء في اليمن، ويعمل مطوِّفاً أو مرشداً، وكان يشغل الطابق الأول من المنزل وقد انتقل منه خلال إقامتي إلى زاوية في الطابق الأرضي؛ وكان يشغل الأجزاء الأخرى من المسكن صاحب الملك المغربي وعائلته وشيخ قرية من مصر كان قد أتى إلى الحج يرافقه عدة فلاحين، ورجل فقير من بلاد الأفغان أو منطقة السليمانية كما تُدعى عادة الآن، وحاج من الجزر اليونانية. وقد وجدتُ نفسي في منزل التاجر اليمني بين مجموعة من الحجاج المغربيين الذين ينتمون إلى شعب البربر أو الشيلحي Shilhy وقد أتوا عبر البحر إلى مصر. وقليلة هي المنازل في هذا الجزء من المدينة التي لا نلتقي فيها بمثل هذا المزيج الغريب من الشعوب.

في الطرف الجنوبي من «مسفلة» هناك خان كبير مهدَّم وهو، حتى عندما كان جديداً، كان حتماً مبنى وضيعاً، غرضه إسكان قافلة الحجاج التي كانت تصل في السابق عبر البر من اليمن، على طول الساحل، وكان ثمة قافلة أخرى تأتي بمحاذاة الجبال.

عند الخروج من المدينة من هذا الجانب، نكتشف برج مراقبة في السهل مشابهاً في بنائه للأبراج عند مدخل جرول. من هنا جنوباً، يؤدي وادٍ عريض إلى القرية الصغيرة المدعوّة «حُسينية» وتبعد مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات، وفيها بعض أشجار النخيل. كما كان للشريف غالب هنا حديقة صغيرة ومنزل ريفي وضع فيه قطيع جواميس أحضره من مصر، لكنه لم يحقّق نجاحاً يُذكر. وهناك طريق، من حسينية، تؤدي إلى عرفات وتمر من الجنوب والجنوب الشرقي من مكة. وعلى تلك الطريق، على مسافة ساعتين أو ثلاث ساعات، يقع الوادي الخصب الصغير ومستوطنة «عابدية» العربية. ويُدعى الوادي المذكور هنا «الطرفين»؛ وخلف ضواحي المدينة الحالية يمكن رؤية أنقاض مساكن سابقة وبينها عدة خزانات كبيرة وعميقة ومُتقنة البناء حيث يتيسّر إعادة بنائها وتأهيلها مجدَّداً، بقليل من العمل والجهد، لتؤدي غرضها الأساسي وهو تجميع مياه الأمطار. وهناك بركة حجرية كبيرة على بعد ميل ونصف الميل من المدينة تُدعى بركة «ماجن»، أُعدت لتؤمِّن المياه للقافلة اليمنية فيها قليلاً من الماء لكنها تتداعى بسرعة. يزرع أهل «مسفلة» وراء هذه البركة بعض حقول الخيار والخضراوات المختلفة مباشرة بعد سقوط الأمطار بعد أن تكون الأرض قد رُويت بغزارة. كما هناك عدة أكواخ وخيم لبدو قبائل «فحّام» و«الجحادلة» وقد انتشرت فوق هذا الوادي، حيث يكسب السكان رزقهم من تجميع الحشيش والأعشاب البرية في الجبال ليبيعوها حين تجفّ في سوق مكة وقد لُفّت في رزم، وهي تُستعمل لإطعام الجياد والجمال والحمير، لكنها قليلة وغالية الثمن بحيث إن إطعام الحصان في اليوم يكلّف ليرتين أو ثلاثاً. كما يربّي هؤلاء البدو بعض الخراف؛ إلاّ أنهم يميّزون

أنفسهم عن طبقات المكيين الدنيا الذين يمتنعون عن تقليدهم في التسوُّل على الرغم من فقرهم. كما يعمل بعضهم كناقلي مياه في المدينة.

قبل الغزو الوهابي كان هناك مبنى صغير مع قبة، شُيّد تكريماً لعُمر، أحد خلفاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المبشرين، ويُدعى بالتالي «مقام سيدنا عمر»، على قمة السلسلة الغربية لوادي الطرفين، تماماً مقابل «مسفلة»، وقد دمَّره الوهابيون كلياً.

تقع القلعة الكبرى، قريباً منه، على قمة الجبل المواجه، وهي بناء كبير جداً وضخم تحيط به جدران سميكة وأبراج صلبة. وهو يشرف على الجزء الأكبر من المدينة لكن تُشرف عليه عدة قمم أعلى منه. وقد سمعتُ أن هذا البناء يعود بناؤه إلى الشريف سرور، سَلَف غالب؛ لكنني أعتقد أنه يعود إلى تاريخ أبعد بكثير. وقد ذكره العصمي (Asamy) في تاريخه أحياناً، باكراً في القرن الرابع عشر، لكنه لا يذكر من شيّده. ولا يحق لأي كان الدخول دون إذن من حاكم مكة، ولكني لم أرَ من الحكمة ـ أو مما يستحق العناء ـ أن أتقدم بمثل هذا الطلب. وقد قام غالب بتقوية هذا المبنى وتدعيمه بشكل هام كما أصلحه بشكل كامل، ونصب عليه مدفعية ثقيلة. ويُقال إنه جعل مخازنه الأساسية مضادة للقنابل، وهو يحتوي على خزّانات كبيرة وجامع صغير، وبإمكانه احتواء حامية مؤلفة من ألف رجل. وهو، بالنسبة إلى العرب قلعة أو حصن منيع، كذلك يعتبره المكيّون، وحتى ضد الأوروبيين فهو يؤمن بعض المقاومة. ويتم التقدم منه عبر ممر ضيّق وشديد الانحدار.

تحت تلّة القلعة، على سهل صغير بين الجبل وجبل قُبيس، يقع قصر الشريف الحاكم ويُدعى «بيت السعد». ويقال أيضاً أن الشريف سرور قد قام ببنائه غير أني أجده مذكوراً عند العصمي (Asamy) في وصف المعاملات التجارية التي حصلت منذ مائتي عام. وجدرانه كثيرة الارتفاع والصلابة ويبدو أنها بُنيت كتحصينات خارجية للقصر فوقها الذي يربطها به وسيلة اتصال تحت سطح الأرض، كما يزعم المكيون. وهو عبارة عن مبنى ضخم وغير منتظم يشتمل على ساحات فسيحة وغرف مظلمة لم تُسكن منذ أن قام الشريف غالب بالفرار من العدو إلى جدة، فحاول حينها تدميره بالنار إلاّ أنه كان صلب البناء جداً. وقام الأتراك في ظل محمد علي بتحويله إلى مخزن للذرة. وقد وجدتُ في السهل المحاذي، الذي كان سابقاً مكاناً لتدريب جنود الشريف، قطيع جمال إلى جانبه خيم سائقوه الذين يقومون برحلة أسبوعية إلى جدة أو الطائف. ونجد أيضاً العديد من الحجاج الفقراء الذين يعجزون عن دفع أجرة المساكن، وقد نصبوا خيمهم البائسة المؤلفة من بضعة أسمال بالية منشورة على عيدان. وكان الجنود منهمكين في تدمير السقوف المتبقية في القصر كلها طلباً لحطب الوقود.

هناك أكواخ منخفضة مبنية من الأجمة في مدخل ضيّق في الجبل، إلى الشمال من القصر

بمحاذاة السهل المذكور أعلاه، وقد كانت في السابق مساكن لعبيد الشريف غالب الذين كانوا جنوداً في حرسه. وقد لاذ الجزء الأكبر منهم بالفرار بعد القبض على الشريف وتشكل الأكواخ الآن ثكنات لنحو مائتي جندي عربي، يعملون في خدمة خلفه الشريف يحيى.

بالالتفاف من هنا باتجاه المسجد، وفي الجهة اليُمنى، نصل إلى حي صغير بُني على منحدر الجبل وفيه العديد من المنازل شبه المتداعية ويُدعى «حارة الجياد»، يسكن فيه الفقراء والعديد من خدم أسرة الشريف. ويقول العصمي (Asamy) إنه يشتق اسمه من كونه المركز الذي كان يشغله الفرسان الذين يصطحبون «تُبّع» ملك اليمن في حملاته على مكة، وهو حدث مشهور بين الكتّاب المسلمين بسبب معجزة إهلاك الجيش. وهو حتماً أحد أقدم الأحياء في المدينة.

قريباً من المسجد، في كل من جوانب المدخل إلى السهل المذكور أعلاه، يقع قصر يعود للشريف. الجزء الشمالي منه عبارة عن منزلين فخمين متّصليْن ببعضهما ويشغلهما الشريف يحيى، وتُقيم نساؤه في المبنى الجنوبي المقابل الذي شيّده الشريف غالب الذي كان يُمضي معظم وقته في هذا المسكن المفضّل لديه حيث يستميله موقعه المجاور للمسجد وموقعه المركزي والمساحة الواسعة المكشوفة التي يُشرف عليها.

وبمتابعة السير في هذا المكان بالاتجاه الشمالي الموازي للمسجد، ندخل الشارع الطويل الذي يُدعى «المسعى»، وقد تمّ وصف الشوارع الفرعية إلى اليمين، ونحن نقترب من «المسعى» من ناحية حيّ الصفا الذي يأخذ اسمه من المكان المقدس «الصفا». أما المنازل المحيطة بهذا المكان فهي مبانٍ لائقة وجميلة، حيث يتخذ الأغنياء مساكنهم في موسم الحج. ويقطن آغا المخصيّين الذين يعملون في المسجد هنا في منزل كبير، معاً هو والصبية المخصيّون الذين ترعرعوا هنا إلى أن وصلوا إلى سن كافية تسمح بالعيش في مساكن خاصة.

نستدير الآن إلى المسعى»، وهو الشارع الأكثر استقامة وطولاً في مكة وأحد الشوارع المتقنة البناء. وقد تلقّى اسمه من شعيرة «السعي» التي تؤدى فيه والتي سبق أن وصفتها. لهذا السبب، ولأنه يغصُّ بالمتاجر، فإنه الشارع الأكثر ضجيجاً وارتياداً في المدينة. كما أن للمتاجر المواصفات نفسها كتلك التي عددتها في وصف جدة، فضلاً عن اثني عشر رجلاً ممن يصنعون زجاجات القصدير أو الصّفيح من كل القياسات، وهي التي يحمل فيها الحجاج ماء زمزم عند عودتهم إلى الديار. والمتاجر هي عامة مخازن في الطابق الأرضي من المنازل وقد أقيم أمامها مقعد حجري يجلس عليه التجار في ظل ظُلّةٍ من الحصير، شُدَّت إلى أعمدة طويلة؛ وتسود هذه العادة في كل جزء من الحجاز. يستأجر الحجاج الأتراك المنازل كلها في «مسعى». وعند

وصول مجموعة من الحجاج من جدة، وهذا ما يحدث كل صباح تقريباً لأربعة أو خمسة أشهر من السنة، تودّعُ حقائبهم في هذا الشارع عادة فيقومون بعدها بزيارة المسجد ثم يذهبون في طلب المساكن. وهكذا، فقد وجدتُ الشارع مكتظاً كل يوم تقريباً بالوافدين الجدد والمرشدين ومُروِّجي الأخبار.

في أثناء إقامتي في مكة، بدا «مسعى» كسوق قسطنطينية، حيث كان يدير العديد من المتاجر أتراك من أوروبا وآسيا الصغرى يبيعون فيها أنواعاً متعدِّدة من الأزياء التركية كانت سابقاً تخص حجاجاً مُتوفّين أو أولئك الذين باعوا ملابسهم لافتقارهم إلى المال. كما كانت تُعرض للبيع باستمرار سيوف مُتقنة الصنع وساعات إنكليزية عالية النوعية ونسخات جميلة من القرآن، وهي أثمن حاجات ثلاثة يمكن وجودها في حقيبة حاج تركي. وكان طُهاة المعجّنات القسطنطينيون «الأتراك» يبيعون هنا الفطائر والمربّى في الصباح؛ ولحم الضأن المشوي أو الكباب بعد الظهر، وفي المساء، يبيعون نوعاً من الهُلام يُدعى «مُهلّبيّة».

وهنا أيضاً مقاهٍ عديدة تكتظّ بالناس من الساعة الثالثة صباحاً حتى الحادية عشر ليلاً. ولربما يفاجأ القارىء إذا ما علم أن المشروبات المسكِرَة كانت تُباع علناً خلال الليل في متجرين اثنين، وليس في النهار[1]، يُحضَّر الشراب من الزبيب المخمَّر؛ ورغم أنه عادة يُمزج بكمية غير قليلة من الماء، فإنه يبقى قوياً إلى درجة أن بعض الكؤوس منه تؤدي إلى السُكر. والآخر هو نوع من «البوزة»، وهو ممزوج بالتوابل ويُدعى الصوبية Soubye. وهذا الشراب معروف في القاهرة (رغم أنه لا يُعد بهذه القوة).

و«المسعى» مكان للعقاب، فهناك يُقتل المذنبون المحكومون بالإعدام. فخلال إقامتي، ضُرب عنق رجل بحكم من القاضي لأنه سرق من حاج تركي مبلغ مائتي جنيه استرليني[2]؛ وكانت هذه العقوبة الوحيدة من نوعها التي علمتُ بها، رغم أن اللصوص يوجدون بكثرة في مكة بينما يستمر الحج. مع ذلك، فإن تاريخ مكة يزخر بالمحاكمات التي ينتج عنها أفظع أنواع العقوبات. فمثلاً، تمَّ سنة ١٦٢٤م سلخ جلد لصّين وهم أحياء، في هذا الشارع؛ وفي سنة ١٦٢٩م، تمَّ ثقب ذراعي وكتفي قائد عسكري من اليمن كان قد سجنه الشريف الحاكم، فثقبوا في مواضع عدة ووُضعت شموع مُضاءة على الجروح، كما قُلِبت إحدى رجليه إلى أعلى وشُدَّت إلى كتفه بواسطة خُطّاف حديدي وعُلّق في هذه الوضعية على شجرة ليومين في

(١) يكثر المؤلف من مثل هذه الإشارات المغرضة في ثنايا الكتاب.

(٢) لا يضرب عنق السارق، وإنما قد تقطع يده، فكلام الكاتب ادعاء كاذب.

«المعلا»، حتي لاقى حتفه. ولكن يبدو أن عقوبة سمل العينين ـ وهي شائعة في أجزاء أخرى من الشرق ـ لم تُطبق أبداً من قبل حكام الحجاز.

يقع مبنى لائق وجميل في «المسعى»، وهو تابع للمسجد، وقد شُيّد سنة ٨٨٢هـ، على يد كايد بك، سلطان مصر، وأسّس فيه مدرسة حكومية كبيرة تحتوي على اثنتين وسبعين شقة مختلفة، كما زوّده بمكتبة قيّمة. ويتذمر المؤرخ قطب الدين، الذي كان قيّماً على هذه المكتبة، بعد مئة عام من ذلك، من أنه لم يتبقَ في زمنه إلاّ ثلاثمائة كتاب، حيث سرق الباقي الفاسدون ممن سبقوه في منصبه.

وعند الطرف الشمالي من «المسعى» يقع المكان المدعو «مروة» وهو نقطة انتهاء «السعي» كما تم وصفه سابقاً. وقد تمّ تشييد هذا المكان، كما هو الآن، سنة ٨٠١هـ، ويبدو خلفه المنزل الذي كان المسكن الأساسي للعباس، أحد أعمام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكُثُر. وتقع دكاكين الحلاّقين بالقرب من «المروة» حيث يعمد فيها الحجاج إلى حلق رؤوسهم بعد أدائهم شعيرة «السعي». كما تُقام هنا أيضاً المزادات العلنية كل صباح، فتُعرض الملابس والسلع من جميع الأنواع وتُقدم إلى المزايد الذي قدّم أعلى ثمن، وتُستعمل اللغة التركية من أجل الحجاج الأتراك في هذه المناسبات؛ وبالتالي فإنه نادراً ما يكون هناك صبي في مكة ليس على إلمام بها، أو بالأرقام التركية منها على الأقل. وهناك سبيل ماء أيضاً بالقرب من هذا المكان وهو سبيل عام بناه الخليفة العثماني سليمان بن سليم، تُزوّده بالماء قناة مكة، فيغصُّ بالحجاج طوال النهار وقد أتوا لملء قرباتهم.

إلى الشرق من «المسعى»، عند «المروة» على الطرف، يتفرّع شارع يُدعى «سويقه»، أو السوق الصغير، الذي يقع بموازاة الجهة الشرقية للمسجد تقريباً. وهو الشارع الأكثر نظافة في المدينة رغم ضيقه، حيث يتم تنظيفه باستمرار ويُرشّ بالماء، وهي ليست الحال في أي من الشوارع الأخرى. ويعرض هنا التجار الهنود سلعهم للبيع وشالات الكشمير الجميلة والموسلين؛ وهناك ما يفوق العشرين متجراً حيث تُباع العطورات والزيت الحلو وبلسم مكة المغشوش وخشب الألوة أو الصبر والزّباد. وهو من أنواع الطيوب، الخ. وقليل من الحجاج فقط يعودون إلى بلادهم دون أن يحملوا معهم بعض الهدايا إلى عائلاتهم وأصدقائهم وتكون عادة عبارة عن سبحات وعطورات وبلسم مكة وخشب الألوة الذي يُستعمل في الشرق كله في قطع صغيرة توضع فوق التبغ المشتعل في الغليون فتعطي رائحة طيّبة.

تُباع في متاجر أخرى عقود المرجان واللؤلؤ المزيف والسُّبحات المصنوعة من خشب الألوة أو الصندل أو القلمبق والعقود اللامعة المصنوعة من العقيق الأحمر والعقيق المعدّ للأختام وتشكيلة

متنوعة من الألبسة الصينية. ويدير تلك المتاجر كلها الهنود وسلعهم كلها صناعة هندية وإنتاج هندي. وهناك تحامل كبير على هؤلاء الهنود في شبه الجزيرة العربية وذلك من جرّاء فكرة عامة تقول إنهم وثنيون لا يُطيعون الشعائر الإسلامية أو يُطبقونها إلاّ ظاهرياً فقط؛ ويفترض أنهم من المذهب الإسماعيلي، أولئك الأتباع الغامضون الذين قدمتُ وصفاً عنهم في رحلتي إلى لبنان[1] والذين ينطبق اسمهم على أولئك الهنود في مكة. ويقيم هنا نحو اثني عشر منهم ويصل الآخرون سنوياً إلى الحج ويشترون الذهب القديم والفضة ويعيدونهما إلى سورات Surat التي يأتي منها معظمهم. وقد عاش بعضهم في مكة مدة عشر سنوات كانوا يؤدون خلالها كل شعيرة دينية وبشكل دقيق. ويستأجرون منزلاً كبيراً يعيشون فيه سوياً ولا يسمحون أبداً لأي غريب بالسكن في أي جزء منه حتى ولو كانت العديد من الشقق غير مؤجرة. وبشكل مناقض لممارسات كل المسلمين الآخرين، فإن هؤلاء الهنود لا يصطحبون أبداً نساءهم إلى الحج رغم أنهم قادرون جداً على تحمل نفقاتهن. ولم يُعرف أن أحداً ممن أقام في مكة قد تزوّج هناك، مهما كانت المدة طويلة، وهو أمر ملحوظ جداً حيث أن المتحدرين الآخرين من أهل الهند الذين يعيشون هنا لأي فترة من الزمن عادة ما يتزوجون بالرغم من أنهم قد يكونون متزوجين في بلادهم.

وتسود بينهم هنا الروايات التي تُروى عن الإسماعليين السوريين الذين أُرجع القارىء إليهم في روايتي «رحلتي إلى سوريا والأرض المقدسة». وقد باءت بالفشل جهودي الحثيثة التي كانت تهدف إلى جمع معلومات صحيحة وموثوقة عن عقائدهم السريّة، فلم تُعطِ أي نتيجة هنا تماماً كما حصل في سوريا حيث ذُكِرَ بشكل مُبهم أن مركز الإسماعيليين الرئيسي كان في الهند وأنهم كانوا يحافظون على تراسُلٍ منتظم بين تلك البلاد وسوريا. كما يُقال أن مذهباً يُدعى «مخمِدي الضوء» موجود في الهند وكذلك في بلاد ما بين النهرين قد ينتمي إليهم ربما إسماعيليو سوريا ومكة. وأولئك الذين رأيتهم في مكة لديهم بالأحرى قسمات فارسية أكثر منها هندية وهم رجال أطول قامة وأشد قوة وبنية من الهنود بشكل عام[2].

وسط «السويقة» تقريباً، حيث يبلغ عرض الشارع أربع خطوات فقط، هناك مقاعد حجرية على كلا الجانبين. ويُعرض هنا العبيد الأثيوبيون من الرجال والنساء للبيع. بما أن الجمال هو عنصر جذاب عام وشامل، يحيط بتلك المقاعد دائماً الحجاج المسنّون والشباب الذين يدّعون

(١) راجع «رحلاتي في سوريا»، الخ.
(٢) الأشخاص الذين يذكرهم هنا كاتبنا هم ربما بعض البازسين من سورات أو بومباي.
(البازسي: زرداشتي متحدر من اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها).

غالباً أنهم يساومون النخاسين، وذلك بغية رؤية الجاريات لبضع لحظات في مقصورة مجاورة. وتُنقل العديد من الجاريات من هنا إلى المناطق الشمالية من تركيا. وكان سعر أجملهن يتراوح بين مئة وعشرة إلى مئة وعشرين دولاراً.

عند طرف «السويقة» غُطي الشارع بسقف حجري مرتفع ومُقنطر وقد دُعِّم من كل جانب بعدة مبان ضخمة تُستعمل كمخازن للتجار الأغنياء، وقد بنى هذه محمد، باشا دمشق، الذي عاش منذ عدة قرون مضت وهي الآن تابعة للمسجد. وبما أن هذه البقعة هي الأبرد في المدينة خلال فترة الظهيرة فهي بالتالي أكثر البقع ارتياداً. يأخذ الحجاج النبلاء كلهم في «السويقة» استراحتهم الصباحية والمسائية ويدخنون غليونهم. وقد تعرّفت إلى أحد بائعي العطورات، وكنت يومياً أُمضي ساعة في الصباح وأخرى بعد الظهر جالساً على المقعد أمام متجره، أدخن النرجيلة وأشرب القهوة مع صديقي. وهنا، سمعت الأخبار: عن وصول حاج كبير الليلة السابقة؛ وما هي الدعاوى القضائية التي رُفعت أمام القاضي؛ والأخبار الجديدة عن جيش محمد علي؟ أو ما هي الصفقات التجارية الكبرى التي تمت؟ وكانت أحياناً تتم مناقشة الأخبار الأوروبية كآخر مقادير بونابارت مثلاً؛ إذ إن الحجاج القادمين من القسطنطينية واليونان كانوا يأتون بالأخبار من أوروبا بشكل متواصل. وكنت عادة أمضي الفترة الباكرة من صباح كل يوم والجزء الأخير من المساء بالتجول في المدينة وارتياد المقاهي عند أطرافها حيث قد ألتقي بالبدو الذين سرعان ما أدفعهم بعد تقديم بعض القهوة للحديث عن بلادهم وأمنهم. وخلال ساعات الظهيرة أبقى في البيت، والجزء الأول من الليل كنت أقضيه في الساحة المربعة في المسجد حيث تسود نسمة باردة دائماً وحيث كنتُ أغوص عميقاً في الذاكرة إلى مناطق نائية جداً، هنا وأنا جالس على سجادة فرشها لي عبدي، في حين كان الحجاج منشغلين في تلاوة الأدعية والطواف حول الكعبة.

عند الطرف الشرقي من «السويقة» يتغير اسم الشارع ليصبح «شامية» وهو اسم يُطلق كذلك على عدة شوارع فرعية في كِلا الجانبين، تؤدي تلك الواقعة في الجهة اليُمنى إلى الجبل وتلك التي في الجهة اليسرى نحو المسجد. وينضم «شامية» عند نهايته إلى حي «شبيكة» و«باب العُمر». هذا الجزء من المدينة مُتقن البناء ويسكنه التجار الأغنياء أو العلماء المرتبطون بالمسجد بشكل أساسي. وهناك عدد قليل من المتاجر في الشارع الرئيسي باستثناء فترة الحج حيث يُفتح العديد منها فيعرض فيها السوريون منتجات بلادهم وصناعاتها؛ ومن هنا أخذ اسمه. ونجد في هذه المتاجر الحرائر من دمشق وحلب والقماش القطني المصنوع في منطقة «نابلس» وخيط الذهب والفضة المصنوع في حلب والمناديل البدوية وتُدعى «كفيّه» المصنوعة في بغداد ودمشق، والحرير من لبنان؛ والسجاد الفاخر من الأناضول ومن صناعة بدو التركمان،

والعباءات من حماة؛ والفاكهة المجففة وقمر الدين من دمشق والفستق من حلب الخ. ولم ألتقِ في مكة، بين كل السوريين، بشخص كنتُ قد عرفته في بلاده باستثناء نجل زعيم تدمر الذي لم يعرفني على أية حال. ولقد أتى مع مائتي أو ثلاثمائة جمل لنقل أمتعة باشا دمشق.

بالعودة عبر «شامية» باتجاه «السويقة»، نجد على الجهة الشمالية لهذه الشوارع حياً يُدعى «قراره» وهو الأشهر في المدينة وربما الأتقن بناء، حيث اتخذ فيه أغنى التجار منازلهم. ويعيش أكبر تاجرين في الحجاز هما جيلاني وسقّاط هنا في الجزء الأكبر من السنة ويذهبان فقط إلى جدة (حيث لديهما أيضاً مؤسسات) حين يتطلّب وصول القافلة الهندية حضورهما في ذلك المكان. وقد اتخذت نساء محمد علي باشا مسكناً لهن في حي «قراره» مع حاشية من المخصيين المرتبطين بهن. والمنازل هنا كلها ذات طابقين أو ثلاثة طوابق وقد طُليَ العديد منها بلون مزخرف وتحتوي على شقق فسيحة. وقد بنى الشريف غالب هنا قصراً وهو أفضل من كل أولئك التي امتلكها في مكة، وكان يسكن فيه في أشهر الشتاء خاصة فقسّم وقته بين هذا القصر وذلك الذي بالقرب من المسجد. وقد اتخذ بعض الرؤساء العسكريين من هذا القصر مركزاً لهم. وهو لا يتميّز عن المنازل الأخرى في مكة إلاّ بحجمه وبعدد النوافذ فيه وليس له أي رواق مُعمَّد كما أنه لا يُبدي أي هندسة مميزة.

وقد بنى غالب حصناً قرب القصر على تلة داخل المدينة، تحيط به أبراج متينة صلبة، إلاّ أن حجمه أصغر بكثير من القلعة الكبرى. ثم قام بتجهيزه بمدفعية وبملئه بالمؤن حين تقدَّم الجيش التركي باتجاه الحجاز؛ لكن حامية الجند لاذت بالفرار فوراً بعد أن وقع سجيناً، كما فعلت حامية القلعة. وتُعرف التلة التي يقوم عليها باسم «جبل لعلع» ويذكرها أحياناً الشعراء العرب. ويقع حصن آخر صغير في مقابل هذه التلة، من الجهة الجنوبية الشرقية، على قمة جبل وراء ضواحي المدينة، قام غالب بإصلاحه كذلك ويُدعى «جبل هندي»، ذلك لأن شيخاً كبيراً أو متديناً من كشمير كان قد ووري الثرى هنا. وتقطن البرج الآن بعض العائلات الهندية التي تتمتع بميزة وجود خزّان جيد جداً لتجميع مياه الأمطار. يُدعى هذا الجبل كذلك من قبل المكيين الحاليين «جبل قعيقعان» ـ وهي تسمية أقدم ربما من تسمية مكة نفسها. مع ذلك، يضع الأزرقي جبل قعيقعان أكثر إلى الشمال، ويقول إن اسمه مشتق من قعقعة سلاح الجيش المكي الذي كان متمركزاً هنا، وذلك حين استولى الجيش اليمني بقيادة تُبَّع على «تلة الجياد». وبين التلتين والقلعتين، تمتلىء المساحة بمنازل فقيرة نصف متداعية تسكنها بشكل أساسي أدنى طبقة من الهنود المستقرين في مكة.

بالالتفاف نحو الشرق من «قراره»، وبعد المرور بحي يُدعى «ركوبه» الذي يوازي «قراره»

من ناحية البناء، رغم أنه لا يُعتبر مكان إقامة أنيقاً وارستقراطياً، نصل إلى الشارع الكبير الذي يُدعى «مُدعى»، وهو استمرار «للمسعى» وتتمة له، ثم نرجع عبر الأخير إلى المنطقة المجاورة للصّفا، حيث يمكننا رؤية الأحياء الشرقية من المدينة.

يتفرّع شارع عريض بالقرب من الصفا، بموازاة «المُدعى» وإلى الشرق منه ويُدعى «قشاشية». حيث قامت بين العديد من المساكن الصغيرة، عدة صروح جيدة البناء وأخرى قليلة راقية، وعدد من المقاهي وعدة متاجر أسلحة وحمّام. وهنا يقيم الحاكم أو مدير الشرطة وهو المسؤول الثاني بعد الشريف في مكة. وقد بُني جزء من الشارع على أدنى منحدر من الجبل الشرقي ويُدعى «جبل قبيس»، يؤدي إليه من تلك الجهة أزقّة ضيّقة وقذرة وشديدة الانحدار. إن «القشاشية» هو الحي المفضل لدى الحجاج لأنه وجيد التهوئة ومفتوح على الرياح الشمالية. وقد عشتُ هنا خلال آخر أيام رمضان، في شهر أيلول/ سبتمبر من سنة ١٨١٤، عند وصولي من الطائف إلى مكة.

يأخذ هذا الشارع، في آخره، اسم «حارة سوق الليل» ويحتوي على حي واسع ناحية الشرق حيث يبدو «مولد النبي»، أو مكان ولادة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي يحاذي «المعاملة» أو مصنع الفخار. وتسمى الشوارع الفرعية بجانب «المولد» «بشعب المولد»، أو «صخور المولد»، لأن الأرض هنا مغطاة بالصخور.

تقع «المعاملة» على جانب «جبل قبيس» وتحتوي على اثني عشر فرناً تنتج بشكل أساسي الجرار وخاصة منها تلك التي تُستعمل في نقل المياه من بئر زمزم الشهيرة. ورغم أن هذه الجرار مزخرفة بشكل جميل فهي ثقيلة الوزن جداً وتختلف بذلك عن الخزف الجميل في شمال مصر وبغداد الخفيف الوزن حتى إن جرة فارغة بإمكان هبة ريح أن ترميها. وتزوِّد «المعامله» وحدها الحجاز كله، في الوقت الحاضر، بأوعية الماء هذه؛ وقليل فقط من الحجاج يعودون إلى بلادهم من غير أن يأخذوا بعضاً من تلك الجرار كنموذج عن إبداع المكيين وبراعتهم.

بالابتعاد أكثر بعْدُ، يأخذ «سوق الليل» اسم «الغزّة» كما يُدعى بذلك الاسم أيضاً كلا جانبي الطريق الرئيسية التي لا تزال تشكل استمراراً «للقشاشية» وتتمة له. وهناك عدة آبار عميقة للمياه المالحة في هذا الشارع. وهنا أيضاً نجد متاجر النجارين والمنجدين الأتراك والمقاولين أو المتعهّدين الذين يصنعون الأسرة أو المنصات التي ينام عليها المكيّون، كذلك تلك التي يُحملون عليها ليُوارَوا الثرى. وهنا أيضاً يبيع تجار الجملة الفاكهة والخضراوات التي تأتي من الطائف ووادي فاطمة، لتجار المفرّق في الصباح الباكر. وتُقام سوق يومية للجمال والأبقار عند الطرف الشمالي «لغزّة» حيث يتّسع الشارع بشكل كبير. وفي الجهة الشرقية، باتجاه الجبل. عند

المنحدر جزئياً، يقع حي يُدعى «شعب علي» وهو يحاذي «شعب المولد»، حيث يبدو هنا المكان الموقَّر لولادة علي. إن كِلا الحيَّيْن المدعوَّيْن «شِعْباً»، هما من بين أقدم أجزاء المدينة حيث عاش القرشيون في السابق؛ ويسكنهما الآن الأشراف بشكل أساسي، ولا يحتويان على متاجر. والمنازل فسيحة والتهوية فيها جيدة.

وراء سوق الماشية في «غزة»، تنتهي دور السكن وتحتل المتاجر القليلة الارتفاع والسقائف جانبي الطريق. ويُدعى هذا الجزء «سوق الحَدادين»: فهنا تقع متاجر الحدادين الأتراك وصانعي الأقفال. وعلى مسافة أبعد بقليل، ينفتح الشارع على آخر يُدعى «المعلا» الذي هو نفسه تتمة «للمُدعى»، ويشكل الحد الفاصل بين أجزاء المدينة الشرقية والغربية، ويتجه في خط مستقيم شمالاً على طول المنحدر المتصاعد قليلاً للوادي.

ويكتظ «المُدعى» و«المعلا» (ويعني الأخير: المكان المرتفع، في مقابل «المسفلة» أو المكان المنخفض) بالمتاجر على الجانبين. ونجد هنا محال البقالة والأدوية وتجار الحنطة والتبغ والخردوات وصانعي الأحذية وعدداً كبيراً من تجار الألبسة القديمة. وهناك مخزن كبير في «المُدعى» للحنطة وقد كان سابقاً مدرسة حكومية وهناك آخر في «المعلا». من هذه المخازن تنطلق قوافل المؤن للجيش التركي في الطائف. وتُقام المزادات العلنية هنا كل صباح. كما أن هناك سوقاً عند الطرف الشمالي «للمعلا» حيث يأتي البدو من كل الأحياء بقطعانهم للبيع. وهنا أيضاً نجد محال الجزارين التي يُباع فيها لحم البقر والضأن والجمال؛ وهناك في الشارع نفسه، مسجد صغير[1] للصلاة اليومية حيث إن المسجد الكبير يقع على مسافة بعيدة: غير أن صلاة الجمعة تُقام دائماً في هذا الأخير.

وتنتهي المنازل الحجرية باتجاه هذا الطرف الشمالي من «المعلا» حيث يلتقي بسوق الحدادين، ويتبعها صف واحد من المتاجر القليلة الارتفاع والمنصّات على كل جانب، تُباع فيها المؤن إلى البدو الشرقيين الذين يأتون إلى مكة للحصول على الحبوب. وهنا، يقع مقهى يُدعى «قهوة الحشاشين، حيث تُباع مستحضرات الحشيش ونبتة البنج المخدرة التي تمزج مع التبغ وتدخن. يرتاد هذا المقهى أسافل أهل المدينة. وقد قام الشريف غالب بفرض ضريبة مرتفعة على بيع الحشيش بهدف إعاقة ممارسة تشكل انتهاكاً مباشراً للقانون.

يُعرف «المعلا» كذلك باسم «حارة النقا» الآتي من الاسم القديم لوادي النقا الذي أُطلق على هذا الجزء من وادي مكة.

(١) أعتقد أن هذا هو المسجد الذي يذكره المؤرخون تحت اسم «مسجد رابط». ويتكلم الأزرقي عن أربعة أو خمسة مساجد في مكة في وقته.

يملك أغنى التجار الهنود المنازل في الشوارع الفرعية في «المُدعى» حيث يستقبلون الزبائن لأنهم أكثر كبرياءً من أن يفتحوا متاجر عامة أو مخازن. وهناك رجل هندي من هذا الحي، وهو أصلاً من سورات ويُدعى «الشامسي»، كان يُعتبر أغنى رجل في الحجاز؛ على الرغم من أن السلع التي كانت تشملها تجارته كانت أقل اتّساعاً من تلك التي تتعاطى بها تجارة جيلاني والكثيرون غيره. وقد قام هذا الرجل بالتفاوض معي شخصياً لما يناهز الساعة والنصف على شالٍ من الموسلين لا يساوي أكثر من أربعة دولارات، رغم أنه يمتلك عدة مئات من ألوف الجنيهات الإسترلينية!

لقد أُنشيء في «المُدعى» حاجز أو سد عبر الوادي، مع بوابة حديدية، بناه عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» لمقاومة السيول المتدفقة في هذا الاتجاه نحو المسجد خلال الأمطار الغزيرة. وبقيت بعض آثاره حتى القرن الرابع عشر. وكان الحجاج، خلال وجوده، يتمتعون عند وصولهم إلى مكة بإلقاء أول نظرة على الكعبة من على قمته، وهناك أيضاً كانوا يتلون الأدعية. من هنا يأخذ الشارع اسمه «المُدعى» أو «مكان الدعاء».

هناك أحياء عديدة بين «المُدعى» و«المعلا» من جهة، و«غزة» و«قشاشية» من الجهة الأخرى تتألف هذه الأحياء من أبنية جيدة نوعاً ما لكن شوارعها قذرة وضيّقة جداً بحيث لا تُرفع القذارة أبداً كما يغيب عنها الهواء النقي. ونجد هنا «الزقاق الصيني» حيث متاجر صائغي الذهب والفضة. وهم يعملون بالأسلوب الأكثر بُعداً عن الذوق والصنعة، لكنهم مطلوبون جداً خاصة لصنع الخواتم الفضية للرجال والنساء ـ وهي حُلية تُستعمل بشكل واسع جداً بين العرب. إلى الجنوب من هذا الحي يقع «زقاق الحجر» (ويُدعى أيضاً «زقاق المرفق») الذي يحتوي على مكان ولادة فاطمة، ابنة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأبي بكر، خليفة النبي أو وريثه في الخلافة. ويأخذ هذا الشارع اسمه من الحجر الذي كان يقوم بمعجزة إلقاء التحية على النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً: «السلام عليك» كلما مر النبي من هنا في عودته من الكعبة. وهو الآن صامت منذ أيام النبي لكنه ما يزال ظاهراً حيث يبرز قليلاً من حائط منزل تمَّ طلاؤه باللون الأبيض تكريماً لهذا الحجر.

نعود الآن باتجاه «المعلا»، قليلاً خلف البقعة التي يلتقي فيها «بغزة». تنتهي المتاجر هنا ويبدأ سهل عريض رملي حيث نجد عدداً قليلاً فقط من المقاهي المنفصلة. بإمكاننا اعتبار هذه المنطقة طرف المدينة ويجب اعتبار ما يقع أبعد من ذلك باتجاه الشمال أنه يشكل جزءاً من الضواحي. وبالتقدم على طول السهل. نجد على كل جانب من الطريق بركاً كبيرة أو خزانات مياه لخدمة قوافل الحجاج، ويمكن ملؤها من القناة التي تمر من هنا باتجاه المدينة. من هذه البرك، هناك واحدة للقافلة المصرية وأخرى للقافلة السورية وقد بُنيت سنة ٨٢١هـ، وهي مُغطاة بالحجر

بشكل كامل وما تزال في حالة جيدة جداً. وهناك آثار مشابهة لا تزال قائمة للسلاطنة الأتراك الأسخياء، نجدها عند كل محطة من الحج، من «المدينة» حتى دمشق وحلب. ويبدو بعضها، وقد رأيتها إلى الجنوب من دمشق، أشدُّ صلابة في بنائها من برك مكة. فتلك التي يملكها الحجاج المصريون تبلغ نحو مائة وستين قدماً مربعة، ومن ثلاثين إلى خمس وثلاثين قدماً عمقاً. وحين تحتوي البركة من ثماني إلى عشر أقدام من المياه، يُعتبر ذلك كافياً لتزويد القافلة. ولا يتم ملء هذه الخزانات بالكامل أبداً. وبما أن القناة تزوِّد بالمياه بشكل ضئيل. فهناك بعض الأراضي، بمحاذاة البركة الغربية، التي تُروى بوساطة بئر وتنمو فيها الخضراوات. وهناك أيضاً، بالقرب منها، جامع صغير يُدعى «جامع السليمانية» في حالة تداع فلم يعد يستعمل لأغراض دينية، لكنه يستخدم في الوقت الحاضر لإيواء بعض الجنود الأتراك. وهو يخص الحي المدعو بالسليمانية الذي يمتد من «جبل لعلع» بجانب الجبل الغربي وحتى المقابر الواقعة خلف البرك. وهو لا يحتوي على منازل مُتقَنة البناء. كما علمتُ أنه اشتق اسمه من السليمانية، كما يدعو المسلمون شعب قندهار وأفغانستان وكشمير وبلدان عديدة أخرى من نواحي الهند تلك. ويقال إن بعض المتحدرين من هؤلاء، الذين كانوا أول من استقر هنا، لا يزالون يقيمون هنا وقد اختلطوا بالعديد من الهنود. غير أنه يبدو من تاريخ قطب الدين أن السلطان سليمان قد شيّد نحو سنة ٩٨٠هـ مسجداً في هذا الحي. وبإمكاننا أن نفترض على الأقل بأن المسجد قد استعار اسمه من مؤسسه وسكان السليمانية هم من المسلمين المنتمين إلى المذهب الحنفي، أول المذاهب الدينية الأربعة، وهم ليسوا من أتباع علي كالفُرس الذين يأتون بأعداد كبيرة كل سنة إلى الحج إلى مكة إما عن طريق البحر من بومباي أو البصرة وإما عبر البر، فيسافرون كدراويش على طول المناطق الجنوبية من بلاد الفرس إلى بغداد، وعبر بلاد ما بين النهرين وسوريا إلى مصر. وقد رأيتُ العديد ممن أتوا عبر هذه الطريق ويبدو أنهم رجال يتمتعون بشخصية أفضل بكثير من أغلبية الهنود وأشد نشاطاً وقوة منهم.

مقابل حي السليمانية هذا، على الجبل الشرقي، بمحاذاة «غزة» و«شعب علي»، هناك منطقة نصف مهدَّمة تُدعى «شعب عامر» يسكنها بائعون متجولون من بدو قبيلتي «ثقيف» و«قريش» وبعض عائلات الأشراف الفقيرة. وهناك بعض الطواحين الكبيرة في هذا الحي، تُشغلها الأحصنة وهي للحاكم التركي. وليس في المدينة على ما أعتقد طواحين أخرى ذات حجم مهم. إن استعمال المطحنة اليدوية هي عادة في مكة، ويتولى تشغيلها عبيد العائلة. أو النساء بين الطبقات الفقيرة جداً. هنا أيضاً تقع الأمكنة الوحيدة في مكة (أو ربما في الحجاز) حيث يتم صبغ الكتان والقطن باللونين الأزرق النيلي ولون الزعفران أي الأصفر البرتقالي أما الأقمشة الصوفية فلا يتم صبغها هنا.

بما أن أعداداً من فتيات الهوى يُقمنَ في «شعب عامر»[١]، فهذا الحي لا يصنَّف بين الأحياء الأكثر احتراماً في مكة. وقد فرض الشريف غالب ضريبة منتظمة على أولئك النسوة، وطلب دفعة إضافية من اللواتي يلتحقن بالحجاج إلى عرفات في موسم الحج. وهناك ضريبة مماثلة مفروضة في القاهرة وفي كل المدن الريفية الكبيرة في مصر. وتعج مكة ببنات الهوى اللواتي يزداد عددهن خلال الحج مع قدوم مغامرين من البلدان الأجنبية. وهنَّ أكثر بهرجة وزينة من فتيات الهوى في مصر ولا يظهرن أبداً في الشوارع دون بُرقع. وهناك العديد بينهن من الجاريات الحبشيات اللواتي يتقاسم معهن أسيادهن السابقون الأرباح الناتجة عن مهنتهن، حسب الإشاعة. والبعض الآخر جاريات لبعض المكيين.

غالباً ما يُلمح الشعراء العرب لشعب عامر[٢].

بالتقدم من البرك باتجاه الشمال على السهل، نصل إلى منزل معزول ذي حجم جيد وبناء مُتقن، وهو يخص الشريف، وقد أقام فيه مرة بعض المقربين من غالب. ومقابل هذا البناء، هناك طريق مرتفعة معبّدة تقود باتجاه التلال الغربية وتتخللُها فتحة تبدو إصطناعية. ويعطي الأزرقي اسم «جبل حزنه» لهذا الجزء من الجبل ويقول إن الطريق قد شُقت بين الصخور، وقام بذلك يحيى بن خالد بن برمَك. وفي الجهة الأخرى من الفتحة تهبط الطريق إلى سهل «شيخ محمود»، وقد سُمي كذلك بسبب وجود قبر قدّيس يخيّم حوله الحجاج السوريون. وقد شيّد الشريف غالب على التلة برجي مراقبة على جانبي الطريق الضيقة المكونة من درجات بدائية (من الصعب معرفة ما إذا كانت طبيعية أم اصطناعية)، ويشبه هذان البرجان تلك التي قد سبق وصفها. وتمتد المدافن على جانبي الطريق في وادي مكة حيث قبور عائلات معظم سكان المدينة.

وبعد قليل من منزل الشريف الذي ذكرناه الآن، عند طرف «المعلا»، يقع قبر «أبو طالب» وهو عم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووالد علي. وقد عمد الوهابيون إلى تقليص البناء الذي يغطي القبر إلى مجرد كومة نفايات؛ ولم يَرَ محمد علي باشا أن من المناسب إعادة بنائه. وأبو طالب هو راعي المدينة العظيم وهناك العديد من الأشخاص في مكة ممن لا يتردّد كثيراً في نكث قَسَم أقسموه بالله، ولكنهم يخافون من القسم باسم أبي طالب لتأكيد صحة كذبة. «أُقسم بالمسجد»، «أُقسم بالكعبة»، هي عبارات تتردد باستمرار من المكيين بغية فرض كلامهم على الغرباء؛ ولكن القسم بأبي طالب مسألة أشد خطورة ونادراً ما نسمعها في مثل تلك

(١) يكرر المؤلف مثل هذه المزاعم.

(٢) راجع تعليق السير وليام جونز .Poëss-Asi at، في موضوع قصيدة لابن فارض تزخر بتلميحات عن مكة.

المناسبات. وفي مقابل القبر المهدوم، هناك سبيل ماء عام، وهو عبارة عن حوض مبني من الحجر ويبلغ طوله خمسين أو ستين قدماً يتم ملؤه بالماء يومياً من القناة. وقد نمت قربه بعض الأشجار.

ولا نرى أي أبنية بعد هذا السبيل إلى أن نصل إلى قصر كبير للشريف تحيط به جدران مرتفعة تطوّقها الأبراج ويحتوي داخل السياج هذا على فناء فسيح. وقد كان محمياً جيداً في زمن الشريف فكان غالباً ما يقيم هنا خلال حروبه مع الوهابيين لأنه يستطيع الانطلاق منه عند أي هجوم سري أو حملة دون أن يُعرف ذلك في المدينة على الفور. ويُستعمل المبنى الآن ثكنة للجنود الأتراك.

إلى الشمال من هذا القصر يقع حي، أو ضاحية «مُعابده»، وهي تتألف في جزء منها من منازل حجرية قليلة الارتفاع وسيئة البناء ، وفي جزء آخر من أكواخ بُنيت من الأغصان المقطوعة، ويسكنها البدو بالكامل وقد أصبحوا من المستوطنين هنا من أجل ممارسة التجارة وخصوصاً في الحنطة والبلح والماشية بين المدينة وقبائل مواطنيهم. وقد رأيت بينهم عرباً من قبائل قريش وثقيف وهُذيل والعتيبة؛ وقد قيل أننا نستطيع هنا أن نجد أحياناً أشخاصاً من كل القبائل المهمة في الصحراء ، وذلك في وقت السّلم، ومن نجد أيضاً. وهم يعيشون، كما سبق وذكرت في معرض حديثي عن أولئك الذين يحتلون قسماً آخر من مكة، بالطريقة والأسلوب نفسهما اللذين يعتمدان في الصحراء. ولا تحتوي منازلهم على الأثاث، إلاّ ما نجده تحت خيمة بدوي ثري. وبما أنهم يبعدون عن المسجد الكبير، فقد سيّجوا مساحة مربعة من الأرض بجدران منخفضة حيث يعمد من يريد منهم التظاهر بالانتظام في إيمانه(وهذا نادراً ما يحصل بين البدو) إلى أداء صلواتهم على الرمال، حسب العادة في الصحراء.

لم يعتقد حاكم مكة التركي أنه من الملائم وضع أي من جنوده هنا وهو أمر يجعل من الضاحية مدينة له بالكثير. و«المعابده» هي، بفضل موقعها ومِهَن سكانها وحِرَفهم، منفصلة جداً عن المدينة لدرجة أن امرأة أكدت لي أنها لم تدخل إلى المدينة في السنوات الثلاث الماضية، رغم أن البدويات يتجوَّلن في الوادي بحرية.

لوادي مكة هنا مخرجان، أو منفذان؛ فمن جهة الشمال هناك ممر ضيق يحميه برجان للمراقبة ويؤدي إلى وادي فاطمة، وتنتهي «المعابده» من الطرف الشرقي بحديقة ومركز تسلية للشريف حيث كان غالب كثيراً ما يمضي ساعات الظهيرة. وسُيِّجت الحديقة بجدران عالية وأبراج فتشكل بالتالي مركز محصن أمام المدينة. وهي تحتوي على أشجار النخيل والنبق وبعض أشجار الفاكهة الأخرى التي تعطي ظلاً وخُضرة مبهجة جداً. وكان المدخل في زمن غالب يبقى مفتوحاً دائماً لشعب مكة. أما المنزل، فقد بُني بشكل سيىء وهو ليس أحد أعمال غالب.

وخلال آخر حروبه مع الوهابيين استولى هؤلاء على مكان إقامته وتقاتلوا لعدة أسابيع مع جنود مكة الذين كانوا متمركزين عند القصر المجاور أو الثكنة إلى الجنوب، والذين وضعوا لُغماً وفجّروا جزءاً من الجدران وأجبروا الوهابيين على الانسحاب. وقام غالب فيما بعد بإصلاح الضّرر، ويعيش الآن بعض الجنود الأتراك في المنزل الذي بات الآن نصف مهدّم على أيديهم. وهناك سبيل ماء عذب عام لا يُستعمل الآن، مع قبة جميلة مبنية فوقه، وهو يقع على جانب من الحديقة؛ وعلى الجانب الآخر هناك بئر كبيرة للمياه المالحة التي ينتشر العديد منها في «المعابده».

إن الطريق من مكة، باتجاه الشرق، نحو عرفات والطائف، تمرُّ بهذا المنزل؛ وعلى مسافة قصيرة خلفه يتّسع الوادي حيث يُقيم الحاج المصري مخيّمه، الذي يمتد جزء منه عادة على السهل باتجاه البركة. وكانت القافلة السورية في السابق تخيّم في المكان نفسه. وبين الحديقة والقصر أو الثكنة المذكورة آنفاً، قد جُرّت قناة مكة فوق الأرض لنحو مئة قدم في أخدود حجري مكسوّ بالجص من الداخل ويرتفع عن سطح الأرض بأربع أقدام، ولا تظهر القناة في أي مكان آخر في وادي مكة.

ما أن نقطع تخوم مكة النهائية هذه حتى تتراءى الصحراء أمام ناظرينا، حيث غابت الأشجار والحدائق ومراكز التسلية عن الجادات المؤدية إلى المدينة المحاطة من كل جانب بأودية رملية جرداء وتلال قاحلة كذلك. إن غريباً على الطريق الكبيرة المؤدية إلى الطائف، تماماً خلف منعطف التلة في المنطقة الملاصقة لحديقة الشريف، من شأنه أن يحسب نفسه بعيداً تماماً عن المجتمع الإنساني كما لو كان في منتصف صحراء النوبة. ولكن ذلك يمكن أن يُعزى كلياً لكسل السكان وعدم اهتمامهم بالزراعة. ويثبتُ العدد الكبير من الآبار المنتشرة عبر المدينة أن المياه متوافرة بكثرة ويسهل الحصول عليها بعمق نحو ثلاثين قدماً تحت الأرض.

من اليسير تحويل أي تربة في شبه الجزيرة العربية لتصبح منتجة سريعاً حيثما توفّر ري الأراضي عبر الآبار. وهكذا، فبإمكان جهد بضع سنوات أن يجعل من مكة والمناطق المجاورة مناطق مشهورة بخضرتها وحدائقها كما هي مشهورة الآن بعقمها الكامل. ويتكلّم الأزرقي عن الحدائق في هذا الوادي ويصف ينابيع وآبار مختلفة لم تعد موجودة الآن حيث إنها قد تكون سُدّت وخُنقت جرّاء السيول الجارفة. ويؤكد الفاسي كذلك أن «المدينة» كانت في أيامه تحتوي على ما لا يقل عن ثماني وخمسين بئراً. لكن في الأزمنة الغابرة في تاريخ شبه الجزيرة، كان هذا المكان حتماً قاحلاً. ولذلك وصفه القرآن بأنه «وادٍ غير ذي زرعٍ». علاوة على ذلك،

يقول الأزرقي إنه قبل بناء المنازل هنا من قبل قصي، كان هذا الوادي مكتظاً بشجر الأكاسيا وأشجار شائكة متنوعة.

ليس هناك من شيء أصعب من إحصاء سكان المدن الشرقية بدقة، حيث لا يتم أبداً تنظيم السجلات وحيث يصعب التحقق حتى من عدد المنازل. وإن القيام بحكم يرتكز على الظواهر والمقارنة مع المدن الأوروبية حيث يُعرف مجموع السكان بدقة، هو أمر قد يكون مُضَللاً ومنطوياً على مغالطة. إن المساكن الخاصة في الشرق هي بشكل عام (رغم أن الحجاز يشذّ عن القاعدة هذه) بطابق واحد وتحتوي بالتالي على عدد أقل من النزلاء مقارنة مع المساكن الأوروبية. ومن ناحية أخرى، فإن المدن الشرقية لها شوارع ضيّقة جداً وهي تخلو من الميادين أو الساحات العامة أو الأسواق الكبيرة، وتكتظ ضواحيها البائسة عامة بالسكان أكثر من أفضل شوارعها الرئيسية. غير أن المسافرين، بمرورهم السريع عبر المدن، من السهل أن ينخدعوا لأنهم يرون فقط الأسواق وبعض الشوارع التي يجتمع فيها الجزء الأكبر من الذكور عادة خلال النهار. وهكذا، حدث أن أعلنت السلطات الحديثة المحترمة أن سكان حلب يبلغون مئتي ألف نسمة، وأربعمئة ألف في دمشق وثلاثمائة ألف في القاهرة. إن تقديري لسكان المدن السورية الكبرى الثلاث هو كالتالي: في دمشق، مائتان وخمسون ألف؛ في حماه (التي سأتكلم عنها بثقة أقل) من ستين إلى مئة ألف؛ وفي حلب التي تتضاءل يومياً وتضمحل، بين ثمانين وتسعين ألفاً. ولن أمنح للقاهرة أكثر من مئتي ألف نسمة في أحسن الأحوال. أما بالنسبة إلى مكة التي رأيتها قبل الحج وبعده والتي أعرفها ربما بشكل أشمل من أي مدينة أخرى في الشرق، فإن نتيجة تحقيقاتي أظهرت بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين ألفاً من السكان المستقرين وذلك لسكان المدينة وضواحيها؛ فضلاً عن ثلاثة إلى أربعة آلاف عبد حبشي أو زنجي، ومساكنها قادرة على احتواء ثلاثة أضعاف هذا العدد. في زمن السلطان سليم الأول (حسب قطب الدين، سنة ٩٢٣هـ). أجري إحصاء لسكان مكة قبل القيام بتوزيع الحنطة مجاناً بينهم. واتضح أن العدد كان اثني عشر ألفاً، رجالاً ونساء وأطفالاً. ويُظهر الكاتب نفسه، أنه، في أوقات سابقة، كان عدد السكان أكبر بكثير؛ فعندما قام «أبو ضاهر»، زعيم القرامطة (وهو مذهب مهرطق أو منشق عن المسلمين) بنهب مكة سنة ٣١٤هـ، قُتل ثلاثون ألفاً من السكان من قبل جنوده المتوحشين.

وصفُ بيتِ الله أو المسجد الكبير في مكة

يقع المسجد ويُدعى «بيت الله» أو «الحَرَم»، على تلك البقعة في الوادي، الأكثر عرضاً من الأجزاء الداخلية الأخرى للمدينة. وهو بناء لا يميزه إلاّ الكعبة التي يطوّقها. فهناك العديد من المساجد في أماكن أخرى من الشرق التي توازيه حجماً وتفوقه جمالاً بدرجات.

تقع الكعبة في ميدان مستطيل يبلغ طوله مائتي وخمسين خطوة وعرضه مائتين؛ وإن أياً من جوانبه لا يمتد في خط مستقيم رغم أنه يبدو للمكان شكل منتظم بمجمله عند النظرة الأولى. وقد سُيّج هذا الميدان المكشوف في الجانب الشرقي بصف من الأعمدة، فتقف الأعمدة في صف رباعي وهناك ثلاثة عميقة في الجوانب الأخرى وترتبط ببعضها بأقواس مدببة، وتحمل كل أربعة منها قبة صغيرة مكسوّة بالجص ومطلية باللون الأبيض من الخارج. يبلغ عدد هذه القباب، وفق قطب الدين، مائة واثنين وخمسين، كما تتدلى المصابيح من القناطر على طول صف الأعمدة كله وعلى الجوانب الأربعة، فيُضاء بعضها كل ليلة وتُضاء كلها خلال ليالي شهر رمضان. ويتعدى طول الأعمدة عشرين قدماً ويبلغ قطرها عادة قدماً ونصف أو قدماً وثلاثة أرباع القدم، لكننا لا نرى سوى القليل من الانتظام في ما يتعلق بها. وبعضها من الرخام الأبيض أو الغرانيت أو حجر Porphyry، لكن العدد الأكبر منها هي من الحجر العادي في جبال مكة. ويقدر الفاسي المجموع بخمسمائة وتسعة وثمانين ويقول إنها كلها من الرخام باستثناء مئة وستة وعشرين من الحجر العادي وثلاثة مركّبة. أما قطب الدين فيعدُّ خمسمائة وخمسة وخمسين عموداً منها، يقول إن منها ثلاثمائة وأحد عشر من الرخام والباقي من الحجر الآتي من الجبال المجاورة؛ لكن أياً من هؤلاء الكتّاب لم يعِش ليرى التصليحات الأخيرة للمسجد بعد الخراب الذي تسبّب به سيل سنة ١٦٢٦م. وهناك، بين كل ثلاثة أو أربعة أعمدة، واحد ذو ثماني زوايا وأضلاع ويبلغ سمكه حوالى أربعة أقدام. وهناك عمودان على

الجهة الشرقية، من الغرانيت الرمادي اللون الضارب إلى الحمرة والمؤلف من قطعة واحدة وعمود رمادي اللون من حجر Prophyry مع ألواح من الألمنيوم الأبيض. وفي الجهة الشمالية، هناك عمود من الغرانيت الأحمر وآخر من حجر Prophyry الأحمر المُعرَّق. ولعل هذه هي الأعمدة التي ذكر قطب الدين بأنها أُحضرت من مصر وبشكل أساسي من أخميم أي (Panopolis) حين قام الزعيم المهدي بتوسيع المسجد سنة ١٦٣هـ. ومن بين الأعمدة الأربعمائة والخمسين أو الخمسمائة التي تشكل السياج، لم أجد أي تاجين أو قاعدتيّ عمود يتشابهان تماماً، فالتيجان هي من صناعة عربية إسلامية رديئة، فإن بعض التي كانت مُستعملة في أبنية سابقة، قد تمَّ وضعها بطريقة معكوسة فوق الأعمدة، وذلك من جهل العامل. وقد رأيت نحو ست قواعد رخامية من صناعة يونانية متقنة. كما أن عدداً قليلاً من الأعمدة الرخامية تحمل النقوش العربية والكوفية التي قرأت فيها التواريخ ٨٦٣ و٧٦٢هـ. وهناك عمود على الجهة الشرقية يعرض نقشاً كوفياً قديماً جداً، وقد مُحِيَ وطُمِسَ نوعاً ما فلم أستطع قراءته أو نسخه. وإن الأعمدة التي قُدَّت من حجر مكة والمقطوعة بشكل أساسي من جانب الجبل قرب حي الشبيكة هي في أغلبها مؤلفة من ثلاث قطع، لكن الأعمدة الرخامية مؤلفة من قطعة واحدة. وقد تمَّ تدعيم بعض الأعمدة وتقويتها بوساطة حلقات وأطواق حديدية كالعديد من المباني العربية في الشرق وقد استعملها للمرة الأولى هنا «ابن ضاهر برقوق»، ملك مصر، في إعادة بناء المسجد الذي كان قد دُمِّر بالنار سنة ٨٠٢هـ.

لقد دمِّر هذا المسجد وأُصلح مراراً وتكراراً لدرجة أننا لا نجد فيه أي آثار من العصور القديمة النائية. وهناك نقش عربي واحد ظاهر للعيان داخل الجدار الكبير الذي يحيط بصف الأعمدة وقد كُتب بأحرف كبيرة ويحتوي على أسماء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفائه المباشرين لا غير وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. كما يظهر كذلك اسم الله بأحرف كبيرة في أماكن عدة. وهناك نقوش طويلة بخط الثلث في الخارج، فوق البوابات، كُتبت إحياء لذكرى اسماء أولئك الذين بنوا البوابات وتفاصيل طويلة ودقيقة أعطاها مؤرخو مكة. كما أن النقوش على الجهة الجنوبية، فوق باب إبراهيم هي واضحة وجلّية جداً. وقد تمت إعادة بناء تلك الجهة كلها من قبل السلطان المصري «الغوري» El Ghoury سنة ٩٠٦هـ. وفوق باب علي وباب العباس، هناك نقش طويل بأحرف الثلث كذلك وقد وضعها هناك السلطان مُراد بن سليمان سنة ٩٨٤هـ بعد أن أعاد إصلاح المبنى بأكمله. وقد أورد قطب الدين تفاصيل تامة عن هذه النقوش فهي تحتل صفحات عديدة في تاريخه، وهي أثر باقٍ لزهو وغرور السلطان. وكان هذا الجانب من المسجد قد نجا من الدّمار سنة ١٦٢٦م فبقيت النقوش سليمة.

لقد طُليت بعض أجزاء الجدران والقناطر بلونٍ مزخرف وقد خُطَّت باللونين الأصفر

والأحمر وباللون الأزرق، كذلك المآذن. ولا تظهر في أي مكان رسومات الأزهار ذات الطابع الإسلامي المعتاد؛ وقد تمّ تبليط الأرضية في صف الأعمدة بأحجار كبيرة غير مثبتة بالإسمنت مع بعضها بشكل جيد.

هناك سبعة طرق معبدة، أو ممرات تقود من صف الأعمدة باتجاه الكعبة أو البيت الحرام، في الوسط. وهي بعرض كافٍ لاحتواء أربعة أو خمسة أشخاص يمشون جنباً إلى جنب. وقد ارتفعت بنحو تسعة إنشات فوق الأرض. وبين هذه الممرات المغطاة بالحصى أو بالرمل، يظهر العشب وقد نما في أماكن عدة، وهذا ناتج عن مياه زمزم التي تتسرَّب من الجرار الموضوعة في الأرض في صفوف طويلة خلال النهار. وتقع منطقة المسجد كلها على مستوى أكثر انخفاضاً من أي من الشوارع المحيطة به، وهناك منحدر يُقدر بنحو ثماني أو عشر درجات نزولاً عند بوابات الجهة الشمالية، وهو يؤدي إلى المنصة عند صف الأعمدة، ومنحدر آخر من ثلاث أو أربع درجات في الجهة الجنوبية من البوابات.

تقع الكعبة في وسط تلك المنطقة تقريباً. وتبعد عن ممر الأعمدة الشمالي مئة وخمس عشرة خطوة كما تبعد عن ممر الأعمدة الجنوبي ثماني وثمانين خطوة. يمكن أن نعلل النقص في التوازي بأن الكعبة كانت قائمة قبل المسجد الذي بني حولها،وقد تم توسيعه في مراحل مختلفة. والكعبة بناء ضخم مستطيل يبلغ طوله ثماني عشرة خطوة وعرضه أربع عشرة خطوة ويبلغ ارتفاعه من خمس وثلاثين إلى أربعين قدماً. وقد قمت بقياس الخطوات لأحد أطول جوانبها ووجدته يبلغ (N.N.W. ½W.) وقد بُنيت من حجر مكة الرمادي بكتل كبيرة من أحجام مختلفة، وقد جمعت ببعضها بطريقة عشوائية جداً وبنوعية سيئة من الإسمنت. وقد أعيد بناؤها بالكامل كما هي الآن سنة ١٦٢٧م، لأن السيول في السنة السابقة كانت قد دمرت ثلاثة من جوانبها في السنة السابقة، وقبل إعادة بنائها تمّ هدم الجانب الرابع منها حسب قول «الأعصمي» وذلك بعد استشارة العلماء حول الموضوع لمعرفة ما إذا كان يحق للبشر تدمير أي جزء من الصرح المقدس دون أن يجلبوا على أنفسهم تهمة انتهاك حرمة المساجد والكفر والإلحاد.

تقف الكعبة على قاعدة علوها خطوتان تظهر سطحاً مستوياً شديد الانحدار، وسطحها مبسط بحيث تظهر، من على مسافة معينة، وكأنها مكعب تام. ويقع الباب الوحيد الذي يسمح بالدخول في الجهة الشمالية وهو يفتح مرتين أو ثلاث مرات في السنة، ويرتفع عن الأرض بنحو سبعة أقدام. وللدخول إليها، استُعملت درجات خشبية، عن تلك، سأتكلم فيما بعد. في المراحل الأولى للإسلام، حين أعاد بناءها ابن الزبير زعيم مكة وابن أخت عائشة، سنة

٦٤هـ، كان لها بابان على مستوى أرضية المسجد. إن الباب الحالي (الذي أحضر، حسب قول الأزرقي، من القسطنطينية «استانبول» سنة ١٦٣٣م) مغلف بأكمله بالفضة وفيه عدة زخارف ذهبية. وتوضع كل ليلة شموع صغيرة متنوعة ومضاءة على عتبته، فضلاً عن الأوعية المعطرة المملوءة بالمسك وخشب الألوة، الخ.

وعند الزاوية الشمالية الشرقية من الكعبة، قرب الباب، يقع الحجر الأسود الشهير، وهو يشكل جزءاً من زاوية البناء الحادة، حيث يرتفع عن الأرض بأربعة أو خمسة أقدام. وهو بيضاوي الشكل وغير منتظم ويبلغ قطره نحو سبعة إنشات وله سطح متموج يتألف من نحو اثني عشر حجراً صغيراً بأحجام وأشكال مختلفة، متصلة بعضها ببعض جيداً بكمية ضئيلة من الإسمنت وقد نعّمت بإتقان. فهو يبدو كما لو أنه كُسرَ بكامله إلى عدة أجزاء بضربة عنيفة ثم أُعيد جمعه مرة ثانية. من الصعب تحديد نوعية هذا الحجر بدقة وقد أصاب البلى سطحه الحالي من ملايين اللّمسات والقبلات التي تلقاها. وهو يبدو لي كالحمم التي تحتوي على عدة جُزيئيات صغيرة دخيلة من مادة ضاربة إلى البياض والصفرة. ولونه الحالي بني غامق ضارب إلى الحمرة ويدنو من الأسود، وقد أُحيط من كل جانب بحاشية مؤلفة من مادة أظنها قريبة من الإسمنت المؤلف من الحصى والزفت بلون مشابه لا يختلف إلاّ قليلاً عن ذلك الضارب إلى البني. تؤمن هذه الحاشية دعم قطعه المنفصلة، ويبلغ عرضها إنشان إلى ثلاثة إنشات وترتفع قليلاً فوق سطح الحجر. إن الحاشية والحجر كليهما مُحاطان بطوق فضي وهو أعرض في الأسفل منه في الأعلى وفي الجهتين، مع انتفاخ مهم في الأسفل. كما لو كان جزءٌ من الحجر مخبّأً تحته. وقد ثُبّت الجزء الأسفل من الحاشية بمسامير فضية.

هناك حجر آخر في الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة، أو كما يدعوها العرب «الركن اليماني»، ويرتفع هذا الحجر نحو خمس أقدام عن الأرض ويبلغ طوله قدماً ونصف القدم وإنشين عرضاً وقد وُضع عمودياً وهو من حجر مكة العادي، فيقوم الناس وهم يدورون حول الكعبة بلمسه فقط بيدهم اليُمنى ولا يلثمونه.

في الجانب الشمالي من الكعبة، هناك حفرة طفيفة في الأرض، تماماً عند الباب وقريباً من الحائط. وقد حُدِّدت بالرخام وهي عريضة بما يكفي لاحتواء ثلاثة أشخاص جالسين. من المعتقد أن الصلاة هنا مُثابة، وتُدعى هذه البقعة «المعجن»، وقد تكون المكان الذي كان إبراهيم وابنه اسماعيل يجبلان فيه الكلس والطين اللذين استخدماهما في بناء الكعبة. ويُقال أن إبراهيم قد وضع قرب هذا المعجن الحجر الكبير الذي وقف عليه حين كان يعمل في البناء. وهناك نقش كوفي على قاعدة الكعبة تماماً فوق «المعجن» وهو نقش قديم إلاّ أني عجزتُ عن فك رموزه. ولم تتسنَ لي الفرصة لنسخه، كما أني لا أجده مذكوراً لدى أي مؤرخ.

على الجهة الغربية من الكعبة، تحت قمتها بنحو قدمين، يقع «الميزاب» الذي تنزل منه مياه الأمطار التي جُمعت على سطح المبنى، حتى تتسرب إلى الأرض. ويبلغ طوله نحو أربع أقدام وعرضه ستة إنشات حسبما استطعت تقديره من الأسفل، مع حافات يوازي ارتفاعها عرضه. ويتدلى عند الفتحة ما يُسمى بلحية الميزاب وهو لوح ذهبي تقع عليه المياه. تمّ إرسال هذا الميزاب إلى هنا من القسطنطينية سنة ٩٨١هـ، ويقال أنه من الذهب الخالص. وقد تمّ رصف الأرضية حول الكعبة، تحت الميزاب، سنة ٨٢٦هـ، وهي تتألف من أحجار ملونة مختلفة تشكل نموذجاً أنيقاً جداً من الموزاييك. وهناك بلاطتان كبيرتان خضراوان في الوسط. وحسب المقريزي[١]، فقد أُرسلتا إلى هنا هدية من القاهرة سنة ٢٤١هـ. هذه هي البقعة التي دُفن فيها إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر، حسب العُرف الإسلامي؛ ومن السنّة هنا للحاج أن يتلو صلاة من ركعتين. وهناك حائط شبه دائري على هذه الجهة الغربية يتراصف طرفاه مع جوانب الكعبة، ويبعد عنها مسافة ثلاثة أو أربعة خطوات، تاركاً فتحة تقود إلى مكان دفن إسماعيل. ويحمل الحائط اسم «الحطيم»، وتُدعى المنطقة التي يطوّقها «الحجر» أو «حجر إسماعيل» لأنها مفصولة عن الكعبة. ويُدعى أحياناً الحائط نفسه بالاسم ذاته، كما يطلق المؤرخون اسم «حطيم» على الأرض الواقعة بين الكعبة والحائط من جهة، وبئر زمزم ومقام إبراهيم من الجهة الأخرى. غير أن المكيين اليوم يطلقون اسم «حطيم» على الحائط فقط.

يقول العُرف إن الكعبة كانت تمتد في فترة من الفترات إلى «الحطيم»، وإن هذه الجهة قد تداعت وقت الحج، وقد طُلب من الحجاج دفع مصاريف إعادة تصليحها بحجة أن عائدات الحكومة لم تُكتسب بطريقة صافية وطاهرة بما يكفي لتوظيفها في أمر بهذه القداسة، في حين أن أموال الحجاج تتمتع بالطهارة والقدسية المطلوبتين. غير أن المبلغ الذي دفعوه لم يكن كافياً، لذلك لم يتم إنشاء سوى حائط يحدّد المساحة التي شغلتها الكعبة سابقاً. على الرغم من شيوع هذا العُرف بين المطوّفين، إلاّ أنه يناقض التاريخ الذي يروي أن «الحجر» قد شيّده بنو قريش الذين قلّصوا أبعاد الكعبة؛ وأنه تمّ جمعه مع البناء من قبل «الحجاج» ثم عاد وفصله عنه ابن الزُبير. ويؤكد الفاسي أن جزءاً من الحجر، كما هو الآن، لم يكن أبداً ضمن الكعبة. وينظر إليه القانون كقسم من الكعبة نظراً لأن الصلاة عند «الحجر» تُعتبر مثابة كذلك مثلما هي الصلاة في الكعبة نفسها، وإن الحجاج الذين لا تتسنى لهم الفرصة للدخول إلى تلك الأخيرة، يُسمح لهم للتأكيد، بأن يُقسموا أنهم صلّوا في الكعبة رغم أن من الممكن أن يكونوا قد اكتفوا بالصلاة ضمن سياج «الحطيم». وقد بُني الحائط من الحجر الصلب ويبلغ ارتفاعه نحو خمس

(١) راجع، في كتابه، فصل «في روائع مصر».

أقدام وسماكته أربع أقدام، وقد غُطّي كله بالرخام الأبيض ونُقش عليه ابتهالات وأدعية تم نحتها بإتقان على الحجر بأحرف حديثة. وهذا الرخام والنقش هما من أعمال «الغوري»، سلطان مصر سنة ٩١٧هـ. كما علمنا من قطب الدين. إن الطوفان حول الكعبة يؤدّى خارج الحائط وكلما اقترب منه الحاج كان ذلك أفضل.

لقد غُطّيت الجهات الأربع بقماش حريري أسود يتدلى إلى الأسفل تاركاً السطح مكشوفاً[١]. يُدعى هذا الستار «الكِسوة»، ويتم تجديده سنوياً في موسم الحج ويُحضر من القاهرة حيث يتم صنعه على حساب السيد الأكبر[٢]. وقد نُسجت عليه أدعية متنوعة باللون نفسه كالقماش، لذلك فمن الصعب جداً قراءتها. وهناك خط من الكتابات المماثلة التي شُغلت بخيط ذهبي، وقد التف حول المبنى بكامله قليلاً فوق الوسط. أما الجزء الذي يغطي الباب من الكسوة فقد طُرّز بالفضة بكثرة. وهناك فتحات تُركت للحجر الأسود وللآخر في الزاوية الجنوبية الشرقية بحيث يبقى الاثنان مكشوفين. إن للكسوة دائماً الشكل نفسه والقماش نفسه. وتلك التي رأيتها في زيارتي الأولى للمسجد كانت في حالة رثة ومليئة بالثقوب. وفي الخامس والعشرين من شهر «ذي القعدة» يتم نزع الكسوة القديمة فتبقى الكعبة دون غطاء لمدة خمسة عشر يوماً، ويُقال عندها «إن الكعبة تحرم»، «أي أن الكعبة قد لبست الإحرام». ويستمر ذلك حتى العاشر من «ذي الحجة»، وهو يوم عودة الحجاج من عرفات إلى وادي مِنى، حيث يتم وضع الكِسوة الجديدة. خلال الأيام الأولى تُثنى أطراف الغطاء إلى أعلى وتُرفع بحبال مثبتة ومشدودة إلى السطح حتى يُترك الجزء الأسفل من البناء مكشوفاً، وبعد أن تبقى الكعبة كذلك لبضعة أيام، تُسدل الكسوة لتُغطّي البناء بأكمله فتُربط حينها عند قاعدة الكعبة إلى حلقات نحاسية متينة. كانت عملية نزَع الكسوة القديمة تتم بطريقة غير لائقة أبداً، حيث كان ينشأ عراك بين الحجاج وأهل مكة، شباباً وكهولاً، على بضع قطع أو أسمالٍ منها. حتى أن الحجاج يجمعون الغبار العالق على جدران الكعبة تحت الغطاء ويبيعونه عند عودتهم كأثر مقدس. عندها يكون المبنى مُغطى وعارٍ تماماً أو «عريان» كما يُقال، ويجتمع حشد من النساء حوله مُهلّلات بصيحات تُدعى «وَلْوَلة».

إن لون الكسوة الأسود الذي يغطي مكعباً ضخماً وسط فناء شاسع، يعطي الكعبة، عند

---

(١) إن الوهابيين، خلال السنة الأولى لإقامتهم في مكة، قد غطّوا الكعبة بكسوة حمراء اللون صُنعت في الحسا، من القماش نفسه الذي نُصنع منه العباءات العربية الأنيقة.

(٢) خلال العصر الأول للإسلام، لم تكن الكسوة تُنزع أبداً حيث كانت توضع الجديدة سنوياً فوق القديمة. لكن المكيين، بعد فترة من الزمن، خشوا أن تتداعى الكعبة تحت ثقل تكديس الوزن عليها، فنزع عنها الخليفة المهدي بن عبد الله الأغطية سنة ١٦٠هـ (راجع المقريزي).

النظرة الأولى، مظهراً فريداً وجليلاً؛ وبما أنها غير مثبتة إلى الأسفل بشدة، فإن أرق نسمة تجعلها تتحرك في تموّجات بطيئة تتم تحيّتُها بأدعية من حشد المصلين حول البناء، كإشارة إلى حضور الملائكة الحارسين، حيث يُفترض أن يكون خفقُ أجنحتهم هو السبب في تموج الغطاء. وهناك سبعون ألفاً من الملائكة الذين يتولون رعاية الكعبة، وقد أُمروا بحملها إلى الفردوس حين يدقُّ النفير مؤذناً بيوم الحساب[؟!].

إن تغطية الكعبة كانت عادة قديمة عند العرب الوثنيين. ويقول الأزرقي إن أول كِسوة وضعها أسد تُبّع، أحد ملوك اليمن الحميريين. فقبل الإسلام، كان لها كساءان، واحد للشتاء وآخر للصيف. وكان أحياناً أبيض اللون في العصور الأولى للإسلام، وأحياناً أخرى أحمر اللون، وكان يتألف من أغنى أنواع القماش المطرّز المقصّب. وفي أزمنة لاحقة، كان سلاطين بغداد ومصر واليمن المختلفون يتولّون كسوتها، وذلك حسب سيطرة نفوذهم المتعاقب على مكة؛ إذ إن كساء الكعبة كان يُعتبر رمزاً للسيادة على الحجاز. وقد استولى «قلاوون» سلطان مصر، لنفسه ولخلفائه على الحق الحصري في ذلك، وكان منهم ورثة سلاطين القسطنطينية. كما استولى قلاوون كذلك على عائدات القريتين الكبيرتين في جنوبي مصر، بيسوس وسندبير، وذلك لتأمين كلفة الكسوة، ثم أضاف بعده السلطان سليمان بن سليم عدة قرى أخرى؛ لكن الكعبة قد جُرّدت الآن من هذا المورد منذ وقت طويل[1].

وهناك أرضية جميلة ومرصوفة بالرخام حول الكعبة، تنخفض عن مستوى الفناء المربع الكبير بنحو ثمانية إنشات، وقد وُضعت سنة ٩٨١هـ بأمر من السلطان، ولها شكل بيضاوي غير منتظم وقد أُحيطت باثنين وثلاثين عموداً ذهبياً رفيعاً بين كل اثنين منها، عُلّقت سبعة مصابيح زجاجية تُضاء دائماً بعد الغروب. ووراء الأعمدة، أرضية مرصوفة أخرى، يبلغ عرضها نحو ثماني خطوات وقد ارتفعت عن الأولى نوعاً ما لكنها ذات صنعة أسوأ. ثم هناك واحدة أخرى، أعلى بستة إنشات ويبلغ عرضها ثماني عشرة خطوة تقف عليها عدة أبنية قديمة صغيرة؛ وخلف تلك، هناك الأرض المفروشة بالحصباء، بحيث أن درجتين عريضتين قد تؤديان من الفناء المربع نزولاً إلى الكعبة. أما الأبنية الصغيرة المذكورة آنفاً والتي تحيط بالكعبة فهي المقامات الخمسة مع بئر زمزم والقنطرة المدعوة بباب السلام والمنبر.

هناك أربعة أبنية صغيرة أخرى مقابل الجهات الأربع للكعبة، يقف عليها أئمة المذاهب الدينية الإسلامية، وهي الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية، ليؤموا الحشد بالصلاة. يقع المقام المالكي في الجنوب والحنبلي مقابل الحجر الأسود، وهو عبارة عن مقصورة صغيرة مفتوحة من

(١) راجع قطب الدين والأعصمي.

الجهات كلها وتدعمها أربعة أعمدة رفيعة مع سقف مائل خفيف ينتهي في نقطة تماماً بنمط بناء «الباغودة» الهندي. والمقام الحنفي، وهو الأكبر حجماً حيث يبلغ طوله خمس عشرة خطوة وعرضه ثمانٍ وهو مفتوح من الجهات كلها ويدعمه اثنا عشر عموداً صغيراً، وله طابق علوي، مفتوح كذلك، يتّخذ فيه المؤذن الذي يدعو إلى الصلاة موقعه. وقد بناه أول مرة السلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ، ثم أُعيد بناؤه بعد ذلك بأمر من خوشغيلدي حاكم جدة، سنة ٩٤٧هـ. لكن المقامات الأربعة كلها، كما هي الآن، قد بُنيت سنة ١٠٧٤هـ[١]، ويقع المقام الشافعي فوق بئر زمزم، وهو لها كغرفة علوية.

يجلس أتباع المذاهب الأربعة المختلفة للصلاة قرب مقاماتهم المتعاقبة. وخلال إقامتي في مكة، كان الحنفيون يبدأون صلاتهم أولاً؛ لكن، حسب العادة الإسلامية، يجب على الشافعيين أن يبدأوا أولاً بالصلاة في المسجد، يتبعهم الحنفيون والمالكيون ثم الحنبليون. إن صلاة المغرب تشكل استثناء حيث يتمتع الجميع بأدائها معاً[٢]. والمقام الحنبلي هو المكان الذي يجلس فيه ضباط الحكومة وأشخاص كبار آخرون خلال تلاوة الأدعية؛ وهنا يجلس الباشا والشريف؛ وفي غيابهم يجلس خصيان المعبد. يملأ هؤلاء المساحة تحت هذا المقام في الجهة المقابلة، ووراءه تحدَّد أماكن النساء الحاجّات اللواتي يزرن المسجد واللواتي يأتين إليه بشكل أساسي لصلاتي المغرب والعشاء: كما يؤدينَ الطواف أو الدوران حول الكعبة في الليل عامة على الرغم من رؤيتهن أحياناً يمشين خلال النهار بين الرجال.

يقع المبنى الحالي الذي يطوّق بئر زمزم بالقرب من المقام الحنبلي. وقد شُيِّد سنة ١٠٧٢هـ[٣]، وله شكل مربع وبناء ضخم مع مدخل من الشمال يفتح على الغرفة التي تحتوي على البئر. وقد زُيّنت هذه الغرفة بشكل جميل بالرخام بألوان متعددة؛ وبمحاذاته، لكن لها باباً منفصلاً. وهناك غرفة صغيرة فيها خزان حجري مليء دائماً بماء زمزم يشرب منه الحجاج بتمرير يدهم بكوب عبر فتحة مشبّكة بالحديد، وهي عبارة عن نافذة تطلُّ على الخزان دون الدخول إلى الغرفة. يحيط بفتحة البئر جدار يبلغ علوه خمس أقدام وقطره عشر. يقف عليه الناس الذين يسحبون الماء في دِلاءٍ جلدية، وقد ثُبّت سياج حديدي بطريقة تمنعهم من السقوط فيه. في زمن الفاسي، كان هناك ثمانية أحواض رخامية في هذه الغرفة للوضوء.

ومن قبل طلوع الفجر وحتى منتصف الليل تقريباً تكتظّ غرفة البئر بالزوار باستمرار. ولكل

(١) راجع قطب الدين والأعصمي.
(٢) راجع الفاسي.
(٣) راجع الأعصمي.

حريته في سحب المياه لنفسه، لكن يقوم بذلك عادة أشخاص يقفون هناك لهذا الغرض، ويتقاضون أجرهم من المسجد وهم يتوقعون إكرامية من الشاربين ولكنهم لا يجرؤون على طلبها. ذهبت أكثر من مرة إلى تلك البئر وكنت أنتظر نحو ربع ساعة قبل أن أتمكن من الحصول على جرعة ماء لكثرة الحشود. يتسلّق الحجاج الأتقياء الحائط أحياناً ويسحبون الدلو لساعات عديدة، آملين بذلك التكفير عن آثامهم.

قبل الغزو الوهابي، كانت بئر زمزم تخص الشريف، فتصبح المياه بالتالي احتكاراً ولا يمكن الحصول عليها إلاّ بثمن مرتفع. لكن أحد أولى أوامر «سعود»، حين وصوله إلى مكة، كان إلغاؤه هذه التجارة. وأصبحت المياه المقدسة[1] الآن توزَّع مجاناً. ويعتبر الأتراك أن مياه هذه البئر لا تنضب أبداً على الرغم من السحب المتواصل منها، وذلك معجزة. ليس هناك بالتأكيد أي نقص في عمقها لأني، وبعد المعاينة الدقيقة للحبل الذي تُسحب بواسطته الدِلاء، وجدتُ ان الطول نفسه كان ضرورياً عند الصباح والمساء للوصول إلى سطح الماء. بعد التحقيق، علمتُ من أحد الأشخاص الذين نزلوا إليها أيام الوهابيين لإصلاحها، أن المياه كانت تتدفق في القعر، وأن البئر كانت بالتالي تتزوّد بالمياه من غدير تحت سطح الأرض. والمياه ثقيلة الطعم وتشبه أحياناً الحليب في لونها؛ لكنها عذبة وتختلف جداً عن آبار المياه المالحة المنتشرة عبر المدينة، وهي فاترة قليلاً عند سحبها وتشبه من هذه الناحية العديد من سُبُل المياه في الحجاز.

تزوّد بئر زمزم المدينة كلها بالمياه، ونادراً ما يكون هناك عائلة لا تملأ يومياً جرة من مياهها، غير أنها لا تُستعمل إلاّ للشرب أو للوضوء لأنه من غير الورع، كما هو معتقد، استعمال مياه بهذه القداسة[1] لأغراض مطبخية أو في مناسبات عادية. لكل حاج تقريباً جرة موضوعة أمامه، حين يأتي إلى المسجد للصلاة المسائية، يضعها أولئك الذين يكسبون رزقهم من خلال تأدية هذه الخدمة. وتوزَّع المياه في المسجد إلى كل ظمآن لقاء ثمن بخس، بوساطة حاملي المياه مع جرار كبيرة على ظهورهم، ويتقاضى هؤلاء الرجال أيضاً أجرهم من الحجاج المحسنين لتزويد الحجاج الأكثرين فقراً بهذا الشراب المقدَّس قبل الصلاة أو بعدها مباشرة.

تُعتبر هذه المياه دواء ناجعاً لكل الأمراض. ويعتقد المؤمنون أنهم كلما شربوا منها تحسَّنت صحتهم وكانت صلاتهم مقبولة أكثر من الله. وقد رأيت بعضهم عند البئر يشربون كمية كبيرة منها إلى درجة لم أعتقدها ممكنة أبداً. وكان هناك رجل عاش معي في المنزل وهو مريض بحمى متقطعة، وكان يذهب كل مساء إلى بئر زمزم ويشرب من مياهها حتى يكاد يُغمى عليه ويستلقي بعدها لساعات عدة ممّدداً على ظهره على الأرضية قرب الكعبة، ثم يعود ليجدد

(١) ماء زمزم غير مقدس كما يزعم المؤلف.

شربه. وعندما وصل إلى شفير الموت بسبب ذلك، أعلن بأنه مقتنع تماماً أن تفاقم مرضه يعود إلى عجزه عن ابتلاع كمية كافية من المياه! إن العديد من الحجاج الذين لا يكتفون بمجرد شرب مائها، يتعرّون في الغرفة ويُفرغون محتوى الدِلاء من الماء على أجسادهم، فهم يعتقدون بذلك أن القلب يتطهر وكذلك الجسد. وقليل هم الحجاج الذين يغادرون مكة دون أن يحملوا معهم بعضاً من هذه المياه في آنية من النحاس أو القصدير، إما بغرض تقديم هدايا وإما لاستعمالهم الشخصي في حال المرض، أو للوضوء والتطهُّر بعد الموت. لقد حملتُ معي أربع زجاجات صغيرة بنيَّة تقديمها كهدايا للملوك المسلمين في بلاد الزنوج. وقد رأيتها تُباع في السويس من قِبل حجاج عائدين من مكة بسعر ليرة لمقدار يملأ فنجان قهوة.

إن سيد زمزم هو أحد العلماء الأساسيين في مكة. لا حاجة لي لأن أذكُر القارىء بأن المفترض هو أن زمزم هي الينبوع الذي وجدته هاجر في البراري في اللحظة التي كان فيها ابنها إسماعيل يحتضر من الظمأ. ومن المرجّح أن مدينة مكة تدين بجذورها لهذه البئر، لأننا لا نجد لأميال عديدة حولها أي مياه عذبة، ولا في أي جزء من البلاد المحاذية، بهذه الوفرة والغزارة.

في الجهة الشمالية الشرقية من زمزم مبنيان صغيران، يقع الواحد خلف الآخر ويُدعيان «القبّتين» وقد غُطِّيا بقبتين طُليتا بالطريقة نفسها كما في المسجد وفيهما جرار ماء ومصابيح وسجاد وحصير ومكانس ،أغراض أخرى تُستعمل في المسجد نفسه. إن هذين المبنيَيْن القبيحيْن يسيئان للمنظر الداخلي للبناء، لأن شكلهما الضخم وبُنيتهما يتعارضان بشكل غير مؤات مع الشكل الخفيف والجيد التهوية للمقامات. وقد سمعتُ بعض الحجاج من اليونان وهم رجال مرهفو الذوق أكثر من العرب، يُعبرون عن أسفهم للسماح للقُبّتين بتشويه المسجد، خاصة وأن بالإمكان وضع محتوياتهما في الأبنية المحاذية له. وهما لا تشكلان جزءاً مهماً منه لعدم ارتباطهما بأي صفة أو أهمية دينية. وقد بناهما الخوشغيلدي، حاكم جدة، سنة ٩٧٤هـ، وتدعى إحداهما «قبة العباس» لأنها تقع في مكان خزان صغير يُقال أن العباس قد وضعه، وهو عم محمد ـ صلى الله عليه وسلم.

على بُعد بضع خطوات، غربي زمزم، مقابل باب الكعبة مباشرة، يقف سُلَّم أو درج يُرفع على حائط الكعبة خلال الأيام التي يُفتح فيها ذلك البناء، يصعد عليه الزوار إلى الباب. وهو مصنوع من الخشب مع بعض الزينة المنقوشة، ويتحرّك على عجلات منخفضة، وهو عريض بما يكفي لاستيعاب أربعة أشخاص يصعدون الواحد بجانب الآخر. وقد أرسل السلم الأول من القاهرة المؤيد أبو النصر، ملك مصر، سنة ٨١٨هـ. لأنه كان هناك دائماً في الحجاز كما يبدو

نقص في الحِرفيين بحيث إنه كلما احتاج المسجد إلى أي صنعة، كان من الضروري، إحضار مستلزماتها من القاهرة بل حتى من القسطنطينية أحياناً.

على الخط نفسه من السلم، وقريباً منه، قنطرة منعزلة ودائرية رشيقة البناء ويبلغ اتّساعها نحو خمس عشرة قدماً وعلوها ثماني عشرة وتُدعى «باب السلام»، والتي لا يجب الخلط بينها وبين بوابة المسجد الكبيرة التي تحمل الاسم نفسه. إن من يدخل إلى بيت الله الحرام للمرة الأولى، عليه الدخول من باب السلام الداخلي والخارجي، وبالمرور تحت الأول، عليه أن يقول: «ربِّ اجعله مدخلاً مباركاً!» ولا أعرف من بنى هذه القنطرة لكنها تبدو حديثة.

يقع مقام إبراهيم أمام باب السلام تقريباً وقريباً من الكعبة أكثر من الأبنية المحيطة الأخرى. وهو مبنى صغير تدعمه ستة أعمدة يبلغ ارتفاعها ثماني أقدام، وقد أحاط بأربعة منها، من الأعلى إلى الأسفل، حاجز حديدي جميل ليترك بالتالي المساحة خلف العمودين الخلفيّين مفتوحة؛ وضمن الحاجز إطار مساحته نحو خمس أقدام مربّعة ينتهي بقمة هرمية الشكل ويُقال أنها تحتوي على الحجر المقدّس الذي وقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبة، والذي نقله من هنا، بمساعدة ابنه إسماعيل عليه السلام، إلى المكان الذي يُدعى «معجن» الذي سبق ذكره. ويُقال إن الحجر قد تداعى تحت ثقل الأب الجليل وإنه ما يزال يحتفظ بآثار قدمه التي ما زالت ظاهرة عليه، لكن أياً من الحجاج لم يرها أبداً لأن الإطار مغطّى دائماً بشكل كامل بقماش حريري أحمر مقصّب ومطرّز بشكل جميل. ونرى الناس باستمرار أمام الحاجز يتوسلون بشفاعة إبراهيم، وعلى الحاج صلاة قصيرة بجانب المقام بعد أن ينتهي من الطواف حول الكعبة. ويُقال أن العديد من الصحابة، أو أول من والى الإسلام واعتنقه، قد دُفنوا في المساحة المكشوفة بين هذا المقام وزمزم. لذلك فهو أكثر الأمكنة تفضيلاً للصلاة في المسجد. في هذا الجزء من المساحة قام الخليفة سليمان بن عبد الملك، أخو الوليد، ببناء خزّان سنة ٩٧هـ، وملأه من ينبوع شرق عرفات. إلاّ أن المكيين أزالوه بحجة أن مياه زمزم كانت مفضّلة[1].

بجانب مقام إبراهيم، يقع منبر الوعظ في المسجد، أمام الجزء الأوسط لمقدمة الكعبة. وقد بُني برهافة ذوق من الرخام الأبيض الأنيق، مع العديد من الزخارف المنقوشة، وقد أرسله هدية إلى المسجد السلطان سليمان بن سليم[2] سنة٩٦٩هـ. وهناك درج ضيق مستقيم يؤدي إلى مركز الخطيب، يعلوه برج ذهبي كثير الأضلاع مستدقّ الرأس يشبه المسلة. هنا تُلقى الخُطب أيام الجمعة أو في بعض المناسبات والأعياد. وهي، كمثلها في كل المساجد في البلاد

---

(١) راجع بحث المقريزي ـ **منهج من الخلفاء**.

(٢) أرسل المنبر الأول من القاهرة سنة ٨١٨هـ، مع الدرجات المذكورة أعلاه، بأمر من المؤيد، ملك مصر. (راجع الأعصمي).

الإسلامية، لها الفحوى والمغزى نفسهما، مع بعض التعديلات الطفيفة التي تتطلّبها المناسبات الخاصة. وقبل أن يغزو الوهابيون مكة، كانت تُضاف الدعوات للسلطان والشريف إلاّ أن «سعوداً» قام بمنعها. مع ذلك، فقد أُعيدت العادة القديمة تلك منذ الحكم التركي، فيُحشر اسم السلطان ومحمد علي باشا والشريف يحيى في الديباجة أيام الجمعة وكذلك عند انتهاء صلاة المغرب اليومية. يُعهد بالخطب على المنبر إلى العديد من علماء مكة الأوَل؛ وهم دائماً أشخاص مسنون يتولّون مهمتهم بالتتابع. في الزمن البعيد، كان محمد نفسه يعتلي المنبر ويخطب في الناس كلما أتى إلى مكة، كذلك خلفه والخلفاء.

ويظهر الخطيب على المنبر وقد التفَّ بعباءة بيضاء اللون تغطي رأسه وجسمه ويحمل عصا في يده، وهي عادة تُمارس في مصر وسوريا أيضاً تخليداً للعصر الأول من الإسلام حين كان الخطباء يجدون التسلّح ضرورياً خوفاً من مفاجأتهم. ويتم رفع علمين أخضرين على جانبي الخطيب، كما في المساجد الأخرى.

يقوم زوار الكعبة بوضع أحذيتهم على مقربة من المنبر لأنه ليس مسموحاً السير حول الكعبة بالأحذية، كما لا يُعتبر لائقاً حمل الأحذية باليد كما يحدث في مساجد أخرى. ويقوم بحراسة الأحذية عدة أشخاص يتوقعون عطية صغيرة مقابل ذلك. ولكن قداسة منطقة الحرم لا تردع السارقين، إذ إني فقدتُ على التوالي في هذه البقعة ثلاثة أزواج من الأحذية الجديدة، ويحدث الأمر نفسه مع العديد من الحجاج.

لقد قمتُ الآن بوصف الأبنية كلها الواقعة ضمن سياج المسجد[١].

تتم عند صلاة المغرب تغطية الأرض المفروشة بالحصباء وجزء من الأُرضية الخارجية المحاذية للكعبة، بالسجاد الذي يبلغ طوله من ستين إلى ثمانين قدماً وعرضه أربع أقدام، وهو من صناعة مصرية، ثم يُعاد لفُّه بعد انتهاء الصلاة. ويأتي العدد الأكبر من الحجاج بسجاداتهم الخاصة. وتُمدُّ الأجزاء البعيدة من المنطقة، والأرض تحت صف الأعمدة، بالحُصُر التي أُحضرت من سواقين؛ وهذا المكان الأخير هو المكان المعتاد لتأدية صلاة الظهر والعصر. يقدّم الحجاج العديد من تلك الحُصُر ويشعرون في المقابل بالرِّضى لرؤية أسمائهم مكتوبة عليها بأحرف كبيرة.

(١) إن خريطة أرض المسجد التي قدمها علي بك العباسي «صحيحة تماماً. إلاّ أن ذلك لا ينطبق على خريطة مكة التي رسمها ولا عن آرائه المختلفة عن الحجاز. إن مقارنة للوصف الذي قدمته وكتابه هو ستظهر النقاط التي أختلف فيها معه، فيما يتعلق بالمسجد وأيضاً فيما يتعلق بالمدينة وسكانها. وقد وقعت على كتاباته بعد عودتي من شبه الجزيرة العربية. إن مشهد المسجد الذي قدّمه d'Ohsson، في كتابه القيم، صحيح جداً، باستثناء أن الكعبة كبيرة جداً بالنسبة إلى باقي البناء. غير أن مشهد مدينة مكة لم يكن وفياً وصحيحاً. أما الرسم الذي في كتاب نيبور، والذي نُسخ عن رسم عربي قديم، فهو أقل دقة من رسم d'Ohsson. إذ إن الأصلية يبدو أنها رُسمت قبل التعديلات الأخيرة التي حدثت على البناء والمسجد.

عند غروب الشمس يجتمع عدد كبير لتأدية صلاة المغرب ويشكّلون أنفسهم في عدة دوائر واسعة تبلغ أحياناً العشرين دائرة حول الكعبة التي تصبح وسطاً مشتركاً يسجد أمامه كل شخص. وهكذا، كما يلحظ علماء الدين المسلمين البارزين، فإن مكة هي المكان الوحيد عبر العالم الذي يستطيع فيه المؤمن المخلص، أن يتجه خلال تأدية صلاته نحو أي نقطة في البوصلة. ويتّخذ الإمام موضعه قرب بوابة الكعبة وتقتدي به الجموع المحتشدة كلها. إن وقع السجود الموحّد الذي يقوم به ستة أو ثمانية آلاف شخص، يُضاف إلى ذلك تذكرُ المسافة والمناطق المختلفة التي يأتون منها، ولأي غرض، لا يمكن إلاّ أن يترك في نفس أكثر الأشخاص برودة ورباطة جأش، شيئاً من الرهبة. وعندما تُضاء المصابيح ليلاً، فإن الأعداد الكبيرة من المؤمنين الذين يؤدّون الطواف حول الكعبة، ومنظر الحشد الناشط، وأصوات المطوّفين المصممين على جعل أصواتهم تُسمع من قبل أولئك الذين يردّدون الصلاة لهم، والمحادثات الصاخبة للعديد من الكسالى، وركض الصّبية ولعبهم وضحكهم، كل ذلك يُضفي على الجوّ بأكمله مظهراً مختلفاً كلياً يشبه أكثر ما يشبه مكاناً للتسلية العامة[1]. غير أن الحشود تغادر المسجد نحو الساعة التاسعة ليصبح المكان مجدداً مكان تأمل هادىء وصامت، وصلاة للزائرين القلائل الذين تدفعهم إلى هنا تقوى صادقة وليس أي دوافع دنيوية أو تقليد.

هناك رأي سائد في مكة، ينبع من عرف ديني مقدّس، يقول إن المسجد بإمكانه احتواء أي عدد من المؤمنين؛ وأنه إذا ما دخلت الأمة الإسلامية كلها دفعة واحدة، سيجد الناس كلهم مكاناً فيه للصلاة. ويُقال أن الملائكة الحارسين سيوسّعون بشكل غير مرئي مساحة البناء، ويقلّصون حجم كل فرد. الواقع أن المسجد، خلال مواسم الحج الأكثر اكتظاظاً، الذي يستطيع على ما أعتقد احتواء نحو خمسة وثلاثين ألف شخص وقت الصلاة، لم يكن أبداً ممتلئاً لنصفه. وحتى أيام الجمعة أيضاً، لأن الأكثرية الساحقة من المكيين تؤدي صلاتها في المنزل، بعكس ما أوصى به الشرع، هذا إذا ما صلّوا، ويتبع مثلهم الكثير من الحجاج. كما أني لم أستطع أبداً إحصاء أكثر من عشرة آلاف شخص في المسجد في الوقت نفسه، حتى بعد العودة من عرفات، حين تجتمع حشود الحجاج كلها لبضعة أيام في المدينة أو حولها.

في كل ساعة من النهار، نرى أشخاصاً تحت صف الأعمدة منهمكين في قراءة القرآن وكتب دينية أخرى؛ وهنا يمد العديد من الهنود الفقراء أو الزنوج حصرهم ويمضون كل فترة إقامتهم في مكة. فهنا يأكلون وينامون لكن إعداد الطعام غير مسموح به هناك. وخلال ساعات الظهيرة، يأتي العديد من الأشخاص ليأخذوا قسطاً من الراحة تحت صف الأعمدة، في ظل

(١) يكثر المؤلف من مثل هذه العبارات، والتلميحات السيئة للمسلمين وشعائرهم.

السقف المقنطر البارد. وهي عادة لا تُفسِّر نمط البناء الذي نراه في معابد المسلمين القديمة في مصر وشبه الجزيرة العربية فقط، ولكنها تفسر الأمر نفسه في معابد المصريين القدماء، التي قد تكون تُركت فيها الأروقة الضخمة المعمَّدة المفتوحة لأهل البلاد الوثنيين الذين لا تؤمن لهم منازلهم المبنية من الطين إلاّ ملجأ غير كافٍ ضد حرارة منتصف النهار.

ولا تنضح المساجد الكبرى في هذه البلاد بقدسية الصلاة وحُرمتها إلاّ في ساعات الصلاة وبدون ذلك تبدو وكأنها أماكن عادية. وقد رأيت في الأزهر، الجامع الأول في القاهرة، صبية ينادون عالياً لبيع الفطائر المحلاة وحلاّقون يحلقون لزبائنهم والعديد من عامة الشعب يتناولون عشاءهم بينما لا يحوّل انتباه الحشد خلال الصلاة أي حركة خفيفة ولا حتى همسة. إن أي صوت لا يُسمع خلال تأدية الصلاة في المسجد الكبير في مكة إلاّ صوت الإمام، حيث يصبح، في أوقات أخرى، مكاناً لاجتماع رجال الأعمال ليتباحثوا بشأن أعمالهم. وهو يعجُّ أحياناً بالحجاج الفقراء أو بالمرضى الممددين تحت صف الأعمدة وسط أمتعتهم البائسة الرثة، إلى درجة يصبح فيها أشبه بمستشفى منه بمسجد. والصِّبية يلعبون في الساحة الكبيرة والخدم ينقلون الأمتعة عبرها ليمروا من أقرب طريق من جزء من المدينة إلى الآخر. وهو يشبه من هذه الناحية المساجد الكبيرة الأخرى في الشرق. لكن الكعبة المقدسة باتت مسرحاً لمثل هذه الأعمال غير اللائقة والإجرامية بحيث لا يمكن للمرء إلاّ أن يلحظ ذلك. ولا تتم ممارسة هذه الأعمال هنا من غير عقوبة فقط، لكن تقريباً بطريقة علنية، وكثيراً ما أثارت سخطي أمور بغيضة لم تكن تُحدث في المشاهدين المارين الآخرين أكثر من ضحكة أو تأنيب خفيف.

لقد أُقيمت مدارس عامة في أجزاء عدة من صف الأعمدة حيث يتعلم الأولاد الصغار التهجئة والقراءة وهي تشكل مجموعات صاخبة جداً كما أن عصا المعلّم لا تكف عن أداء وظيفتها. ويُلقي بعض علماء مكة محاضرات حول موضوعات دينية كل يوم بعد الظهر تحت صف الأعمدة إلاّ أن عدد المستمعين نادراً ما يكون كبيراً. في أيام الجمعة، يقوم بعض العلماء الأتراك بعد الصلاة بشرح عدد من سُوَر القرآن لمواطنيهم المجتمعين حولهم ثم يعمد بعدها كل واحد من الحضور إلى تقبيل يد المفسِّر ويرمي النقود في قبعته. وقد أُعجبت بشكل خاص ببلاغة خطاب أحد هؤلاء العلماء. رغم أني لم أفهمه لأن المحاضرة كانت تُلقى باللغة التركية. إن إيماءاته والنبرة المتغيرة في صوته كانت معبرة أشد التعبير؛ لكنه كممثل على المسرح، بإمكانه أن يضحك ويبكي في الدقيقة نفسها ويُكيِّف قسمات وجهه لخدمة غرضه بطريقة ماهرة جداً. لقد كان من أهل بورصة وقد جمع مبلغاً كبيراً من المال.

قرب بوابة المسجد التي تُدعى باب السلام، يجلس بعض الشيوخ العرب يومياً مع دواتهم

وورقهم مستعدّين للكتابة لكل من يطلب ذلك، من رسائل وحسابات وعقود أو أي وثيقة مشابهة. كما يتعاطون كذلك بالتعاويذ والأحجية المكتوبة كتلك الشائعة في بلاد الزنوج كالحجاب وإيصالات الحب وتُدعى «كتب محبة وقبول» يستعملها خصوصاً البدو ويطلبون فيها مبلغاً باهظاً.

ونشاهد باستمرار الأكفان والأقمشة الكتانية الأخرى المغسولة بمياه زمزم وقد عُلِّقت بين الأعمدة حتى تجف. ويشتري العديد من الحجاج الكفن الذي يرغبون في أن يُدفنوا فيه من مكة ويغسلونه بأنفسهم عند بئر زمزم، مُفترضين أنه إذا ما لُفَّت الجثة بكتان قد تمَّ تبليله بهذه المياه المقدسة، فإن سلام الروح بعد الموت سيكون مضموناً تماماً. ويجعل بعض الحجاج من هذا الكتّان سلعة تجارية.

تكتظ مكة عموماً والمسجد خاصة بأسراب الحمام البري الذي يُعتبر ملكية المعبد التي لا تُنتهك حرمتها ويُدعى حمام بيت الله. ولا يجرؤ أحد على قتل أي منها حتى حين تدخل إلى البيوت الخاصة. وفي فناء المسجد، هناك عدة أحواض حجرية، صغيرة تملأ بالماء بانتظام للحمام. وهنا أيضاً تعرض نساء عربيات الحنطة والذرة للبيع، على حُصُر صغيرة من القش، يشتريها الحجاج ويرمون بها إلى الحمام. وقد رأيت بعض فتيات الهوى يتخذن هذه الطريقة لعرض أنفسهنَّ ولمساومة الحجاج بحجة بيع الذرة للحمام المقدس[١].

إن عدد بوابات المسجد هو تسع عشرة وقد وُزِّعت حوله دون تناسق أو ترتيب. وأُذيل هنا أسماءها كما تُكتب عادة على بطاقات صغيرة من قبل المطوِّفين، وفي عمود آخر هناك الأسماء التي كانت تُعرف بها تلك البوابات في الأزمنة الغابرة والتي أخذتُها خاصة من الأزرقي والقطبي.

(١) لا ينسى المؤلف ذكر مثل هذه الأكاذيب، والإساءات للمسلمين، وأماكن عبادتهم بين الحين والآخر!

الأسماء الحديثة	الأسماء القديمة
ـ باب السلام، يتألف من ٣ بوابات أصغر حجماً أو قناطر	باب بني شيبة
ـ باب النبي، يتألف من بوّابتين أصغر حجماً، أو قناطر	باب جنايز، حيث أن الميْت يُحمل عبرها إلى المسجد وتُتلى أدعية على روحه وجسده.
ـ باب العباس، يتألف من ٣ بوابات، أو قناطر قديماً، كان يقع أمامه منزل العبّاس	باب السرطعة
ـ باب علي، يتألف من ٣ بوابات أصغر حجماً	باب بني هاشم.
ـ باب الزيت يتألف من بوابتين أصغر حجماً	باب بازان
ـ باب العشرة	
ـ باب بغله، يتألف من بوابتين أصغر حجماً	
ـ باب الصفا، يتألف من ٥ بوابات	باب بني مخزوم
ـ باب شريف، يتألف من بوابتين	باب الجياد
ـ باب مجاهد، يتألف من بوابتين	باب الدخماسة
ـ باب زُلَيْخة، يتألف من بوابتين	باب شريف عجلان، الذي بناه
ـ باب أم هانيء، يتألف من بوابتين، يُدعى كذلك نسبة إلى أبي طالب.	
ـ باب الوداع، يتألف من بوابتين الذي يمر عبره الحاج حين يغادر المعبد للمرة	باب حزورة الأخيرة
ـ باب إبراهيم[1]، يتألف من بوابة واحدة	باب الخياطين، أو باب الجمعة
ـ باب العُمرة يتألف من بوابة واحدة يخرج منه الحجاج لأداء العمرة، يُدعى كذلك بني سهم	
ـ باب عتيق، يتألف من بوابة واحدة	باب عمرو بن العاص أو باب السدرة.
ـ باب الباسطيه، بوابة واحدة	باب عجله
ـ باب الكتبي[2]، بوابة واحدة	باب زيادة دار الندوة
ـ باب زيادة يتألف من ٣ بوابات	
ـ باب دريه، بوابة واحدة	باب مدرسة
مجموع عدد القناطر: تسع وثلاثون	

إن البوابات الرئيسية منها هي:

في الجهة اليمنى الشمالية، باب السلام التي يدخل فيها كل حاج إلى المسجد وباب عباس؛ وباب النبي التي قيل أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يدخل دائماً إلى المسجد منها؛ وباب علي. وفي الجهة الشرقية، باب الزيت أو باب عشرة التي كان يدخل منها الصحابة العشرة الأول، أو أولياء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وباب الصّفا وبوابتان تُدعيان «بيبان الشريف»، وتقع مقابل قصور الشريف. وفي الجهة الجنوبية، باب إبراهيم، حيث يبرز صف

(١) دُعي كذلك، ليس بسبب إبراهيم، لكن من خياط كان دكّانه بالقرب منه.

(٢) أخذ اسمه من كاتب شهير لتاريخ مكة، عاش في منطقة محاذية، وفتح هذه البوابة الصغيرة التي تؤدي إلى المسجد.

الأعمدة وراء خط الأعمدة المستقيم ويشكّل مربعاً صغيراً؛ وباب العمرة من الضروري المرور عبره عند أداء العمرة. وفي الجهة الغربية، باب الزيادة ويشكل مربعاً بارزاً مشابهاً لذلك الذي عند باب إبراهيم، لكنه أكبر. ولمعظم هذه البوابات قناطر عالية محددة الرأس، لكن عدداً قليلاً من القناطر المدوّرة الرأس تُشاهد بينها، وهي نصف دائرية تقريباً ككل القناطر في الحجاز من هذا النوع. وقد خلت من الزخارف ما عدا النقوش من الخارج التي تُجبى لذكرى من بناها. وهي ترجع كلها إلى ما بعد القرن الرابع عشر. وبما أن كل بوابة تتألف من قنطرتين أو ثلاث قناطر، أو أجزاء ، منفصلة عن بعضها بعضاً بوساطة جدران ضيّقة، تُحسب بالتالي هذه الأقسام عند عدّ البوابات المؤدية إلى الكعبة، مما يجعل العدد تسعاً وثلاثين. وبما أن البوابات من غير أبواب، يبقى المسجد مفتوحاً في الأوقات كلها. لقد دخلتُ المسجد في كل ساعة من الليل وكنتُ أجد دائماً أناساً «هناك» إما يُصلون وإما يتجولون.

إن الجدران الخارجية للمسجد هي تلك التي تعود للمنازل التي تحيط به من الجهات كلها. وكانت هذه المنازل أساساً تخص المسجد؛ أما الآن فالقسم الأكبر منها هو ملك للأفراد الذين اشتروا تلك المنازل ويتم تأجيرها لأغنى الحجاج بأسعار باهظة جداً تعادل الخمسمائة درهم لقاء شقة جيدة مع نوافذ تطل على المسجد. لذلك، فقد فُتحت النوافذ في أقسام عديدة من الجدران على مستوى الشارع وفوق الأرضية عند صف الأعمدة. وبإمكان الحجاج الذين يعيشون في تلك الشقق أن يؤدوا صلاة الجمعة في المنزل؛ فبما أنهم يرون الكعبة من النافذة، يُفترض أن يكونوا في المسجد نفسه، ويُسمح لهم بمشاركة أولئك المجتمعين ضمن حدود المسجد في الصلاة. وهناك شقق صغيرة مبنية في الجدران على مستوى معيّن من الطابق الأرضي لصف الأعمدة، وتفتح عليهم، ولها مظهر يشبه الزنزانات. وقد بقيت هذه الشقق ملكاً للمسجد بينما أصبحت المنازل الخاصة فوقها مُلكاً للأفراد. وهي تؤجر إلى «رجال الماء» الذين يضعون الجرار المليئة بماء زمزم فيها، أو إلى حجاج أقل غنى ممن يرغبون في العيش في المسجد. ولا تزال بعض المنازل المحيطة تخص المسجد وقد كانت مُعدّة أساساً لتكون مدارس حكومية كما يوحي بذلك اسمها: مدرسة. وهي الآن تؤجَّر كلها إلى الحجاج. وقد عاش محمد علي باشا في أحد أكبر تلك المنازل وعاش في آخر حسن باشا[1].

(١) إن إحدى أفضل المدارس في مكة التي بُنيت بأمر من قايل بك، سلطان مصر، سنة ٨٨٨هـ، بجانب المسجد وبمواجهة شارع «مسعى» أصبحت كذلك مبنى خاصاً بعد أن حُرمت من مدخولها بسبب تقلب المشرفين عليها. إلى جانب المدرسة، كان هناك مبانٍ أخرى أصغر حجماً بناها سلاطين مختلفون في مصر والقسطنطينية لأغراض مشابهة، وتدعى رباط حيث يسكن الحجاج الفقراء الذين يختارون الدراسة هناك، لكنها لاقت مصير المدرسة نفسها وأصبحت الآن إما ملكية خاصة للمكيين أو تؤجر بإيجارات طويلة الأمد، من قبل المسجد.

بالقرب من باب إبراهيم هناك مدرسة كبيرة وهي الآن ملك السيد عجيل، وهو أحد أهم التجار في المدينة ويفتح مخزنه على المسجد. إن هذا الرجل المسِن مشهور بالورع والقدسية، ويقال أن يد الشريف غالب، حين كان مرة يمسك بخناقه لأنه رفض أن يقدم بعض المال، قد أصيبت بالشلل للحظة، ويأتي إلى منزله كل مساء مجموعات فتُقرأ كتب فقهية(١) وتناقش موضوعة دينية.

ومن بين الأبنية التي تشكل سياج المسجد، هناك «المحكم»، أو بيت العدل، بالقرب من باب زياده، وله بُنية جيدة ومتينة مع قناطر أنيقة في الداخل وفيه صف من النوافذ التي تطل على المسجد، ويسكنه القاضي. وتقع مدرسة كبيرة في محاذاته تحيط بمساحة مربّعة وتُعرف باسم مدرسة السليمانية، وقد بناها السلطان سليمان وابنه سليم الثاني سنة ٩٧٣هـ. وهي دائماً تعج بالحجاج الأتراك، أصدقاء القاضي الذي يتمتع بحق التصرف بالمساكن.

وقد زُيّن المسجد من الخارج بسبع مآذن موزعة بشكل غير منتظم:

١ - مئذنة باب العمرة؛

٢ - مئذنة باب السلام؛

٣ - مئذنة باب علي؛

٤ - مئذنة باب الوداع؛

٥ - مئذنة مدرسة قايل بك؛

٦ - مئذنة الزيادة؛

٧ - مئذنة مدرسة السلطان سليمان. وهي مآذن رباعية الزوايا أو ذات أبراج مدوّرة ولا تختلف بأي شكل عن المآذن الأخرى. والمدخل إليها هو من الأبنية المختلفة حول المسجد الذي تحاذيه، وعند الصعود إلى تلك الواقعة إلى أقصى الشمال، نحصل على مشهد جميل للحشد المنهمك في الأسفل.

لقد بات واضحاً من الوصف السابق أن مسجد مكة لا يختلف إلاّ قليلاً في بنائه عن العديد من الأبنية الأخرى من النوع نفسه في آسيا. إن مسجد النبي زكريا في حلب والمسجد

(١) إن ابن عم هذا الرجل هو القرصان الشهير السيد محمد العجيل، الذي ارتكب عدة أعمال وحشية ضد السفن الأوروبية في البحر الأحمر وحتى إنه أهان العلم الإنكليزي. في مستهل سنة ١٨١٤، استُدعي إلى جدة مع عرض بالدخول في خدمة محمد علي باشا الذي كان لديه نوايا عدائية تجاه اليمن. وقدّم له الباشا الهدايا الثمينة إما على أمل إدخاله في خدمته وإما بهدف تأمين صداقته؛ لكن القرصان رفض عروضه. وقد جمع ثروة طائلة وله مؤسسات في كل مرفأ في البحر الأحمر تقريباً ويعظمه بحارته وجنوده لسخائه الشديد. وكابن عمه في مكة، نجح في جعل الناس يعتقدون أنه يتمتع بقوى خارقة.

الكبير المدعو «الأموي» في دمشق والعدد الأكبر من المساجد الكبرى حجماً في القاهرة، قد شُيّدت كلها تماماً على الخريطة والتصميم نفسه، مع صف أعمدة مقنطرة تحيط بمساحة مربعة. وإن أياً من المساجد لا يشبهه بقدر مسجد ابن طولون في القاهرة الذي بُني سنة ٢٦٣هـ؛ ومسجد عمرو الواقع بين القاهرة والقاهرة القديمة، على البقعة التي عرفت ذات مرة بالفسطاط، وقد بناه عَمرو بن العاص، في السنوات الأولى من فتح مصر؛ وفيه نافورة مياه مقنطرة في الوسط حيث تقف الكعبة في مكة، إلاّ أنه يبلغ ثلث مساحة المسجد في مكة. إن تاريخ بيت الله ليشهد بأنه ساهم في تكوين العديد من المتعلمين العرب، ولم يتم توسيع المسجد سوى في الأزمنة الأخيرة، فالعديد من الأشجار كانت في يوم من الأيام في فناء المسجد وإنه لمن المؤسف أنه لم يتم زرع أشجار أخرى.

إن خدمة المسجد تشغل عدداً واسعاً من الناس. فهناك الخطباء والأئمة والمفتون وأولئك الملازمون لبئر زمزم والمؤذّنون الذين يدعون إلى الصلاة وأعداد من العلماء الذين يُلقون محاضرات والمسؤولون عن إضاءة المصابيح وحشد من الخدم البسطاء، كلهم يعملون في بيت الله. وهم يتلقون أجوراً منتظمة من المسجد إلى جانب ما يحصلون عليه من الهدايا التي تقدَّم لهم من الحجاج بغية توزيعها؛ وتلك التي ليست لهذا الهدف يُحتفظ بها لتصليحات البناء. إن مردود المسجد مهم جداً رغم أنه جُرِّد من أهم وأفضل فروع دخله.

قليلة هي المدن أو المقاطعات ضمن الأمبراطورية [الدولة] التركية التي لا تمتلك فيها الأمبراطورية [الدولة] أرضاً أو منازل؛ لكن المجموع السنوي لدخل هذه الممتلكات غالباً ما يحتفظ به الحكّام المحليون لأنفسهم، أو فهو على الأقل ينقص عبر الأيدي التي يمر من خلالها إلى نسبة ضئيلة من قيمته الحقيقية. ويعلن الإسحاقي El Is-haaky في تاريخه عن مصر، في زمن السلطان «أحمد»، بن السلطان محمد (الذي توفي سنة ١٠٢٧هـ)، أن مصر كانت تُرسل سنوياً إلى مكة مائتين وخمسة وتسعين كيس دراهم، موجّهة خصيصاً إلى المسجد، وثمانية وأربعين ألفاً وثمانية أرادب من الحنطة. وقد قام بايزيد، بن السلطان محمد خان (سنة ٩١٢) بتحديد دخل مكة و«المدينة» الذي سيُرسل من القسطنطينية بأربعة عشر دوكات (عملة ذهبية أوروبية) في السنة، ذلك فضلاً عن الذي كان أسلافه قد أمروا به. كما قام السلطان سليمان ابن سليم الأول بزيادة الدخل السنوي لمكة المرسَل من القسطنطينية والذي حدّده أبوه السلطان سليم بسبعة آلاف أردب من الحنطة إلى عشرة آلاف أردب وخمسة آلاف لسكان المدينة[1]. وقد حدّد كذلك الصرة من القسطنطينية، أو كما تدعى الصرة اليونانية بواحد وثلاثين ألف

(١) راجع قطب الدين.

دوكات في السنة[1]. وكان كل الدخل الآتي من مصر تقريباً يصادره المماليك، ثم قام محمد علي الآن بالاستيلاء على ما تبقى. ويأتي بعض المردود من اليمن ويدعى «وقْف الحمام»، كما يدخل القليل سنوياً مع قافلات الحجاج. بالتالي يمكننا القول إن مسجد مكة فقير مقارنة بحالته السابقة[2]. وباستثناء بعض المصابيح الذهبية في الكعبة، فهو لا يحتوي على أي ثروات مهما كانت بالرغم من الروايات السائدة عن العكس. وقد علمتُ من القاضي نفسه أن السلطان، ولكي يُبقي البناء في حالة جيدة، يُرسل حالياً أربعمائة صُرّة سنوياً، كهدية إلى الكعبة، وهو مبلغ يُنفق جزء منه في خدمة المسجد ويُقسَّم الجزء الآخر بين الخدم المرتبطين به.

يجب ألاّ نخلط بين دخل المسجد ودخل عدد من المكيين، بمن فيهم العديد من الخدم، ذلك الدخل الذي يأتي من مؤسسات دينية أخرى في الأمبراطورية «الدولة» التركية ويُعرف باسم «الصُرّة» التي لا يزال قسم كبير منها كما هو. غير أن هبات الحجاج هي وافرة جداً لكي تؤمّن عيشاً كريماً للأعداد الكبيرة من الأشخاص الكسالى الذين يعملون في المسجد؛ وطالما أن موسم الحج قائم فليس من سبب لدينا لكي نخشى افتقارهم للضروريات وللكماليات في الحياة.

إن الموظف الأول في المسجد هو نائب الحرم، أو حارس الحرم، وهو الحارس الذي يحتفظ بمفاتيح الكعبة. تودَع بين يديه المبالغ الممنوحة كهدايا للبناء والتي يوزّعها بالاشتراك مع القاضي. وتتم كذلك التصليحات في البناء على وفق توجيهاته[3]. ولقد أكدوا لي ـ ولا أدري مدى صحة ذلك ـ أن مدخول نائب الحرم السنوي، الذي يُصادق عليه الشريف والقاضي ويُرسل إلى القسطنطينية، يبلغ ثلاثمائة صُرّة، فقط لمصاريف التصليحات الضرورية والإضاءة والسجاد، الخ، ولإعالة الخصيان المرتبطين بالمسجد. إن هذا الموظف الآن هو واحد من زعماء العائلات الثلاث الوحيدة المتحدِّرة من قبيلة قُريش القديمة والتي لا تزال تقيم في مكة. وهناك إلى جانبه، الموظّف الثاني في المسجد في المرتبة، وهو آغا الخصيان أو كما يدعى «آغاة الطواشيه». يمارس الخصيان مهمة الشرطة في المسجد[4]؛ فهم يمنعون الإخلال بالنظام ويقومون

---

(١) راجع الأعصمي. لقد كان أول من عمل بتقليد هذه الصُرّة هذه محمد بن السلطان يلدرين، سنة ٨١٦هـ.

(٢) إن أمراء الهند قد أثبتوا مراراً وتكراراً عن كرم وسخاء عظيم تجاه المسجد في مكة. وسنة ٧٩٨هـ، أُرسلت هدايا كثيرة بالمال والأغراض الثمينة من قبل أسياد البنغال وغانباي؛ ويذكر الأعصمي غالباً أسياد البنغال كرجال محسنين.

(٣) إن شرف الاحتفاظ بمفاتيح الكعبة، والأرباح التي تنتج عن ذلك، غالباً ما كان موضوع نزاع وخلاف ومنافسة بين القبائل العربية القديمة.

(٤) إن توظيف العبيد أو المخصيين في هذا المسجد يعود إلى قديم الزمان، وكان معاوية بن أبي سفيان هو أول من طلب العبيد للعمل في الكعبة، بعد زمن قصير من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (راجع الفاسي).

يومياً بغسل وكنس الأرضية حول الكعبة بواسطة مكانس كبيرة. وفي وقت المطر، رأيت الماء راكداً على الأرضية بعلو قدم. فيقوم العديد من الحجاج في مثل هذه الظروف بمساعدة الخصيان في إزالتها عبر عدة فتحات وثقوب في الأرضية تؤدي، كما يقال، إلى سراديب واسعة تحت الكعبة، على الرغم من أن مؤرخي مكة والمعبد لا يتطرقون إلى ذكرها. ويرتدي الخصيان القاووق القسطنطيني، مع أثواب واسعة مربوطة بحزام ويحملون عصا طويلة في أيديهم. إن النقوش في أثوابهم التي يعرضها لنا d'Ohsson في كتابه دقيقة وصحيحة بشكل مدهش كما هي عامة الصور والرسومات كلها على الزي في هذا العمل، الذي أُتيحت لي الفرصة كي أقارنه بواقع الحال[١]. ويتعدى عدد الخصيان الآن الأربعين ويتم تمويلهم من الباشا ونبلاء آخرين الذين يرسلونهم كهدية إلى المسجد. كما تُرسل مائة دولار مع كل واحد منهم كتجهيز أو عدة. وقد قدم محمد علي عشر خصيان صغار إلى المسجد. وهناك، في الوقت الحاضر، عشرة رجال راشدين، وعشرون صبياً يعيشون مع بعضهم في منزل حتى يتم تعليمهم بما يكفي ليُعهد بهم إلى إخوانهم الأكبرين سناً الذين يبقون معهم لبضع سنوات ثم يقيمون مؤسساتهم الخاصة. وقد يبدو غريباً أن الراشدين من الخصيان كلهم متزوجون من جاريات زنجيات وهم يحتفظون بعدد من العبيد من الرجال والنساء في منازلهم، خدماً. وهم يُظهرون لهم كل اهتمام، وفي حال حدوث مشاجرات أو شغب فهم يُبرحونهم ضرباً بعصيهم. إن العديد من عامة الشعب يقبّلون أيديهم عند الاقتراب منهم. كما أن رئيسهم أو «الآغا» الذي ينتخبونه من بينهم يتمتع بشخصية هامة ويُسمح له بالجلوس في حضرة الباشا والشريف. إن للخصيان دخلاً كبيراً من عائدات المسجد ومن الهبات الخاصة التي يتلقّونها من الحجاج، كما أنهم يقبضون رواتب منتظمة من القسطنطينية ويجنون الأرباح من التجارة التي يتعاطونها نوعاً ما، ككل أهل مكة، وحتى رجل الدين الأول. إن حماستهم في السعي وراء الربح التجاري أكبر بكثير من حماستهم لأداء واجباتهم الرسمية، ولا يوازيها إلاّ تلهفهم على مصادقة الحجاج الأغنياء.

إن معظم الخصيان أو الطواشية، هم من الزنوج، وبعضهم من الهنود ذوي البشرة النحاسية. ويُرسل أحياناً واحد من الزنوج إلى بلاد السودان ليجمع الهدايا للكعبة. وقد ذكر بروس (Bruce) المصير الذي لقيه مخصيّ بهذا الوصف. فقد حصل ذلك المخصي على إذن بالعودة إلى السودان، وذلك بعد أن قدّم إلى المسجد شخصاً آخر ليحلّ محله، وقد ذهب إلى بورغو غربي دارفور ليصبح الآن حاكماً قوياً لإحدى المقاطعات.

(١) هذا العمل الرائع هو المصدر الوحيد الكامل للمعلومات المتعلقة بقوانين ودستور الدولة التركية، لكن يجب ألاّ ننسى أن الممارسات السائدة في المقاطعات تكون لسوء الحظ متعارضة مع روح القانون ونصوصه، كما شرح ذلك الكاتب.

كلما أتى الحجاج الزنوج إلى مكة، فلا يكفّون أبداً عن التودد إلى الطواشيه. وإن المخصيَّ، بعد أن كان في يوم من الأيام مُلحقاً بخدمة الكعبة، مما يعطيه تسمية «طواشيه النبي» (مخصيّ النبي)، لا يستطيع بعد ذلك الدخول في أي مصلحة أخرى.

خلال شهر رمضان (وهو الشهر الذي قضيتُ أيامه الأخيرة في مكة، سنة ١٨١٤)، يكون المسجد متألقاً بشكل بارز. ويؤدي الحجاج في تلك الفترة (التي صادفت في أشد أوقات السنة حرّاً) عامة فروض الصلاة الثلاثة الأول في المنزل، لكنهم يحتشدون في مجموعات كبيرة في المسجد لعبادتهم وصلواتهم المسائية. فيحمل كل واحد في منديله قليلاً من البلح والخبز والجبنة، أو بعض العنب، يضعها أمامه منتظراً وقت الأذان لصلاة المغرب، حتى يُسمحَ له بالإفطار. خلال هذه الفترة من الترقُّب والانتظار، يعرضون بلطفٍ على جيرانهم قسماً من وجبتهم ويحصلون على مثله في المقابل. ولكي يكسبوا شهرة بالإحسان والتصدُّق الفريد والمتميّز، كان بعض الحجاج يتنقلون من رجل إلى آخر، ويضعون أمام كل واحد بضع قطع صغيرة من اللحم، ويتبعهم المتسوّلون الذين يأخذون بدورهم قطع اللحم تلك من الحجاج الذين وُضعت أمامهم. وما أن يبدأ الإمام من على قمة بئر زمزم بقول «الله أكبر»، حتى يتسارع الجميع ليشربوا من الجرة الملأى بمياه زمزم الموضوعة أمامهم، وليتناولوا شيئاً من الطعام قبل أن ينضمّوا إلى الصلاة، ويعود الكل بعدها إلى المنازل ليتناولوا طعام العشاء، ثم يقومون مجدداً بزيارة المسجد، لإقامة آخر صلاة وهي صلاة العشاء. في هذا الوقت، تُضاء الساحة بأكملها وصف الأعمدة بآلاف المصابيح، وفضلاً عن تلك، فلدى أغلب الحجاج مشكاة خاصة موضوعة على الأرض أمام كل واحد منهم. وقد أدى هذا المنظر المشع والنسمة الباردة التي تعمُّ الفناء بالجماهير إلى التريث هنا والتسكع حتى منتصف الليل. هذا الفناء، وهو المكان الوحيد الفسيح والمكشوف في المدينة كلها، يسمح بدخول النسمة المنعشة عبر بواباته كلها؛ إلاّ أن المكيين يعزون ذلك إلى الأجنحة المرفرفة لأولئك الملائكة الذين يحرسون المسجد[؟!]. وقد شهدت حماسة حجاج من دارفور، وصل إلى مكة في آخر ليلة من رمضان. فبعد رحلة طويلة عبر صحارى جرداء ومنعزلة، دهش عند دخوله إلى المعبد المشعّ لرؤية ذلك المشهد إلى حد بعيد، وخرَّ ساجداً، من رهبته أمام الكعبة السوداء، بالقرب من المكان الذي كنتُ جالساً فيه، وبقي مطوّلاً في هذه الوضعية من التعبُّد. ثم نهض وانفجر بالبكاء، وفي قمة انفعالاته، وبدل أن يصلي الصلاة المعتادة للزائر، اكتفى بالقول: «رباه، خذ الآن روحي، لأن هذه هي الجنة!».

إن انتهاء موسم الحج يُضفي على المعبد مظهراً مختلفاً جداً. فالأوبئة والأمراض والوفيّات التي تلي الإرهاق الذي عانى منه الجميع خلال الرحلة، أو التي تسبب بها الرداء الخفيف أو الإحرام، والمساكن غير الصحية في مكة، والطعام السيىء النوعية، وأحياناً العوز المطلق، كل

ذلك يملأ المسجد بالجثث التي تُحمل إلى هنا ليصلي الإمام عليها؛ أو بالمرضى الذين يُنقل العديد منهم إلى صف الأعمدة حين يدنو أجلهم، لاحتمال شفائهم عند رؤية الكعبة، أو على الأقل ليشعروا بالرضى لموتهم ضمن السياج المقدس. ونرى الحجاج الفقراء الذين أنهكهم المرض والجوع وهم يجرون جسدهم الضعيف الهزيل على طول الأعمدة؛ وحين يعجزون عن إبقاء يدهم ممدودة إلى الأمام متضرّعين وطالبين الحسنة والصدقة من المارين، يضعون زبديّة أمامهم ليتلقوا فيها الصدقات قرب الحصيرة التي يتمدَّدون عليها. وحين يشعرون باقتراب أجلهم، يغطون أنفسهم بكسائهم الرثّ؛ وكثيراً ما يمر يوم بأكمله قبل أن يتم اكتشاف موتهم. وبعد انتهاء الحج بشهر، كنت أجد كل صباح تقريباً جثث حجاج ممددة في المسجد؛ وقد قمت بنفسي، مع حاج يوناني أحضرته المصادفة إلى هنا، بإغلاق عيني حاج مغربي فقير كان قد زحف إلى جوار الكعبة حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، كما يقول المسلمون، «بين يدي النبي والملائكة الحارسين». وقد لمحّ لنا بالإشارة، عن رغبته في أن نرشّ عليه من مياه زمزم؛ وبينما كنا نفعل ذلك، توفي ودُفن بعد مرور نصف ساعة. وهناك عدة أشخاص في المسجد موكلون بغسل البقعة التي استلقى عليها أولئك الذين توفّوا في المسجد وبدفن كل الغرباء الفقراء الذين لا أهل أو أصدقاء لهم والذين يموتون في مكة[1].

(١) لا يخفى على القارىء مبالغات المؤلف المتعمدة في إظهار صورة كئيبة وسيئة لأقدس مكان عند المسلمين!

بعض الملاحظات التاريخية المتعلقة بالكعبة ومسجد مكة

مقتطفة من أعمال الأزرقي والفاسي وقطب الدين والأعصمي، وهم كتّاب تمٌ ذكرهم بشكل خاص في المقدمة

تؤكد الرواية الإسلامية أن الكعبة قد بُنيت في الجنة قبل خلق هذا العالم بألفي سنة، وأنها كانت موقرة من الملائكة الذين أمرهم الله بتأدية الطواف أو الدوران حولها. وقام آدم، أول مؤمن حقيقي، بتشييد الكعبة فوق الأرض في موقعها الحالي الذي هو مباشرة تحت الموقع الذي كانت تحتله في الجنة. وقد جمع الأحجار للبناء من الجبال الخمسة المقدسة: لبنان، وطور سيناء (جبل سيناء)، والجودي، (وهو الاسم الذي أعطاه المسلمون للجبل الذي رسَتْ عليه سفينة نوح بعد الطوفان)، وحراء أو جبل النور، وطور زيت (وهو الجبل الذي، كما أعتقد، يشير إليه القرآن في السورة الخامسة والتسعين). وقد تمٌ تعيين آلاف الملائكة لحراسة البناء من الحوادث: إلاّ أنهم، فيما يبدو من تاريخ هذا البناء المقدس، كثيراً ما أهملوا تأدية واجبهم. وقام أبناء آدم بإصلاح الكعبة؛ وبعد الطوفان، أمر الله إبراهيم، بعد أن ترك وثنية قومه وآبائه، بإعادة بنائها. وابنه إسماعيل، الذي أقام مع أمه هاجر منذ طفولته قرب موقع مكة، ساعد والده الذي أتى من سوريا لتنفيذ ما أمره به الله. وفي أثناء الحفر، وجدوا الأساسات التي كان قد وضعها آدم. ولحاجتهم إلى حجر يثبتونه في زاوية المبنى كعلامة تدل على النقطة التي يجب أن يبدأ الطواف منها، أو الدوران المقدس حولها، ذهب إسماعيل بحثاً عن واحد. وفي طريقه نحو جبل قبيس، التقى بالملاك جبرائيل وهو يحمل في يده الحجر الأسود الشهير. وكان حينها متألقاً فاتح اللون، لكنه استحال إلى الأسود، كما يقول الأزرقي، نتيجة تعرُّضه مراراً وتكراراً للنار، قبل بدء الإسلام وبعده، ويقول آخرون إن لونه قد تغيّر من خطايا الذين لمسوه. وفي يوم الحساب، سيشهد لصالح كل أولئك الذين لمسوه بقلوب صادقة وسيُمنح النطق والبصر.

بعد أن خُلقت بئر زمزم بأعجوبة، وقبل أن يبدأ إبراهيم ببناء الكعبة، استقرت هنا قبيلة بني جرهم العربية وهي فرع من العماليق، بإذن من إسماعيل وأمه، الذين عاشوا معهما. وكان إسماعيل يعتبر البئر ملكاً له؛ لكنه بعد أن تزاوج مع قبيلة جرهم، اغتصبوا بعد موته ملكية البئر والكعبة. وخلال إقامتهم في هذا الوادي، قاموا بإعادة بناء الكعبة، أو بإصلاحها كلها؛ إلاّ أن البئر سُدَّت من السيول الجارفة وبقيت كذلك لنحو ألف سنة. وتملَّكت بعد ذلك قبيلة «خُزاعة» الكعبة لثلاثمائة عام؛ وقام خلفهم من قبيلة «قُصَي بن كلاب» مرة أخرى بإعادة بنائها، لأنها كانت دائماً عرضة لاجتياح السيول المدمرة، ولهذا كانت بحاجة إلى تصليح غالباً. وقد كانت إلى حينها مفتوحة من الأعلى فقاموا بسقفها؛ ومنذ تلك الفترة أصبح تاريخها أقل ارتباطاً بالخرافات والشكوك.

إن عربياً من قبيلة قُصيّ ويُدعى عامر بن لحي كان أول من أدخل الوثنية بين مواطنيه؛ فأحضر الصنم ويُدعى «هُبَل» من هيت في بلاد ما بين النهرين[1] ونصبه في الكعبة. ثم انتشرت الوثنية بسرعة، ويبدو أن كل قبيلة عربية تقريباً قد اختارت إلهها الخاص أو قدِّيسها الحارس. وبما أنهم يعتبرون الكعبة هيكلاً مشتركاً بينهم جميعاً، فقد كانوا يختلفون إليها لتأدية الحج. وكانت قبيلة «خُزاعة» تؤله النخلة المسماة العُزى كما يقول الأزرقي، وكان بنو «ثقيف» يعبدون الحجر المدعو «اللاّت»، كما أن شجرة كبيرة تُدعى «ذات أرواط» كانت تعبدها قبيلة قريش؛ كما كان للأماكن المقدسة: منى والصفا والمروة قدِّيسوها الخاصّون أو أنصاف آلهة. ويعطي المؤرخون قائمة طويلة بأسماء آلهة أخرى. وازداد عدد الأوثان جداً إلى درجة أنه كان هناك واحد في كل منزل وخيمة في هذا الوادي؛ وكانت الكعبة مُزدانة بثلاثمائة وستين منها، تمثّل ربما أيام السنة.

كانت قبيلة قُصيّ أول من بنى المنازل حول الكعبة، وكانوا يعيشون فيها خلال النهار لكنهم كانوا يعودون في المساء دائماً إلى خيمهم المنصوبة على الجبال المجاورة. وقد خلفَ بني قُصيّ في مكة، أو بكّة (وهو الاسم الذي أُطلق حينها على المدينة) بنو قريش. وقد دُمِّرت الكعبة في زمنهم بالنار فأعادوا بناءها من الخشب بحجم أصغر مما كانت عليه في زمن بني قُصيّ، لكنها كانت تشير إلى حدودها السابقة بوساطة حائط الحجر (الذي سبق وصفه). وكان السقف مدعوماً من الداخل بستة أعمدة؛ وكان تمثال «هُبَل»، وهو «جوبيتر» العرب (كبير آلهة الرومان)، موضوعاً على بئر كانت حينها موجودة داخل الكعبة. وقد حدث ذلك خلال فترة شباب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم تمّ وضع الأوثان داخل المبنى الجديد مرة ثانية.

(١) راجع الأزرقي.

ويورد الأزرقي الشهادة العيانية لعدة شهود موثوقين، ليثبت أمراً لافتاً (لم تتم ملاحظته حتى اليوم، كما أعتقد)، وهو أن وجه العذراء مريم مع الطفل عيسى (المسيح) في حجرها، كان منحوتاً كذلك كآلهة فوق أحد الأعمدة الستة الأقرب إلى البوابة.

وقام جد محمد، عبد المطلب بن هشام بترميم بئر زمزم، وتجديدها بالحفر قبل احتراق الكعبة ببعض الوقت.

عندما دخل محمد المنتصر إلى مدينة آبائه، دمّر الأوثان في الكعبة وألغى عبادة الأوثان الرائجة بين مواطنيه؛ وقام مؤذّنه الزنجي بلال بدعوة المسلمين إلى الصلاة من على قمة الكعبة.

بَنَتْ قبيلة قُريش مدينة صغيرة حول الكعبة التي كانوا يُجِلّونها لدرجة أنه كان ممنوعاً لأي كان أن يرفع سطح منزله فوق سطح البناء المقدس. وقد عزّز الإسلام الحج إلى هذا المقام المقدس بعد أن رسخ تقليده العرب الوثنيون.

لقد كان عُمر بن الخطاب هو أول من بنى مسجداً حول الكعبة سنة ١٧هـ، بعد أن اشترى من قبيلة قريش المنازل الصغيرة التي تحيط بها، وبنى حائطاً حول المنطقة. وقام عثمان بن عفّان سنة ٢٧هـ بتوسيع الساحة؛ في سنة ٦٣هـ، عندما حاصر عبدُ الله بن الزبير، ابن أخت عائشة، الثائر والمنشق يزيد في مكة[1]، دُمّرت هذه الأخيرة بالنار، ويقول البعض أن ذلك قد حدث بالمصادفة بينما يؤكد آخرون أن ذلك تمّ بالمنجنيق الموجّه إليها من قبل يزيد من على قمة جبل قُبيس حيث كان قد اتخذ مركزاً له. وبعد طرده، قام ابن الزبير بتوسيع سياج الحائط بشراء المزيد من منازل المكيين وبضم موقعها ضمن الحائط، بعد أن سطّحها. وقام كذلك بإعادة بناء الكعبة على مدى أوسع، رافعاً إياها من ثماني عشرة قدماً[2] (وهو ارتفاعها في زمن قبيلة قريش) إلى سبع وعشرين قدماً، أو تقريباً كما كانت في زمن بني قُصي. ثم فتح بابين إليها على مستوى سطح المنطقة وبنى سقفاً مزدوجاً تدعمه ثلاثة أعمدة بدل ستة، وهو الرقم السابق. كان يبلغ طول هذا المبنى الجديد خمساً وعشرين قدماً وعرضه عشرين من جهة وواحدة وعشرين من الجهة الأخرى. وفي الداخل كانت هناك البئر الجافة وتدعى بئر آصف التي ما زالت موجودة حيث تودَع الكنوز وبشكل خاص الآنية الذهبية التي قدّمت إلى الكعبة. وقد حمل البناء في هذه الفترة اسم الكعبة ويُقال إنه اشتق من «كعب» أي «النرد» (زهر

(١) هكذا وردت في الأصل الإنكليزي، وهي مستغربة، والمعروف أن الكعبة قصفها بالمنجنيق الحصين بن نمير قائد جيش يزيد ابن أبي سفيان عندما عاذ بها عبد الله بن الزبير، كما يعود المؤلف ليذكر. المترجم.

(٢) يبدو أن الصحيح خطوة لا قدم.

الطاولة) أو المكعّب، وهو الشكل الذي يتخذه المبنى في الوقت الحاضر. وكان اسمه السابق «بيت الله» أو «البيت العتيق» وهو اسم ما زال يُطلق عليه كثيراً.

بعد عشرين عاماً من الفترة المذكورة سابقاً، قام الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان حينها حاكم مكة ولم يعجبه الحجم الموسع للكعبة، بتقليص حجمها إلى ما كانت عليه في زمن قبيلة قريش، مقتطعاً ست أقدام من طولها؛ وقام كذلك بإعادة ترميم الحائط المدعو «الحجر» الذي كان قد أدخله ابن الزبير ضمن البناء. والحجم الذي أُعطي آنذاك للصرح كان هو نفسه حجم البناء الحالي وقد تمّ الالتزام به بشكل دقيق في كل التصليحات أو إعادة التشييد والبناء التي حصلت فيما بعد.

نحو نهاية القرن الأول من الهجرة، كان الوليد بن عبد الملك هو أول من شيّد الأعمدة في المسجد وقد جعل تيجان الأعمدة تلك تُغطى بصفائح من الذهب، وبذل مصاريف باهظة للزخارف. ويُروى أن كل الزخارف والزينة الذهبية التي قدمها إلى المبنى أُرسلت من طليطلة في إسبانيا وحُملت على ظهور البغال عبر إفريقية وشبه الجزيرة العربية.

قام أبو جعفر المنصور، أحد الخلفاء العباسيين، سنة ١٣٩هـ، بتوسيع الجهتين الجنوبية والشمالية للمسجد وجعلهما أكبر بمرتين مما كانتا عليه من قبل، بحيث إنها تشغل الآن مساحة تبلغ سبعاً وأربعين قدماً ونصف ذلك طولاً. كما قام كذلك بتبليط الأرض المحاذية لبئر زمزم بالرخام. وأضاف الخليفة المهدي إلى حجم المسجد في فترتين مختلفتين؛ كانت الفترة الأخيرة سنة ١٦٣هـ. وقد اشترى الأرض اللازمة لهذه الإضافات من المكّيين ودفع لهم خمسة وعشرين درهماً لقاء كل قدم مربع. وكان هذا الخليفة هو من أحضر الأعمدة من مصر كما سبق أن ذكرت. وأكمل ابنه الهادي التحسينات التي كان قد بدأ بها. وكان سقف الأعمدة قد بُني من الساج وهو خشب هندي ثمين. وسُلمت الأعمدة التي أحضرها المهدي من مصر في شمال جدة بعد رحلة دامت يوماً كاملاً؛ ولكن وبسبب بعض العوائق التي استجدت، لم يتم نقلها كلها إلى مكة بحيث ترك بعضها على الرمال قرب الشاطىء. إني أذكر ذلك لكي أوضح للمسافرين في المستقبل الذين يعتقدون أن تلك الأعمدة، إذا ما اكتشفوها، هي آثار مستعمرة يونانية أو مصرية قوية.

ويلحظُ مؤرخو مكة، بشكل لا يخلو من دهشة، أن الخليفة السخي هارون الرشيد لم يُضف شيئاً إلى المسجد إلاّ منبراً واحداً، رغم أنه قام بزيارة الكعبة مراراً وتكراراً.

سنة ٢٢٦هـ، خلال خلافة المعتصم بالله، سُقفت بئر زمزم إذ إنها كانت مسيّجة من جميع الجهات لكنها لم تكن مسقوفة.

سنة ٢٤١هـ تمّ تبليط المساحة بين «الحجر» والكعبة بالرخام الجميل. وكان هناك في ذلك الوقت بوابة تؤدي إلى المساحة المسيّجة ضمن حائط «الحجر».

سنة ٢٨١هـ، قام الخليفة المعتضد بترميم المسجد بكامله، فأعاد بناء جدرانه وبنى بوابات جديدة وأعطاها أسماء جديدة وقام بتوسيع المبنى من الجهة الغربية وذلك بإضافة المساحة التي كانت تشغلها في السابق دار الندوة إلى مساحته. وهو بناء قديم في مكة ومشهور جداً في تاريخ العرب الوثنيين لأنه كان دائماً مجلس الشورى المشترك بين زعماء مكة. ويقال أنه كان يقع في البقعة التي وضع عليها الآن المقام الحنفي.

سنة ٣١٤هـ، أو حسب أقوال آخرين، سنة ٣٠١هـ، تعرّضت مكة ومسجدها لكوارث كبيرة. واجتاح الجيش مذهب القرامطة الملحد الحجاز، يترأسه زعيمه أبو ظاهر، واستولى على مكة. وقد ذُبح خمسون ألفاً من سكانها في أثناء عمليات النهب التي تعرضت لها المدينة. وجُرّد المسجد والكعبة من الزخارف القيّمة كلها. وبعد أن بقي لواحد وعشرين يوماً، رحل العدو حاملاً معه جوهرة مكة العظيمة وهي الحجر الأسود. وخلال الحريق الذي ألمّ بالكعبة في زمن ابن الزبير، أدت الحرارة اللاهبة إلى انقسام الحجر إلى ثلاثة أقسام أعيد جمعها بعد ذلك سوياً وأعيد تثبيته في الوضعية السابقة، يحيط به إطار من الفضة، وقد جدَّد هارون الرشيد هذا الإطار وعَمَد إلى تقويته.

حمل القرامطة الحجر إلى «هجر»[1]، وهي بقعة خصبة في الصحراء، على طريق القافلة السورية شمال «المدينة» والتي اختاروها مقراً لهم. لقد أملوا في أن يأتي المسلمون كلهم لزيارة هجر، وفي أنهم بذلك سيرثون الثروات التي كان يأتي بها الحجاج من كل أصقاع العالم إلى مكة. في ظل هذه الفكرة، رفض أبو ظاهر عرضاً بخمسين ألف دينار كفدية عن الحجر؛ لكن بعد موته، قام القرامطة بإعادته طوعاً سنة ٣٣٩هـ[2] بعدما اقتنعوا من تجربتهم بأن توقعاتهم بالثراء من امتلاكه كانت مبنية على أُسس واهية، وبأن عدداً قليلاً من المسلمين فقط أتوا إلى «هاجر» بهدف تقبيله. كان الحجر في ذلك الوقت قسمين بعد أن انشق بفعل ضربة قام بها أحد القرامطة خلال نهب مكة.

وبعد استرجاعه بسبعين عاماً إلى موقعه القديم، تعرض الحجر لمهانة أخرى. فالحاكم بأمر

(١) يقول الأعصمي إن الحجر حُمل إلى الحسا، قرب الخليج الفارسي، وهي مدينة تمّ بناؤها حديثاً بأمر من أبي ظاهر. وقد وجدتُ في أسفار ابن بطوطة مدينة في منطقة الحسا تُدعى «هجر».

(٢) يروى أن الخليفة الفاطمي في مصر هددهم بإعلان الحرب عليهم إن لم يعيدوا الحجر الأسود.

الله، ملك مصر المجنون الذي كان ينوي ادعاء التمتع بامتيازات سماوية دينية لنفسه، أرسل سنة ٤١٣هـ مصرياً مع قافلة الحج إلى مكة لتدمير الحجر. وبهراوة حديدية مخبأة تحت ثيابه، اقترب الرجل منه وقال عالياً: «إلى متى سيُعبد هذا الحجر ويُقبّل؟»، «وليس هناك محمد ولا علي لمنعي من فعل هذا». و«اليوم سأقوم بتدمير هذا البناء!» ثم ضربه ثلاث مرات بهراوته. وكان هناك فرقة من الخيالة تعود للقافلة التي كان قد سافر فيها من مصر، مستعدة عند بوابات المسجد لمساعدته ما إن يقم بتنفيذ مهمته؛ إلاّ أنهم كانوا عاجزين عن حمايته من غضب الجماهير العارم. وقد ذبحه واحد من أهل اليمن بخنجره. وتمّت مطاردة الخيالة ونُهبت كل القافلة المصرية بالمناسبة. وقد تبيّن بعد التحقيق أن ثلاث قطع صغيرة بحجم إظفر رجل قد تشظت من الضربات العنيفة؛ فتم سحقها وجُبل مسحوقها بالإسمنت الذي عولجت به الشقوق. ومنذ ذلك الوقت لم يتكبّد الحجر أي محنة أو بلية إضافية إلاّ في سنة ١٦٧٤، حين عُثر عليه في صباح يوم من الأيام مُلطّخاً بالقذارة، كذلك باب الكعبة، بحيث أن كل من قبّله تراجع بوجهٍ مشمئز وقد تمّ البحث عن مفتعل هذه الدعابة المدنّسة دون جدوى، ووقعت الشبهات على بعض الفرس، لكن لم يتم إثبات الفعل عليهم[١].

يبدو أن قُدسية الحجر قد وُضعت موضع الشك والتساؤل من قبل أحد أهم أعمدة الإسلام. ويقدّم الأزرقي شهادة عدة شهود قد سمعوا عمر بن الخطاب يقول عالياً بينما كان يقف أمامه: «إني لأعلم أنك حجر لا يضر ولا ينفع، ولو لم أرَ محمداً يقبلك ما قبّلتك».

سنة ٣٥٤هـ، بنى الخليفة المقتدر المدخل المسقوف قرب بوابة المسجد التي تُدعى باب إبراهيم والتي تبرز عن الخط المستقيم للأعمدة وتجتمع فيه بوابتان قديمتان تدعيان باب بني جمعة وباب الخياطين. ومنذ ذلك الوقت، لم تتم أي تحسينات إضافية لقرون عدة.

سنة ٨٠٢هـ، دمرت النيران الجهتين الشمالية والغربية للمسجد كلياً، وبعد سنتين تمّ إعادة بنائهما على حساب سلطان مصر، الناصر فرج ابن ظاهر برقوق. وتمّ نقل الخشب الضروري لهذه الغاية في جزء منه من مصر وفي جزء آخر من الطائف حيث أعطت شجرة العرار وهي من فصيلة السرو أو العرعر، خشباً ممتازاً.

سنة ٩٠٦هـ، قام قانصوه الغوري، سلطان مصر بإعادة بناء الجزء الأكبر من جانب باب إبراهيم، كما يدين له الحجاز بعدة صروح عامة أخرى.

(١) راجع الأعصمي حول هذه التفاصيل.

سنة ٩٥٩هـ، خلال حكم سليمان بن سليم الأول، سلطان القسطنطينية[١]، تمَّ تجديد سقف الكعبة.

سنة ٩٨٠هـ، أعاد السلطان نفسه بناء جانب المسجد باتجاه شارع «مسعى» ورفع كل القِبب التي تغطي سقف صف الأعمدة. وقام كذلك بوضع الأرضية الجميلة التي هي الآن حول الكعبة، وأرضية جديدة حول صف الأعمدة.

سنة ٩٨٤هـ، قام ابنه مراد بتصليح الجوانب الثلاثة الأخرى وأعاد بناءها جزئياً، وهي الأجزاء التي لم يمسها والده.

سنة ١٠٣٩هـ (أو ١٦٢٦ حسب تقويمنا)، انجرف سيل هابط من جبل النور إلى المدينة وملأ المسجد بسرعة أدت إلى غرق الأشخاص كلهم الذين كانوا في الداخل في أثناء ذلك، وقد أتلفت الكتب والنسخ القيمة من القرآن كلها، وغيره مما كان موجوداً في الشقق حول جدران البناء؛ وجزء من الحائط أمام الكعبة ويدعى «حجر» وثلاث جهات من الكعبة نفسها قد انجرفت مع السيل. وزُهقت خمسمائة نفس في المدينة. وفي السنة التالية، تمَّ إصلاح الضرر وإعادة بناء الكعبة بعد هدم الجانب الذي نجا من هول السيل.

سنة ١٠٧٢، شُيّد المبنى فوق بئر زمزم كما هو الآن؛ وسنة ١٠٧٤، تمَّ بناء المقامات الأربعة من جديد.

بعد ذلك الوقت، لم يذكر المؤرخون أي إصلاحات مادية أخرى أو تغييرات في المسجد، وأعتقد أن شيئاً من هذا لم يحصل في القرن الثامن عشر. بإمكاننا بالتالي أن نعزو المبنى كما يظهر الآن بالكامل تقريباً إلى سخاء وكرم آخر سلاطنة مصر، وخلفائهم، سلاطنة القسطنطينية العثمانيين، منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وفي خريف سنة ١٨١٦، وُظِّف العديد من الفنانين والحرفيين المرسلين من القسطنطينية، في الحجاز لإصلاح الضرر كله الذي سبّبه الوهابيون في مقامات الأئمة في تلك البلاد، كذلك للقيام بالتصليحات الضرورية كلها في المساجد في مكة و«المدينة».

(١) يذكر المؤلف (استانبول) أو (إسلامبول) أو (الآستانة) باسم القسطنطينية دائماً علماً بأن اسمها البيزنطي القديم بدل منذ أن فتحها السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م.

وصف عدة أماكن مقدسة أخرى
قام الحجاج بزيارتها في مكة والمناطق المجاورة

خلال زمن الوهابيين، لم يجرؤ أي شخص على زيارة هذه الأماكن دون أن يُعرِّض نفسه لعدائيتهم؛ كما أن الأبنية التي كانت قد شُيِّدت على هذه البقع قد دمروها أو هدموا قِببها على الأقل.

ويظهر في المدينة:

مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مكان ولادة محمد، في الحي المدعو بهذا الاسم. كان هناك في زمن المؤرخ الفاسي مسجد يقع بالقرب منه ويدعى مسجد المختبأ. وخلال إقامتي كان الحرفيون منهمكون جداً في إعادة بناء المبنى فوق المولد حسب تصميمه السابق. وهو يتألف من قاعة مستديرة تعلوها قبة، أرضها منخفضة عن مستوى الشارع بنحو خمس وعشرين قدماً مع درج يؤدي إليها. وقد بدت حفرة صغيرة في الأرض، تلك التي جلست عليها أم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أنجبته، ويُقال إن هذا المكان كان منزل عبد الله، والد محمد.

مولد ستنا فاطمة، أو مكان ولادة فاطمة، ابنة محمد، وهو مبنى حجري جميل، يقال أنه كان منزل أمها خديجة، ويقع في الشارع المدعو «زُقاق الحجر». وهناك درج يؤدي إلى أرض هذا المبنى، الذي ينخفض، مثل المبنى السابق، عن الشارع بدرجات. ويتضمن هذا الصرح الصغير مكانين مقدسين: في واحد منهما حفرة مشابهة لتلك التي في «مولد النبي» لتُحدِّد المكان الذي وُلدت عليه فاطمة، وبالقرب منها حفرة أخرى أقل عمقاً حيث يقال أنها كانت تُدير طاحونتها اليدوية أو «الرحى» بعد أن كبرت. وفي شقة بالقرب منها تظهر حُجيرة ضيِّقة حيث كان يجلس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتلقى من الملاك جبرائيل سور القرآن الآتية من السماء، ويُدعى هذا المكان «قُبَّة الوحي».

مولد الإمام علي، يقع في الحي المدعو «شعب علي». وهو معبد صغير تظهر في أرضه حفرة تحدد البقعة التي يُقال أن علياً، ابن عم النبي محمد، قد وُلد عليها.

مولد سيدنا أبي بكر، وهو معبد صغير مقابل الحجر الذي كان يلقي على محمد تحية «السلام عليكم» كلما مرَّ بالقرب منه. ولا تظهر هنا أي بقعة مقدّسة، لكن أرضه قد فرشت بالسجاد الفارسي الأنيق.

لقد خضعت كل هذه الموالد لتصليحات كاملة منذ انسحاب الوهابيين، باستثناء مولد محمد، الذي كان الحرفيون ما يزالون يعملون فيه. وتشارك عدة عائلات مهمة في الوصاية على هذه الأمكنة، وخاصة من الأشراف الذين يحضرون كل بدوره مع مجموعة من الخدم. وقد نشرت مناديل بيضاء اللون أو سجاد صغير عند كل زاوية من تلك الأبنية حيث يُتوقع من الزوار رمي بعض المال. كما تصطف نساء على طول البوابات ويشغلن أماكنهن بالأسبقية ويتوقعن مساعدة من مال الحجاج. إن قيمة شِلِن موزَّعة في بارات Paras عند كل من الموالد تُحقّق بالكامل توقعات الجَشِع والفقير المعوز.

مولد أبي طالب في المعلى، وهو مهدم كلياً كما سبق أن ذكرت؛ وربما لن تتم إعادة بنائه.

قبر ستنا خديجة، زوجة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي هدَّم الوهابيون قبته ولم يُعَدْ بناؤها حتى الآن. يزوره الحجاج بانتظام خاصة صباح الجمعة. ويقع في المقبرة الكبيرة في المعلى عند منحدر السلسلة الغربية؛ وهو مُسيج بحائط مربع وليس فيه ما يثير الفضول باستثناء شاهدة القبر التي نُقش عليها بالأحرف الكوفية وتتضمن مقطعاً من القرآن مأخوذاً من آية الكرسي. وبما أن الأحرف ليست مكتوبة بالخط الكوفي القديم، فإني أشك في أن الحجر لم يكن مُعداً أساساً لتغطية هذا القبر، فليس هناك أي تاريخ في النقش. ولقد كان الشريف سُرور، وهو سلف غالب، من الغرور بحيث إنه طلب من عائلته وهو على فراش الموت دفن جثته بالقرب من قبر خديجة، في السياج نفسه، حيث لا يزال الآن. وعلى مسافة قصيرة من هنا، يبدو قبر آمنة، أم محمد صلى الله عليه وسلم، وقد غُطيّ ببلاطة من الرخام الجيد الأنيق نقش عليها بالخط الكوفي وبخط أقدم من الأول، وقد كسرها الوهابيون وأزالوا القطعتين للتعبير عن استيائهم وسخطهم من زيارة الأضرحة التي تحوي رُفات أموات، وهو أمر كان في تقديرهم ضرباً من الوثنية. وقد وجدتُ عند هذه القبور نساء سُمِحَ لهن بنشر مناديلهن لطلب الصدقات من كل زائر.

في أثناء سيري بين هذه المقابر الفسيحة، وجدت العديد من شواهد القبور وقد نُقش عليها بالخط الكوفي لكن ليس بأحرف قديمة جداً. ولم أستطع فك رموز أي تاريخ يعود إلى ما قبل

القرن السادس من الهجرة (الثاني عشر حسب تقويمنا)؛ لكن الأغلبية الساحقة منها قد احتوت على آيات وأدعية فحسب دون ذكر اسم الميت أو التاريخ. والقبور بشكل عام مؤلفة من أربعة أحجار كبيرة موضوعة في مربع مستطيل الشكل مع حجر عريض قد رُكّز عامودياً عند طرف من الأطراف ويحمل النقوش. ولم أر أي قبر ضخم أو شريط نُقش في الحجر أو أي من تلك الزينة المستعملة في أجزاء أخرى من آسيا. وقد رفعت أولى عائلات مكة أبنية صغيرة لتسييج قبور أقاربهم؛ وهي مبلّطة من الداخل لكنها دون سقف وقد بُنيت ببساطة شديدة. وفي اثنين أو ثلاثة من تلك القبور وجدتُ أشجاراً قد زُرعت تُروى من خزانات أقيمت ضمن السياج لتجميع مياه الأمطار، وهنا، تُمضي العائلات التي تخصها هذه القبور اليوم بأكمله. وهناك عدة أبنية، تعلوها القُبَب، دُفن فيها رجال اشتهروا بعلمهم، قد هدم الوهابيون قببها دون تمييز، غير أن هؤلاء المتعصّبين لم يمسوا أبداً القبور نفسها وكانوا في كل مكان يحترمون رُفات الأموات ويراعون حُرمتها. ومن بين القبور هناك أضرحة تعود لعدة باشوات سوريين ومصريين وقد بُنيت مع زخارف بسيطة.

عند طرف كل ضريح تقريباً، مقابل الحجر المنقوش أو الشاهدة، وجدتُ الجَنَبة الصغيرة المدعوة «الصَّبِر» وهي صنف من نبات الألَوة مزروعة في الأرض وهي دائمة الخضرة ولا تحتاج للكثير من الماء كما يوحي بذلك اسمها العربي «صَبِر»: فقد اختيرت لهذا الغرض إشارة إلى الصبر اللازم بانتظار البعث أو النشور. بشكل عام، إن هذه المقبرة هي في حالة متداعية ويقال أن السبب يعود إلى تخريب الوهابيين؛ ولكنني أرى أن السبب يعود أكثر ممّا يعود إلى الإهمال الذي يُظهره المكيّون فيما يتعلق بالقبور التي تحوي جثث أقاربهم وأصدقائهم.

والأماكن التي نزورها خارج المدينة هي:

جبل أبو قُبيس: إن هذا الجبل واحد من أعلى الجبال في المنطقة المجاورة مباشرة للمدينة، ويشرف عليها من الشرق. ويقول العُرف الإسلامي إنه كان أول جبل خُلق على الأرض ونجد اسمه في أعمال كل مؤرخ أو شاعر عربي تقريباً. وهناك بقعتان مختلفتان على قمته يزورهما الحجاج، تُدعى **الأولى**، «مكان الحجر»، حيث كان عمر، الذي تولى الخلافة فيما بعد، يدعو الناس إلى الصلاة في السنوات الأولى للإسلام، حين كان القرشيون أو سكان مكة، في أغلبيتهم الساحقة من الوثنيين. وتظهر هنا فجوة في الصخر تشبه قبراً صغيراً، يُقال إن الله، عند الطوفان، أمر الملائكة الحارسين بوضع الحجر الأسود فيها ـ وكان مقدساً قبل أن يبني إبراهيم الكعبة بفترة طويلة ـ وأن يجعلوا الصخر يلتئم فوقه حتى لا تمسّه المياه؛ ويُقال أيضاً أنه، بعد الطوفان، قسم الملاك جبرائيل الصخر ونقل الحجر إلى موقع الكعبة. والبقعة **الثانية**، للزيارة هي

عبر وادٍ ضيق، وعلى مسافة قصيرة من البقعة الأولى على قمة الجبل وتُدعى «مكان شق القمر»، أو المكان الذي انقسم فيه القمر ـ وهي إحدى المعجزات التي اجترحها محمد[1]. غير أن القصة الآن لا تُروى بشكل مختلف من المكيين الذين يقولون إنه حين كان محمد يصلي هنا في منتصف النهار، أتى المشككون من أهل قريش وأملوا منه أن يقنعهم في الحال، بمعجزة ما[2]، إن كان حقاً نبي الله. وقد أجابهم: «ماذا أفعل كي تؤمنوا بصدق؟»، فقالوا له: «اجعل الشمس تنكفىء ويظهر القمر والنجوم. اجعل القمر ينزل إلى الأرض ويأتي إلى هذا الجبل ويدخل إلى أحد أكمام عباءتك ويخرج من الآخر، ثم يعود إلى السماء، ومن ثم اجعل نور النهار يشع علينا من جديد». فاعتزل محمد وتوجه إلى الله بصلاة قصيرة فتحققت المعجزة بأكملها على الفور؛ اهتدى بعدها القريشيون إلى الإسلام. تلك الرواية وأخريات مماثلة التي يرويها المكيّون عن أماكن مختلفة بهدف انتزاع المال من الحجاج، لا تدعمها أو تؤيدها سنّة النبي الموثقة. ويأتي أهل مكة إلى هذا المكان حتى يتمتعوا بمنظر قمر رمضان الجديد والشهر الذي يتبعه. بين هذين المكانين، قليلاً إلى الشرق منهما، تقع أنقاض مبنى صلب ومتين لم يبق منه سوى بعض الجدران. ويُقال إنه كان في السابق سجناً حكومياً لشرفاء مكة، فيه عدة أبراج تشبه الزنزانات، وربما كان قصراً شيّد فوق جبل قُبيس بأمر من مكثر الهاشمي، أحد زعماء مكة، نحو سنة ٥٣٠ أو ٥٤٠هـ؛ أو ربما كان مسجداً يدعى «مسجد إبراهيم» الذي وُجد هنا في القرن السابع حسب تقويمنا، وفق ما أورده الأزرقي. وهناك اعتقاد عامي سائد في مكة بأن من يأكل رأس خروف مشوي فوق جبل قُبيس، سيُشفى إلى الأبد من أنواع الصداع كلها.

جبل النور. يقع هذا الجبل إلى الشمال من المدينة. بعد أن نمرّ بحديقة الشريف على الطريق نحو عرفات، قليلاً إلى الأمام، ندخل في وادٍ يمتد باتجاه الشمال الشرقي والشمالي وينتهي بالجبل المخروطي الشكل. وقد شُكّلت درجات في السابق في المرتفع الحاد لكنها الآن مهدمة؛ وقد استغرقنا الوصول إلى القمة ثلاثة أرباع الساعة وجهداً مضنياً مُنهكاً. وفي أرض مبنى صغير صخرية، هدّمه الوهابيون، يظهر صدع تقريباً بحجم رجل طولاً وعرضاً. ويُقال أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ، اكتأب وحزن من حزم أعدائه وإصرارهم وتردُّد أتباعه في مكة الذين أعلنوا أن الله قد تخلى عنه كلياً[؟!]، فاعتزل في هذا الجبل وتمدد في الصدع ملتمساً العون من

(١) معجزة «انشقاق القمر» حقيقة. وانتبه لكلمة [اجترحت] فهي تستخدم في السيئات غالباً!!

(٢) لقد دوّن المؤرخون أنه على وفق رغبة بعض أهل قري المشككين، جعل القمر يبدو وكأنه مقطوع إرباً، بحيث إن قسماً منه ظهر خلف جبل أبي قبيس والقسم الآخر في الجهة المعاكسة، فوق جبل قيقعان.

أعلى. وقد أُرسل إليه الملاك جبرائيل بهذه السورة القصيرة من القرآن التي ندعوها «الرابعة والتسعين»، وتبدأ بالكلمات التالية: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾؟ كما أن السورة السابقة لهذه تشير إلى حالته الكئيبة. وتحت هذا المكان بقليل هناك كهف صغير في صخر الغرانيت الأحمر الذي يشكل الطبقة العليا من هذا الجبل، ويُدعى «مغارة حراء»[1]. وهنا يُقال إن عدة آيات أخرى من القرآن أُنزلت إلى النبي الذي كثيراً ما كان يذهب إلى ذلك المكان المرتفع؛ لكن أياً من الحاضرين لم يقل لي أي مقاطع من القرآن كانت تلك. إن حرّاس هذين المكانين هو بدو من قبيلة لحيان.

لقد غادرتُ مكة سيراً على الأقدام مع مجموعة كبيرة من الحجاج لزيارة هذا المكان التي تتم عادة أيام السبت. وكنا على القمة قبل الفجر؛ وعندما بزغت الشمس تجلى لنا منظر واسع وشامل جداً إلى الشمال والغرب إذ إن الجهات الأخرى تحدها الجبال. وكان للمنطقة أمامنا طابع حزين وكئيب بحيث لا تظهر للعيان أي بقعة خضراء، فكل ما كان يتراءى للنظر تلال جرداء سوداء ورمادية وأودية بيضاء رملية. وعلى منحدر الجبل، على مسافة قليلة من القمة، هناك خزان حجري صغير بني ليزوِّد الزوار بالمياه. وقد كان جافاً حين رأيته وفي حالة سيئة.

جبل ثور ويقع على مسافة نحو ساعة ونصف الساعة جنوب مكة، إلى الجهة اليسرى من الطريق المؤدية إلى قرية الحسينية، وهو جبل شامخ ويرتفع أعلى من جبل النور، كما يُقال. وعلى قمته هناك كهف كبير لجأ إليه محمد وصديقه أبو بكر هرباً من المكيين قبل أن يهاجر إلى «المدينة». وقد نسج عنكبوت شبكته أمام المدخل، وبعد أن رأى مطاردوه ذلك، افترضوا بالطبع أن الفارين ليسوا في الداخل. إلى هذه المناسبة يلمّح القرآن في السورة التاسعة (التوبة) ولم أقم بزيارة المكان.

العُمرة لقد سبق وتكلّمت عن هذا المكان، فهو عبارة عن معبد صغير وصفّ منفرد من الأعمدة، يقع على الطريق إلى وادي فاطمة. تجب على كل حاج زيارته، ويُترك لخياره الشخصي فيما يتعلق بالأماكن التي سبق ذكرها. وتحيط بالعُمرة أنقاض منازل، وهناك بئر غزيرة بالقرب منه وترى آثار زراعة في الوادي وأعتقد أن البئر هي التي يدعوها مؤرخو مكة «بير تنعيم». وحسب المؤرح الفاسي، كان يقف هنا في العصور الأولى للإسلام مسجد يُدعى

(١) في زمن العرب الوثنيين كان هذا الجبل يدعى «جبل حراء»، وبإمكاني هنا أن أُضيف أن العديد من الجبال والأودية في الحجاز قد فقدت أسماءها القديمة. وقد أثبت ذلك ملاحظات الأزرقي الطوبوغرافية، ومؤرخو «المدينة» والزمخشري في كتابه القيم «المياه والجبال».

«مسجد أهليلجة». وسأختم وصفي لمكة بالانتقال إلى وصف افتتاح الكعبة، الذي أرجأته كي لا أُقاطع وصف المسجد.

تُفتح الكعبة ثلاث مرات في السنة فقط: في اليوم العشرين من شهر رمضان وفي الخامس عشر من ذي القعدة وفي العاشر من مُحرَّم (أو عاشوراء كما يدعوه العرب). ويتم الافتتاح بعد ساعة من شروق الشمس عندما يُسحب الدرج على عجلات إلى بوابة المبنى، وما إن تمسَّ الحائط حتى تتسارع الحشود فوقها وتملأ الكعبة كلها من الداخل في لحظات. ويصطفّ خصيان المسجد على الدرجات ويسعَوْن عبثاً للحفاظ على النظام فتهبط عصيّهم بشدة على أولئك الذين لا يرمون إكرامية في أيديهم؛ ومع ذلك فكثيراً ما يُسحق العديد من بين الحشود بلا رحمة. وفي الداخل على كل زائر أن يصلي ثماني ركعات أو يقوم بست عشرة سجدة؛ في كل زاوية منها ركعتين، لكن من السهل أن نتصوّر كيف تُؤدى هذه الصلوات، وأنه بينما ينحني أحدهم يمشي آخر فوقه(؟!). وبعد انتهاء الصلوات، على الزائر أن يتكيء على أي جزء من الحائط بيدين ممدودتين، ووجهه ملتصق به، وهكذا يُردِّد أدعية دينية. فيملأ الغرفة النشيج والعويل وأعتقد أني لاحظت أقوى المشاعر وأصدق الانفعالات القلبية المخلصة وتوبة صادقة لدى العديد من الزوار، وتُسمع الهتافات التالية وأخرى مشابهة، وقد تبللت وجوه عديدة بالدموع: «يا ربَّ البيت اغفر لي ولوالديَّ ولأبنائي! رب أدخلني في جنتك، وخلِّص رقبتي من نارك. يا رب البيت العتيق!». ولم أستطع البقاء أكثر من خمس دقائق، حيث كاد يُغمى عليَّ من شدة الحر وجُرَّ عدة أشخاص إلى الخارج بصعوبة وهم فاقدو الوعي.

عند المدخل، يجلس شريف حاملاً مفتاح الكعبة الفضيّ في يده التي يمدها إلى الحاج يقبّلها ويدفع لقاء ذلك رسماً عند خروجه. كما يُعطى المال أيضاً لخصيّ يجلس بجانب ذلك الشريف. ويتوقع كذلك بعض الخصيان على الدرجات وعدة موظفين بسطاء وخدّام على الأرضية التي تحيط بالكعبة، أن يدفع لهم الحجاج كذلك. وقد سمعت العديد من الحجاج ينتقدون بشدة وقسوة هذه الممارسة المشينة قائلين إن المكان الأكثر قدسية على الأرض لا يجب أن يكون مسرحاً للطمع والجشع الإنساني؛ إلاّ أن المكيين لا تهزهم مثل هذه التوبيخات.

تبقى الكعبة مفتوحة حتى الحادية عشرة تقريباً. وفي اليوم التالي تُفتح حصرياً للنساء، وبعد زيارة الكعبة، من الواجب تأدية الطواف حولها.

يتألف داخل الكعبة من قاعة واحدة يدعم سطحها عمودان وليس لها أي وسيلة للإضاءة إلاّ النور الذي يدخل من الباب. إن السقف والنصف العلوي من العمودين والجدران الجانبية، ضمن مساحة من الأرض تبلغ نحو خمس أقدام، قد زُيّنت بقماش سميك من الحرير الأحمر

المنسوج بأزهار ونقوش بأحرف كبيرة من الفضة، والجزء السفلي من كل عمود قد مُدَّ عليه خشب الألوة الجميل المنحوت؛ وذلك الجزء من الجدران أسفل القماش الحرير رُصف بالرُّخام الأبيض الجميل المزين بالنقوش البارزة، وزخرفات الأرابيسك الجميلة، والعمل برمته هو عبارة عن براعة مُتقنة. والأرضية التي هي فوق مستوى معين من الباب، وبالتالي ترتفع بنحو سبع أقدام عن مستوى منطقة المسجد، قد رُصفت بالرخام بألوان مختلفة. وقد علِّقت بين الأعمدة أعدادٌ من المصابيح وهي هبات من المؤمنين ويُقال أنها من الذهب الخالص؛ ولم يمسّها الوهابيون(١). وفي الزاوية الشمالية الغربية من الغرفة بوابة صغيرة تؤدي إلى السطح المنبسط للبناء. ولم أشاهد أي شيء آخر يستحق الملاحظة؛ لكن الغرفة شديدة الظلمة بحيث أنك تحتاج لبعض الوقت قبل أن تتمكن من رؤية أي شيء فيها. إن الزخارف الداخلية معاصرة لترميم الكعبة الذي تمَّ سنة ١٦٢٧م. ولم أتعرَّف أية شعائر مقدسة لغسل أرض الكعبة كما ذُكرت في «أسفار علي بيه العباسي». فقد رأيت الطواشيه يؤدون تلك المهمة بالطريقة نفسها التي تُغسل فيها الأرضية حولها؛ رغم أنه يبدو من تاريخ (الأعصمي) أن أرض الكعبة يغسلها أحياناً رجال ذوو شخصيات مهمة.

لا تشكل الزيارة إلى داخل الكعبة أي جزء من الواجب الديني للحاج، ويغادر العديد منهم مكة من غير رؤيتها(٢). وقد رأيتها مرتين؛ في الخامس عشر من ذي القعدة وفي العاشر من محرم. وفي المرة الثانية، كانت الستائر الجديدة المرسلة من القاهرة من قِبل محمد علي، مُعلَّقة: وكانت من القماش الفاخر جداً، مُحكمة النسيج وبنوعية وجودة تفوق فيهما الغطاء الأسود الخارجي. والستائر القديمة التي عُلِّقت لأكثر من عشرين عاماً كانت الآن تُباع علناً إلى المؤمنين بسعر يقارب الدولار الواحد لقطعة حجمها ستة إنشات مربَّعة. إن حقّ وهب تلك الستائر أو تقديمها كان محصوراً في شخص من يقدِّم الكسوة الخارجية، رغم أن الاستثناءات كانت أحياناً تحصل، كما في سنة ٨٦٥هـ حين أرسلَ الشاه رُخْ، ملك بلاد الفرس غطاءً خلاّباً للداخل(٣).

أمام البوابة التي تُدعى «باب السلام» فهناك متجر تُباع فيه باستمرار قطع من الأغطية الخارجية والداخلية للكعبة، وتلك الأخيرة تُثمَّن بقدر أكبر. وقد رأيت (صداري) مصنوعة منها، وهي تُعتبر بالطبع أكثر الدروع أماناً مما يمكن للمؤمن أن يرتديه. وتُباع في المتجر نفسه

(١) يروي قطب الدين أن شيوخ مكة سرقوا المصابيح الذهبية المعلقة في الكعبة وأخذوها بعيداً في أكمام عباءاتهم الواسعة. وقد أرسل السلطان سليمان العديد من المصابيح الذهبية إلى هنا(؟!).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ربما يقصد رؤية داخل الكعبة، فأما رؤية الكعبة فلا بدّ منها لأن الحاج يطوف طواف الوداع قبل مغادرته مكة.

رسومات عن مكة و«المدينة»، مصنوعة على الورق أو الكتان بأسلوب مزخرف جداً وفظّ، ومطبوعات صغيرة من الأدعية، إلخ. وقد حُفرت على الخشب. وقد اشتريتُ بعضاً منها للغرض نفسه الذي اشتريتُ من أجله مياه زمزم التي أخذتها من هنا.

ملاحظات حول سكان مكة وجدة

تسكن مكة وجدة الطبقة نفسها من الناس؛ كما تتشابه طباعهم وعاداتهم. وقد سبق وذكرتُ أن المكيين الأثرياء كلهم يملكون منازل في جدة، وأن المصالح التجارية هي نفسها في المدينتين.

بإمكاننا تصنيف سكان مكة كلهم أجانب أو من نسل أجانب، باستثناء بعض بدو الحجاز أو نسلهم الذين استوطنوا هنا. وقد أُبيدت تقريباً قبيلة قُريش القديمة التي انقسمت إلى فرع متجول وآخر مستقر. ولا يزال بعض بدو قريش يعيشون في الجوار؛ لكن المستوطنين من قريش، الذين كانوا سكان مكة في زمن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إما تمَّ تدميرهم وإما نزحوا نتيجة الحروب الأهلية المتكررة. في هذه الفترة، نجد في مكة ثلاث عائلات من قريش فقط، وهم متحدّرون من القبيلة القديمة التي تحمل هذا الاسم، وزعيم إحداها هو «النائب» أو الوصي على المسجد؛ والعائلتان الأخريان هما من الفقراء، المنخرطين كذلك في خدمته. غير أن المنطقة المجاورة لسوق جدة الكبير، ووصول أعداد هائلة من القافلات سنوياً، والبيت المقدس، قد جذبوا عدداً كافياً من الغرباء لسد مكان القريشيين. ويبقى بعض الحجاج في مكة عند كل موسم حج، فالمسلم عادة حين يقيم في مدينة ما لبعض الوقت، يتخذ زوجة فيميل بالتالي إلى الاستقرار بشكل نهائي في المنطقة. لهذا السبب، فإن معظم المكيين هم متحدِّرون من أجانب أتوا من أصقاع بعيدة من العالم، وتبنّوا العادات العربية، وأوجدوا من خلال تزاوجهم عِرقاً لا يمكن تمييزه الآن عن أهل شبه الجزيرة الأصليين. وبعد أن استفسرتُ من بعض مديري المتاجر والتجار والعلماء والمطوّفين، وأناساً من الأشكال والأنواع جميعها، اكتشفت أنهم أبناء أو أحفاد نسل أجنبي. والأكثر عدداً هم أولئك الذين أتى آباؤهم من اليمن وحضرموت، ويليهم في العدد المتحدرون من الهنود والمصريين والسوريين والمغربيين والأتراك. وهناك أيضاً مكيّون من

أصل فارسي والتتار والبخاريون والأكراد والأفغان.. أي بالاختصار من البلدان الإسلامية في العالم جميعها تقريباً. ويحرص المكي على الحفاظ على معرفة موطنه الأصلي كما هي العادة. وقد عزا دليلي الذي كان يُرافقني نسله إلى تتريّ أوزبكيّ من المنطقة المجاورة لبخارى، وكان كلما وصل حاج ما من تلك المنطقة، لا يتردد في عرض نفسه دليلاً له، رغم أنه يجهل تماماً لغتهم.

غير أن هناك فرعاً واحداً من أهل شبه الجزيرة القدماء الأصليين ما يزال في مكة،؛ هؤلاء هم الأشراف من أهل البلاد (وهم متميزون عن المتحدّرين من الشرفاء الغرباء الذين استقروا هنا) وهم ينسبون نسلهم إلى الحسن والحسين، أبناء فاطمة بنت محمد؛ وهو نسل يدّعيه كذلك لنفسهم الشرفاء الآخرون، لكن سُلالاتهم يفترض أن تكون أقل مصداقية. ويُشكل شرفاء مكة طبقة كبيرة لا يُقبل بدخولها لأي غريب. وهي تنتشر على أجزاء عديدة أخرى من شبه الجزيرة العربية. ولم أتعرّف بشكل تام تاريخهم أو الفترة التي بدأوا فيها بالتشعب في قبائل معيّنة؛ وأستطيع فقط أن أصرّح بأنهم يعترفون بالكثير من شرفاء اليمن وأجزاء أخرى من الحجاز على أنهم أقارب بعيدون؛ وهم منقسمون في الوقت الحاضر إلى عدة قبائل يُختار الشريف الحاكم من إحداها كما سأذكر لاحقاً. ويُلاحظ اختلاف في مكة في الاسم المعطى إلى الأشراف وذلك حسب مهنتهم. فأولئك المنخرطون في التعليم والقانون ويحتلون نوعاً ما مكاناً حول المسجد وملحقاته، يُدعون بلقب «سيد»، بينما أولئك الذين يصبحون جنوداً ويدخلون في الشؤون الحكومية، يُعرفون حصرياً بلقب «الشريف». ويقول المكيون إن الأسياد هم تابعو الدين، أما الشرفاء فهم جنود. ويتبع الابن عادة مهنة والده. وإن هؤلاء الأشراف من أهل البلاد هم زعماء المدينة، أو على الأقل كانوا كذلك قبل أن يكسر أنفتهم الاحتلال التركي.

على الرغم من أنهم شعب مختلط، فإن سكان مكة يرتدون الزي نفسه ولهم العادات نفسها كذلك. ورغم أنهم من أصل مختلف، فهم يبدون أقل تمسكاً بزيّهم الوطني وعاداتهم في هذه المدينة المقدسة منهم في أي مكان آخر. ففي سوريا ومصر، يحتفظ الغرباء من كل أنحاء آسيا بثوب بلادهم وبنمط الحياة فيها بأكبر قدر ممكن من الصرامة، رغم أنهم استقروا في مقراتهم الجديدة؛ وهو أمر يجعل مشهد السوق الشرقي أكثر متعة وبهجة من مشهد أي حشد كبير من الناس في أوروبا. في الحجاز، على العكس من ذلك، فإن أغلب الزوار الأجانب يبدّلون بزيهم الوطني زي شعب البلاد، كما ينشأ أولادهم الذين يولدون هناك ويتزيّون حسب طريقة المكيين. أما الهنود، كما سبق أن ذكرت في معرض حديثي عن جدة، فهم يشكلون

استثناء للقاعدة العامة؛ وهم جماعة متميزة ويحافظون على لغتهم الوطنية الأُصلية التي ينساها عادة أولاد الغرباء الآخرين الذين غالباً ما تكون أمهاتهم عربيات، من أهل مكة.

إن سُحنة أهل مكة وجدة بنية اللون وضاربة إلى الصُّفرة، وتكون فاتحة أو غامقة حسب أصل الأم التي تكون غالباً جارية حبشية. كما أن قسماتهم هي أقرب بكثير إلى قسمات البدو من قسمات أهل أية مدينة رأيتها في الشرق؛ ويُلاحظ ذلك خاصة عند الأشراف الذين وُهبوا سيماء وملامح وسيمة؛ فلديهم وجه البدوي وعينه وأنفه المعقوف لكنهم أكثر امتلاء. أما الطبقة الدنيا من المكيين فهم عامة بدينون مع أوصال نامية العضلات، في حين تتميز الطبقات الغنية بأشكالهم النحيلة الهزيلة، وينطبق ذلك على كل السكان الذين تعود جذورهم إلى الهند أو اليمن. إن البدو الذين يحيطون بمكة، رغم فقرهم، إلاّ أنهم يتمتعون بأجسام أكثر صلابة وبُنية أشد قوة من البدو الأثرياء داخل الصحراء، ربما لأن عاداتهم أقل تجوالاً وحركة ولأنهم يتعرضون أقل من أولئك للإجهاد الذي تسببه الرحلات الطويلة. والمكي بشكل عام تقريباً، أقل قوة وأصغر حجماً من السوري أو المصري إلاّ أنه يفوقه في القسمات المعبرة خاصة في الحيوية والبريق الذكي في عينيه.

إن الذكور من أهل البلاد في مكة وجدّة كلهم موشومون بعلامة معيّنة، ويقوم بذلك أهلهم حين يبلغون أربعين يوماً من العمر. والوشم عبارة عن ثلاثة نقوش طويلة ممتدة نزولاً على الخدّين، واثنين على الصّدغ الأيمن، حيث تبقى ندوبها التي تبلغ أحياناً ثلاثة أو أربعة خطوط عرضاً، مدى الحياة، وتُدعى «مشاله». ولا يتّبع البدو هذه العادة، لكن المكيين يعتزون بالتمييز الذي يحول دون أن يدّعي سكان الحجاز الآخرين من البلاد الأجنبية، شرف ولادتهم في المدن المقدّسة. ويُطبّق هذا الوشم أحياناً على الفتيات الصغيرات، رغم أن ذلك أمر نادر جداً. ولأهل بورنو، داخل إفريقية، علامة مماثلة على الخدين، رغم أنها أخفّ بكثير.

إن زي الطبقات الثرية، في الشتاء، هو عبارة عن ثوب Benish أو عباءة جوخ فوقية وجُبة، أو عباءة تحتية من القماش نفسه. كما يُلبَس الزي نفسه في أنحاء تركيا كلها. فضلاً عن عباءة حريرية مزخرفة مشدودة بوشاح من الكشمير الرقيق وعمامة من الموسلين الأبيض وخُفّان أصفران، يُشكّلان تتمة للثوب. ويرتدون بدلاً منه في فصل الصيف زياً مؤلفاً من قماش حريري بالغ الرقّة من صناعة هندية ويُدعى «مكترخانه».

أما الطبقات العليا مقاماً ومنزلة والتي تقلد الزيّ التركي و(موضته). فتعتمر قَلَنْسُوة حمراء مغربية تحت العمامة؛ تلك التي تعتمرها الطبقات الأُخرى هي من الكتان المطرّز بالحرير، وهي

من صنع نساء مكة وهي هدية شائعة من امرأة إلى حبيبها؛ وتُطرَّز في أعلاها أحياناً آيات من القرآن بأحرف كبيرة.

العباءات التي يرتديها الأنيقون من الطبقة الوسطى هي عامة من الموسلين الهندي الأبيض وتكون دون أي تبطين وتُدعى «بدن»، وتختلف عن «الأنتري» المشرقي الشائع كونها قصيرة جداً ودون أكمام وبالطبع أكثر برودة. وفوق «البدن» تُلبس جبة من القماش الرقيق أو القماش الحريري الهندي التي يرميها الرجل فوق كتفيه، في موسم الحر الشديد؛ فتكون حينها العباءة أو القميص التحتية غطاءه الوحيد. وتكون القمصان من الحرير الهندي أو الكتان المصري أو الأناضولي، وتكون بالجودة التي يستطيع تحمُّل كلفتها الشاري.

لا ترتدي الطبقات الدنيا عادة، على الأقل في فصل الصيف، إلاّ قميصاً، وعوضاً عن السروال، قطعة من التُّنكين الأصفر الهندي (قماش قطني متين) أو الكتّان المصري المخطط حول الخاصرة؛ ويرتدون فوق تلك في فصل الشتاء «بدناً» من الخام الهندي المخطط، لكن من غير حزام لشدّها حول الجسم.

وتنتعل الطبقات الدنيا والوسطى الصنادل بدل الأحذية في عادة تناسب تماماً هذا الجو الحار، إذ إنها تساهم في برودة القدمين. وتأتي أفضل الصنادل من اليمن حيث تبدو أنواع الصناعة الجلدية كلها في ازدهار.

يعتمر العديد من الناس في فصل الصيف، والهنود البسطاء كلهم، القلنسوة فقط دون العمامة. إن العمامة المعتادة هي من القماش القطني أو الكتّاني الهندي، أو من الموسلين، التي تلفُّها كل طبقة حول الرأس في شكل معيّن من الثنيات. وأولئك الذين يصنّفون أنفسهم علماء أو فقهاء، يتركون طرفها ليتدلّى في خط ضيّق إلى وسط ظهرهم. ويحافظ المكيون على نظافة ثوبهم أكثر من أي شعب شرقي عرفته يوماً. فبما أن الموسلين الأبيض أو الكتان الأبيض يشكّل الجزء الأساسي في لباسهم، فهو يتطلب غسيلاً متكرّراً، وهذا ما يتمّ بانتظام بحيث إن الطبقات الأشد فقراً تسعى إلى تبديل ثوبها مرة في الأسبوع على الأقل أيضاً. أما لدى الطبقات العليا والوسطى، فإن التبديل يتم طبعاً بشكل متكرر أكثر. كما يرتدي الثري ثوباً مختلفاً كل يوم، وليس غريباً أن يمتلك العديد ثلاثين أو أربعين ثوباً. إن أهل الحجاز يبتهجون بأثوابهم أكثر بكثير من المسلمين الشماليين؛ فينفق دخل الطبقات الدنيا في الأغلب على الثياب. وعندما يعود مكي من متجره إلى المنزل، أو حتى نزهة قصيرة في المدينة، يخلع ثيابه فوراً ويعلّقها على حبل مربوط عبر غرفة الجلوس وينزع عمامته ويبدّل قميصه ثم يجلس على سجادته وعلى رأسه قلنسوة خفيفة. وفي هذا الثوب المنزلي يستقبلون الزوار. ولكي نصوِّر أو نصِفَ مكياً بدقة، علينا

تصويره وهو جالس في ثوبه المنزلي قرب نافذته المشبَّكة البارزة، وقد حمل في يد نوعاً من المراوح تكون عادة بهذا الشكل وهي مصنوعة من سعف النخيل يطردُ بها الذباب، وفي اليد الأخرى، أنبوب غليونه الفارسي الطويل.

يظهر المكيون خلال أيام الأعياد الدينية، ولعهم بالثياب بدرجة أكبر بكثير؛ فمن الأكثر ثراء إلى الأشد فقراً وعوزاً، على كل شخص أن يكون حينها مرتدياً ثوباً جديداً، وإذا ما كان عاجزاً عن الشراء فإنه يقوم باستئجار واحد من التجار ليومين أو ثلاثة أيام. فيُنفقُ أحياناً في هذه المناسبات ما يعادل مائة ليرة لاستئجار ثوب ربما يبلغ ثمنه ألفاً وخمسمائة إلى ألفي ليرة ولا يرضى أحد حينها بثوب يلائم منزلته الاجتماعية، لكنه يرتدي ثوباً يوافق الطبقة الأرفع منه منزلة. فمدير المتجر العادي الذي يتجوّل السنة كلها بعباءته القصيرة ومنديل لُفَّ حول خاصرته، يظهر في العيد بعباءة زهرية اللون مخططة بالساتان وعمامة ذهبية مطرَّزة ووشاح من الحرير الفاخر المشغول بخيط فضي وخنجر معقوف معلَّق في وشاحه وقد غطّي غمدها بعملة فضية أو ذهبية. كما يرتدي الأولاد بالطريقة المكلفة نفسها؛ وقد يرضى شخص لنفسه بأن يدعى لصاً، ولكنه لا يسمح لمن هو في منزلته الاجتماعية نفسها بالتفُّوق عليه في الملابس والحُلي. والألوان المفضلة هي بشكل عام أكثرها زخرفة؛ وعلى العباءة الفوقية أن تكون دائماً بلون مُغاير للون الثوب تحتها. ونرى كذلك شالات الكشمير خلال الأعياد رغم أنها نادراً ما تظهر في أوقات أخرى من السنة إلاّ على النساء والأشراف المولعين بالحروب؛ إلاّ أن كل مكي لديه في أسهل الحالات أصنافاً منوّعة منها في خزانته. وبعد العيد، توضع الألبسة الفخمة جانباً ويعود كل واحد إلى حالته المألوفة في الملبس. ويحمل كل مكي من الراشدين عصا طويلة في يده، وهي تُدعى بين الطبقات السفلى «هروات». ولا نشاهد أبداً أي عالم بغير عصاه. ويخرج القليل من الأشخاص وهم مسلَّحون إلاّ بين الطبقات الدنيا أو الأشراف الذين يحملون خناجر معقوفة في أحزمتهم.

ترتدي نساء مكة وجدة عباءات من الحرير الهندي وبنطالاً فضفاضاً أزرق مخططاً يصل إلى الكعبين وقد طرّز في الأسفل بخيط فضي؛ ويرتدين فوقه العباءة الواسعة وتُدعى الحبرة وهي من القماش الحريري الأسود المستخدم في مصر وسوريا؛ أو ملاءة من الحرير المخطط بالأزرق والأبيض من صناعة هندية. ويحجبن وجوههن ببراقع بيضاء اللون أو زرقاء فاتحة؛ ويعتمرن على الرأس المغطّى بالملاءة قلنسوة مثل الرجال لُفَّ حولها قطعة من الموسلين الملوّن في

عدة ثنيات. ويُقال أن غطاء الرأس أقل زخرفة بالعملة الذهبية واللالىء والحُلي من الذي تعتمره السيدات في مصر وسوريا؛ إلاّ أنه، على الأقل، قد لُفَّ حوله خطٌّ من السَّكوين (عُملة)؛ ويلبس العديد منهن العقود الذهبية والأساور والخلاخل الفضية. وترتدي النساء الأقل ثراءً القميص المصري الأزرق وبنطالاً فضفاضاً كذلك الذي سبق ذكره وأساور من القرنيات أو الزجاج أو الكهرمان.

إن أطفال مكة ليسوا مدلّلين من أهلهم كما هي الحال في بلاد أخرى من الشرق؛ فما أن يتمكنوا من السير على أقدامهم بحرية، حتى يُسمح لهم باللعب في الشارع أمام المنزل وهم يرتدون ثياباً رقيقة جداً أو وهم بالأحرى نصف عُراة. لهذا السبب ربما هم أصلب بُنية وأسلم صحة من الأطفال الملفوفين في سوريا ومصر الذين غالباً ما يولَوْن عناية خانقة تكاد تقتلهم.

قليلة هي العائلات المكية المتوسطة الحال التي لا تقتني عبيداً. وقد وجد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجارة الرقيق الإفريقية شديدة الرسوخ في شبه الجزيرة بحيث إنه لم يبذل جهداً لإلغائها[1]. وهكذا فقد عزَّز هذه التجارة عبر إفريقية الشمالية ونشرها، مع ما يصاحبها من قسوة ووحشية، إلى جانب البلاد التي اعتنقت الإسلام. والخدم من الذكور والإناث هم عبيد أو من النوبة يُحضرون عادة من السواقين؛ والمحظيات هن دائماً عبدات حبشيات. وليس هناك من مكي ثري يفضّل السلام والهدوء المنزلي على إشباع أهوائه؛ فالكل يحتفظ بجوارٍ إلى جانب زوجاتهم الرسميات. لكن، إذا ما أنجبت الجارية ولداً، يقوم السيد عادة بالزواج منها، أو، إذا ما فشل في القيام بذلك، فإنه يتلقى اللوم والتقريع من المجتمع. إن اقتناء الجواري الحبشيات لا يزال أكثر شيوعاً في جدة، فالعديد من المكيين ليس لديهم سوى زوجات حبشيات بعد أن ألفوا العربيات أعلى كلفة وأقل استعداداً للرضوخ لإرادة أزواجهن. ويتّبع العديد من الأجانب العادة نفسها ممن يقيمون في الحجاز لفترة قصيرة. فعند وصولهم يشترون وصيفة بنيّة بيعها عند رحيلهم؛ لكن أحياناً تطول مدة إقامتهم، وتحمل الجارية بطفل فيتزوجون منها ويصبحون مستقرين في المدينة. وقليلون هم الرجال غير المتزوجين أو ممن لا يملكون جارية. وهو بالفعل أمر شائع وعام في الشرق لكن ما من مكان يفوق مكة في ذلك. إن الامتزاج بالدم الحبشي قد أعطى بلا شك المكيين تلك السحنة الصفراء للبشرة والتي تميّزهم عن أهالي الصحراء الأصليين.

إن بيع جارية يُعتبر أمراً معيباً بين الطبقات الأكثر ثراءً. وإذا ما حملت بطفل ولم يكن لسيدها بعد أربع زوجات شرعيات، فإنه يتزوج منها؛ وإن لم يكن الحال كذلك، فهي تبقى في

---

(١) هذا كلام يدل على جهل المؤلف أو حقده وتحامله.. لأن كتب الحديث مليئة بالأحاديث الشريفة عن التشجيع والحث على تحرير الأرقاء. ولم يحدث أن عزز الرسول والمسلمون عامة تجارة العبيد ونشرها.

منزله مدى الحياة. ويتزايد عدد الجواري في بعض الأحيان ليبلغ العشرات، من المسنّات والشابات. وليس لدى الطبقتين الدنيا والوسطى في مكة مثل ذلك الوازع الموجود عند الطبقات الأرفع منزلة، فهم يشترون الحبشيات الشابات بالمضاربة، ويربونهن في منازل العائلة ويُعلمونهن الطبخ والحياكة، الخ، ثم يبيعونهن للأجانب بشيء من الربح، أو يبيعون من يثبت أنهن عاقرات على الأقل. وقد خبرت من أطباء وحلاقين وتجار أدوية أن عمليات الإجهاض غالباً ما تحدث، والدواء الشائع الاستعمال لهذا الغرض هو بذر الشجرة التي تنتج بلسم مكة. ولا يفرّق المكيون أبداً بين الأولاد الذين تنجبهم الجواري الحبشيات وأولئك الذين تنجبهم النساء العربيات الحرائر.

ليس لدى سكان مكة سوى نوعين من الأعمال وهما التجارة وخدمة بيت الله أو المسجد. لكن الأولى تتمتع بالأفضلية. وقليلون هم العلماء أو الأشخاص العاملون في المسجد الذين لا يمارسون بعض الأعمال التجارية رغم أنهم أكثر كبرياء من أن يجهروا بذلك علناً. وقد لاحظ القارىء ربما في وصف مكة السابق قلة الحرفيين العاملين في شوارعها كالبنائين والنجارين والخياطين وصانعي الأحذية والحدّادين، الخ وهؤلاء هم أقل مهارة من الطبقة نفسها في مصر. وباستثناء صناعة الفخار والمصابغ، ليس لدى المكيين أي صناعة. لكنهم كشعب جدة، يعتمدون على البلدان الأخرى لتزويدهم بالحوائج. وهكذا، ففي مكة درجة عالية من التجارة الخارجية التي تُمارس بشكل أساسي خلال الحج وفي الأشهر القليلة التي تسبقُهُ. يقوم بها الحجاج الأثرياء الذين يُحضرون من كل بلد مسلم صناعاته الوطنية إلى جدة، إما عبر البحر أو عبر الصحراء من دمشق فيتبادلونها بين بعضهم بعضاً؛ أو يتلقون من تجار مكة السلع المصنوعة في الهند أو في شبه الجزيرة العربية التي كانت قد كدَّست سلعها في المخازن طوال السنة. في هذه الفترة، تصبح مكة إحدى أكبر الأسواق الموسمية في الشرق وأكثرها أهمية بالطبع بسبب الشعوب المختلفة والمتنوعة التي ترتادها. وتفوق قيمة الصادرات من مكة قيمة الواردات بدرجات وتتطلب إقامة التوازن بينهما مبلغاً هاماً من المال، بالدولار والسّكوين. يجد جزء منها طريقه إلى اليمن والهند ويبقى نحو الربع في أيدي المكيين. إن هذه التجارة مربحة جداً بحيث إن السلع التي يشتريها التجار في جدة، والتي يأخذونها من السفن التي تصل إلى هناك من الهند تعطيهم ربحاً صافياً يبلغ عشرين أو ثلاثين في المئة حين يبيعونها بالجملة في مكة خلال موسم الحج، وخمسين في المئة حين تُباع تلك السلع بالتجزئة. فليس غريباً بالتالي أن يكون أهل مكة كلهم من التجار. إن كل من يستطيع جمع بضع مئات من الدولارات، يذهب إلى جدة فيشتري سلعاً يعرضها للبيع خلال موسم الحج. كما يتم جني أرباح كبيرة بالاحتيال، فعدد كبير من الحجاج يجهلون اللغة العربية فيقعون بالتالي في أيدي السماسرة أو المترجمين الذين لا

يعجزون عن جعلهم يدفعون غالياً لقاء خدماتهم؛ حيث إن مكة بمجملها تبدو فعلاً متحدة في مشروع غش الحجاج(؟!!)[1].

في السابق، حين كانت القافلات تتمتع بالأمن والحماية على الطريق، كانت السلع تُنقل بشكل أساسي عن طريق البر إلى مكة، لكن في الوقت الحاضر، قلما يُعرِّض التجار بضاعتهم للمخاطر الكامنة في المرور عبر الصحراء، فهم يفضّلون إضاعة فرصة استيرادها إلى مكة معفيّة من الرسوم الجمركية، وهي حسنة كبيرة تتمتّع بها القوافل، ويقومون بنقلها عبر البحر إلى جدة، وهي الطريق التي يدفع من خلالها كل حجاج إفريقية وتركيا ضريبة مضاعفة. وحين تصل إلى مصر وإلى جدة مرة أخرى؛ يقبض محمد علي الضريبتين. ولذلك فإن التجارة البسيطة فقط هي التي تُنقل في الوقت الحاضر في القوافل التي تسبق موسم الحج حين يصل تجار أجانب عن طريق جدة ولديهم الوقت الكافي لتسوية أعمالهم قبل أن يبدأ موسم الحج.

في وقت السلام الداخلي، تزدهر تجارة هامة مع البدو وخاصة مع سكان مدن منطقة «نجد» الذين يطلبون السلع الهندية والأدوية والألبسة التي يُحضرونها إما من «المدينة» وإما من مكة بسعر أقل. والقهوة التي تُستهلك بكثرة في الصحراء، يستوردها أهل «نجد» أنفسهم الذين يرسلون قوافلهم الخاصة إلى بلاد القهوة إلى اليمن.

إن المكيين، وخاصة من لم يكن منهم ثرياً بما يكفي ليتّجر بالسلع الهندية (التي تتطلّب قدراً كبيراً من المال الجاهز للدفع، وأحياناً تبقى من غير أن تُباع لوقت طويل) يوظّفون رأس مالهم خلال الفترة الفاصلة بين مواسم الحج، في تجارة الذرة والمؤن. وقد كان ذلك مربحاً في السابق أكثر منه في الوقت الحاضر؛ إذ إن محمد علي قد قام باحتكار هذه السلع فأصبح الناس الآن مضطرين لشراء الحبوب في جدة بالسعر الذي يفرضه الباشا والاكتفاء بربح بسيط عند إعادة بيعها في مكة. غير أنها، بعد دفع رسوم الشحن، تظل تدرُّ ربحاً يعادل خمسة عشر أو عشرين في المئة، وهو ضرب من التجارة يجذب رؤوس الأموال الصغيرة بشكل غريب. فالأسعار في تغيُّر مستمر فتصبح اللعبة لعبة حظ يمكن أن يتضاعف المال من خلالها في وقت قصير.

عند اقتراب موسم الحج، ترتفع أسعار المؤن كلها بأنواعها المختلفة؛ والسلع التجارية كلها كذلك لكن بنسبة أقل. وأولئك الذين يملكون مخازن ملأى بالذرة والأرز والبسكويت متأكدون من جني الأرباح الكبيرة. إن تأمين الطعام، خلال الإقامة في المدينة، لدفق من الشعوب يبلغ ستين ألف إنسان وعشرين ألفاً من الجمال، فضلاً عن المؤن لرحلة عودتهم إلى بلادهم ليست مسألة تتطلب وقتاً قصيراً. ولم يغامر محمد علي حتى الآن بالسيطرة على كل

(١) أكثر عبارات الإساءة وجهها المؤلف حتى الآن هي لمكة وسكانها، فتدبر..!

ذلك. كما أن كل مكي يمتلك بضعة دولارات يُنفقها في شراء نوع ما من المؤن التي ينقلها على ظهر حماره من جدة إلى مكة حين يدنو موسم الحج.

كلما تمّ فتح داخل شبه الجزيرة في وجه القوافل، قام البدو من المناطق كلها المحيطة بشراء مؤونتهم السنوية من الحنطة من مكة التي تحصل كذلك في زمن السلم على كمية كبيرة من الحنطة من اليمن وخاصة من المقوع، وهي مدينة تبعد مسافة عشرة أيام على السفح الغربي لسلسلة الجبال الكبيرة، وهي سوق العرب الذين يزرعون تلك الجبال. وقد سمعتُ أن الواردات من تلك المدينة بلغت نصف متطلبات مكة، لكن ذلك يبدو غير دقيق، رغم أني لا أملك الوسائل التي تساعدني لتكوين تقدير صحيح، لأن الطريق غير سالكة حالياً، وتتلقى مكة مؤونها بالكامل من جدة. بإمكاننا القول إن استهلاك الحبوب هو أهم شأناً في شبه الجزيرة منه في أي من البلاد المحيطة؛ لأن الجزء الرئيسي من الشعب يعيش بالكامل تقريباً على القمح والشعير والعدس والأرز ولا يستهلك الخضراوات، بل كمية كبيرة من الزبدة.

من الصعب، إذا لم يكن مستحيلاً، على أي كان الحصول على تفاصيل دقيقة عن مثل هذه التجارة الواسعة الانتشار كتلك التي تُمارس في مكة، إلاّ إذا كان المرء يتعاطى بنفسه الأعمال التجارية أو له صديق ذكي من بين تجار الجملة. لذلك، فإني سأمتنع عن تقديم أي ملاحظات جزئية وبالتالي غير صحيحة عن فروعها المختلفة التي لستُ على اطّلاع أو معرفة دقيقة بها والتي لم أجد أحداً في مكة بإمكانه شرحها لي وتوضيحها.

من الطبيعي الافتراض أن مكة مدينة غنية، وكان من شأنها أن تصبح أكثر غنىً لو أن الطبقات الدنيا لم تُنفق أرباحها بهذه السرعة في إشباع رغباتها الذاتية. إن تجار الجملة أثرياء، وبما أن كامل أعمالهم تتم لقاء المال الجاهز للدفع، فهم أقل عرضة للخسائر من التجار الشرقيين الآخرين. ويملك معظمهم مؤسسة في جدة. كما أن تجارة المدينتين مترابطة بشدة.

خلال حكم الوهابيين، كان داخل شبه الجزيرة مفتوحاً في وجه مكة؛ لكن الواردات الأجنبية عبر البحر والبر قد قلّصت إلى ما كان ضرورياً لاستهلاك السكان. كما أن سوق موسم الحج الكبيرة لم تعد تُقام. ورغم أن بعض الحجاج الأجانب استمروا في زيارة المدينة المقدسة، غير أنهم امتنعوا عن تعريض سلعهم لاحتمال استيلاء الوهابيين عليها. في ظل هذه الظروف، انتفى الدافع والباعث الرئيسي الذي يُبقي المكيين في المدينة، وأعني به أرباحهم غير المنقطعة. وكان الثري ينتظر تجديد وصول قوافل الحج؛ لكن العديد من الفقراء غير القادرين على إيجاد مورد رزق لهم، انسحبوا من مكة واستقروا في جدة أو مرافىء أخرى على البحر الأحمر؛ حيث تبعهم العديد من التجار المرموقين.

تُمارس التجارة بوساطة السماسرة والعديد منهم هنود. إن مجتمع الهنود هو بشكل عام الأكثر ثراءً في مكة، وهم على اتصال مباشر مع كل المرافىء في الهند وكثيراً ما يستطيعون تكبُّد البيع بسعر أقل من منافسيهم. والعديد منهم، كما سبق أن ذكرت، مستقرون هنا بينما هناك آخرون يسافرون باستمرار ذهاباً وإياباً بين الهند والحجاز. ويُحافظون كلهم على لغتهم الوطنية التي يُعلّمونها لأولادهم وكذلك لعدة تجار في مكة بشكل سطحي كي يتمكن معظمهم فهم الأعداد الهندية، أو الهندستانية، على الأقل، والجُمل الأكثر شيوعاً التي تُستعمل في عمليات البيع والشراء. ويجهد الهنود في ظل صعوبات كبيرة جمة في تعلم اللغة العربية؛ ولم أسمع أبداً أياً منهم، مهما كانت مدة إقامته في الحجاز طويلة، يتكلّمها بلكنة مقبولة. فهم في هذا الصدد أدنى درجة من الأتراك. والذين وُلدوا في مكة يتكلمون اللغة العربية طبعاً كلغتهم الأم. كما أن للهنود عادة كتابة اللغة العربية بأحرف هندية.

ويُقال أنهم شديدو البخل إلى حد بعيد. ومما رأيتُ منهم في بيوت بعض تجارهم الأوائل، يبدو لي أنهم يستحقون الصفة هذه. وهم تجار دُهاة ويتفوقون في ذلك أحياناً حتى على العرب. وهم جديرون بالازدراء من حاجتهم إلى الإحسان؛ إلاّ أنهم يُظهرون بين أنفسهم أسلوباً جريئاً شجاعاً يجعل منهم محترمين وحتى أحياناً مرهوبين في مكة. ولدى العديد منهم شركاء في الهند؛ وهكذا فهم يحصلون على سلعهم بثمن أرخص مما يمكن شراؤه من السفن الهندية في جدة. هكذا، فإن التجار ومديري المتاجر الصِّغار في مكة كثيراً ما يرون شراء السلع منهم بقرض قصير الأمد مناسباً أكثر، من الذهاب إلى جدة حيث يجب دفع المال نقداً لشراء كل شيء. وباستثناء واحد أو اثنين، فإن أياً من تجار شبه الجزيرة في مكة لا يتلقى سلعه مباشرة من الهند لكنهم يشترونها من السفن الهندية. ومن بين كل الناس في مكة، ما من أحد أشد صرامة في تأدية شعائره الدينية من الهنود.

حين يتفاوض تاجران بحضور آخرين ممن يرغبان في إخفاء أعمالهما عنهم، يعمدون إلى جمع يديهما اليُمنيين تحت زاوية عباءة أو كُمّ أحد الطرفين؛ وبلمس مفاصل الأصابع المختلفة، يحددون الأرقام، وهكذا يُتمّون صفقتهم بصمت.

إن المكيين الذين لا يمارسون التجارة علانية، هم ملتحقون بالحكومة أو بالمسجد، لكن، كما سبق أن قلت، فهم يدخلون، نوعاً ما، في فرع من فروع التجارة، كما يتطلّع الشعب بأكمله قُدُماً إلى فترة الحج مصدراً لدخلهم.

يتقاضى الأشخاص الملتحقون بالمسجد مرتبات منتظمة، ويأخذون حصة من الهدايا العامة التي تُقدّم له، ويتوقّعون هبات خاصة من المؤمنين المحسنين كما يشاركون في المرتّبات التي

تحضرها القوافل السورية والمصرية. وتُدعى هذه المرتّبات «الصُرة» (التي قدمتُ عنها وصفاً)، وهي تستقي جذورها خاصة من سلاطين القسطنطينية «استانبول» الذين يقومون، عند اعتلائهم العرش، بتحديد مبلغ سنوي معيّن لدعم الفقراء وأفاضل مكة و«المدينة». ويوزّع القاضي هذا المبلغ كما يراه مناسباً في المدينتين؛ لكن إذا ما مُنح شخص ما معاشاً مرة، فهو يستفيد ويُدرج اسمه في سجل في مكة تُرسل عنه نسخة سنوياً إلى القسطنطينية، حيث يُدرج اسمه في كتاب الصرّة العام. وتُعدُّ الصرة في القسطنطينية في عدد كبير من الرُزَم الصغيرة وتحتوي كل واحدة منها المبلغ المقرر وتُظهّر باسم الشخص الموجهة إليه. وإذا ما أُرسل مبلغ جديد لتوزيعه، يقسّمه القاضي ويُعلم مراقب الصرّة في القسطنطينية بأسماء من أُعطي لهم هذا المال. وفي السنة التالية تُضاف الرزم الإضافية الموجهّة إلى المستفيدين الجُدد، إلى الرقم السابق. ويأتي بعض الصرر من مصر، ولكل الأغلبية الساحقة تأتي من القسطنطينية عبر سوريا، وهي تصل بشكل منتظم جداً. ولكل قافلة كاتب صرّة خاص بها وتقوم مهمّته كذلك على توزيع المبالغ الأخرى كلها، أو الإتاوات التي تدفعها القوافل للبدو والعرب، في طريقها إلى مكة.

تُوزَّع الصرّة الخاصة بمكة في المسجد تحت نوافذ منزل القاضي بعد رحيل الحجاج. وهناك أشخاص يتلقّون مبالغ زهيدة جداً قد تبلغ ليرة واحدة، والمبلغ الأكبر هو من عشر إلى عشرين ليرة، لكن هناك عدداً قليلاً من العائلات التي تتلقى ما يصل إلى الألفي ليرة سنوياً. ورغم أنها لا تُمنح دائماً لمن يستحقها أكثر من غيره فهناك العديد من العائلات المعوزة التي تتلقى الدعم من هذه المخصصات. وبالإمكان تحويل هذه البطاقات بحيث يستفيد منها الغير، ولكن يجب أن يوقّع القاضي والشريف على التحويل؛ ويُسجّل الاسم الجديد، فيُعطى ملحق صغير لكتاب القاضي ويُرسل إلى القسطنطينية. نادراً ما كان المكيُّ في السابق يميل إلى بيع صُرّته التي يعتبرها شرفاً كذلك وموردا ثابتاً أكيداً لعائلته. إلاّ أن قيمة الصرّة قد تغيّرت كثيراً. وفي ظل الوهابيين، فقدت البطاقات كلها تقريباً قيمتها إذ إن حامليها لم يتلقوا أي مبلغ لثماني سنوات. وقد استعادت شيئاً من قيمتها الآن؛ لكنَّ بعضها قد بيع مؤخراً لقاء قيمتها لسنتين ونصف، مما يعطي فكرة عن الرأي السائد في مكة حول مدى استقرار الحكومة التركية ورسوخها أو احتمال عودة الوهابيين.

يتخذ مهنة المطوّف أو الدليل أكسل الأشخاص في مكة وأكثرهم فساداً وخِسة ووقاحة[1]؛ وبما أنه ليس هناك نقص في تلك الصفات وهناك طلبٌ على المطوّفين من خلال موسم الحج، فهم كثيرو العدد. فضلاً عن الأماكن التي وصفتها في المدينة، يُرافق المطوّف الحاج إلى كل

(١) ليس أكثر فساداً وخسة ووقاحة من هذا المؤلف الدّعي.

الأماكن الأخرى التي يتم ارتيادها في المنطقة المقدّسة وهم مستعدون لتأدية أي نوع من الخدمات في المدينة. إلاّ أن المنفعة المتأتية منهم يوازيها، لا بل يتخطاها ويطغى عليها إزعاجهم ومكرهم. فهم يطوّقون غرفة الحاج من طلوع الشمس وحتى غروبها ولا يسمحون له بالقيام بأي شيء دون إقحام نصائحهم ويجالسونه خلال الفطور والغداء والعشاء ويدفعونه إلى كل المصاريف الممكنة التي يستطيعون أن يأخذوا حصة منها ولا يفوّتون فرصة ليطلبوا المال منه؛ والويل للتركي المسكين الجاهل الذي يوظّفهم مترجمين له في أي عمل تجاري. لقد كان دليلي الأول هو الرجل الذي سكنتُ في منزله خلال آخر أيام رمضان. وعند عودتي إلى مكة مرة ثانية، قابلته في الشارع لسوء الحظ، ورغم أن ترحيبي برؤيته كان أبعد ما يكون عن الحرارة لأن لديَّ الأسباب الكافية التي تدفعني إلى الشك في نزاهته، فقد عانقني بشغف وجعل من منزله على الفور مقراً لسكني الجديد. وقد رافقني في البداية كل يوم في طوافي حول الكعبة لتلاوة الأدعية التي تؤدَّى في تلك المناسبة والتي سرعان ما حفظتها غيباً واستغنيت بالتالي عن خدماته عند الاقتضاء. وكان يجلس معي بانتظام على العشاء، وغالباً ما كان يأتي بسلة صغيرة ويأمر عبدي بأن يملأها له بالبسكويت واللحم والخضار أو الفاكهة ثم يأخذها معه. وكان كل ثلاثة أو أربعة أيام يطلب المال قائلاً: «لست أنت من يعطيني إياه، بل إن الله يُرسله لي». وبعد أن عجزت عن إيجاد أي وسيلة لائقة للتخلص منه، قلت له بصراحة إني لم أعد في حاجة إلى خدماته؛ وهي لغة لم يعتد عليها دليل في مكة. لكن، بعد ثلاثة أيام، عاد وكأن شيئاً لم يكن وطلب مني دولاراً، فأجبته بأن «الله لا يحرّكني أو يدفعني لكي أعطيك أي شيء؛ فلو رأى ذلك صحيحاً لكان حنَّن قلبي وجعلني أعطيك محفظتي كلها». فقال: «فلتنتف لحيتي إن لم يرسل لك الله أضعاف ما أطلبه منك». فأجبته: «إسحب كل شعرة فيَّ إذا كنتُ سأعطيك «بارة» واحدة، حتى أقتنع أن الله سيعتبر ذلك عملاً مثاباً». عند سماعه ذلك، وثب واقفاً وابتعد قائلاً: «نعوذ بالله من قلوب المتكبرين وأيدي البخلاء». إن هؤلاء الأشخاص لا يتفوّهون بعشر كلمات أبداً دون أن يلفظوا اسم الله أو محمد؛ فتراهم دائماً والسُّبحة في أيديهم ويُتمتمون بالأدعية حتى في أثناء حديثهم. إن مواصفات المطوّفين هذه تُطبق إلى حد بعيد على أهل مكة بشكل عام، حيث إنهم يستعملون في القاهرة المثل التالي لكبح إزعاج المتسوّلين الوقحين: «أنت كالمكي، تقول أعطني، وأنا سيدك».

وبما أني كنتُ مُجبراً على الحصول على دليل، قمتُ باستخدام رجلٍ مسن من أصلٍ تتري وبما أني عقدت معه معاهدة منذ البداية فقد كنت مقتنعاً نوعاً ما بأدائه. لقد بلغ مجموع ما دفعته للمطوّفين، وفي أماكن الزيارات المقدسة ثلاثمائة وخمسين ليرة تقريباً؛ غير أني لم أقدّم الهدايا، لا للمسجد ولا لأي من موظفيه وهذا ما يفعله فقط الحجاج الكبار أو أولئك الذين

يرغبون في لفت الانتباه إليهم. لقد تمركز بعض المطوِّفين باستمرار قرب الكعبة ينتظرون استخدامهم للطواف حولها؛ وهم عندما يرون حاجاً يسير وحيداً، يمسكون بيده، دون أن يُطلبَ منهم ذلك غالباً، ويبدأون بتلاوة الأدعية. تبلغ كلفة هذه الخدمة نحو نصف ليرة، وقد رأيتهم يتفاوضون مع الحجاج تماماً عند بوابة الكعبة على مسمع من الجميع. ويكتفي المطوِّفون الأكثرون فقراً بربع ليرة. كما يُرسل العديد من مديري المتاجر والناس من الطبقة الثالثة أبناءهم الذين يعرفون الأدعية غيباً، إلى هذا الموقع ليتعلّموا مهمة الدليل. ويجني أولئك الذين يعرفون اللغة التركية أجوراً مرتفعة. وبما أن الحجاج الأتراك يأتون عادة عن طريق جدة في مجموعات من ثمانية إلى اثني عشر شخصاً قد غادروا منازلهم في جماعات ويعيشون سوية في مكة، يتكفّل دليل واحد بشكل عام بالمجموعة بكاملها فيتوقع أجراً يتناسب مع عددهم. ويحدث أحياناً أن يقوم الحجاج عند عودتهم إلى ديارهم بتزكيته إلى مجموعة أخرى من مواطنيهم الذين يطلبون منه عند وصولهم إلى جدة أن يؤمن لهم المساكن في مكة وأن يُلاقيهم في جدة وأن يُشرف على رحلتهم القصيرة إلى المدينة المقدسة لإرشادهم في الأدعية الواجبة عند الدخول إليها مباشرة، وقد رأيتهم على الطريق المؤدية إلى مكة يمشون على رأس المجموعة التي تُعاملهم باحترام كبير ولُطف وتهذيب. فإن تركياً من أوروبا، أو آسيا الصغرى، لا يُتقن كلمة واحدة من اللغة العربية، يُسعده جداً إيجاد عربي طلق اللّسان يتكلم لغته ويَعدُه بتأمين وسائل الراحة كلها له في مكة، التي قيل له أن لا شيء ينتظره فيها سوى الخطر والتعب(؟!). ويجني الدليل الذي يأخذ على عاتقه الاهتمام بمجموعة من اثني عشر حاجاً تركياً لمدة شهر واحد، ما يكفي لمصاريف منزله خلال السنة بكاملها، هذا إلى جانب ألبسة جديدة له ولأولاده كلهم.

بعض هؤلاء المطوفين لديهم مهنة فريدة جداً: فالشّرع الإسلامي يقضي بأن أي امرأة غير متزوجة لا تستطيع تأدية الحج[1]، وحتى المرأة المتزوجة يجب أن تكون برفقة زوجها، أو على الأقل أحد أقربائها المباشرين (المذهب الشافعي لا يسمح حتى بالشرط الأخير). وتصل أحياناً نسوة من تركيا لتأدية الحج، وهنَّ أرامل مُسنات وثريات ممن يرغبن في رؤية مكة قبل أن يُسلمنَ الروح؛ أو نساء بدأن الرحلة مع أزواجهن وفقدنهم على الطريق بفعل المرض. ففي هذه الحالات، تجد المرأة في جدة مطوِّفين (أو كما تُسمى تلك الفئة، مُحلِّلين) مستعدين لتسهيل تقدّمهن عبر المنطقة المقدّسة بصفة أزواجهن. ويُكتب عقد الزواج أمام القاضي. فتقوم المرأة حينها، يرافقها دليلها بتأدية الحج إلى مكة وعرفات والأماكن المقدسة كلها. غير أن هذا الزواج يُعتبر زواجاً اسمياً فقط؛ وعلى الدليل أن يُطلّق المرأة عند عودته إلى جدة. أما إذا ما رفض

(١) هذا الكلام يدل على جهل المؤلف بالشرع الإسلامي أو على كذبه.

الطلاق فلا يستطيع القانون إكراهه على ذلك ويُعتبر الزواج عندئذٍ مُلزماً، غير أنه لا يعود بإمكانه ممارسة عمل الدليل المربح. ولم يستطع من روى لي ذلك إلاّ تذكّر مثالين عن الإبقاء على هذا الزواج. وأعتقد أن الرقم غير مبالغ فيه إذا ما قُلنا إن هناك ثمانمئة دليل راشد إلى جانب الصّبية الذين يتعلمون المهنة. فكلما فقد صاحب متجر زبائنه أو رغب رجل من المثقفين الفقراء في جني قدر من المال يعادل ما يجنيه عبد حبشي، فإنه يتحول إلى مهنة الدليل. ولا تتمتع هذه المهنة بالسمعة الحسنة إلاّ قليلاً؛ لكن العديد من المكيين الأثرياء كانوا في فترة ما من حياتهم أعضاء فيها.

إن الثروات التي تتدفق إلى مكة من التجارة والرواتب والأرباح التي تأتي من الحجاج، طائلة جداً وكان من شأنها أن تجعل من مكة مدينة من أغنى المدن في الشرق، لولا عادات سكانها المتّسمة بالفُسق والانغماس في الملذات، وباستثناء الطبقة الأولى من التجار الذين يعيشون عامة تحت مستوى مدخولهم رغم أنهم يملكون مؤسسات عظيمة، وباستثناء فئة كبيرة من الطبقة الثانية التي تدَّخر المال بهدف الوصول إلى الطبقة الأولى، فإن أغلبية المكيين، من الأنواع والمهن كلها، خليعون ومبذّرون بشكل نافر، والأرباح الطائلة التي يجنونها في ثلاثة أو أربعة أشهر، تُبدَّد في العيش الهانيء الكريم والثياب والمسرّات الجسدية. وبما أنهم نسبياً يشعرون بالاطمئنان على أرباح السنة القادمة، فهم قليلاً ما يأبهون بادخار أي جزء من الأرباح الحالية. وفي شهر محرم، ما أن ينتهي موسم الحج وترحل الأغلبية الساحقة من الحجاج، من المألوف إقامة حفلات الأعراس وأعياد الختان. وتتم هذه الاحتفالات في مكة بأسلوب رائع. وإن رجلاً لا يملك أكثر من ثلاثمئة دولار لإنفاقها في السنة، سيرمي نصف هذا المبلغ في زواج ولده أو خِتانه.

إن قُدسية هذه المدينة الطاهرة ووصايا القرآن الزاجرة عاجزة عن ثني سكان مكة عن استعمال المشروبات الكحولية والانغماس في كل الملذات والتجاوزات الناتجة غالباً عن الثمالة. وتستورد السفن الهندية كميات كبيرة من مشروب (الراكي) في براميل. ويُباع هذا المشروب الذي يمزج بالسكر وروح القرفة، تحت اسم «ماء القرفة». ولدى الأشراف في مكة وجدة والتجار الكبار والعلماء وكل الناس المهمين المرموقين، عادة شربه ويقنعون أنفسهم بأنه ليس نبيذاً ولا حتى (براندي)، فهو بالتالي ليس محرَّماً في الشريعة. ولا يستطيع السكان الأقل ثراء شراء سلعة مكلفة كهذه، لكنهم يستهلكون شراباً مخمراً مصنوعاً من الزبيب، يستورد من الطائف. بينما تشرب الطبقات الدنيا «البوزة». وخلال إقامتي في الطائف، قام تركي ينتمي إلى حاشية محمد علي باشا بتقطير (البراندي) من العنب وباعه علناً بأربعين ليرة للزجاجة الواحدة.

يُنفق المكيون بسخاء في منازلهم، فالغرف مزدانة بالسجاد الفاخر وعدد وافر من الوسائد والأرائك المغطاة بالقماش المطرز؛ ونرى وسط الأثاث الكثير من الخزف الصيني الجميل وعدة أراجيل مزيّنة بالفضة. وإن صاحب متجر صغير يخجل من استقبال معارفه في منزل مُعدٍّ بطريقة أقل روعة وجمالاً. وموائدهم غنية أكثر منها في أي بلد آخر في الشرق حيث تعيش العائلات، حتى الكبيرة منها، باقتصاد من هذه الناحية. ويجب أن تحتوي مائدة المكي يومياً على اللحم الذي يكلّف من ليرة ونصف إلى ليرتين للكيلوغرام الواحد، حتى وإن كان ينتمي إلى الطبقة الدنيا. كما أن قِدر القهوة في منزله لا تُرفع أبداً عن النار؛ وهو ونساؤه وأولاده يشربون باستمرار تقريباً الأرجيلة، والتبغ الذي يوضع فيها لا يمكن أن يكون مصروفاً ضئيلاً.

لقد أدخلت النساء (موضة)، شائعة في تركيا أيضاً، وهي القيام بزيارات متبادلة بينهن مرة في الأسبوع على الأقل مع كل أولادهن. وتستمر الزيارة طيلة اليوم، كما يتم تأمين تسلية غنية في المناسبة. كما أن غرور سيدة البيت يجعلها تسعى جاهدة لتفوق معارفها في المظهر والفخامة، وهكذا فإن مصروفاً مستمراً يصبح لازماً في كل عائلة. ومن بين مصادر الإنفاق، يجب تعداد عملية شراء الجاريات الحبشيات اللاتي يحتفظ بهن الرجال، أو المال الذي يُمنح لفتيات الهوى اللاتي يتردد إليهن العديد منهم. كذلك تُبذَّر مبالغ كبيرة على المسرات الجسدية الأكثر فساداً وانحطاطاً، لكن، وللأسف فإن ذلك شائع في مدن الحجاز تماماً كما هو في بعض الأجزاء الأخرى من آسيا، أو في مصر في ظل المماليك. وقد سبق أن ذكرنا أن مسجد مكة نفسه، وهو قدس أقداس الدين الإسلامي، يُلوَّث تقريباً يومياً بممارسات فاسقة إلى حد بعيد، ولا يتم إلحاق الخزي والعار بها ويُشجَّع عليها الشباب من كل الطبقات من قبل المسنين منهم. وحتى أن الأهل هم من الدناءة والحقارة بمكان بحيث يتغاضون عن تلك المفاسد من أجل المال. غير أن مخيّمات البدو العرب خالية من هذا التدنيس؛ رغم أن أسلافهم لم يكونوا أنقياء من هذه الناحية، هذا إذا ما صدّقنا بعض النوادر المخزية التي سجّلها مؤرّخون شرقيون[(١)].

إلاّ أن وصفي لبائعات الهوى (وهن كثيرات جداً) لا بد من إتمامه هنا. وقد سبق أن ذكرتُ أن الحي المدعو «شعب عامر» كان مقرَّ الفئة الأشد فقراً من بائعات الهوى، وأولئك اللواتي ينتمين إلى الطبقة العليا، موزعات في المدينة. إن سلوكهن الظاهري أكثر حشمة من سلوك أي من نساء الهوى في الشرق. وللتأكد من خلال حركة معيّنة في مشيتها بأن الأنثى المحجّبة المارة أمامه تنتمي إلى القبيلة الفاسدة، فذلك يتطلب عين المكي الخبيرة. ولن أتجرأ بالكلام على النساء المتزوجات في الحجاز، فقد سمعتُ نوادر متصلة بهذا الموضوع ما ليس فيه مصلحتهن. لكن

(١) سيجد القارىء مثل هذه العبارات البذيئة من المؤلف كثيراً، وغرضه واضح.

في الشرق، كما في بلاد أخرى، فإن الشبان أحياناً يتباهوْن بعلاقات لم يمارسوها قط. إن السلوك الخارجي لنساء جدة ومكة هو في غاية الحشمة واللياقة فلا يُشاهد منهن إلاّ القليل وهنّ يمشين أو يركبن في الشوارع، وهو شيء شائع في القاهرة رغم أنه يناقض فكرة الاحتشام الشرقية. وقد عشتُ في ثلاثة منازل مختلفة في مكة دون أن أرى وجوه نساء البيت سافرات.

يعيش تجار مكة الأثرياء بطريقة فخمة جداً. ففي منازل جيلاني والعجيل والسقاط، والنور، هناك ما يفوق الخمسين أو ستين شخصاً. وقد حصل هؤلاء التجار على ثرواتهم بشكل خاص خلال حُكم غالب الذي كان جيلاني والسقاط يعملان لديه كجواسيس على التجار الآخرين. وتحتوي موائدهم يومياً وبوفرة على كل الطيبات المحلية وأيضاً تلك القادمة من الهند ومصر. ويجلس معهم إلى المائدة للعشاء نحو عشرين شخصاً؛ ويُسمح للجاريات الحبشيات المفضلات اللاتي يعملن غالباً ككاتبات أو أمينات صندوق، بالجلوس إلى مائدة سيدهن؛ لكن الجاريات الأدنى منزلة والخدم لا يأكلون إلاّ الطحين والزبدة. كما أن الخزف الصيني والزجاج الذي تُقدَّم فيه الأطباق، هو فاخر جداً؛ ويُرش ماء الزهر على لحية الضيوف بعد العشاء وتُملأ الغرفة بأطياب خشب الألَوة وعطره وهو يحترق فوق الأراجيل. ويلفتنا تهذيب فائق في السلوك دون رسميات؛ وما من رجال يبدون أكثر لطفاً ورقة من المكيين الأثرياء الذين يُكرّمون وفادة ضيوفهم. وكل من يصادف جلوسه في الردهة الخارجية في أثناء تقديم العشاء، يُسأل أن ينضم إلى المائدة، وهو أمر يفعله الضيف دون أن يعتبر الدعوة تفضُّلاً أو منّة عليه، بينما يعتبر المضيف، من ناحيته، قبول الدعوة امتيازاً مُنح له.

يُعدُّ المكيون الأثرياء وجبتين يومياً، واحدة قبل منتصف النهار والأخرى بعد غروب الشمس. أما عند الطبقات الدنيا، فيكون الفطور عند شروق الشمس ولا يأكلون شيئاً بعده حتى اقتراب مغيب الشمس. وكما هي الحال في بلاد الزنوج، ليس من اللائق رؤية رجل في الشارع وهو يأكل، فيُوبَّخُ الجنود الأتراك الذين مايزالون يحتفظون بعاداتهم الوطنية، من قبل شعب مكة بسبب قلة تهذيبهم في هذا الصدد.

قبل الاحتلال التركي وحروب الشريف مع الوهابيين التي سبقته، كان تجار مكة يعيشون حياة رغيدة وبغاية السعادة. فخلال أشهر أيار/ مايو، وحزيران/ يونيو، كانوا يذهبون إلى جدة لحضور بيع السلع الهندية. وفي تموز/ يوليو، وآب/ أغسطس، (إلاّ إذا وقع الحج في هذه الأشهر) يعودون إلى منازلهم في الطائف حيث يمضون الموسم الأشد حرارة مخلِّفين وراءهم شركاءهم أو كتّابهم في جدة ومكة. وخلال أشهر الحج، يكونون دائماً في مكة طبعاً، كانت

كل عائلة مكية ثرية تتبع الحج إلى عرفات كرحلة استجمام واستمتاع وتُخيم في وادي مِنى لثلاثة أيام.

في شهر رجب، وهو الشهر السابع بعد الحج، كانت تنطلق دائماً قافلة من مكة إلى «المدينة»، وتتألف من عدة مئات من التجار يركبون على الجمال. وكانت تُقام في ذلك الوقت سوق موسمية كبيرة في «المدينة» يرتادها العديد من البدو في المناطق المحيطة وشعب الحجاز ونجد.

وكانت السلع التي تملأ هذه السوق تُرسل من مكة بقافلة ضخمة من الجمال التي كانت تنطلق مباشرة بعد التجار، وكانت تُدعى «ركوب المدينة»[1]. وكانت تبقى نحو عشرين يوماً في «المدينة» ثم تعود إلى مكة. إن تغيير المسكن المتكرِّر والمنتظم هذا، كان بالتأكيد محبباً لدى التجار خاصة في تلك الأوقات التي يستطيعون فيها، بيقين، التأكد من أن موسم الحج التالي سيكون مصدر ثروات جديدة لهم. وبما أن الطائف و«المدينة» الآن هما شبه مهدمتين، يذهب تجار مكة إلى جدة كونها المكان الوحيد لهم للاستجمام. ولكن حتى أولئك الذين يملكون زوجات ومنازل هناك، يتكلمون عن مؤسساتهم في مكة كمنازلهم الوحيدة الحقيقية حيث يمضون الجزء الأكبر من السنة.

يتمتع عامة سكان مكة وجدة، ونوعاً ما سكان «المدينة»، بمزاج مُفعم بالحياة والنشاط أكثر من السوريين أو المصريين. إن أياً من أولئك الأشخاص الصامتين الوقورين الذين يعملون بطريقة آلية، لا يُشاهَدون هنا، وهم منتشرون في أجزاء أخرى من الشرق. وهم عادة ما ينظرون إلى جمودهم وغبائهم كدليل على الإحساس الذي يتمتعون به والحكمة والدهاء.

ويشبه طبع المكي في هذا الصدد طبع البدوي، كما أن جشعهم وتوقهم الشديد إلى تحقيق الأرباح لا يشوّه في أحوال كثيرة ملامحهم، إذ إن الابتسامة المرحة ترتسم دائماً على شفتيهم. ففي الشوارع والأسواق، في المنازل وحتى في المسجد، يحب المكي الضحك والدعابة. وعند التعامل مع بعضهم أو في أحاديثهم حول مواضيع هامة، كثيراً ما يُدخلون أمثالاً أو تورية (تلاعباً في اللفظ) أو إحدى التلميحات الظريفة التي تُحدث الضحك. وبما أن المكيين يتمتعون فضلاً عن هذا الطبع المرح، بفطنة حادة وحصافة ودماثة شديدة في السلوك، فهم يعرفون جيداً كيف يوفّقون بينها وبين كبريائهم الفطري. فإن أحاديثهم ممتعة جداً إذ إن كل من يسعى لإنشاء مجرد معرفة شخصية سطحية معهم، غالباً ما يُسرُّ بطبعهم. وهم أكثر لطفاً وتهذيباً في تعاملهم مع بعضهم ومع الغرباء مما هم عليه سكان سوريا ومصر؛ وهم كذلك يحتفظون بشيء

(١) على العموم، فإن عرب الحجاز يسمون القوافل «الركوب» وفي بغداد يسمونه ركوب الشام أو ركوب العراق.

من مزاج البدو الطيِّب الذين هم أسلافهم. وحين يبادرون بعضهم بالكلام في الشوارع للمرة الأولى خلال النهار، يقوم الشاب بتقبيل يد الأكبر سناً أو من ينتمي إلى طبقة أرفع منه منزلة، بينما يردُّ الأخير التحية بقبلة على الجبين. ويتبادل الأشخاص من الطبقة نفسها والعمر نفسه (ليس من الطبقة الأولى) تقبيل الأيدي[1]. كما يتوجهون إلى الغريب فينادون «أيها المؤمن»، أو «الأخ»، كما أن قول الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ تجده دوماً على شفاههم. وغالباً ما يقول صاحب المتجر لزبونه الأجنبي: «أهلاً وألف أهلاً»، ويضيف «أنت غريب الله وضيف المدينة المقدَّسة؛ كل ما أملك تحت تصرُّفك». وحين نحتاج خدمة من أحد ما يقول هذا الأخير: «كل موارد رزقنا ندين بها لكم أيها الحجاج، بعد الله، فهل بإمكاننا إلاّ أن نكون ممتنين؟». وإذا كان غريب ما يقف تحت الشمس في المسجد، يقوم المكي بإفساح المكان له في الظل؛ وإذا ما مرَّ بقهوة فإنه يسمع أصواتاً تُناديه وتدعوه للدخول وشرب فنجان من القهوة؛ وإذا ما أخذ مكي جرة ماء من أي بائع متجول أو عمومي، فإنه يعرضها، قبل أن يضعها على فمه، على أي عابر سبيل؛ وعند أي تعارف سطحي معه، فإنه يقول لصديقه الجديد «متى ستشرفني بزيارة إلى منزلي لتناول العشاء معي؟»؛ وحين يتشاجرون مع بعضهم بعضاً، فإننا لا نسمع أياً من تلك النعوت أو الألقاب السفيهة أو اللغة الخسيسة القذرة التي تُستعمل بشكل متكرر في مصر وسوريا؛ ولا تُوجَّه الضربات إلاّ عند الظروف الاستثنائية جداً، كما أن وصول شخص محترم ومرموق يضع حداً فورياً لأي خلاف عندما ينصح بالوئام قائلاً: «خلقنا الله أكبر آثمين»، فيقولون حينها: «إلاّ أنه وهبنا، كذلك، فضيلة الندم السريع».

إلى هذه الصفات اللطيفة، يُضيف المكي واحدة أخرى يستحق لأجلها الثناء وهي أنهم عِرقٌ أبيٌّ. ورغم أن أنفتهم لا ترتكز على استحقاق أو كفاءة فطرية؛ فإنها أفضل بكثير من الخنوع المتملق الذي يتميز به الشرقيون الآخرون الذين يعوِّضون هم إذعانهم المتّسم بالخنوع والوضاعة لأسيادهم، بأشد أنواع الغطرسة استبداداً تجاه من هم أدنى منهم. ويفخر المكيون لكونهم قد وُلدوا في المدينة المقدّسة وبكونهم مواطني النبي ولأنهم قد حافظوا إلى حد ما، على عاداته؛ كذلك لأنهم يتكلمون لغته الصِّرفة ولأنهم أيضاً يتمتعون، بكل الامتيازات في العالم الآخر التي وُعد بها جيران الكعبة؛ ولأنهم أكثر حرية بكثير من الأجانب الذين يرونهم يحتشدون إلى مدينتهم. وهم يُبدون أنفتهم أمام أسيادهم الذين علّموهم التعامل معهم بكثير من اللِّين والحذر؛ كما أنهم ينظرون إلى الشعوب الإسلامية الأخرى كلها كشعب أدنى منهم

---

(١) عند المصافحة، يمسك الحجازيون بأيدي بعضهم بعضاً ويشدون عليها بالإبهام ثم يفتحون أكفهم ويشدون عليها ثلاث مرات أو أربع مرات. ويقال أن هذه كانت عادة محمد ـ صلى الله عليه وسلم.

منزلة فيعاملونهم بلطف وكياسة نتيجة لتعطُّفهم وتنازلهم. وقد نتج عن هذه الأنفة أمور جيدة لا يستطيع شعب دونها أن يتوقع الحفاظ على منزلته بين الأمم. وقد حال ذلك دون أن يغرق أهل مكة عميقاً في العبودية كبعض جيرانهم؛ إلاّ أن ذلك لا ينبّه فيهم أي شيء جدير بالثناء، في حين نرى تأثيره في الازدراء الذي يُضمرونه للأجانب. ويظهر هذا الازدراء، كما سبق أن ذكرت في سياق حديثي عن جدة، تجاه الأتراك بشكل أساسي، الذين أسهم جهلهم للغة العربية وزيّهم ونمط عيشهم وسلوكهم الدنيء في إنقاص شأنهم جداً في نظر العرب، فضلاً عن جُبنهم الذي يظهر كلما هوجم حاج في طريقه عبر الصحراء، وقلة الاحترام الذي كان يُظهره لهم حكّام مكة طالما أن سلطة الأشراف كانت تامة؛ بحيث إنهم يُعتبرون في الحجاز أفضل بقليل من الملحدين. وبالرغم من أن العديد من المكيين هم من أصل تركي، غير أنهم ينضمّون بحماسة إلى باقي مواطنيهم في الحط من قدر الأصل الذي يتحدّرون منه. وقد أصبحت كلمة «تُركي» عبارة مُهينة لبعضهم بعضاً وتشيع بين الأولاد. كما تُطلق غالباً عبارتا «نصراني» أو «يهودي» على الأتراك من قبل شعب مكة، ويؤمّن سلوكهم ولغتهم مورداً دائماً للسخرية والخزي.

ويلقى السوريون والمصريون كذلك المعاملة نفسها النابعة من أنفة أهل الحجاز لكن ذلك ينطبق على السوريين بشكل خاص، إذ إن المصريين، من بين كل الأجانب، يقتربون أكثر من أهل شبه الجزيرة في العادات واللغة ويحافظون على قدر كبير من علاقات شخصية وحميمية معهم. غير أن السوري المسلم المتعجرف الذي يدعو حلب أو دمشق «أم الدنيا»، ويعتقد أن ليس هناك عِرق يوازي عرقه وأن ليس من لغة خالصة وصِرفة كاللغة السورية رغم أنها بلا شك أسوأ لهجة في اللغة العربية بعد اللهجة المغربية[1]، هو مُجبر هنا على أن يتصرّف بقدر كبير من التواضع والاحتراس وأن يتكلف على الأقل التهذيب واللياقة. وبالرغم من كونه عربياً إلاّ أنه يُنتقد في الملبس وطريقة العيش كالتركي؛ ويرتبط لقب «الشامي» بفكرة مهرّج ساذج وثقيل الظل. وإذا ما رأى العرب الأتراك في بلادهم التي هم فيها أسياد سيكبر مقتهم لهم أكثر إذ إن سلوكهم في المدينة المقدسة عامة أكثر حشمة ولياقة ويتوافق مع مبادىء ديانتهم أكثر منه في البلاد التي يأتون منها.

ويعتقد المكيون أن مدينتهم، مع سكانها كلهم، هي تحت رعاية الله الخاصة، وبأنهم مفضَّلون على الأمم كلها بدرجات. «هذه هي مكة، هذه هي مدينة الله»، هذا ما يقولونه حين يُبدي أحدٌ ما الدهشة لبقاء الأغلبية الساحقة منهم في المدينة خلال فترة ركود التجارة وغياب

(١) هذا يدل على جهل المؤلف باللغة العربية.

الحجاج، فيقولون «لا أحد هنا يفتقر أبداً إلى قوته اليومي، ولا يخشى أحد هنا غزو الأعداء. كما يعتقدون أن الملك «سعوداً» قد أنقذ المدينة من السلب، وأن أياً من عمليات النهب لم تحدث حين قامت الخيالة التركية، في ظل مصطفى بك، بالاستيلاء عليها من الوهابيين؛ وأن إلقاء القبض على الشريف غالب لم يؤدّ إلى أي مذابح ضمن حدود مكة، وأن كل ذلك هو معجزات كثيرة واضحة ومرئية من الخالق لإثبات صحة ذلك المقطع من القرآن (السورة ١٠٦)، وقد قيل فيها: ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف..﴾. إلاّ أنهم ينسون النظر إلى الوراء، إلى تاريخهم الخاص الذي يحفل بعدة مجاعات رهيبة ومعارك دموية حدثت في هذا الحرم المقدس. والحقيقة أن الحجاز ربما عانت من المجاعات أكثر من أي بلد شرقي آخر. وقد أورد المؤرخون وصفاً شاملاً وافراً عن تلك الأحداث المؤسفة، سأذكر منها واحدة فقط حدثت سنة ١٦٦٤، حين قام العديد من الناس، كما يروي «الأعصمي»، ببيع أولادهم في مكة لقاء مكيال واحد من الحنطة؛ وفي جدة، حين كان الشعب يتغذى باللحم البشري.

وقد روى لي مكي، أنه بعد أن عزمَ أمره على ترك المدينة، نتيجة عدم وصول الحجاج الأتراك، الذين كانوا يزوّدونه بوسائل بقائه، ظهر له ملاك في نومه في الليلة التي سبقت رحيله المقرر. وكان الملاك يحمل في يده سيفاً برّاقاً ووقف فوق بوابة مكة التي كان يعتزم الرجل مغادرة المدينة عبرها، وقال «إبقَ أيها الكافر المشككُ! فإن المكيين سيأكلون الشهد في حين ستكتفي كل شعوب الأرض بخبز الشعير! ونتيجة لهذه الرؤية، تراجع الرجل عن مشروعه واستمر بالعيش في المدينة.

إن اللُّطف الظاهر الذي يتّسم به شعب مكة يُعادل صدقهم وإخلاصهم، كما هي الحال كذلك بالنسبة إلى مجاهرتهم بإيمان حماسي والتزامهم وإخلاصهم لدينهم، مع التقيّد بتعاليمه. وإن العديد منهم، خاصة أولئك الذين ليس لهم مصلحة خاصة في خداع الحجاج بالظهور بمظهر شديد الصرامة، يتراخون كثيراً في أداء شعائر دينهم معتقدين أنه يكفي أن يكون أحدهم مكياً وأن يطلقوا الأدعية الورعة أمام الملأ، أو ظانين أن الصرامة في ممارسة الشعائر أمر قد يضغط على الزائرين الأجانب الذين يرون مكة مرة واحدة فقط في حياتهم. وكما هي حال البدو فإن العديد منهم إما غير منتظمين أبداً في صلواتهم وإما لا يصلّون البتة. ويكتظُّ المسجد بالغرباء بشكل أساسي خلال صلوات الجمعة التي يُفرض على كل مسلم مقيم في المدينة حضورها، في حين نرى العديد من أهل مكة يدخّنون في متاجرهم. وبعد مغادرة الحجاج المدينة، لا يكون حضور الصلوات إلاّ من قلة قليلة. وهم لا يوزّعون الصدقات أبداً مُعللين ذلك بأنهم قد وُضعوا في هذه المدينة بفعل قدرة إلهية ليتلقوا الحسنات وليس لتقديمها. وهم يقلّدون العادات المنقولة

عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ما كان منها أكثر سطحية وتفاهة، حيث يحرصون دائماً على جزّ شاربهم والإبقاء على لحيتهم تحت المقص بانتظام لأن تلك كانت عادة النبي. كذلك، فهم يتركون طرف العمامة يتدلى بحرية فوق القلنسوة ويضعون كل يوم الكُحل أو الإثْمد (شجيرة الأراك) على جفنيهم ويمسكون دائماً في أيديهم مِسواكاً من عود رفيع من شجيرة الأراك، أو واحداً مستورداً من الحجاج الفُرس، ويحفظون غيباً العديد من آيات القرآن والحديث يلمّحون إليها أو يستشهدون بها كل لحظة. لكنهم ينسون أن هذه الوصايا أو التعاليم أُعطيت كقواعد للسلوك وليس فقط لمجرد تكرارها. وتُباع المشروبات الكحولية تماماً عند بوابات المسجد[1]، كما أن المطوّفين أنفسهم يتصرّفون بما يعارض مباشرة القانون والشرع وذلك بتلاوة الأدعية بصوت عالٍ في المسجد لمريديهم من الحجاج، لكي يُغروا بأصواتهم الرنانة حجاجاً آخرين، وهم يحملون في الوقت نفسه عصا المكيين العريضة المعتادة. كما أن تدخين الحشيش المخدِّر علناً هو انتهاك فاضح للقانون والشرع. ويُلعب الورق تقريباً في كل مقهى عربي (يستعملون ورقاً صينياً صغيراً)، رغم أن القرآن يحرّم بشكل مباشر ألعاب القمار. فضلاً عن أن الحماية التي تؤمنها الحكومة للأشخاص من الذكور والإناث ممن هم أكثرهم خلاعة وتهتكاً، هو تشجيع إضافي على الانتهاكات اليومية التي تمسُّ القواعد والمبادىء العامة الصارمة للشرع الإسلامي، إذ إن الغش والقسم الزائف الكاذب لم تعد تُعتبر جرائم بينهم. وهم مدركون تماماً للخزي الذي تُلحقه هذه الرذائل لأن كل دليل يعبر عن موقفه المعارض للفساد في السلوك لكن أياً منهم لا يقدم مثلاً للإصلاح؛ وبينما هم يتصرّفون باستمرار وفق مبادىء تعارض تماماً تلك التي يبشرون بها، يعلنون بإجماع أن الزمن قد أصبح يبرر العبارة التي تقول: «إن الحرام في بلاد الحرمين».

إن المكان الذي ليس فيه مجموعة منوّعة من العقائد، لا يمكن أن تظهر فيه المضايقات أو الاضطهاد لكن من المحتمل أن يميل المكيّون بسهولة إلى القيام بتجاوزات ضد من يدعونهم كفّاراً. فقد لاحظتُ في الشرق أن المسلمين الأكثر إهمالاً وتهاوناً في تأدية واجباتهم الدينية، هم الأشد عنفاً وضراوة في فرض شعائره على الكافرين؛ كما أننا نجد المعتقدات الخرافية الأكثر جسامة منتشرة عامة بين أولئك الذين يستخفّون بواجباتهم أو حتى بين الذين يسخرون منها كالعديد من العثمانيين، ويدّعون حرية التفكير والمعتقد. وليس هناك طبقة من الأتراك أكثر ترسُّخاً في كرههم للمسيحيين من أولئك الذين يتعاملون بشكل متكرّر معهم، بحيث يجدون من الملائم التخلّي لفترة ما عن مظاهر تحيزهم. ويعيش المغاربة كالكافرين في المرافىء الأوروبية

(١) ينفرد المؤلف بذكر مثل هذه الروايات في ثنايا هذا الكتاب، وله أن يزعم ما يشاء!

على البحر المتوسط كلها، لكنهم حين يصبحون في بلادهم، لا يمكن لشيء إلاّ الخوف أن يجعلهم يضعون حدوداً لتعصبهم. وهذه هي حال الأتراك في الأرخبيل. وبإمكاني إيراد العديد من الأمثلة في سوريا ومصر لتثبيت هذا الجزم. وإذا ما كان التعصب قد خفّت حدّته خلال السنوات العشرين الماضية عبر الأمبراطورية التركية، فيمكن عزو هذه الظاهرة فقط لانخفاض الحماسة عند السكان واللامبالاة المتزايدة تجاه دينهم، وليس بالتأكيد لانتشار مبادىء أكثر إنسانية وخيرية.

إن نص الشريعة الإسلامية محدَّد في تحريض مُريديها على البغضاء غير المنقطعة لكل من يؤمن بعقيدة مختلفة وعلى ازدرائهم واحتقارهم. ولم تخمد أو تخف حدة هذا الازدراء لكن الحقد يترك مجالاً لِلُطفٍ خارجي كلما كانت مصلحة المسلم تفرض ذلك. وتتوقف درجة التسامح الديني الذي يتمتع به المسيحيون على مصلحة الحكومة المحلية التي يعيشون في ظلّها. وإذا ما حدث أن كانت لهم حظوة فإن التركي ينحني للمسيحي. ففي كل البلدان الشرقية التي زرتها، تُمنح امتيازات للمسيحيين أكثر مما تأمر به الشريعة الإسلامية أو تسمح به بشكل عام. إلاّ أن وضعهم يتوقف على أمر حاكم المدينة أو المنطقة، كما سبق أن اختبروا ذلك منذ نحو سبع سنوات في دمشق في ظل حكم يوسف باشا حين تمّت إعادتهم فجأة إلى وضعهم المذِلّ السابق. ولقد كان وضع القبطي في مصر، منذ عشرين عاماً، هو نفسه كاليهودي الآن في بلاد المغرب؛ لكن، في الوقت الحاضر، حين يجد محمد علي، صاحب الفكر الحرّ (دون أن يكون ليبرالياً بالتأكيد) أن من مصلحته استرضاء المسيحيين واستمالتهم، يصبح بإمكان يوناني أن يضرب تركياً دون أن يخشى عواقب هذا الفعل من الجماهير. وإني أعرف مثلاً عن أرمني قتل خادمه المسلم ونجا من العقاب عبر دفع ضريبة للحكومة على الرغم من انتشار الخبر بين العامة. وبما أنهم مقتنعون، كما هي حال الأتراك الآن في أجزاء عديدة من الشرق، بتفوُّق هؤلاء الأوروبيين الذين لا يستطيعون سوى اعتبارهم أخوة لمرؤوسيهم المسيحيين، فإن سلوكهم تجاه هؤلاء المرؤوسين سيكون مع ذلك ملتزماً بشكل صارم بمشاعر حُكّامهم المعلنة؛ وسيكون من السهل على محمد علي أن يُهمِّش المسيحيين في مصر بكلمة واحدة ويحطّ من قدرهم بالسهولة نفسها التي وجدها لرفع شأنهم إلى وضعهم الحالي، فهم أرفع مقاماً، على ما أعتقد، مما هم عليه في أي جزء آخر من تركيا.

إن الحقد نحو المسيحيين هو نفسه تقريباً في كل جزء من الإمبراطورية العثمانية؛ وإذا ما كان المسلمون يُضحّون بهذه المشاعر، فلا يعود ذلك إلى مبادىء الإنسانية والمحبة ولكن لتجهُّم من صادف أنهم في السلطة. وتصل وضاعتهم حداً يجعلهم يقبلّون اليوم اليدَيْن اللتين داسوهما بالأقدام البارحة. وعند التدقيق في أعمال الشغب التعصُّبية التي سُجِّل العديد منها في أرشيف

القناصل الأوروبيين في الشرق، سنجد بشكل عام أنه كان للحكومة يد في ذلك الشغب، وقد نجحت بسهولة في قمعها والسيطرة عليها. ولم يجد السلطان سليم الأخير، في نظامه الإصلاحي التجديدي الذي جعله يؤيد المسيحيين ويساندهم، أي معارضة من جماهير شعبه لكن من الإنكشاريين الغيورين؛ وعندما انتصر هؤلاء الأخيرون، غرق مجدداً نبلاء القسطنطينية شبه المتفرنسين في «السُّنة». والحقيقة أن مؤمناً متهوراً، أو شيخاً مجنوناً أو درويشاً على رأس بعض الموالين، يمكن أن يشكل أحياناً استثناءً لهذه الوقائع، ويقوم بإهانة مسيحي يتمتع بأعلى امتيازات من السُلطات العامة، كما حدث في دمشق سنة ١٨١١، مع البطريرك اليوناني بعد عزل يوسف باشا. لكن مواطنيه، نادراً ما تكون لديهم الشجاعة ليطلقوا العنان لمشاعرهم ويحذوا حذو شيخهم رغم إيمانهم بالمبادىء ذاتها وامتلائهم بالكراهية نفسها. إن أياً من تلك الاضطرابات والفتن الشعبية الحقيقية لا نشهدها الآن في الشرق، وقد كانت في يوم من الأيام معتادة في أوروبا، عندما رأى أعضاء الكنيسة الحاكمة أفراداً من مُعتقَد خصم يوسّعون نفوذهم. ومهما تكن نظرتنا لذلك من وجهة النظر الأخلاقية، علينا احترام حماسة رجل يدخل بتهوُّر ودون تردُّد في نضال وكفاح ليس له أي مخرج مؤكد على الأقل، يُضرُّ عامة بمصالحه الشخصية الحياتية، وذلك لأنه يتوهّم أو يؤمن بأن واجبه الديني يوجه جهوده. إن مسلماً من الأمبراطورية التركية، حسبما سنحت لي فرصة الملاحظة، قد يقمع مشاعره وأهواءه بسهولة، وما يُمليه عليه ضميره وما يظنّه يوافق إرادة الله، عندما تفرض عليه مصالحه ذلك أو حسب رغبة السلطة الحاكمة أو تحذيرها.

كانت تُساءُ معاملة المسيحيين في جدة غالباً في زمن الشريف، فلا يستطيعون ارتداء الثوب الأوروبي أو الاقتراب من المدينة في الجزء الواقع تجاه بوابة مكة. لكن منذ وصول جيش محمد علي، أصبحوا يسيرون ويلبسون كما يشاؤون. ففي شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨١٤، حين مرَّ رجلان إنكليزيان من بوابة مكة في نزهة حول المدينة (وهم ربما أول من مرَّ أبداً، بلباس أوروبي عبر الحدود المقدسة)، سمعتُ امرأة تهتف: «حقيقة، إن العالم قد اقترب من نهايته، وإن الساعة قد دنا موعدها إذا تجرأ الكفّار على وطء هذه الأرض!». وحتى الآن، إذا ما توفي مسيحي هناك، لا يُسمحُ بأن يُدفنَ على الشاطىء، وتُنقل الجثة إلى جزيرة صحراوية صغيرة في المرفأ. وعندما تفشّى الطاعون في الحجاز سنة ١٨١٥، وهو أمر لم تكن البلاد قد شهدته من قبل أبداً، قام قاضي جدة، برفقة مجموعة العلماء كلهم، بزيارة رسمية إلى حكومة المدينة التركية ليطلبوا منها دكَّ طاحونة هوائية قام بعض المسيحيين اليونانيين في القاهرة ببنائها خارج إحدى البوابات بأمر من محمد علي. وكانوا على يقين، كما زعموا، بأن يد الله قد زارتهم بسبب هذا الانتهاك للأرض المقدسة من قبل المسيحيين. منذ بضع سنوات مضت، تحطّمت

سفينة إنكليزية بالقرب من جدة، ومن بين الغنائم المتنوعة التي أخذها من الحُطام الشريف غالب، كان هناك خنزير، وهو حيوان لم يُشاهد ربما أبداً في جدة من قبل؛ وكان هذا الخنزير طليقاً في المدينة مع نعامتين وأصبح مصدر رُعب لكل بائعي الخبز والخضار، لأن مجرد لمس حيوان بهذه القذارة كالخنزير، وحتى بطرف العباءة، يجعل المسلم غير طاهر أو نَجِس وغير قادر على تأدية صلواته دون أن يتوضأ قبلها. وقد بقي الحيوان هذا لستة أشهر إلى أن قدّمه الشريف إلى كابتن أميركي لقاء خمسين دولاراً؛ لكن هذا السعر قد رُفض طبعاً، وسُرعان ما نفق الخنزير من التخمة مما أراح السكان وأرضاهم[1].

غير أن المكيين، يتسامحون ضمن جدرانهم مع هرطقات رديئة السمعة. وقد سبق أن ذكرتُ الإسماعيليين، وهم مذهب وثني من الهند، الذين يظهرون بزي المسلمين. كما أن الفرس، وهم مشهورون بتشيُّعهم لعلي ولعنهم لأتباع محمد المباشرين، ليسوا مُعرضّين لأي مضايقات معينة. وقد تسامح معهم الشريف لكن فرض على كل منهم ضريبة الأعناق. أما الأشراف أنفسهم، كما سأشرح ههنا، فهم في أغلبيتهم من المذهب الزيدي، وهم مسلمون على خلاف مع المذهب السُنيّ (ألدّ الخصوم للمتشيّعين الفرس) المختلف مع عقائدهم الأساسية[2].

وكلما ذكر المكيون كلمة مسيحي أو أوروبي، فهم يُرفقونها بأكثر الألقاب ازدراء وتحقيراً. ويُدرجونها كلها في تسمية «الكافر»، دون أن يكون لديهم أي أفكار واضحة عن الأمم المختلفة التي يتألفون منها. أما الإنكليزي، بما أنه على علاقة أقرب معهم بسبب ممتلكاته الهندية، فيُدعى غالباً وبشكل حصري «بالكافر»؛ وكلما استُعملت هذه التسمية، يُفهم منها «الإنكليزي». وهكذا، يقولون «الكافر في الهند» أو «مركب الكافر في جدة»، ويعنون بذلك دائماً «الإنكليزي».

حين اجتاح الفرنسيون مصر، قام شيخ مغربي في مكة ويُدعى شيخ جيلاني، وهو على قرابة بعيدة مع تاجر ثري في مكة، وكان قد اعتاد لبعض الوقت إلقاء المحاضرات في المسجد الكبير، باعتلاء المنبر ليبشر بحملة عنيفة ضد الكفار الذين استولوا على بوابة الكعبة، كما كانت تُلقَّب مصر. وبما أنه كان خطيباً بارعاً وبليغاً ويتمتع باحترام وتوقير، تدفَّق العديد من العرب للوقوف في صفّه وأعطاه آخرون مالاً؛ ويقال حتى إن العديد من النساء أحضرنَ له حُليهنَّ الذهبية والفضية لمساندته ودعمه في مشروعه المقدس. وقد رسا في جدة برفقة أتباعه المتحمّسين على

(١) كثير من مثل هذه الأمثلة السخيفة، والشواهد غير المؤكدة، مبثوثة في ثنايا الكتاب.

(٢) لا خلاف بين السنّة والزيدية من الشيعة في العقائد الأساسية.

متن سفينة صغيرة ونزل في القصير. ويبدو أن حكومتي مكة وجدة لم تكونا متحمستين كثيراً لذلك المشروع بالرغم من أنهما لم تضعا العوائق في طريقه. إن مصير هؤلاء العرب (وكان العديد منهم ينتمون إلى القبائل الوهابية نفسها التي ساهمت كثيراً فيما بعد في مقاومة محمد علي)، والضراوة التي حاصروا بها الفرنسيين في شمالي مصر، قد سبق أن ألمّع عليها القارىء في الوصف الحي الذي قدّمه دينون (Denon). وقد قُتل الشيخ جيلاني، وعاد عدد قليل من أتباعه. وأعتقد أن دينون قد بالغ في تقدير عددهم، إذ إني لم أسمع قط أنه كان يتعدّى الألف وخمسمائة.

والمكيون، كسكان تركيا، خالون من رذائل الاختلاس والسرقة، وقليلاً ما يُسمع عن عمليات نهب وسلب بالرغم من أن مكة في موسم الحج وخلال الأشهر التي سبقه وتليه، تعجّ بالأوغاد المحتالين الذين تُغريهم السهولة التي يتمكنون بها من فتح أقفال هذه البلاد.

كان عبيد الشريف في السابق معروفين بسلوكهم المختل. إلاّ أن غالب أقام نظاماً صارماً بينهم وخلال فترة حكمه، لم يتم ارتكاب أي سرقة دون كشف الفاعل ومعاقبته.

تكتظ شوارع مكة بالمتسوّلين والحجاج الفقراء الذين يتلقون حسنات الغرباء فقط لأن المكيين يعتبرون أنفسهم ذوي امتيازات تُعفيهم من هذا الواجب. إلاّ أن منهم من يعتمد التسوّل كمهنة خاصة خلال موسم الحج حين يكون الحجاج مُلزمين بممارسة هذه الفضيلة التي تفرضها تعاليم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشكل خاص. والأغلبية الساحقة من المتسولين هم هنود وآخرون سوريون ومغربيون ومصريون. والزنوج هم قلائل كونهم يفضلون العمل على التسوّل بشكل عام؛ لكن هناك نسبة كبيرة منهم تأتي من اليمن. ويُقال عامة في الشرق أن مكة هي جنة المتسولين. وقد يدَّخر بعضهم قليلاً من المال، لكن مظهر الآخرين البائس يُظهر بجلاء إلى أي حد يمكن أن تخيب توقّعاتهم. والهنود هم أكثرهم تواضعاً، فهم يتوجّهون إلى عابر السبيل بالكلمات التالية: «يا ألله، يا كريم!» وإذا لم تُعطَ لهم الصدقات فهم يبتعدون دون أن ينبسوا ببنتِ شفة سوى «يا الله يا كريم». وليست هذه حال اليمني أو المكي، فهو يصيح عالياً ويقول «فكر بواجبك كحاج»؛ «فالله لا يحبّ من هو بلا رأفة؛ أوَ ترفض بركات المؤمن؟ أعطِ وسيُعطى لك»؛ بهذه وبعديد من الجمل الأخرى الدينية يتوجّهون إلى عابري السبيل، وعندما يأمنون أن الصدقات أصبحت في أيديهم، فهم غالباً ما يقولون كما فعل الدليل الذي كان يرافقني، «إنه الله ولست أنت من وهبني إياها». وإن بعض أولئك المتسوّلين مزعجين إلى حد بعيد ويبدو أنهم يطلبون الصدقات وكأنها حقٌّ من حقوقهم.

بينما كنتُ في جدة، كان هناك متسول يمني يعتلي المئذنة يومياً بعد صلاة الظهر ويتكلم

عالياً بحيث يسمعه كل من في السوق، قائلاً: «أطلب من الله خمسين دولاراً وثياباً ونسخة من القرآن، اسمعني أيها المؤمن، أطلب منك خمسين دولاراً، إلخ.». وقد ردَّد ذلك لبضعة أسابيع، حين قام حاج تركي أخيراً، وقد استوقفته غرابة نداءاته وفرادتها، وطلب منه أخذ ثلاثين دولاراً والتوقف عن صياحه، الذي يشكل وصمة على إنسانية الحجاج الموجودين كلهم. ولكن المتسول رفض قائلاً: «كلاً لن آخذها لأني مقتنع أن الله سيرسل لي كل ما أطلب منه بجدّ». وبعد أن كرَّر توسُّلاته العلنية لبضعة أيام، أعطاه الحاج نفسه المبلغ كله الذي طلبه لكن دون أن يشكره المتسوّل. وقد سمعتُ الناس يقولون في مساجد مكة، مباشرة بعد الصلوات، «أيها الأخ، أيها المؤمن، اسمعني. أطلبُ من الله عشرين دولاراً لأدفع تكاليف عودتي إلى بلادي، عشرين دولاراً فقط»، «أنت تعرف أن الله جوادٌ كريم، وقد يُرسل لي مائة دولار، لكنني أطلب عشرين فقط. تذكّر أن الإحسان هو الطريق الأكيدة إلى الجنة». وليس هناك أدنى شك في أن هذه الممارسة تنتهي غالباً بالنجاح.

إلاّ أننا لا نستطيع توقع ازدهار العلم والمعرفة في مكان ينشغل فيه كل ذهن في البحث عن الربح أو في الجنة. وأعتقد أن لديَّ من الأسباب ما يكفي لأؤكد بأن مكة هي أقل درجة بكثير في الوقت الحاضر ـ حتى في المعرفة الدينية ـ من أي مدينة في سوريا أو مصر بعدد السكان نفسه. وقد لا تكون الحال كذلك سابقاً حين تمَّ بناء العديد من المدارس العامة التي حُوِّلت الآن إلى مساكن خاصة للحجاج. يقول الفاسي إنه، في زمنه، كان هناك إحدى عشرة مدرسة في مكة إلى جانب عدد من الرباطات، أو المدارس الأقل غنى في مُخصصاتها المالية، التي كانت تحتوي كذلك على مساكن للحجاج الفقراء، وما يزال العديد من تلك «الرباطات» قائمة في المنطقة المجاورة للمسجد، لكنها تُستعمل فقط كمساكن. وليس هناك أي مدرسة حكومية في المدينة تُلقى فيها المحاضرات، كما هي الحال في أجزاء أخرى من تركيا، فالمسجد الكبير هو المكان الوحيد الذي نجد فيه المعلِّمين الشرقيين. وتُقام المدارس التي يتعلَّم الصِّبية فيها القراءة والكتابة في المسجد، كما سبق أن ذكرت، حيث يُفسِّر بعض العلماء في فترة ما بعد الظهر وعند انتهاء الصلوات، بعض الكتب الدينية لجمهور هزيل يتألف بشكل أساسي من الهنود والماليزيين والزنوج وبعض سكان حضرموت واليمن، الذين جذبهم اسم مكة العظيم، ويبقون هنا بضع سنوات حتى يروا أنهم نهلوا ما يكفي من العِلم بما يسمحُ لهم بالعودة إلى بلادهم وادعاء العلم. أما المكيون أنفسهم ممن يرغب في التقدم في العلم، فهم يذهبون إلى دمشق أو القاهرة بهذا الغرض، ونجد العديد منهم في تلك الأخيرة وباستمرار يطلبون العلم في الجامع الأزهر.

وتشبه المحاضرات التي تُلقى في مسجد مكة تلك التي تُلقى في مدن شرقية أخرى. فهي

تُقام مجاناً، وتدوم كل محاضرة ساعة أو اثنتين، وبإمكان أي شخص يظن نفسه قادراً ومؤهلاً لهذه المهمة أن يُحاضر في الناس، أكان ينتمي إلى المسجد أم لا. وهذا ما يحدث كذلك في الجامع الأزهر في القاهرة حيث رأيتُ أكثر من أربعين شخصاً مختلفين منشغلين في الوقت نفسه في إلقاء محاضراتهم ومواعظهم. وتتناول هذه المحاضرات في بيت الله في مكة كالعادة موضوعات مطوّلة عن الشرع وتعليقات على القرآن وسنّة النبي. لكن أياً منها لم تتطرق خلال إقامتي إلى القواعد والمنطق وعلم البيان أو العلوم عامة، ولا حتى «التوحيد» وتفسير ماهية وحدانية الله التي تشكل فرعاً أساسياً في تعليم الدين الإسلامي. إلاّ أني علمت أن بناء الجملة العربية يتم تفسيره أحياناً، فضلاً عن القواعد، عن «ألفية ابن مالك». إلاّ أن المكيين الذين اكتسبوا معرفة عميقة ووطيدة بكامل لغتهم وبُنيتها، يدينون بذلك لإقامتهم في القاهرة.

وليس هناك أي مكتبة عامة مُلحقة بالمسجد، فالمكتبات القديمة التي سبق أن تكلمتُ عنها قد اختفت بأكملها. يملك نائب الحرم مجموعة صغيرة من الكتب التي تخصّ المسجد أساساً؛ لكنها تُعتبر الآن ملكه الخاص؛ ولا يمكن استئجار الكتب دون صعوبات. لكن للأزهر في القاهرة وضعاً مختلفاً جداً. فقد أُلحقت بكل رواق، أو بناء خاص بالأمم الإسلامية المختلفة التي يضمها المسجد، (وعددها الآن ستة وعشرون) مكتبة كبيرة، ولكل أعضاء الرواق الحرية في أخذ الكتب منها لمساندتهم في دراساتهم. ومكة كذلك خالية من المكتبات الخاصة، باستثناء مكتبات التجار الأثرياء الذين يعرضون بعض الكتب ليميزوا أنفسهم عن عامة الشعب أو عن العلماء الذين يمتلكون بعضاً منها كمراجع يومية ضرورية في قضايا الشرع.

وتقول التقارير، إن الوهابيين قد حملوا معهم كميات كبيرة من الكتب، لكن يُقال كذلك أنهم دفعوا لقاء كل ما أخذوه. وليس من المرجَح أن يكونوا قد أخذوا مكتبات مكة كلها. وقد سعيتُ جاهداً، دون جدوى لاكتشاف مجموعة واحدة من الكتب. كما أننا لا نجد أي متجر للكتب أو لتجليد الكتب في مكة. بعد عودة الحج من عرفات، يقوم بعض العلماء الفقراء بعرض عدد من الكتب للبيع في المسجد قرب باب السلام. وكانت تلك التي رأيتها كلها كتباً حول الشرع، والقرآن مع التفسير وأعمال أخرى مشابهة، فضلاً عن بعض الكتب في القواعد اللغوية. ولا نجد أي كتاب عن التاريخ أو أي فرع آخر في المعرفة. وعلى الرغم من جهودي الحثيثة، لم أستطع أبداً إلقاء نظرة على تاريخ مكة، رغم أن أسماء الكتّاب لم تكن مجهولة عند المكيين. وقد أعلموني أن تجار الكتب كانوا يأتون إلى هنا في السابق مع قافلة الحج اليمنية ويبيعون كتباً قيّمة تأتي خاصة من صنعاء ولحية. وكان الكتاب الوحيد القيم الذي رأيته في مكة عبارة عن نسخة جيّدة من المنجد العربي ويُدعى «القاموس»، وقد اشتراه ماليزي لقاء ستمائة وعشرين درهماً، وربما يكون ثمنه في القاهرة نصف هذا المبلغ. والغريب أن العديد من

الحجاج المكيين لم يستفيدوا من هذا الفرع من التجارة الذي لا يدرُّ بالطبع ربحاً كالقهوة والسلع الهندية. وقد أسفتُ جداً للنقص التام الذي عانيتُ منه في الكتب، وخاصة نسخ عن مؤرِّخي مكة التي تركتها في القاهرة؛ فلقد كانت وجَّهتني في العديد من الأبحاث والتحقيقات حول الطوبوغرافيا التي عالجها الأزرقي خاصة بكثير من الكدِّ والمثابرة.

إن الحجاج الفرس والماليزيين هم من يسعى بشكل أساسي وراء الكتب. ويُقال أن الوهابيين كانوا بشكل خاص من مُحبّي البحث عن الأعمال التاريخية، وهي ملاحظة كنتُ قد سمعتُها تزدَّد في «المدينة». خلال إقامتي في دمشق، وهي سوق الكتب الأكثر غنى في الشرق وأرخصها، حيث إنها قليلاً ما يرتادها الأوروبيون، سمعتُ أن عدداً من العرب من بغداد، كانوا مكلَّفين سرّياً لهذا الغرض بأمر من سعود، الزعيم الوهابي، وقد اشتروا هناك العديد من الكتب التاريخية، وحين نهب أبو نقطة Abou Nokta مرافىء اليمن، حمل معه عدداً كبيراً من الكتب وأرسلها إلى الدرعية.

وقد نعزو الندرة في الكتب القيّمة في مكة ربما إلى ما يشتريه الحجاج باستمرار، إذ لا يوجد في مكة أي ناسخين لإعادة نسخ الكتب التي تمَّ تصديرها(١). إن الحاجة إلى الناسخين هي فعلاً شكوى عامة، كما هي الحال أيضاً في سوريا ومصر، وستؤدي حتماً في النهاية إلى نقص تام في الكتب في تلك البلاد إذا ما استمر التصدير إلى أوروبا. وهناك في القاهرة حالياً ما لا يتعدَّى الثلاثة ناسخين خبراء ممن يكتبون بخط جيد، ولديهم معرفة كافية تؤهلهم لتفادي الأخطاء الفادحة. كان هناك في مكة رجل من لاهور، يكتب الخط العربي بشكل جميل جداً رغم أنه يتكلم العربية بغير اكتراث. وكان يجلس في متجر قرب باب السلام وينسخ للحجاج الأدعية الواجبة في أثناء الحج. ويختلف الخط الحجازي عن ذلك المستعمل في مصر وسوريا؛ لكن تمريناً صغيراً يجعله مقروءاً بسهولة. وبشكل عام، فإن لكل بلد، لا بل لكل منطقة حتى من الشرق طريقته أو أسلوبه الخاص في الكتابة والتي يتمكن الشخص من تمييزها بالممارسة فقط. وهناك اختلاف في الظلال في خط الحلبيين، وأهل دمشق ومصر، يمكن التمييز بسهولة بين خط (قاهري) وخط أحد سكان جنوب مصر. ويختلف خط المسلمين في كل مكان عن خط المسيحيين الذين يتعلمون الكتابة عبر كهنتهم وليس عبر أساتذة أتراك. كما أن لأقباط مصر كذلك خطاً يختلف عن خط المسيحيين الآخرين المقيمين في البلاد. ويتمكن الخبير، من خلال عنوان رسالة، من معرفة المنطقة أو العرق الذي ينتمي إليه من كتبها. ويمكن تمييز اللهجات أو اللغات المحكية وأسلوب كتابة الرسائل بالقدر نفسه كالخط؛ وهذه الملاحظة تُطبَّق

---

(١) في القاهرة، رأيت العديد من الكتب التي لها طابع الحجاز اشتريتُ بعضاً منها.

بشكل خاص على التعبيرات الإضافية التي تزخر بها الرسائل دائماً. فأسلوب سوريا هو الأكثر تأنُّقاً وبلاغة ونجده حتى في رسائل الأعمال الصِرفة. وأسلوب مصر هو أقل مُجاملة، أما أسلوب الحجاز فبسيط ورجولي ويقترب من صراحة البدو، ويحتوي على بضع كلمات فقط للاستعلام عن صحة وخير الشخص المرسل إليه، وذلك قبل الفحوى المباشر للرسالة. ولكل بلد كذلك طريقته وأسلوبه الخاص والمميز في ثني الرسالة. ففي الحجاز، يتم ختم الرسائل بصمغ عربي؛ وهناك وعاء خاص مليء بالصمغ المذوب معلّق قرب بوابة كل منزل كبير أو خان.

ومهما تكن اللامبالاة التي يُظهرها المكيون نحو التعليم[1]، فإن لغة مدينتهم لا تزال أكثر نقاء وأناقة في الأسلوب واللفظ منها في أي مدينة أخرى تتكلم العربية. فهي تقترب أكثر من أي لهجة أخرى من اللغة العربية المكتوبة القديمة، وقد خلت من تلك التأثيرات والتحريفات للمعنى الأساسي، التي تكثر في مناطق أخرى. وأنا لا أعتبر أن اللغة العربية هي في حالة انحطاط، صحيح أنه ليس هناك بعدُ أي شعراء يكتبون كالمتنبي وأبو العلاء أو ابن الفارض؛ وأن العرب لم يمتلكوا أبداً نصاً نثرياً جيداً. ويكتفي الشعراء العصريون بمحاكاة أساتذتهم القدماء مستعيرين بتواضع الصور المجازية والاستعارات الرائعة والمشاعر القوية الصادرة عن قلوب أكثر نُبلاً وحرية من قلوب علماء العصر الحالي. لكن في الوقت الحاضر حتى، تتم دراسة اللغة بعمق من قِبل كل الرجال المتعلمين والمثقفين؛ فهذا هو العلم الوحيد الذي يستطيع بواسطته المسلم الراشد تمضية أوقات فراغه، بعد أن يكون قد سبر غور الشرع واستكشف متاهاته. ويُعتبر ذلك أمراً ضرورياً لا غنى عنه للحصول على ثقافة جيدة، في كل مكان من الشرق، ليس فقط بهدف كتابة اللغة بصحة وصفاء، لكن أيضاً لقراءة الشعراء الكلاسيكيين ودراستهم وحفظ أجمل ما كتبوا غيباً. إن الإعجاب والتقدير الذي يوليه العلماء العرب لأفضل كُتّابهم يحاكي التقدير الذي يكنّه الأوروبيون لكتّابهم الكلاسيكيين. وبالرغم من أن الأغلبية الساحقة من الشعوب الشرقية لا تُحسن الكتابة أو القراءة، لكن نسبة كبيرة جداً من أولئك الذين تلقّوا تعليماً في صناعة الكتب يكتبون بأسلوب جليل وهم أكثر اطلاعاً على كُتّاب بلادهم من نظرائهم الأوروبيين من الطبقة نفسها.

(١) سأذكر دليلاً على إهمال التعلُّم في مكة وهو أن من بين اثني عشر شخصاً مرموقاً من حيث موقعه في الحياة. استقصيتُ منهم عن المكان المدعو عكاظ، فلم يعرف منهم أي واحد موقعه أو إذا ما زال موجوداً. وعكاظ هو المكان الذي كان الشعراء العرب القدماء، حتى زمن محمد، يلقون فيه قصائدهم أمام الحشود المجتمعة هناك بأعداد كبيرة. وكانت الأشعار الرائعة تُعلّق بعدها على الكعبة. وندين لهذه العادة بالأشعار الشهيرة المدعوة بالمعلّقات السبع. وقد أخبرني بدوي من قبيلة هذيل أن عُكاظ باتت الآن مكاناً مهدوماً مهجوراً في بلاد بني ناظرة، التي تبعد من يومين إلى ثلاثة أيام عن الطائف وأنها لم تُعد مرتادة كسوق منذ سنة ١٢٩هـ. ويقول الأزرقي إن تلك السوق كانت تبعد عن الطائف تلك المسافة نفسها، على الطريق إلى صنعاء في اليمن وكانت تخص قبيلة بني كنعان.
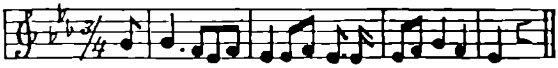
لا يدرس المكيّون الشيء الكثير إلى جانب اللغة والشرع. ويتعلم بعض الصّبية ما يكفي من اللغة التركية ليتمكنوا من غش الحجاج العثمانيين، لأن معرفتهم بتلك اللغة تُرجِّح كفتهم ليصبحوا مطوِّفين لهم. ويتعلّم عالم الفلك في المسجد معرفة الوقت المحدد تماماً لمرور الشمس عبر دائرة خط الزوال (الهاجرة: منتصف النهار)، ويشغل نفسه بعلم التنجيم والأبراج. وهناك طبيب فارسي، أستاذ الطب الوحيد المعترف به في مكة، وهو لا يتعاطى إلاّ في الأدوية العجيبة والإكسير الناجع؛ وجُرعاته كلها حلوة المذاق وسائغة؛ كما أن المِسك وخشب الألوة الذي يحرقه ينشر عبر متجره عبيراً لذيذاً ساهم في تعزيز شهرته. والموسيقى التي يعشقها العرب بشغف كبير تُمارس في مكة بنسبة أقل منها في سوريا ومصر. وهم يمتلكون من الآلات الموسيقية الرّبابة فقط، والناي والطنبور أو الطنبورين. ويسمع الناس القليل من الأغاني في المساء، إلاّ عند البدو في تخوم المدينة. ويغنّي الشباب أحياناً الأغنية الكَوْرسية التي تُدعى جوق في المقاهي ليلاً، ويُرافق إيقاعها تصفيق الأيدي. إن أصوات أهل الحجاز عامة جشة وغير نقية إذ إني لم أسمع أياً من تلك الأصوات الرنّانة والمتناغمة كتلك الأصوات الرائعة في مصر، وتلك الاستثنائية في سوريا، أكانت تنطق بأغاني الحب أو ترتّل سوراً من القرآن في المآذن، والتي لها وقع مميّز وخلاّب في عمق الليل. وحتى الأئمة في المسجد وأولئك الذين يرتلون التراتيم الدينية مردِّدين الكلمات الأخيرة لأدعية الإمام التمهيدية، تجد في أصواتهم خشونة ونشازاً، رغم أنهم في البلدان الأخرى يُختارون لجمال أصواتهم.

للشريف فرقة موسيقى عسكرية، هي نفسها التي يحتفظ بها الباشوات. وهي مؤلفة من خليط من الطبول والأبواق والنايات، الخ، وتصدح الموسيقى أمام بابه مرتين في اليوم، وتعزفها لنحو نصف ساعة في كل مساء من القمر الجديد (الشهر الجديد).

ويحضر الأعراس إناث محترفات، يُغنين ويرقُصن، ولهن كما يُقال أصوات جميلة، وهن لا ينتمين إلى الفئة الفاسقة التي ينتمي إليها المغنون والراقصون الشعبيون في سوريا ومصر. ويقول المكيون إنه، قبل الاجتياح الوهابي كان بالإمكان سماع المغنين خلال المساء في كل شارع، إلاّ أن صرامة الوهابيين الذين عارضوا غناء الإناث العلني، رغم أنهم شغوفون بأغانيهم البدوية الخاصة، قد تسببت في انهيار المهن أو الحرف الموسيقية كلها. إلاّ أن الفكرة القائلة بأن العصور القديمة كانت دائماً أفضل من العصور الحاضرة من النواحي كلها، هي فكرة عامة تافهة لا قيمة لها ويمكن تصنيفها مع تلك الشائعة في الشرق كما في أوروبا.

إن السقّايين، أو حاملي المياه في مكة والعديد منهم من الأجانب، يردّدون أغنية مؤثرة جداً من خلال بساطتها والهدف الذي استُعملت لأجله، حيث يقوم الحجاج الأثرياء مراراً بشراء

كل ما تحويه قِربهم عند مغادرتهم المسجد في الليل خاصة ويطلبون منهم توزيعه بين الفقراء مجاناً. وبينما يسكبون الماء في الأوعية الخشبية التي يملكها كل متسول، يرددون «سبيل الله، يا عطشان، سبيل!» ومن ثم، يرددون الأغنية القصيرة التالية المؤلفة من ثلاث نوتات موسيقية فقط، والتي لم أسمعها قط دون أن أنفعل بها: «الجنة والمغفرة لصاحب السبيل»، أي لتكن الجنة والمغفرة من نصيب ذلك الذي أعطاك هذا الماء!



وليس باستطاعتي أن أصف حفلات الأعراس كما تُقام في مكة لأني لم أحضر أياً منها إلاّ أني رأيت العروس تُنقل إلى بيت زوجها، تُرافقها كل صديقاتها. ولا تُستعمل ظلّة في هذه المناسبة كما هي الحال في مصر، ولا الموسيقى؛ ولكن يتم عرض الثياب الفاخرة والأثاث المنزلي، كما أن المأدبة فخمة وغنية وتدوم غالباً ثلاثة أيام أو أربعة. عند تسوية الزواج، يُحمل المال الواجب دفعه للعروس في موكب من منزل العريس إلى منزل والد العروس. ويُحمل عبر الشوارع فوق منضدتين خفيضتين وقد لُفَّ بمنديل أنيق وغُطّي مجدداً بقماش من الساتان المزركش المطرّز. ويسير أمام الشخصين اللذين يحملان المنضدتين، شخصان آخران، مع قارورة من ماء الورد في يد ومبخرة في الأخرى، يحترق فوقها أنواع الطيوب والعطور كلها. ويلحق بهم في الخلف في صف طويل، أنسباء العريس وأسرته وأصدقاؤه كلهم وقد تزيّوا بأفضل ثيابهم. ويتراوح المبلغ الذي يُقدم للعذارى في مكة بين الطبقات العريقة، بين أربعين إلى ثلاثمائة دولار، وبين عشرة إلى عشرين دولاراً بين الطبقات الفقيرة. ويتم دفع نصف المبلغ عادة، ويُترك النصف الآخر في حيازة الزوج الذي يدفعه في حال أراد تطليق زوجته.

وحفلات الخِتان هي نفسها التي تُقام في القاهرة. فبعد العملية، يُلبَسُ الولد من أغلى الأقمشة وأثمنها ويوضع على حصان مزيَّن مزركش، ويُنقل هكذا في موكب عبر المدينة مع طبول تُقرع أمامه. ولا تختلف الجنازات عن تلك التي تُقام في مصر وسوريا.

ويمتلك أهل مكة عامة عدداً قليلاً جداً من الخيول. وأعتقد أنه ليس هناك ما يتعدّى الستين منها، يحتفظ بها أفراد. وللشريف نحو عشرين أو ثلاثين من الخيل في اسطبلاته؛ لكن الشريف غالب كان يمتلك مجموعة أكبر من الخيل. والشرفاء العسكريون يمتلكون الفرس، لكن الجزء الأكبر منها فُقد مع الجيش ويمتلك البدو المستقرون في «معابده» الضاحية وفي أجزاء أخرى من المدينة خيولهم كذلك، كونهم يهتمون بالشؤون العامة؛ لكن أياً من التجار أو الطبقات الأخرى لا يحتفظ بإحداها. فهم يخشون أن يستولي الشريف على أي حيوان جيد يمكن أن يحتفظوا

به، لذلك، فهم يكتفون بالبغال أو الكديش. كما أن الحمير شائعة جداً لكن لا يركبها أي شخص ذو مكانة. والخيول القليلة في مكة هي من نسل جيد ونبيل، تمَّ ابتياعها من البدو، وتُرسل في الربيع إلى مخيمات البدو لترعى العشب المغذي في الصحراء. ويمتلك الشريف يحيى فرساً رمادية من مجموعة غالب، قُدِّرت بعشرين محفظة دراهم؛ وكانت أجمل مخلوق رأيته في حياتي، وأفضل مما رأيت في الحجاز كله. ويفتقر بدو هذه البلاد، خاصة أولئك الذين يقطنون حول مكة، إلى الخيول، ولدى بعض الشيوخ فقط واحداً، وذلك بسبب ندرة الكلأ ولأن كلفة الاحتفاظ بواحد من الخيول تبلغ ثلاثة دراهم في اليوم.

في السهل الشرقي، خلف الطائف، تكثر الخيول رغم أنها أقل بكثير منها في نجد، وصحارى سوريا، وذلك نتيجة الندرة النسبية للحنطة والأمطار غير المؤكدة، وهو عجز يترك البدوي سنة بكاملها بلا خُضرة. وهي ظروف قلما تحدث في الصحارى الواقعة أكثر إلى الشمال حيث إن الأمطار نادراً ما تتخلّف في المواسم المحدَّدة.

حكومة مكّة

إن مناطق مكة والطائف والقنفذة (التي تمتد جنوباً حتى هالي على الساحل) ويَنْبُع، كانت كلها، قبل الفتوحات الوهابية والمصرية، خاضعة لسُلطة شريف مكة الذي وسَّع نفوذه على جدة كذلك، رغم أن هذه المدينة كانت منفصلة عن المناطق الخاضعة لسيطرته، وكان يحكمها باشا أُرسل إلى هنا من الباب العالي ليصبح السيد المطلق على المدينة وليقسِّم دخلها مع الشريف. إن الشريف الذي وصل إلى منزلته بالقوة أو بالنفوذ الشخصي ورضى وموافقة عائلات الأشراف القوية في مكة، يستمد سلطته رسمياً من الباب العالي الذي يُقر دوماً الشخص الذي ينتزع المنصب[1]. وكان يُكسى سنوياً بمعطف من القسطنطينية من قبل القفطانجي باشي وكان يُصنَّف في الطقوس التركية من بين أوائل الباشاوات في الإمبراطورية. وحين أمست سلطة باشاوات جدة اسميّة، ولم يعد الباب العالي قادراً على إرسال جيوش كبيرة مع قوافل الحج في الحجاز، ليؤمن سلطته على تلك البلاد، أصبح شرفاء مكة مستقلين وأغفلوا أوامر الباب العالي كلها، رغم أنهم كانوا لا يزالون يدعون أنفسهم خُدّام السلطان ويتلقون الكسوة السنوية، ويعترفون بالقاضي المبعوث من القسطنطينية، ويدعون من أجل السلطان في المسجد الكبير. وقد أعاد محمد علي سلطة العثمانيين في الحجاز واستولى على نفوذ الشريف كله، تاركاً للشريف الحالي يحيى تقريباً حكماً اسمياً.

واختيار شريف مكة يتم من إحدى قبائل الأشراف العديدة، أو المتحدّرين من النبي ـ صلى

---

(١) لقد كانت حكومة الحجاز موضوع خلاف بين خلفاء بغداد وسلاطنة مصر وأئمة اليمن. فالشرف المرتبط ولو بسلطة اسمية على المدن المقدسة، كان الغرض الوحيد في نظرهم، على الرغم من أن تلك السلطة كانت بدل أن تزيد من دخلهم تجبرهم على تحمل مصاريف باهظة. إن حق كسوة الكعبة وإدراج أسماءهم في صلوات الجمعة في المسجد كانا الربح الوحيد الذي يحصلون عليه. إن سيطرة مصر على مكة والتي ترسّخت بثبات وقوة منذ بداية القرن الخامس عشر، انتقلت بعد غزو سليم الأول للبلاد تلك إلى سلاطين القسطنطينية.

الله عليه وسلم ـ الذين استوطنوا في الحجاز؛ وقد كانت تلك القبائل فيما مضى عديدة، إلاّ أنها تقلّصت الآن إلى بضع عائلات في مكة. وحتى القرن الماضي، كان حق الخلافة ينحصر في أهل بركات أو ذوي بركات[1]، وهم يُدعون كذلك تيمناً ببركات ابن السيد حسن عجيلان، الذي خلف والده سنة ٨٢٩هـ، وكان ينتمي إلى القبيلة الشريفة قتادة التي كانت أساساً مستوطنة في وادي الخيمة الذي يشكّل جزءاً من ينبع ونخل، وكانت على قرابة من ناحية النسا، مع بني هاشم الذين أخرجوهم من حكومة مكة سنة ٦٠٠هـ بعد موت آخر هاشمي ويُدعى مكثر Mekether. وخلال القرن الماضي، كان على آل بركات شنّ حروب عدة مع خصومهم من القبائل، وقد خضعوا واستسلموا أخيراً لأكثرهم عدداً وهم بنو زيد الذين ينتمي إليهم الأشراف الحاليون، والذين يُشكلون، مع كل قتادة، جزءاً من القبيلة الكبيرة «أبو نعمة». وقد هاجر معظم أهل بركات واستوطن العديد منهم الأودية الخصبة في الحجاز، وآخرون في اليمن. ومن الشرفاء الذين ما يزالون في مكة وحولها؛ إلى جانب القبائل المذكورة أعلاه، فقد سُمّيَ لي الخمسة التالية: «عبادله» و«بني سرور» و«حرازي» و«بني حمود» و«الصوامله»[2].

لم تكن الخلافة في حكومة مكة وراثية، بل كخلافة شيوخ البدو، رغم أنها بقيت في القبيلة نفسها طالما أن سلطة هذه القبيلة ظلّت متفوّقة وراجحة. فبعد موت شريف ما، يخلفه قريبه سواء أكان ابنه أم أخاه أم ابن عمه، الخ. الذي يملك الحزب الأقوى أو الرأي العام وأصواته في صفه. ولم تكن تُقام احتفالات تنصيب أو يمين الولاء. ويتلقى الشريف الجديد زيارات التهنئة من المكيين، وتعزف فرقته أمام بابه ويبدو ذلك علامة الملكية هنا كما هي في بلاد الزنوج. ومنذ الحين فصاعداً يصبح اسمه مدرجاً في الأدعية العامة وبالرغم من أنه نادراً ما كانت تحدث خلافة دون بعض المعارضة، إلاّ أنه كان هناك القليل من سفك الدماء بشكل عام. وبالرغم من وقوع بعض أعمال العنف والقسوة، إلاّ أن مبادىء الشرف والإخلاص التي تميّز حروب قبائل الصحراء كانت تُراعى بصفة عامة. ويخضع الخصوم ويبقون عادة في المدينة دون أن يحضروا استقبالات قريبهم المنتصر ولا أن يرهبوا استياءه، بعد أن يكون السلام قد حلَّ. وتُعتبر حقوق

(١) ذوي تعني آل أو عائلة.

(٢) فضلاً عن هذه أجد العديد من القبائل الأخرى التي ذكرها عصمي كذَوِيْ مسعود وذوي شنبر وذوي الحارث وذوي ثقبة وذوي جازان وذوي باز. ويتطلب البحث في تاريخ مكة من المصادر المذكورة أعلاه وقت فراغ أكبر من الذي كنتُ أحصل عليه. وقد قدم D'Ohsson ملاحظة تاريخية عن شرفاء مكة فيها العديد من الأخطاء. إن النسل الطويل الذي يجب تحديده للحصول على فكرة واضحة من حكّام أي جزء من شبه الجزيرة العربية، يجعل من تاريخ تلك البلاد أمراً بالغ التعقيد.

حسن الضيافة والوفادة مقدسة خلال الحرب، كما هي في الصحراء، حيث كان الدخيل أو اللاجىء يُحترم دائماً. وفيما يختص بسفك الدماء من الجهتين، فإن التعويض كان يتم من خلال ديات تُدفع لأقرباء القتيل، كما كانت تُراعى قوانين الثأر نفسها التي تسود بين البدو، وكان هناك دائماً حزب قوي يعارض السلطة الحاكمة؛ إلاّ أن هذه المعارضة كانت تظهر في حماية الأشخاص الملاحقين من الزعيم، أكثر منها في محاولات مكشوفة ضد سلطته. على الرغم من ذلك، فإن الحروب كانت تقع بشكل متكرر. ولكل حزب مواليه بين البدو في الجوار، إلاّ أنها كانت تنشب على وفق نظام المناوشات البدوية وقلما كانت تطول مدتها.

بالرغم من أن هذه العادات كان بإمكانها سحق سلطة الشريف الحاكم، إلاّ أنه كان يُصاحبها نتائج سيئة على المجتمع، حيث كان كل فرد مجبراً على الالتحاق بحزب أو بآخر، وبأحد المدافعين أو الحامين الذي كان يعامل مواليه بالاستبداد نفسه والظلم الذي كان يراه ويعانيه من سيّده. وقلّما كانت القوانين تُحترم حيث كانت كل القرارات تُتخذ عبر النفوذ الشخصي. وضعفت سلطة الأشراف بشكل ملحوظ على يد سرور، الذي حكم من سنة ١٧٧٣ إلى سنة ١٧٨٦؛ لكن كان على غالب، حتى في الأوقات الأخيرة، أن يحارب أقرباءه بالرغم من أنه كان يتمتع بسلطة أكبر من سلطة أي من أسلافه.

إن استمرار سيادة الشجارات الأهلية والحروب ونزاعات الأحزاب المسيطرة، وتقلُّبات القدر التي لازمَتْها، وفن اكتساب الشعبية الذي كان الزعماء مُجبرين على ممارسته، كل ذلك أضفى على حكومة الحجاز ميزة تختلف عنها في الحكومات الأخرى في الشرق، والتي احتفظت بها في المظهر الخارجي، حتى بعد أن نجح غالب تقريباً في حكمه كطاغية. ولم تكن تُشاهد أي من تلك المراسم أو التشريفات التي ترسم حدّاً مميزاً بين الملوك الشرقيين أو ممثليهم وبين الشعب. وكان بلاط الشريف صغيراً وخالياً كلياً تقريباً من مظاهر الفخامة والأبهة. ولم يكن لقبه السلطان ولا السلطان شريف، ولا مولاي، كما يؤكد علي بك عباس. «فسيدنا» كان اللقب الذي يستعمله رعاياه عند مخاطبته؛ أو «سيادتكم»، الذي يُطلق على الباشاوات كلهم. ولم تكن المسافة بين المرؤوس والزعيم كبيرة إلى درجة تمنع هذا الأول من التعبير عن شكواه والمطالبة بالإصلاح باحترام ولكن بجرأة.

ولم يكن الشريف الحاكم يحتفظ بعدد كبير من الجند، لكنه كان يستدعي أنصاره الأشراف مع تابعيهم كلما كان القرار يُتّخذ في شن الحرب. وكان يُلحِقُ هؤلاء الأشراف بشخصه عبر احترام مكانتهم ونفوذهم، وكانوا معتادين على اعتباره الأول بين أشخاص متساوين.

إن تقديم لمحة عن تاريخ الأحداث التي جرت في مكة منذ الفترة التي ختم فيها المؤرخون

العرب أعمالهم (نحو منتصف القرن السابع عشر، على ما أعتقد)، سيتطلب عملاً شاقاً، إذ إنه سيقوم على الاتصالات الشفهية، لأن أحداً في هذه البلاد لا يفكر في تدوين أحداث زمانه. إن الظروف التي زرتُ في ظلها المكان قد منعتني من الحصول على معلومات دقيقة وشاملة عن الوضع السياسي في البلاد، حتى وإن كان لديَّ بعض أوقات الفراغ لأن مثل هذه الأبحاث والتحقيقات كانت ستجبرني على الاختلاط بأناسٍ ذوي منزلة رفيعة وبأولئك الذين يشغلون المناصب العليا؛ وهي طبقة من المجتمع كنتُ، ولأسباب واضحة، أسعى جاهداً كي أتجنبها. إن ما يلي هو مقدار المعلومات التي استطعتُ جمعها والتي تتعلق بتاريخ مكة الحديث.

سنة ١٧٥٠، عُيِّن الشريف مسعد لحكم مكة وبقي لمدة عشرين سنة. وقد استدرجته قوة الأشراف إلى شن حروب معهم بشكل متكرر، وبما أنه نادراً ما كان ينتصر فيها، فقد استمر نفوذهم بالقوة نفسها. وبعد أن كشف عن مظاهر العداء والخصومة نحو علي بك الذي كان حينها حاكم مصر، أرسل هذا الأخير خادمه المفضل «أبا ذهب» الذي جعل منه بيكاً، برفقة عدد كبير من الجنود، كزعيم لقافلة الحج المتجهة إلى مكة وذلك بهدف عزل مسعد؛ لكن الشريف توفي قبل بضعة أيام من وصول أبي الذهب.

سنة ١٧٦٩، أو ١٧٧٠، بعد موت مسعد، نُصِّب حُسين، بالرغم من أنه كان ينتمي إلى القبيلة نفسها، إلاّ أنه كان خصماً لمسعد في كل مناسبة مستعيناً بأنصاره. وقد ثبُت في ذلك المنصب بمساعدة أبي ذهب. واستمر في الحكم حتى سنة ١٧٧٣ أو ١٧٧٤، حين ذُبح حسين في حرب مع سرور بن مسعد. ولا يزال المكيون يوقّرون اسم سرور الذي حكم لفترة امتدت ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً، فقد كان أول من قهر عزّة الأشراف وسلطتهم وأقام أُسس عدالة صارمة في المدينة. قبل حكمه، كان لكل شريف في منزله في مكة مؤسسة مؤلفة من ثلاثين أو أربعين من العبيد المسلّحين، وخدم وأنسباء، إلى جانب أصدقاء ذوي نفوذ بين البدو. ولجهلهم بأي عمل آخر سوى استعمال الأسلحة، فقد كانوا يعيشون من الماشية التي يحتفظون بها بين البدو وفي أجزاء مختلفة من الحجاز، ومن الصُرَّة التي كانوا يتلقونها من الحج؛ فضلاً عن الهدايا التي كانوا يغتصبونها من الحجاج ومن تابعيهم في المدينة. وبالإضافة إلى تلك الموارد العامة للدخل، قام بعضهم بانتزاع الوظائف العاطلة المربحة من أكبر الأشراف السابقين، كالضرائب على السفن أو على بعض أنواع السلع؛ والرسوم التي كانت تُجمع عند إحدى بوابات جدة؛ وضريبة الأعناق المفروضة على الحجاج الفرس، الخ. وكان سلوكهم في المدينة همجياً ومضطرباً وكانوا يغفلون أوامر الشريف الكبير، فكان كل واحد منهم يستخدم سلطته الخاصة لزيادة ثروته؛ وكانت نزاعات العائلات تقع باستمرار وبشكل متكرر؛ وكانوا غالباً في

وقت الحج يكمنون لمجموعات صغيرة من الحجاج في طريقها من «المدينة» أو من جدة إلى مكة، فيقومون بنهب من لا يُظهر أي مقاومة أو دفاع عن النفس ويقتلون من يقاومهم.

بعد نزاع طويل الأمد، نجح سرور أخيراً في تقليص قوة الأشراف إلى الطاعة، وذلك عبر سَعْيه لكسب ودّ الطبقة الشعبية من المكيين والبدو من خلال بساطة أسلوب حياته واقتصاده الشخصي في الإنفاق وكرمه نحو أصدقائه إلى جانب شهرته في الشجاعة الزائدة والحصافة. وغالباً ما كان يُبرم اتفاقيات السلام مع أعدائه، لكن حروباً جديدة كانت تندلع بشكل متكرر. ويُقال إنه ذات مرة، كشف مؤامرة تُحاك لقتله في إحدى دوراته الليلية حول الكعبة وأنه رحمَ المتآمرين وصفح عنهم بنُبل وقام فقط بنفيهم. كما عمَد إلى تقوية القصر الكبير في مكة، ووضع عدداً كبيراً من العبيد المسلَّحين والبدو في خدمته باستمرار وكان يتحمل نفقات ذلك من أرباحه التي كان يجنيها من التجارة، فقد كان يقيم مبادلات تجارية نشيطة مع اليمن؛ وأخيراً، فرض على أقوى عائلات الاشراف الاغتراب واللجوء إلى اليمن بينما قُتل العديد منهم في المعارك وأُعدم آخرون. وانكبَّ سرور بعد ذلك على إعادة فرض العدالة. كما يُروى عنه العديد من الأفعال التي أكسبت حبّه للعدالة والإنصاف وذكاءه الكبير احتراماً عظيماً. وأخرج اليهود من جدة حيث كانوا قد اكتسبوا ثروات طائلة عبر عملهم في السمسرة وصفقاتهم الاحتيالية؛ وأمّن حماية الحجاج في تنقُّلهم عبر الحجاز، ونظّم جبي الضرائب والرسوم الجمركية التي كانت تُجمع بطريقة عشوائية. وحين توفي، تبع شعب مكة كله رُفاته إلى القبر. ولا يزال المكيون يعتبرونه قديساً ويبجّلون اسمه. بل ما يزال اسمه موضع احترام حتى من قبل الوهابيين.

سنة ١٧٨٥ أو ١٧٨٦، بعد موت سرور، خلفه عبد المعين، أحد إخوته، مدة أربعة أو خمسة أيام، حين قام أخوه الأصغر غالب، عبر مهارته المتفوّقة في المكايد وعبر شعبيته التي اكتسبها في زمن سرور من خلال بسالته وتفهُّمه وأسلوب حياته الجذّاب، بخلع عبد المعين وإكراهه على الانسحاب بصمت. وخلال السنوات الأولى من حكمه، كان غالب أداة لعبيد سرور وخصيانه ذوي النفوذ الذين كانوا أسياداً مطلقين على المدينة، وانغمس في اتباع السلوك المضطرب نفسه والظلم والقمع الذي كان يميّز الأشراف في السابق. غير أن غالباً حرَّر نفسه من نفوذهم واكتسب أخيراً سلطة أقوى وأصلب على الحجاز مما اكتسبه أي من سلفه، واحتفظ بها حتى أسهمت حروب الوهابيين، وخيانة محمد علي في وضع حدٍ لحكمه. لقد كانت حكومة غالب معتدلة أكثر من حكومة سرور، رغم أنها كانت أبعد عن العدالة. فقليل من الأمراء حُكموا بالموت وأُعدموا بأمر منه؛ غير أنه بات جشعاً وغالباً ما كان يسمحُ للمجرمين بمتابعة حياتهم لقاء دفع غرامات كبيرة. ولإتمام هذا الابتزاز، ملأ سجونه بالعنيدين؛ لكن الدماء لم تُسفك إلاّ في تعامله مع الوهابيين. فخلال حروبه مع هؤلاء الغُزاة، قام أصغر أبناء سرور،

عبد الله بن سرور وسيد بن سرور، بمحاولة اغتصاب الحكومة من عمّهما لكن دون نجاح؛ وحين عقدوا الصلح مع غالب سمح لهم بالعودة بهدوء إلى مكة حيث كانا يقيمان عندما وصل محمد علي. وقام محمد علي بإرسال عبد الله إلى القاهرة مع غالب، لكنه تلقّى الأوامر من الباب العالي بإطلاق سراح عبد الله الذي سبق له أن ذهب مرة إلى القسطنطينية للحصول على دعم السلطان ومساعدته ضد غالب.

إن جرأة عبد الله وتهوّره قد أكسباه في مكة عدداً من المعجبين أكثر من الأصدقاء؛ لكن يبدو مرجّحاً أنه في حال أجبر الأتراك مرة أخرى على مغادرة الحجاز، فإنه سيحل محلَّ أخيه يحيى، الزعيم الحالي الذي عيّنه محمد علي سنة ١٨١٣، والذي كانت شهرته ونفوذه في مكة يلائمان منصبه الفخري. فقد استولى الباشا على دخل حكومة مكة ومنح الشريف مخصّصات شهرية تبلغ خمسين محفظة دراهم فقط أو نحو ثمانمئة باوند، لإعالة جنده وأهل بيته. وكان هؤلاء الأخيرون نفسهم اسمياً كما كانوا قبل الغزو التركي، ويتألّفون من بعض الأشراف وبعض المكيّين، وعبيد حبشيين أو زنوج كانوا يُعيَّنون دون تمييز في الوظائف المتعددة حول شخصه، وهي ألقاب أُبّهيّة اقتُبست من الكتاب الأحمر في البلاط التركي. وكان غالب يضع وزيراً له في يَنْبُع والطائف ومكة وجدة، وكان يُدعى الحاكم في مكة والطائف. وكان له أيضاً «خزندار»، أو أمين الصندوق؛ وسلحدار، أو حامل السيف؛ ومهردار أو حافظ الخاتم، وبعض الموظفين الآخرين الذين كانوا أبعد من أن يُحسنوا قواعد التشريفات بشكل جدي أو أن يكونوا أشخاصاً ذوي شأن، كأولئك الموظفين في البلاط التركي. وكانت مؤسسة غالب الشخصية كلها تتألف من خمسين أو ستين خادماً وموظفاً، ومثلهم من العبيد والخصيان، إلى جانب نسائه إذ إنه كان يحتفظ بنحو أربع وعشرين جارية حبشية وضعف هذا العدد من الإناث ليقُمنَ بخدمتهنَّ وليسهرنَ على صحة أولاده. وكان هناك في إسطبلاته من ثلاثين إلى أربعين من الخيل من أفضل نسل عربي؛ وسبعة بغال كان يتنقل أحياناً على ظهرها، ومثلها من الجمال العربية. وقد علمت من أحد خُدّامه أنه كان يخرج يومياً من المخزن ما يُعادل خمسة عشر بوشِل (مكيال للحبوب) لاستعمال أهل البيت؛ هذا وربما إضافة إلى خمسين مكيالاً من الزبدة وخروفين، مما كان يشكل المصروف الأساسي من المؤن. وكان يستهلك ذلك، بجزء منه، البدو الذين أتوا إلى مكة بداعي العمل وكانوا معتادين على الذهاب إلى منزل الشريف طالبين حُسن وفادته، تماماً كما كانوا يُعرِّجون على شيخ في خيمته في مخيّم في الصحراء. وحين يغادرون، كانت أكياسهم تُملأ بالمؤن للطريق، كونها عادة عند العرب، فضلاً عن أن أشراف مكة كانوا يبدون دائماً رغبة عارمة في معاملة البدو بكثير من اللُّطف والتميُّز.

إن ثوب الشريف هو نفسه ذلك الذي يرتديه زعماء عائلات الأشراف كلهم في مكة، وهو

عادة عباءة من الحرير الهندي، تُسدل فوقها عباءة بيضاء من أفضل صناعات منطقة الإحساء على الخليج؛ وشال من الكشمير للرأس، وخفّان أصفران أو أحياناً صندل للرجلين. ولم أرَ أياً من الأشراف المكيين يعتمرون عمامة خضراء. فمن يدخل منهم في خدمة الحكومة أو يُدرَّب على حمل السلاح، والذين يدعوهم المكيّون «الأشراف» بشكل حصري، يلبسون عامة شالات من الكشمير الملوّن؛ والآخرون، الذين يعيشون حياة خاصة أو الذين يعملون في القانون والمسجد، يربطون شالاً صغيراً أبيض حول قلنسوتهم. إلاّ أن للأشراف علامة واحدة مميزة في ثوبهم وهي قلنسوة صوفية مرتفعة خضراء اللون، يلفّون حولها شالاً من الموسلين الأبيض أو من الكشمير؛ وتبرز فوقه القلنسوة كأني بها لتحجب أشعة الشمس عن وجه معتمرها؛ ولفائدتها في هذا الصدد، يعتمرها أحياناً كذلك الأشخاص المسنّون غير أنها ليست زِيّاً شائعاً.

حين يخرج الشريف، يحمل في يده عصاً قصيرة ورفيعة تدعى مطرق كتلك التي يستعملها البدو أحياناً عند ركوبهم الجمال، ويحمل خيّال يسير إلى جانبه مظلّة أو ظلَّة ذات تصميم صيني تُزيّنها شرابات حريرية، يرفعها فوق رأس الشريف حين تزعجه الشمس. هذه هي علامة الملكيّة الوحيدة التي يتميز بها الشريف حين يظهر بين الناس؛ وهي لا تستعمل حتى في أثناء سيره في الشوارع. وقد أجبره الوهابيون على ترك الظُلّة جانباً والذهاب إلى المسجد سيراً على الأقدام متذرّعين بأن ذلك يتناقض مع التواضع المطلوب عند المثول أمام الكعبة على ظهر الخيل. لكن حين كان غالب يتمتع بسُلطة مطلقة في مكة، أجبر الباشاوات الذين كانوا يرافقون قافلة الحجاج، بالاعتراف بحقّه في الأسبقيّة في كل الظروف؛ ونشر في كل أنحاء الحجاز اعتقاداً بأن منزلته كانت تفوق منزلة أي موظف من موظفي الباب العالي، وأنه حتى في القسطنطينية، يجب على السلطان نفسه، بمقتضى جدية قواعد التشريفات، أن ينهض ويحييه. لقد سبق أن ذكرتُ الكساء السنوي الذي يتلقاه الشريف من القفطانجي باشي وحسب المراسم التي تُقام عند وصول القافلة، يقوم الشريف بالزيارة الأولى إلى الباشا أو أمير الحج. ويتلقى هذا الأخير عند ردِّ الزيارة، حصاناً مزيّناً بغطاء مزركش أنيق من الشريف. وبعد عودة الحجاج من وادي مِنى، يقدّم له الباشا، في اليوم الأول حصاناً مشابهاً، ويتبادل الاثنان الزيارات في خيمهما عند مِنى. وحين تصبح القافلة جاهزة للرحيل من مكة، في طريق عودتها إلى بلادها، يزور الشريف الباشا مرة أخرى في مخيّمه خارج المدينة ويقدّم له هناك حصاناً آخر.

من المفترض أن تكون القبائل البدوية كلها في الحجاز خاضعة لسلطانه القضائي، وتُدرج أسماؤها على الأقل في سجلاته الخاصة وفي سجلات الباب العالي كرعايا السلطان والشريف المطيعين. وحين كان غالب في أقصى سلطته وأوجها، كان يتمتع بنفوذ ذي شأن على تلك القبائل لكن لم تكن له سلطة مباشرة عليها. فكانت تلك القبائل تنظر إلى الشريف وجنده

وأصدقائه بالنظرة نفسها التي كانوا يرونَ فيها أحد شيوخهم ومواليه؛ وكانت قوانين الحرب كلها الشائعة في الصحراء تراعى بدقة من قبل الشريف. وفي حملاته الأخيرة ضد الوهابيين، كان يرافقه ستة أو ثمانية آلاف بدوي انضمّوا إليه كما كان من شأنهم أن يفعلوا مع شيخ آخر، دون أن يتقاضوا أي أجر لقاء خدماتهم، لكنهم يتبعون زعماءهم الذين يكسب غالب اهتمامهم ومودتهم من خلال الهدايا التي يقدّمها لهم.

ولأولئك غير المطَّلعين على سياسات الصحراء، تشكل حكومة مكة شيئاً من الغرابة. لكن يمكن شرح كل شيء بسهولة إذا ما اعتبرنا الشريف زعيماً بدوياً قادتْه سلطته وثراؤه إلى التمتُّع بنفوذ وحكم عشوائيَّيْن؛ وقد تبنّى الشكل الخارجي لحاكم عثماني لكنه يلتزم بصرامة بكل العادات والأعراف القديمة لأمته. في الأزمنة السابقة، كان زعماء عائلات الأشراف في مكة يمارسون النفوذ نفسه كأرباب العائلات في المضارب البدوية، وتسود سلطة الزعيم الكبير فيما بعد ويُجبر الآخرون على الخضوع له. إلاّ أنهم يحتفظون في حالات عديدة بحقوق أسلافهم. وكانت الفئات المتنافسة تعتبر باقي المكيين غير متساوين معهم بل كمستوطنين خاضعين لسيطرتهم؛ بالطريقة نفسها التي تتحارب من خلالها القبائل البدوية لأجل القُرى التي تدفع لهم ضرائب معيّنة والتي يعتبرون سكانها في مرتبة أدنى منهم هم شخصياً. غير أننا يجب ألاّ ننظر إلى المكيين كسكّان المدن في المناطق الشمالية في تركيا، فقد كان لهم موقف في ضغائن الأشراف ونزاعاتهم كما شاركوا في النفوذ والسلطة التي حصل عليها زعماؤهم المتتالون. وحين قام سرور وغالب بالتتالي بمنح أنفسهما سلطة أشد مما تمتّع به أي من أسلافهما، اتحد الأشراف الباقون بشدة مع المكيّين وشكّلوا معهم، حتى الفترة الأخيرة مجموعة هامة وذات شأن بسبب ولعهم بالحرب. كما ثبت ذلك في مشاجراتهم المتكررة بين أنفسهم والمقاومة التي أظهروها ضد الحكومة حين كانت الإجراءات والتدابير التي تتخذها تؤثر سلباً في حياتهم؛ بالرغم من أنه قد تمّ التقليص من شأنهم إلى حد بعيد بحيث لا يثورون حين يتم الاستيلاء على أموالهم.

كانت حكومة غالب تتّسم بالرِّفق واللّين والحذر، على الرغم من الابتزاز المالي الذي كان يمارسه. فقد كان يحترم أَنَفَة المكيين ونادراً ما كان يقوم بمحاولات اعتداء على أمن الأفراد الشخصي أو حتى على ثرواتهم، رغم أنهم كانوا يرزحون تحت وطأة تلك القوانين التي كانت تمسُّهم وتزعجهم بشكل جماعي. وقد سمح لأعدائه الصريحين بالعيش بسلام في كنف عائلاتهم، وسمح للناس بالانغماس في شجارات دموية كانت تتكرّر دائماً بين بعضهم بعضاً، إما نتيجة ثأر الدم أو الحسد والغيرة التي كان يكنُّها سكان الأحياء المختلفة في المدينة لبعضهم

بعضاً؛ وكانوا يشتبكون أحياناً لأسابيع عدة لكنهم يستعملون عامة العِصي والرماح والخناجر دون الأسلحة النارية.

وهناك عادة لدى الأشراف أو نسل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المقيمين في مكة والجوار، الذين يتهجون بالأسلحة ويتورَّطون في أغلب الأحيان في شجارات مدنية، تقوم على إرسال كل صبي إلى خيمة ما عند البدو في الجوار، بعد ثمانية أيام من ولادته، حيث يُربّى مع الأولاد في الخيمة ويُنشأ كبدوي حقيقي لثمانية أو عشرة أعوام، أو إلى أن يصبح الولد قادراً على ركوب الفرس، فيعود به والده عندئذٍ إلى المنزل. ولا يزور الولد والديْه أبداً خلال تلك الفترة كلها، ولا يدخل المدينة سوى في شهره السادس، حين تحمله أمه بالرضاعة في زيارة قصيرة إلى عائلته وتعود به فوراً إلى قبيلتها. ولا يُترك الولد أبداً في حضن أمه أكثر من ثلاثين يوماً بعد ولادته، في أي حال من الأحوال؛ وأحياناً تُمدَّد فترة إقامته بين البدو حتى الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره. فيصبح بهذه الطريقة معتاداً على أخطار الحياة البدوية كلها وتقلُّباتها، ويعتاد جسده على التعب والحرمان، ويكتسبُ معرفة بلغة البدو الصِّرفة ونفوذاً بينهم يصبح فيما بعد في غاية الأهمية له. وليس هناك أي زعيم، من الشريف نزولاً إلى أشدِّهم فقراً، لم تتمّ تربيته بين البدو؛ كذلك فإن العديد منهم متزوّجون من فتيات بدويات. وقد نشأ أبناء عائلة الأشراف الحاكمة ضمن قبيلة عدوان التي تشتهر ببسالة أعضائها وحُسن وفادتهم؛ إلاّ أنها تقلَّصت بسبب حروب الأشراف الأهلية التي كانوا يشاركون فيها دائماً، وبسبب الغزو الأخير الذي قام به محمد علي، حين رأوا من الملائم ترك منطقة الحجاز واللجوء إلى مخيّمات قبائل السهل الشرقي. وكان عثمان المضايفة الزعيم الوهابي الشهير، والأداة الأساسية التي يستعملها سعود في إخضاع الحجاز، شيخاً من قبيلة عدوان. وقد تزوّج الشريف غالب بأخته. وكان يرسل الأشراف الآخرون أولادهم إلى مخيّمات هذيل وثقيف وبني سعد وغيرها، والقليل منهم إلى قبائل قُريش أو حرب.

إن الشريف الذي نشأ في مخيّمات البدو، يستمر في معاملتهم مدى الحياة بالاحترام نفسه الذي يعامل به أهله الحقيقيين وإخوته؛ فيدعوهم بالتتالي: والدي، أمي، أخي. ويتلقّى منهم في المقابل تسميات مماثلة. وهم كلما أتوا إلى مكة، يقيمون في منزل ربيبهم ولا يتركونه أبداً من غير أن يتلقّوا الهدايا. خلال فترة تلمذته، أطلق الشريف تسمية «أرحام» على أبعد أنسباء العائلة البدوية الذين كانوا يتمتّعون أيضاً بصداقته واهتمامه؛ كما يعتبر طوال حياته أنه ينتمي إلى المضارب التي أمضى فيها سنواته الأولى، ويُطلق على أهلها تسمية «شعبنا» أو «عائلتنا»؛ ويولي اهتماماً فائقاً بمصائرهم؛ ويقوم غالباً في أوقات فراغه بزيارتهم خلال أشهر الربيع ويرافقهم أحياناً في تجوالهم وحروبهم.

وقد أظهر غالب دائماً اهتماماً بعيداً بوالديه بالرضاعة؛ وكان كلما زاروه ينهض من مجلسه ويعانقهم، رغم أنهم لا يتميّزون عن أي من سكّان الصحراء الحقيري الثياب. وبالطبع، يحدث أحياناً أن الأولاد الأشراف لا يستطيعون التكيف بسهولة مع والديهم الحقيقيين في المنزل؛ بل يفرّون أحياناً لينضمّوا مجدداً إلى أصدقاء طفولتهم، بدو الصحراء.

إن هذه العادة التي وصفتها للتوّ هي غاية في القدم في شبه الجزيرة العربية. فقد نشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الغرباء، في قبيلة بني سعد، ويستشهدون به باستمرار عند التكلّم عن العادة التي لا تزال شائعة بين الأشراف. إلاّ أنهم الشعب الوحيد تقريباً في شبه الجزيرة الذي لا يزال يمارسها حتى الآن.

إن العرب الوحيدين الذين شهدت بينهم شيئاً مماثلاً هم البدو المدعوون «الموالي»[1]، وقد كانوا فيما مضى قبيلة واسعة السلطة، لكنها تقلّصت الآن إلى عدد ضئيل، وهم يرعون قطعانهم في المنطقة المجاورة لحلب. فإن العادة المتأصلة عندهم تقول بأن على ابن زعيم تلك القبيلة أن ينشأ في عائلة فرد آخر من القبيلة نفسها، لكن في مضارب أخرى عموماً، حتى يصبح كبيراً بما يكفي ليكون قادراً على تدبّر أمره بنفسه. ويدعو التلميذ مرشده «المربّي»، ويُظهر له أشد الاحترام فيما تبقى من حياته.

ويستمدّ الأشراف فوائد وحسنات جمّة من تنشئتهم البدوية؛ فيكتسبون ليس فقط القوة والنشاط الجسدي، بل أيضاً جزءاً من تلك الحيوية وحرية التصرف والجرأة التي تميّز سكان الصحراء؛ فضلاً عن عناية كبيرة بفضائل حسن الوفادة والإخلاص التي يكتسبونها أكثر مما لو نشأوا في مكة.

لم أرَ العديد من الأشراف. ومن بين العدد الضئيل الذي ما يزال الآن، كان بعضهم يعمل إما كدليل مع جيش محمد علي وإما قد تمّ دمجهم من قِبَله في فيلق بدوي صغير، بإمرة الشريف راجح، وهو أحد أعضائهم البارزين، وإما في خدمة الشريف يحيى الذي كان يُرسلهم في الخدمة إلى مراكز متقدمة باتجاه اليمن. وقد انسحب بعضهم بعد هزيمة غالب، إلى الوهابيين أو إلى اليمن حيث ما يزال عدد قليل منهم هناك. وأولئك الذين تسنّت لي رؤيتهم، خلال إقامتي في مكة، كانوا متميّزين بملامح رجولية جميلة تعبّر بقوة عن نسب نبيل؛ وكانوا يحافظون على العادات الخارجية للبدو؛ فهم أحرار وشجعان وصادقون وأصدقاء حميمون

(١) هذه القبيلة تنتمي أصلاً إلى الحجاز وقد سكنت في ضواحي المدينة. وكثيراً ما أشار المؤرخون إلى تلك القبيلة خلال القرن الأول بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم.

وأعداء لدودون، يسعون وراء الشعبية ويتمتّعون بأنَفة فطريّة تضعهم، حسب تقديرهم، في منزلة أرفع بكثير من سلطان القسطنطينية. ولم أشاهد رجلاً أكثر وسامة من الشريف راجح الذي ساهم وقاره ونُبل سلوكه وبطولته التي ذكرتها في معرض حديثي عن تاريخ حملة محمد علي، في تمييزه من بين الآلاف؛ كما أن أياً من الوجوه المفعمة بالحيوية والذكاء لا يمكن تصوّرها بسهولة كوجه الشريف غالب. أما يحيى، الشريف الحالي، فيتّسم ببشرة قاتمة كأبيه وكانت أمه جارية حبشية سمراء داكنة.

ولا يثق المكيون كثيراً بصدق الأشراف وأمانتهم. وقد أظهروا على الدوام تقلُّبات كبيرة في السلوك والطبع؛ لكن من الصعب أن تكون الحال غير ذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المحيط والزمن اللذين نشأوا فيهما، فقد ساهمت تربيتهم البدوية دون شك في جعلهم يفوقون الطبقة الشعبية من المكيين في نواح عديدة.

وليس بإمكان بنات الزعيم الحاكم أن يتزوجن أبداً؛ وبينما يلعب اخوتهن في الشوارع مع زملائهم الذين لا يتميّزون عنهم بشيء أبداً لا بالملبس ولا بالمظهر، تبقى الفتيات السيّئات الحظ سجينات منزل أبيهن. وقد رأيت أحد أبناء الشريف غالب الذي كان والده آنذاك في المنفى في سالونيك، وكان يلعب أمام منزل أبيه. لكنني سمعتُ أنه، حين يعود أبناء الشريف الحاكم من الصحراء وهم ليسوا بعد ناضجين بما يكفي للظهور بمظهر رجولي رسمي بين الناس، فإنهم يبقون ضمن منزل والدهم أو الفناء ولا يراهم إلاّ أفراد العائلة المقيمون في المنزل نفسه، ويظهرون علناً للمرة الأولى وهم يمتطون جواداً بجانب والدهم؛ ويبدأ اعتبارهم راشدين منذ ذلك الوقت، وسرعان ما يتزوّجون بعد ذلك ويشاركون في الشؤون العامة.

إن الغالبية الساحقة من أشراف مكة، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى القبيلة الحاكمة «بني زيد» أو ذوي زيد، يُشتبه بشدة بأنهم من المسلمين المتشيّعين الذين ينتمون إلى الزيدية أو أتباع زيد، وهو مذهب له العديد من الأنصار في اليمن وخاصة في الجبال حول صعدة.

غير أن الأشراف لا يعترفون بذلك، لكنهم يُطبقون تعاليم المذهب التقليدي الشافعي الذي ينتمي إليه أغلب المكيين؛ إلاّ أن الأشراف المقيمين في الخارج لا ينكرون ذلك؛ وكلما نوقشت بنود الشرع التي يختلف حولها الزيديون مع أهل السنّة، يتجنب الأشراف دائماً المشاركة في النقاش.

أعتقد أن الزيديين منقسمون إلى مذاهب مختلفة. فأولئك في اليمن ومكة يرون أن مؤسس مذهبهم هو الإمام الهادي إلى الحق اليقين، ابن الحسين، الذي يرجع نسله إلى الحسن بن علي. وقد وُلد في الرس في منطقة القصيم سنة ٢٤٥هـ، وقد ظهر تشيّعه للمرة الأولى في صعدة في

اليمن سنة ٢٨٠. وقد تحارب مع العباسيين واستولى على صنعاء التي أُخرج منها، وهاجم القرامطة بعد ذلك، وتوفي مسموماً في صعدة سنة ٢٩٨هـ. ويُرجع آخرون مصدر هذا المذهب إلى أبعد من ذلك، إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد قتل في الكوفة سنة ١٢١هـ، على يد جيش الخليفة هشام بن عبد الملك. ويبدو أن الزيديين يُضمرون عامة لعلي كل الإجلال والتوقير في الوقت نفسه الذي لا يلعنون فيه أبا بكر وعمر، كما يفعل الفرس. إن زيديي اليمن الذين ينتمي إليهم إمام صنعاء نفسه، يصنّفون مذهبهم باعتباره المذهب الخامس من مذاهب المسلمين المألوفة، بعد الحنفيين والشافعيين والمالكيين والحنبليين، وهم يُدعَون لهذا السبب بأهل المذهب الخمس. ويجاهرون في اليمن بعقائدهم، أما في مكة فهم يخفونها. وقد سمعتُ أن إحدى عقائدهم الأساسية تقول إنه لا يجوز في أثناء الصلاة، أكان في المسجد أم المنزل، استعمال تعابير أخرى غير تلك الواردة في القرآن، أو تلك التي تتألف من آيات في ذلك الكتاب.

وينظر المكيّون إلى الزيديين كمنشقّين، ويؤكدون على أنهم، كالفُرس، ينظرون إلى الخلفاء المباشرين لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نظرة ازدراء. وتُروى قصص عن الزيديين في اليمن الذين يكتبون اسم معاوية على الجزء الأكثر قذارة في منازلهم ليُظهروا احتقارهم له؛ لكن مثل تلك المعتقدات لا يتمّ إعلانها. ويتوافق الأشراف مع أهل السنّة في كل شيء مهما تكن آراؤهم الخاصة.

لقد سبق وذكرتُ أن قاضي مكة يُرسل سنوياً من القسطنطينية على وفق العادة المألوفة للحكومة التركية في ما يتعلّق بالمدن الكبيرة في الإمبراطورية. وقد بدأ هذا النظام مع أولئك الخلفاء العثمانيين الذين كانوا يعتقدون أنهم، عبر حرمان الحكام المحليين من إدارة العدل، ووضعها بين يدي رجل متعلم يرسلونه دورياً من القسطنطينية، ويكون مستقلاً تماماً عن الحكام، بإمكانهم بذلك منع هؤلاء الأخيرين من ممارسة أي نفوذ غير ضروري على المحاكم القضائية، ويتجنبون في الوقت نفسه عواقب بقاء القاضي في عمله لفترة طويلة. ولكن الأخلاق قد اختلفت في الإمبراطورية كلها إلى حد بعيد عما كانت عليه منذ ثلاثمائة عام مضت. فيرزح القاضي الآن في كل مدينة تحت النفوذ المباشر للحاكم الذي تُرك ليستبد كيفما شاء طالما أنه يُرسل إعاناته المالية المعتادة والمنتظمة إلى الباب العالي. ولا يستطيع أي كان أن يربح دعوى قضائية إلاّ إذا كان على علاقة طيّبة مع الحكومة، أو إذا قدّم رشوة إلى القاضي الذي يتقاسمها مع الحاكم أو يتغاضى عنها لقاء إذعان القاضي لمصالحه في حالات أخرى. كما أن رسوم المحكمة باهظة جداً وتبتلع عامة ربع المبلغ لرفع الدعوى؛ في حين تبقى المحكمة صمّاء أمام الحقوق الأكثر وضوحاً إذا لم تكن تدعمها الهبات التي تقدم إلى القاضي وإلى حشود الموظفين

والخدّام الذين يحيطون بكرسيه. ويؤيد الباب العالي هذه الفوضى ويشجّعها، حيث يُباع مركز القاضي هناك إلى أفضل مُزايد يعلم بدوره أنه سيسترد ما دفعه من مكاسب منصبه.

ويصبح القاضي الذي لا يعرفُ سوى القليل من اللغة العربية في تلك البلاد حيث يتدفق العرب إلى محكمته، تحت رحمة مترجمه الذي يكون مركزه دائماً عادة، فيعطي التوجيهات والإرشادات إلى كل قاضٍ جديد حول طرق الرشوة الشائعة في المكان ويأخذ حصة كبيرة من الحصاد. إن ممارسات الظلم السافرة والرشاوى الوقحة التي تحدث يومياً في المحاكم ستبدو غير معقولة لا بل مستحيلة تقريباً بالنسبة لأي أوروبي وخاصة إلى رجل إنكليزي.

لقد شارك قاضي مكة مصير إخوته القضاة في أجزاء أخرى من الأمبراطورية وكان خاضعاً كلياً لسنوات عديدة لنفوذ الشريف بحيث كانت تُقام الدعاوى القضائية كلها مباشرة أمام منبره. وهكذا قُلّصت مهام القاضي إلى إمضاء وقته في تسلية غير ذات منفعة. وقد أعلمني القاضي نفسه أن السلطان الكبير قد اعتاد فيما مضى على دفع مئة درهم سنوياً إلى قاضي مكة من خزينته، نظراً إلى المكاسب المالية التافهة آنذاك. ومنذ غزو محمد علي، استعاد القاضي أهميته بالنسبة نفسها التي تضاءل فيها نفوذ الشريف. وعندما كنتُ في مكة، كانت الدعاوى القضائية كلها تُبرم في المحكمة. ونادراً ما كان محمد علي يتدخّل بسلطته لأنه كان يرغب في استمالة وُدّ العرب، ويبدو أن القاضي نفسه قد تلقى منه أوامر صارمة للتصرُّف بوعي واحتراس؛ إذ إن العدل، في ذلك الوقت، كان يُطبّق بشكل جيد ومقبول، مقارنة بمحاكم أخرى على الأقل. ولم يكن السكان ينفرون من النظام الجديد للأمور. ويُعيِّن قاضي مكة المراكز القضائية في جدة والطائف التي تملأُ بالعرب وليس بالأتراك. وفي الدعاوى ذات الأهمية، يتمتع مفتي المذاهب الأربعة بنفوذ هام في صنع القرار.

ويأتي دخل الشريف بشكل أساسي من الرسوم الجمركية التي تُدفع في جدة. والتي، كما سبق أن ذكرت، بدل أن تكون مقسّمة بين الشريف وباشا جدة، حسب نوايا الحكومة التركية، كان يستولي عليها الأشراف الأخيرون كاملة، وهي الآن تحت سيطرة محمد علي. وقد زاد غالب كثيراً الرسوم الجمركية في جدة، وهي نفسها كتلك التي تُجبى في كل جزء من الأمبراطورية التركية، وقد كان ذلك السبب الرئيسي الذي دفع مجموعة التجار كلها إلى معارضته. كما رفع حصته الشخصية من التجارة بدرجة كبيرة جداً. حيث كانت تُوظف ثماني سفن تابعة له في تجارة القهوة بين اليمن وجدة ومصر. وحين يُعاني بيع هذه السلعة من البطء والركود، كان يُجبر التجار على شراء حمولاته لقاء مبالغ نقدية وبسعر السوق، بهدف إرسال عائداته من الدولارات إلى اليمن في أقرب وقت ممكن. وكانت تقوم سفينتان من أكبر

سفنه (كانت واحدة منها من صناعة إنكليزية، وتزن ثلاثمائة أو أربعمائة طن، اشتراها من بومباي) برحلة سنوية إلى بلاد الهند الشرقية، وكانت الحمولات التي تأتيان بها إلى البلاد، تُباع في الحج في مكة أو تُقسم بين تجار جدة الذين يُجبرون على شرائها.

إلى جانب مرفأ جدة، كانت تُفرض في مرفأ يَنْبُع، ـ حيث كان للشريف حاكم، ـ ضرائب مماثلة. كما كان يجبي ضريبة على المواشي والمؤن كلها التي كانت تُنقل من داخل البلاد إلى جدة، كما على تلك التي كانت تُنقل إلى مكة والطائف ويَنبع، باستثناء ما كان يأتي مع قافلتي الحج الكبيرتين من الشمال اللتين كانتا تمران أينما كان من غير ضرائب. ولا يدفع سكان مكة وجدة أي ضرائب أخرى غير تلك التي ذُكرت للتوّ، إذ إن منازلهم وأملاكهم كانت معفية من الرسوم الأخرى كلها؛ وهي ميزة لم يقدروها حق قدرها، رغم أن بوسعهم إجراء مقارنة بينهم وبين جيرانهم في مصر وسوريا. وكانت الفروع الأخرى من دخل الشريف عبارة عن الأرباح الناتجة عن بيع المؤن في مكة التي كان يمتلك منها مخزوناً مهماً جداً، رغم أنه لم يحتكرها كما فعل محمد علي، ولكن مخزونه الكبير مكّنه من التأثير في الأسعار اليومية؛ فضلاً عن ضريبة الأعناق المفروضة على الحجاج الفُرس كلهم، أكانوا آتين عبر البرّ من بغداد أم عن طريق البحر الأحمر واليمن؛ كذلك الهدايا الجمّة التي كانت تُقدم له مجاناً أو تلك التي كان ينتزعها من الحجاج الأثرياء الآتين من كل البلاد[1].

وكان الشريف يستولي على مقدار كبير من المال الذي كان يُرسَل من القسطنطينية إلى المدينة المقدسة والمسجد، لخزينته الخاصة. ويقال أنه كان يأخذ حصّة الهدايا كلها التي كانت تُقدَّم إلى المسجد. وكان غالب يملك أراضٍ شاسعة، فالعديد من البساتين حول الطائف والمزارع في وادي الحسينية ووادي فاطمة ووادي ليمون ووادي مديك Medyk، كانت ملكاً له. وكان له في جدة العديد من المنازل والفنادق التي كان يؤجرها للأجانب؛ وكان يشبه جداً خلفه محمد علي، بحيث أصبحت الأرباح التافهة والضئيلة جداً مسألة ذات أهمية لديه، فكان يوجِّه اهتمامه باستمرار نحو تجميع الثروة. وقد يبلغ دخل غالب السنوي، خلال أول حُكمه وسلطته، ما يقارب ثلاثمائة وخمسين ألف جنيه استرليني؛ لكن منذ احتلال الحجاز من قِبل الوهابيين، ربما لم يتعدَّ نصف هذا المبلغ.

وبما أن غالباً كان تاجراً وملاّكاً ويؤمّن السلع الاستهلاكية كلها بالدرجة الأولى، فلم تكن

(١) في السابق، عندما كان أشراف مكة أقوى نفوذاً، كانوا يفرضون إتاوة على قوافل الحجاج على غرار الإتاوة التي كان البدو يفرضونها عليهم. كان أبو نعمة يتقاضى سنة ٦٥٤ هجرية ثلاثين درهماً عن كل حمل في القافلة الآتية من اليمن وخمسين درهماً عن كل حمل في القافلة الآتية من مصر.

إعالة أهل منزله، كما أتصور، مع نسائه وجارياته، تتطلب ما يزيد عن عشرين ألف جنيه استرليني في السنة. وكان الشريف يحتفظ في زمن السلم بقوة عسكرية صغيرة دائمة لا تتعدى الخمسمائة رجل، كان منهم مئة في حامية في جدة وخمسين في الطائف وكذلك في ينبع والباقي في مكة، من هذه القوة، كان هناك ثمانمئة من الخيّالة بالإضافة إلى أهل بيته من الفرسان. وكان العديد من الجنود عبيده المنزليون، لكن الأغلبية الساحقة منهم كانت من البدو من أجزاء مختلفة من شبه الجزيرة، وكان أكثرهم عدداً من اليمن وجبال عسير ونجد. وكانوا يتقاضون بين ثمانية إلى اثني عشر دولاراً في الشهر؛ وكان يقودهم الأشراف الذين كانوا يطيعونهم كما يفعل البدو مع قائدهم خلال الحرب. أي، بما أنهم لم يتلقوا تدريباً على أي عمل منتظم، فقد كانوا يرافقون الشريف كلما قام بنزهة خارج المدينة، وعند العودة، يُطلقون نيران أسلحتهم، على وفق العادة العربية، وهم يثبون على نحو جامح حوله. وكان سلاح كتيبة المشاة عبارة عن بندقية فتيل خنجر معقوف، ولدى الخيالة الرماح.

وعندما كان غالب يدخل حرباً، كانت تكبر تلك القوة العسكرية عبر إضافة العديد من الأشراف وحاشيتهم، الذين لا يتقاضون أي أجر سوى الهدايا العرضية وحصة من الغنيمة التي يحصلون عليها حيث كانت هذه الحروب عامة موجهة ضد بعض القبائل البدوية التي كانت مواشيها الهدف الوحيد للغزو وكان ينضم إلى الشريف في تلك الظروف بدو آخرون كذلك كانوا يعودون مع مشايخهم إلى منازلهم عند انتهاء الحملة. وعند اندلاع الحرب الوهابية، حين بدأ الوهابيون بشن هجمات ناجحة على الحجاز، وجد غالب من الضرورة زيادة قوته العسكرية الدائمة؛ فقام لذلك بإضافة عدد من العبيد الزنوج إليها فبلغت ثمانمئة رجل، مقتدياً في هذا المضمار بأسلافه الذين كانوا يعتبرون العبيد الخاصين بهم أوفى الرجال تحت إمرتهم[1]. كما قام كذلك بتجنيد أعداد إضافية من البدو، فأصبح لديه خلال فترة القتال كلها من ألفين إلى ثلاثة آلاف رجل عامة، وهو عدد يُعتقد أنه كافٍ جداً لحماية مدنه. وكان، كلما خطّط لشنّ هجوم ضد الوهابيين، تجمع حلفاؤه من البدو، ويتقدم مرات عديدة باتجاه نجد مع قوة موحّدة مؤلفة من عشرة آلاف رجل. وحين اضطر هؤلاء الحلفاء إلى الإذعان للغزاة. وقُهر بدو الجنوب الذين كان غالب يعتمد عليهم بشكل أساسي؛ بجهود عثمان المضايفة العظيمة ونشاطه، وجد غالب نفسه وحيداً مع جنده القلائل عاجزاً عن مواصلة القتال، وسرعان ما أُجبر على الخضوع رغم أنه كان لا يزال يحتفظ بفرقة من الجنود لحسابه بعد أن استولى سعود على الحجاز بقوة، وأدار أعماله بموهبة وبراعة شديدتين للحفاظ على سلطته لينال تقدير الوهابيين واحترامهم.

(١) خلال القرن الماضي، كان أشراف مكة يحتفظون دائماً بثلة من الحرس الخاص من المماليك الجورجيين.

كانت المصاريف التي ترتّبت على زيادة قوات الشريف خلال الحرب الوهابية مرتفعة جداً؛ فكان ضرورياً تقديم الهبات إلى الأشراف والبدو ليبقيهم في خدمة مصالحه؛ لكنه لمرة واحدة إن كانت مصالحه مطابقة لمصالحهم؛ ويكتفي البدو عادة بمبالغ صغيرة رغم أنهم لا يملون أبداً من طلب الهدايا. ويمكن أن نُدرك بسهولة هنا أن غالباً لم يعش على وفق مقدار دخله خلال أي مرحلة من حكمه. وإنه لرأي شائع وعام في الحجاز، وأعتقده رأيا مبنياً على أساس متين في الحجاز، أن غالباً جمع خلال السنوات السبع والعشرين من حياته الرسمية، مبلغاً مالياً ضخماً. وعندما قبض عليه محمد علي، قُدِّرت ممتلكاته المتوفِّرة كلها التي وُجدت في مكة وجدة بنحو مائتين وخمسين ألف جنيه استرليني فقط. وافترض الناس أنه قام بإخفاء كنزه في قصر مكة، أو قام بإرساله إلى أصدقائه في الهند، بينما كان محمد علي يحضّر لهجومه. ومن المرجح أنه اعتمد الطريقتين في إخفاء ثروته، وهكذا فقد أضاف مرة أخرى إلى المبالغ الكبيرة التي تُدفن يومياً في الشرق من قبل رجال في السلطة وأشخاص عاديين. أي هذا هو الاستعمال السيىء الذي يوظف فيه الحكام الشرقيون ثرواتهم، بحيث يعاني ازدهار البلاد العام من الخسارة قليلاً[1].

(١) إن شيوع عادة إخفاء الثروات في تركيا، وسببها، سيظهر فوراً في سرد حادثة جرت سنة ١٨١٣ في القاهرة. فبعد أن طلب محمد علي ١٥٠٠٠ محفظة دراهم من الأقباط العاملين في الاقتصاد المصري، قسموا المبلغ بينهم. كما أن المعلم فلتيوس وهو رجل عجوز كان في السابق مموّلاً مهماً، أُجبر على دفع ١٢٠٠ محفظة دراهم أو نحو ١٨٠٠٠ جنيه إسترليني، وقد رفض دفع ذلك المبلغ مدّعياً الفقر؛ لكن بعد مفاوضات طويلة، عرض أخيراً تقديم ٢٠٠ محفظة دراهم. فأرسل الباشا في طلبه وهدّده وبعدما رأى تصميمه أمر بضربه. وبعد أن تلقّى خمسمائة ضربة بالعصي واقترب من الموت تقريباً، أقسم أنه لا يستطيع دفع أكثر من ٢٠٠. فاعتقد محمد علي أنه يقول الحقيقة، لكنّ ابنه إبراهيم باشا الذي صادف حضوره، قال إنه كان متأكداً أن الرجل يملك من المال أكثر من ذلك، فتلقى هذا الأخير ٣٠٠ ضربة إضافية اعترف بعدها أنه كان يملك المبلغ المطلوب ووعد بدفعه. فسُمح له حينها بالعودة إلى منزله وبعد انتهاء أسبوعين أي بعد أن شفي تماماً من تأثير الضربات التي تلقاها واستطاع السير، تمّ إرسال المبعوثين إلى منزله واستُدعي العمال ونزل معهم إلى أسفل منزله حيث أزالوا حجراً كبيراً كان يسد ممراً ضيقاً يحتوي على مشكاة مسقوفة حيث تمّ إيداع صندوقين حديديين. عند فتح تلك الصناديق، وجدوا ألفي محفظة دراهم أخذ منها الباشا ١٢٠٠ وترك الباقي للمالك الذي مات بعد ثلاثة أشهر ليس بسبب الضربات التي تلقاها ولكن حزناً على خسارة أمواله. ولو أنه استطاع نقل كنزه سراً فربما كان سيفعل ذلك، لو لم يتم وضع ضابط معه في بيته بمجرد أن وعد بدفع المال. فقد شك الباشا في أن أمواله كانت مخبأة في مكان سري ما كما هي العادة الشائعة في الشرق.

المناخ والأمراض في مكة وجدة

إن مناخ مكة ضارٌ وشديد الحرارة والرطوبة، فالصخور التي تحيط بواديها الضيق تعترض سبيل الرياح، خاصة تلك التي تهبُّ من الشمال، وتعكس أشعة الشمس بحرارة مضاعفة. وتكون الحرارة مفرطة في أشهر آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر، فخلال إقامتي في مكة عمّت المناخ ريح حارة خانقة في شهر أيلول/ سبتمبر استمرت خمسة أيام متتالية. ويبدأ موسم المطر عادة في شهر كانون الأول/ ديسمبر إلاّ أن الأمطار ليست متواصلة، فهي، كما في بلدان استوائية أخرى، تهطلُ فقط على فترات تمتد من خمسة إلى ستة أيام، لكنها غزيرة وعنيفة. كما أن وابل الأمطار مألوف حتى في فصل الصيف. ويقول المكيون إن الغيوم الآتية من جهة البحر هي تلك التي تروي الأرض بغزارة؛ بينما تلك الآتية من ناحية الشرق أو الجبال العالية، تُرسل مجرّد زخات من المياه. ويمكن أن نلمس هنا النقص كثيراً في الأمطار، فلقد علمتُ أنه نادراً ما نشهد أربع سنوات متتالية من الأمطار الغزيرة؛ وقد يكون ذلك السبب الرئيسي للفقر الذي يعاني منه البدو في هذا الجوار، إذ إن الأغلبية الساحقة من مواشيهم تنفقُ في سنوات الجفاف بسبب نقص المراعي.

إن المناخ في مكة شديد الجفاف عامة، ويبدأ الندى بالتساقط في شهر كانون الثاني/ يناير، بعد سقوط بعض الأمطار العنيفة. إن حالة جدة تشكل النقيض حيث يكون الجو رطباً حتى خلال القيظ الشديد، وتتكوّن الرطوبة من أبخرة البحر ومن المستنقعات المتعددة الموجودة على هذا الساحل المنخفض. إن رطوبة الهواء هناك مرتفعة جداً بحيث أني وجدتُ عباءتي الفوقية مبلّلة كلياً في يوم حار وصافٍ جداً من شهر أيلول/ سبتمبر، وذلك بسبب وقوفي لساعتين في الهواء الطلق. كما يتساقط الندى في الليل خلال ذلك الشهر وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر، ويظهر ضباب كثيف على الساحل عند المساء والصباح. وخلال أشهر الصيف، تهبُّ الريح بين الشرق والجنوب عامة ونادراً ما تنعطفُ نحو الغرب بل تتجه نحو الشمال أحياناً. وتهبُّ الرياح

الشمالية المعتادة في شهر أيلول/ سبتمبر وتستمر طيلة فصل الشتاء. إن الرياح الشمالية الشرقية تكون أكثر رطوبة من غيرها في الحجاز، كما هي على ساحل البحر في مصر، حيث تبدو أرضيّة المنازل الحجرية دائماً كما لو كانت مغطّاة بالندى، وذلك خلال الفترة التي تسود فيها تلك الرياح.

إن الأمراض السائدة في المدينتين هي نفسها تماماً، ويُعدُّ ساحل الحجاز ربما من بين البلاد الأكثر ضرراً بالصحة في الشرق. فالحمّى المتقطعة شائعة ومنتشرة إلى حدٍّ بعيد، كذلك حالات الزحار التي تنتهي عادة بانتفاخ البطن، وتكون أحياناً مميتة. والقليل من الأشخاص يمضون سنة كاملة دون أن يتعرّضوا لتلك الاضطرابات ولو بدرجة خفيفة. كما أن أياً من الأشخاص الغرباء لا يستقرُّ في مكة أو جدة دون أن يعاني حتماً من إحدى الاعتلالات تلك، خلال الأشهر الأولى من إقامته؛ وهو واقع قدَّم عنه الجيش التركي مثلاً وافراً، في ظل محمد علي باشا. إن الحمى الملتهبة أقل انتشاراً في جدة منها في مكة؛ لكن تزور المكان الأول حمًّى فاسدة، وهي، كما قال لي السكان، تبدو أنها مُعدية أحياناً؛ حيث توفي خمسون شخصاً إثرها في يوم واحد. ويذكر الأعصمي والفاسي بعض الأمراض الوبائية المتكررة في مكة، ففي سنة ٦٧١هـ، انتشر الطاعون الدَّبلي مما أوْدى بحياة خمسين شخصاً في يوم واحد. وفي سنوات ٧٤٩ و٧٩٣ و٨٢٩، غزت أمراض أخرى المدينة كذلك، وفي ٨٢٩ تحديداً توفي ألفا شخص. إلاّ أن هذين الكتابين لا يذكران الطاعون؛ ولا يظهر هذا المرض في ذاكرة السكان القدماء في الحجاز؛ حيث يسود اعتقاد بأن الله عزَّ وجل كان يحمي هذه المنطقة المقدسة من الخراب. لكن، في ربيع سنة ١٨١٥، انتشر هذا الوباء بعنف شديد، كما سأذكر ذلك لاحقاً، وفقدت مكة وجدة سُدس سكانهما تقريباً.

أما الرمد، أو التهاب العين، فليس معروفاً جداً في الحجاز. وقد رأيت حالة واحدة من الجُذام في بدوي في الطائف. ومرض الفُيال (تضخم هائل في عضو من الجسد) ودودة غينيا هما مرضان شائعان أيضاً، خاصة المرض الأول الذي رأيت منه حالات عديدة مخيفة. ويقال إن حصى المثانة أمر شائع في مكة، وقد يعود سبب ذلك إلى نوعية المياه الغريبة التي يتسبَّب سوء نوعيتها في هذا البلد الحار انتشار العديد من الأوبئة الأخرى، حيث تُستهلك منها كميات كبيرة يومياً. وقد سمعتُ أن الجراحين الوحيدين الذين يعرفون تطبيق عملية استخراج الحصى من المثانة، هم بدو من قبيلة بني سعد الذين يعيشون في الجبال التي تبعد نحو ثلاثين ميلاً عن الطائف. ويأتي بعضهم إلى مكة في زمن السلم سنوياً للقيام بهذه العملية التي يُرجعون مهارتهم فيها إلى مهارة موروثة غامضة في بعض العائلات في قبيلتهم. ويقال إنهم يستعملون موسى عادية ويُنجزونها بنجاح بشكل عام.

إن التقرحات على الأرجل وخاصة على القصبة، شائعة جداً في مكة لكن بدرجة أكبر في جدة حيث تجعل رطوبة الجو من علاجها أمراً أصعب بكثير منه في مكة. في الواقع، فإن أصغر خدْش في ذلك الطقس الرطب أو أي لسْعة حشرة، تستحيل قرحاً إذا ما أُهملت وسرعان ما تؤول إلى جرح مفتوح، فليس هناك أمر أكثر شيوعاً من رؤية أشخاص يمشون في الشوارع وعلى أرجلهم تقرُّحات من هذا النوع التي تُتلِف العظم غالباً إذا ما أُهملت. وبما أن علاجها يتطلب صبراً وراحة فوق كل شيء، فنادراً ما تستعمل الطبقات الدنيا العلاجات المناسبة في الوقت المناسب. وعندما يتفاقم الوضع إلى حالة يُصبح معها العلاج أمراً ضرورياً، يصعب إيجاد الأطباء الماهرين؛ فتنشأ الحمى ويموت العديد من المرضى. وأعتقد أن ربع سكان جدة مصابون بشكل مستمر بالتقرُّحات على الأرجل، وتتفاقم طبيعة هذه التقرُّحات السيئة بشدة بسبب استعمال مياه البحر للوضوء.

ونادراً ما كنت أتمتع بصحة جيدة خلال إقامتي في مكة. فقد أصابتني الحمى مرتين. وبعد رحيل قافلة الحج السورية أصبتُ بإسهال حاد، شُفيت منه بصعوبة حين ذهبتُ إلى «المدينة». وقد شعرتُ بتكاسل وإحباط نفسي في تلك الأيام وفقدان تام للشهية حتى عندما كنتُ خالياً من الأمراض. وخلال أيام الحج الخمسة، كنت بصحة جيدة لحسن الحظ، بالرغم من خشيتي من النتائج التي ستترتَّبُ عن ارتداء الإحرام. ووهنَتْ قوتي الجسدية جداً كما كان التجول على الأقدام يتطلب مني جهداً كبيراً.

لقد عزوتُ مرضي إلى سوء نوعية المياه بشكل رئيسي، إذ إن تجاربي السابقة علَّمتني أن طبيعتي الجسدية حساسة جداً بسبب حاجتي إلى المياه الخفيفة الجيدة، وهي المادة الأساسية الأولى للحياة في البلدان الشرقية. وقد تكون المياه المالحة في الصحراء مفيدة صحياً للمسافرين، حيث أن احترارهم من الرحلة والجهد الذي يبذلونه في ظل العقبات التي تُسبِّبها نوعية الطعام على الطريق، يجعل من تلك المياه سائلاً مُليِّناً وتزوّد المكان بجرعات طبّية. لكن الوضع يصبح معكوساً حين تستعمل المياه نفسها خلال إقامة مستمرة وثابتة وحين تصبح العادة هي السبيل الوحيد لتأقلم المعدة على احتوائها. ولو أنني كنت بصحة أفضل ومعنويات أعلى لكنت زرتُ بعض الأودية المجاورة نحو الجنوب أو أُمضيت بضعة أشهر بين البدو في الحجاز؛ لكن أسوأ مظاهر المرض التي تظهر على المسافر هي الجبن الذي يرافقه، والخوف الذي يملأ الذهن من التعب والمخاطر التي ما كانت في ظل ظروف أخرى، لتستحق الملاحظة.

إن أسعار المؤن الحالية في مكة في شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ١٨١٤ كانت كالتالي: (الليبرة: وحدة وزن رومانية قديمة تعادل ٣٢٧,٤٥ غرام).

	ليرة	بارة
ليرة واحدة من لحم البقر	٢	١٠
ليرة واحدة من الغنم	٢	
ليرة واحدة من لحم الجمال	١	
ليرة واحدة من الزبدة	٥	
ليرة من الجبنة الطازجة غير المملّحة	٣	
دجاجة	٦	
بيضة	—	٨
ليرة واحدة من الحليب	٢	
ليرة من الخضار، أي الكُرّاث والسبانغ واللفت والفجل والقرع والبصل الأخضر، الخ	-	٣٠
رغيف خبز صغير مستدير ومُسطح	-	٢٠
ليرة من البسكويت الجاف	-	٣٢
ليرة من العنب من الطائف	١	٢٠
ليرة من البلح	-	٢٥
ليرة من السكّر (الهندي)	٢	١٠
ليرة من القهوة	٢	٢٠
رمّانة واحدة	—	١٥
ليمونة واحدة	١	١٥
ليمونة حامضة (بحجم جوزة، نفس نوع الليمون المصري)	—	١٠
ليرة من التبغ السوري الجيد	٦	
ليرة من التبغ العادي	١	٣٠
ليرة من التنباك أو التبغ للغليون الفارسي	٣	
مكيال من الحنطة	٣	
مكيال من الطحين	٣	٢٠
مكيال من الأرز الهندي	٣	
مكيال من العدس المصري	٢	٣٠
مكيال من الخروب المجفف	١	
قربة ماء	١	٢٠
مقدار من الخشب يكفي لطهي طبقين	—	٢٠
أجر عامل واحد في اليوم	٣	
أجر حمّال للسير في المدينة مسافة نصف ميل	١	
الأجور الاعتيادية للخدم[1] إلى جانب الثياب والطعام في الشهر:	٣٠	
أجور الحرفيين، كالحدادين والنجارين، الخ، إلى جانب الطعام في اليوم	٥	

(١) لدى المكيين عبيد فقط؛ لكن العديد من المصريين مستعدون للدخول في خدمة الحجاج. إن الخدم الأكثر شيوعاً في عائلات مكة هم الأبناء الأصغرون سناً أو بعض الأقارب الفقراء.

ملاحظة: كان الدولار الإسباني يعادل من تسع إلى اثنتي عشرة ليرة خلال إقامتي في مكة، وكانت قيمته تتبدل يومياً. والليرة تعادل أربعين باراً (بارة) أو ديواني، كما تدعى في الحجاز إن الباوند أو الرطل في مكة فيه مئة وأربع وأربعين درام. الإردِب Erdeb المصري الذي يعادل نحو خمسة عشر بوشل إنكليزي (البوشل: مكيال للحبوب يساوي ٨ غالونات أو نحو ٣٢ ليتر ونصف)، يُجزأ هنا إلى خمسين كيلاً Keyles أو مقياساً. ويُجزأ الإردب في «المدينة» إلى ستة وتسعين كيلاً. والباوند في جدة هو تقريباً ضعف ما في مكة.

الحج

لقد ولّى الزمن (وربما إلى الأبد)[1] حين كان الحجاج من المناطق كلها في البلاد الإسلامية، يأتون كل سنة في حشود، كي يزوروا الأماكن المقدسة في الحجاز في تفانٍ وإخلاص. أما الآن، فإن زيادة اللامبالاة تجاه دينهم والتكاليف المرتفعة للرحلة تُعيق الأغلبية الساحقة من المسلمين عن تطبيق هذا الشرع القرآني الملزِم لكل مسلم بإمكانه تحمّل نفقات الحج إلى مكة مرة واحدة في حياته على الأقل. ويسمح الشرع للذين تُقيّدهم أشغالهم التي لا غنى عنها في أوطانهم باستبدال ذلك بالصلوات، لكن القليل من الناس الآن يلتزمون حتى بهذه الوصيّة، فهم يتهربون منها عبر إعطائهم بضعة دولارات لأحد الحجاج الذين يأخذون عمولات من النوع نفسه من عدة أشخاص، ليُدخل أسماءهم بناء على ذلك في الزيادات التي تُضاف إلى الصلوات التي يتلوها في أماكن الزيارات المقدسة. وحين كانت الحماسة الإسلامية أكثر اتّقاداً، كان يُنظر إلى تجشم المصاعب على أنه زيادة في الأجر، وأصبحت للعديدين دافعاً إضافياً للانضمام إلى القوافل والقيام بالرحلة كلها عبر البر. لكن، في الوقت الحاضر، لا ينضم أغلب الحجاج إلى أي قافلة عادية، بل يصلون إلى جدة عبر البحر من مصر أو الخليج الفارسي، تدفعهم إلى ذلك المضاربات التجارية المربحة.

سنة ١٨١٤، وصل العديد من الحجاج إلى مكة، قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من الوقت المحدد للحج. وإن إمضاء شهر رمضان في المدينة المقدسة يشكّل إغراء كبيراً لمن يستطيع تحمل النفقات من الحجاج، فيسرّعون وصولهم ويُمدّدون فترة إقامتهم فيها. ونحو الوقت المتوقّع لوصول القوافل الاعتيادية، أتى عبر البحر أربعة آلاف حاج على الأقل من تركيا، كانوا قد تجمّعوا في مكة، ونصف هذا العدد ربما من مناطق أخرى بعيدة من العالم الإسلامي. ومن بين

(١) خاب أمل المؤلف فما زال المسلمون يحجون بيت الله الحرام بمئات الآلاف كل عام.

القوافل المنتظمة الخمس أو الست التي كانت تصل دائماً في السابق إلى مكة قبل بضعة أيام من الحج، ظهرت اثنتان فقط هذه السنة، وكانتا آتيتين من مصر وسوريا. وكانت الأخيرة مؤلفة كلياً من أناس ينتمون إلى حاشية قائد الحج، وجنده؛ إذ إن أياً من الحجاج لم يأتِ عبر البرّ من القاهرة، بالرغم من أن الطريق كانت آمنة.

كانت القوافل السورية دائماً هي الأقوى، منذ الوقت الذي كان فيه الخلفاء يرافقون الحجاج من بغداد شخصياً. وهي تنطلق من القسطنطينية وتجمع الحجاج من آسيا الشمالية عند مرورها عبر الأناضول وسوريا حتى تصل إلى دمشق حيث تبقى لعدة أسابيع. ويولى اهتمام كبير بأمن القافلة وراحتها خلال الطريق كلها من القسطنطينية إلى دمشق، فترافقها قوات الحكام المسلّحة من مدينة إلى مدينة. وقد بُنيت الفنادقُ عند كل محطة وسُبل المياه العامة بأمر من السلاطين السابقين وذلك لراحة القافلة عند مرورها والتي تُصاحبها الابتهاجات والمهرجانات. في دمشق، من الواجب الاستعداد لرحلة تستمر ثلاثين يوماً عبر الصحراء إلى «المدينة»، ويجب أن تُبدَّل الجِمال التي وصلت إلى هذا الحد، لأن الجملَ الأناضولي ليس قادراً على تحمُّل التعب والمشقّات في رحلة كتلك. وتجهّز كل مدينة تقريباً في الجزء الشرقي من سوريا حيواناتها لذلك الهدف، ويتفاوض كبار المشايخ البدو كثيراً على الجمال مع حكومة دمشق، على حدود تلك البلاد. ومن الأرجح أن عددهم كبير جداً، حتى وإن لم تُلازم القافلة أعداد كبيرة، وذلك حين نأخذ بعين الاعتبار أنه إلى جانب تلك التي تحمل المياه والمؤن للحجاج والجنود، والخيل والجمال الاحتياطية التي تحل محل تلك التي تعجز عن متابعة الطريق، فإن الطعام اليومي للجِمال أنفسها يجب أن يُحمل كذلك؛ فضلاً عن المؤن التي تودع في القلاع على طريق الحج لتشكل مخزوناً لطريق العودة. ويهتمُّ البدو كذلك كثيراً في ألاّ تزيد حمولة الجمال عما يجب، بحيث تتم زيادة كهذه العدد المطلوب. سنة ١٨١٤، كانت القافلة تضم خمسة عشر ألف جمل[١] بالرغم من أنها كانت تتألف فقط من أربعة إلى خمسة آلاف شخص ليس إلاّ، بمن فيهم الجنود والخدم.

(١) يروي الفاسي أنه حين قامت والدة المعتصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين، بتأدية الحج سنة ٦٣١هـ، كانت قافلتها مؤلفة من مئة وعشرين ألف جمل. وحين قام سليمان بن عبد الملك بتأدية الحج سنة ٩٧هـ، وُظِّف تسعمئة جمل لنقل ثيابه فقط. ومن الملاحظ أن أياً من الخلفاء العثمانيين لم يؤدِ الحج شخصياً أبداً. كما أن الخليفة المهدي أبا عبد الله محمداً، صرف في حجه سنة ١٦٠هـ، ثلاثين مليون درهم. فقد حمل معه عدداً هائلاً من العباءات لتوزيعها كهدايا، وقد بنى بيوتاً جميلة في كل محطة من بغداد إلى مكة وقام بفرشها بطريقة رائعة؛ كما قام بتشييد معالم عديدة على طول الطريق كلها، وكان الخليفة الأول الذي حمل الثلج معه ليبرِّد، عصير الفاكهة على الطريق وقد قلّده العديد ممن خلفه. إن هارون الرشيد، الذي قام بتأدية الحج تسع مرات، أنفق في إحدى زياراته مليوناً وخمسين ألف دينار في الهدايا التي قدمها إلى المكيين وإلى الحجاج الفقراء. وسلطان مصر، الملك ناصر الدين أبو المعالي، نقل معه في رحلة الحج سنة ٧١٩هـ، خمسمائة جمل وذلك لحمل الحلويات والمربيات فقط، ومائتين وثمانين جملاً لحمل الرمّان واللوز وفاكهة أخرى، وكان في موضعه الخاص بحفظ اللحوم والأطعمة ألف إوزّة وثلاثة آلاف طير أو دجاجة. بحث المقريزي، **«من حجّ من الخلفاء»**.

إن القافلة السورية منظمة بشكل جيد، بالرغم من أن الاستثناءات تكثر جداً في كل شؤون الحكومات الشرقية. ويُرافق هذه القافلة دائماً باشا دمشق أو أحد ضباطه الرئيسيين، ويعطون الإشارة بالتخييم والانطلاق عبر إطلاق بندقية قديمة الطراز تدعى مسكيت. على الطريق، تسير مجموعة من الخيالة في المقدمة وأخرى في الخلف لوقف الفوضى؛ وتبقى مجموعات الحجاج المختلفة المصنَّفة حسب المقاطعات أو المدن التي أتت منها، مجتمعة مع بعضها، وتعرف كل منها موقعها الثابت في القافلة بتسلسل يحاكي قربها الجغرافي في المكان الذي أتت منه. كما تتم المحافظة على الترتيب نفسه باستمرار عند التخييم، وهكذا، يخيّم أهل حلب دائماً بالقرب من أهل حمص، الخ. إن هذا النظام ضروري وأساسي لمنع الفوضى خلال المسيرات الليلية(١).

ويتعاقد الحجاج عادة مع مقوِّم، وهو شخص يقوم بتأمين الجِمال والمؤن للحج. ويُعنى كل مقوّم بنحو عشرين إلى ثلاثين حاجاً وهو يملك خيمه وخدمه ويُريح الحجاج من أي إرهاق أو مشاكل على الطريق. فيتم تحضير الخيم والقهوة والماء والفطور والعشاء لهم، فلا يتحمَّلون عناء التوضيب والتحميل. وإذا ما نفق جمل فإنه من واجب المقوّم أن يجد آخر؛ ومهما زادت الحاجة إلى المؤن على الطريق فإن عليه تزويد مسافريه بوجباتهم اليومية.

سنة ١٨١٤، كانت تبلغ كلفة استئجار مقوِّم وتناول الطعام على مائدته، مائة وخمسين دولاراً، من دمشق إلى المدينة، وخمسين دولاراً إضافياً من المدينة إلى مكة. من المائتي دولار تلك، كان المقوِّم يعطي ستين دولاراً لرجل يقود الجمال بواسطة الرسَن خلال المسيرات الليلية. إذ يجب الاحتراس وأخذ الحيطة في قوافل بهذا الحجم، حين يسترسل الراكب في النوم، ويمكن للجمل أن يهيم بسهولة مبتعداً عن الطريق. ويتلقّى المقوِّم دائماً، فضلاً عن الأجرة المتفق عليها، بعض الهدايا من حجاجه. وفي طريق العودة إلى سوريا، يكون المبلغ أقل نوعاً ما حيث يكون العديد من الجمال دون حمولة.

قليلون هم الحجاج الذين يختارون القيام بالرحلة على مسؤوليتهم الشخصية أو على جمالهم الخاصة. فإن لم يكونوا في حماية جماعة الجند أو رئيس القافلة، يجدون صعوبة في الهروب من معاملة المقوِّم السيئة عند موارد المياه وفي أثناء السير؛ حيث يسعى هذا الأخير جاهداً للحد من الرحلات غير التابعة له بكل الوسائل المتوفرة بحيث يصعب القيام بذلك على الحجاج كلهم إلاّ الأثرياء منهم القادرين على تشكيل مجموعة خاصة تصل إلى أربعين أو خمسين شخصاً.

(١) في رحلات كاتبنا في سوريا، سيجد القارىء بعض الملاحظات الإضافية عن قافلة الحج هذه، وفي ملحق هذا الكتاب، رقم ٣، سيجد تقريراً عن الطريق بين دمشق ومكة.

وتُضاء المصابيح ليلاً، وتُقطع المسافة اليومية عادة بين الساعة الثالثة من بعد الظهر وبين ساعة أو اثنتين من شروق شمس اليوم التالي. ويسافر البدو الذين يحملون المؤن للجند خلال النهار فقط، متقدمين على القافلة التي يمرون بها في الصباح لتدركهم هذه الأخيرة وتتجاوزهم في الليلة التالية عند المكان الذي يرتاحون فيه. إن الرحلة مع هؤلاء البدو أقل إرهاقاً منها مع جسم القافلة الضخم، لأنهم يرتاحون ليلاً بانتظام، إلاّ أن أخلاقهم السيئة تُثني معظم الحجاج عن الالتحاق بهم.

وهناك على الطريق، عند كل مورد ماء، قلعة صغيرة وخزان كبير ترتوي عنده الجمال. ويحرس القصور بعض الأشخاص الذين يقون طوال السنة لحراسة المؤن المودعة هناك. وعند موارد المياه تلك التي تخص البدويين، يلتقي شيوخ القبائل بالقافلة ويقبضون الإتاوة المعتادة. ونجد المياه بوفرة على الطريق حيث إن موارد المياه لا تبعد عن بعضها بعضاً أكثر من مسير إحدى عشرة أو اثنتي عشرة ساعة. كما تكثر في الشتاء البرك التي تتجمع من مياه الأمطار. ويتمكن الحجاج الذين يسافرون وهم مجهّزون بحمّالة أو سرج واسع، من النوم ليلاً فيقومون بالرحلة دون عقبات أو إزعاج؛ إلاّ أن أولئك الذين دفعهم الفقر أو الرغبة في تحصيل مبلغ كبير من المال بسرعة إلى اللحاق بالقافلة سيراً على الأقدام، أو إلى العمل كخدم لقاء أجر معيّن، يموت العديد منهم على الطريق جرّاء التعب.

تتبع القافلة المصرية التي تنطلق من القاهرة النظام نفسه كالقافلة السورية، غير أنها نادراً ما توازي تلك الأخيرة في العدد، لأنها تتألف من المصريين فقط، إلى جانب الحرس العسكري. والطريق التي تتبعها أكثر خطورة وإرهاقاً من طريق القافلة السورية؛ فالطريق على طول شاطىء البحر الأحمر تمر على الأراضي التابعة لقبائل البدو الهمجيين المحاربين، الذين كثيراً ما يسعون إلى إيقاف جزء من القافلة بالقوة. كما أن موارد المياه أقل منها على الطريق الأخرى بكثير؛ حيث تفصل عادة مسافة ثلاثة أيام بين الآبار التي نادراً ما تكون غزيرة، وهي مالحة باستثناء اثنتين أو ثلاثة منها. سنة ١٨١٤، كانت هذه القافلة تتألف من الجند فقط ومن حاشية الجمل المقدس وبعض الموظفين العامين؛ إذ إن كل الحجاج المصريين قد فضّلوا المرور عن طريق السويس. سنة ١٨١٦، انضم العديد من نبلاء القاهرة إلى الحج، وكان أحدهم يملك مائة وعشرة جمال لنقل أمتعته وحاشيته وثماني خيم. وقد بلغت كلفة ذهابه وإيابه عشرة آلاف (باوند). وكان هناك أيضاً نحو خمسمائة فلاح مع نسائهم من شمال مصر وجنوبها ممن لا يخشون الإرهاق والمخاطر في الصحراء بقدر ما يخشونها في البحر. وقد رأيت معهم فرقة من فتيات الهوى والراقصات اللواتي كن يُخيّمن ويتجهّزن بالطريقة الأكثر فخامة في القافلة. وتُرافق القافلة السورية حاجات من النساء من الطبقة نفسها.

وقد توقفت قافلة الحج الفارسية التي اعتادت على الانطلاق من بغداد والمرور عبر نجد ومكة، وذلك حين أوقف الوهابيون قافلة الحج السورية. وبعد أن عقد عبد الله بن سعود اتفاقية سلام مع طوسون باشا سنة ١٨١٥، غامرت تلك القافلة في عبور الصحراء ومرت عبر الدرعية دون أن تتعرض للمضايقات، لكن على بعد أربعة أيام من مكة، هاجمها بنو شمَّر وهم قبيلة بقيتْ على الحياد خلال الحرب بين طوسون والوهابيين. فعادت عند ذاك القافلة إلى الدرعية وقد استرجعت السلع التي نُهبت منها من خلال وساطة سعود الذي أرسل جماعة من رجاله لمواكبتها إلى المدينة المقدسة.

ويواكب القافلة الفارسية عادة العرب من قبيلة العجيل من بغداد. ولأن حجاج تلك القافلة هم من المشيّعين، فهم كثيراً ما يتعرضون للابتزاز على الطريق، وقد فرض عليهم سعود ضريبة أعناق مرتفعة، كما فعل الشريف غالب في مكة حيث بلغت الضريبة في الآونة الأخيرة ثلاثين (سيكوين) على الشخص، وكل الحجاج الفرس هم من الملاكين، ولا يعاني أي من الحجاج ما يعانونه هم من ثقل الضرائب خلال الطريق كلها. ويأتي العديد منهم عبر البحر حيث ينطلقون من البصرة إلى المخا؛ وهم إن كانوا من أصحاب التجارة، يتجهون مباشرة نحو جدة؛ وإن لم يكونوا كذلك، فهم ينظّمون نفسهم في قافلة ويأتون عبر البر على طول ساحل اليمن. وسنة ١٨١٤، حين كنتُ حاضراً في الحج، كان العدد القليل من الفرس الذين أتوا عبر البر قد مروا عبر بغداد إلى سوريا ولحقوا بالقافلة السورية يرافقهم راكبو جمال من بغداد.

ويجدر الذكر هنا أنه لم يكن يُسمح للفرس بالمجيء إلى المدينة المقدسة؛ فهم معروفون بالمنشقين، وهم يخفون عقائدهم فقط خلال الحج كي لا يثيروا استياء أهل السنّة. سنة ١٦٣٤، أي بعد بضع سنوات من إعادة بناء الكعبة، أمر السلطان مراد الرابع بمنع أي فارسي متشيّع لعلي من القيام بالحج أو الدخول إلى بيت الله. وتمّ الإذعان لهذا المنع لعدة سنوات. إلاّ أن المال الذي أنفقه الفرس سرعان ما أعاد فتح الطريق أمامهم إلى عرفات والكعبة. وحسب الأعصمي، فقد قُتل أحد شيعة علي على الخازوق في مكة لأنه لم يقبل بشجب معتقده أو الارتداد عنه.

وباتت قافلة الحج المغربية غير منتظمة لعدة سنوات. ويرافقها عادة أحد أقرباء ملك مراكش، حيث تنطلق من مقر إقامته بطيئة باتجاه تونس وطرابلس فتجمع المزيد من الحجاج عند كل مقاطعة تمر بها. وتمتد طريقها على طول شواطىء سيرت إلى درنة، ثم على طول ساحل مصر مروراً إما بالإسكندرية أو باتجاه بحيرة النطرون مباشرة إلى القاهرة فتتبع من هناك الطريق المعتادة إلى الحج. وتزور هذه القافلة «المدينة» دائماً عند عودتها من مكة، وهذا ما لا يفعله الحاج

المصري، وتمتد طريقها أحياناً عبر البر حتى القدس. ويرافقها القليل من الجند، غير أن حجاجها مسلحون جيداً ومستعدون للدفاع عن أنفسهم. أما في القافلتين الكبيرتين الأخيرتين، فلا أحد يحارب إلاّ رجال المواكبة.

لقد مرّت القافلة المغربية الأخيرة عبر مصر سنة ١٨١١، وقد سمح لها الوهابيون بزيارة مكة بعد أن علموا أن حجاجها لا يمارسون العادات المخزية التي وُسم بها المصريون والسوريون. إلاّ أن هذه القافلة قد عانت من مشاكل عديدة في طريق عودتها، من الأعداء ومن جراء غياب أي دليل معها ومن النقص في المؤن الذي مات بنتيجته العديد منهم. ويصل الحجاج المغاربة الآن عبر البحر عادة إلى الإسكندرية، ثم ينطلقون مجدداً في السويس في مجموعات من خمسين أو مئة شخص. وهم رغم ثيابهم الرثة الفقيرة، يملكون ما يكفي من المال لتحمل نفقاتهم، والقليل منهم متسولون؛ غير أني رأيت من هذه الفئة مجموعة صغيرة من العرب من منطقة دراع على الجانب الجنوبي الشرقي من جبل أطلس، وقد انطلقوا مع القافلة المصرية عبر البر في شهر أيلول/ سبتمبر من سنة ١٨١٨. وعلمت منهم أنهم حصلوا مجاناً على العبور من تونس إلى الإسكندرية بحراً. وكان أحدهم بدوياً من شعب شيلوح، وكان مخيّمه على مسافة عشرين يوماً من تومبكتو حين غادره.

وهناك كذلك في القافلة المغربية عامة بعض أهل جزيرة جربه. ويشتبه بأنهم من شيعة علي، وقد استقر بعضهم في القاهرة وهم يقطنون الحي المدعو طيلون، ويبقون منفصلين تماماً عن كل المغربيين في المدينة. لكن الأغلبية الساحقة من القافلة آتية من مملكة المغرب.

حسب اعتقادي، يبلغ أقصى عدد من حجاج بلاد المغرب البرابرة سنوياً، ألفي حاج. وقد ضمت القوافل الأخيرة جمعاء من ستة إلى ثمانية آلاف رجل.

وكانت قافلتا حج يمنيتان تصلان إلى مكة في السابق عبر البر. وتُدعى الأولى حج القبسي وتنطلق من صعدة في اليمن وتتابع سيرها على طول الجبال إلى الطائف ومكة. ويظهر في الملحق خطيّ سَيْر لهذه القافلة مع بعض الملاحظات عنها، وقد أتت القافلة الأخرى التي كانت تتألف من أهل اليمن والفرس والهنود الذين وصلوا إلى موانيء ذلك البلد، على طول الساحل. وقد توقّفت هذه القافلة نحو سنة ١٨٠٣، ولم تتمّ حتى الآن إعادة تأسيسها. وقد كانت فيما مضى كبيرة وغنية بالسلع والقهوة، وكانت تتشرّف أحياناً برفقة أئمة اليمن. وكالقافلتين السورية والمصرية، فقد كان لتلك القافلة موقعها الخاص للتخييم قرب مكة حيث بُني خزّان حجري كبير لتزويدها بالمياه.

وقد رأيتُ الطريق التي تتبعها قافلة الحج الهندية وقد رُسمت على عدة خرائط، وهي تبدأ

من مسقط وتمرّ بنجد إلى مكة؛ غير أني لم أحصل على أي معلومات عنها، وتلك التي كانت متوفرة سابقاً قد تكون نابعة من الذِكر المتكرر لها من المؤرخ الأعصمي. كما أن الأشخاص الذين استطلعتُهم أكّدوا لي أن ليس هناك قافلة كتلك قد وصلت، حسبما يذكرون؛ لكني أعتقد أنه، في زمن السلم، كان يصل إلى الحجاز متسوّلون هنود وفرس وعرب، في مجموعات صغيرة عبر الطريق المذكورة أعلاه.

قبل أن يتغلب الشريف سرور على سلطة الأشراف، كان هؤلاء ينتزعون من كل قافلة تأتي إلى مكة مبالغ ضخمة إلى جانب الصرّة التي كانوا يحصلون عليها. وكانوا، ما إن يسمعوا باقتراب قافلة ما، حتى ينطلقوا من مكة مع كل جندهم المسلحين وأصدقائهم من البدو، فيتنازعون غالباً مع قادة القافلة لعدة أيام قبل أن يتمّ دفع الإتاوة.

وبإمكاننا أن نضيف إلى القوافل المعتادة المذكورة أعلاه، مجموعات كبيرة من البدو الذين يأتون إلى مكة خلال السلم من كل أنحاء الصحراء، لأن لقب الحاج كان يلقى احتراماً وتقديراً كبيرين حتى بين البدو الأقل التزاماً بالدين، فكان أهل نجد يرسلون الحجاج وكذلك كان يفعل بدو الجنوب. وعندما كان الوهابيون يسيطرون على مكة، كانت حشود من تلك الطائفة تأتي إلى عرفات بهدف التودُّد إلى زعيمهم الذي عُرف عنه حبه لرؤية شعبه من العرب مجتمعين هناك، كما كانت لديه أهداف دينية كذلك. وكانت سنة ١٨١١ المرة الأخيرة التي قام بها الوهابيون فيها بتأدية الحج، وذلك بعد فترة قصيرة من الهزيمة الأولى التي لحقت بطوسون باشا في الجدَيْدة؛ وكان يرافقهم مجموعات كبيرة من البدو من قبيلة قحطان وعسير، وآخرين من الأجزاء الداخلية من الصحراء. وكانت تباع المسلوبات المأخوذة من الجيش التركي إلى المكيين في السوق في عرفات. وأذكر هنا أن علي بك العباسي ارتكب هفوة كبيرة مع حشود الوهابيين حين رآهم يدخلون مكة في وقت الحج، حيث توهّم أنهم قد أتوا ليسيطروا على المدينة، وهو يُثني على نفسه بأنه كان حاضراً عند أول دخول وهابي لمكة بينما كان بوسع أي ولد في المكان أن يُعلمه بأن ذلك قد حدث قبل ثلاث سنوات من وصوله إلى الحجاز.

كما سبق أن ذكرت، يصل معظم الحجاج إلى جدة عبر البحر في الوقت الحاضر، فأولئك الآتون من الشمال يبحرون في السويس أو القُصير Cosseir وبينهم نسبة كبيرة من حجاج بلاد المغرب البرابرة إلى جانب العديد من الأتراك من الأناضول والأتراك الأوروبيين والسوريين والعديد من الدراويش من بلاد الفرس، والتتار والمناطق التي تروى بمياه الإندوس. إن الحاجة إلى السفن في البحر الأحمر الناتجة عن الطلب المتزايد لها بغية تزويد الجيش التركي في الحجاز، تجعل من العبور عملية غير أكيدة؛ وتفوتهم الفرصة أحياناً فيصلون متأخرين على الحج كما

حدث لمجموعة سنة ١٨١٤ وصلت إلى مكة بعد ثلاثة أيام من الحج بعد أن احتُجزتْ طويلاً في السويس. وبسبب سوء نوعية السفن ووضعها غير المريح، يصبح العبور مكروهاً ويكون أحياناً محفوفاً بالمخاطر. ولم يقم محمد علي باشا إلى الآن بأي شيء لجعل هذه الرحلة أكثر راحة للحجاج؛ لكنه على العكس، فرض ضريبة عليهم من خلال عقد إجباري يدفعون بموجبه مبلغاً كبيراً لقاء مرورهم إلى جدة (كان يبلغ سنة ١٨١٤، ثمانية عشر دولاراً للشخص)، وذلك بالاتفاق مع حاكمه في السويس الذي كان يوزّعهم على متن السفن العربية ويدفع لرؤسائها ستة دولارات للشخص فقط. وكان يُسمح للحجاج في السابق أن يحملوا من السويس كمية كبيرة من المؤن بقدر ما يريدون، يبيعون قسماً منها في الحجاز لجني بعض الأرباح؛ لكن في الوقت الحاضر، لا أحد يستطيع الإبحار مع ما يفيض عن استهلاكه الشخصي خلال الحج. إن السبب الرئيسي الذي كان يجعلهم يفضلون السفر بحراً هو الحسنة المتمثلة في نقل المؤن معهم، وخاصة الزبدة والحنطة والبسكويت واللحم المجفف، التي يشترونها في مصر بسعر بخس، مما يكفيهم للرحلة بأكملها. أما أولئك الذين يسافرون براً، فكان عليهم شراء كل المؤن في مكة حيث الأسعار مرتفعة.

وإذا لم يسمع الحجاج الأجانب، عند وصولهم إلى القاهرة، عن أي سفن راسية في ميناء السويس، فهم يتابعون طريقهم على نهر النيل حتى الجِنّة «Genne»، ومن هناك، يعبرون الصحراء إلى القصير فتصبح الرحلة إلى جدة قصيرة. وتُفضِّل الأغلبية الساحقة من الحجاج الأتراك هذه الطريق عبر القصير في طريق عودتهم من الحجاز. ويذهب أهل شمالي مصر عبر الطريق نفسها كالعديد من الحجاج الزنوج، بعد أن يكونوا قد تبعوا ضفاف النيل من صنّار نزولاً حتى الجِنّة. وتتراوح أجرة السفر من القصير إلى جدة بين ستة وثمانية دولارات.

وقد عانى العديد من الحجاج الأتراك الذين ذهبوا إلى الحجاز في مجموعات صغيرة من معاملة المماليك السيئة لهم في طريق عودتهم إلى مصر، وذلك في الأيام الأخيرة من عهد المماليك، حين كانوا يسيطرون على جنوب مصر، بينما كان الجزء الشمالي يحتله محمد علي، فقد سُلبَ العديد منهم وذُبحوا في مرورهم نزولاً بمحاذاة النيل. وقد تباهى حسن بك اليهودي، الإغريقي الدموي، بقتل خمسمائة منهم بنفسه. وأعطت هذه المجازر التي مورِسَتْ على الحجاج المسالمين، محمد علي عذراً لخيانته حين قام بقتل المماليك في قلعة القاهرة.

ويصل حجاج آخرون عبر البحر من اليمن والهند الشرقية، خاصة منهم الهنود المسلمون والملاويون (أبناء شبه جزيرة الملايو) وأهل كشمير وأناس من غوجرات. وفُرس من الخليج الفارسي، وعرب من البصرة ومسقط وعُمان وحضرموت، وأولئك القادمون من سواحل ميليندا

ومومباسا الذين يُطلق عليهم اسم أهل السواحل؛ فضلاً عن المسلمين الحبشيين والعديد من الحجاج الزنوج الذين يأتون من الطريق نفسها. ويجد المسلمون كلهم المقيمون على سواحل المحيط سفينة ما بالتأكيد مغادرة من ميناء مجاور إلى البحر الأحمر خلال فترة الحج. لكن العدد الأكبر يصل مع السفينة الهندية التي تصل بانتظام في شهر أيار/ مايو، ويبقون في مكة أو «المدينة» حتى وقت الحج، يركبون بعدها على متن السفن الوطنية في جدة إلى اليمن حيث يتريثون إلى حلول وقت الرياح التجارية ليجتازوا باب المندب. كما يأتي إلى مكة العديد من المتسولين من البلدان المذكورة أعلاه ويحصلون على عبور مجاني من الأشخاص المحسنين في بلادهم. أو يقوم بتحمل نفقاتهم من يستخدمونهم بغية تفويضهم بتأدية الحج؛ غير أنهم حين يصلون إلى البر، يصبحون بالكامل معتمدين على حسنات الحجاج الآخرين؛ والصدقات التي يجمعونها تُساعدهم في الرجوع إلى ديارهم.

وباستثناء المتسوّلين، يصل القليل من الحجاج فقط دون أن يُحضروا معهم بعض منتجات بلدانهم الخاصة للبيع؛ وينطبق هذا على التجار بقدر ما ينطبق على من تُحرّكهم الحماسة الدينية حيث إن الأرباح التي يحققها هؤلاء الأخيرون من بيع سلعهم تعوضهم عن نفقات الرحلة الثقيلة إلى حد ما. فيُحضر المغربيون مثلاً قلنساواتهم الحمراء والعباءات الصوفية، ويأتي الأتراك الأوروبيون بالأحذية والخفان والخردوات والأمتعة المطرّزة والمربى والكهرمان والحُليّ الأوروبية الصنع والحقائب الحريرية المحبوكة، الخ. وأتراك الأناضول يأتون بالسجاد والحرائر وشالات الأنقورا المصنوعة من وبر الأرانب، ويُحضر الفرس شالات الكشمير والمناديل الحريرية الكبيرة؛ والأفغانيون، فراشي الأسنان المدعوة مِسواك، المصنوعة من الأغصان الإسفنجية لشجرة تنمو في بخارى، والسُبحات من الحجر الصابوني الأصفر والشالات الخشنة البسيطة المصنوعة في بلادهم؛ أما الهنود فيأتون بمنتجاتهم المتعددة التي تزخر بها منطقتهم الغنية الواسعة ويُحضر أهل اليمن خراطيم الغليون الفارسي أو النرجيلة، والصنادل ومصنوعات أخرى جلدية؛ والإفريقيون يُحضرون سلعاً متنوعة تتكيّف مع تجارة الرقيق. لكن، غالباً ما يُصاب الحجاج بخيبة الأمل فيما يخص توقُّعاتهم بالربح، فالحاجة إلى المال تجعلهم يبيعون خبراتهم البسيطة في المزاد العلني، ويُجبرون غالباً على القبول بأسعار متدنية جداً.

ولا أحد يتمتع بسمعة جديرة بالاحترام في الكد والمثابرة من بين كل الحجاج الذين يصلون إلى الحجاز، أكثر من الزنوج أو «التكروري» كما يُدعون هنا. ويتحول الهنود كلهم من الطبقة الأشد فقراً إلى التسول ما إن ينزلوا في جدة. ويُمارس العديد من السوريين والمصريين التجارة نفسها بخلاف الزنوج. وقد سبق أن ذكرتُ في يوميات سابقة أن الزنوج يصلون إلى الحجاز

عبر الموانىء الثلاثة المصوع والسواقين والقصير. وأولئك القادمون عبر صنار والحبشة يعانون كلهم من الفقر المدقع. وينقلهم الدولار الواحد من المصوع إلى الساحل المقابل في اليمن وينزلون عادة في الحديدة حيث ينتظرون وصول عدد كافٍ من مواطنيهم لتشكيل قافلة صغيرة ثم يصعدون جبال اليمن على طول الأودية الخصبة التي يقطنها العرب الأسخياء فيستجدون منهم أجرة طريقهم إلى جدة أو مكة[1]. وإذا ما توفّر معهم مبلغ دولارين يصبح بإمكانهم المرور من المصوع مباشرة إلى جدة، حيث يلتقون بمواطنيهم ممن أتوا من السواقين والقصير. وفور وصولهم إلى جدة أو مكة يقومون بعرض أنفسهم للعمل، فيعمل بعضهم حمالين لنقل البضائع والحنطة من السفن إلى المخازن، ويعمل بعضهم الآخر في تنظيف الساحات وإحضار الحطب من الجبال المجاورة ليزوّدوا بها سكان جدة ومكة المدينين لهم وحدهم بذلك إذ إن أياً من فقرائهم الخمولين لا يُعقل أن يقوم بهذا العمل بالرغم من احتمال جني أربعة دراهم في اليوم منه. ويصنعون في مكة قوالب صغيرة من الآجُر (كانون) يطلونها بالأحمر والأصفر، ويشتريها الحجاج لغلي قهوتهم عليها. ويصنع بعضهم سِلالاً صغيرة أو حصائر من أوراق البلح، أو يحضّرون الشراب المسكِر (بوزة)؛ ويعمل آخرون في نقل المياه. وباختصار كلما دعت الحاجة إلى عمل يدوي، يتم استخدام أحد الزنوج دائماً من السوق. وإذا ما ألمّ بأحدهم المرض، يتولى رفاقه العناية به ويتحملون نفقاته. ولم أر إلاّ القليل منهم يستجدون الصدقات، باستثناء الأيام الأولى التي تلي وصولهم، أي قبل أن يتمكنوا من الحصول على عمل. وهم يسافرون من مكة إما براً وإما يُبحرون من طريق يَنبع إلى «المدينة» التي يزوّدونها مجدداً بحطب الوقود. وبالفعل، يصبح الحجاج في الحجاز في حيرة من أمرهم إذا ما عجزوا عن الحصول على خدمات هؤلاء الزنوج المضنية. وقد استمروا بتأدية الحج خلال الغزو الوهابي؛ ويُقال أن سعود قد عبرَّ عن تقديره الكبير واحترامه المميّز لهم[2].

وبعد أن يتمّ هؤلاء الزنوج مراسم الحج وزيارة مكة، يعودون إلى جدة حيث يستمرون في العمل حتى يتسنى لهم الإبحار إلى السواقين؛ فالقليل منهم فقط يعود من طريق الحبشة. وعند مغادرتهم الحجاز، يكون بحوزة الجميع مبلغٌ كافٍ من المال جمعوه من أرباح صناعتهم للحصول على مغامرة صغيرة أو ليؤمّنوا على الأقل، عند وصولهم إلى السواقين، سفراً عبر

(١) سنة ١٨١٣، أخذت مجموعة من الزنوج تلك الطريق، وقام عرب تلك الجبال، وهم وهابيون رأوا غالباً الزنوج ضمن الجنود الأتراك، بتصوُّر أن الحجاج الزنوج كانوا معتادين على الدخول في خدمة الأتراك. ولمنع هذه المجموعة المارة من محاربتهم، أوقفوا الزنوج المساكين على الطريق وقتلوا العديد منهم.

(٢) يقول المقريزي في أخباره عن الخلفاء الذين أدوا فريضة الحج أنه في عام ٧٢٤هـ وصل إلى القاهرة بطريقه إلى مكة ملك زنجي يدعى موسى فأكرم السلطان قلاوون وفادته، وأنه كان ينقل في موكبه، حسب المقريزي ١٤ ألف جارية.

الصحراء أكثر راحة مما خبروه في رحلتهم السابقة، ثم يتابعون باتجاه بلادهم عبر شندي وكردفان. إلاّ أن العديد منهم ينتشرون في شبه الجزيرة العربية، بدل أن يعودوا عند إتمام الحج، فيزورون المسجد الأقصى في القدس أو مقام إبراهيم في الخليل، فيبقون هكذا بعيداً عن ديارهم لسنوات عديدة ويعيشون مما يجنونه من خلال عملهم. وقد ساهم المحسنون في الكعبة في إغناء مسجد مكة والموظفين الكسالى فيه؛ غير أن أحداً منهم لم يفكّر في تشكيل أي مؤسسة تساعد الزنوج والهنود وتُسهّل لهم تأدية الحج، أو تؤمن لهم سفراً مجانياً إلى الحجاز عبر الخليج تبلغ كلفته دولاراً أو دولارين تُثقل كاهل أولئك. وهم يصلون غالباً إلى موانيء الجانب الإفريقي من الخليج، بعد أن يكونوا قد أنفقوا المبلغ البسيط الذي أتوا به من بلادهم، أو بعد أن يُسلب منهم خلال الرحلة. وحين يعجزون هناك عن إيجاد أي وسيلة لجني ما يكفيهم من المال للسفر عبر البحر الأحمر، يُجبرون على الانتظار حتى عودة زملائهم الميسورين من الحجاز الذين يدفعون عنهم تكاليف سفرهم بمحبّة.

ويمثّل الهنود النقيض التام للزنوج في المظهر أو في الطباع إذ يصعب تصوّر سِماتٍ أشدّ بؤساً وشقاء من سِماتهم. فهم يبدون وقد فقدوا كل طاقة لديهم بل والأمل أيضاً. وهم حريّون بالمؤاساة والتحنُّن مع أجساد لا تكاد تبدو قادرة على مقاومة عَصْفَة ريح، وأصوات خائرة واهية، إذ إن التجربة اليومية لم تُثبت أنهم يُسرّون بالظهور في هذه الحالة المنكرة التي تؤمن لهم الصدقات من المحسنين وتعفيهم من العمل. وتكتظُّ شوارع مكة بهم؛ ويتوجه الأكثر بؤساً منهم بتوسُّلاته المحزِنة الكئيبة إلى المارة. وهم يتمدَّدون وسط الشارع على ظهورهم، وتعجُّ بوابات المسجد بهم دائماً، وكل مقهى وكل مورد ماء هو محطة لبعضهم، بحيث لا يستطيع أي حاج شراء المؤن في الأسواق دون أن يُلحّ عليه الهنود في طلب كمية منها. وقد رأيت بينهم أحد المنقطعين إلى ذلك والموجودين بكثرة في شمال الهند وفارس، وكانت إحدى يديه معلّقة مباشرة فوق رأسه وقد رُكِزت هكذا لفترة طويلة بحيث أصبح من المتعذّر تحريكها في أي وضع آخر. وبسبب التعجب والاستغراب اللذين يثيرهما، افترضتُ أن مثل أولئك الأشخاص نادراً ما يجدون طريقاً إلى الحجاز.

ونجد بين الحجاج الدراويش من كل مذهب وطبقة في الدولة التركية، والعديد منهم مجانين، أو على الأقل يدّعون الجنون مما يجذب اهتمام الحجاج بهم فيملأون جيوبهم بالمال. إن سلوك بعضهم هو من العنف والمكر والخبث بحيث يدفع الحجاج، حتى غير المحسنين منهم، إلى إعطائهم شيئاً ما كي يتخلّصوا منهم. وهم يأتون غالباً من بلدان أخرى، فمن بين أهالي شبه الجزيرة أنفسهم، هناك عدد أقل من المجانين من الأجزاء الأخرى من الشرق، وتعجّ بهم مصر بوجه أخص حيث إن في كل قرية في وادي النيل تقريباً بعض

المسلوبين أو المجانين الذين يعتبرهم السكان أشخاصاً ملهمين وبركة أرسلتها لهم السماء[1].

إن مجيء الغرباء من أجزاء العالم الإسلامي كله، من تومبوكتو إلى سمرقند ومن جورجيا وبورنيو يجعل من جدة مقر إقامة يرغب فيه الرحالة الأوروبي البحّاث الذي يستطيع عبر تقديم المعونات للحجاج الفقراء وتخصيصهم بمقدار قليل من المؤن، اجتذاب أعداد كبيرة منهم إلى منزله فيتمكن بالتالي من جمع الكثير من المعلومات المتعلّقة بالأجزاء النائية من إفريقية وآسيا. ويؤجر المكيون كلهم منازلهم خلال الحج، باستثناء الطبقات الغنية، ويطلبون من المستأجرين، لقاء بضعة أسابيع أو أشهر، ما يدفعونه للمالك في سنة كاملة. فقد دفعت لقاء غرفة واحدة مجهَّزة بمطبخ صغير وموضع جانبي للخادم، خمسة عشر دولاراً لستة أسابيع، أي ما يعادل الأجرة السنوية للمنزل بأكمله التي كان يتقاضاها المالك. ولكنت أُجبرتُ على دفع المبلغ نفسه لو أني استأجرته فقط خلال الأسبوعين السابقين للحج والتاليين له. وكان المنزل الذي استأجرتُ فيه هذه الغرف مقسَّماً إلى عدة مساكن، وقد أُجِّر كله لحجاج مختلفين لقاء مئة وعشرين دولاراً، بعد أن انتقل المالكون إلى شقق من الحقارة بحيث لا يمكن أن يشغلها الغرباء.

من بين العديد من الحجّاج الذين يصلون إلى مكة قبل القافلة، بعض التجار ويأتي العديد من الآخرين بالقليل من السلع التي يبيعونها دون مشقّة. ثم يقضون الفترة التي تسبق الحج بمتعة وسرور، وهم خالون من الهموم والتوجُّسات، يتمتعون ببهجة الآسيوي في «الكسل اللذيذ». وباستثناء أبناء الطبقة الغنية جداً، يعيش الحجاج معاً في حرية ومساواة ويحتفظون بالقليل من الخدم؛ لكن العديد منهم لا يملكون أي خادم، وهم يتقاسمون الواجبات المختلفة في المنزل كإحضار المؤن من السوق وإعداد الطعام، رغم اعتيادهم على خدمات الخدم في منازلهم. إن الحرية ونسيان الهموم التي ترافق السفر تجعل منه فترة استمتاع بين أهل الشرق كما بين الأوروبيين، فيشعرون بالسعادة نفسها جرّاء إقامتهم في مكة حيث يقرأون القرآن ويدخّنون في الشوارع أو المقاهي ويُصلّون أو يتحادثون في المسجد، فضلاً عن اعتزازهم بالقرب من البيت المقدس إلى جانب الاحترام والتقدير المتوقَّعيْن واللذين يُضفيهما لقب الحاج لما تبقّى من حياتهم؛ إضافة إلى الرضا الذي تنتجه المشاعر الدينية والآمال المعلَّقة على المستقبل والتي تؤثر في العديد من الحجاج. ويقضي الحجاج الذين يأتون في القوافل أوقاتهم بشكل مختلف جداً. فما أن ينتهوا من رحلتهم الطويلة، حتى يتعين عليهم أن يباشروا شعائر زيارة الكعبة والعُمرة المنهكة، يُساقون بعدها مباشرة إلى مكة وعرفات؛ ثم، وهم لا يزالون يشعرون بالحرّ جرّاء الرحلة، يتعرضون للهواء القارص على جبال الحجاز وقد ارتدوا الغطاء الخفيف وغير الملائم، أو الإحرام.

(١) سنة ١٨١٣م انتشر بين السكان المسيحيين في مصر العليا شاب «مسلوب» أو معتوه، كان يسير عارياً في السوق ولكن السكان المسلمين، الذين دبت فيهم الغيرة ألقوا القبض عليه ذات ليلة وقاموا بختانه وتحويله إلى «ولي» مسلم.

ثم، عند عودتهم إلى مكة، لا يتبقى لهم سوى بضعة أيام فقط لاسترجاع قوتهم والقيام بزياراتهم المتكررة إلى بيت الله، ثم لا تلبث القافلة أن تنطلق في طريق العودة. وهكذا، يكون الحج بأكمله محنة أو اختباراً قاسياً للقوة الجسدية وسلسلة مستمرة من التعب والحرمان. ويتوافق هذا النمط في زيارة المدينة المقدسة مع آراء العديد من العلماء المسلمين الذين يعتقدون أن الإقامة الطويلة الأمد في الحجاز لا تعزِّز الإيمان الصادق مهما كانت النوايا صادقة وفاضلة، لأن رؤية الأماكن المقدسة يومياً تُضعف من الوقع الأول الذي تحدثه على النفس. وعلى الرغم من تدني الحماسة الدينية عامة عند المسلمين، لا نزال نجد منهم من يدفعهم الإيمان إلى زيارة الأماكن المقدسة مراراً وتكراراً. وقد عرفتُ أتراكاً يقطنون القاهرة، كانوا يذهبون كل سنة عبر طريق القصير إلى مكة، وذلك حتى عندما كان المذهب الوهابي مسيطراً في الحجاز. كما أن هناك بعض الأشخاص الذين أقاموا باستمرار في تلك المدينة حتى يتمكّنوا من قضاء ما تبقى من أيامهم وهم يؤدّون واجباتهم الدينية فيتجرّدون من الاهتمامات الدنيوية. وخلال إقامتي، وصل أحد النبلاء الأتراك من القسطنطينية؛ وكان قهوجي باشي للسلطان سليم؛ وقد سمح له الصدر الأعظم بالذهاب لانتظار الموت في الأرض المقدسة حيث تمّ الإعلان عن وصوله عبر هبات فاخرة قُدمت إلى المسجد.

وتصل القافلتان السورية والمصرية دائماً في فترات محددة، تكون عامة قبل يوم أو يومين من رحيل الحج إلى عرفات. وتمر القافلتان عادة عبر بدر، في اليوم نفسه أو بفارق يوم واحد فقط. إن القافلة السورية القادمة من «المدينة»، والقافلة المصرية القادمة من يَنبع النخل، تتابعان طريقهما من بدر إلى مكة، على مسافة قصيرة الواحدة من الأخرى. في الخامس من شهر ذي الحجة من سنة ١٢٢٩هـ، أو في الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٨١٤م، أعلن أحد المقوِّمين عن اقتراب القافلة السورية، وقد دخل هذا المقوّم المدينة مسرعاً ليحصل على الجائزة المخصصة للسبّاق، أو كل من يأتي بالأنباء الأولى عن وصول تلك القافلة بسلام. وقد تبعته هُتافات الحشود إلى منزل الحاكم حيث نفق حصانه عند ترجُله. وكانت الأنباء المتعلقة بتلك القافلة في غاية الأهمية إذ إنه لم يُسمع أي خبر عنها، لا بل انتشرت الشائعات بأن البدو قاموا بنهبها على الطريق شمال «المدينة». وبعد ساعتين، وصل عدد آخر من الأشخاص من تلك القافلة؛ وعند الليل، وصلت القافلة كلها وكان باشا دمشق على رأسها، وخيّموا في سهل الشيخ محمود.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وصلت القافلة المصرية كذلك. وأُرسلت الأمتعة الثقيلة والجِمال إلى المكان المعتاد الذي تخيّم فيه هذه القافلة في المعابدة؛ غير أن المحْمَل، أو الجمل المقدَّس، بقي في «الشيخ محمود» كي يتمكن في اليوم التالي من المرور عبر المدينة في

موكب. وقد وصل هذا الصباح محمد علي باشا بشكل مفاجىء وغير متوقع من الطائف كي يكون حاضراً في الحج، وكي يتحقَّق من فرقة الخيالة التي أتت مع القافلة المصرية، وقد كانت تشكل بالنسبة إليه دعماً يدغدغ آماله بالانتصار على الوهابيين. وقد ارتدى إحراماً أنيقاً ولفَّ حول خاصرته وكتفيه شالين من الكشمير الناصع البياض. وكان رأسه حليقاً؛ غير أن ضابطاً كان يحمل له مظلّة تقيه من الشمس وهو يمتطي حصانه في الشوارع. وفي الصباح نفسه، ارتدى الحجاج المقيمون في مكة كلهم ملابس الإحرام في مساكنهم، وبدأوا بممارسة الشعائر المعتادة التي تسبق انطلاقهم إلى عرفات. وعند منتصف النهار، اجتمعوا في المسجد حيث أُلقيت خطبة صغيرة بالمناسبة. وكان الحجاج القادمون مع القافلة قد وضعوا الإحرام في عسفان، قبل مكة بمحطّتين. غير أن عدداً كبيراً منهم وخاصة الخدم وسائقو الجمال، لم يخلعوا ثيابهم العادية، حتى إنهم ظهروا بها في عرفات دون أن يثيروا الدهشة أو السخط. فليس هناك شرطة دينية أو أي مباحث هنا، حيث يُترك كل واحد لما يُمليه عليه ضميره بالإذعان لتعاليم الشريعة القرآنية أو تجاهلها.

وقد عمّت الضوضاء في المدينة ذلك المساء، حيث كان الجميع يتحضَّر للرحلة إلى عرفات. وأتى الحجاج السوريون لحجز المساكن والاستعلام عن حال الأسواق وزيارة الكعبة للمرة الأولى. وقد غادر عدد من التجار المتجوّلين وأصحاب المتاجر الصغار ليستقروا في عرفات فيكونوا على استعداد هناك لتأمين حاجات الحجاج. وقام عدد من سائقي الجِمال في سوريا ومصر بعرض جمالهم في الشوارع لتأجيرها إلى الحجاج الذاهبين إلى عرفات. وكانت الأجرة هذه السنة معتدلة جداً، بالنظر إلى العدد الكبير المتوفر من حيوانات التحميل. وقد استأجرت جملين لأربعة أيام ذهاباً وإياباً إلى عرفات بمبلغ ثلاثة دولارات.

في الثامن من ذي الحجة، في الصباح الباكر، مرت القافلة السورية عبر المدينة في موكب، وكان يرافقها الجند كلهم وعلى رأسها جمل المحمل. وقد تُركت أمتعتها في «الشيخ محمود» باستثناء الخيم التي ستُنصب في عرفات. وقد جلس أغلب الحجاج في شبريّة وهي أشبه بالهودج يوضع على الجمل. أما كبار القوم وباشا دمشق نفسه فكانوا جالسين في تختروان وهي نوع من حمّالة مُغلقة أو هودج يجرُّه جملان، واحد من الأمام والآخر من الخلف، مما يشكل مكاناً مريحاً باستثناء الحاجة الدائمة إلى سُلَّم يتمكن الشخص به من الصعود والنزول. وقد زُيِّنت رؤوس الجِمال بالريش والأجراس، غير أن رؤوسها المحنيّة أرضاً كانت تُظهر مدى تعبها من الرحلة. وعند مرور تلك الجمال، كان الناس من كل الطبقات، يصطفون على جوانب الطرقات ويُلقون التحيّة على القافلة بهتافات عالية. كما كانت الموسيقى العسكرية لباشا دمشق والاثنا عشر حصاناً المكسوة بملابس فاخرة مزركشة أمام هودجه والتختروان

الغنية التي كانت نساؤه يجلسن فيها، كل ذلك يلفتُ الأنظار بشكل خاص.

ما إن مر السوريون، حتى لحق بهم الموكب المصري وهو يتألف من المحمَل أو الجمل المقدس (كان هناك جمل مقدس في كل قافلة منهما) والشبريات التابعة للموظفين العموميين الذين يُرافقون الحج دائماً؛ لكن أياً من الحجاج الخاصين لم يكن يُشاهد في تلك الشبريات. كما أن المظهر الأنيق للجنود الذين يرافقونهما وعظمة المحمل والتجهيزات التابعة لأمير الحج، وهو قائد الخيالة الأتراك ويدعى دلهيس، كل ذلك جعل المكيين يُظهرون علامات التقدير كتلك التي أظهروها أمام من سبقهم مباشرة. وقد تابعت القافلتان طريقهما إلى عرفات بلا توقف.

قبل منتصف النهار، ركب كذلك كل الحجاج الذين أقاموا في مكة لبعض الوقت جمالهم واحتشدوا في الشوارع ليسرعوا في اللحاق بقافلة الحج. وانضم إليهم الجزء الأكبر من أهالي مكة وقد أصبح الذهاب إلى عرفات سنوياً قاعدة لديهم، إلى جانب عدد مماثل من أهالي جدة الذين كانوا قد اجتمعوا هنا لبعض الوقت. وخلال خمسة أو ستة أيام، تبقى بوابات جدة مغلقة بعد أن يكون قد هجرها العديد من الناس.

بعد منتصف النهار، غادرتُ المسكن سيراً على الأقدام مع مُرافق وخادم يركبان جملين كنتُ قد استأجرتهما من رجل سوري من حمص. ويُعتبر القيام بالرحلة إلى عرفات التي تستمر ست ساعات، سيراً على الأقدام، عملاً يستحق الثواب، خاصة إذا كان الحاج حافياً. وقد قام بذلك العديد من الحجاج؛ وقد فضّلت هذه الطريقة لأني عشتُ حياة جلوس وارتياح لبضعة أشهر. ومرت عدة ساعات قبل أن نبلغ تخوم المدينة الواقعة خلف المعابده، حيث كان عدد الجمال كبيراً وقد وقعت عدة حوادث. ومن الحجاج شبه العُراة الذين التفّوا جميعاً بلباس الإحرام الأبيض، جلس بعضهم يقرأون القرآن على جمالهم، وقام البعض الآخر بتلاوة الأدعية بصوت عال، بينما شتم آخرون سائقي جمالهم وتشاجروا مع من هم بالقرب منهم الذين كانوا يُعيقون المرور. وتتّسع الطريق خلف المدينة، وقد مررنا عبر الأودية بخطوات بطيئة جداً لمدة ساعتين حتى وادي مِنى حيث وقعت عند مدخله الضيِّق بلبلة كبيرة. وتفرض الشريعة على الحجاج أداء خمس صلوات عند وادي مِنى كما كان النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفعل دائماً؛ أي أن عليهم أن يصلوا إلى هناك عند الظهر في وقت صلاة الظهيرة ويبقون حتى الصباح التالي فيتمكّنون بالتالي من تأدية صلاة العصر والمغرب والعشاء ومن ثم صلاة الفجر في اليوم التالي. غير أن الإشكاليات التي تطرأ عادة من التأخر على الطريق أدت إلى إهمال هذه الشعيرة منذ فترة خلت من الزمن. وتمر قوافل الحج الآن عبر مِنى في طريقها إلى عرفات دون توقّف.

بعد وادي مِنى أصبح مسجد المزدلفة إلى يميننا، حيث ذهب العديد من الحجاج لتأدية صلاة

العصر والمغرب؛ إلاّ أن القافلة تابعت طريقها. وخلف المزدلفة، دخلنا مجدداً الجبال عبر الممر المدعو المزومين (El Mazoumeyn) وخرجنا على الجانب الشرقي منه إلى سهل عرفات. وهنا، مرَّ الحجاج بين العامودين المدعوَّين «العلمَيْن»، وعند الاقتراب من سفح جبل عرفات، انتشروا على السهل بحثاً عن مكان يخيّمون فيه. وصلتُ المخيّم بعد ثلاث ساعات من الغروب، غير أن آخر المناضلين لم يصلوا حتى منتصف الليل. وشوهد عدد لا يُحصى من النيران التي أُضرمت على مساحة من الأرض امتدت حتى ثلاثة إلى أربعة أميال طولاً؛ وحدَّدت مجموعة من المصابيح العالية المتوهّجة الأمكنة المختلفة حيث خيَّم محمد علي وسليمان باشا وأمير الحج التابع للقافلة المصرية. وشوهد الحجاج يتجولون بين الخيم في كل اتجاه بحثاً عن زملائهم الذين أضاعوهم في زحام الطريق. ومرتْ عدة ساعات قبل أن يهدأ الضجيج والجلبة. ولم ينم من الناس إلاّ القليل في تلك الليلة فقد ظل المؤمنون مستيقظين يتلون الأدعية، وكانت أصواتهم المرتفعة مميّزة جداً باتجاه المخيم السوري خاصة. وقام المرِحون من المكيين بتشكيل مجموعات ليردِّدوا الأغنيات المبهجة التي تُدعى جوق، يُرافقها تصفيق الأيدي. وكانت المقاهي المنتشرة على السهل تكتظ بالزبائن طوال الليل.

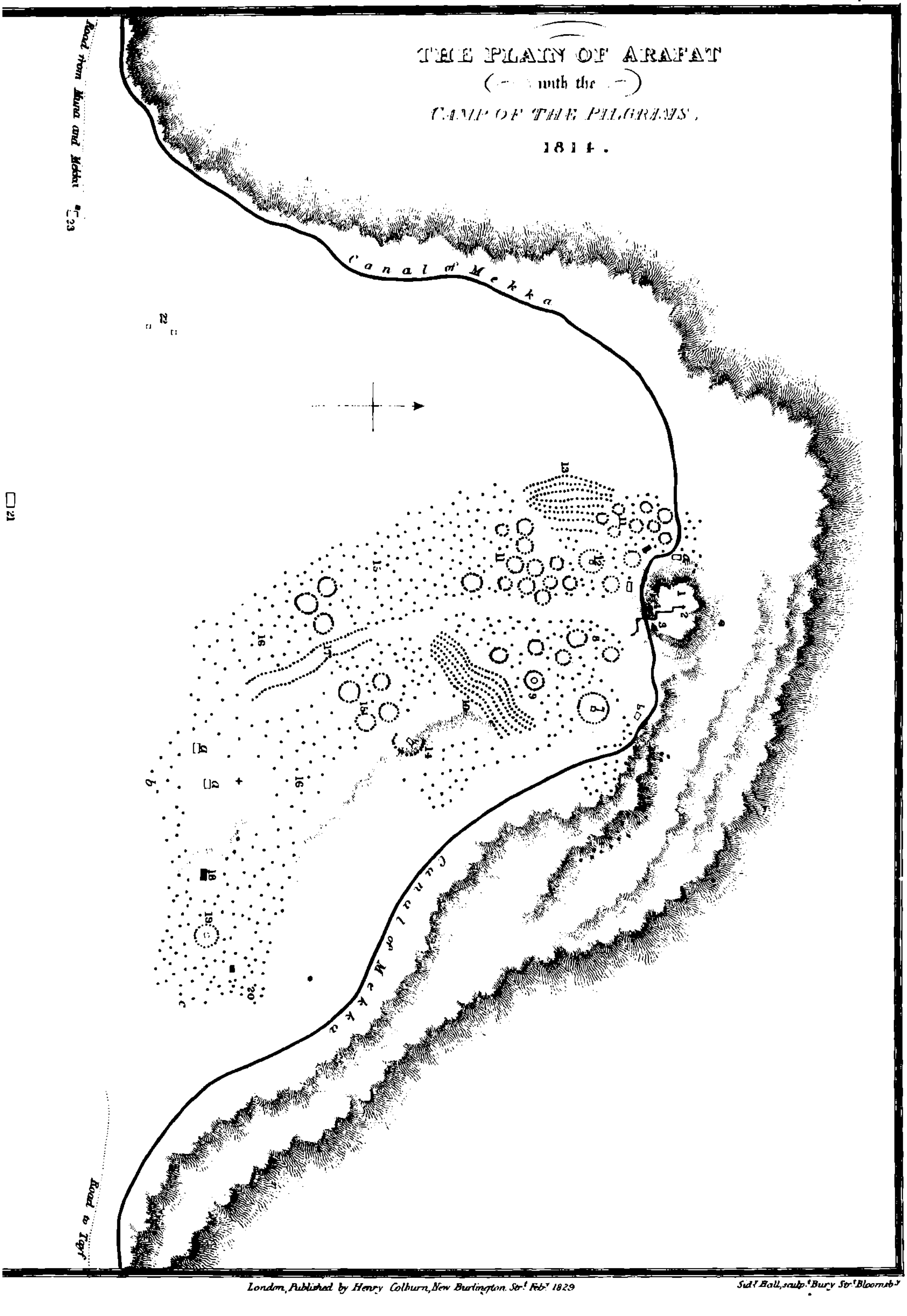
كانت الليلة مظلمة وباردة، وهطلت بعض قطرات المطر الخفيفة. وقد أعددتُ مكاناً لي للراحة بسجادة كبيرة ربطتُها في الجزء الخلفي من خيمة أحد المكيين. وبعد أن تجوَّلتُ في القسم الأكبر من الليل، وما إن تحضَّرتُ للنوم، حتى أُطلقت النار من مسدسين عند القافلتين المصرية والسورية للإعلان عن دنوّ فجر يوم الحج ومناداة المؤمنين إلى صلاة الفجر.

ولتبيان الوصف التالي، أُرفقتْ خريطة لعرفات، وتمَّ شرح العلامات والرسومات التي تحتويها(١).

---

(١) ١ ـ جبل عرفات ٢ ـ موضع صلاة محمد على قمته ٣ ـ منصّة الواعظ
٤ ـ موضع سيدنا آدم ٥ ـ جامع الصخرة ٦ ـ وادي عرفة
٧ ـ خيمة زوجة محمد علي باشا ٨ ـ القافلة المصرية ٩ ـ خيمة محمد علي
١٠ ـ مخيم خيالة محمد علي ١١ ـ القافلة السورية ١٢ ـ خيمة سليمان، باشا دمشق
١٣ ـ مخيم خيالة سليمان باشا ١٤ ـ خيمة عائلة جيلاني
١٥ ـ مخيم كبار أهل مكة والحجاج الأتراك الذين لم يأتوا مع القافلات
١٦ ـ مخيم الهنود والطبقة الدنيا في مكة حيث توقفتُ أنا نفسي ١٧ ـ السوق
١٨ ـ منزل الشريف ١٩ ـ خيمة الشريف يحيى ٢٠ ـ مخيّم البدو
٢١ ـ مسجد «جامع نمرة» ٢٢ ـ العلَمَيْن ٢٣ ـ بئر بازان
a-a-a: خزانات مياه

تخيّم القافلات ومجموعات متنوعة من الحجاج في الأماكن نفسها تماماً كل عام. وتخيّم القافلة الفارسية عند وصولها من بغداد بالقرب من منزل الشريف عند المكان المحدد بعلامة (b) والقافلة اليمنية عند (c). وأنا كنت مخيماً عند (b).



London, Published by Henry Colburn, New Burlington Str.t Feb.y 1829

Sid.y Hall, sculp.t Bury Str.t Bloomsb.y

عند شروق شمس اليوم التاسع من ذي الحجة، خرج كل حاج من خيمته ليسير على السهول ويلقي نظرة على الحشود المنشغلة المجتمعة هناك. وتؤمن صفوف طويلة من الخيم، التي أُعدَّت لتشكّل أسواقاً، كل أنواع المؤن. وكان قائدا فرق الخيالة في القافلتين المصرية والسورية قد درَّبا جندهما في الصباح الباكر، بينما كانت تشاهد آلاف الجمال ترعى العشب الجاف في السهل حول المخيّم. وقد صعدتُ جبل عرفات لأستمتع بمنظر عام شامل ومميز من على قمته. وترتفع هذه التلة الصخرية التي تدعى أيضاً جبل الرَّحمة، على الجانب الشمالي الشرقي من السهل بالقرب من الجبال التي تحيط بها لكن يفصلها عنها وادٍ صخري، ويبلغ محيطها ميلاً أو ميلاً ونصف. وجوانبها منحدرة وترتفع قمتها نحو مائتي قدم فوق مستوى السهل. وتؤدي درجات حجرية عريضة على الجانب الشرقي منها إلى القمة. كذلك، يؤدي الممر العريض غير المعبَّد على الجانب الغربي إلى كتل صخرية غليظة من الغرانيت غُطّيتْ بها منحدراتها. وبعد صعود نحو أربعين درجة، نصل إلى بقعة ممتدة قليلاً إلى اليسار تدعى مدعى سيدنا آدم، أو مكان صلاة سيدنا آدم، حيث يُروى أن أب البشرية كان يقف عند الصلاة. وهنا، حسب العُرف الإسلامي، علَّم الملاك جبرائيل آدم أول مرة كيف يعبد خالقه. وقد رُكِّزت قطعة من المرمر على جانب الجبل، تحمل نقوشاً بأحرف حديثة. وعند بلوغ الدرجة الستين تقريباً، نصل إلى منصة صغيرة معبدة إلى يميننا، على بقعة مستوية من التلة، حيث يقف الواعظ الذي يحذِّر الحجاج في ظهيرة هذا اليوم، كما سأذكر لاحقاً. عند هذا المستوى من العلو تكون الدرجات عريضة وسهلة بحيث يكون من اليسير على حصان أو جمل صعودها؛ لكن، كلما صعدنا عالياً أمست الدرجات أكثر انحداراً وأقل استواءً. ويظهر على القمة المكان الذي كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتخذه محطة له خلال الحج؛ وكان فيه مقام صغير في السابق، ولكن الوهابيين هدموه. ويصلّي هنا الحجاج عادة ركعتين تحية لعرفات. وتغطي الدرجات والقمة مناديل وُضعت لاستقبال هداياهم الدينية. إن كل عائلة من عائلات المكيين أو البدو المنتمين إلى قبيلة قريش، والتي يقع عرفات في أراضيها، تملكُ موضعها الخاص لهذا الغرض. وتُشرف القمة على منظر متفرّد واسع. وقد أتيتُ ببوصلتي كي أُحدِّد دائرة من الوجهات والمواقع، لكن الحشد كان من الكِبَر بمكان بحيث تعذَّر عليَّ استعمالها. ونحو الطرف الغربي من السهل، نرى بئر بازان و«العَلَمين»؛ وعلى مسافة أقرب، باتجاه الجنوب، يقع المسجد المدعو جامع نمرة. أو جامع سيدنا إبراهيم؛ وفي الجنوب الشرقي يقع منزل اعتاد الشريف السكن فيه خلال الحج. ومن هناك تمتد أرض صخرية مرتفعة في السهل باتجاه عرفات. وعلى الجانب الشرقي من الجبل، قريباً من سفحه، هناك أنقاض مسجد صغير بني على أرض صخرية ويدعى جامع الصخرة حيث اعتاد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصلي وحيث يؤدي الحجاج أربع ركعات تخليداً

لذكرى النبي[1]. وتنتشر عدة خزانات مياه مرصوفة بالحجر فوق السهل، وهناك اثنان أو ثلاثة بالقرب من سفح عرفات، وأخرى قرب منزل الشريف. وهي تملأ من القناة نفسها التي تزوِّد مكة بالمياه والتي يقع رأسها على بُعد ساعة ونصف في الجبال الشرقية. وتُترك هنا القناة مفتوحة لتأمين الراحة للحجاج، ويتم جرُّها حول الجوانب الثلاثة للجبال مروراً بمدعى سيدنا آدم[2].

وقد أحصيتُ، من على قمة عرفات، نحو ثلاثة آلاف خيمة منتشرة فوق السهل، يعود ثلثاها إلى قافلتي الحج وإلى جنود محمد علي وحاشيته؛ وما تبقى منها يعود إلى عرب الشريف والحجاج البدويين وأهالي مكة وجدة. كانت هذه الجماهير المحتشدة دون خيم في قسمها الأكبر، مثلي أنا. وقد خيّمت القافلتان دونما نظام محدَّد. فكل مجموعة من الحجاج أو الجند قد نصبت خيمها في دوائر كبيرة كانت جمالهم تستريح وسطها. وكان هناك في السهل من عشرين إلى خمسة وعشرين ألف جمل في أجزاء مختلفة منه، وكان اثنا عشر ألفاً منها تعود إلى القافلة السورية، ومن خمسة إلى ستة آلاف إلى القافلة المصرية؛ فضلاً عن نحو ثلاثة آلاف اشتراها محمد علي من البدو في الصحاري السورية وأتى بها إلى مكة مع قافلة الحج لنقل الحجاج إلى هذا المكان قبل أن يتم استخدامها في نقل مؤن الجيش إلى الطائف.

كانت القافلة السورية مخيِّمة في الجانب الجنوبي والجنوبي الغربي من الجبل؛ والقافلة المصرية في الجانب الجنوبي الشرقي. وحول منزل الشريف كان يحيى نفسه مخيِّماً مع فِرق البدو خاصته، وفي جواره كان أهل الحجاز كلهم. وهنا كانت تتمركز في السابق القافلتان اليمنيتان. كما كان لمحمد علي وسليمان باشا دمشق والعديد من ضباطهما خيمٌ بالغة الأناقة؛ غير أن أشدَّها روعة كانت لزوجة محمد علي، والدة طوسون باشا وإبراهيم باشا، التي كانت قد وصلت مؤخراً من القاهرة لتأدية الحج مع تجهيزات ملكية، حيث كان هناك خمسمائة من الجمال لنقل أمتعتها من جدة إلى مكة. وكانت خيمتُها في الواقع عبارة عن مخيّم مؤلف من اثنتي عشرة خيمة بأحجام مختلفة تسكنها نساؤها؛ ويحيط بها جدار من القماش القطني يبلغ محيطه ثمانمائة خطوة؛ وكان يحرس مدخلها الوحيد خصيان في ثياب رائعة. وحول هذا السياج نُصبتْ خيم الرجال الذين يشكلون حاشيتها الكبيرة. إن المطرَّزات الجميلة على الجهة الخارجية من هذا القصر القطني، والألوان المتنوعة التي تظهر على كل جزء منه، شكّلت منظراً أعادني في الذكرى إلى بعض الوصف في روايات ألف ليلة وليلة العربية. ومن بين التجهيزات الغنية الخاصة بحجاج آخرين أو بأهل مكة، لم تكن أي منها أكثر بروزاً كتلك التي تخصُّ عائلة

(١) ليس في الإسلام صلاة لتخليد الذكرى.

(٢) حتى نهاية القرن السادس عشر، حسب قطب الدين، كان يتم زراعة كل سهل عرفات.

جيلاني، التاجر الذي كانت خيمه منصوبة في شكل نصف دائرة ضاهت في جمالها وروعتها خيم الباشاوات وفاقت بدرجات خيم الشريف يحيى. في أجزاء أخرى من الشرق، يفكر التاجر بشراء حبل يلفُّه على عنقه ما إن يفكّر في عرضٍ ثروته وغناه في حضرة أحد الباشاوات؛ إلاّ أن جيلاني لم يكن قد ألقى جانباً العادات التي تعلّمها المكيون في ظل حكومتهم القديمة، خاصة حكومة الشريف غالب الذي كان نادراً ما ينتزع ممتلكات الأفراد؛ وهم يعتمدون على وعود محمد علي باحترام ممتلكاتهم.

خلال الصباح بأكمله، تمّ إطلاق النار تكراراً من المدفعية التي أتى بها كل من الباشاوات معه. وقد اتخذ بعض الحجاج مساكن لهم على جبل عرفات نفسه حيثما وجدوا كهفاً صغيراً أو كتلة متدلّية من الغرانيت، تحميهم من الشمس. وهناك معتقد شائع عامة في الشرق يقوّيه العديد من الحجاج المتباهين عند عودتهم إلى بلادهم، وهو أن الحجاج كلهم في هذا اليوم يخيّمون على جبل عرفات، وأن الجبل يملك ميزة عجائبية تمكّنه من الاتّساع والامتداد بحيث يحتوي عدداً غير محدد من المؤمنين على قمته. وتفرض الشريعة بأن تتمّ «الوقفة» التي يؤديها الحاج، على جبل عرفات؛ غير أنها تتجنب بحكمة أي استحالة لتنفيذ ذلك من خلال اعتبار السهل المجاور مباشرة للجبل داخلاً في نطاق تسمية «الجبل» أو جبل عرفات.

وقد قدِّرت عدد الأشخاص المحتشدين هنا بنحو سبعين ألفاً. وكان المخيم يبلغ طوله من ثلاثة إلى أربعة أميال ويتراوح عرضه من ميل إلى ميلين. وقد لا يكون هناك أي بقعة على وجه البسيطة يتناهى فيها إلى الأذن تنوّع لغوي بمثل ذلك الحجم في مكان بهذا الصِّغَر. وقد تعرّفت أربعين لغة لكنني لا أشك في أنه كان هناك العديد من اللغات الأخرى. وبدا لي أني وُضعتُ هنا في معبد مقدَّس للرحالة فقط؛ ولم أشعر أبداً في أي وقت من الأوقات برغبة عارمة كتلك التي تملّكتني في التمكّن من الدخول إلى المناطق النائية في بلدان العديد من أولئك الأشخاص الذين أراهم الآن أمامي، وأنا أتخيّل بشغف أني لن ألقى صعوبة في بلوغ أوطانهم أكثر من تلك التي خبروها في رحلتهم إلى هذه المنطقة.

وحين ينشغل الذهن بمثل هذا العدد الكبير من الأمور الجديدة، يمر الوقت بسرعة فائقة. فما لبثتُ أن هبطتُ من جبل عرفات وتجولتُ لبعض الوقت في المخيّم هنا وهناك. أتحادثُ مع الحجاج وأبحثُ في المخيم السوري عن بعض الأصدقاء وأتقصّى الأخبار عن الصحاري بين البدو السوريين، حتى كان قد مرّ منتصف النهار. ويجب أن تتم تأدية صلوات هذه الفترة من النهار إما داخل «جامع نمرة» وإما في المنطقة الملاصقة له، حيث أتى الباشاوان لهذا الغرض. غير أن الغالبية الساحقة من الحجاج تدع هذه الشعيرة ويُغفل العديد منهم صلاة الظهيرة كلها،

حيث لا أحد هنا يشغل نفسه لمعرفة ما إذا كان جاره دقيقاً أم لا في تأدية الشعائر المفروضة. وبعد منتصف النهار، على الحجاج الاغتسال وتطهير الجسد من خلال الاغتسال المفروض في الشريعة ويُدعى «الغُسل»، وقد نُصبت الخيم العديدة في السهل لهذا الهدف خاصة. لكن الجو كان غائماً ومائلاً إلى البرودة مما حدا بتسعة أعشار الحجاج الذين يرتجفون تحت الغطاء الرقيق، الإحرام، إلى إغفال هذه الشعيرة أيضاً وإلى الاكتفاء بالوضوء الاعتيادي. وكان قد اقترب وقت العصر (أو نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر)، وهو الوقت الذي تُمارس فيه هذه الشعيرة، وقد أتتْ الحشود كلها إلى هنا لهذا الغرض. وبدأ الحجاج الآن بالتقدم نحو جبل عرفات وغطّوا جوانبه من الأعلى إلى الأسفل. وفي الوقت المحدَّد تماماً للعصر، اتخذ الواعظ موضعه على المنصّة على الجبل وبدأ في مخاطبة الجماهير وتشكّل هذه الشعيرة التي تستمر حتى مغيب الشمس الشعيرة المقدسة في الحج التي تُدعى خطبة الوقفة. فلا يستطيع أي من الحجاج حمل لقب الحاج إلاّ إذا كان حاضراً في هذه المناسبة، حتى وإن قام بزيارة كل الأمكنة المقدسة في مكة. ومع اقتراب العصر، أُزيلت الخيم كلها وتمّ توضيب الأغراض كلها وبدأت القوافل بالتحميل وامتطى الحجاج جمالهم واحتشدوا حول الجبل ليكونوا على مرمى نظر الواعظ، وهذا يكفي لأن الجزء الأكبر من الجماهير بعيدة جداً، بحيث يتعذّر عليها سماعه. واتخذ الباشاوان مع فرق الخيالة التابعة لهما كلها والتي اصطفّت في وحدتين خلفهما، مواقعهم في مؤخرة صفوف الجمال الطويلة للحجاج، والتي انضم إليها أهالي الحجاز؛ وهناك، انتظروا بصمت رزين وتقي انتهاء الخطبة. وكان الشريف يحيى مع فرقة جنده الصغيرة، على مسافة أبعد من الواعظ، وقد برز من خلال عدة أعلام خُضرٍ حُملت أمامه. والمحملان أو الجملان المقدَّسان اللذان يحملان على ظهريهما الهيكل المرتفع الذي يمثل شعار قافلتيهما المتتاليتين، كانا يشقّان طريقهما بصعوبة عبر صفوف الجمال التي أحاطت بجوانب التلّة الجنوبية والشرقية، في مقابل الواعظ، واتخذا موقعهما يُحيط بهما الحرّاس مباشرة تحت المنصة أمامه[1].

(١) إن المحمَل (الذي قدم له دوسون D'ohsson وصفاً دقيقاً) هو إطار مرتفع ومجوّف خشبي، له شكل مخروطي وقمته هرمية الشكل مغطاة بقماش حريري فاخر ومطرّز وقد زُينت بريش النعام، ووضع في وسطها كتاب أدعية صغير وتعاويذ لُفّت بقطعة نماش حريري. (الوصف الذي قدمته مأخوذ عن المحمَل المصري). وهو يشكّل على الطريق راية أو شعاراً مقدساً للقافلة، وعند عودة القافلة المصرية، يُعرض كتاب الأدعية في مسجد «الحسين» في القاهرة حيث يذهب الرجال والنساء من الطبقة الدنيا لتقبيله والحصول على البركة من خلال فرك جبينهم عليه. وليس هناك أي نسخة من القرآن ولا أي شيء آخر في محمل القاهرة سوى كتاب الأدعية هذا. وقد أعلن الوهابيون أن هذه الشعيرة في الحج هي بدعة عديمة الجدوى تعود جذورها إلى الوثنية وتعارض روح الدين الحقيقية. وكانت ممارسة تلك الشعيرة إحدى الأسباب الرئيسة التي دفعت بالوهابيين إلى منع القوافل من الذهاب إلى مكة. في القرون الأولى للإسلام، لم يكن للأمويين ولا للعباسيين أي محمل أبداً. ويقول المقريزي في بحثه: «حول الخلفاء والسلاطنة الذين أدّوا الحج شخصياً»، إن الظاهر بيبرس، سلطان مصر، كان أول من أدخل المحمَل نحو سنة ٦٧٠هـ. ومنذ ذلك الوقت، اعتبر كل السلاطين الذين أرسلوا قوافلهم إلى مكة

كان الواعظ، أو الخطيب، وهو عادة قاضي مكة، يركبُ جملاً مزيّناً بأناقة وقد سيقَ لصعود الدرجات. ويُقال أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجلس هنا دائماً حين يتوجه إلى المؤمنين، وهي عادة دأب عليها الخلفاء كلهم الذين أتوا إلى الحج وخطبوا في الناس من هنا شخصياً. غير أن السيد التركي القادم من القسطنطينية، وغير المعتاد على ركوب الجمال، لا يستطيع البقاء جالساً كما دأب على ذلك النبي البدوي القوي؛ وبعد أن يفقد السيطرة على جمله، يُكره على الترجُّل عنه. ويقرأ عظته من كتاب «باللغة العربية يُمسكه بيديه، فيتوقف هُنيهة عند كل أربع أو خمس دقائق ليمدّ ذراعيه إلى الأمام طالباً البركة من السماء بينما تلوّح الجموع المحتشدة حوله وأمامه بالإحرام فوق رؤوسهم ويملأون الأجواء بنداءاتهم «لبيّك اللهم لبيّك»، وبدا جانب الجبل المكتظ بكثافة بالجماهير المكتسية بالثوب الأبيض خلال التلويح بالإحرام، كشلال ماء؛ بينما كانت المظلات الخضراء التي تزوّد بها عدة آلاف من الحجاج الجالسين على جمالهم في الأسفل، تشبه سهلاً مكسواً بالخضرة.

خلال عظته التي استمرت ثلاث ساعات تقريباً، بدا القاضي باستمرار يمسح عينيه بمنديل؛ لأن الشريعة تفرض على الخطيب أو الواعظ بأن تفيض نفسه بالأحاسيس ومشاعر الندم والتوبة[٢]؛ وبأنه كلما بدت الدموع تغسل وجهه، يكون ذلك إشارة بأن الله يُنير بصيرته وأنه سيستجيب إلى صلواته ودعائه. وقد بدا الحجاج الذين وقفوا بالقرب مني على كتل الغرانيت الكبيرة التي تكسو جوانب جبل عرفات، بمظاهر متعددة. فكان البعض، وأغلبهم من الأجانب، يبكي بصوت عال، وينوحون ضاربين على صدورهم معترفين أمام الله ومُقرين بآثامهم؛ ووقف البعض الآخر (وهم الأقل عدداً) متأملين بصمت والدموع تترقرق في أعينهم. وكان العديد من أهل الحجاز ومن جنود الجيش التركي يتحادثون في هذه الأثناء ويضحكون؛ وكانوا كلما قام الآخرون بالتلويح بالإحرام، يقومون بحركات عنيفة كما لو كانوا يهزؤون من هذه الشعيرة. وقد شاهدتُ في الخلف، على التلة عدة مجموعات من العرب والجند يدخّنون (ناركيلتهم) بهدوء. وفي كهف مجاور، كانت تجلس إحدى نساء الهوى تبيع القهوة، وكان زوّارها، عبر

ذلك الأمر ميزة حسنة بإرسال واحد مع كل قافلة كعلامة على ملوكيتهم الشخصية. وقد أتى أول محمَل من اليمن سنة ٩٦٠هـ. وسنة ١٠٤٩هـ، أتى المؤيد بالله ملك اليمن وإمامها الذي جَهَرَ علانية بالمذهب الزيدي، برفقة محمَل إلى عرفات؛ كما كانت قافلات بغداد ودمشق والقاهرة تنقل واحداً معها. سنة ٧٣٠هـ، أحضرت قافلة بغداد واحداً إلى عرفات على فيل (انظر الأعصمي). أنا أعتقد أن هذه العادة نشأت من راية الحرب عند البدو التي تُدعى مركب وعطفة (Merkeb and Otfe)، والتي ذكرتها في ملاحظاتي حول البدو، والتي تشبه المحمل حيث أنها إطارات خشبية مرتفعة موضوعة على ظهر الجمال.

(١) الشريعة لا تفرض ذلك.

ضحكاتهم العالية وسلوكهم المشاغب، غالباً ما يقاطعون الحجاج بالقرب منهم في تعبّدهم الصادق[١]. وكان هناك عدد من الناس وقد بدوا في ثيابهم العادية. ونحو انتهاء العظة، بدت الأغلبية الساحقة من الحشود وقد ألمَّ بها الضجر، فهبط العديد منهم الجبل قبل أن يُنهي الخطيبُ كلامه. لكن تجدر الإشارة هنا بأن الحشود المجتمعة على الجبل كانت في جزئها الأكبر من الطبقات الدنيا؛ حيث أن الحجاج الأثرياء ذوي المنزلة الرفيعة كانوا يركبون جمالهم أو خيولهم في السهل.

بعد فترة من الزمن، بدأت الشمس تغيب خلف الجبال الغربية، حين تلقّى القاضي بعدما أغلق كتابه، آخر مناجاة «لبيّك»؛ وأسرعت الحشود بالنزول لمغادرة عرفات. ويُعتبر الإسراع في إتمام ذلك في هذه المناسبة عملاً يستحق الثواب، ويجعل العديد من الأشخاص من ذلك سباقاً كاملاً يدعوه العرب «النفرة من عرفات». في السابق، حين يحدث أن تكون قوة القافلتين السورية والمصرية متعادلة تقريباً، كانت تقع شجارات وعراكات دموية هنا كل سنة تقريباً بينهما، حيث تسعى كل فئة جاهدة لتسبق الأخرى وتجعل محملها يتجاوز الآخر ويتقدّمه. ويحدث الأمر نفسه حين يقترب المحملان من المنصة عند بدء العظة؛ وقد أزهقت في إحدى المرات مائتا روح ثمناً لما كان يُعدُّ شرفَ القافلة. وتسود سلطة محمد علي في الوقت الحاضر، ويُظهر الحجاج السوريون تواضعاً كبيراً.

وتتقدم الآن على السهل القوافل المتحدة وحشود الحجاج كلها، وقد وضِّبت كل خيمة مسبقاً كي يكون الجميع جاهزين للحدث. ويتدافع الحجاج عبر العلمين حيث يجب أن يمروا ثانية عند عودتهم. وهبط الليل قبل أن يبلغوا الممر الضيّق المدعو المزومين El Mazoumeyn. ويتم الآن إضافة أعداد لا تُحصى من المشاعل وتُحمل أربعة وعشرون منها أمام كل باشا، فتتطاير منها النيران بشراراتها بعيداً فوق السهل. وتُطلق المدافع باستمرار، كما أطلق الجنود النار من بنادقهم وعزفت جوقتا الباشاوين العسكريّتان؛ وأُطلقت في السماء أسهم نارية من ضباط الباشا والعديد من الحجاج؛ بينما كانت قافلات الحج تمر بخطى سريعة وبفوضى عارمة، وسط صخب وجلَبة تُصمُّ الآذان، عبر ممر المزومين المؤدي إلى المزدلفة، حيث ترجّل الجميع بعد ساعتين من المشي. ولم تتم مراعاة أي نظام عند التخييم؛ فكان كل واحد يستلقي على أول بقعة يلقاها، كما لم تُنصب الخيم باستثناء خيم الباشاوات وحاشياتهم. وقد تمَّ إشعال المصابيح في شكل قناطر مرتفعة استمرت في الاتّقاد طوال الليل بينما تواصل إطلاق المدفعية دون أيّما انقطاع.

في خضم الفوضى التي تفوق الوصف والتي اتّسم بها رحيل قوافلالحج من عرفات، أضاع

---

(١) لا يفوت القارىء المتأمل هدف المؤلف السيىء من تكرار مثل هذه العبارات.

العديد من الحجاج جمالهم، وسمعناهم ينادون سائقيهم عالياً وهم يبحثون عنهم في السهل، وكنتُ أنا نفسي واحداً منهم. حين ذهبتُ إلى جبل عرفات، أمرتُ سائقي وخادمي بالبقاء على استعداد على البقعة التي كانا عليها آنذاك حتى أعود إليهما بعد مغيب الشمس؛ لكن ما إن تركتهما حتى رأيا الجمال المحملة الأخرى تندفع مسرعة باتجاه الجبل، فلحقا بها، وعند عودتي إلى المكان الذي تركتُهما فيه، لم أجدهما. وكنتُ لذلك مجبراً على السير إلى مزدلفة حيث نمتُ على الرمال، يغطيني لباس الإحرام ليس إلاّ، بعد أن بحثت عن زملائي لساعات عدة.

في العاشر من شهر ذي الحجة، أو يوم العيد المدعو «نهار الضحية» Nehar el Dhahye أو يوم النحر. أيقظ مدفع الصباح الحجاج قبل الفجر. ومع بزوغ النهار، اتخذ القاضي موضعه على المنصّة المرتفعة التي تحيط بمسجد المزدلفة، والتي تُدعى عادة «المشعر الحرام» Moshar el Haram، وبدأ خطبته المشابهة لتلك التي ألقاها في اليوم السابق. وأحاط الحجاج بالمسجد من كل جوانبه بمشاعل مضاءة ورافقوا الخطبة بالمناجاة نفسها «لبيّك اللهم لبيّك». وعلى الرغم من أن هذه الخطبة تمثل إحدى الواجبات الأساسية في الحج، فقد بقيت الأغلبية الساحقة من الحجاج إلى جانب أمتعتهم ولم يحضروها. وليست الخطبة طويلة جداً حيث تدوم فقط من انبلاج الفجر حتى شروق الشمس؛ وهي فترة أقصر طبعاً في هذه المنطقة منها في بلادنا الشمالية. وتؤدي صلاة العيد الحشود كلها في الوقت نفسه حسب شعائرها. وحين تسلّلت أولى خيوط الشمس عبر السماء الغائمة، انطلق الحجاج بخطوات بطيئة باتجاه وادي مِنى الذي يبعد من هنا مسافة ساعة واحدة.

عند بلوغ وادي مِنى، خيّمت كل أمة على البقعة التي اعتادت أن تخيّم عليها عند كل موسم حج. وبعد إيداع أمتعتهم، أسرع الحجاج لتأدية شعيرة رمي الحصى على الشيطان أو رجم الشيطان. ويُقال أن إبراهيم، حين عاد من الحج إلى عرفات ووصل إلى وادي مِنى، ظهر له إبليس عند مدخل الوادي ليُعيق مروره؛ فنصحه الملاك جبرائيل الذي كان يرافقه برجم الشيطان بالحصى، ففعل؛ وبعد أن رجمه سبع مرات، تراجع إبليس. وحين بلغ إبراهيم وسط الوادي، ظهر له الشيطان مرة ثانية، ومرة أخيرة عند طرفه الغربي، وكان عند كل مرة يتراجع بعد رمي العدد نفسه من الحصى. وحسب الأزرقي، درج العرب الوثنيون، تخليداً لهذه العادة، على رمي الحصى في هذا الوادي عند عودتهم من الحج؛ ووضعوا سبعة أوثانٍ عند وادي مِنى، كان منها واحد عند البقع الثلاث حيث ظهر الشيطان، فيرمون عند كل واحدة بثلاثة حصوات.

وقد زاد محمد، الذي جعل من هذه الشعيرة إحدى الواجبات الأساسية في الحج، عدد الحصى إلى سبعة. ويقوم عمود حجري فظّ، أو مذبح، عند مدخل الوادي باتجاه المزدلفة،

يتراوح ارتفاعه بين ستة إلى سبعة أقدام، ويقع وسط الشارع وتُرمى عليه أول سبع حصوات، كونه المكان الأول الذي ظهر فيه الشيطان. وهناك عمود مماثل نحو وسط الوادي، ويقوم عند طرفه الغربي جدار حجري شُيّد للغرض نفسه. ويحتشد الحجاج بتعاقب سريع حول العمود الأول المدعو «الجمرة الأولى»، ويرمي كل واحد بالتتالي سبع حصى صغيرة عليه، ثم ينتقلون إلى البقعة الثانية ثم الثالثة (التي تُدعى «جمرة الأوسط»، و«جمرة السفلى» أو «العقبة» أو «الأقصى»)، حيث تُكرَّر الشعيرة نفسها. وعلى الحجاج أن يقولوا عند رمي الحجارة: «باسم الله والله أكبر (نفعل ذلك) لنعوذ بالله من الشيطان وجنده». ويجب أن تكون الحصى المستعملة لهذا الغرض بحجم حبة الفاصولياء الكبيرة أو نحو ذلك؛ ويُنصح الحجاج بجمعها في سهل المزدلفة، لكن بإمكانهم أخذها من وادي مِنى؛ لكن، خلافاً للشريعة، يجمع العديد من الناس تلك التي سبق رميُها.

بعد أداء فريضة الرَّجم، يذبح الحجاج الحيوانات التي أتوا بها للتضحية، إن المسلمين كلهم، من أي بقعة من العالم أتوا، مُلزمون في هذا الوقت بتأدية الشعيرة نفسها. وكانت جاهزة لهذه المناسبة بين ستة وثمانية آلاف خروف وماعز، تحت رعاية البدو (الذين يطلبون ثمناً باهظاً فيها). ولا تخضع مراسم التضحية بذاتها لأي شعائر أخرى غير إدارة وجه الضحية نحو القبلة أو الكعبة، وقول «بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر» عند قطع العنق. ويمكن اختيار أي مكان للتضحية التي تؤدى في كل زاوية من وادي مِنى، غير أن المكان المفضل هو صخرة ناعمة ملساء على طرفه الغربي حيث ذُبحت عدة آلاف من الخِراف في ربع ساعة[1].

وما إن ينتهي تقديم الأضاحي، حتى يُرسل الحجاج في طلب الحلاّقين أو يذهبوا إلى متاجرهم التي أُقيمت صفوف منها من ثلاثين إلى أربعين قرب المكان المفضّل للتضحية. فيقومون بحلْقِ رؤوسهم باستثناء أهل المذهب الشافعي الذين يحلقون فقط ربع رأسهم هنا ويحتفظون بالأرباع الثلاثة المتبقية حتى ينتهوا من زيارة الكعبة، بعد العودة إلى مكة[2]. فيخلعون الإحرام ويرتدون ثيابهم الاعتيادية؛ ومن يستطيع منهم تحمل نفقات ثياب جديدة يشتريها إذ إن اليوم هو يوم عيد. وما إن انتهى الحج حتى تبادل الحجاج كلهم التهاني والتمنيات بقبول الحج من الله. فعبارة «تقبّل الله» تُسمع في كل جانب وقد بدا الجميع راضين. لكن تلك لم تكن حالي حيث باءت كل جهودي لإيجاد جمالي هنا بالفشل لعِظَم الحشود

(١) يروي قطب الدين أنه حين قام الخليفة المقتدر بتأدية الحج نحو سنة ٣٥٠هـ، قدّم في ذلك اليوم أربعين ألف جمل وبقرة، وخمسين ألف خروف. وحتى الآن، يذبح الأثرياء الجمال. ويمكن أن يتم الذبح بالوكالة أو التفويض.

(٢) يبدو جهل المؤلف بالفقه واضحاً؛ فللشافعي أن يحلق أو يقصّر... ولغيره كذلك.

التي ملأت الوادي. وبينما كان الحجاج يرتدون ثيابهم، كنتُ مُجبراً على التجول بالإحرام. ولحسن الحظ، فإن محفظة المال التي علّقتها حول عنقي وفق عادة الحجاج (بما أن الإحرام لا جيوب فيه) مكّنتني من شراء خروف للأضحية ولدفع أجرة حلاّق. ولم أجد زملائي إلى ما بعد مغيب الشمس، وقد خيّموا على الجبل الشمالي وكانوا طوال الوقت قلقين عليّ.

بقي الحجاج ليومين آخرين عند مِنى. وتماماً عند منتصف النهار، في الحادي عشر من ذي الحجة، يتم مرة ثانية رمي سبع حصى صغيرة على الأمكنة الثلاثة التي ظهر فيها الشيطان. ويتمّ الشيء نفسه في الثاني عشر من ذي الحجة، بحيث يصبح عدد الحجارة المرمية ثلاثاً وستين حصاة خلال ثلاثة أيام، بعد الرجم المتكرّر ثلاث مرات يُرمى في كل مرة إحدى وعشرون حصاة. ويجهل العديد من الحجاج الفحوى الدقيقة للشريعة فيما يتعلق بذلك، كما يفعلون فيما يختص بعدة نقاط أخرى في شعائر الحج؛ فإما يقومون برمي الحجارة في الصباح الباكر بدل منتصف النهار، وإما لا يرمون العدد المحدَّد المفروض. ثم تعود قوافل الحج إلى مكة في فترة ما بعد الظهر، وذلك بعد إتمام الرجم الأخير في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة.

إن مِنى[١] وادٍ ضيّق يمتد في خط مستقيم من الغرب إلى الشرق، ويبلغ طوله نحو ألف وخمسمائة خطوة فيما يتباين عرضه. ويحيط به من الجانبين أجراف من الغرانيت الحادة والقاحلة. وهناك صفٌّ من الأبنية المهدّمة بأكثرها، وتقع على طول المنطقة الوسطى من الوادي، على جانبي الممر. ويملك تلك الأبنية مكيّون أو بدو من قبيلة قُريش، فإما يؤجّرونها أو يشغلونها هم خلال الأيام الثلاثة من الحج، ويتركونها خاوية فيما تبقى من السنة، حين يكون وادي مِنى غير مأهول بالناس. وقد بُني بعض تلك الأبنية من الحجر الجيد نوعاً ما بعلو طابقين؛ لكن لا تتم المحافظة إلاّ على نحو عشرة منها في حالة جيدة جداً. وعلى الطرف الشرقي النائي من الوادي، يقوم منزل جميل يملكه الحاكم شريف مكة الذي يقطنه عادة خلال تلك الأيام. وتشغله الآن نساء محمد علي، حيث إن الشريف يحيى، بعد أن خلع الإحرام، عاد إلى مكة حيث يذهب كذلك العديد من الحجاج مباشرة بعد تلك الشعيرة؛ غير أنهم مُلزمون بزيارة وادي مِنى مرة ثانية عند ظهر اليوم الحادي عشر أو الثاني عشر من هذا الشهر لرجم الشيطان، بما أن إهمال هذه الشعيرة قد يجعل من الحج عملاً ناقصاً. ثم يمكنهم فيما تبقى من هذين اليومين أن يذهبوا أينما شاؤوا. وفي مساء يوم التضحية، يذهب الحجاج التجار عادة إلى مكة كي يتمكنوا من إفراغ البضائع التي اشتروها هناك. وفي المساحة المكشوفة بين منزل الشريف ومساكن المكيين،

(١) يُقال إن هذا الاسم أتى من آدم، الذي، خلال إقامته في الوادي، حين سأله الله طلب خدمة، أجاب «أتمنى الجنة»؛ فأخذ هذا المكان تسميته من هذا الجواب. ويقول آخرون إنه أخذ اسمه من تدفّق الدماء في يوم التضحية.

يقوم المسجد المدعو «مسجد الخيف»، وهو بناء متين صلب ويحيط بالفناء المكشوف فيه جدار صلب ومرتفع. وفي وسطه، سبيل ماء عام تعلوه قبة صغيرة؛ ويملأ الجانب الغربي حيث يقوم منبر الخطبة صفٌ أعمدة مثلّث، والمسجد قديم جداً، وقد أعيد بناؤه حديثاً سنة ٥٥٩هـ، بأمر من صلاح الدين الشهير، لكنه بُني في شكله الحالي بأمر من قائد بك، سلطان مصر سنة ٨٧٤هـ. وحسب الفاسي، يُقال أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلقّى الوحي عدة مرات من الله على سفح الجبل خلفه، وإن آدم ووريَ الثرى في المسجد. وإلى جانبه خزّان مياه وضعه كذلك قائد بك، حسب ما ذكر قطب الدين، وهو جاف تماماً الآن، فضلاً عن آخر مماثل حيث خيّمت القافلة السورية. إن النقص في المياه في وادي مِنى قد أجبر الحجاج الفقراء على العمل بمشقة، فكانوا يأتون بالقليل منها إما من المزدلفة وإما من الخزّان الواقع خلف مِنى، على الطريق إلى مكة، وكانت تُباع قربة المياه بأربع ليرات. وفي زمن الفاسي، كان هناك خمس عشرة بئراً للمياه المالحة عند مِنى، حيث يبدو أن المياه تتوافر إلى عمق معيّن في المنطقة كلها حول مكة.

ويظهر في البيان المرفق كل ما يجدر ذكره في بلدة أو قرية مِنى[1]. وكان منزل جيلاني، وهو الأفضل يكتظُّ باستمرار بالزوار الذين كان يُعاملهم بسخاء. وكانت تجاوره منازل القاضي

---

(١) يشير الرقم:

١ ـ إلى منزل الشريف
٢ ـ خيمة محمد علي باشا
٣ ـ خيالة محمد علي باشا
٤ ـ القافلة المصرية
٥ ـ خيم سليمان باشا وحاشيته
٦ ـ خيمة أحمد بك، قائد الخيالة السورية
٧ ـ القافلة السورية
٨ ـ الخيالة السورية
٩ ـ الجامع المدعو مسجد الخيف
١٠ ـ خزانات مياه جافة
١١ ـ مخيم الحجاج الهنود واليمنيين والزنوج الفقراء
١٢ ـ خيم عبارة عن مقاهي
١٣ ـ منازل مهدّمة يشغلها المكيون
١٤ ـ أول عمود للرجم
١٥ ـ منزل التاجر جيلاني
١٦ ـ صف متاجر
١٧ ـ عمود الرجم الثاني
١٨ ـ منزل قاضي مكة
١٩ ـ باحة أو فناء مسقوف، فيها متاجر على الجانبين
٢٠ ـ مسجد مهدّم
٢١ ـ متجر كبير، حيث تُعرض الجاريات الحبشيات
٢٢ ـ منزل سقاط، تاجر ثري من مكة
٢٣ ـ مخيم حجاج أتراك وبدو وحجازيين
٢٤ ـ عمود رجم الشيطان الثالث والأخير
٢٥ ـ صف دكاكين الحلاقين
٢٦ ـ الصخرة التي تُذبح عليها الضحايا
٢٧ ـ درجات مرصوفة على الطريق باتجاه مكة
٢٨ ـ منزل الشريف الصغير حيث يخلع الإحرام ويرتدي ثيابه
٢٩ ـ البقعة التي تهيأ عليها إبراهيم للتضحية بابنه، وبالقرب منها مكان ولادة إسماعيل
٣٠ ـ الجبل المدعو «جبل الزير»

وعائلات سقاط الغنية. وتمّ مؤخراً، على الجانب نفسه من الطريق، ترميم رُواق ضيّق طويل وإعداده، حيث يعرض نحو خمسين مكيّاً وتركيّاً من أصحاب المتاجر سلعهم. والمنازل على الصف الشمالي مهدَّمة كلياً تقريباً، كما أن صف المتاجر (رقم ١٦ على الخريطة) على ذلك الجانب كانت مفتوحة بلا أبواب. وكان هناك إلى جانب ذلك أسقفيّات شُيدت وسط الشارع حيث يمكن شراء المؤن بوفرة لكن بأسعار باهظة.

إلى الشمال، على منحدر الجبل المدعو «جبل الذبير»، يقع موقع يزوره الحجاج، حيث طلب إبراهيم، كما تُطلعنا بعض الأخبار، الإذن بتقديم ابنه كضحية. وهناك كتلة من الغرانيت مشطورة إلى قسمين، كانت قد وقعت عليها سكّين إبراهيم في اللحظة التي دلّه الملاك جبرائيل على الكبش المجاور. وعند ملامسة السكين، انشطرت الصخرة إلى قسمين. وتخليداً لذكرى هذه التضحية، يقوم المؤمن بعد إتمام الحج بذبح أضحياته. غير أن الفقهاء في الشريعة لا يتّفقون على الشخص الذي نوى إبراهيم التضحية به. فيروي البعض أنه كان يعقوب، لكن الأغلبية الساحقة تقول إنه كان إسماعيل. وفي المنطقة الملاصقة لتلك الصخرة كهف صغير يمكن أن يؤوي من أربعة إلى خمسة أشخاص، يُقال أن هاجر قد أنجبت إسماعيل[(١)] فيه؛ غير أن هذا يتناقض مباشرة مع الشريعة الإسلامية التي تروي بأن إسماعيل وُلد في سوريا، وبأن أمه هاجر حملته إلى الحجاز ولم يزل بعدُ رضيعاً، لكن الكهف كان ملائماً جداً لاستبدال وادي منى بسوريا، كونه مكاناً مناسباً جداً لولادة أب البدو، خاصة وأن ذلك يجذب العديد من الهبات الدينية التي يتلقاها المكيّون الذين يجلسون حوله بمناديل مفتوحة[(٢)]. وهناك منزل صغير للشريف حيث ينتهي الوادي باتجاه مكة، يقوم فيه بأداء الأضحية وخلع الإحرام. وقد ذُكر أن هناك مسجداً يُدعى مسجد العشرة حيث كان أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلّون، ويقع في واد جانبي، يؤدي من هذا المكان نحو جبل النور، لكنني لم أقم بزيارته. وهناك، حسب كلام الأزرقي، مسجد آخر يُدعى مسجد الكبش، يقع قرب الكهف. كما يروي الفاسي أنه كان هناك واحد بين عمودي رجم الشيطان، الأول والثاني، والذي حُدِّد ربما بالرقم (٢٠) على الخريطة.

ولكل قسم من الحجاج مكان يخيّم فيه حُدِّد في وادي مِنى أو عند عرفات؛ غير أن المساحة هنا أضيق بكثير. وتترجّل القافلة المصرية قرب منزل الشريف حيث نصب محمد علي خيمته في جوار فرقة خيّالته. وقد وُضع أمام خيمته وعاءان جلديان كبيران يُملآن بالماء باستمرار

(١) ما علاقة ولادة إسماعيل عليه السلام بالشريعة؟! ربما قصد المؤلف بالشريعة، السيرة.

(٢) تأمل!!

لاستعمال الحجاج. وعلى مسافة قصيرة منه، نحو مسجد الخيف، نُصبت خيمة سليمان، باشا دمشق الذي خيّمت قافلته في الجهة المقابلة للطريق، وأمام خيمته، وُضع صفٌّ من عشرة مدافع أحضرها معه من دمشق. وقد انفجرت ذخيرته الحربية على الطريق حين كانت القافلة تتوقف عند بذر، وقُتل خمسون شخصاً من جراء الحادث، لكن محمد علي زوّده بذخيرة جديدة، فكانت المدافع تُطلق تكراراً كتلك الاثني عشر الأخرى التي وُضعت قرب خيمة محمد علي. وقد خيّمت الأغلبية الساحقة من الحجاج دونما نظام على السهل الصخري وغير السوي باتجاه الشمال خلف القرية. وكانت خيم المكيين مُعدَّة بإتقان. وبما أن اليوم هو يوم عيد، فقد تزيّا الرجال والنساء والأطفال في أحلى حلَلِهم. وقليلون هم الذين غامروا بالاستسلام إلى النوم بسبب اللصوص الذين يزخرُ بهم وادي مِنى. فقد سُرق حاج في الليلة السابقة وسُلب منه ثلاثمئة دولار. وعند عرفات، سرق البدو العديد من الجمال وقد تمّ اللحاق باثنين من اللصوص وأُلقي القبض عليهما ومثلا أمام محمد علي عند وادي مِنى الذي أمر بضرب عنقهما. وبقي جسداهما المشوّهان مرميّين أمام خيمته لثلاثة أيام، وبجانبهما حراس ليمنعوا أصدقاءهما من أخذهما. إن مثل هذه العروض لا تثير الاشمئزاز ولا الرّعب في نفس عثماني، حيث إن تكرار ذلك يُقسي مشاعره فيُمسي غير متجاوب مع مشاعر الشفقة والرأفة. وقد سمعتُ بدوياً، لعله كان صديقاً للقتيل، وقد وقف قرب الجثتين، يقول: «ليتغمدهما الله برحمته؛ لكن لا رحمة على من قتلهما».

لقد حُوّل الآن الشارع الذي يمتد على طول وادي مِنى إلى سوق ومعرض. وقد نُصبت على كل قدم من الأرض الخاوية فيه سقائف مصنوعة من الحصير أو خيم صغيرة أُعدَّت كمتاجر، وأُحضرت المؤن والسلع من كل نوع من مكة. وخلافاً للعادة المتبعة في البلدان الإسلامية الأخرى حيث تُهمَّش الأعمال التجارية كلها خلال أيام الأعياد، فقد كان التجار وأصحاب المتاجر والسماسرة كلهم منهمكين في التجارة. وبدأ التجار الذين وصلوا مع القافلة السورية مساوماتهم وعقد صفقاتهم للسلع الهندية، وقاموا بعرض نماذج عن السلع التي أحضروها هم أنفسهم والتي كانت مودعة في المخازن في مكة. وكان عدد من التجار الفقراء ينادون على سلعهم الصغيرة التي حملوها في الشارع على رؤوسهم. وبما أن الأعمال كلها قد اجتمعت في هذا الشارع الوحيد، كان الخليط من الأمم والعادات والسلع مثيراً للدهشة أكثر بكثير منه في مكة[١].

---

(١) لقد ارتبط هذا الحج عند الوثنيين العرب في كل الأزمنة، بسوق موسمية كبيرة تُقام في مكة. وفي الشهر الذي يسبق الحج، كانوا يزورون بعض الأسواق المجاورة الأخرى، خاصة تلك التي في عُكاظ، وهي سوق قبيلة كنانة ومجنة وذي المجاز؛ وأسواق قبيلة هذيل والحسا، وأسواق بني الأزد. وبعد أن يمضوا وقتهم بالتسلية في تلك الأسواق، يذهبون إلى الحج في

وفي فترة ما بعد ظهر اليوم الأول في مِنى، تبادل الباشاوان الزيارات، وقامت فرق خيّالتهما بالمناورات أمام خيمتهما. ومن بين جند سليمان باشا، كان هناك نحو ستين زمبرك Sambarek ممن يلفت الانتباه. وهم مِدفعيّون، يركبون الجِمال، وقد ثُبّتت أمامهم وُصلة متراوحة تدور على مِحور مثبّت إلى سرج الجمل. وهم يطلقون النار في أثناء عدو الجمل، ويتلقى الحيوان بهدوء تام صدمة إطلاق النار. وتتألف فرقة الخيالة السورية من نحو ألف وخمسمائة رجل، هم خاصة من دِلهي، وليس مع القافلة أي كتيبة مشاة. ويظهر اليوم سليمان باشا بتجهيزات مثيرة للإعجاب حيث ارتدى حراسه كلهم الحلل المطرزة والموشاة بالذهب، وكانوا جميعاً يركبون الخيل، رغم أن خيل الباشا نفسه لم تكن تأبه لشيء. وبعد أن تبادل الباشاوان الزيارات، حذا ضباطهما حذوهما، وسُمح لهم بتقبيل يدي الباشاوين حين يتسلم كل منهم هدايا مالية كل حسب منزلته. وقد أعربَ القاضي وتجار مكة الأثرياء والنبلاء من الحجاج عن احترامهم للباشاوين ودامت كل زيارة من زياراتهم نحو خمس دقائق. وكان هناك في الوقت نفسه حشد كبير من الناس وقد اجتمعوا في نصف دائرة حول خيمهما المفتوحة ليشهدوا مظهرهم المتألق. وفي فترة ما بعد الظهر، أتت مجموعة من الحجاج الزنوج، يرأسهم قائد، وشقّت طريقها عبر الحشود، وبالاقتراب من سليمان باشا (الذي كان جالساً وحده يدخّن على الأريكة في موضع داخلي في خيمته)، ألقوا عليه التحية بجرأة وتمنّوا له السعادة في إتمام الحج؛ وقد تلقوا بعض القطع النقدية الذهبية في المقابل. ثم قاموا بالتجربة نفسها بعد ذلك مع محمد علي باشا، لكنهم لم يحصلوا إلاّ على صفعات علي قفاهم من ضباطه مقابل تحيتهم. ومن بين الأمور الغريبة التي أثارت انتباه الحشد، كانت الكركُل (عربة ذات عجلتين وجوادين) التي تملكها زوجة محمد علي والتي كانت متوقفة عند مدخل منزل الشريف. وقد نقلتها تلك السيدة على متن سفينتها إلى جدة، وركبت فيها من هناك إلى مكة وعرفات. وكانت هويتها بالطبع سرية، وكان يجر العربة حصانان أصيلان، وشوهدت بعد ذلك مراراً تختال في شوارع مكة.

في الليل، توهّج الوادي بأكمله، فقد أُضيء كل منزل وكل خيمة. وكان هناك مصابيح جميلة أمام خيم الباشا؛ وأشعل البدو النار في الهواء الطلق على قمم الجبال. واستمرت أصوات المدافع تتناهى إلى الأذن خلال الليل؛ وعُرضت الألعاب النارية التي أطلقها المكيّون.

وقد مرَّ اليوم الثاني من العيد في وادي مِنى كاليوم الأول تماماً. لكن جثث الذبائح المتعفّنة

عرفات، ثم يعودون إلى مكة حيث كانت تُقام سوق كبيرة أخرى (راجع الأزرقي). وعند عرفات ومِنى، على العكس، يمتنعون عن التجارة بشكل دقيق خلال أيام إقامتهم هناك وخلال تأدية الشعائر المقدسة؛ إلاّ أن القرآن ألغى هذا الشرط، ففي مقطع منه سمح بالاتجار حتى في أيام الحج، على الأقل، تمّ تفسير ذلك بهذه الطريقة. (راجع الفاسي).

باتتْ كريهة إلى حد بعيد في بعض أجزاء الوادي، فالقليل من الحجاج الأثرياء فقط يستطيعون استهلاك الأضاحي التي يذبحونها. كما أن الشريعة لا تسمح للحنفيّين في مذهبهم بأكل أكثر من ثُمن الخروف. ويُمنح الجزء الأكبر من اللحم للحجاج الفقراء، وتُرمى الأحشاء في الوادي والشارع. وكان يتم استخدام الهنود والزنوج لتقطيع اللحم إلى شرائح وتجفيفه لتأمين مؤونة السفر(١).

واليوم، يؤدي العديد من الحجاج صلواتهم في مسجد الخيف الذي وجدته مكتظاً بالهنود الفقراء الذين اتخذوا منه مأوى لهم. وكانت الأرضية مكسوة بجيف الأضحيات وقد عُلّقت على الحبال بين الأعمدة شرائح من اللحم لتجفيفها. وكان المنظر والرائحة كريهين جداً؛ وبدت الدهشة على وجوه العديد من الحجاج للسماح بمثل تلك الأعمال غير اللائقة. وبشكل عام، يرى الحجاج الغرباء في مكة العديد من الممارسات التي لا تعزز لديهم مشاعر التوقير والاحترام تجاه الأمكنة المقدسة في ديانتهم. وبالرغم من أن البعض قد ينجح في الحفاظ على حماسته الدينية، يفقد آخرون بالتأكيد الكثير منها من جرّاء ما يشهدونه خلال الحج. إن هذا الاستخفاف في احترام الدين وهذه الممارسات الشائنة والمخزية التي تكررت في المدينة المقدسة حتى غدت ممارسة مشروعة، وإلى كل هذه الممارسات يمكن أن تعزى تلك الأمثال التي تصور الحجاج على أنهم أقل تديناً وموثوقية من أي شخص آخر. لكن أرضنا المسيحية المقدسة عرضة لبعض النقد بسبب ممارسات من النوع نفسه. ويعترف المسلمون الأكثرون ورعاً وتُقىً وأشد صرامة بوجود فساد وآفات بهذا الشكل ويأسفون لوجودها؛ ويثبتون أنهم إما أنقى بصيرة أو أصدق من الحاج المسيحي شاتوبريون(٢).

عند منتصف النهار، في الثاني عشر من ذي الحجة، مباشرة بعد رمي الحصى الإحدى والعشرين الأخيرة، غادر الحجاج وادي مِنى ورجعوا إلى مكة بمحاذاة الوادي، وهم يُظهرون معنوياتهم المرتفعة عبر الأغاني والأحاديث الصاخبة والضحك، مما يتناقض مع الكآبة التي حلّت

(١) حتى القرن السادس عشر، كان هناك قاعدة راسخة لدى سلاطين مصر، وبعد ذلك لدى سلاطين القسطنطينية، وهي تزويد كل الحجاج الفقراء في وادي مِنى بالطعام على حساب الخزينة الملكية. وقد ميّز العرب الوثنيون أنفسهم بضيافتهم وكرمهم خاصة خلال الحج، وكانوا حين يذهبون إلى الحج، يستضيفهم مجاناً كل أصحاب الخيم الذين يمرون بهم على الطريق، بعد أن يكونوا قد حضّروا أنفسهم مُسبقاً لهذا الهدف فتزوّدوا بكميات كبيرة من الطعام. (راجع قطب الدين)، من بين العجائب التي تُميّز وادي مِنى عن الأودية الأخرى، يروي الفاسي، بأنه يوسّع مساحته لاحتواء أي عدد من الحجاج، وبأن النسور لا تحمل أبداً الذبائح لتركها للفقراء؛ وأنه، على الرغم من كمية اللحم النيء، لا يزعج الذباب أبداً الزوار في هذا المكان. إن الملاحظة الأخيرة غير صحيحة ومزيّفة، حيث إني أستطيع قول ذلك من تجربتي الشخصية.

(٢) قد يكون لدى السيد شاتوبريون دوافع تشبه دوافع رجل الدولة لكي يقدم في يومياته صورة بهذا التنوع لفلسطين وكهنتها؛ لكنه، كرحالة،لا يستطيع التهرب من اللوم والانتقاد لابتعاده عن الحقيقة، ولتشويهه التام أحياناً للحقائق التي وقعت أمامه.

في النفوس كلها عند البدء هنا منذ أربعة أيام خلت. عند بلوغ مكة، على الحجاج زيارة الكعبة التي اكتستْ في هذه الأثناء بالكساء الجديد الأسود الآتي من القاهرة، وعليهم الطوّاف حولها سبع مرات وتأدية شعيرة السعي، وهذا ما يُدعى بطواف الإفاضة. ثم يرتدون الإحرام مرة ثانية بهدف أداء العُمرة؛ وعند العودة من العُمرة، يؤدون مرة أخرى الطواف والسعي؛ وبذلك يكون الحج قد اختُتم أخيراً.

إن الواجبات التي تقع على عاتق الحاجّ هي:

١ ـ عليه ارتداء ملابس الإحرام؛

٢ ـ أن يكون حاضراً في التاسع من ذي الحجة في فترة ما بعد الظهر حتى مغيب الشمس عند الخطبة الملقاة في عرفات؛

٣ ـ حضور خطبة مماثلة عند المزدلفة عند شروق شمس العاشر من ذي الحجة؛

٤ ـ عليه في العاشر والحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة أن يرمي كل يوم إحدى وعشرين حصاة على الشيطان في وادي مِنى؛

٥ ـ أن يقوم بتقديم الأضحية في مِنى؛ أو إذا ما كان فقيراً، يستطيع إبدال ذلك بالصوم في فترة لاحقة؛

٦ ـ عند عودته إلى مكة، عليه زيارة الكعبة والعُمرة. وتضع الشريعة فروقات عديدة دقيقة وتزيد بشدة عدد القواعد الواجب على الحاج اتّباعها عند كل خطوة، بحيث يصعب إلاّ على القليل منهم إضفاء صفة الحاج المنتظم السويّ والفعلي على أنفسهم. لكن، في غياب أي شرطة لحماية الطقوس والشعائر خلال تأدية الحج يصبح كل واحد سيّد نفسه المطلق ويحمل لقب الحاج أكان ممن التزم بشدة ودقّة بكل واجباته الدينية أم لا. فيكفي لمثل أولئك أن يكونوا حاضرين في عرفات في اليوم الملائم ـ فهذا هو الحد الأدنى من التمييز . لكن مجرد زيارة إلى مكة لا تسمح لرجل بإطلاق لقب الحاج على نفسه؛ كما أن ادعاء هذا اللقب دون تقديم حُجج إضافية، تعرّضه للسخرية. كما لا تُعطى أي شهادة رسمية للحجاج في مكة، كما هي الحال في القدس؛ إلاّ أن العديد من الناس يشترون بعض الرسومات للمدينة وأشياء أخرى، ترفقَ بها شهادة أربعة شهود تفيد بأن الشاري من الحجاج الفعليين. وإذا ما صادف وقوع التاسع من ذي الحجة، أو يوم الوقفة، في يوم جمعة، فإنه يُعتبر يوماً سعيداً ومحظوظاً بشكل خاص.

ويتوق بعض الحجاج إلى اكتساب لقب «خادم المسجد» الذي يحصل الحاج عليه لقاء مبلغ ثلاثين دولاراً تقريباً، حيث تُسلَّم لقاء هذا المبلغ ورقة للشاري تمنحه هذا اللقب أو التسمية،

موقَّعة من الشريف والقاضي. وإنه لمن الشائع السماح حتى للمسيحيين بالحصول على امتياز تسمية أنفسهم بخدام المسجد، ويسعى وراء هذا الشرف خاصة سكان جزر الأرخبيل اليوناني وشواطئه؛ ففي حال ألقي القبض عليهم من قبل قراصنة البربر، فإن وثيقة كهذه غالباً ما يحترمها أشد المغاربة قسوة. وقد التقيتُ بقبطان يوناني حصل على واحدة لقاء مائتي دولار، وكان قد قاد إحدى سفن محمد علي، وكان الآن متوجهاً إلى بلاده؛ وكان يشعر بالراحة والطمأنينة لأن أي سفينة قد يقودها من الآن فصاعداً في الأرخبيل، ستكون في مأمن من القراصنة من خلال هذه الوثيقة. وكان لقب «الخادم» هذا في السابق يبدو ذا أهمية أكبر مما هي عليه الآن؛ إذ إني أجد في تاريخ مكة العديد من الأشخاص العظماء الذين يُرفقون هذا اللقب بأسمائهم.

بعد عودة الحجاج من وادي مِنى، يصبح الشارع الرئيس في مكة غير سالك تقريباً جراء الحشود المجتمعة هناك. ويستأجر التجار من الحجاج السوريين المتاجر، ويستفيدون جيداً من الوقت القصير الممنوح لهم لإجراء معاملاتهم وصفقاتهم التجارية. ويشتري الجميع المؤن لرحلة العودة إلى الديار؛ ويستحوذ السعي وراء الربح على الأذهان الآن من أعلى طبقة إلى أدناها. وتغادر القافلتان مكة عادة نحو الثالث والعشرين من ذي الحجة بعد المكوث في المدينة لعشرة أيام. ويُقنع أحياناً التجار قائدي القافلتين بمنحهم تأجيلاً لبضعة أيام، وهم يدفعون جيداً لقاء هذه الخدمة؛ لكنهم هذه السنة لم يطلبوا هذه الخدمة لأن القافلة كانت تحت سيطرة محمد علي الذي كان يستعدُّ لشن حملته على الوهابيين، وقد رأى أنَّ من الأنسب استخدام نحو اثني عشر ألف جمل من القافلة السورية في رحلتين إلى جدة ورحلة واحدة إلى الطائف، وذلك لنقل المؤن. أما بالنسبة إلى القافلة المصرية، فكان محمد علي يسيطر عليها كلياً، وقد أمر كل الخيالة والجمال التي رافقت القافلة بمساندته في حملته. وأُعيد المحمَل أو الجمل المقدس إلى السويس عبر البحر، وهو أمر لم يحدث من قبل. ولم تغادر القافلة السورية مكة حتى التاسع والعشرين من ذي الحجة، إذ إن العمل الشاق والمستمر الذي فُرضَ على جِمالها، أضعف تلك الأخيرة إلى درجة أن أعداداً كبيرة منها نفقت في طريق عودتها عبر الصحراء. كما أن القوافل من الجِمال غير المحمَّلة والتي كانت تُغادر مكة إلى جدة كل ساعة لتحميل المؤن هناك. قد سهّلت القيام بهذه الرحلة القصيرة إلى ذلك المكان على أولئك الحجاج الذين تمنّوا العودة إلى بلادهم عبر البحر.

وبعد أن سمعتُ أن المبلغ المالي الذي أرسلتُ في طلبه إلى القاهرة ما إن وصلتُ إلى جدة، قد وصل إلى هناك، انطلقتُ ليل الأول من كانون الأول/ ديسمبر، وبقيتُ في تلك المدينة ستة أو سبعة أيام. وكان الحجاج مخيّمين في كل حي فيها، وقد أتوا في أفواج إليها يومياً في هذه

الأثناء، في طريق عودتهم من مكة؛ وسرعان ما أصبحت بالتالي مكتظة كما كانت مكة. ومن بين السفن التي كانت جاهزة لتحميل الركاب في الميناء، سفينة تجارية وصلت مؤخراً من بومباي، وكانت تملكها أسرة فارسية، ويقودها قبطان إنكليزي كان قد شقّ طريقه إلى جدة ضد الرياح التجارية في هذا الموسم الأخير. وقد أمضيتُ العديد من الساعات الممتعة برفقة القبطان Boag على متن سفينته، وأسفتُ لأن أبحاثي ستُجبرني على الرحيل قريباً. وقد وصل إلى جدة أوروبيان آخران في الوقت نفسه تقريباً، من طريق القاهرة. كان الأول إنكليزياً في طريقه إلى الهند، والثاني طبيباً ألمانياً، وكان أصل هذا السيد من هانوفر، وكان باروناً نبيلاً. وقد أقصتْه المِحَن التي تسبب بها القدر المحزن عن بلاده وفكر في ممارسة مهنته في جدة، أو متابعة مسيرته إلى مخا Mokha؛ لكن فكره لم يكن مستقراً على أي أمر وكان يتمتع بشخصية مستقلة تمنعه من قبول المشورة أو المساعدة. وقد تركته في جدة عندما عُدت إلى مكة وعلمتُ بعدها أنه توفي هناك في شهر آذار/ مارس بسبب الطاعون، وأن اليونانيين في جدة قد دفنوه في جزيرة على المرفأ.

حين عدتُ إلى مكة نحو الثامن أو التاسع من شهر كانون الأول/ ديسمبر، لم أجد الحشد نفسه من الناس؛ غير أن المتسولين كانوا قد أصبحوا من الكثرة والإزعاج بحيث فضّل العديد من الحجاج البقاء في منازلهم طوال النهار، كي يهربوا في الوقت نفسه من إلحاحهم ومن تكلفة الالتقاء بهم أو مواجهة فضيحة الفقر والعوز. لقد كان هؤلاء المتسولون يستجدون الصدقات ليتمكنوا من العودة إلى بلادهم، وقد ازداد عددهم بانضمام العديد من الحجاج ذوي المظهر اللائق الذين أنفقوا أموالهم خلال الحج. وكنتُ عازماً، عند عودتي إلى مكة، على الانضمام إلى القافلة السورية للسفر معها إلى «المدينة»؛ لذلك، فقد عقدتُ اتفاقاً مع بدوي من قبيلة حرب لاستخدام جملَين من جِماله، تقليداً لبعض الحجاج السوريين الآخرين الذين وصلوا إلى مكة قبل القافلة؛ على الرغم من أن معظم الحجاج الذين يزورون قبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في «المدينة» بعد الحج، يرافقون القافلة السورية ويتفقون مع مقوِّم ليتحمل هو النفقات كلها على الطريق؛ لكن لأسباب عديدة، من الأفضل السفر مع بدو وليس مع أهل المدن، خاصة على طريق تمر عبر الأراضي البدوية. إلاّ أن حادثاً قد منعني من الانتفاع من هذه الفرصة.

بعد أن أصبحت القافلة جاهزة للانطلاق في الخامس عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر، حزمتُ أمتعتي الشخصية في الصباح، وعند الظهر تمَّ اطلاق مدفع يعلنُ عن مغادرة سليمان باشا سهل الشيخ محمود حيث كانت القافلة مخيمة؛ لكن البدوي الذي يُرافقني لم يكن قد وصل بعد، فأسرعتُ نحو الشيخ محمود، حين علمتُ أن شائعة سواء، أكانت صحيحة أم غير

صحيحة، تد عمّت، بأن محمد علي كان ينتظر فقط رؤية الجِمال كلها وقد تجمَّعت في الصباح على السهل، لكي يستولي عليها ويرسلها إلى الطائف، وبأن العديد من البدو كانوا لاذوا بالفرار خلال الليل، وكان من الواضح أن أولئك الذين اتفقتُ معهم كانوا من بينهم. وفي خضم السرعة والصخب عند الانطلاق، كان من المتعذّر إيجادِ أي جِمال أخرى، وكنتُ بالتالي مُكرهاً على العودة إلى المدينة برفقة العديد من المكيين الذين أُصيبوا بخيبة الأمل نفسها.

عند لحظة الانطلاق، يوزِّع قائد القافلة السورية دائماً كمية معيّنة من المؤن على الفقراء. وقد قام سليمان باشا لهذا الغرض بتكديس حمولة مائتي جمل قرب خيمته؛ وحين امتطى حصانه، انقضَّ عليها من كانوا ينتظرون الإشارة بذلك، بالطريقة الأكثر عنفاً ووحشية والأقل انتظاماً. فقد قامت مجموعة من نحو أربعين حاجاً زنجياً مسلّحين بالعصي للاستيلاء على كمية كبيرة من الحمولة لأنفسهم.

وإنه لمن عادة القافلة السورية التوقف ليومين أو ثلاثة أيام، في طريق عودتها، عند وادي فاطمة وهو المحطة الأولى من مكة، ليؤمنوا للجِمال المرعى الجيد في تلك المنطقة. لكن سليمان باشا، الذي كان يُضمر في نفسه عدم الثقة بتاتاً في محمد علي، وكان يخاف خاصة من أن يعمد محمد علي إلى طلب المزيد من جِمال قافلته؛ لذلك، فقد قام برحلة متواصلة لمحطتين متجاوزاً وادي فاطمة، فخيب أمل العديد من المكيين من أصحاب المتاجر الذين أتوا إلى هنا آملين في إقامة سوق في تلك الفترة. وقد أصاب الباشا الهذيان في أثناء الرحلة، وقبل أن يبلغ دمشق، حجَرَ ضباطه على حريته؛ وقد استعاد رشده في دمشق غير أنه توفي هناك بعد ذلك بقليل.

لقد كنتُ مضطراً للبقاء في مكة شهراً كاملاً بعد رحيل قوافل الحج، بانتظار فرصة أخرى تسمح لي بمتابعة المسير إلى «المدينة». ولكنتُ تمكّنتُ بسهولة من الذهاب من جدة بحراً إلى ينبع، لكنني فضّلت السفر براً. وبقي أهل الحجاز في هذا الوقت في ترقُّب قلق بسبب محمد علي الذي كان يستعد للانطلاق من مكة شخصياً، في حملته على الوهابيين. وكانوا يعلمون أنه إذا ما فشلت حملته، فإن بدو الحجاز سيعودون مباشرة إلى ممارساتهم المألوفة ويقطعون الطريق المؤدية إلى داخل البلاد على المسافرين كلهم؛ كما علّمتهم التجربة كذلك أنه إذا ما استولى الوهابيون على البلاد مرة ثانية، فقد تأمل مدينة مكة فقط في الفرار من النهب والسلب. وقد أخَّرت هذه الاعتبارات كلها انطلاق القوافل إلى «المدينة». وتُغادر مكة عادة قافلة قوية في الحادي عشر من محرَّم (يوافق هذه السنة الثاني من شهر كانون الثاني/ يناير من سنة ١٨١٥)، وهو اليوم الذي يتلو افتتاح الكعبة الذي يحدث دائماً في العاشر من محرم، أو اليوم المدعو

«عاشوراء». ونحو نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر، تمَّ إنذار السكان عبر تقرير زائف بوصول قوة وهابية عن طريق الساحل، من الجنوب. وبعد ذلك بقليل، في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٨١٥، انطلق محمد علي من مكة، والتقى بجيش الوهابيين بعد أربعة أيام، عند بيسل، في جوار الطائف، حيث أحرز النصر الكامل الذي أوردتُ تفاصيله في موضع آخر. وما إن شاع الخبر في مكة حتى انطلقت القافلة التي كانت جاهزة منذ وقت طويل، إلى «المدينة» في الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير.

بعد أن غادرت القافلة السورية ورجع الجزء الأكبر من الحجاج الآخرين إلى جدة، بانتظار فرصة تسمح لهم بالإبحار في السفن، بدت مكة مدينة مهجورة. ولم يبقَ من متاجرها الشهيرة سوى الرُّبع؛ ولم يعد يُرى أي حاج في الشوارع التي كانت منذ أسابيع قليلة تضطرنا إلى شق طريقنا بصعوبة عبر الحشود، ما خلا بعض المتسوّلين الوحيدين الذين رفعوا أصواتهم الشاكية الباكية باتجاه نوافذ المنازل التي ظنوا أنها لا تزال مأهولة. وقد غطّت القذارة والأوساخ الشوارع، ولم يكن هناك من أحد لإزالتها. واكتظت تخوم المدينة بجيف الجِمال الميتة التي جعلت روائحها الهواء كريهاً في وسط المدينة، أسهمت حتماً بانتشار العديد من الأوبئة. وترقد عدة مئات من تلك الجيف بالقرب من خزّانات المياه، ولا يخرج العرب الذين يقطنون في ذلك الجزء من مكة أبداً دون أن يدسّوا في أنفهم قطعاً صغيرة من القطن التي يحملونها معلّقة حول عنقهم بواسطة خيط[1]. لكن ذلك لم يكن كل شيء. فقد اعتاد المكيون في هذا الوقت على إفراغ مراحيض منازلهم؛ وبما أنهم من الكسل والخمول ما يمنعهم من حمل محتوياتها إلى خلف تخوم المدينة، فهم بالكاد يحفرون حفرة في الشارع، أمام باب المسكن ويودعونها هناك ثم يطمرون البقعة بطبقة رقيقة من التراب فقط. ويمكن تصوّر نتائج ممارسة كهذه بسهولة.

تتم الآن حفلات الزفاف والتطهير حيث يتم الاحتفال بها دائماً بعد الحج، ما إن يُترك المكيّون وحدهم، وقبل أن يتسنّى للناس الوقت لصرف المبالغ التي ربحوها خلال إقامة الحجاج؛ غير أني رأيت جنازات ومآتم أكثر بكثير من حفلات الزفاف. فإن أعداداً من الحجاج الذين يُصابون بالمرض من جراء التعب والإنهاك على الطريق، أو من جراء التقاط البرد عند ارتدائهم الإحرام، يعجزون عن متابعة رحلتهم إلى بلادهم، فيبقون على أمل استعادة عافيتهم، لكنهم

(١) إن العرب بشكل عام، حتى البدو منهم، هم أشد حساسية من الأوروبيين فيما يتعلق بأقل رائحة مزعجة. هذه إحدى الأسباب الرئيسية التي لا يدخل من جرائها البدو أبداً إلى مدينة ما دون الإحساس بالانزعاج. فهم يعتقدون أن الروائح الكريهة تؤذي الصحة وتضرّ بها عند دخولها عبر الأنف إلى الرئتين؛ ولهذا السبب، أكثر منه بسبب الإحساس المزعج نفسه الذي تنتجه الرائحة، نرى العرب والبدو غالباً وهو يغطون أنفهم بواسطة قماش عمامتهم في أثناء مشيهم في الشوارع.

غالباً ما يموتون هنا. وإذا ما كان يُرافقهم قريب أو زميل، فإنه يحصل على ممتلكات الميت بدفع جزية للقاضي؛ وإذا ما كان الميت وحيداً، يصبح القاضي والشريف وريثيه، ويُعتبر هذا النوع من الميراث مصدراً مهماً للدخل. حين غادرتُ مكة كان لا يزال هناك ألف حاج ربما، وقد نوى العديد منهم إمضاء سنة كاملة في المدينة المقدّسة حتى حضور موسم حج آخر، ونوى آخرون تمديد فترة إقامتهم لبضعة أشهر فقط.

في يوم الرحيل من مكة، من اللائق القيام بزيارة وداعية للكعبة وتُدعى «طواف الوداع»، إلى جانب تأدية الطواف والسعي. ويقوم الحجاج بذلك عامة حين يكون كل شيء جاهزاً للانطلاق، فيركبون جِمالهم ما إن ينتهوا من القيام بذلك.

الرحلة من مكة إلى المدينة

في الخامس عشر من شهر كانون الثاني/يناير، من سنة ١٨١٥، غادرتُ مكة مع قافلة صغيرة من الحجاج الذاهبين لزيارة قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت تتألف من خمسين جملاً يملكها بعض بدو قبائل الريشية Ryshye والزبيدة الذين كانوا يرافقون جمالهم بأنفسهم أو يُرسلون معها عبيداً. وقد استأجرتُ جملين لنفسي ولحمل أمتعتي وخادمي، ودفعتُ المال مقدماً كما هي العادة في الحجاز، وهو مبلغ مائة وثمانين ليرة للجمل الواحد. إن دليلي السياحي الأخير الذي ارتحتُ برفقته لأسباب عديدة رغم أنه لا يخلو تماماً من العيوب المهنية التي سبق أن ذكرتُها، رافقني خارج المدينة لغاية سهل الشيخ محمود حيث تجمعت الجمال، ومن حيثُ انطلقت القافلة عند الساعة التاسعة مساء. وتتم الرحلة إلى «المدينة» ليلاً، كتلك التي بين مكة وجدة، مما يجعلها أقل فائدة للمسافر، وتكون في فصل الشتاء أقل راحة بكثير ليلاً منها في النهار.

بعد أن تابعنا المسير لساعة وربع الساعة[1]، مررنا بالعمرة، وحتى الآن كانت الطريق معبّدة في أجزاء عديدة بأحجار كبيرة وخاصة في المنحدرات. ومررنا عبر أودية ذات رمال ثابتة بين سلاسل غير منتظمة من التلال المنخفضة، حيث تنمو بعض الجنبات وأشجار الأقاقيا القصيرة. وكانت الطريق مستوية بشكل تام، مع بعض الاستثناءات.

بعد مرور خمس ساعات من مكة، مررنا بمبنى مهدّم يُدعى «الميمونية»، ويحتوي على قبر إمام هدّم قبّته الوهابيون. بالقرب منه تقع بئر ماء عذب وبركة صغيرة أو خزّان من الحجر. كما أن هناك مبنى صغيراً أُلحق بالقبر، وهو عبارة عن خان للمسافرين. تقع طريقنا في الساعات

(١) كنتُ قد اشتريتُ ساعة في مكة، وحصلت على بوصلة جيدة من السفينة الإنكليزية في جدة.

الست الأولى من مكة باتجاه الشمال الغربي، وانعطفنا حينها عند تلة شديدة الانحدار تعجز القوافل عن عبورها، وتابعنا باتجاه الشمال والشمال الغربي إلى وادي فاطمة الذي بلغناه عند مرور ثماني ساعات من مكة أي عند بزوغ الفجر.

في السادس عشر من شهر كانون الثاني/يناير، ترجّلنا في البقعة التي ترتاح فيها قوافل الحج في اليوم الذي يسبق وصولها إلى مكة، في جزء من وادي فاطمة ويُدعى «وادي جموم». إن وادي فاطمة هو عبارة عن أرض منخفضة تزخر بالينابيع والآبار؛ ويمتد إلى الشرق والشمال الشرقي لمسافة أربع أو خمس ساعات حتى يلتقي بوادي ليمون تقريباً. وإلى الغرب من مكان توقّفنا، ينتهي الوادي بعد مسافة ساعة ونصف الساعة حيث يبلغ طوله بالكامل نحو ست ساعات من المشي. وتُدعى النقطة الأبعد منه غرباً «مدوة». وتقع في الجهة الغربية المزارع الرئيسية؛ وإلى الشرق لا يُزرع إلاّ في أماكن قليلة فقط. وقد تجلى لناظرينا في ذلك الاتجاه سهلٌ يبلغ عرضه عدة أميال وقد غطّته الجنبات، وتحيط به من الجانبين تلال منخفضة جرداء أو أرض مرتفعة. لكن يُقال أنه مزروع جيداً باتجاه طرفه الشرقي. ولوادي فاطمة تسميات مختلفة في أجزاء مختلفة؛ لكنه يُعرف بالكامل عند أهل جدة ومكة باسم «الوادي». ويدعوه المؤرخون العرب عادة «وادي مر». وبين وادي فاطمة والهدا (وهي المحطة المسماة كذلك على طريق جدة)، يقع المكانان المدعوان «صروات» و«ركاني».

تحتوي الأراضي المزروعة في وادي فاطمة بشكل رئيسي على أشجار البخيل التي تزوّد الأسواق في المدينتين المجاورتين، والخضار التي تُنقل كل ليلة على ظهور قطعان صغيرة من الحمير إلى مكة وجدة. ويُزرع كذلك القمح والشعير بكميات صغيرة. وبما أن الوادي يزخر بالمياه، فمن الممكن زيادة إنتاجه أكثر مما هو عليه الآن؛ إلاّ أن أهل الحجاز عامة يكرهون الأعمال اليدوية. وبالقرب من المكان الذي ترجّلنا فيه، يجري غدير صغير آتٍ من الشرق، يبلغ عرضه نحو ثلاث أقدام وقدمين عمقاً، ويتدفّق في ساقية تحت الأرض مغطاة بالصخور، كُشفت في مساحة صغيرة حيث تتزوّد القوافل بالمياه الفاترة أكثر من مياه زمزم في مكة، وألذّ منها طعماً. بالقرب منها عدة أبنية عربية مهدّمة وخان كبير؛ وهنا أيضاً، حسب الفاسي، كان سابقاً مسجد يُدعى «الفتح»، كما تقع بعض الأكواخ العربية بين بساتين النخيل يملكها الفلاحون، خاصة من قبيلة لهيان؛ وينتمي الأوفر غنى منهم إلى قبيلة شريف مكة وتدعى آل بركات، وهم يعيشون هنا كالبدو في خيم وأكواخ. وهم يملكون بعض المواشي، كما أن أبقارهم، ككل الأبقار في الحجاز صغيرة الحجم ولها حدبة بين الكتفَيْن. ويتميز وادي فاطمة كذلك بأشجار الحنة العديدة التي يستخدم الشرقيون أزهارها العطرة بعد أن يحوّلوها إلى مسحوق لصبغ الكفين وأخمص القدمين أو الأظافر. وتُباع الحنّة التي تنمو في هذا الوادي إلى

الحجاج في أكياس جلدية حمراء صغيرة؛ ويأخذ الكثير منهم بعضاً منها إلى بلادهم كهدية إلى قريباتهم. وأعتقد أنه من المحتمل أن يكون الواديتيون Oaditac الذين تحدث عنهم بطليموس كانوا سكان هذا الوادي كما يدل اسمهم.

لقد وجدنا عند مكان استراحتنا فرقة تتألف من نحو عشرين خادماً وجمّالاً ينتمون إلى الجيش التركي في مكة، كانوا قد غادروا ذلك المكان سراً للفرار من الحصار الذي فرضه محمد علي على كل الأشخاص الذين يملكون تلك المواصفات. ولم يكن في حوزتهم أي مؤن وقليل من المال؛ لكن، بعد أن سمعوا بقافلة ستنطلق إلى «المدينة»، فكروا في إمكانية مرافقتها إلى هناك. وعقد بعضهم النية، وكانوا مصريين، على الذهاب إلى يَنبع، ووضع آخرون سوريون خطة العودة إلى الديار عبر الصحراء من طريق الحجاز، واستجداء كلفة طريقهم على طول مخيمات البدو، لأنهم لا يملكون المال لدفع تكاليف الرحلة بحراً إلى السويس.

غادرنا مكان استراحتنا عند الساعة الثالثة من بعد الظهر واستغرقنا ساعة لعبور الوادي إلى طرفه الشمالي حيث تبدأ طريق الحج التي سافرنا عليها بالارتفاع شيئاً فشيئاً بين التلال، عبر أودية مليئة بأشجار الأقاقيا بالاتجاه الشمالي الغربي، بدرجة ٤٠. وكانت الصخور من الغرانيت من الصنف الرمادي والأحمر. وبعد مرور ساعتين، تتكشف الطبيعة وتقل الأشجار ويتغيّر اتجاهنا إلى الشمال الغربي، بدرجة ٥٥. وكنتُ قد غادرت القافلة نحو الغروب، وبعد أن شعرتُ بالتعب، جلستُ في ظل شجرة أنتظر اقتراب القافلة؛ حين انسلَّ خمسة بدو خلسة من بين الجنبات نحوي، وقاموا فجأة بسرقة عصاي وهي السلاح الوحيد الذي كان خلفي على الأرض. وقال قائدهم إني دون شك فارّ من الجيش التركي، لذلك فقد كنتُ غنيمتهم الشرعية. ولم أُبدِ أي مقاومة؛ لكني، وبعد أن ألفيتُهم أقلَّ إصراراً من اللصوص البدو عامة، استنتجت بأنهم يشعرون بشيء من الخوف. لذلك، أخبرتهم بأني حاج وأنتمي إلى قافلة كبيرة يُرافقها بدو قبيلة حرب، وأنه من الأفضل لهم أن لا يستخدموا العنف معي لأن مُرشدينا سيعرفون الفاعلين بلا شك وسينقلون ذلك إلى من يملك السلطة لمعاقبتهم. وكنت مطمئناً إلى أن ليس لديهم النية في إيذائي جسدياً، خاصة أني لم أكن أخشى شيئاً لأني كنتُ أملك فقط رداء السفر وبضعة دولارات لأخسرها في أسوأ الأحوال. فقام أحدهم، وكان رجلاً مُسنّاً، بنصح زملائه بالتريث قليلاً، لأن عواقب سرقة حاج لن تكون جيدة أبداً. وفي أثناء تفاوضنا، كنتُ أنتظر بفارغ الصبر رؤية القافلة تقترب؛ غير أنها توقفت لربع ساعة لتفسح المجال أمام المسافرين لتأدية صلاة المساء، وهي ممارسة يومية كنت أجهلها حتى الآن. ولم يكن هذا التأخير في صالحي، وكنتُ أتوقع في كل لحظة أن أتعرض للسلب حين سمعتُ أخيراً وقع الجِمال مما حمل البدو على الانسحاب بالسرعة نفسها التي اقتربوا فيها.

بالرغم من أن الطريق من مكة إلى «المدينة» كانت تُعتبر آمنة حتى للقوافل غير المسلحة كقافلتنا، غير أن من يبتعد عن القافلة سيتعرض دوماً للخطر. ولولا الرعب الذي نشره، قبل بضعة أيام، انتصار محمد علي على الوهابيين، والذي أثّر في البدو كلهم في الجوار، لربما كنتُ دفعتُ ثمن قلة حذري بالسير وحدي. وقد سِرنا في القسم الأكبر من الليل على سهل مفروش بالحصباء أكثر من الرمال، حيث تنمو بعض أشجار العاشور Ashour بين الأقاقيا، وهي من الفصيلة نفسها كتلك التي ذكرتُها في رحلاتي إلى النوبة. وتُدعى هذه الأرض «برقا». ثم توقفنا بعد السير لسبع ساعات عند «القارة».

في السابع عشر من شهر كانون الثاني/يناير، استسلمنا للنوم لبضع ساعات خلال الليل، وهو أمر نادر الحصول في هذه الرحلة. والقارة هو سهل أسود صوّاني، فيه تلال منخفضة على مسافة بعيدة إلى الشرق، وفيه بعض الأشجار الشائكة لكنه يخلو من المياه. وقد دُهشتُ من شبهه الكبير بالصحراء النوبية إلى الجنوب من شغره Shigre. وكان الحر شديداً طوال الصباح في القارة على الرغم من كوننا وسط فصل الشتاء. ولم يكن أي شخص في القافلة يملك خيمة، وكنتُ معرّضاً للحر أكثر من أي شخص آخر، إذ إن الآخرين كلهم كانوا يركبون شبرية أو شكدوف[1] تتسع لشخصين يجلس كل واحد منهما على طرف من الجمل. غير أني كنتُ دائماً أفضل المقعد المكشوف على الجمل لأنه أكثر راحة فضلاً عن كونه عربياً أكثر، وله ميزة تمكّن الجالس من الصعود والنزول من غير الحاجة إلى مساعدة أحد ومن غير إيقاف الجمل، وهي مهمة صعبة مع كل تلك الآلات على ظهره، خاصة الشكدوف حيث يضطر كلا الراكبيْن إلى موازنة بعضهما البعض بشكل متواصل.

لقد أقمتُ اليوم معرفة أكثر حميمية مع رفاقي المسافرين؛ ففي القوافل الصغيرة يسعى كل واحد جاهداً إلى التوافق مع مرافقيه. وهم كانوا ملاويّين (من شبه جزيرة الملايو)، أو كما يُدعَوْن في الشرق، (جاوا). وباستثناء البعض القادمين من ساحل مالاقا، كانوا كلهم إنكليز من أبناء سومطرة Sumatra وجافا Jawas وساحل Malabar. ويأتي أبناء الملايو إلى الحج بانتظام ويصطحبون غالباً نساءهم حيث كانت ثلاث منهن في قافلتنا. ويبقى العديد منهم في مكة لسنوات لدراسة القرآن والشريعة، وهم معروفون بين هنود الحجاز بأنهم متديّنون وملتزمون بدقة بالتعاليم، أو على الأقل بالشعائر في دينهم. ويتكلم القليل منهم العربية بطلاقة لكنهم جميعاً يقرأون القرآن ويلتزمون حتى بدراسته في أثناء السفر. وهم يؤمّنون نفقات رحلتهم عبر بيع

(١) وهي نوع من سرج الجمل المظلّل الذي يقي من الشمس. أكان على الجمل أم كان مُركّزاً على الأرض، وتتسع الشبرية لشخص واحد والشكدوف لشخصين.

خشب الألوة حيث تبلغ كلفة أجود نوع في بلادهم، ويُدعى «ماوردي» كما قيل لي، بين ثلاثة وأربعة دولارات للباوند الواحد. ويُباع في مكة بمبلغ يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين دولاراً. إن قسماتهم الواضحة الطويلة وجبينهم البارز وقوامهم القصير الصلب وأسنانهم المتآكلة التي تشكل تناقضاً مدهشاً مع أسنان العرب اللؤلؤية، كل ذلك يميّزهم أينما كانوا على الرغم من ارتدائهم الزي الهندي المعتاد. وترتدي نساؤهم اللواتي لا يضعن الخمار جميعاً أثواباً ومناديل من القماش الحريري المخطط الصيني الصنع. ويبدو أنهم شعب ذو عادات متّزنة ورصينة وسلوك هادىء، لكنهم في منتهى البخل؛ وقد ثبتت قلة إحسانهم بوضوح من معاملتهم للاجئين المعوزين الذين انضموا إلى القافلة عند وادي فاطمة. وكانوا يقتاتون خلال الرحلة كلها من الأرز والسمك المملّح، فكانوا يغلون الأرز بالماء دون إضافة الزبدة، وهي سلعة غالية في الحجاز، غير أنهم كانوا يحبّونها، حيث توسّل العديد خادمي لإعطائهم بعضاً من زبدتي خِفْية بغية إضافتها إلى طبقهم. وبما أنهم من أصحاب الأملاك، فإن البخل وحده قد يكمن وراء هذا النظام الغذائي المعتدل؛ لكنهم كانوا ينالون عقاباً كافياً من لعنات البدو الذين كانوا يتوقّعون طبعاً الحصول على نصيب من عشائهم، ولم يتمكّنوا من الاقتناع بابتلاع الأرز المغلي بالمياه. وكانت أطباقهم النحاسية صينيّة الصّنع، وعوضاً عن الإبريق الذي يستخدمه الشرقيون للاغتسال والوضوء، كانوا يحملون أباريق الشاي الصينية.

خلال هذه الرحلة، تسنّت لي الفرصة لمعرفة رأي أولئك الملاويّين حول أخلاق الإنكليز وحكومتهم، وهم أسيادهم الحاليين. وقد كشفوا عن حقد متأصل ونفوس عدائية تجاههم، وشتموا عاداتهم ولعنوها بشدة، وأسوأ ما عرفوا منها أنهم يُسرفون في شرب الخمر، وأن الرجال والنساء يختلطون معاً في العلاقات الاجتماعية. غير أن أياً منهم لم يقُم بتجريح عدالة الحكومة واتهامها، وهم كانوا يقارنونها بالقمع الذي كان يمارسه أمراؤهم. ورغم أنهم أطلقوا على الإنكليزي النعوت المحقِّرة نفسها التي يشتم بها المسلم المتعصّب الأوروبيين في كل مكان، فلم يتوانوا عن إضافة عبارة «لكنّ حكومتهم جيدة». وقد سمعتُ مراراً العديد من المحادثات المماثلة بين الهنود في جدة ومكة، وكذلك بين البحارة العرب الذين يمارسون التجارة إلى بومباي وسورات؛ وكانت فحواها أن مسلمي الهند يكرهون الإنكليزي رغم أنهم يحبون حكومته.

غادرنا مكان استراحتنا عند الساعة العاشرة مساء، وتابعنا السير على سهل القارة بالاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ٤٠. وبعد مرور ثلاث ساعات مررنا ببناء مهدّم يُدعى سبيل القارة حيث تقع بئر كانت تزوّد المسافرين سابقاً بالمياه. ولم أرَ أي تلال على امتداد نظري باتجاه الغرب، وتنمو هنا في السهل بعض الأشجار والجنبات الكثيفة. وتابعنا عبور السهل حتى مرور ست ساعات حيث انغلق وبدأت الطريق ترتفع شيئاً فشيئاً عبر وادِ مُدغِل. هنا تقع بئر

«عسفان»، وهي بئر كبيرة وعميقة محاطة بالأحجار، وفيها نبع من المياه العذبة في القعر. هذه هي إحدى محطات الحج. وهناك طريق أخرى من وادي فاطمة إلى عسفان، على بُعد أربعة أميال شرقاً من طريقنا، وقد مررنا بالبئر من غير أن نتوقّف. ويذكر السمهودي Samhoudy، مؤرخ «المدينة»، قرية عند عسفان فيها نبع يُدعى «أولى»؛ لكن ليس هناك الآن أي قرية هنا. وبعد سبع ساعات، يبدأ ممر ضيق جداً يرتفع بين الصخور يتسع فقط لجمل واحد. وقد دمّرت السيول التي تتدفّق نزولاً عبر هذا الممر في الشتاء، الطريق كلها وملأتها بكتل صخرية كبيرة وحادة. وقد بدتْ طريق الحج مقطوعة من الصخور في أماكن عدة؛ غير أن الليل كان حالكاً بحيث يصعب تمييز أي شيء. وبعد مرور ثماني ساعات، بلغنا قمة هذا الممر حيث يقوم بناء صغير قد يكون قبر أحد الأئمة. سرنا من هنا على سهل واسع عريض رملي أحياناً، وفي أجزاء أخرى مزيج من الرمل والطين حيث تنمو الأشجار والأعشاب. وبعد أربع عشرة ساعة، مع اقتراب بزوغ الفجر، مررنا بمخيم بدوي صغير، وتوقّفنا بعد مرور خمس عشرة ساعة في جوار قرية تُدعى «خُليص». وقد توقفنا لبرهة مرات عديدة خلال الليل، وأضرمنا النيران للتدفئة.

تقع «خُليص» على سهل عريض واسع تُرى بساتين البلح في أجزاء عديدة منه وحقول تُزرع فيها الذرة والبامية والدخن. وقد تناثرت عليه عدة قرى صغيرة تشملها تسمية «خُليص» العامة؛ وتُدعى أكبرها حجماً «السوق» حيث يخيم الحجاج بالقرب منها. وتجري ساقية صغيرة فاترة كتلك التي في وادي فاطمة، قرب «السوق»، تُجمع مياهها خارج القرية في بركة صغيرة باتت مهدّمة الآن، ثم تروي السهل؛ وهناك أيضاً قرب البركة أنقاض سبيل[1]. وحسب كلام قطب الدين، فقد بنى البركة والسبيل قائد بك، سلطان مصر نحو سنة ٨٨٥هـ. كان لـ «خُليص» في ذلك الوقت أميرها الخاص وكان شخصاً ذا نفوذ وسلطة في الحجاز. وقد رأيتُ الكثير من الماشية والأبقار والغنم؛ غير أن العرب كانوا يشتكون من الجفاف الذي تعاني منه مزارعهم، لأن الأمطار لم تهطل بعد على الرغم من أن الموسم كان متقدماً جداً. كما أن المياه في الساقية لا تبدو كافية لري الأراضي المزروعة كلها، وكانت كمية المياه أقل حتى من اللازم لأن نصف هذه الكمية كانت تتسرّب من الأقنية الضيّقة بسبب الإهمال.

تحتوي قرية «السوق» على نحو خمسين منزلاً بُنيت كلها من الطين، وهي منخفضة جداً، وتمتد على طول شارعها الرئيسي المتاجر التي يُديرها أهل «خُليص» ويرتادها بدو الجوار كلهم. والتمر هو السلعة الرئيسية للبيع والتي كانت تمتلىء بها معظم المتاجر، ويُباع في غيرها الذرة والشعير والعدس والبصل من (مصر) والأرز ومواد أخرى للمؤن؛ لكن الحنطة لا تُباع هنا لأن

(١) السبيل هو بناء صغير ومفتوح، نجده غالباً بجانب الينابيع. في هذه السبُل، يصلّي المسافرون ويأخذون قسطاً من الراحة.

بدو الحجاز لا يستخدمونها إلاّ قليلاً. وهناك أيضاً التوابل وبعض الأدوية والحاء شجرة لصبغ قِرَب الماء، وقليل من الزبدة. ولم أجد أثراً للحليب لأن أحداً لا يرغب في أن يُطلق عليه نعتُ «بائع الحليب». بجانب الساقية كان يقوم مسجد مُتقن البناء قرب بعض أشجار الجميز، وقد وجدتُ فيه حاجّيْن زنجيين من دارفور، كان قد تم سلبهما على الطريق في الليلة الماضية بضعة ليرات كسبوها في مكة. وقد حاول أحدهما الدفاع عن نفسه فأُبرح ضرباً، وهما ينويان الآن العودة إلى جدة ويسعيان إلى تعويض خسارتهما بالعمل لعدة أشهر. وكان أحد البدو الذين سلبوهما يدخّن غليونه في القرية، غير أنهما كان يفتقران إلى الدليل لإثبات عملية السرقة عليه والحصول على حكم عادل. و«خُليص» هي المقر الرئيسي لقبيلة زبيد العربية، وهي فرع من بني حرب؛ ومقر إقامة شيخهم. إن الجزء الأكبر منهم بدو؛ ويمضي العديد منهم جزءاً من السنة تحت الخيم في الصحراء، حتى أولئك الذين يزرعون الأرض، وذلك بغية ترك ماشيتهم ترعى العشب البري. وتختلط بعض عائلات بني عامر[١]، وهي فرع آخر من قبيلة حرب، مع هذه القبيلة في «خُليص».

قبل الاحتلال التركي، كانت العملة المعتادة في تلك السوق هي الدُّرة Dhourra؛ لكن في الوقت الحاضر، يتم تداول الليرة والبارة. وتُرسل خُليص غالباً قافلات صغيرة إلى جدة التي تبعد مسافة يومين أو ثلاثة أيام. وقيل لي أن الجبال المجاورة كانت تكتظ بالبدو. وعلى مسافة ثلاث ساعات باتجاه الشمال الشرقي، وادٍ خصب يُدعى «وادي خوار» ويُعرف بمزارع الموز العديدة التي تزوّد أسواق الفاكهة في مكة وجدة.

في الثامن عشر من شهر كانون الثاني/يناير. بعد أن ملأنا قِرَبنا بالماء، انطلقنا في الساعة الثالثة من بعد الظهر. وكانت طريقنا تقع إلى الشمال الشرقي على السهل بدرجة ٢٠. وقد بلغنا تلة عالية بعد ساعتين وتُدعى «ثنية خُليص»، وكانت الرمال تغطي جانبها المنحدر بكثافة الذي صعدت إليه جمالنا بصعوبة. وتقوم على قمتها أنقاض قديمة لبناء كبير، وتحدُّ الجدران الطريق من جانبي التلة لمنع تجمع الرمال بكثافة. وكانت تغطّيها جثث الجمال وهي آثار قوافل الحج الأخيرة. وبالهبوط من الجانب الآخر، ينبسط أمامنا إلى الشمال والشرق سهل على امتداد البصر. وقد تبدّت لنا جبال شاهقة تبعد نحو عشرين إلى ثلاثين ميلاً في الاتجاه الشرقي الشمالي والشرقي. وبالنزول إلى السهل، أخذنا الاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ١٠. وبعد مرور ثلاث ساعات ونصف الساعة، يتبدل السهل الذي كان حتى الآن مفروشاً بالحصباء، ليصبح رملياً، وفيه أشجار الطرفة Tarfa أو التمر الهندي (Tamarisk) التي تنمو في الرمل خاصة، وفي

(١) لا يجب الخلط بين بني عامر Aamer وبني عمر Amer، وهم قبيلة أخرى من حرب.

الموسم الأشد جفافاً، حين تكون الخُضرة المحيطة كلها ذابلة، فهي لا تفقد لونها الأخضر؛ وهي أحد إنتاجات صحراء شبه الجزيرة الأكثر شيوعاً من الفُرات إلى مكة، وتوجد كذلك في الصحراء النوبية، وتشكل أوراقها اليانعة غذاء ممتازاً للجِمال. وبعد مرور أربع ساعات وربع الساعة، ألفينا الطريق وقد غطّتها قشرة مالحة تشير إلى اقتراب البحر. أصبحت مسيرتنا من هنا في اتجاهات متنوعة.

حسب العادة المألوفة في الحجاز، تسير الجِمال في صف واحد ـ فتُربط الجمال الخلفية بذَيْل تلك التي في الأمام. وتقع قيادة القافلة على عاتق العربي الذي يسير في المقدمة، غير أنه يسترسل في النوم دائماً تماماً كزملائه في الخلف، فيسير جمله حينئذٍ على هواه وغالباً ما يقوم بتضليل القافلة كلها. بعد السير لاثنتي عشرة ساعة، ترجّلنا عند إحدى محطات الحج وتُدعى «كلية» وكذلك «كُبَيْبة». وتُعرف كل منطقة في سهول شبه الجزيرة باسم خاص؛ ولتمييز مقاطعة صغيرة عن أخرى، هناك حاجة إلى عين البدوي الثاقبة وخبرته؛ لهذا الغرض، فإن أصناف الجنبات والشُجيرات المختلفة، والكلأ الذي ينمو فيها بسبب المطر، تشكّل عوناً كبيراً؛ وكلما أرادوا ذكر مكان معيّن لزملائهم لا يحمل أي اسم، فهم يدلّون عليه عبر العشب الذي ينمو فيه، مثلاً: أبو شيح، وأبو عقال، الخ.

وبعد الابتعاد في الاتجاه الشمالي الشرقي، لمسافة ساعتين من المكان الذي استرحنا فيه، هناك مجرى مياه وبستان نخل صغير. وعلمتُ أن البحر كان يبعد مسافة ست إلى ثماني ساعات. وبقيت الجبال ظاهرة للعيان على مسافة عشرين إلى ثلاثين ميلاً إلى الشرق، وقممها مستدقة تشكل هضاباً منعزلة شاهقة وشديدة الانحدار، تقطن فيها قبيلة «عتيبة» التي كانت تسكن وادي فاطمة كذلك في القرن السابع عشر، حسب كلام الأعصمي. في الصباح، ظهرت بعض النساء البدويات مع قطعان من الغنم والمعز الجائعة التي تبحث عن قدر ضئيل من الكلأ للرعي، لأن الأمطار لم تهطل في السهل وقد ذبلت كل الجنبات؛ ومع ذلك، لم تجرؤ تلك البدويات على البحث عن المراعي في الجبال المجاورة التي لم تكن تنتمي إلى أراضي قبيلتهن؛ فحدود كل أرض يتم التقيد بها بشدة من الرعاة في وقت الجفاف. وقد خرجتُ برفقة العديد من أبناء الملايو لمقابلة تلك النساء وطلب بعض الحليب؛ وأخذ الملاويون بعض المال لشرائه، أما أنا فقد ملأتُ جيوبي بالبسكويت للغرض نفسه. وقد رفضت النساء قبول المال وقُلنَ إنهن غير معتادات على بيع الحليب. لكن، حين قدمتُ لهن البسكويت قُمن بملء قربتي الخشبية في المقابل. ويفر هؤلاء البدو الفقراء في الاتجاهات كلها خلال مرور قوافل الحج لعلمهم بالعادات المؤذية والضارة التي يتّبعها الجنود الذين يُرافقون القافلة.

في التاسع عشر من شهر كانون الثاني/يناير، غادرنا «كليّة» عند الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر وتابعنا السير على السهل. وبعد مرور ثلاث ساعات، بلغنا تلالاً منخفضة من الرمال المتحركة. وبعد مضي أربع ساعات، وصلنا إلى سهل صخري فيه كتل صخرية ممدّدة على الطريق، وكنا نسير في الاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ٢٥. وبعد مضي تسع ساعات، توقّفنا خلال الليل قرب قرية «رابغ»، وقد كانت طريقنا مستوية باستمرار. وتشمل هذه التسمية ثلاث أو أربع قرى صغيرة تبعد قليلاً إحداها عن الأخرى، والقرية الرئيسية منها، كـ«خُليص»، تتميز باسم إضافي وهو «السوق». ويتم زرع السهل المجاور، كما تجعل مزارع أشجار النخل الكثيفة من «رابغ» مكاناً ذا شأن على هذه الطريق. وتنمو بين أشجار النخل بضع من أشجار التمر الهندي التي كانت ثمارها آنذاك خضراء يانعة ولذيذة الطعم. كما تنمو بضع أشجار مماثلة في مكة كذلك.

لقد هطلت الأمطار هنا مؤخراً وكانت التربة محروثة في أجزاء عديدة. وكانت الثيران أو الجِمال تجر محاريث أولئك العرب، التي تشبه تلك التي وصفها الرحالة نيبور، والتي تُستعمل عامة في الحجاز واليمن[1] على ما أعتقد. ولـ«رابغ» ميزة وجود عدد من الآبار من المياه المقبولة، لأن قربها من البحر الذي يبعد كما علمتُ مسافة ستة أو سبعة أميال قد جعل من ساحل «رابغ» مكاناً تزوره العديد من السفن التي تنقصها المياه، بالرغم من أن البحر كان محجوباً عن النظر ببساتين النخل. إن بدو هذا الساحل صيّادون نشيطون، يأتون بأسماكهم المملّحة إلى هنا من الموانىء البعيدة بكميات تتوافر دائماً في الأسواق، ويشتريها طاقم السفن العربية الذين يستهلكون كميات كبيرة منها ويحملون الباقي إلى مصر أو جدة. إن سكان «رابغ» هم من قبائل حرب المذكورة أعلاه كقبيلة «عامر» و«زبيد»، وخاصة من تلك الأخيرة. وفي الجبال المقابلة، إلى الشرق، يعيش «بنو عوف» وهم قبيلة أخرى من قبائل حرب. وعلى الحجاج الذين يمرون بحراً من مصر إلى جدة، وضع الإحرام أمام «رابغ»، إما على الشاطىء أو على متن السفينة.

وقد وقع حادث هنا ألقى الضوء على نقص الإحسان والمعروف لدى زملائنا الملاويين. وكان هناك العديد من الملاويين الفقراء المعوزين الذين يعجزون عن دفع أجرة جمل، فكانوا يلحقون برفاقهم سيراً على الأقدام، وبما أن رحلاتنا الليلية كانت طويلة جداً، كان هؤلاء الرجال يصلون بعد ساعة أو اثنتين أحياناً من توقفنا في الصباح. وقد أحضر أحدهم بدويّين من

(١) لا أعرف ما الذي حمل بطليموس على ذكر نهر في الاتجاه بين مكة وينبع، حيث إنه ليس هناك بالتأكيد أي نهر يصب في البحر في الحجاز. وفي وقت الشتاء، تجري سيول عديدة هابطة من الجبال.

قبيلة «عوف»، فأخبرانا أنهما وجداه يهيم في الصحراء فوعدهم بدفع عشرين ليرة، إذا ما أرشداه إلى القافلة، وأنهما توقّعا أن يقوم أصدقاؤه بدفع ذلك المبلغ، لأن الرجل كما رأياه، كان مجرداً من المال. وحين رأيا أن أحداً من مجموعتنا لم يُبدِ استعداداً لدفع جزء صغير من المبلغ، وأن الجميع قد أنكر أي معرفة بالرجل الذي، كما قالوا، انضم إلى القافلة عند الانطلاق من مكة دون أن يكونوا على معرفة بشخصه، أعلن البدويّان أنهما سيأخذان الثوب الهزيل الذي يرتديه وسيحتجزانه في خيمتهما حتى مرور أحد الملاويين الذي قد يطلق سراحه. وحين كانت القافلة تتأهب للانطلاق، قبضا عليه وجرّاه إلى مسافة قصيرة باتجاه الأشجار. وقد تملّكه الخوف لدرجة أنه فقد القدرة على الكلام وسمح بأن يأخذوه بعيداً دون أن يبدي أي مقاومة ولم يكن أي دليل ممن يرافقوننا ليُضاهي أحد أفراد قبيلة عوف، وهي قبيلة يخشاها الجميع بسبب الوحشية والهجومية اللتين يتّسم بهما طبع أفرادها؛ كما أنه لم يكن من قرية «رابغ» أي قاضٍ يُستعان بسلطته ومساعدته؛ كما كان للبدويين مطلب شرعي عن سجينهما. ولم أكن لأقوم بعمل سخي بدفع فديته بنفسي؛ غير أني كنتُ أعتقد أن ذلك هو واجب يقع على عاتق مواطنيه الملاويين، لذلك فقد سعيتُ جاهداً لإقناعهم بالدفع. في الواقع، لم ألتق في حياتي بأشخاص خسيسين قُساة القلوب عديمي الإحساس مثلهم، فقد أعلنوا بالإجماع عدم معرفتهم بالرجل وبالتالي، فهم غير مُلزمين بتحمل أي مصاريف لأجله. وكانت الجمال محمّلة، فقد وضّبوا الأمتعة كلها وكان قائد القافلة يهمّ بالانطلاق حين تعالى صراخ الرجل البائس موضوع الخلاف، وقد انتظرتُ هذه اللحظة، فقد عمدتُ إلى إيقاف جمل القائد وجعلته يقع أرضاً، ثم قلتُ عالياً إن القافلة لن تتابع المسير حتى إطلاق سراح الرجل، معتمداً فيما فعلتُ على الاحترام الذي كنتُ أتمتّع به في القافلة إذ إنهم كانوا يظنون أني حاج على صلة ما بجيش محمد علي، مُستنداً كذلك على الود الذي حصلتُ عليه من كل دليل في القافلة عبر توزيع المؤن بينهم مجاناً منذ أن غادرنا مكة. ثم تنقلت من جمل إلى آخر وأخذت من كل واحد عشرين بارة (أي ما يعادل نحو ثلاثة بنسات)، وذلك عبر قذف الملاويين ونسائهم بالشتائم ومن خلال التعارك مع بعضهم؛ وبعد نضال طويل جمعتُ عشرين ليرة. وحملتُ هذا المبلغ إلى البدويّيْن اللذين بقيا على مسافة قصيرة مع سجينهما؛ وبعد أن عرضتُ عليهما حالته البائسة، والتمستُ شرف قبيلتهما، جعلتهما يقبلان بعشرة دراهم. وعلى وفق مبادىء قواعد السلوك التركية الحقيقية، كان يجب أن أحتفظ بالليرات العشر الباقية كتعويض لما قمتُ به، غير أني أعطيتها للرجل الملاوي الفقير لأُشعر مواطنيه بالخزي والعار. وكانت النتيجة أن أبعدوه كلياً عن مجموعتهم خلال الرحلة وألقوا به بين يدي أنا إلى أن وصلنا إلى «المدينة» وخلال إقامته هناك.

وقد عقدتُ النية على إعطائه ما يساعده على العودة إلى ينبع، لكنني ما لبثت أن مرضتُ مرضاً شديداً بعد وصولي إلى «المدينة»، فلم أعلم بعدها ما حلّ به.

كان العديد من الحجاج يلتمسون الصدقات في سوق «رابغ»، إذ إن هؤلاء الفقراء يتوهمون عند الانطلاق من مكة إلى «المدينة» مع القافلة الكبيرة، بأنهم من القوة ما سوف يمكنهم من تحمل مشقات تلك الرحلة، وهم يعلمون أن الحجاج المحسنين يمكن العثور عليهم عبر السفر مع القافلة فيزوّدونهم بالطعام والماء. لكن المسافات الطويلة التي نقطعها ليلاً لا تلبث أن تُنهك قواهم فيبدأون بالتباطؤ في الخلف على الطريق. وبعد حرمان كبير وتأخير، يُجبرون على مواصلة رحلتهم بوسائل أخرى. وقد انضم حاج أفغاني هنا إلى مجموعتنا، وكان رجلاً مُسِناً يتمتع بقوة جسدية كبيرة ومميّزة؛ وقد أتى على الطريق كله من «كابول» إلى مكة سيراً على الأقدام، وكان ينوي العودة بالطريقة نفسها. وقد أسفتُ لعدم معرفته باللغة العربية إذ بدا رجلاً ذكياً كان بإمكانه تزويدي بمعلومات هامة عن بلده.

في العشرين من شهر كانون الثاني/يناير، غادرنا «رابغ» عند الساعة الرابعة من بعد الظهر. وكانت طريقنا تقع إلى الشمال الغربي بدرجة ٨، وتتألف في معظم أجزائها من حجر الصوان الأسود، وقد انتشرتْ هنا وهناك بعض التلال الرملية التي نمتْ عليها بعض الأشجار. وبما أني لم أتمتع بأي قسط من الراحة في اليومين الأخيرين، فقد غفوت على ظهر الجمل، وجُل ما أستطيع قوله هو أننا ترجلنا بعد إحدى عشرة ساعة من السير على أرض رملية كثيرة التلال، وقد توقّفنا عند إحدى محطات الحج وتدعى «مستورة» حيث تؤمن بئرين كبيرتين وعميقتين مرصوفتين بالحجارة زاداً غزيراً من المياه العذبة. بالقرب منها، كان يقوم قبر إمام يدعى شيخ معدلي Madely، وقد هدّمه الوهابيون. وعلى مسافة عشرة أميال منه يقف جبل شاهق يُدعى جبل «أيوب»، وهو يعلو قمم الجبال في السلسلة نفسها، وقد غطته الأشجار في أجزاء عديدة. تسكن هذا الجبل قبيلة عوف. إن الطريق كلها من «كلية» إلى هذا المكان خطرة جداً بسبب السرقات التي يرتكبها هؤلاء البدو، فلا تمرُّ القافلة أبداً من غير أن تخسر بعضاً من حمولتها أو جمالها. كانت الطريق في زمن الوهابيين آمنة جداً، حيث كان شيوخ قبيلة حرب والقبيلة كلها مسؤولين عن كل أعمال السلب التي تُرتكب على أراضيهم. غير أن الوهابيين لم يتمكنوا من إخضاع قبيلة عوف في الجبال التي يقطنونها؛ ويبدو الدليل على استقلاليتهم جلياً بسبب الشعر الطويل الذي كان يميز أفراد تلك القبيلة مما يعارض تعاليم الوهابيين الذين جعلوا من حلق الرأس قانوناً عاماً.

وقد وجدنا عند آبار «مستورة» عدة قطعان من الجِمال والغنم التي كان رُعاة قبيلة عوف من

الرجال والنساء يسقونها. فاشتريتُ منهم خروفاً ببضع ليرات وبعض التبغ، وقمتُ بتوزيعه على كل دليل معنا وكل من كان يرافقنا سيراً على الأقدام وأتى الملاويون يطلبون نصيبهم محاولين إفهامي بأن مطاوعتي في الاستعطاف الذي قمتُ به لأجل مواطنهم الفقير كانت تستحق المكافأة. غير أن البدو الذين كانوا معنا وفّروا عليّ عناء إجابتهم وذلك عبر تأنيبهم بطريقة ساخرة ومهينة. وقد بدتْ عدة قبور لحجاج قرب البئرين احترمها الوهابيون إذ إنهم نادراً ما يتعرّضون للقبور التي تركتها الكبرياء والتعصب الأعمى دون تزيين[1].

في الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير انطلقنا عند الساعة الثالثة من بعد الظهر. وكان السهل الذي قطعناه إما صوّانياً صلباً وإما ذا تُربة صالحة للزرع في بعض الأماكن. وكان اتجاهنا نحو الشمال. وبعد أن تابعنا السير على سهل رملي تغطيه جنبات قصيرة لساعات ونصف الساعة، بدا جبل أيوب على بعد نحو ستة أميال؛ فبدأت سلسلة جبال أكثر انخفاضاً موازية للطريق. هنا تركنا طريق الحج التي تنعطف أكثر إلى الغرب وتابعنا باتجاه الجبال شمالاً شرقاً بدرجة ١٥ حتى نبلغ الظفرة Szafra عبر الطريق الأقرب. وبعد أن مشينا لثلاث عشرة ساعة على أرض غير مستوية وتلال منخفضة، توقفنا مع اقتراب النهار في سهل رملي قرب بئر تدعى «بئر الشيخ». لقد سبق أن ذكرتُ أن مسيراتنا الليلية كانت دائماً طويلة جداً، غير أن معدل سرعة الجِمال كان بطيئاً جداً، بحيث أنها لا تكاد تقطع أكثر من ميلين في الساعة أو ميلين وربع. ويبلغ عمق بئر الشيخ بين ثلاثين وأربعين قدماً وعرضها خمس عشرة قدماً؛ وقد رُصفت بالحجارة بصلابة وقد أتمّ ذلك رجال شعروا بالقلق على راحة المسافرين إلى المدن المقدّسة أكثر مما يُظهره الزعماء الحاليون للمؤمنين. وتأخذ قافلة الحج أحياناً هذه الطريق عند الاستعجال، لكنها تتّبع عادة الطريق التي تمر عبر بَدر، حيث تلحق القافلتان المصرية والسورية بعضهما بعضاً في طريقهما إلى مكة بفارق يومين أو أكثر، لأن توقيت انطلاقهما في الرحلة يتم في أيام محددة لا تتغيّر. لقد اقتربنا الآن من السلسلة الكبيرة التي كانت على يميننا منذ أن غادرنا «خُليص»، وهناك سلسلة صغيرة منها تميل غرباً باتجاه البحر على مسافة بضعة أميال إلى الشمال من بئر الشيخ، وتقع «بدر» عند طرفها. وقابلنا بدويّين عند هذه البئر أيضاً وكانوا من قبيلة «بني سالم» أو «سوالمة» Sowaleme، واشترى أدلاؤنا خروفاً منهم وقاموا بشيّه على «المجباة»، وهي نوع من حفرة في الرمل تحيط بها حجارة صغيرة يتم تسخينها ويوضع اللحم عليها ثم يُغطى بالجمر وبجلد الحيوان المبلَّل ويُغلَقُ تقريباً بالرمل والطين. وبعد ساعة ونصف الساعة، يُطبخ اللحم دون أن يفقد الماء فيه، وله مذاق رائع.

(١) الأصل في القبور ألا تزيّن، فلا كبرياء أو تعصّب أعمى كما يزعم المؤلف.

في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، غادرنا البئر عند الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر على طريق في الاتجاه الشمالي الغربي بدرجة ١٠، وهي ترتفع على أرض غير مستوية. وبعد مرور ساعة ونصف الساعة، دخلنا الجبال عند الزاوية التي تشكلها السلسلة الكبيرة من جهة والسلسلة الصغيرة المتفرعة المذكورة أعلاه والتي تمتد باتجاه «بَدْر»، من جهة ثانية. وتابعنا من هنا شمالاً وشمالاً شرقاً في أودية ذات تربة رملية مليئة بالصخور المتفرّقة. وتحيط بالطريق على الجانبين جبال شاهقة ذات قمم مُستدقّة وحادة وجرداء كلياً. ويُدعى الجبل الشرقي الذي يقع هنا بموازاة الطريق، «جبل صُبح»، وهو ملك لقبيلة بني صُبح القوية، وهي فرع من قبيلة بني حرب. وفي جبالهم أودية شديدة الخصوبة حيث تُزرع الذرة وتنمو أشجار النخيل. ونجد هنا شجرة بلسم مكة بشكل أساسي، وSenna Mekka أو Senna العربية التي تصدّرها القافلة السورية، تُجمع في هذه المنطقة حصرياً. ويقال إن العبور إلى الأجزاء الداخلية من هذا الجبل في غاية الصعوبة، بحيث تعذّر على الوهابيين مهاجمتها. وقد جاء العديد من عائلات قبائل حرب الأخرى إلى هنا مع كل أمتعتهم ومواشيهم هرباً من سُلطة سعود؛ وفي حين خضع بدوِ الحجاز كلهم لسيادة الوهابيين وسلطانهم، كانت قبيلة صُبح هي القبيلة الوحيدة التي تمكنت بنجاح من حماية أراضيها وأعلنت استقلالها بجرأة.

بعد السير لست ساعات ونصف، بدأت الطريق بالارتفاع بين تلال صخرية منخفضة. وبعد مضي سبع ساعات ونصف، دخلنا وادي زُقاق، وهو وادٍ ضيق مرتفع قليلاً، تملأه الصخور المنفصلة وتنمو فيه أشجار الأقاقيا بكثافة. بالتقدم شيئاً فشيئاً، يُمسي الوادي أضيق فأضيق ويصبح الممر شديد الانحدار وأبلغ صعوبة لعبور الجِمال. وبعد ثلاث عشرة ساعة، وصلنا إلى أرض مستوية عند قمته، ودخلنا من هناك إلى وادي Es'Szafra، بالقرب من القرية التي تحمل الاسم نفسه، وقد توقفنا عندها.

في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، بعد أن تعبت جِمالنا لأننا لم نجد الكثير من الطعام على الطريق، بالرغم من أنها كانت دائماً تملك الصباح بأكمله لترعى، وبعد أن باتَ بعضها مهدَّداً بالانهيار، توقف القائد هنا طوال النهار. وكالقرى البدوية الآنفة الذكر، فإن الظفرة هي سوق للقبائل المحيطة كلها، وقد بُنيت منازلها على سفح الجبل وفي الوادي الضيق مما لا يكاد يترك مجال كافٍ لبساتين النخيل التي ترتصف على جانبيه. ويتدفق نهر صغير في الوادي فتنتشر مياهه بين أشجار النخيل فتروي بعض الحقول المزروعة في الأجزاء الأكثر اتساعاً في تعرّجات هذا الوادي. وتُزرع هنا الحنطة والذرة والشعير والدخن؛ ومن الخضار، يُزرع الباذنجان والملوخية والبصل والفجل، وتكثر أشجار الليمون والموز والكرم. كما أن التربة رملية في كل مكان لكنها تصبح خصبة بالريّ، فالأمطار الغزيرة قد هطلت لثلاثة أيام في الجبال،

وكان سيل لا يزال يتدفق يبلغ عرضه عشرين قدماً وعمقه ثلاث أو أربع أقدام. وتمتد بساتين النخيل لأربعة أميال تقريباً وهي ملك لسكان الظفرة وبدو الجوار الذين يُبقون بعضاً منهم هناك، أو بعض المزارعين العرب لري الأرض، ويأتون إلى هنا بأنفسهم حين ينضج البلح. وتنتقل أشجار النخيل من شخص لآخر في عملية تجارية وتُباع شجرة شجرة؛ كما يتألف غالباً مهر الفتاة الذي يُدفع لوالدها عند الزواج منها من أشجار النخيل. وتنمو كلها في الرمال العميقة التي تُجمع من الأجزاء الوسطى في الوادي وتُرص حول جذورها ويتم تجديدها سنوياً، إذ إن السيول تجرفُها بعيداً. ويُحيط بكل بستان صغير جدار من الحجر أو الطين؛ ويسكن المزارعون في عدة قرى صغيرة أو في منازل منعزلة منتشرة بين الأشجار. والمنازل منخفضة ذات غرفتين فقط بشكل عام وفيها فناء صغير للماشية. ونجد العديد من ينابيع المياه الجارية والآبار في الحدائق، وينبع النهر الصغير الأساسي من بستان بالقرب من السوق؛ وقد بُني مسجد صغير بجانبه تُظلِّله بضع من أشجار الكستناء. ولم أرَ أياً من تلك الأصناف في الحجاز. وهنا أيضاً كانت مياه الجدول فاترة لكن أقل منها في خُليص ورابغ.

إن سكان هذا الوادي الذي يشتهر اسمه في الحجاز بسبب وفرة أشجار النخيل فيه، هم من قبيلة «بني سالم»، وهي الفرع الأكثر عدداً في قبيلة حرب. وتتألف في جزء منها، كمعظم القبائل الأخرى في الحجاز، من البدو، وفي جزئها الآخر من السكان المستقرين؛ حيث يبقى هؤلاء في منازلهم وحدائقهم على مدار السنة، بالرغم من أنهم يتزيّنون ويعيشون بالطريقة نفسها كإخوانهم تحت الخيم. وكان الزعيم الوهابي على اطلاع وعلم بأهمية هذه المحطة؛ وحين نجح، بعد مقاومة طويلة، في السيطرة على بني حرب الذين كانوا يملكون مفتاح الحجاز الشمالي[1]، فكّر في ضرورة إبقاء عين ساهرة على هذا الوادي، فبنى هناك عدة أبراج متينة حيث أقام جامعو ضرائبه ودخله وحيث كانت تُجمع الضرائب المجبية من الوادي. وكان هؤلاء البدو كلهم يُضمرون العداء المتأصّل للنظام الوهابي. وعلى الرغم من أنهم تخلصوا من نَيرهم، فهم حتى الآن يوجّهون إليهم الانتقادات اللاذعة بالقدر نفسه الذي يقوم المكيّون فيه بمدحهم. قبل الغزو الوهابي، لم يكن لبني حرب أي سيّد، ولم يتم أبداً فرض ضريبة على منتجات حقولهم. وكان بالطبع لشريف مكة سيادة اسمية عليهم؛ لكنهم كانوا في الواقع مستقلين تماماً، وكان شيوخهم يثنون على آراء الشريف عندما يتبيّن فقط أنها مفيدة أو لها ميزة توفير

(١) في هذه الحملة، ساعده مضيان وهو زعيم سابق لقبيلة حرب، وكان قد أُبعد عن مركزه بأمر من جزي وهو خصم محظوظ. وقد تمَّ بعد ذلك إيقاف مضيان بتهمة الغدر والخيانة من قبل الأتراك في «المدينة»، وضُرب عنقه في القسطنطينية. وقُتل جزي، وهو صديق لمحمد علي، بأمر من حاكم «المدينة» التركي، لأنه تكلّم عالياً وأفصح عن خدماته.

ربح مادي لشعبهم. ويتذمر هذا الشعب الآن بشدة من الضرائب المرتفعة التي فرضها الوهابيون ويقولون إنه إلى جانب المال المتوجب عليهم دفعه إلى خزينة سعود، فقد انتزع منهم زعيم شيوخ الوهابين كلهم في الحجاز، عثمان المضايفة، العديد من المبالغ الإضافية. وقد ساورتني الشكوك حول دقة هذه المعلومات لأني علمتُ أن الزعيم الوهابي كان يولي اهتماماً خاصاً لمنع حدوث مثل تلك الممارسات غير العادلة من قِبل ضباطه، كما كان يسعى إلى معاقبة المذنب. وقالوا لي كذلك إن المياه التي يروون بها مزروعاتهم كانت تُجزَى بمبلغ سنوي، وليس فقط حدائقهم ومزارعهم كانت خاضعة للنظام الضريبي.

ويتألف زي أهل الظفرة من قميص وعباءة قصيرة من قماش الخام الهندي الملوّن الخشن، يرتدون فوقها عباءة بيضاء خفيفة، هي نفسها التي يرتديها البدو في الفرات قرب حلب، وهو يشبه زي كل بني حرب المستوطنين؛ في حين يرتدي بدو القبيلة العباءة المخططة البنية والبيضاء. ويبدو أن الأرباح التي يجنونها من مرور القوافل ومن متاجرهم القليلة، كان لها تأثير فظيع في طباعهم، لأنهم يغشّون بقدر ما يستطيعون؛ غير أنهم لا يخلون من التعاطف وحسن الضيافة التي يبدونها للحجاج الفقراء الذين يعمدون عند مرورهم إلى إيجاد وسيلة لجمع ما هو ضروري لغذائهم اليومي من المتاجر.

وقد التقينا هنا بعدة حجاج فقراء كانوا في طريقهم إلى «المدينة»، وهم لا يملكون ما يسدُّ رمقهم سوى ما يحصلون عليه من إحسان البدو على الطريق. ولم تكن تلك المرة الأولى التي وصفتُ فيها الطريقة السقيمة التي كان يُمارسُ فيها كرم العديد من الخلفاء والسلاطين الذين كانوا يُثرون مكة و«المدينة» وينفقون مبالغ طائلة لتأمين مرور قوافل الحج الكبيرة بفخامة وعظمة عبر الأرض المقدسة؛ لكنهم في الوقت نفسه كانوا يُهملون تماماً تأمين راحة العدد الهائل من الحجاج الفقراء الذين يسافرون باستمرار عبر تلك البلاد، وضمان أمنهم. إذ إن بناء ست مؤسسات خيرية بين مكة و«المدينة» ومنح بضعة آلاف من الدولارات سنوياً، هو عمل يحقق بشكل أفضل وفعّال رسالة ديانتهم أكثر من المبالغ كلها التي تُنفق في إطعام عديمي الجدوى والكسالى أو في المحافظة على تقديم عروض تافهة. وليس هناك على طول هذه الطريق بين مكة و«المدينة» أي خان عمومي، كما لم يتم القيام بأي شيء لتأمين خدمة المسافرين والسّهر على مصلحتهم سوى المحافظة على الآبار في حالة جيدة. إن العمل الوحيد الذي يدل على إحسان حقيقي وفعّال قام به أي حاكم ساهم في إثراء مكة، قد سجّله المؤرخون، وهو مبنى مستشفى في مكة، وقد شُيِّد سنة ٨١٦هـ بأمر من المؤيد، سلطان مصر؛ ولم يبق له أي أثر الآن.

يُعتبر التمر السلعة الرئيسية المعروضة للبيع في شارع السوق في الظفرة ويدعى سوق الظفرة.

ويباع الكيلوغرام الواحد هنا بعشر بارات، بينما يُباع في مكة بمبلغ خمس وعشرين بارة. ويشكل العسل الذي يحفظ في جلد الغنم سلعة تجارية أخرى هنا. وتمتلىء الجبال المجاورة ببيوت النحل. ففي تلك المقاطعات التي تُعرف بتردد النحل عليها، يضع البدو خلايا نحل خشبية على الأرض، يقوم النحل بالسيطرة عليها دائماً. والعسل ذو نوعية ممتازة، وقد رأيت منه نوعاً كان من البياض والنقاء ما يشبه الماء. كما يمكن شراء الأدوية والتوابل وبعض العطور التي يحبُّها بدو تلك البلاد.

إن الظفرة وبدر هما المكانان الوحيدان في الحجاز يمكن الحصول فيهما على بلسم مكة Balesan، في حالة نقيّة. وتنمو شجرة البلسم في الجبال المجاورة لكن بشكل أساسي في جبل «صُبح»، ويدعوها العرب «بشم». وقيل لي إن علوها يبلغ بين عشر إلى خمس عشرة قدماً، وهي ذات جذع ناعم ولحاء رقيق. في منتصف فصل الصيف، يتم حفر شقوق صغيرة في اللّحاء، فيؤخذ السائل الذي يخرج على الفور بإظفر الإبهام ويوضع في إناء. وتبدو المادة تلك في نوعين، أحدهما أبيض اللون والآخر بلون أبيض مائل إلى الصفار؛ ويُعتبر النوع الأول هو الأفضل. وقد رأيت هنا النوع الثاني في قِرَب جلدية يستعملها البدو عند إحضاره إلى السوق؛ وله رائحة قوية تشبه رائحة التربنتينة، وطعمه مر. ويعمد أهل الظفرة عادة إلى غشّه بزيت السمسم والقطران. وحين يختبرون نقاءه، يغمسون إصبعهم ثم يُضرمون النار فيه، فإذا احترق دون أن يؤلم أو يترك أثراً على الإصبع، فهم يصنّفونه في فئة النوعية الجيدة؛ لكن إذا ما احترق الإصبع ما إن تُضرم النار، فهم يعلمون أنه مغشوش. إني أذكر أني قرأت في أسفار بروس Bruce وصفاً عن كيفية اختباره وذلك عبر جعل نقطة منه تسقط في فنجان مليء بالمياه؛ إذ إن Balesan أو البلسم الجيد النوعية يتجمّد في القعر، ويذوب السيىء النوعية ويطفو على السطح. وقد جرّبتُ هذا الاختبار الذي كان يجهله الناس هنا؛ ووجدت القطرة تطفو على سطح المياه؛ كما جرّبت اختبارهم بإضرام النار على إصبع بدوي، وقد ندم على تهوُّره. لذلك، فقد اعتبرتُ البلسم المبيع هنا مغشوشاً، كما أنه كان أقل كثافة من العسل. وتمنيّت شراء القليل منه لكن امتعتي، وبضاعة المتاجر، لم يكن فيها ما يشبه القنينة لاحتوائه. ويطلب البدو الذين يأتون به إلى هنا عادة دولارين أو ثلاثة للكيلوغرام الواحد إذا كان نقياً؛ ويُعيد عرب الظفرة بيعه إلى الحجاج في القافلة الكبيرة لقاء ثمانية أو عشرة دولارات للكيلوغرام الواحد، ويكون مغشوشاً؛ ويشتريه الفُرس بشكل خاص.

يخضع البلسم المعد للبيع في جدة ومكة، حيث يأتي إلى القاهرة، لعمليات غشّ عديدة دائماً. وليس لدى الحاج أي أمل في الحصول عليه في حالة نقية إذا لم يلتقِ ببعض البدو مصادفة ليشتريه منهم مباشرة. إن الطبقات الأوفر غنى من الحجاج يضعون قطرة من البلسم في

أول فنجان من القهوة يشربونه في الصباح ظناً منهم أنه يعمل كمنشّط. وتُستعمل بذور الشجرة التي ينمو عليها في الحجاز لعمليات الإجهاض.

تجدر بي الإشارة هنا إلى ميزة خاصة في عادات قبيلة بني سالم، وهي أنه في حال وقوع قتيل، أو في حال فدية رجل قتيل (وتبلغ هنا ثمانمئة دولار) التي تقبلها عائلة المتوفى، يدفع القاتل وعائلته وأقرباؤه المبلغ، حيث يدفع الأول الثلث ويدفع أنسباؤه الثلثين؛ وهي عادة لا تسود في أي جزء آخر من الصحراء، حسبما أعلم.

لقد تشاجر أدلاؤنا البدو هنا طويلاً مع الملاويين. فقد تفاوض الأدلاء في السوق على جملين بغية استبدال اثنين غير مؤهلين لمتابعة الرحلة. لكن، بما أنهم لا يملكون المال الكافي لدفع ثمنهما، فقد طلبوا المساعدة من الملاويين ورجوْهم باستدانة عشرة دولارات منهم يدفعونها لهم في «المدينة»؛ وقد رفض الملاويون، وبعد الضغط عليهم بشدة، سعَوْا لديَّ لكي أتدخل لصالحهم؛ لكن البدو أخذوا المال منهم عنوة بالوسائل نفسها التي اتّبعتُها في مناسبة سابقة. وظهرت للعيان الآن محفظة أحد الملاويّين التي خُبِّأت في كيس للأرز، وكانت تحتوي ربما على ثلاثمئة دولار؛ وكان صاحبها خائفاً إلى حد بعيد من إظهارها؛ كما أن خشيته من أن يُقدمَ العرب على قتله من أجل المال لمعاقبته على بُخله، جعلته في حالة تأهُّب تام ومستمر إلى أن وصلنا إلى «المدينة».

في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، غادرنا سوق الظفرة(*) عند الساعة الثالثة من بعد الظهر ومشينا على طول الوادي الذي يبدأ بالاتساع قليلاً خلف السوق. وكانت الخضرة المتألقة التي تُضفيها أشجار النخيل والمزارع تشكل تناقضاً متميزاً وفريداً مع الجبال الجرداء على كل جانب. وكان اتجاهنا شمالاً شرقاً بدرجة ١٠. وقد أُلفيتُ الصخور هنا من حجر Thon الأحمر، مع طبقة مستعرضة من المادة نفسها لكن بلون أخضر. ووجدتُ في أثناء عودتي من «المدينة»، خلف /جديدة» Djedeyde، قليلاً إلى الأعلى، صخور الفَلْسبار (سليكات الألمنيوم). وبعد مسافة ساعة من السوق، مررنا بقرية مماثلة في الوادي تدعى «الخَرمة»، وتقع ضمن وادي الظفرة. وبعد مضي ساعتين، وصلنا إلى سبيل ماء عمومي مهدّم على الطريق بالقرب من بئر شبه ممتلئة. وينقسم الوادي هنا حيث يميل فرع منه في الاتجاه الشمالي الغربي؛ ويميل الآخر الذي تبعناه في الاتجاه الشمالي إلى الشمالي الشرقي. ومررنا بعد ساعتين ونصف الساعة بقرية تُدعى «دار الحَمْرة»، وفيها حدائق من أشجار النخيل ومزارع تسكنها قبيلة

(*) خلال الليل، مر عبر الظفرة رسول كردي يمتطي جملاً ويرافقه عدة بدو؛ وقد أتى من مركز محمد علي الرئيسي، وكان يحمل نبأ إلقاء القبض على ترابة لصالح طوسون باشا، في «المدينة».

«الحواسِب»، وهي فرع آخر من قبيلة حرب. وقد شيّدت هنا عدة أبراج مراقبة على قمم الجبال المجاورة على جانبي الوادي، بناها عثمان المضايفة لتأمين مروره وحمايته. وقد عُرضت علينا الكثير من أشجار الموز للبيع عند مرورنا بهذا المكان. وبعد مرور ساعتين وثلاثة أرباع الساعة، تبدأ الطريق بالارتفاع؛ كما أن تُربة الوادي البعيدة عن الظفرة، هي تربة حصباء ممزوجة بالرمال، وقد أصبحت الآن صخرية. بعد أربع ساعات وربع الساعة، مررنا بقرية تُدعى «مُقعد»، وهي تُنتج التمر كذلك.

توقّفنا هنا لربع ساعة، حيث أحاط بنا العديد من السكان؛ وعند اعتلائي الجمل مجدداً، وجدتُ أن عدة أغراض بسيطة قد سُلبت من أمتعتي. وتخشى قوافل الحج بشكل خاص هذه الممارسات؛ ويُروى عن ارتكاب سرقات قام بها العرب وتبدو غير معقولة وصعبة التصديق تقريباً. فهم يتزيّنون أحياناً بزي الجنود الأتراك ويدخلون في القافلة خلال السير ليلاً؛ وبهذه الطريقة، قاموا السنة الماضية بسلْب أحد أفضل خيول باشا دمشق، زعيم القافلة السورية. وهم يقفزون من الخلف على جمل حاج مسترسل في النوم ويكمّمون فاه بعباءتهم ويرمون لزملائهم أرضاً كل ما يجدون عليه من أغراض ثمينة. وإذا ما تمّ اكتشافهم، فهم يستلّون خناجرهم ويشقّون طريقهم؛ فهم لا يتوقعون أي نوع من أنواع الرحمة إذا ما تمّ إلقاء القبض عليهم. إن وسيلة العقاب المعتادة في مثل هذه الظروف، هي بقتلهم على الخازوق في اللحظة التي تنطلقُ القافلة فيها من المحطة التالية، ويتركونهم ليموتوا على الخازوق أو الوتد أو لتلتهمهم الوحوش الضارية. غير أن الرعب الذي ينشره في النفوس مثل هذا العقاب لا يمنع آخرين من ارتكاب الجرائم نفسها؛ ويقوم الأفراد بين البدو بمدح أنفسهم لشهرتهم كخبراء في سرقة الحجاج، لأن ذلك يتطلب شجاعة فائقة وبراعة تتميز بها شخصيتهم.

من هنا، تقع طريقنا شمالاً شرقاً بدرجة ٢٠. ويبدأ هنا وادٍ قاحل يبلغ طوله من جانب إلى آخر نحو ثلاثمئة ياردة، وقد أوصلنا بعد مضي ست ساعات ونصف الساعة عبر تعرُّجات عديدة، إلى «الجديدة» Djedeyde، وهي تقع على بقعة تصبح عندها الطريق مستقيمة شديدة الارتفاع. وقد رأيتُ الكثير من أشجار النخيل على جانبي الوادي الذي يحمل اسم «جديدة»، ويُقسم إلى عدة قرى. وتقع السوق قرب المدخل الجنوبي، أو سوق «الجديدة» التي بدت مساحتها أكبر منها في الظفرة، لكنها الآن مهدّمة تقريباً. ويصبح الوادي من هناك أشد ضيقاً، ويمر لساعة تقريباً بين صخور حادة. في هذه البقعة، شنَّ محمد علي أولى حملاته ضد الوهابيين بقيادة نجله طوسون بك، التي مُنيت بالهزيمة في سنة ١٨١١. فقد استولوا على الجبلين، وكانت طلقات الأسلحة تطال مساحة الوادي حيث حاول الجيش التركي عبثاً العبور.

وكان حاضراً هناك معظم مشايخ قبيلة حرب وزعيما الوهابيّين الجنوبيان العظيمان عثمان المضايفة وطامي، برفقة اثنين من أبناء سعود.

بعد مرور سبع ساعات ونصف، مررنا «بالخيف»، وهي آخر قرية في وادي «الجديدة»؛ وقد انتثرت على طول الوادي عدة مجموعات من المنازل المنعزلة. وقد نُصبت هنا نحو ثمانين خيمة للجنود الأتراك لحماية هذا الممر، وهو أحد المواقع الأكثر أهمية في الحجاز لأنه السبيل الوحيد الذي تستطيع عبره القوافل التقدم من مكة أو ينبع إلى «المدينة». إن قبيلة حرب مؤهلة تماماً لحماية هذا الموقع بسبب الطبع الحربي الذي تتّسم به. وحتى قبل الفتح الوهابي، كانوا في حروب متكررة مع القافلة السورية؛ وقد تمّ هنا صدُّ جزّار باشا Djezzar نفسه مرات عديدة، واضطر إلى اتباع طريق الحج الشرقية عند مؤخرة سلسلة الجبال الكبيرة كي لا يخضع لمطالب بني حرب الباهظة مقابل السماح لقوافل الحج بالمرور في أراضيهم. وقد اضطر إلى القيام بالشيء نفسه باشا دمشق، عبد الله، الذي قاد قافلة الحج إلى مكة شخصياً ثماني عشرة مرة. وحين تكون قبيلة حرب على تفاهم وودّ مع القافلة، فلها الحق في ضريبة مرور مرتفعة تُدفع في الجديدة Djedeyde.

لقد بدت لي الظفرة مأهولة أكثر، وتحتوي على عدد أكبر من المنازل مما هناك في «جديدة» الآن. بالحديث عن هذا الممر، يجمع العرب عامة الاسمَيْن فيقولون: «وادي الظفرة والجديدة» ويتّسع الوادي خلف «الخيف» وتكثر فيه التعرّجات. وكانت قافلتنا خائفة باستمرار هنا من اللصوص الذين أبقونا مستيقظين على الرغم من أن البرد الشديد خلال الليل لم يكن ليسمح لنا بالنوم. وكان اتجاهنا الأساسي من «الخيف» شمالاً شرقاً بدرجة ٤٠. وبعد مضي اثنتي عشرة ساعة، دخلنا سهلاً مرتفعاً قليلاً عبر الوادي ويقع وسط الجبال، ويبلغ طوله نحو عشرة أميال، ويُدعى «النزية» حيث ترجّلنا.

في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير بقينا مخيّمين هنا طوال النهار بعد أن أطلعنا بعض المسافرين على حدوث أعمال شغب على الطريق أمامنا؛ ولم نكتشف عدم صحة هذه الإخبارية حتى اليوم التالي. إن الصخور المحيطة بالسهل هي في جزء منها من الغرانيت وفي جزء آخر من حجر الكِلس. وتغطي أشجار الأقاقيا السهل بكثافة. وتتوافر المياه العذبة على جانب الجبال لكنها تغيبُ في السهل نفسه. ويرعى بعض بدو قبيلة بني سالم ماشيتهم هنا، وهي القبيلة التي ينتمي إليها كذلك سكان «الجديدة»؛ وكانوا منهمكين في جمع الطعام لجمالهم من شجر الأقاقيا، ولهذا الغرض قاموا بمدّ حصيرة من القش تحت الشجرة وبدأوا بضرب أغصانها بعِصيّ طويلة، فهبطت أرضاً الأوراق اليانعة الطريّة من عزم الضربات، وهي

تُعتبر الطعام الأفضل للجمال. وقد رأيت تلك الأوراق تُباع بالمكيال في سوق الظفرة. وقد قُمنا بمقايضة بعض البسكويت بالحليب مع هؤلاء البدو؛ وأعطيتُ أحدهم كمية صغيرة من عشب الراوند فأحضر لي قليلاً من الزبدة الطازجة في المقابل.

في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير، انطلقنا عند الساعة الثانية من بعد الظهر ووصلنا إلى الجبل بعد السير لساعة ونصف الساعة على السهل. ويبلغ عرض السهل هذا كله نحو ستة أميال. فدخلنا الجبل في الاتجاه الشمالي الشرقي بدرجة ٥٠. ويشكل مزيج صخور الغرانيت والكلس طبقة غير منتظمة. ثم مررنا عبر شِعْب أو ممر ضيّق قصير؛ وبعد مرور ساعتين ونصف دخلنا سهلاً صغيراً يُدعى شب الهال Shab el Hal، بين الجبال حيث نُصبت عدة مخيّمات للبدو. وبعد خمس ساعات، دخلنا وادياً عريضاً يمتد في خط مستقيم وتغطيه الرمال البيضاء. كان الليل قارساً وهلَّ القمر جميلاً؛ فمشيت أمام القافلة التي كانت تسير ببطء، فتقدَّمتُها دون أن أتنبّه لذلك، إلى مسافة كبيرة. وحين لم تظهر القافلة ورائي جلستُ تحت شجرة، وكنت أهمُّ في إشعال النار حين سمعتُ وقع أحصنة تتقدم نحوي؛ فاختبأتُ خلف الأشجار ورأيتُ على الفور بعض البدو في مظهر يدعو إلى الشك والرّيبة، يمرون بالقرب مني. وبعد أن انتظرتُ القافلة طويلاً وعجزتُ عن معرفة سبب تأخيرها، تراجعتُ لأجدَ الجِمال وقد وقفت لتستريح وتستعيد أنفاسها. وكان كل من يركبها مسترسلاً في النوم، وكان المسافرون سيراً على الأقدام لا يزالون متأخرين عنها في الخلف. وقد تكرّر ذلك مرات عديدة خلال رحلتنا. فحين لا يسمع الجمل أي صوت موجّه إليه، وحين لا يعمدُ القائد إلى حثّه على السير، فإنه يخفِّفُ سرعة خطواته ليقف أخيراً دون حراك ليأخذ قسطاً من الراحة. وإذا ما توقف الجمل في المقدمة، تفعل الجِمال كلها في الخلف الشيء نفسه. فقمت بإيقاظ العرب وتابعنا السير. وفي اليوم التالي، علمنا أن بعض المسافرين قد تعرّضوا للسلبِ في تلك الليلة على الطريق. ومما لا شك فيه أن الفاعلين كانوا أولئك الخيّالة الذين مرّوا بالقرب مني، والذين ربما تفرّقوا حين رأوا قافلة كبيرة تقترب.

يُدعى الوادي الذي كنا نسافر عبره، «وادي الشهداء»، حيث يقال إن العديد من اتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قُتلوا في معركة؛ وقد غُطيت رُفاتهم بكتل حجرية خشنة في أجزاء مختلفة من الوادي. ونرى هنا أيضاً عدة قبور للحجاج. وقد شاهدتُ بعض الجدران في حالة متداعية جداً، حيث يبدو أن معبداً أو مسجداً صغيراً كان يقع هنا؛ حيث تغيب المياه كلياً. إن هذه هي إحدى محطات قافلة الحج. وبعد مضي تسع ساعات خرجنا من هذا الوادي الذي يقع على مرتفع بسيط جداً، ثم اتّجهنا شرقاً ثم شمالاً شرقاً لنعبُر أرضاً صخرية وندخلَ

سهلاً فسيحاً يُدعى «الفريش»، حيث مرّت بنا قافلتان صغيرتان قادمتان من «المدينة» في طريقهما إلى يَنبع. وترجّلنا بعد مضي إحدى عشرة ساعة ونصف.

لقد شهد سهل «فريش»، حسب المؤرخ الأعصمي، معركة دموية نشبت بين شريف مكة وقبائل ضفير وعنيزة البدوية سنة ١٠٦٣هـ. وكانت قبيلة ضفير المستقرة الآن في بلاد ما بين النهرين، باتجاه بغداد، ترعى قطعانها في المناطق المجاورة لـ«المدينة».

السابع والعشرون من شهر كانون الثاني/يناير. إن الصخور كلها هنا من الغرانيت الأحمر. وقد مرت بنا مجموعة من البدو برفقة نسائهم وأولادهم وخيمهم، وكانوا ينتمون إلى قبيلة من قبائل حرب وتدعى «الحامدة». لقد غادروا شمالي البلاد حيث لم يكن المطر قد هطل بعد، للبحث عن مراع أوفر في الجبال الجنوبية. وبينما كنا مخيّمين، هبّت عاصفة قوية يُرافقها البرق والرعد فأدركتنا، وهطل المطر. وبما أن الخطر كان كبيراً بأن تستمر العاصفة لفترة طويلة، وبما أننا لم نكن نملك خيماً، فقد كان من المناسب مواصلة السير. انطلقنا بعد الظهر، واستمر هطول المطر طوال النهار والليل بأكمله، إلى جانب الطقس القارس في هذه المناطق المرتفعة، وقد عانينا جميعاً من نتائج ذلك.

صعد طريقنا عبر أودية صخرية مليئة بالأشجار الشائكة وتقطعها عدة سيول، مما جعلنا نمر فيها بصعوبة. وبعد السير لسبع ساعات، بلغنا قمة هذه السلسلة من الجبال، فتبدّى لنا السهل الشرقي الضخم وقد امتد أمامنا؛ وقطعنا عدة تلال منعزلة؛ وكانت أحجار الصوّان السوداء والبنية اللون تغطّي الأرض. وبعد مرور تسع ساعات مررنا على مسافة معيّنة غربي مزارع النخيل والبيوت القليلة المبنية حول بئر علي. وصلنا أمام بوابة «المدينة» بعد عشر ساعات، في منتصف الليل، ما إن تحسّن الطقس حلَّ صقيع قارس تبع هطول المطر. وكانت البوابة مغلقة فاضطررنا إلى الانتظار حتى طلوع النهار لكي يتم فتحها. ولعجزنا عن إشعال النار على الأرض المبلّلة بالوقود الرّطب، وبما أن الجميع كان مبلّلاً من المطر، فقد بات صقيع الصباح القارس والحادّ مصدر أسى وألم؛ وقد يكون هذا ما تسبب بالحمى التي تملّكتني لفترة طويلة في هذه المدينة، إذ إني كنتُ أتمتع بصحة جيدة خلال الرحلة بأكملها.

دخلنا «المدينة» عند شروق شمس الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير، أي في اليوم الثالث عشر من مغادرتنا مكة، بعد أن توقّفنا ليومين على الطريق. وتقوم عادة قافلة الحج بالرحلة في أحد عشر يوماً، وعشرة أيام إذا كانت في عجلة من أمرها.

يُطلق البدو على البلاد كلها بين مكة و«المدينة» غربي الجبال اسم «الجُحفة»، الذي يُفهم معناه أحياناً بأنه البلاد الممتدة من مكة إلى بدر فقط.

المدينة

توقفت القافلة في فناء واسع في الضاحية حيث تمَّ إيداع الحمولة؛ وتفرّق المسافرون القادمون كلهم معها مباشرة، بحثاً عن المساكن. وبمساعدة أحد المزوّرين، وهي فئة محترفة من الرجال الذين يشبهون الدليل في مكة، حصلتُ بعد عناء على شقة جيدة في شارع السوق الرئيسي في المدينة، وتبعد نحو خمسين ياردة عن المسجد. ونقلتُ أمتعتي إليها، حين دعاني المزوّر لزيارة المسجد وقبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المقدس، إذ إن الشريعة تفرض هنا على المسافر الواصل إلى المدينة، كما في مكة، تأدية هذا الواجب قبل القيام بأي عمل وإن كان تافهاً[1].

إن الشعائر هنا أسهل بكثير وأقصر منها في مكة كما سنرى هٰهنا. ففي ربع ساعة، أتممتُ ذلك الواجب وأصبحتُ حرّاً للعودة إلى المنزل والالتفات إلى شؤون البيت. وقد ساعدني المزوّر في شراء كل المؤن الضرورية التي لم نكن لنحصل عليها من غير صعوبة؛ إذ إن طوسون باشا، حاكم المدينة، قد أرعب البدو وسائقي الجِمال الذين كانوا يأتون بالمؤن إلى هنا، وحملهم على الفرار بسبب تدابيره المتهوّرة. غير أن الطحين والزبدة، وهما السلعتان الأساسيتان في المطبخ الشرقي، كان يجب الحصول عليهما قبل مغيب الشمس، فهما لا توجدان في السوق العامة. لكن مرت ثلاثة أيام قبل أن أتمكن من الحصول على فحم، إذ تزداد الحاجة إليه في هذا الفصل البارد من السنة. وسمعتُ بعدها أن يحيى أفندي، طبيب طوسون باشا، وهو الشخص نفسه الذي قام في تموز/ يوليو السابق بأخذ خطاب الائتمان خاصتي إلى جدة، كان هنا. فقمتُ بزيارته في اليوم التالي وأطلعته على رسالة تسلّمتها في مكة قبل مغادرتي تلك المدينة، وهي

(١) قبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس مقدساً يتجه إليه كالكعبة، وزيارته ليست فرضاً كما يزعم المؤلف.

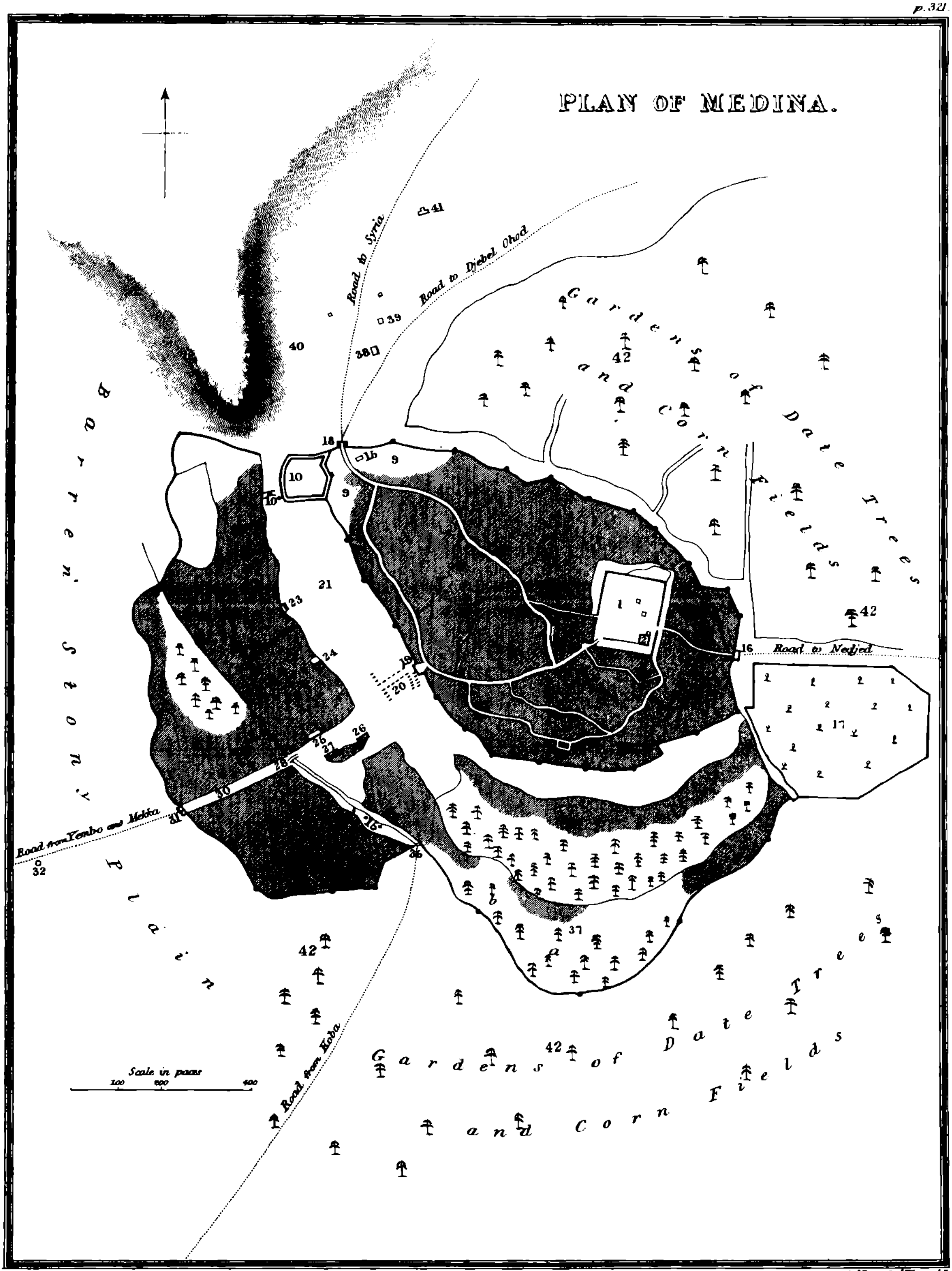
مُرسلة من مصر في القاهرة، يذكر فيها المصرفي الذي أتعامل معه أنه دفع تلك الفاتورة، ولم يكن خبر ذلك قد بلغ يحيى نفسه. وبقدر ما كانت معرفتي بهذا السيد مفيدة جداً لي في تلك الظروف، غير أن أموراً عدة قد حدثت لتُقلّل من شأن تلك المعرفة. وفي زيارة لي قام هو بها في وقت لاحق، حدث أن رأى ما كان لديَّ من مخزون أدوية صغير، هو نفسه الذي كنتُ أحمله في رحلتي إلى النوبة والذي لم أستخدم خلالها سوى بعض المقيئات والمسهِلات التي لجأت إليها خلال إقامتي في جدة ومكة فقط؛ لذا، فقد كان هناك نصف باوند من الأدوية التي لم أستعملها قط. في هذه الأثناء، كان عدة أشخاص في بلاط الباشا يعانون من الحمى؛ حتى أن طوسون باشا نفسه كان في حالة صحية متوسطة؛ ولم يكن بحوزة طبيبه سوى القليل من الأدوية التي تُناسب حالات مماثلة. فرجاني أن أُعطيه كيس أدويتي؛ ففعلتُ، لأني كنتُ حينها في صحة جيدة، كما أني كنتُ قريباً من مصر التي كنتُ آمل أن أصلها في مدة شهرين تقريباً. فضلاً عن ذلك، كنتُ أدين له ببعض الواجبات، وقد سُعِدت بالتعبير عن امتناني. بعد يومين، حدث ما جعلني أندمُ على كرمي وسخائي؛ فقد أصبتُ بالحمى التي سرعان ما استفحلت بشكل جدي. وبما أنها كانت متقطعة، رغبت في تناول الدواء، لكني حين طلبتُ من الطبيب نفسه بعضاً منه، أكّد لي أنه كان قد وزّع آخر كمية منه، وأحضر لي بدلاً عنه بعضاً من مسحوق الجينتيانا Gentiana الذي كان قد فقد كل فوائده مع الوقت. وهكذا، تفاقمت الحمى يرافقها التقيؤ اليومي والمتكرّر والتعرّق الغزير؛ واستمر ذلك يومياً للشهر الأول بكامله. وأثبتت المقيّئات التي استعملتها عدم فعاليتها. وبعد أن تناولت كل أنواع الأدوية التي كنتُ أحتاجها وأظنُّها مفيدة لحالتي، تركتُ مرضي للطبيعة تُعالجه؛ إذ كنتُ نادراً ما أتشرّف بزيارة من صديقي يحيى أفندي. بعد مرور الشهر الأول، عرفت فترة فاصلة من الراحة استمرت أسبوعاً، لو أني تمكنتُ من استغلالها بأخذ الدواء المناسب، لكنتُ بلا ريْب تغلبتُ على التوعُك الذي ألمَّ بي؛ إلاّ أنه خفَّ ليعود بحدة أكبر، وقد تحول الآن إلى حُمى ثِلثية، أي تتكرر كل ثمانٍ وأربعين ساعة، في حين استمر التقيّؤ ترافقه حالات إغماء عرضية، لينتهي إلى إجهاد وانهيار تام. وبتُّ الآن عاجزاً عن النهوض عن سجادتي بغير مساعدة خادمي، وهو رجل مسكين يصلح، حسب عاداته وطبيعته للعناية بجمل أكثر مما يصلح لتمريض سيده الواهن.

لقد فقدتُ الأمل في ذلك الوقت في العودة إلى مصر، وحضّرتُ نفسي للموت هنا. وتملّكتني الكآبة حيث أدركتُ أنه إذا ما بلغ خبر موتي إلى إنكلترا، فقد تُعتبر رحلتي كلها في الحجاز عملاً غير مُرخص قام به مُبشر طائش أو مُغالٍ في حماسه على الأقل. ولم يكن بحوزتي أي كتب، ولا صحبة تبعدني عن مثل تلك الأفكار والانفعالات. فكنتُ أملك كتاباً واحداً، وهو نسخة جيب من أشعار ملتون Milton، كان قد سمح لي كابتن Boag في جدة بأخذه من

مكتبته. وأعترف أنه كان الآن يساوي رفاً كاملاً مليئاً بكتب أخرى. كما أن ربة البيت الذي كنت أسكن فيه، وهي امرأة مسنّة عاجزة، مصرية المولد، قد اتخذت مسكناً لها خلال إقامتي، في طابق علوي تستطيع منه التخاطب معي من غير أن أراها كونه ينفتح على غرفتي الخاصة في الأسفل... كانت تلك المرأة تحادثني لنصف ساعة كل مساء؛ وكان مزوِّري يقوم بزيارتي من وقت لآخر، بهدف الاستيلاء على جزء من أمتعتي في حال وفاتي، كما راودتني شكوكي. وغادر يحيى أفندي المدينة في شهر آذار/ مارس مع جيش طوسون باشا الذي ذهب في حملة على الوهابيين.

مع بداية شهر نيسان/أبريل، ساعَدَتْ عودة حرارة طقس الربيع في وضع حد لمرضي؛ لكن مر أسبوعان تقريباً قبل أن أتجرأ بالخروج، وكنت أخشى أي نسمة مخافة عودة الحمى. إن الطقس السيىء في المدينة ومياهها الكريهة، فضلاً عن الأمراض والأوبئة العديدة التي كانت سائدة آنذاك، كل ذلك جعلني أتوق بفارغ الصبر إلى مغادرة «المدينة». لقد كانت نيّتي الأساسية البقاء هنا شهراً واحداً على الأكثر، ثم مرافقة بعض الأدلاء البدو لأعبر معهم الصحراء إلى العقبة، عند طرف البحر الأحمر، في اتجاه مستقيم، من حيث كنت تمكنت من إيجاد طريقي بسهولة إلى القاهرة. وقد رغبتُ في هذه الطريق، في زيارة «هجر»، على طريق القافلة السورية، حيث توقعتُ إيجاد بعض البقايا من آثار العصور النائية التي لم يصفْها أي مسافر آخر؛ بينما كان داخل البلاد يزخر بالعديد من الموضوعات الأخرى التي تستحق البحث والتدقيق. غير أن قيامي بتلك الرحلة كان مستحيلاً تماماً في حالتي الصحية المتماثلة للشفاء؛ كما أن الأمل لم يكن موجوداً في أن أستعيد كامل صحتي في شهرين اثنين، والقوة الكافية للقيام برحلة منهكة إلى هذا الحد. إن الانتظار طويلاً والتعرُّض باستمرار لمؤثرات المناخ السيىء كانت من الأمور غير الحميدة؛ وكنتُ أتوق إلى تنشُّق هواء جديد لقناعتي بأن ذلك يحول دون عودة الحمى مرة جديدة. لقد دفعتني كل تلك الأحاسيس إلى التخلي عن المخطَّط الذي رسمته طويلاً لرحلتي، وعقدتُ النيّة الآن على الذهاب إلى ينبع على ساحل البحر والإبحار من هناك إلى مصر، وهو أمر باتَ ضرورياً تفرضه حالتي المادية التي تدهورت بسبب إقامتي المطوَّلة في «المدينة». وحين وجدتُني قوياً ما يكفي لركوب الجمل، رحتُ أبحثُ عن عربة متجهة إلى ينبع وتعاقدتُ مع بدوي كان يشكل برفقة أصحابه قافلة صغيرة انطلقت إلى هناك في الواحد والعشرين من شهر نيسان/ أبريل، في ستة أيام بعد ثلاثة أشهر من وصولي إلى «المدينة»، قضيتُ منها ثمانية أسابيع من الرّقاد بسبب المرض.

وقد رسمتُ خريطة المدينة خلال الأيام الأولى من إقامتي وأستطيع الجزمَ بصحة خطوطها العامة؛ غير أني لم أحظَ بالفراغ الذي يتيح لي تدقيق تفاصيلها كلها كما فعلتُ في خريطة مكة.



London, Published by Henry Colburn, New Burlington Str.t Feb.y 1829.
Sid.y Hall, sculp.t Bury Str.t Bloomsb.y

وصف المدينة(*)

تقع «المدينة» على طرف شبه الجزيرة الكبيرة، بالقرب من سلسلة الجبال التي تقطع تلك

(*) شرح خريطة «المدينة»

١ ـ المسجد الكبير المدعو «الحرم»
٢ ـ قبر النبي محمد المدعو «الهجرة»
٣ ـ منزل شيخ «الحرم»
٤ ـ شارع السوق الرئيسي
٥ ـ شارع اسمه «البلاط»
٦ـ مدرسة حكومية: مدرسة «الحمدية»
٧ ـ الشارع المدعو «زقاق الطوال»
٨ ـ منزل القاضي
٩ ـ أحياء مهدّمة
١٠ ـ القلعة
١٠ ـ بوابة صغيرة
١١ ـ حمام عمومي
١٢ ـ متجر للحنطة
١٣ ـ حي بني حُسين
١٤ ـ حي الأغاوات
١٥ ـ درجات تؤدي إلى القناة في أجزاء مختلفة من المدينة
١٦ ـ البوابة المدعوة: باب الجمعة
١٧ ـ مقبرة اسمها البقيع
١٨ ـ البوابة المدعوة: باب الشامي
١٩ ـ البوابة المدعوة: باب المصري
٢٠ ـ متاجر وأكواخ
٢١ ـ الساحة المكشوفة المدعوة: المُناخ، مكان توقف البدو والجنود
٢٢ ـ حي في الضواحي اسمه الواجهة مع حقول ومنازل مهدمة
٢٣ ـ منزل الحاكم التركي
٢٤ ـ خزّان مليء بمياه القناة
٢٥ ـ أفضل مبنى خاص في المدينة حيث تقيم نساء الباشا
٢٦ ـ المسجد المدعو: مسجد عُمر
٢٧ ـ جامع آخر
٢٨ ـ جسر على مجرى السيل
٢٩ ـ منزل الباشا مع حديقة كبيرة
٣٠ ـ شارع وحَيّ اسمه: العنبرية
٣١ ـ البوابة: المسماة باب العنبرية
٣٢ ـ برج صغير بُني من جماجم الوهابيين الذين قُتلوا حين استولى الأتراك على المدينة
٣٣ ـ حي في الضاحية: الساحة
٣٤ ـ فناء كبير تتوقف فيه القافلات القادمة من مكة
٣٥ ـ بوابة صغيرة: باب قبا
٣٦ ـ مجرى السيل

البلاد من الشمال إلى الجنوب، وهي استمرارية للبنان. لقد سبق أن ذكرتُ في كتابي حول «البتراء العربية»، أن السلسلة الواقعة شرقي البحر الميت تمتد نزولاً إلى العقبة، ثم تمتد من هناك على طول شاطىء البحر الأحمر حتى اليمن، وتكون أحياناً على مقربة من البحر، ويعترضها في أجزاء أخرى سهل يدعوه العرب «تهامة»، وهو اسم يُطلق في اليمن كذلك على قسم معيّن منها. وقد ذكرتُ أيضاً في ذلك الكتاب أن المنحدر الشرقي لتلك الجبال، على طول الأردن والبحر الميت والوادي المسمى عَرَبة، نزولاً حتى العقبة، أخف بكثير من المنحدر الغربي. لذلك، فإن سهل شبه الجزيرة الكبير الذي يبدأ من الجهة الشرقية لتلك الجبال مرتفع جداً فوق مستوى البحر. وقد دوّنتُ الملاحظة نفسها عند ذهابي إلى الطائف بعد أن اجتزتُ الجبل المدعو جبل «قرى» الذي يشكل جزءاً من تلك السلسلة؛ ويمكن ملاحظة الشيء نفسه في «المدينة». فالجبل الذي صعدناه عند مجيئنا من مكة، حين ننظر إليه من الساحل، تبدو لنا قمم مستدقّة شاهقة الارتفاع؛ وحين بلغنا السهل الشمالي في جوار «المدينة»، بدت لنا تلك القمم على يسارنا، وكأنها مجرد تلال، حيث أن ارتفاعها فوق السهل الشرقي لا يتعدى ثلث الارتفاع عن شاطىء البحر الغربي.

تبلغ آخر تعرُّجات تلك الجبال المدينة من الجانب الشمالي؛ وتصبح البلاد في الجانب الآخر مستوية بالرغم من أنها ليست دائماً عبارة عن سهل مسطّح كلياً. ويمتد فرع من السلسلة ويُدعى جبل «أُحُد» إلى السهل قليلاً على مسافة ساعة واحدة من المدينة في الاتجاه الشمالي إلى الشمالي الشرقي. وعلى مسافة ثماني إلى عشر ساعات (شرقاً شمالاً[1]، بدرجة ٦ ـ شرقاً جنوباً، بدرجة ٦)، ترتفع سلسلة من التلال المنخفضة شرقاً، تمرُّ عبرها الطريق إلى «نجد». وهناك تلال مماثلة، على المسافة نفسها، تقع إلى الجنوب الشرقي. وتمتد البلاد جنوباً على مستوى منبسط كما يظهر ذلك. وإلى الجنوب الغربي، على مسافة ساعة أو ساعة ونصف، يبرز فرع يُدعى جبل عيرا من السلسلة الرئيسية إلى السهل، كجبل أُحُد.

وقد شُيّدت المدينة نفسها على الجزء الجنوبي من السهل، حيث إنها تتلقى السيول من الجبال الغربية، والجداول من الجنوب والجنوب الشرقي؛ مما يُحدث في الفصل الممطر بِركاً

٣٧ ـ أحياء فيها مساكن وحدائق
أ) حي يُدعى الشهرية
ب) حي يدعى الهندية
٣٨ ـ خزّان ماء للحجاج السوريين
٣٩ ـ آبار مختلفة من المياه المالحة
٤٠ ـ مخيم قافلة الحج السورية
٤١ ـ قبة صغيرة تدعى القرين
٤٢ ـ بساتين نخيل، وحقول على ثلاثة جوانب من المدينة

(١) هذه الأرقام عرضة لارتجاجات إبرة البوصلة وليست دقيقة.

عديدة من المياه الراكدة التي تُترك لتتبخّر تدريجياً. كما أن الحدائق والأشجار والجدران التي تكثر في السهل تقطع مجرى الهواء الحر. تُحيط هذه الحدائق ومزارع النخيل المرصَّعة بالحقول بالمدينة من جهات ثلاث تاركة فقط جزءاً من السهل مكشوفاً للعيان باتجاه الطريق المؤدية إلى مكة حيث تجعل طبيعة الأرض الصخرية من الزراعة أمراً مستحيلاً.

إن «المدينة» مقسّمة إلى قلب المدينة والضواحي؛ للداخل شكل بيضاوي يبلغ محيطه نحو ألفين وثمانمئة خطوة تنتهي في نقطة معيّنة. وقد شُيدت القلعة عند تلك النقطة على مرتفع صخري صغير؛ ويحيط بها جدار حجري سميك يتراوح ارتفاعه بين خمس وثلاثين وأربعين قدماً ويطوّقه نحو ثلاثين برجاً وقد أُحيط بخندق (من صنع الوهابيين)، تمّ ملؤه بالمياه في أماكن عدة تقريباً. ويتم ترميم الجدار بشكل كامل، وهو يشكل في شبه الجزيرة دفاعاً مهماً جداً؛ بحيث كانت «المدينة» تُعتبر دوماً قلعة الحجاز الرئيسية. وقد شُيّد الجدار سنة ٣٦٠هـ؛ وكانت المدينة حتى ذلك التاريخ مفتوحة ومعرّضة يومياً لغزوات البدو في المناطق المجاورة. وقد أُعيد بناؤه فيما بعد في فترات مختلفة لكن بشكل أساسي سنة ٩٠٠هـ، وكان قد حُفر حوله خندق سنة ٧٥١هـ. وحسب كلام الأعصمي، فقد تمّ تشييده كما هو الآن، ببواباته، بأمر من سليمان ابن سليم في نهاية القرن السادس عشر حسب تقويمنا. وتؤدي ثلاث بوابات جميلة إلى داخل المدينة وهي: باب المصري في الجهة الجنوبية (وهي، إلى جانب باب الفتوح Fatouh في القاهرة، من أجمل بوابات المدن التي رأيتها في الشرق)؛ وباب الشامي في الجهة الشمالية وباب الجمعة في الجهة الشرقية. وكان هناك بوابة فرعية صغيرة تُدعى باب الصغير في الجدار الجنوبي، وقد أغلقها الوهابيون. وقرب باب الشامي، بجانب القلعة، يظهر تجويف على شكل طاقة في حائط المدينة حيث كان هناك فيما مضى مسجد يدعى مسجد السَبَق، كان مشايعو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المحاربون ينطلقون منها لممارسة تمارين الجري.

والمدينة متقنة البناء، وكلها من الحجر، ومنازلها عامة لا ترتفع سوى طابقين مع أسطح منبسطة. ولم يتمّ تبييض المنازل، أو طلاؤها باللون الأبيض، فللحجر المستعمل لون قاتم، مما أضفى على الشوارع طابعاً كئيباً. والشوارع، في معظم أجزائها ضيّقة جداً ويبلغ عرضها أحياناً ثلاث خطوات فقط؛ وبعض الشوارع الرئيسية معبّدة بأحجار كبيرة، وهي رفاهية قليلاً ما يتوقّعها المسافر في شبه الجزيرة. وهي بمجملها إحدى المدن الفضلى بناء مما رأيت في الشرق وتأتي في هذا الصدد بعد حلب. ولها في الوقت الحاضر مظهر كئيبٌ، فالمنازل تتآكل شيئاً فشيئاً والمالكون الذين كانوا يجنون أرباحاً طائلة من حشود الزائرين القادمين على مدار السنة، قد تقلّص دخلهم فقاموا بالتالي بتخفيض مصاريف البناء الكبيرة لأنهم يعلمون أنهم لن يتمكنوا من استرجاعها عبر تأجير الشقق. وتظهر المنازل المهدمة والجدران المتداعية في كل جزء من

المدينة. كما أن لـ «المدينة» المظهر نفسه المثبط للهمة كمعظم المدن الشرقية التي لا تعكس سوى صور واهية عن عظمتها القديمة.

إن الشارع الرئيسي في المدينة هو الأكثر عرضاً، وهو يؤدي، من بوابة القاهرة، إلى المسجد الكبير؛ ويحتوي هذا الشارع على معظم المتاجر. وهناك شارع آخر هام ويدعى «البلاط»، يمتد من المسجد حتى البوابة السورية، لكن العديد من المنازل فيه مهدّم؛ وهو يحتوي أيضاً على بضعة متاجر، لكننا لا نجد أياً منها في أجزاء أخرى من المدينة؛ وتختلف بذلك عن مكة التي هي عبارة عن سوق متواصلة بشكل عام، إن تلك الأخيرة تشبه المدن العربية أكثر من «المدينة» بكثير التي تُحاكي مدينة سورية. ولم يتسنَّ لي الوقت لأرسم أحياء المدينة المختلفة كلها؛ غير أني سأدوّن هنا الأسماء التي تُعرف بها تلك الأحياء في الوقت الحاضر.

إن الأحياء الواقعة بين الشارعين الرئيسيين المؤديين من البوابتين المصرية والسورية إلى المسجد، هي: الساحة وكومة حشيفة والبلاط وزقاق الطوال (هنا يقع المقام، أو منزل القاضي، وقد أُرفقت بالأبنية الكبيرة عدة حدائق غنّاء) وزقاق الضرة وسقيفة شاخي وزقاق البقر.

والأحياء الواقعة إلى الشمال من شارع البلاط والممتدة إلى الشمال من المسجد حتى بوابة الجمعة هي: الحماطة وزقاق الحبس وزقاق عنقيني وزقاق السماهدي وحارة الميدة وحارة الشرشورة وزقاق البدور وحارة الأغوات حيث يعيش خصيان المسجد.

والأحياء الواقعة من بوابة الجمعة على طول الأجزاء الجنوبية من المدينة حتى البوابة المصرية وشارع السوق الكبير هي: دروان والصالحية وزقاق ياهو وحارة أحمد حيدر وحارة بني حُسين حيث تعيش قبيلة بني حُسين وحارة البسوغ وحارة سقيفة والرصاص وزقاق الزرندي وزقاق الكبريت وزقاق الحجّامين وحارة سيدي مالِك حيث كان منزل مالك بن أنَس، مؤسس المذهب المالكي، وحارة القماشين.

قليلة هي الأبنية الضخمة أو الصروح العامة في أرباض المدينة. والمعبد الوحيد هو المسجد الكبير الذي يحتوي على قبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهناك مدرسة حكومية جيدة تُدعى مدرسة الحمديّة في شارع البلاط وأخرى مشابهة قرب المسجد حيث يعيش شيخ الحرَم أو حارسه، وهناك متجر كبير للحنطة يحيط بفناء واسع في القسم الجنوبي من المدينة، وحمام (وهو الوحيد) غير بعيد جداً عن المتجر، بناه محمد باشا، وزير السلطان سليمان سنة ٩٧٣هـ. وهذه هي كل الأبنية أو الصروح العامة التي رأيتها[١]. وقد لفَتَني في مكة كذلك النقص في

(١) يذكر مؤرخ «المدينة» عدة «عقالات»، أو خانات عامة، في هذه المدينة؛ لكني لم أرَ أياً منها. ولا أعتقد أنها ما زالت قائمة الآن.

الأبنية العامة الأثرية بشكل عام، إن شعب شبه الجزيرة العربية ليس من هواة الهندسة المعمارية أو من متذوّقيها، حتى إن زعماءهم يكتفون في منازلهم بما هو ضروري. إن كل ما نجده الآن من صروح عامة في مكة و«المدينة» هي من إنجازات سلاطين مصر أو القسطنطينية، والمصاريف الضرورية التي كان يَهبُها هؤلاء الحكام سنوياً باهظة جداً مما لم يفسح المجال لأي زيادة تُضاف إليها من أجل المظاهر فقط. وفي مُقابل هذا النقص في الأبنية العامة، هناك نعمة المساكن الخاصة الجميلة التي تضم حدائق صغيرة وآباراً تستعمل مياهها للري وملء أحواض رخامية، يُمضي حولها المالكون في فصل الصيف ساعات الظهيرة تحت مظلات عالية.

وتُحيط بالقلعة التي ذكرتها آنفاً جدران متينة جداً وأبراج عالية صلبة عديدة. وعند السؤال على البوابة، لم يُسمح لي بالدخول إليها. في داخلها مساحة تكفي لاحتواء ما بين ستمئة وثمانمئة رجل وفيها العديد من الغرف المقنطرة المقاومة للقنابل؛ وهي، إذا ما تمت حراستها جيداً وتزويدها بالمؤن، تعتبر حصناً منيعاً ضد أي قوة عربية، حيث تم بناؤها على صخرة، لذلك فليس بالإمكان إضعاف أساساتها أو هزّها. غير أنها ستبدو، في نظر مدفعية أوروبية، حصناً تافهاً أو غير ذي منفعة. وفيها بئر جيدة للمياه العذبة؛ وقد رُكّز على أبراجها في الوقت الحاضر مدفعان أو ثلاثة فقط. كما لم يكن هناك أكثر من اثني عشر مدفعاً صالحاً للاستخدام للدفاع عن المدينة كلها.

تمتد الضواحي على الجانبين الغربي والجنوبي من المدينة. وهي تشغل مساحة أكبر من المدينة نفسها؛ وتفصلها عن هذه الأخيرة مساحة مكشوفة تضيقُ في الجانب الجنوبي وتتسع غرباً أمام بوابة القاهرة لتُشكّل ساحة عامة كبيرة تُدعى مُناخ، وهو اسم يدل على أن القوافل تتوقف هنا، وهي فعلاً تكتظّ دائماً بالبدو والجِمال. كما شُيِّد هنا العديد من الأكواخ والسقائف في صفوف؛ تُباع فيها المؤن وخاصة الحنطة والتمر والخضار والزبدة؛ فضلاً عن العديد من المقاهي التي تعجّ بالزائرين طوال النهار. والجهة المقابلة لـ«المناخ» من الضواحي ليس فيها جدران، لكنها، من الخارج، إلى الجنوب والغرب، محاطة بجدار أصغر حجماً وأقلّ صلابة من حائط المدينة الداخلي، ويصبح في أجزاء عدة مهدَّماً كلياً، وتحميه أبراج صغيرة في الجانب الجنوبي فقط. وتؤدي أربع بوابات من الضواحي إلى الأراضي المكشوفة، وهي صغيرة الحجم ومصنوعة من أبواب خشبية غير متينة، باستثناء تلك المؤدية من بوابة القاهرة، وهي الأكبر حجماً والأفضل بناء من الأخريات.

يتألف القسم الأكبر من الضواحي من ساحات كبيرة فسيحة تحيط بها بيوت صغيرة منخفضة وقد بُنيت على الطابق الأرضي، وتفصل بين هذه البيوت خضرة وحدائق. وتُدعى

هذه المنازل «الحوش» (الجمع حيشان) وتسكنها كل الطبقات الدنيا في المدينة والبدو المستوطنون هنا وكل أولئك الذين يعملون في الزراعة. ويضم كل حوش ثلاثين أو أربعين عائلة فتُشكل بالتالي قرى صغيرة منفصلة عديدة، تكون في وقت اضطراب الحكومة في حالة عداء وضغينة مع بعضها بعضاً بشكل متكرر. ويتم وضع الماشية وسط الفناء الذي يحتوي على بئر كبيرة؛ وتُقفل بوابة الدخول الوحيدة بانتظام في الليل. وفي الجانب الجنوبي والشمالي الغربي من المدينة، ضمن حدود جدارها، تتألف الضواحي كلياً من ساحات مماثلة فيها حدائق تمتد خلفها أيضاً. وعلى الجانب الغربي، مباشرة مقابل بوابة القاهرة والمناخ، تتألف الضواحي من شوارع عادية جيدة البناء، فيها منازل تشبه تلك التي في داخل المدينة. ويقطع الشارع العريض المدعو «العنبرية» هذا الجزء من الضواحي، وهو يحتوي على أبنية جميلة على الجانبين. في هذا الجوار، كان يسكن طوسون باشا، في منزل خاص، أما والدة الباشا، زوجة محمد علي، ونساؤه اللواتي أتيْن مؤخراً لزيارة المدينة، فيسكُنَّ بالقرب منه، في أجمل منزل في المدينة، يملكه التاجر الثري «عبد الشكور».

إن الأحياء الأساسية في الضواحي هي: حارة العنبرية وحارة الواجِهة وحارة السَحّ وحارة أبو عيسى وحارة مصر وحارة الطيار وحارة نفيسة وحارة الحمدية وحارة الشحريّة وحارة الخيبريّة وحارة الجعفر. ويملك العديد من الناس من داخل المدينة منازلهم الصيفية في تلك الأحياء حيث يمضون شهراً في موسم قطاف التمر. ويحيط بكل حديقة جدار من الطين، ويتسع العديد من الأزقة الفرعية لمرور جمل واحد فقط عبر الضواحي في كل اتجاه. وهناك مسجدان في «المناخ»، يُدعى الأول «مسجد علي» أو مسجد ابن عم النبي الذي يُروى أنه قديم ويعود بناؤه إلى عهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير أن المبنى كما هو قد أُعيد بناؤه سنة ٨٧٦هـ، كما يُروى أن محمداً قد أدّى هنا أحياناً صلاته، وتُقام فيه خطبة صلاة الجمعة وذلك لراحة سكان الضواحي البعيدة ويُدعى المسجد الثاني «مسجد عمر»، وقد أُرفقت به مدرسة حكومية تُستعمل في الوقت الحاضر كمستودع للبضائع ومركز للعديد من الجنود. ويُطلق مؤرخ مكة على المسجديْن اسم «مسجد الفتح»، فيسمي أحدهما «المسجد الأعلى» لأنه يقع على أعلى جزء من المدينة. وكان هناك في القرن السادس عشر مسجدان آخران يُدعى أحدهما «مسجد علي بكر»، والآخر «مسجد زُباب»، وكان «المناخ» في ذلك الوقت يحمل اسم «جبل صوله»؛ إذ إن العرب يُطلقون اسم الجبل على أي بقعة مرتفعة قليلاً من الأرض. وكان هناك، في زمن المؤرخ نفسه، خمسة عشر مسجداً في هذه المدينة وجوارها، وهي الآن كلها مهدّمة؛ كما أنه يُعطي أسماء سبعة وثلاثين آخرين وتواريخهم، شيدت في العصور الماضية للإسلام.

لقد قيل لي أن المنزل الذي كان يسكن فيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حي

«العنبرية» ما زال ظاهراً، لكن يشكّك العديد في صحة هذه المقولة، ولا يتمّ زيارة ذلك المكان كأحد الأماكن المقدسة. وكما في مكة، فإننا لا نجد هنا أي أبنية قديمة؛ فأمطار فصل الشتاء والجو الرطب النِتري (يحتوي على نيتروجين) الذي يسود خلال الفصل الممطر، فضلاً عن الحرارة الشديدة التي تتبعه، يُلحق الضرُر بالأبنية؛ كما أن الإسمنت المستخدم في بنائها ذو نوعية متوسطة، فلا تلبث الأحجار أن ترتخي مما يؤدي إلى تداعي الجدران.

تتزوّد المدينة بالمياه العذبة بقناة تحت الأرض تمّ جرُّها إلى هنا من قرية قباء التي تبعد مسافة ثلاثة أرباع الساعة جنوباً، وقد تمّ ذلك على نفقة السلطان سليمان، نجل سليم الأول. والمياه وافرة وغزيرة؛ وقد أقيمت في أجزاء عديدة من المدينة درجات تؤدي نزولاً إلى القناة حيث يتزوّد السكان بالمياه، غير أنهم ليسوا مضطرين إلى دفع ثمنها كسكان مكة. وأقيم كذلك على تخوم «المناخ» خزان واسع مرصوف بالحجارة، على مستوى القناة، ويتم ملؤه باستمرار وتجري مياه القناة على عمق نحو عشرين وخمس وعشرين قدماً تحت سطح الأرض؛ وهي تتفرّع من عدة جداول وينابيع في قرية قباء؛ وهي سيّئة النوعية على الرغم من أنها غير رديئة الطّعم. فهي، إذا ما تُركت في وعاء لنصف ساعة، تغطي جوانبه بقشرة نتروجينية بيضاء؛ ويشتكي الأجانب غير المعتادين كلهم منذ الصغر من تسبُّبها بعسر الهضم. وهي فاترة عند مصدرها في قرية قباء، وتحافظ قليلاً على حرارتها حتى «المدينة». كما أن هناك العديد من الآبار المنتشرة في المدينة، ففي كل حديقة بئر تُروى بها؛ ونجد المياه بوفرة أينما حُفرت الأرض إلى عُمق خمس وعشرين أو ثلاثين قدماً. إن مياه بعض الآبار عذبة وصالحة للشرب، ومياه بعضها الآخر مالحة جداً؛ كما أن خصوبة الحقول والحدائق تختلف باختلاف نوعية البئر؛ فتلك التي تُروى بالمياه المالحة لا تكاد تعطي مردوداً يعوّض تعب أصحابها وعملهم. ووحدها أشجار النخيل تنمو بالنوعية الجيدة نفسها في أي مكان.

فضلاً عن مياه الآبار والقنوات، تتلقى المدينة في فصل الشتاء كمية من السيول[1] التي تُدعى «سيل المدينة» أو «سيل بطحان» التي تتدفق من الجنوب إلى الشمال مارة عبر الضواحي لتصل إلى وادٍ صخري إلى الشمال الغربي. فالأمطار الغزيرة التي تهطل في ليلة واحدة تملأ قعرها بالرغم من أنها تتناقص بالسرعة التي تعلو فيها. ونجد في ذلك الجزء من الضواحي المدعو «العنبرية»، جسراً حجرياً مقوّساً جميلاً بني على ضِفتي السيل، حيث يبلغ عرضه نحو أربعين قدماً. وتكثر في البلاد المجاورة السيول المماثلة التي تملأ العديد من البرك والأراضي المنخفضة

(١) السيول المجاورة كلها تتدفّق إلى الأراضي المنخفضة في الجبال الغربية التي تُدعى «الغابة» وأيضاً «الزغابة». راجع Samhoudy.

حيث تبقى أحياناً المياه حتى أشهر الصيف. وتُساهم هذه، إلى جانب الآبار، في جعل محيط هذه المدينة مشهوراً بوفرة المياه، متقدمة بذلك ربما على أي بقعة أخرى في شمالي شبه الجزيرة، ما جعلها مستقراً مهماً للعرب، قبل أن تصبح مقدسة بين المسلمين بزمن طويل، من خلال الرحلة التي قام بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها وإقامته وموته فيها. فهي تدين لذلك الحدث باسمها (المدينة) أو مدينة النبي.

لقد جعلت وفرة المياه وغزارتها من الخزانات قليلة الفائدة في المدينة، ولا أعتقد أن المنازل التي تحتوي على مثل تلك الخزانات تتعدى الاثنين أو الثلاثة؛ وذلك بالرغم من أهمية جمع مياه الأمطار من السيول للشرب لأنها أفضل من المياه النتروجينية في قرية قباء. ويتحول «مناخ» خلال الأمطار الغزيرة إلى بركة كاملة بين المدينة والضواحي. وتُغمر المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية بطبقة رقيقة من المياه. ويُرحب السكان بتلك الفياضانات الخفيفة لأنها تَعِدُ بالخير، فهي لا تروي فقط نخلهم بغزارة، لكنها كذلك تنشر الخضرة على السهول النائية التي يسكنها البدو الذين تعتمد «المدينة» على ما يأتون به من ماشية وزبدة لاستهلاكهم.

إن جوهرة «المدينة» الثمينة، التي تضعها في منزلة مكة تقريباً، لا بل تجعلها مفضلة على تلك الأخيرة عند العديد من الكتّاب العرب[1]، هو المسجد الكبير الذي يحتوي على قبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو، كمسجد مكة، يحمل اسم «الحَرَم» بسبب عدم انتهاك حرمته؛ وهو اسم يُطلقه عليه سكان المدينة باستمرار، بينما يُعرف في أجزاء خارجية منها بتسمية مسجد النبي الذي كان مؤسسه الأول. وتظهر الخريطة أن المسجد[2] يقع باتجاه الطرف الشرقي من المدينة وليس في وسطها كما يقول المؤرخون والجغرافيون العرب غالباً. إن حجمه أصغر بكثير من حجم مسجد مكة حيث يبلغ طوله مئة وخمساً وستين خطوة، وعرضه مئة وثلاثين خطوة؛ غير أنه بُني وفق المخطط نفسه، في شكل مربَّع مكشوف تحيط به صفوف الأعمدة المسقوفة من كل جانب، مع بناء صغير وسط المربع. إن صفوف الأعمدة هذه أقل انتظاماً من تلك التي في مكة والتي لها العمق نفسه تماماً في الجهات كلها. وفي الجهة الجنوبية من المسجد

(١) هذه هي خاصة حال المذهب المالكي الذين يدّعون أن «المدينة» يجب أن تقدس وتوقّر أكثر من مكة.

(٢) إن وصف هذا المسجد، الذي قدمه نيبور وD'Ohhson، غير صحيح بتاتاً، فقد يكون منقولاً عن رسومات عربية قديمة. وكنت أنوي أن أرسم خريطة صحيحة ودقيقة عنه لكن المرض منعني من تحقيق ذلك، ولا أرغب في إعطاء وصف يعتمد فقط على الذاكرة. ويحدد السمهودي حجمه وأبعاده بشكل مختلف تماماً، فيقول إن طوله يبلغ مائتين وأربعين قدماً وعرضه مائة وخمساً وستين قدماً في الجانب الجنوبي، ومائة وثلاثين في الجانب الشمالي. ويضيف أن هناك مائتين وستة وتسعين عموداً. ولستُ متأكداً مما إذا كان البناء قد تمّ تغيره منذ زمنه وبعد الحريق الذي نشب سنة ٨٨٦هـ؛ لكنني لا أعتقد ذلك، وأعتبر أنه قد بالغ جداً في تقريره ووصفه.

هذا، تتألف الأعمدة من عشرة صفوف خلف بعضها بعضاً، ومن أربعة صفوف في الجهة الغربية؛ وهناك ثلاثة صفوف فقط إلى الشمال، في جزء من الجهة الشرقية. وبُنيت الأعمدة نفسها بأحجام مختلفة؛ ففي الجهة الجنوبية التي تحتوي علي قبر النبي، والتي تشكل الجزء الأكثر قدسية من البناء، تظهر الأعمدة بحجم أكبر منها في الأجزاء الأخرى، ويبلغ قطرها نحو قدمين ونصف. وتغيب عنها أي قَوْصرة في الأعلى، كما تُلامس أسطوانات الأعمدة الأرض. إن الاختلاف نفسه والذوق غير السليم يظهران بوضوح في تيجان الأعمدة هنا كما هي الحال في المسجد في مكة، فلا يتشابه واحد مع الآخر. وقد بُنيت الأعمدة من الحجر غير أنها طُليت باللون الأبيض بحيث يصعب تمييز نوعه، وتمّ طلاؤها بالورود والزخارف على علو نحو ست أقدام عن الأرض، بأسلوب فظّ ومزخرف؛ وقد يكون القصد من ذلك تعويض النقص الذي يسببه غياب أي قوْصرة. وتلك الواقعة في ذلك الجزء من صف الأعمدة الجنوبي، أو بالقرب منه، ويُدعى «الردهة». قد غُطّيت إلى نصفها بالآجر أو القرميد، أو بصخر الأردواز، وقد زُيّنت بالزخارف المتنوعة الألوان. ويبدو القرميد وكأنه من فخار البندقية، وهو من النوع نفسه المستعمل لتغطية المواد في ألمانيا وسويسرا.

يتألف سقف صف الأعمدة من عدد من القُبَب الصغيرة المطلية باللون الأبيض من الخارج بالطريقة نفسها التي في مكة. وطُليت كذلك الجدران الداخلية كلها باللون الأبيض باستثناء الحائط الجنوبي وجزء من زاوية الحائط الجنوبي الشرقي التي غُطّيت ببلاط رخامي إلى الأعلى تقريباً. وقد وُضعت عدة صفوف من النقوش بأحرف كبيرة مذهّبة على طول هذا الحائط، الواحد فوق الآخر، مما يُضفي مظهراً براقاً جداً على الرخام الأبيض. كما أن الأرضية تحت صف الأعمدة، على الجانبين الغربي والشرقي، وعلى جزء من الشمالي، قد رُصفت ببلاط خشن فظ، وتُرِك الجزء الآخر من الجانب الشمالي دون تبليط بل غُطّي قليلاً بطبقة من الرمال كما هي حال الفناء الخارجي كله. ورُصفت الأرض في الجزء الجنوبي بالرخام الجميل عبر صف الأعمدة كله، حيث قام باني المسجد بالإنفاق على هذه الزينة كلها بسخاء؛ وفي تلك الأجزاء القريبة من قبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رُصفت الأرضية في شكل فسيفساء ببراعة فنية رائعة لتشكّل أحد أفضل النماذج من ذلك النوع التي يمكن رؤيتها في الشرق، وتستقبل النور النوافذ الكبيرة المرتفعة ذات الألواح الزجاجية (التي لم أر مثيلاً لها في الحجاز) على الجدار الجنوبي، ولبعضها زجاج خارجي ملوّن جميل. وقد انتثرت نوافذ أصغر حجماً في الجوانب الأخرى، على طول الجدران، لكنها بلا ألواحٍ زجاجية[1].

---

(١) يبدو أن فن الرسم على الزجاج بألوان تدوم طويلاً لم ينقطع أبداً في الشرق.

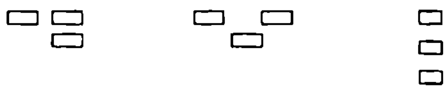
يقع القبر الشهير قرب الزاوية الجنوبية الشرقية، وهو منفصل عن جدران المسجد لترك مساحة بينه وبين الحائط الجنوبي تبلغ نحو خمس وعشرين قدماً، وخمس عشرة قدماً بينه وبين الحائط الشرقي. ويشكّل السياج الذي يحمي القبر من اقتراب الزائرين، مربعاً غير منتظم يبلغ نحو عشرين خطوة، يقع وسط صف الأعمدة حيث أُدخلت عدة أعمدة ضمنه. وهو عبارة عن حاجز حديدي طُلي باللون الأخضر ويبلغ ارتفاعه نحو ثُلثي ارتفاع الأعمدة، فيملأ المساحة بينها ويترك الجزء العلوي منها بارزاً فوقه؛ وهو مكشوف تماماً. إن هذا الحاجز هو نتاج عمل يدوي فني مُتقن يُحاكي الصياغة التخريمية المزركشة، وقد مُزج مع نقوش من البرونز الأصفر اللون يظنّه الجاهل ذهباً، وتصميمه كثيف جداً لدرجة يصعب معها رؤية أي شيء في الداخل سوى عبر نوافذ صغيرة قد صُمِّمت على الجهات الأربع من الحاجز، وهي ترتفع عن الأرض بنحو خمس أقدام. وفي الجهة الجنوبية من الحاجز حيث تقع النافذتان الرئيسيتان، يقف أمامهما الزائر في أثناء الصلاة. وقد طُلي الحاجز بالفضة والنقوش المتكررة لجملة «لا إله إلاّ اللّه الحق المبين» التي حُفرت بأحرف فضية عبر الحاجز حول تلك النوافذ. إن الدخول إلى هذا السياج يتم عبر أربع بوابات تبقى ثلاث منها مغلقة باستمرار وتفتح واحدة فقط كل صباح ومساء لتسمح بدخول الخصيان الذين تكمن وظيفتهم في تنظيف الأرض وإضاءة المصابيح. ولكل واحدة من تلك البوابات اسمها الخاص وهي: باب النبي وباب الرحمة وباب التوبة وباب ستّنا فاطمة. ويُسمح لذوي المنزلة الرفيعة كالباشاوات أو زعماء قوافل الحج بالدخول مجاناً إلى هذا السياج الذي يُدعى «الحجرة». ويمكن لآخرين أن يدفعوا ثمن الدخول للمخصيّين الرئيسيّين وهو مبلغ يقارب الاثني عشر أو الخمسة عشر دولاراً توزَّع كهدايا بينهم. لكن قليلاً من الزائرين يسعون وراء هذا الامتياز، فهم يعلمون جيداً أنهم لن يروا عند دخول السياج أكثر مما تقع عليه عيناهم عند النظر عبر نوافذ الحاجز التي تبقى مفتوحة باستمرار؛ ولم أَمِل أنا نفسي إلى جذب الانتباه العام لإشباع فضولي. إن ما يبدو من الداخل هو ستارة أُسدلت حول الجوانب كلها لتحتلّ المساحة كلها تقريباً؛ وهناك بينها وبين الحاجز ممر مكشوف عرضه بضع خطوات فقط. ويبلغ ارتفاع الستارة ارتفاع الحاجز نفسه؛ لكنني لم أتمكن في الأسفل من التمييز ما إذا كانت كالأخيرة، مفتوحة في أعلاها. وهناك، كما يؤكد الخصيان، غطاء من القماش نفسه كالستارة، وهو قماش حريري مقصَّب ثمين فيه ألوان متنوعة وقد زُركش بالأزهار الفضية والزخرفة العربية، وعليه شريط من النقوش بأحرف ذهبية في وسطه، كغطاء الكعبة. ويبلغ ارتفاع هذه الستارة ثلاثين قدماً على الأقل، وفيها بوابة صغيرة إلى الشمال تبقى مغلقة دائماً حيث يُمنع على أي كان الدخول ضمن حدودها المقدسة باستثناء زعيم الخصيان الذي يُعنى بها ويضع خلال الليل الستارة الجديدة المرسلة من القسطنطينية كلما ساءت حال القديمة، أو حين يعتلي سلطان

جديد العرش. وتُرسل الستائر القديمة إلى القسطنطينية وتُستعمل لتغطية قبور السلاطين والأمراء(١).

حسب مؤرخ «المدينة»، تغطي الستارة مبنى مربّعاً من الحجارة السوداء، يدعمه عمودان ويقع داخله قبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبرا صاحبيْه الأولَيْن وخليفتيه المباشرين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ. وحسبما استطعت الاستعلام هنا، فقد غطّيتْ تلك القبور كذلك بقماش ثمين له شكل النعش، كالذي يخصُّ إبراهيم في مسجد مكة الكبير. ويقال أن القبور قد وُضعت حسب الترتيب التالي:



إن أكبرها هو قبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقع بعده قبر أبي بكر. ويقول المؤرخ إن هذه القبور هي حُفر عميقة، وإن الكفن الذي يحتوي على رُفات محمد قد غُطي بالفضّة، وله في الأعلى بلاطة رخامية نُقش عليها «بسم الله، اللهم صلِّ عليه». ولم تكن هذه القبور دائماً في ترتيبها الحالي: فالسمهودي يضعها في أوقات مختلفة على النحو التالي:



إن الروايات السائدة في أوروبا والقائلة إن قبر النبي مُعلّق في الهواء غير معروفة في الحجاز؛ ولم أسمعها في أجزاء أخرى من الشرق، على الرغم من أن التقارير الشديدة المبالغ فيها عن عجائب وثروات هذا القبر، ينشرها أولئك الذين زاروا «المدينة» والذين يرغبون في إضفاء أهمية كبيرة على شخصهم عبر نشر قصص رائعة عما يدّعون أنهم رأوه. وكانت كنوز الحجاز في السابق موضوعة حول هذه القبور، إما معلّقة على حبال حريرية جُرّت إلى داخل البناء وإما موضوعة في صناديق على الأرض. من بينها، يمكن أن نذكر خاصة نسخة من القرآن بالخط الكوفي تمَّ الاحتفاظ بها هناك كأثر مقدّس حيث كان يملكها عثمان بن عفان. ويُقال أنها لا تزال موجودة في «المدينة»، لكني أشكُّ في أن تكون قد خرجت سليمة من الحريق الهائل الذي دكّ المسجد. لقد رويتُ في كتابي عن تاريخ الوهابيين أنه خلال حصار «المدينة»، تمّ الاستيلاء

(١) يقول مؤرخ «المدينة» أنه كان يتم تغييرها في زمنه كل ست سنوات، وإن دخل العديد من القرى في مصر كان يوضع جانباً في القاهرة وذلك لصناعة تلك الستائر راجع D'Ohhson.

على نسب كبيرة من الكنوز، وخاصة الأواني الذهبية كلها التي استولى عليها زعماء المدينة زاعمين أن الهدف من ذلك توزيعها على الفقراء، لكنها في النهاية وُزِّعت عليهم هم. وحين استولى سعود على المدينة، دخل «الحجرة» بنفسه وولج خلف الستارة حيث وضع يده على كل ما هو ثمين مما استطاع إيجاده؛ وباع جزءاً إلى شريف مكة وحمل الباقي معه إلى الدرعية. ومن بين الأغراض الثمينة التي أخذها، كان أعظمها قيمة، كما قيل، نجمة برّاقة مرصّعة بالألماس واللآلىء، كانت معلقة فوق قبر النبي مباشرة، ويذكرها العرب غالباً فيسمُّونها «كوكب الدُرّي». وهنا أيضاً كانت أنواع الأُواني كلها المرصّعة بالمجوهرات وأقراط الأذن والأساور والعقود وأغراض أخرى للزينة أُرسلت كهدايا من كل أنحاء الإمبراطورية، وقام بإحضارها خاصة الحجاج العظماء الذين مروا بـ «المدينة». ومما لا شك فيه أن ذلك كله كان يشكل مجموعة ثمينة جداً لكن لا يصعب تقديرها إذ إن الناس يميلون إلى المبالغة. وقد قدّر الشريف غالب الجزء الذي اشتراه بمئة ألف دولار. ويقال إن زعماء المدينة أخذوا ما يزن نحو مائة رطل من الأواني الذهبية التي تبلغ قيمتها على أكثر تقدير، أربعين أو خمسين ألف دولار؛ ويُقال إن ما أخذه سعود كان بشكل أساسي عبارة عن لآلىء ومرجان لم تتعدَّ قيمته بالطبع ما قد اشتراه غالب. لذا، فإن القيمة الإجمالية يمكن أن تصل إلى نحو ثلاثمئة ألف دولار. ولا يبدو أبداً أنه قد تمَّ إيداع المال هنا، لأن كل ما كان يُهدى إلى المسجد من مال نقدي كان يوزع مباشرة على خادميه. غير أن هناك ما يدعو للاعتقاد أن هبات المؤمنين التي تراكمت هنا لعصور عدة بلغت رقماً أكبر بكثير مما ذُكر أعلاه؛ لكن سيبدو غريباً أن لا يكون حكّام «المدينة» المستقلين غالباً، أو حرّاس القبر أنفسهم، قد سحبوا بين آونة وأخرى شيئاً من هذا الكنز بالطريقة نفسها التي اتّبعها علماء مكة، منذ نحو ثلاثمئة عام لسرقة المصابيح الذهبية في الكعبة وحملوها خارج المسجد مُخبأة تحت أكمامهم الواسعة، حسب المؤرخ قطب الدين.

لقد بحث طوسون باشا عند وصوله إلى «المدينة» عن الآواني الذهبية التي أعاد زعماء المدينة بيعها لبعض السكان الآخرين ولم يكن قد تمَّ تذويبها بعد. وقد وجد العديد منها فاشتراها من مالكيها بنحو عشرة آلاف دولار وأعادها إلى وضعها الأصلي.

إن الأرض بين الستارة والحاجز، وفي هذا الجزء من المسجد كله، مرصوفة بالرّخام المتنوع الألوان في شكل فُسيفساء. وهنا، عُلّقت المصابيح الزجاجية حول الستائر حيث تُضاء كل مساء وتبقى مشتعلة طوال الليل. وقد غُطيّ كل ذلك السياج أو «الحجرة» بقبّة جميلة شامخة تعلو بكثير القبب التي تشكل سطح الأعمدة، وتظهر للعيان على مسافة بعيدة من المدينة. ويبدأ

الزائرون القادمون إلى «المدينة» بترديد بعض الصلوات ما إن يقع نظرهم عليها. والغطاء مؤلف من صفائح معدنية تتوّجها كرة ضخمة وهلال يتألقان بالذهب[١].

ويُروى أنها من الذهب الثقيل، مما لا يكاد تصديقه إذا ما أخذنا في الاعتبار الميل البسيط الذي أظهره حتى أثرى السلاطين وأشدّهم قوة وسلطة، في تزيين مسجد مكة أو مسجد «المدينة» ببهاء وروعة. وقد حاول الوهابيون هدم القبة ورمي الكرة والهلال أرضاً بعد أن فتنهم مظهرهما، متّبعين في ذلك عادتهم التي لا تتغيّر في تهديم القبب المشيّدة كلها فوق قبور الفانين الذين يُعتبر محمد واحداً منهم. غير أن متانة بنائهما وصلابته وغطاء الصفائح المعدنية جعلا من ذلك مهمة صعبة؛ فقد انزلق اثنان من عمالهم عند السقف وهبطا إلى الأسفل. فعدل بعدها الوهابيون عن إتمام مهمة الهدم؛ وهي حادثة تُروى الآن كأعجوبة واضحة قام بها النبي من أجل نصبه التذكاري.

يقع قبر ستّنا فاطمة، ابنة محمد وزوجة علي بالقرب من ستارة «الحجرة» ومنفصلاً عنها بالرغم من كونه ضمن حدود الحاجز الذي ينحرف هنا قليلاً عن شكله المربع. ويتألف القبر من نعش له شكل مُكعّب وقد غُطي بقماش مزركش مطرّز أسود اللون ثمين غابت عنه أي زينة أخرى. لكن هناك خلاف في الآراء حول ما إذا كان رُفاتها يرقد فعلاً هنا أو في المقبرة التي تُدعى البقيع خلف المدينة. وإلى أن يتم الفصل في هذا الخلاف، يُساق الحجاج إلى هذين المكانين ويضطرون إلى دفع تكاليف مضاعفة. وتظهر نافذة صغيرة على الحائط الشرقي من المسجد، مقابل هذا القبر تقريباً، عند المكان الذي يُروى أن الملاك جبريل قد هبط تكراراً من السماء إليه لتبليغ الرسائل إلى محمد، ويُدعى «مهبط جبريل».

يقول العُرف الإسلامي أنه حين «يُنفخ في الصُّور» (أو يُطلق النفير الأخير) سيهبط عيسى المسيح من السماء إلى الأرض ليعلن لسكانها حلول يوم الحساب الكبير، ثم يموت بعدها ويُدفن في هذه «الحجرة» بجانب محمد ـ صلى الله عليه وسلم؛ وإنه حين يُنشر الأموات من القبور، سينهضان معاً ويصعدان إلى السماء، وسيؤمر عيسى في ذلك اليوم من الله بأن يفصل بين المؤمن والكافر[٢]. وحسب هذا العُرف، فقد أشير إلى هذه البقعة التي سيوضح فيها قبر عيسى عبر ستارة «الحجرة».

(١) كانت الكرة ذهبية، وقد أرسل الهلال من القسطنطينية السلطان سليمان بن سليم. (راجع الأعصمي). إن القبة، وكل المسجد كما يقف الآن، بناهما خير بك، سلطان مصر، من سنة ٨٨١هـ إلى سنة ٨٩٢.

(٢) من أين جاء المؤلف بهذا العرف الغريب؟!

وهناك مقعد مربع في المسجد، يعلو عن الأرض نحو أربع أقدام ويبلغ محيطه خمس عشرة خطوة ويُدعى «المائدة» أو الطاولة، ويقع خارج الحاجز، إلى الشمال بالقرب من قبر فاطمة. هنا يجلس حرّاس المجلس الخصيان؛ كما تُعقد هنا غالباً مجالس زعماء المدينة أو اجتماعاتهم الأساسية.

ويمتد فاصل خشبي يبلغ علوه نحو ثماني أقدام من الجهة الغربية من الحاجز، عبر المسجد بموازاة الحائط الجنوبي الذي يبعد عنه نحو خمس وعشرين قدماً، وينتهي قرب البوابة التي تُدعى باب السلام؛ فيمتد بذلك من «الحجرة» عبر كامل عرض المسجد تقريباً، وقد طُلي بالزخارف العربية الغنية. وتظهر فيه عدة أبواب صغيرة، وقد أقيم ليفصل بين المكان المقدس المدعو «الروضة» والزائرين الذين يمرون بشكل متكرر عبر باب السلام، متقدمين باتجاه «الحجرة» على طول الأعمدة المنتصبة بين هذا الفاصل والحائط الجنوبي. بالقرب من «الحجرة»، عند ذلك الجزء من صف الأعمدة الجنوبي الشمالي الفاصل، يُعتبر المكان الأكثر قدسية في المسجد ويُدعى «الروضة»، أو حديقة المؤمن؛ وهو اسم أطلقه عليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي قال: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة». ويقع منبر المسجد بالقرب من الفاصل هذا على منتصف الطريق بين «الحجرة» والحائط الغربي في المسجد، ويُطلق اسم «الروضة» تحديداً على تلك المساحة فقط الواقعة بين المنبر و«الحجرة»، على الرغم من أن كل صف الأعمدة الجنوبي في المعبد، إلى الشمال من الفاصل، يُدرج غالباً تحت تلك التسمية. وإنه بسبب هذا الاسم «الروضة» أو الحديقة، فقد طُليت الأعمدة الواقعة ضمن حدودها بالأزهار والزخارف العربية إلى علو خمس أو ست أقدام لمساعدة مخيّلة الزائرين في اكتشاف الشبه بين هذا المكان وجنة عدن على الفور[١]. وقد وُضع محرابان أو مشكاتان على جانبي المنبر يتوجه نحوهما المصلّون لأنهما يشيران بدقة إلى اتجاه الكعبة[٢]. وهما، فضلاً عن المنبر، يُظهران عملاً يدوياً مُتقناً لأجمل فُسيفساء. وقد أُرسلت إحدى المشكاتين من مصر هدية إلى المسجد بأمر من قايد بك، وأرسل الأخرى من القسطنطينية السلطان سليمان بن سليم. وقد فُرشتْ أرض «الروضة» بعدد من السجادات الأنيقة التي أُرسلت من القسطنطينية. وكما في مكة، فهذه هي الأغراض الثمينة الوحيدة التي رأيتها في المسجد، ويمكن أن تكون قيمتها نحو ألف جنيه؛ أما الجزء الأعلى من صف الأعمدة، فقد فُرِشَ بالحُصُر.

(١) هذا من تخيلات المؤلف؛ فالمسلم إذا تخيل وهو في الروضة فسيتخيل جنة الآخرة، لا جنة عدن.
(٢) لقد أُدير المحراب جنوباً غرباً بدرجة ١١، وهو الاتجاه الذي يُعتبر هنا الاتجاه الدقيق لمكة.

وتجتمع الحشود على سجادات «الروضة»، لأنه المكان المفضل للصلاة. وليس هناك أي تعاليم تتعلق بالمجالس، فكل واحد يستطيع أن يجلس أينما شاء؛ لكن من المعلوم أن الصف الأول الأقرب إلى الفاصل، وخاصة الصفوف الواقعة في جوار الإمام مباشرة، محجوزة لذوي المنزلة الرفيعة، فلا يُقحم أي شخص لا ينتمي إلى تلك الطبقة هناك. ولمدخل «الروضة»، قرب باب السلام، مظهر خلاب، فالألوان المزخرفة الظاهرة في كل جانب، والأعمدة المصقولة، والسجاد الفاخر والأرضية الفخمة، والنقوش المذهّبة على الحائط، إلى الجنوب، وحاجز «الحجرة» المتألق البرّاق في الخلف، كل ذلك يُبهر العين في البدء؛ لكن بعد توقف قصير، يصبح واضحاً للعيان أن ذلك ما هو سوى عرض للزينة المزخرفة وليس لثروات حقيقية. وحين نتذكر أن هذه البقعة هي إحدى أكثر الأمكنة قُدسية في العالم الإسلامي ومشهورة بعظمتها وروعتها وزينتها المكلفة الفاخرة، وأنها زُيِّنت عبر الهبات الدينية الموحدة لكل المؤمنين والتابعين لهذا الدين، تتملّكنا الدهشة بالطبع عند رؤية مظهرها البسيط. وليس هناك أي وجه للمقارنة بينها وبين مقام أبسط قدّيس في أي كنيسة كاثوليكية في أوروبا، ويمكن، فيما يتعلق بالهبات الدينية، أن تشكّل دليلاً مقنعاً على أن المسلمين لم يضاهوا في أي وقت من الأوقات المؤمنين الكاثوليكيين؛ وذلك من غير أن نأتي على ذكر أحداث أخرى عديدة تُساهم في تعزيز الاعتقاد في أن المسلمين، مهما تكن معتقداتهم الخرافية[1] وتعصّبهم، لا يميلون إلى تقديم التضحيات المالية لمؤسساتهم الدينية، كالكاثوليكيين، أو حتى البروتستانتيّين.

إن الشعائر الواجبة عند زيارة المسجد هي التالية: في البدء، على الحاج تطهير نفسه بالوضوء الكامل أو الغسل، قبل الدخول إلى المدينة، وإذا كان باستطاعته فله أن يُعطّر جسده بروائح طيبة. وحين تظهر القبة أمام عينيه، عليه أن يُردّد بصوت عالٍ بعض الأدعية الدينية. وحين ينوي زيارة المسجد، يقوده الدليل، أو المزوِّر كما يدعونه هنا، إلى البوابة التي تُدعى باب السلام، فيمر برجله اليُمنى أولاً فوق العتبة، وهي عادة عامة في كل المساجد لكن يُشدَّد عليها هنا بشكل خاص. وأثناء تأدية بعض الصلوات، يتقدّم نحو «الروضة» حيث يؤدي صلاة قصيرة بأربع ركعات كتحية للمسجد، يتلو خلالها السورتين القصيرتين من القرآن وهما (١٠٩ و١١٢). من ثم يمرّ عبر أحد الأبواب الصغيرة في الفاصل عند الروضة، ويسير ببطء نحو حاجز «الحجرة»، أمام النافذة الغربية ليتخذ موضعه على الجهة الجنوبية؛ وبذراعين نصف مرفوعتين، يتوجه بابتهالاته إلى محمد، قائلاً: «السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا رسول اللّه»،

(١) ليس عند المسلمين ـ في الأساس ـ معتقدات خرافية، كما عند غيرهم.

إلخ. فيردد نحو عشرين لقباً أو كُنية مختلفة لمحمد مضيفاً قبل كل واحد منها «السلام عليك». ويقوم بعدها بطلب الشفاعة له في الجنة ويذكر أسماء كل أقاربه وأصدقائه الذين يرغب في إدراجهم في صلواته واحداً واحداً. ولهذا السبب لا يتلقى المقيم في المدينة أبداً رسالة من الخارج دون أن يُستعطف في آخرها لذكر اسم المرسل عند قبر النبي. وإذا ما كان الحاج مفوَّضاً بالحج من رجل آخر، يلتزم هنا بذكر اسم هذا الرجل. إن في هذه الصلاة عبارة تُستعمل، كما في الأمكنة كلها التي تتم زيارتها لقدسيتها في المدينة، غير أنها بدت لي غير مدروسة بحيث تلهم الزائر مشاعر الإنسانية والإحسان؛ فمن بين الأمور الأخرى التي يُتضرع بها إلى الله، يُذكر الطلب الآتي: «اللهم دمِّر أعداءنا، واجعل مثواهم النار».

بعد تلاوة هذه الأدعية، من الأفضل على الزائر أن يُبقي رأسه ملتصقاً بالنافذة لبضع دقائق في تعبُّد صامت، ثم يتراجع إلى الوراء ويؤدي صلاة من أربع ركعات تحت صف الأعمدة المجاور في مقابل الحاجز؛ يقترب بعدها من النافذة الثانية، على الجهة نفسها التي يُقال أنها تواجه قبر أبي بكر، ويبدأ بأدعية مشابهة لتلك التي قام بها عند النافذة السابقة المدعوة «شباك النبي»، يؤديها تكريماً لأبي بكر. وبتراجع مرة ثانية إلى صف الأعمدة، يؤدي كذلك صلاة قصيرة ثم يتقدم إلى النافذة الثالثة على تلك الجهة من الحاجز التي تواجه ذلك الجزء من الستارة الذي يقع خلفه قبر عمر ويؤدي هنا أدعية مشابهة. وعندما تنتهي هذه الشعيرة، يسير الزائر حول الزاوية الجنوبية الشرقية من «الحجرة» ويمثل أمام قبر ستّنا فاطمة، حيث يؤدي، بعد أربع ركعات، أدعية موجّهة إلى فاطمة الزهراء كما تُدعى؛ ثم يعود إلى «الروضة» حيث يتلو صلاة لتحية الخالق عند مغادرة المسجد والتي تختم هذه الشعيرة التي يستغرق إتمامها عشرين دقيقة في أقصى حد[1].

على كل بقعة تؤدى الصلوات عليها، يجلس بعض الناس مع مناديل بُسطَتْ أمامهم لتلقي الهدايا من الزائرين؛ وكما يبدو، فهي تُعتبر رسماً أو جزية أكثر منها صدقة؛ لأن زائراً أنيقاً سيجد صعوبة في شق طريقه دون دفع تلك الضرائب. وفي مقابل ستنا فاطمة، تجلس مجموعة من النساء (حيث إن فاطمة نفسها هي قدّيسة أنثى)[2]، ويتلقَّيْن الهدايا كذلك في مناديلهن. ويقف الخصيان أو حرّاس المعبد في «الروضة» منتظرين حتى يُنهي الزائر آخر صلاة له ليتمنوا له السعادة لإتمامه الزيارة بنجاح وليتلقّوا أتعابهم. وتكتظ بوابةُ باب السلام الضخمة باستمرار

(١) ليس من السنّة في شيء ما ذكره المؤلف؛ فزيارة مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للسلام عليه والصلاة في مسجده. أما هذا التفصيل في الصلوات والحركات، فغير موجودة ولا علاقة لكل ذلك بفريضة الحج.

(٢) فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ليست قديسة، بل هي صحابية جليلة، ومثل هذه الألقاب تكثر عند النصارى وبخاصة من قبل بابا الفاتيكان.

بالفقراء الذين يستجدون الزائر عن قُرب عند مغادرته المسجد؛ كما يتوقّع الحمال كذلك نصيبه كحق له. وقد كلّفتني الزيارة كلها نحو خمس عشرة ليرة، وأعطيتُ دليلي عشر ليرات؛ لكني ربما كنتُ استطعتُ إتمام ذلك بنصف ذلك المبلغ.

ويمكن تكرار الشعائر بقدر ما يرغب الزائر، لكن القليل منهم يُتمونها كلها إلاّ حين وصولهم إلى «المدينة» وعند المغادرة. غير أن الذهاب يومياً لمرة واحدة على الأقل إلى النافذة المواجهة لقبر محمد، وأداء صلاة قصيرة هناك هي عادة عامة؛ فالعديد من الأشخاص يفعلون ذلك كلما دخلوا المسجد. كما أن القاعدة تقضي بعدم الجلوس أبداً في المسجد لتأدية الصلوات اليومية المعتادة دون أن يسبق ذلك التضرّع إلى النبي بيديْن مرفوعتيْن ووجه مُدارٍ باتجاه قبره. كما تسود عادة مماثلة في مساجد أخرى عديدة في الشرق التي تحتوي على قبر قدّيس «صالح». ويؤكد علماء الدين المسلمون أن الصلوات التي تؤدّى في مسجد «المدينة» تُقبل من الله على نحو مميّز؛ ويدعون المؤمنين إلى تأدية هذا الحج قائلين إن صلاة واحدة تُتلى في حضرة «الحجرة» توازي ألف صلاة في أي مسجد آخر باستثناء مسجد مكة.

لقد سبق أن ذكرتُ أن الجهتين الشمالية والشرقية وجزءاً من الجهة الغربية من المسجد ليست مبنية بطريقة جيدة كالجهة الجنوبية حيث تقع «الروضة» و«الحجرة». فالأعمدة في تلك الأجزاء أكثر رفاعة وقد طُليت بإتقان أقل درجة، كما أن الأرضية خشنة فظة، ولا يظهر أي نوع من الزينة على الجدران المطلية باللون الأبيض، إلاّ على الجهة الغربية حيث تلفتُ الانتباه الرسومات النافرة لمسجد سانت صوفيا St. Sophia ومساجد السلطان أحمد وبايزيد والي وسكوتاري، وهي مساجد مشهورة، في العاصمة؛ وقد رُسمت بالألوان المائية على الجدار الأبيض دون الاعتناء بالتناسق في الرسم. وكانت الجهة الشمالية كلها تخضع لتصليحات وترميم، كما أُزيلت الأرضية القديمة لتبدل بها أخرى أفضل منها.

إن الفناء المكشوف المسيّج بين صفّ الأعمدة غير مرصوف وقد غُطّي بالرمال والحصى. وفي وسطه يقف بناء صغير ذو سقف مُقنطر حيث تُعلق مصابيح المسجد. وبالقرب منه سياج صغير ذو حاجز خشبي منخفض يحتوي على بعض أشجار النخل التي يعتبرها المسلمون مقدسة لأن فاطمة الزهراء قد زرعتها، كما يُقال؛ وشجرة أخرى لم يبقَ منها الآن سوى الساق، وكانت كما أعتقد شجرة «لوكس»، بالقرب منها بئر تُدعى «بئر النبي» مياهها مالحة، وهي لهذا السبب ربما لا تتمتع بسمعة قدسيّة. ويقول السمهودي إنها تُدعى «الشامة».

تُضاء المصابيح في المساء حول صف الأعمدة، وخاصة في الجهة الجنوبية حيث يكثر عددها أكثر من الجهات الأُخرى، وقد عُلّقت في عيدان حديدية ممتدة من عمود إلى آخر، وتقع مهمة

إضاءتها على عاتق الخصيان والخدّام في المسجد. وعبر تقديم هبة لهؤلاء، يُسمح لزائري القبر أن يقدّموا المساعدة؛ ويتلهف العديد من الحجاج الأجانب لتأدية هذه المهمة أو الوظيفة التي تُعتبر ثواباً والتي يقوم الخصيان بمدحهم لأجلها. غير أنه لا يُسمح لهم أبداً بإضاءة المصابيح داخل «الحجرة». وقد وُضعت على جوانب المنبر والمحرابين شموع كبيرة بعرض جسم الإنسان وضخامته، ويبلغ علوُّها اثنتي عشرة قدماً؛ وهي تُضاء في المساء بوساطة سُلّم يركّز بالقرب منها، وتُرسل من القسطنطينية. وقد أحضرت زوجة محمد علي التي كانت الآن في «المدينة»، عدة شموع مماثلة هدية للمسجد، وقد نُقلت بصعوبة ومشقة كبيرتيْن من يَنبع إلى هنا.

إن للمسجد أربع بوابات وهي:

١ ـ باب السلام الذي كان يُدعى في السابق باب مروان، (حسب كلام السمهودي)، ويقع على الزاوية الجنوبية الغربية؛ وهي البوابة الرئيسية التي يجب على الحاج اجتيازها للدخول إلى المسجد عند زيارته الأولى. وهي بوابة مُقنطرة جميلة تفوق أي واحدة أخرى من بوابات مسجد مكة، بالرغم من كونها أصغر حجماً من العديد منها وأكثر أناقة من أي بوابة مسجد رأيتها سابقاً في الشرق. وقد غُطيّت جوانبها بالرخام والبلاط المصقول بألوان متنوعة، ويبرز منها عدد من النقوش بأحرف ذهبية كبيرة فوق القنطرة وعلى جوانبها، مما يسبغ عليها مظهراً متألقاً. وهناك سبيل صغير مقابل هذه البوابة يُملأ بمياه القناة، حيث يتم الناس عادة وضوءهم إذا لم يختاروا إتمام ذلك في المسجد نفسه حيث توضع جِرار لهذا الغرض.

٢ ـ باب الرحمة، وكان يُدعى سابقاً باب عاتكة، ويقع على الجدار الغربي من حيث يُحمل الميت إلى المسجد حين يُراد أداء الصلاة عليه.

٣ ـ باب الجبر، ويُدعى غالباً باب جبرائيل كذلك.

٤ ـ باب النِسا، ويقع على الجدار الشرقي، وهو الأقرب إلى قبر ستّنا فاطمة والآخر أبعد بقليل.

وتؤدي بضع درجات إلى البوابات من الشوارع المجاورة حيث إن منطقة المسجد تقع على مستوى أكثر ارتفاعاً بقليل. وذلك عكس ما يُرى في مكة. وبعد مرور نحو ثلاث ساعات من غياب الشمس تُقفل البوابات بانتظام بأبواب ذات مصاريع مبطّنة بالحديد؛ ولا يُعاد فتحها إلاّ قبل نحو ساعة من انبلاج الفجر. لكن من يرغب بالصلاة طوال الليل في المسجد يمكنه بسهولة الحصول على إذن من المخصي الحارس الذي ينام قرب «الحجرة». وخلال رمضان، يبقى المسجد مفتوحاً طوال الليل.

هناك عدة أبواب صغيرة تؤدي إلى المسجد، على الجهتين الشمالية والشمالية الغربية، وهي

تخص مدارس حكوميّة مُرفقة به أساساً لكنها الآن قد فقدت تميزها. ويجلس على هذه الجهة معلّمو المدارس مع صبيتهم في دائرة حولهم فيُعلّمونهم مبادىء القراءة.

لقد أوكِلت مهمة حماية المسجد ووظيفة تنظيف «الحجرة» وإضاءة المصابيح، الخ، لأربعين أو خمسين مخصياً لهم مؤسسة مماثلة لتلك الخاصة بخصيان بيت الله في مكة. غير أنهم أشخاص ذوو أهمية أكبر هنا، فهم يرتدون الثياب الثمينة رغم أنه الزي نفسه، ويضعون عادة شالات من الكشمير الجميل وعباءات من أفضل الأقمشة الهندية الحريرية، وهم يبدون بسيماء وسمتٍ خارجي فائق الأهمية والاعتبار. وحين يمرّون عبر السوق، يُسرع الجميع للثم أيديهم؛ وهم يمارسون نفوذاً مهماً في شؤون المدينة الداخلية، ويتلقّون رواتب مرتفعة تُرسل سنوياً من القسطنطينية عبر قافلة الحج السورية؛ كما يشاركون كذلك في الهبات المقدمة إلى المسجد كلها ويتوقّعون الهدايا من كل حاج ثري إلى جانب ما يأخذونه من أجور من زوار «الحجرة». وهم يعيشون سوياً في أحد أفضل الأحياء في «المدينة» شرقي المسجد. ويُقال إن منازلهم مفروشة بطريقة مكلفة أكثر من أي منازل أخرى في المدينة. والبالغون كلهم متزوّجون من جاريات زنجيات أو حبشيات.

إن الخصيان الزنوج، على خلاف الأوروبيين منهم، يهزلون ويضعف جسدهم، وتصبح قسماتهم خشنة وفظّة جداً، فلا نميّز سوى عظامهم، وأيديهم كأيدي الهياكل العظمية، وكل مظهرهم يدعو للاشمئزاز. لكنهم، بمساعدة الثياب السميكة، يخفون ضعف جسدهم، غير أن قسماتهم المليئة بالعظام هي من الوضوح بحيث يمكن تمييزهم من النظرة الأولى. لكن أصواتهم لا تتغيّر كثيراً، إذا ما تغيّرت؛ ولا تتحول أبداً إلى تلك النغمة الأنثوية الناعمة والمحبّبة لدى المطربين الإيطاليين.

ويُدعى زعيم الخصيان «شيخ الحرم»، وهو أيضاً زعيم المسجد والشخص الرئيسي في المدينة كونه في منزلة أرفع مقاماً من الآغا أو زعيم الخصيان في مكة. وهو نفسه مخصيٌّ أُرسل من القسطنطينية وينتمي عادة إلى بلاط الصدر الأعظم، الذي يُرسله إلى هنا بهدف النفي أو العقاب بالطريقة نفسها التي يُرسل فيها الباشاوات إلى جدة. إن شيخ الحرم الحالي كان فيما مضى مشرفاً على نساء الخليفة سليم، وهي إحدى الوظائف الأولى في البلاط. لا أستطيع القول ما إذا كان شرف وظيفته السابقة التي يحتفظ النبلاء الشرقيون عادة بمنزلتها طوال حياتهم حتى وإن جُردوا منها، أو شرف وظيفته كشيخ الحرم، هو الذي منحه هذه الأهمية التي يتمتع بها. لكنه، وفي كل مناسبة، كان يأخذ الأسبقية على طوسون باشا الذي كانت مرتبته مرتبة باشا جدة ويحمل ثلاثة شرائط. وكان هذا الأخير، كلما التقيا، يقبّل يد الشيخ كما رأيته يفعل في المسجد. وله بلاط مؤلّف بطريقة مماثلة لبلاط باشا، لكن بعدد أقل. وقد قام بوصف ملابسه

بدقة بالغة، الرحالة D'ohhson، ويتألف من معطف رقيق جميل فوق عباءة حريرية مطرّزة وفخمة تُنفَّذ حسب الموضة في العاصمة؛ ويُعلِّق خنجر مرصّع بالألماس في حزامه، وقلنسوة على رأسه. ويحتفظ الشيخ الحالي بنحو اثني عشر حصاناً وكلما كان يخرج من منزله، كان يمشي أمامه عدد من الخدم أو «الفرّاشين» من المسجد مسلّحين بعصي عريضة.

وكان الوهابيون يحترمون شخص شيخ الحرم. فحين استولى سعود على «المدينة» سمح للشيخ مع عدة خصيان آخرين بالانسحاب إلى ينبع مع نسائه وإلى أمتعته وأغراضه الثمينة كلها؛ لكنه لم يقم باستقبال شيخ آخر في المدينة، فعمد الخصيان أنفسهم إلى تعيين واحد منهم ليترأسهم إلى ما بعد فترة استمرت ثماني سنوات، حين تمَّ إرسال الزعيم الحالي من القسطنطينية. غير أن نفوذه على شؤون المدينة الداخلية قد قُلِّص وهُمِّش إلى مجرد ظل لما كان عليه.

وسيشعر مخصيّ المسجد بإهانة وتحد كبيرَين إذا ما ناداه أي شخص بهذه الصفة، لأن لقبهم المعتاد هو الآغا. ويكسبُ زعيمهم لقب «سيادتكم» كالباشا أو شريف مكة.

إلى جانب هؤلاء الخصيان، يحظى المسجد بعدد من سكان المدينة كخدم له، ويُدعى هؤلاء «الفرّاشون»، وهي تسمية تدل على أن واجبهم هو المحافظة على نظافة المسجد، وبسط السجاد ومدّه. ويأتي أحدهم إلى المسجد لإضاءة المصابيح وتنظيف الأرض مع الخصيان. ويأخذ آخرون ذلك كمجرد وظيفة عاطلة؛ وينتمي بعض أهم الناس في المدينة إلى هذه المجموعة. ولا أعلم كيف يتم الحصول على هذه الوظيفة، لكني أعتقد أنها تُشترى من شيخ الحرم. ويُدرج اسم كل فرّاش في القوائم التي تُرسل سنوياً إلى القسطنطينية، ويشارك جميعهم في الرواتب التي تتلقاها «المدينة» من تلك العاصمة، وكل الأمبراطورية التركية[(١)] حيث هناك دائماً نسبة كبيرة ومهمة للفرّاشين. وقد يبدو المنصب وراثياً أو يُنقل على الأقل من الأب إلى ابنه. ويُحدد العدد بخمسمائة؛ لكن قد اعتُمدت حيلة لزيادته، أو وسيلة تقضي بتقسيم كل عدد إلى النصف والثلث والثمن من الحصص؛ ويُمنح كل قسم كسري لشخص يصبح بالتالي عضواً أدنى في المجموعة. والعديد من هؤلاء الفرّاشين هم من الحجاج الأجانب الكبار المنتشرين في كل الأمبراطورية وهم يظنون أن اكتسابهم لهذا اللّقب شرف عظيم لهم.

إن العديد من هؤلاء الفرّاشين هم في الوقت نفسه مُزوِّرون ويُمارسون كذلك المهنة المربحة

(١) لم تكن الدولة العثمانية يوماً إمبراطورية يحكمها إمبراطور كما كانت الحال في الدولة البيزنطية أو الرومانية، وإنما كانت دولة يحكمها خليفة بغض النظر عمّا يشوب هذه الخلافة...

جداً وهي تأدية الأدعية عن الغائبين. ومعظم الحجاج الذين يمرّون هنا، من أي منزلة اجتماعية كانوا، يتعرّفون بأحد هؤلاء الرجال، بواسطة أدلائهم في الأماكن المقدسة. وعند عودتهم إلى الديار، غالباً ما يصبح إرسال بعض المال سنوياً قاعدة دينية عندهم، فيرسلون اثنين أو ثلاثة سكّوين (نقد ذهبي إيطالي وتركي قديم) إلى دليلهم القديم الذي يلتزم شرفياً بتلاوة بعض الأدعية باسم المرسِل أمام نافذة «الحجرة». وتُجمع هذه الحوالات المالية الملفوفة في ورق صغير مختوم كُتب عليه العنوان، في كل مقاطعة أو مدينة رئيسية في الأناضول أو في تركيا الأوروبية، وتُرسَل من هناك بشكل أساسي إلى «المدينة» بوساطة كاتب الصُرّة في القسطنطينية الذي يُرافق قافلة الحج ويترأس القسم المالي فيها. وقد احتكر بعض الفرّاشين الأساسيين كل المدن والمقاطعات التي يقوم أبناؤها، الذين يمرون عبر المدينة، بالتعرّف إليهم من خلال مواطنيهم. وينتشر ممثّلون آخرون في كل أنحاء الإمبراطورية. إن الأرباح التي يجنونها من هذه المهنة كبيرة جداً، وتشبه تلك التي تصبح حقاً ومطلباً شرعياً لرهبان الكاثوليك الرومان مقابل قراءة القُداس. فقد سمعتُ أن بعض الفرّاشين الرئيسيين له نحو أربعمئة إلى خمسمئة من زبائنه المراسلين له منتشرين في كل أنحاء تركيا ويتلقّون من كل منهم رواتب سنوية يبلغ أدناها سكويناً واحداً من عملة البندقية.

إن عدد الفرّاشين والمزوّرين كبير جداً، ويمكن تأدية واجبات وظائفهم بسهولة، فهم، في قسمهم الأكبر، فئة عديمة الجدوى، كسولة. لكن خلال زمن الوهابيين، توقّفت علاواتهم وقلّ عددهم جداً بسبب وصول القليل من الحجاج آنذاك. وقد بدأوا بالازدياد الآن ببطء. وهم يتذمّرون من أن التوقف الطويل عن دفع الرواتب السنوية قد عوّد العديد من مراسليهم الأساسيين على الامتناع عن تقديم الهدايا؛ ومن أنه، بالرغم من إعادة تعزيز العلاقات والتعامل مع قوافل الحج، فهناك ميل بسيط جداً لإعادة الوضع كما كان عليه.

إنه من غير المسموح للوهابيين، وفق قانونهم، زيارة قبر النبي أو الوقوف أمام «الحجرة» والدعاء لشفاعته لهم في الجنة. إن قبر النبي لا يستحق بالنسبة إليهم اهتماماً خاصاً حيث إنه ليس سوى رجل فان. إن الذي دفع سعوداً وأغراه بسرقة كنوز «الحجرة»، كان مبدءاً دينياً صارماً إلى جانب شغفه بالسلب والنهب. فقد كان يعتبر تلك الكنوز غير مناسبة، من ناحية التواضع واللياقة والأصول، لتزيين القبور. أما القبر نفسه، فلم يمسّه، ولم يقم كذلك بإزالة القماش المقصّب عن القبر ولا الستارة المحيطة به، ولعله بذلك يكون قد تراجع، ولمرة واحدة، أمام المشاعر الوطنية لعرب شبه الجزيرة، أو ربما أمام وخز ضميره الذي لا يستطيع أن يتجرد من انطباعاته الأولى. ويُقال أن الأحلام قد أرعبته أو منعتْ يده المدنّسة وأوقفتها. وقد احترم بالطريقة نفسها قبر فاطمة؛ لكنه، من ناحية ثانية، قام بهدم الأبنية في المقابر العامة كلها بلا

استثناء حيث يرقد العديد من الأئمة العظماء، وقام حتى بتدمير شواهد تلك القبور المنحوتة والمزخرفة؛ لأنه كان يعتقد أن حجراً بسيطاً يكفي لتغطية رُفات الميت.

وبمنع أي زيارة إلى القبر، لم يفكِّر الوهابيون أبداً في قطع الزيارات إلى المسجد. فذلك الصَّرح قد بناه النبي في تلك الفترة المميَّزة التي انتقل فيها من مكة. والتي وضعت أولى أساسات الإسلام؛ فهو، بالنسبة إليهم، البقعة الأكثر قُدسية على الأرض إلى جانب بيت اللّه في مكة. وقد أصدر سعود ذات مرة الأوامر بعدم السماح لهؤلاء الحجاج الأتراك بالدخول إلى «المدينة»، وهم كانوا لا يزالون يفدون إلى هذا القبر من ينبع، حتى بعد انقطاع قوافل الحج المنتظمة. وقد قام بذلك لمنع صلاتهم الوثنية، كما يدعوها؛ وهي ممارسة من المستحيل إلغاؤها دون إخراجهم على الفور من المسجد. ولم يظن سعود أنه من الملائم فرض هذا الحظر بالقوة، لذلك، فقد فضّل إبقاءهم خارج المدينة بحجة أن سلوكهم غير المناسب جعل من هذا الإجراء أمراً ضرورياً. وكان هو نفسه، مع تابعيه ومُواليه كلهم، يقومون بزيارة المسجد المقدّس. وفي معاهدة السلام التي أبرمها نجله عبد الله مع طوسون باشا سنة ١٨١٥، هناك نص واضح بالسماح للوهابيين بزيارة مسجد النبي، (وليس قبره)، بلا إزعاج أو مضايقات.

حتى بالنسبة إلى المسلمين الأصوليين، فإن زيارة هذا القبر والمسجد، هي عمل لا يكاد يستحق الثواب، وليس له أي علاقة بواجب تأدية الحج المفروض على المؤمن؛ غير أنه عمل مقبول من الله ومستحب إليه، تماماً كزيارة المسجد في القدس وقبر إبراهيم في الخليل، لمحو العديد من الخطايا، وهو يخوّل الزائر مناصرة النبي والشيخ الجليل في الجنة. ويُقال أن من يؤدي أربعين صلاة في هذا المسجد، سيُنَجّى من نار جهنم وعذاب ما بعد الموت[١]. وبما أن الناس يُبجّلون الأئمة غالباً أكثر من الخالق نفسه[٢] الذي لا يقبل، كما هو معلوم جيداً أي قرابين أو تقديمات إلاّ صفيراً حياً ونفساً طاهرة نقية أو توبة صادقة مخلصة، فهو لهذا السبب، لا يُسترضى بسهولة. وهكذا، فلزيارة «المدينة» تقريباً المنزلة نفسها كزيارة بيت الله في مكة. ويحتشد الزائرون بحماسة أكبر وشغف إلى هذا المقام أو المزار أكثر مما يفعلون في الكعبة. فخلال السنة، تصل إلى مكة حشود الحجاج من أقطار العالم الإسلامي كلها، ويأتون عادة من طريق ينبع. وتبدو الحماسة على المغاربة خاصة أكثر من غيرهم في أثناء الزيارات. غير أنهم يأتون إلى هنا بهدف آخر؛ ففي هذه المدينة يقع قبر الإمام مالِك بن أنَس، مؤسس المذهب المالكي الذي ينتمي إليه المغاربة.

(١) يكثر المؤلف من مثل هذه الأقاويل من غير أن يسندها إلى أحد!

(٢) تأمّل هذا الكذب الواضح من المؤلف!

وتزور المسجد في مكة يومياً الحاجات من النساء اللاتي لهن محطة خاصة معيّنة لهنّ. وعلى العكس، فإن قيام المرأة بالدخول إلى المسجد في «المدينة» هو عمل غير محتشم أو لائق. إن اللاتي يأتين من مناطق بعيدة يزُرن القبر في الليل بعد الصلوات الأخيرة، بينما لا تكاد النسوة المقيمات في المدينة يغامرن أبداً بتخطي العتبة. فصاحبة المسكن الذي أُقيم فيه، وهي امرأة عجوز، قد عاشت بالقرب من المسجد خمسين عاماً، أكّدت لي أنها دخلت ضمن حدوده مرة واحدة فقط في حياتها، وأن النساء اللواتي يتمتعن بطبع متحرّر فقط يجرأن على تأدية صلواتهن هناك. وبشكل عام، فإننا نادراً ما نرى النساء في المساجد في الشرق بالرغم من أن حرية الدخول إليه غير ممنوعة. ونلتقي بالقليل منهن في المساجد الأكثر قدسية كجامع الأزهر في القاهرة حيث يتوجّهن بالشكر إلى الخالق لطلب كن قد قطعن عليه نذراً اعترافاً وشكراً. وحتى في بيوتهن، فإن النساء نادراً ما يُصلّين باستثناء النسوة المسنّات المؤمنات[1]. وإذا ما كانت امرأة تعرف جيداً صلواتها وقد حفظت غيباً بعض السور من القرآن، فإن ذلك يُعتبر إنجازاً مميّزاً. والنساء في الشرق مخلوقات أدنى درجة، وقد أنكر بعض مفسّري القرآن العلماء عليهن إمكانية دخول الجنة[2]، فلا يهتمّ أزواجهن بالتالي كثيراً في تأديتهنّ الشعائر الدينية بدقة وصرامة، بل إن العديد منهم يكرهون ذلك لأن الالتزام الديني يرفع نساءهم إلى منزلة أقرب منهم. ومن الملاحظ أن المرأة تُعتبر زوجة سيّئة إذا ما طالبت مرة واحدة بالاحترام الذي تستحقه من خلال أدائها للصلوات بانتظام.

ليس هناك حمام مقدّس في هذا المسجد كما في مكة؛ غير أن كمية السجاد الصوفي الممدود فيه، حيث يجلس العرب الأشد قذارة بجانب الحجاج الأكثر أناقة، جعلتْ منه المقرَّ المفضّل لملايين المخلوقات الأخرى الأكثر أذى من الحمام والتي تشكّل مصدر إزعاج لكل الزائرين الذين ينقلون تلك المخلوقات إلى مساكنهم الخاصة التي تكتظ بالتالي بالهوامّ(؟!!).

إن هذا المسجد أصغر بكثير من مسجد مكة. وهناك فرقة شرطة دائمة وصارمة يضعها الخصيان فيه، مما يجعله أقل ازدحاماً بالمتسوّلين وعديمي الفائدة والكسالى من الأول. ويبدو كذلك أن قبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يملأ قلوب الناس في «المدينة» بخشية ورهبة أشد وقعاً وورع ديني واحترام أبلغ تأثيراً مما تفعل الكعبة ممن هم في مكة؛ فتردعهم تلك المشاعر عن التفكير فيه بتفاهة وسُخف أو كمجرد سلوى؛ فيُراعى لذلك الذوق واللياقة ضمن حدوده أكثر مما يحصل في بيت الله.

(١) تأمل هذا الكذب الواضح من المؤلف.

(٢) لا ينكر أي مسلم عاقل دخول المرأة الجنة، فيكف بالعالم!!!

وكما في مكة، هناك عدد من الخطباء والأئمة والمؤذّنين وأشخاص آخرون ممن ينتمون إلى مجموعة العلماء، وهم مرتبطون بالمسجد. ويُقال أن العلماء هنا أفقه علماً وأوسع معرفة من إخوانهم في مكة؛ وقد أنتج أولئك في الأزمنة الغابرة العديد من الكتابات الثمينة القيّمة. لكن، في الوقت الحاضر، يبدو أن مظاهر العِلم والمعرفة هنا أقل منها في مكة. وخلال زياراتي إلى المسجد، لم أر أبداً عربياً يقوم بتدريس علِم من أي نوع، فقط بعض الحجاج الأتراك الذين يفسّرون بعض الكتب الدينية المكتوبة بلغتهم للقليل من المستمعين، ويأخذون منهم مبالغ زهيدة لتأمين نفقات رحلتهم إلى الديار. وكان طوسون باشا، وهو الشخص الوحيد في عائلته الذي لم يجاهر بإلحاده، يحضر تلك المحاضرات ويجلس في الدائرة نفسها مع الآخرين. وقيل لي أن بعض المحاضرات والخطب العامة تُلقى في المدرسة التي تدعى الحمدية، لكن لم تسنح لي الفرصة للتأكد من صحة ذلك. وأعتقد أنه لا يوجد في كل الإمبراطورية الإسلامية مدينة بحجم «المدينة» لا تُلقى الدروس الدينية في المساجد. وقد كانت الدروس تُلقى في السابق في هذه المدينة، والدليل على ذلك المؤسسات الدينية العديدة التي أنشئت لهذا الغرض فقط، والتي لا يزال العديد من العلماء يتقاضون مخصصاتهم من غير تأدية واجباتهم.

إن للحرم، أو مسجد «المدينة»، كذلك الذي في مكة، أراضي شاسعة ودخلاً سنوياً لمدى الحياة في كل جزء من الإمبراطورية. ويقسّم دخله السنوي بين الخصيان والعلماء والفرّاشين. وتُحتسب النفقات اليومية لإضاءة المبنى وإصلاحه، لتوضيح النفقات بمجملها. وبما أنه لم يتم أبداً الاحتفاظ بأي كنز مالي في المسجد، باستثناء الأغراض الثمينة في «الحجرة»، فقد أنتج ذلك حسنة مضاعفة لسكان المدينة الذين يجني عدد كبير منهم ما يؤمن لهم حياة كريمة، بينما ارتاح الجميع من خطر اندلاع الشجارات الداخلية التي كانت ستقع حتماً إذا ما عُلم بإمكانية الحصول على مبلغ كبير من المال عبر الاستيلاء على المسجد. لقد ولّت تلك الأيام في الشرق حين كان بالإمكان إيداع كنز عام في مكان يتمتع بقدسيّة تكفي لحمايته من اللصوص. ويُنفق القسم الأصغر من دخل المؤسسات العامة كلها لحمايته من اللصوص. ويُنفق القسم الأصغر من دخل المؤسسات العامة كلها لمساعدة الفقراء أو لتحقيق الغرض الديني الذي دُفع لأجله؛ بينما يذهب الجزء الأعظم لتدليل مجموعة من المنافقين عديمي الجدوى، الذين ليس لديهم أي هدف آخر وراء الحصول على علم ومعرفة سطحية تافهة، سوى الأمل في المشاركة في الأرباح غير المشروعة التي تصبح حقاً شرعياً لحراس تلك المؤسسات أو عملائها(؟!!).

وككل الأبنية العامة في الشرق، تغص الطريق المؤدية إلى المسجد بالمساكن الخاصة من كل جانب، لتدع في بعض الأجزاء، شارعاً مكشوفاً بينها وبين جدران المسجد فقط؛ في حين أنها في أجزاء أخرى قد بُنيت بشكل مُلاصق لتلك الجدران مُخفية إياها. وهناك ثلاث أو خمس

مآذن (إذ نسيت أي العددين هو الصحيح) شُيِّدت على الجوانب المختلفة للبناء. ويقال أن إحداها تقف على البقعة التي كان بلال الحبشي، مؤذن الرسول وأحد أفضل مقرّبيه، يدعو فيها المؤمنين إلى الصلاة.

إن تاريخ المسجد الآتي المختصَر، مُقتطَف من السمهودي، مؤرخ «المدينة»:

«لقد شيَّد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه مسجد «المدينة»، وهو لذلك يدعى مسجده، أو مسجد النبي. فحين بلغ «المدينة»، وكانت في ذلك الوقت مستقراً مفتوحاً للعرب وتدعى «يثرب» وقد أصبحت فيما بعد «المدينة»، وذلك بعد هجرته من مكة، واطمأنَّ لكونه الآن بين أصدقاء له، شيّد مسجداً صغيراً على البقعة الأولى التي أناخت عليها ناقته في المدينة بعد أن اشترى الأرض من العرب؛ ثم سيَّجه بجدران من الطين ووضع عليها سقفاً من أوراق النخل تدعمه جذوع أشجار النخل بدل الأعمدة. وما لبث أن قام بعدها بتوسيع هذا الصرح بعد أن وضع أساساته من الحجر. وبدل المحراب أو المِشكاة الموضوعة في المساجد لتحديد الاتجاه الذي يجب أن يتجه نحوه المؤمن في الصلاة، وضع محمد حجراً كبيراً كان في البدء مُداراً نحو الشمال، باتجاه القدس، ثم رُكِّز باتجاه الكعبة في مكة في السنة الثانية للهجرة، حين تمَّ تغيير القِبلة القديمة.

«وقام عمر بن الخطاب بتوسيع المسجد بجدران من الطين وأغصان النخل. وبدل جذوع النخل، صنع أعمدة من الطين. وعَمَد في البدء إلى وضع حائط حول «الحجرة»، أو المكان الذي دُفن فيه جسد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند موته، والذي كان قبل ذلك مسيَّجاً بأغصان النخل فقط. وقد تمَّ توسيع المربع الذي تُحيط به جدران المسجد، إلى مئة وأربعين بايكاً (Pikes) طولاً ومئة وعشرين عرضاً، وذلك سنة ١٧هـ.

«وقد بنى عثمان الجدران بحجر منحوت. ففي سنة ٢٩هـ، قام بتجديد الأعمدة الترابية مدعِّماً الجدد بأطواق حديدية؛ وبنى السقف من الخشب الهندي الثمين المسمى «الساج»؛ ووُسِّع المربَّع إلى مئة وستين بايكاً (Pikes) طولاً ومئة وخمسين عرضاً وفُتحت إليه ست بوابات.

«الوليد، الذي تدين له دمشق بمسجدها الجميل المدعو «الجامع الأموي»، قام بتوسيع مسجد النبي سنة ٩١هـ. وحتى ذلك الوقت، كانت المنازل التي أقامت فيها زوجات محمد وابنته وقريباته، تقع بالقرب من «الحجرة»، خلف حدود المسجد، وكانت تؤدي إليها بوابات خاصة. ورغم المعارضة القوية التي واجهها، فقد أرغم الوليد النساء على ترك منازلهن والقبول بثمن معتدل مقابل ذلك. ثم قام بمحوها ووسَّع حائط المسجد في تلك الجهة. وقد أرسل له الإمبراطور البيزنطي الذي كان على معاهدة سلام معه، عمّالاً من القسطنطينية ساعدوا في تشييد المبنى الجديد[1]. وكان العديد منهم مسيحيين، وقاموا

(١) إن المقريزي، في وصفه لعدة حكام قاموا بتأدية الحج، يقول إن الإمبراطور اليوناني (الذي لا يذكر اسمه)، قد أرسل مئة عامل إلى الوليد وهدية عبارة عن مئة ألف مثقال من الذهب، مع أربعين حمولة من الأحجار الصغيرة المقطّعة، لصنع أرضية من الفسيفساء.

كما يُروى، بتصرّفات غير لائقة أو محتشمة، وقد قُتل أحدهم أثناء تدنيسه قبر محمد نفسه، وذلك بحجر سقط عليه من السقف. ولقد رُكّزت الآن أعمدة حجرية جديدة في المسجد لها تيجان ذهبية؛ ورُصفت الجدران بالرخام المتنوّع الألوان وذهبت كذلك أجزاء منها، فتجدد المبنى بالتالي بشكل عام.

«نحو سنة ١٦٠هـ، قام الخليفة المهدي بتوسيع السياج أكثر من قبل وجعله يبلغ مائتين وأربعين بايكاً (Pikes) طولاً. وبقي المسجد على هذا الوضع لقرون عدة.

«إن الحاكم بأمر الله، ملك مصر المخبول، الذي أرسل أحد مبعوثيه لتدمير الحجر الأسود في الكعبة، قام كذلك بمحاولة فاشلة لأخذ قبر محمد من مسجد «المدينة» لنقله إلى القاهرة. وسنة ٥٥٧هـ، في زمن الملك العادل نور الدين، ملك مصر، أُلقي القبض على رجلين مسيحيين متخفّيين في «المدينة»، كانا قد مرّا تحت الأرض من منزل مجاور إلى داخل «الحجرة» وسرقا من هناك أغراضاً ثمينة جداً. وبعد أن تعرّضا للتعذيب، اعترفا بأن ملك إسبانيا قد أرسلهما لهذا الغرض، وقد دفعا حياتهما ثمناً لتهوّرهما. فحفر السلطان نور الدين بعد ذلك خندقاً حول «الحجرة» وملأه بالرصاص لمنع محاولات مماثلة.

«سنة ٦٥٤هـ، بعد بضعة أشهر من انفجار بركان قرب المدينة، اندلعت النار في المسجد فاحترق بالكامل، لكن نسخات القرآن المودوعة في «الحجرة» قد تمّ إنقاذها؛ وقد نُسب ذلك إلى شيعة بني حسين من الفرس الذين كانوا آنذاك حرّاساً للقبر. وفي السنة التالية، أُعيد ترميمه على نفقة الخليفة المعتصم بالله ابن المنتصر بالله وسيد اليمن المظفّر شمس الدين يوسف، ثم أكمله الظاهر بيبرس، سلطان مصر سنة ٦٥٧هـ. وقد شُيّدت القبة فوق القبر سنة ٦٧٨هـ. وقام عدة ملوك في مصر بالتتابع بتحسين البناء وتوسيعه حتى سنة ٨٨٦هـ، حين دُمّر مرة ثانية من جرّاء حريق تسبّب به البرق والصواعق. وكان الدمار شاملاً، إذ إن جدران المسجد كلها وجزءاً من جدران «الحجرة»، والسقف ومئة وعشرين عموداً قد سقطت جميعاً، وأُتلفت كل الكتب في المسجد، غير أن النار على ما يبدو، لم تُلهب داخل القبر في «الحجرة» أو تمسّه. وقام قائد بك سنة ٨٩٢هـ، وكان آنذاك ملك مصر، الذي تدين له تلك البلاد والحجاز بعدد من الأعمال العامة، بإعادة بناء المسجد بكامله كما هو الآن. فأرسل ثلاثمائة عامل من القاهرة لهذا الغرض. وأُزيل ما كان داخل «الحجرة»، فوُجدت ثلاثة قبور عميقة في الداخل ملأى بالقذارة[1]؛ لكن كاتب هذا التاريخ، الذي دخل بنفسه إلى هناك، لم يرَ أي أثر لقبور. وقد تمّ التأكد من مكان قبر محمد الأساسي بصعوبة بالغة. وأُعيد حينها بناء جدران «الحجرة» والحاجز الحديدي الموضوع حولها والذي لا يزال حتى الآن؛ وأُعيد رفع القبة فوقه؛ ووُزّعت البوابات كما هي الآن، وأُرسل منبر جديد كهدية من القاهرة؛ واتّخذ المسجد بأكمله شكله الحالي. ومنذ الفترة المذكورة أعلاه، أُجري القليل من التحسينات غير الهامة من قبل الخلفاء العثمانيين في القسطنطينية».

(١) يتعمد المؤلف ـ حقداً ـ أن يكذب باختلاق مثل هذه الأشياء.

كما سبق أن ذكرتُ، تحيط الحدائق والمزارع بـ «المدينة» وضواحيها على ثلاثة جوانب، وعلى مسافة ستة أو ثمانية أميال في الاتجاهين الشرقي والجنوبي. وهي تتألف بشكل أساسي من أشجار النخيل وحقول الحنطة والشعير؛ وقد سُيِّجت تلك الأخيرة بجدران ترابية وتحتوي على مساكن صغيرة للمزارعين. إن منازلهم الواقعة في المنطقة المجاورة تماماً لـ «المدينة» هي جيدة البناء وفيها غالباً ردهة تدعمها الأعمدة، وغرفة جلوس مقنطرة محاذية، وخزان مرصوف بالحجارة أمامها. وهي مقر الإقامة الصيفي للعديد من عائلات المدينة التي جعلت من تمضية بضعة أشهر هناك في أثناء الموسم الحار، عادة لديها. إن القليل من أشجار النخيل قد سُيِّجت، باستثناء تلك المنتشرة في الحقول، وتروي أغلبها السيول والأمطار فقط. والحدائق نفسها منخفضة جداً حيث تمَّ إزالة التربة من الأجزاء الوسطى فيها وكُدِّست حول الجدران لجعل المساحة المخصَّصة للزراعة عبارة عن حفرة تنخفض عن مستوى السهل بعشر أو اثنتي عشرة قدماً. ويتم اتباع هذه الطريقة بهدف الحصول على تربة أفضل، حيث دلّت التجربة أن القشرة الخارجية مُشرَّبة بالملح أكثر من غيرها ولا تناسب الزراعة كالطبقة السفلى.

وليس هناك وجود للصناعة في أي مكان، ويذهب الكثير من الأراضي سُدى. وليس هناك اقتصاد من أي نوع في زراعة الأمكنة التي يتم فيها تخطيط الحقول. فالعديد من المناطق جرداء قاحلة تماماً، كما أن طبيعة التربة المالحة تمنع البذور من النمو. ويُقال أن الأرض الواقعة باتجاه قرية قباء وخلفها في الاتجاهين الجنوبي والشرقي، خصبة جداً دون أي مزيج مالح؛ وتفوق قيمتها بالتالي تلك الواقعة بالقرب من المدينة والتي رأيتها بعد هطول الأمطار مغطاة كلياً ولعدة أيام بقشرة مالحة ترسَّبت بجزء منها من المياه، وبالجزء الآخر تبَّخرت من التربة نفسها في الأماكن الأكثر ارتفاعاً حيث لا تصلها المياه.

ويخصّ معظم الحدائق والمزارع أهل المدينة، والعرب الذين يزرعونها (ويُدعَوْن «النواخله»)، وهم في معظم مزارعون. وتكون مُلكية الحدائق إما مُلكاً أو وقفاً. وهي في الحالة الأولى تخص فرداً، وفي الثانية تخصُّ المسجد أو أياً من المدارس أو المؤسسات الدينية التي تزرعها عبر عقود إيجار طويلة الأمد تُعطى لأهل المدينة أنفسهم الذين يعيدون تأجيرها إلى المزارعين لفترات أقصر، وهم لا يدفعون أي نوع من الضرائب. فلم يتم فرض أي ضريبة على الأرض، أو ما يسمى «ميري»؛ وهي حصانة كانت تتمتع بها الواحات الخصبة كلها في الحجاز كما أعتقد، وذلك قبل غزو الوهابيين. فما إن استولى هؤلاء على المدينة حتى فرضوا ضريبة على الأرض وفق قانونهم. وكانت تُحدّد الضريبة على الحقول حسب إنتاجها للتمور وليس للحنطة، إذ إن عدد أشجار النخيل في كل حقل، يتعلق بخصوبة التربة، وكذلك الحال بالنسبة إلى محصولها من الحبوب. وكان جباة الضرائب الوهابيون يأخذون عن كل كمية من التمر حصة نسبيّة من

التمر أو من المال، وذلك حسب سعر السوق في ذلك الوقت. وقد أدّت هذه القوانين إلى كُره الوهابيين هنا أكثر منهم في مكة التي لم يكن سكانها يملكون حقلاً لفرض الضرائب عليها، كما كان يتم هناك الإعفاء من الضريبة التي فرضها الوهابيون أو يتم إعطاؤها للشريف، حاكم المدينة القديم، كما سبق وذكرت. فضلاً عن ذلك، فقد كان المكيون يمارسون التجارة التي يجنون منها بعض الربح في الأوقات كلها، وذلك إلى جانب المميزات الأخرى التي كانوا يحصلون عليها من الحجاج الأجانب. على العكس، فإن أهل المدينة هم تجار صغار جداً ويعتمدون بشكل أساسي على الحجاج وعلى الرواتب السنوية التي تأتي من تركيا أو من أملاكهم المؤجَّرة. وبما أنهم كانوا مضطرين إلى التخلي عن المصدر الأول، وبما أنه كان يتم تقليص أرباحهم من الثاني؛ وبما أن الوهابيين كانوا يُظهرون احتراماً للمقام المبجّل في مدينتهم أقل مما كانوا يُظهرون لبيت الله في مكة، فليس باستطاعتنا أن نتفاجأ ونتعجب من أن يقوم أهل «المدينة» بلَعْن اسمهم وربطه بالنعوت والألقاب الأكثر احتقاراً وازدراء.

إن الإنتاج الأساسي في الحقول حول «المدينة» هو الحنطة والشعير وبعض البرسيم والفاكهة، ولكن الغالب عليها هو التمور. ويُزرع الشعير بكميات أكبر بكثير من الحنطة؛ كما يشكل خبز الشعير عنصراً أساسياً في الطعام لدى الطبقات الدنيا، ويتم حصاده في منتصف شهر آذار/ مارس. إن المحاصيل ضئيلة جداً لكن الانتاج ذو نوعية جيدة ويُباع في سوق «المدينة» بنسبة أعلى بـ ١٥٪ من الإنتاج المصري. وبعد الحصاد، تُترك الحقول لترتاح حتى السنة التالية. فبالرغم من وفرة المياه في الآبار[1] التي تؤمن دورة ري ثانية، غير أن التربة هي من السوء بحيث يتعذّر زراعتها مرة أخرى دون إرهاقها كلياً. ولا يُزرع الشوفان هنا ولا في أي مكان آخر في الحجاز. وتوجد أشجار الفاكهة بشكل أساسي على جانب قرية قباء، ويقال أن الرمان والعنب ممتازا النوعية خاصة الأول، كما أن هناك بعض الخوخ والموز. وفي حدائق قباء، هناك البطيخ الأحمر والخضراوات كالسبانخ واللّفت والكُرّاث والبصل والجزر والفاصوليا، لكن بكميات صغيرة جداً. وتكثر شجرة النبق التي تُنتج اللوطس في سهل «المدينة» كما في الجبال المجاورة؛ ويُؤتى بكميات هائلة من ثمرها إلى السوق في شهر آذار/ مارس، حين تجعل منها الطبقات الدنيا العنصر الأولي في طعامها. ونوعيته المتميزة عبر شبه الجزيرة. وتنمو أشجار النخيل في الحقول المسيّجة حيث تُروى مع البذور في الأرض، أو في السهل حيث تُروى من الأمطار فقط

(١) لكل حديقة أو سهل بئره، يتم جر الماء منه بوساطة الحمير والأبقار أو الجمال في دِلاء جلدية كبيرة. وأعتقد أنه ليس هناك أي حقول لا يتم ريّها بانتظام، ولا تُترك بذور أي منها لاحتمال هطول الأمطار فقط.

فتكون فاكهتها أقل وفرة غير أنها ذات قيمة أعلى. وينمو عدد منها في السهل بشكل طبيعي، لكن لكل شجرة مالكها. كما أن حجمها عامة هو أصغر من حجم أشجار النخيل المصري الذي يتغذّى من التربة الغنية الخصبة في تلك البلاد ومياه النيل؛ غير أن طعم فاكهتها أشد حلاوة ولها رائحة طيبة وعطرة أكثر من تلك.

إن الاستعمالات المختلفة العديدة التي يُستفاد بها من كل جزء تقريباً من شجرة النخيل، سبق أن ذكرها عدة رحّالة؛ فهم يجعلونها للعربي المستوطن بالقيمة نفسها التي يوليها البدوي كالجمل. ويشبّه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أحد أحاديثه التي نُقلتْ عنه، الرجل الفاضل الكريم النفس بتلك الشجرة الشريفة: «يقف منتصباً أمام ربه، ويتبع في كل فعل يقوم به الحافز الذي يتلقاه من أعلى، وحياته كلها مكرَّسة لخير أبناء جنسه»[1].

ويستخدم أهل الحجاز، كالمصريين، أوراق الجذع ولحاءه الداخلي والخارجي والمادة اللُّبيّة في جذور الأوراق التي تنمو وتنبت من الجذع. وهم، إلى جانب ذلك، يستعملون نواة الفاكهة كطعام لماشيتهم فينقعونها في الماء ليومين حتى تلين ثم يقدمونها للجِمال والأبقار والغنم بدل الشعير؛ ويُقال أنها مصدر هام للغذاء يفوق الشعير بكثير. وهناك متاجر في «المدينة» حيث لا يُباع سوى نواة البلح؛ ويتم استخدام المتسولين باستمرار لالتقاط تلك التي رُميت في كل الشوارع الرئيسية. ويطحن العرب في منطقة نجد النواة للغرض نفسه؛ لكن ذلك لا يتم في الحجاز.

ونجد في «المدينة» أصنافاً متنوعة من التمر كما في الأودية الخصبة المثمرة كلها في تلك البلاد؛ ولكل مكان تقريباً أصنافه الخاصة التي لا تنمو في مكان آخر. وقد سمعتُ أن أكثر من مئة نوع مختلف من التمر نجده في المنطقة المحاذية للمدينة. ويذكر كاتب وصف «المدينة» مائة وثلاثين نوعاً. إن الأنواع الأكثر شيوعاً هي «الجبلي»، وهو الأرخص ثمناً والأكثر انتشاراً في الحجاز بشكل عام؛ و«الحلوة»؛ و«الحلية»، وهو بلح صغير جداً بحجم ثمرة التوت، وقد اكتسب اسمه من طعمه الحلو المميَّز الذي يجعله يوازي أفضل أنواع التين في سميرنا Smerna، ويُغلَّف هذا النوع، حين تجفيفه، بقشرة سكّرية. ويروي السكان أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوتي معجزة عظيمة بهذا التمر، فقد غرز بذرة منه في الأرض أنبتت على الفور جذوراً ونمت لتصبح خلال خمس دقائق شجرة مكتملة ناضجة ملأى بالفاكهة وقد انتصبت أمامه. ويُروى عن معجزة أخرى فيما يتعلق بالأصناف التي تُدعى «الصيحاني»، وهي شجرة ألقتْ

---

(١) راجع كذلك المزمار الأول، الجملة ٣: ـ «وسيكون كشجرة زُرعت بجانب أنهر الماء»، الخ.

بصوت عالٍ تحية «السلام عليكم» على النبي عند مروره تحتها. وتعتبر «البِرني» نوعاً مفيداً للصحة كونه الأسهل للهضم، وكان النوع المفضّل لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي نصح العرب بأن يأكلوا سبع حبات منه كل صباح قبل الفطور. والنوع «الجبيلي» هو الأكثر ندرة، ويبلغ طوله ثلاثة إنشات وعرضه إنشاً واحداً، وله طعم غريب ولذيذ بالرغم من أنه ليس حلوَ المذاق كـ «الحليّة». ويبدو أنه ينمو بصعوبة بالغة حيث إن هناك ما لا يتعدى مئة شجرة من هذا الصنف على أبعد تقدير، وهي أقلها عطاء من أي واحدة أخرى. ولا ينمو ذلك النوع في أي جزء من الحجاز إلاّ في بساتين «يَنبع النخل». ويبلغ ثمن «البِرني» عشرين بارة للكيل الواحد وهي كمية تحتوي على مئة وعشرين بلحة على الأقل، بينما يُباع «الجبلي» بعشرين بارة مقابل ثماني كيلات. ويكثر الطلب عليها من الحجاج الذين يحملون بعضاً منها إلى بلادهم عادة، وذلك لتقديمها إلى الأصدقاء، لأنها تأتي من مدينة النبي؛ ويتم صنع علب صغيرة تحتوي على نحو مئة بلحة منها في «المدينة» لتسهيل نقْلها.

يشكل التمر عنصراً غذائياً أساسياً جداً للطبقات الدنيا في «المدينة»، وهم ينتظرون حصاده بشغف ويشهدونه بفرح وابتهاج عام يوازي موسم قطف العنب في أوروبا. وقلما يُعرف عن تلك الأشجار أنها تُعطي إنتاجاً غزيراً لثلاث أو أربع سنوات متتالية؛ لذلك، فإذا ما حدث أن فشل الحصول، وهذا ما يحدث غالباً، أو إذا ما التهمه الجراد، يعمُّ الاكتئاب والحزن العام بين الناس كما لو أن مجاعة تدقُّ الأبواب.

ويحتفظ صنف من تمر «المدينة» نسيتُ اسمه، بلونه الأخضر حتى وإن كان ناضجاً ومُجففاً. ويحتفظ صنف آخر بلون أصفر زعفراني متألق، ويربط هذا النوع على أسلاك ويُباع في أنحاء الحجاز كلها حيث يحمل اسم «قلائد الشام» ويضعها الأولاد دائماً حول عنقهم. ويؤكل أول موسم من التمر في بداية شهر حزيران/ يونيو، ويُدعى في تلك الفترة من نموه «رُطَب»؛ لكن يتم حصاد التمر العام في نهاية ذلك الشهر؛ وفي مصر، يتم ذلك بعد شهر منه. ويُحضَّر التمر بطرق مختلفة عند العرب، فيكون مغلياً بالحليب أو مشوياً بالزبدة؛ أو يُقلّص حجمه إلى لُب سميك عبر غليه بالماء ويُسكب فوقه العسل. ويقول العرب إن ربة منزل ماهرة تقدم لسيدها يومياً ولمدة شهر طبقاً من التمر محضراً بطرق مختلفة.

وتنمو في تلك الحدائق بكثرة شجرة «الأثل»، وهي صنف من شجرة الطَّرفاء وتُزرع لخشبها المتين، الذي يصنع منه العرب سرج جمالهم وكل المعدات التي تتطلب مقبضاً صلْباً.

ونادراً ما نجد الأرض مستوية تماماً، كما يعيقُ غالباً نمو المزروعات كومات من الصخور. وفي الجهتين الغربية والشمالية الغربية من المدينة، يصبح السهل كله صخرياً إلى درجة يهزم بها

أي محاولات للتحسين. وتتألف التربة الزراعية من طَفل أو طين ممزوج بكمية كبيرة من الكِلس والرمل، ولها لون أبيض مائل إلى الرمادي. وفي أجزاء أخرى، تتألف هذه التربة من طين ورمل ومادة عضوية طفاليّة صفراء اللون، وكذلك من مادة مشابهة جداً للطين. وتُباع من تلك الأخيرة قطع صغيرة مخروطية الشكل لزائري «المدينة»، يبلغ طولها نحو إنشٍ ونصف وقد تمَّ تجفيفها في الشمس وعُلِّقت على شريط. ويُروى أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد شفى بدوياً من بني حارث، وآخرين عديدين من حُمَّى عبر غسل أجسادهم بمياه أُذيبت فيها هذه التربة. ويتوق الحجاج إلى أخذ تذكار لهذه المعجزة إلى ديارهم. ويتم الحصول على هذه التربة من خندق يقع في مكان يُدعى «المدشونية» في جوار المدينة.

إن أدنى قمة في سلسلة الجبال الشمالية والأماكن الصخرية كلها مغطاة بطبقة من الصخر البركاني ولها لون أسود مائل إلى الزرقة وهي ملأى بالفتحات التي تنفذ منها السوائل، غير أنها ثقيلة وصلبة وغير مصقولة وتحتوي غالباً على مواد صغيرة بيضاء في مساماتها وتجاويفها بحجم رأس الدبوس ولم أجدها أبداً في حالة متبلورة. وللسهل لون أسود قاتم بسبب هذه الصخور والقطع الصغيرة المنتشرة عليه. ولم أعثر على أي حِمَم بركانية رغم أن طبيعة الأرض تدل بشدة على وجود بركان مجاور. ولو أني كنتُ أتمتَّع بصحة جيدة، لكنتُ قمتُ ببعض الاستكشافات إلى الأجزاء النائية من حدائق «المدينة» للبحث عن عيّنات من المعادن؛ لكن الأيام الأولى من إقامتي هناك مضت في إعداد خريطة للمدينة والحصول على معلومات عن سُكانها. ولم أكن بعد ذلك قادراً على القيام بأي مجهود جسدي. وعند عودتي إلى القاهرة، وفي أثناء مطالعتي لوصف «المدينة» الذي ابتعته في المكان السابق، (والذي لم أتمكن في الحجاز من العثور على نسخة منه أو من وصف مكة، على الرغم من المساعي الحثيثة التي قمتُ بها) صادفتُ تقريراً عن هزّة أرضية وانفجار بركاني حدثا في المنطقة المجاورة مباشرة «للمدينة»، وذلك نحو وسط القرن الثالث عشر. وبعد التحقيق والبحث، علمتُ من رجل في «المدينة» وكان مستوطناً في القاهرة، أن مكان مجرى الحِمَم البركانية لا يزال ظاهراً على بُعد ساعة شرقي المدينة. وخلال إقامتي، أذكر أني ذكرتُ لدليلي ملاحظة عند ذهابي معه إلى جبل أُحد، وهي أن البلاد بدتْ وكأنها احترقت بالنيران؛ غير أني لم أتلقَّ سوى جوابٍ لا معنى له، ولم أسمع أي تلميح أو معلومات في المدينة بعد ذلك تفيد بأني كنتُ بالقرب من ظاهرة طبيعية مثيرة للاهتمام.

قد تكون بعض المقتطفات من العمل الذي أشرت إليه، والتي تصف هذا الانفجار البركاني، قيّمة وتستدعي اهتمام القارىء. وقد قدمتها في الملاحظة المرفقة أدناه[1].

---

(١٣) «في بداية شهر جمادى الآخرة، سنة ٦٥٤هـ، شعر السكان في المدينة بهزة أرضية خفيفة؛ وفي الثالث من الشهر حدثت

حسب هذا التقرير، يجب البحث عن مجرى الحمم البركانية على بعد ساعة شرقي المدينة. فقد تعود هذه المواد البركانية، التي تغطي المنطقة المجاورة مباشرة للمدينة والسهل، إلى الغرب منه، إلى الانفجارات السابقة للبركان نفسه؛ حيث إنه لم يُذكر أي شيء في الرواية، عن أحجار قُذفت من فوهة البركان إلى مسافة بعيدة؛ كما أن السهل كله باتجاه الغرب وحتى وادي «عقيق»، على بعد ثلاثة أميال، قد غُطّي بتلك المواد البركانية الآنفة الذكر. وتُساورني بعض الشكوك في وجود براكين مشابهة سابقاً في العديد من الأماكن الأخرى في تلك السلسلة الكبيرة من الجبال، لأن العدد الكبير من الينابيع الدافئة التي نجدها عند كل محطة على الطريق المؤدية إلى مكة تقريباً تسمح لنا بمثل هذه التخمينات.

وإني أرغب هنا، عبر ذكر مقطع من المقتطفات الواردة في الملاحظة الأخيرة، في تقديم الملاحظة التالية: حسب تعاليم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصارمة ومبادئه، فإن ذلك الجزء من أراضي «المدينة» الذي يطوّقها في دائرة تبلغ اثني عشر ميلاً، مع جبل عيرة في الجهة الجنوبية وجبل «ثور» في الجهة الشمالية (وهو جبل صغير خلف جبل أُحد تماماً)، ليشكل ذلك

هزة أقوى من الأولى خلال النهار؛ ونحو الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، أيقظ السكان هزّات عنيفة متكررة، وازدادت قوتها خلال باقي الصباح، واستمرت متقطعة حتى يوم الجمعة في السادس من الشهر. وقد انهارت العديد من المنازل والجدران. وفي صباح يوم الجمعة، سُمع صوت راعد قوي، وفي منتصف النهار اندلعت النيران. على البقعة التي خرجت منها في الأرض، علا دخان في البدء لفّ السماء بغمامة سوداء. ونحو شرقي المدينة، مع اقتراب أفول النهار، كانت لهب النيران ظاهرة للعيان، وكانت كتلة ملتهبة ضخمة جداً وكأنها مدينة كبيرة مع جدران وحصون ومآذن ترتفع إلى السماء. وخرج من لهب النيران نهر من النار بلون أحمر وأزرق يرافقه صوت الرعد الهادر. وحملت الأمواج الملتهبة كل الصخور أمامها لتكدّسها بعد مسافة في هضبات عالية. وكان النهر يقترب من المدينة حين أرسل الله نسمة باردة منعت تقدّمه على هذه الجهة. وقد أمضى كل سكان «المدينة» تلك الليلة في المسجد الكبير، وقد جعلت انعكاسات النيران ولهبها من تلك الليلة نهاراً. وأخذ النهر المتّقد اتجاهاً شمالياً لينتهي في الجبل المدعو «جبل وعيره» الذي يقوم في الوادي المدعو «وادي الشطات» الذي يقع قليلاً إلى الشرق من جبل «أُحُد» (على بعد ميلين ونصف من «المدينة»). وكانت النيران تُرى وهي ترتفع وتعلو لخمسة أيام، واستمر النهر في الاشتعال لثلاثة أشهر. ولم يكن أحد يستطيع الاقتراب منه بسبب حرارته. وقد دمّر كل الصخور؛ لكن (كما يقول المؤرخ)، بما أن هذه هي أراضي «المدينة» المقدسة، حيث أمر محمد بعدم قطع أشجار ضمن مساحة معينة، فلم يمسّ النهر كل الأشجار التي صادفها أثناء مجراه. وكان طول النهر بأكمله يبلغ أربعة «فراسخ»، أو اثني عشر ميلاً، وعرضه أربعة أميال وعمقه ثماني أو تسع أقدام. وقد دُمر وادي الشطات تماماً. وإن المكان الذي دُمّر، ودُعي بالتالي «السدّ»، لا يزال ظاهراً. وقد شوهدت لهب النيران في يَنبع وفي مكة. كما أن عربياً من تيماء (وهي مدينة صغيرة في الصحراء الشمالية الشرقية التي تبعد مسافة ستة إلى ثمانية أيام عن «المدينة») قام بكتابة رسالة خلال الليل على الضوء الذي كانت تبعثه تلك النيران إلى تلك المسافة. «في السنة نفسها، حصل فيضان كبير لنهر الفرات، دُمِّر على أثره نصف مدينة بغداد، ومع انتهاء هذه السنة نفسها، احترق مسجد المدينة وانهار أرضاً.

«وكان العرب جاهزين ليشهدوا مثل هذا الحريق الهائل؛ لأنهم تذكروا قول محمد، بأن «يوم الحساب لن يأتي حتى ينشب حريق في الحجاز، سيؤدي إلى جعل رِقاب الجِمال في البصرة تبرقُ برقاً».

حدوداً لها، من الواجب اعتباره مقدَّساً، فلا يُسمح بذبح أي شخص هناك أو قتله باستثناء المغتصبين والأعداء، في دفاع عن النفس؛ أو الكافرين الذين يدنِّسونه؛ كما لا يجب اصطياد الطرائد أو قطع الأشجار في مثل هذه الأرض المقدسة. غير أنه تمَّ وضع هذا الحظر جانباً في الوقت الحاضر، حيث إن الأشجار تُقطع والطرائد تُقتل ونزاعات دموية تنشب في المدينة نفسها وفي تخومها. وعلى الرغم من منع أي تابع أو موال علني لأي ديانة أخرى غير الدين الإسلامي، من الدخول من بوابات المدينة، إلاّ أن العديد من ذلك حدث فعلاً خلال إقامتي هناك (وحين كنتُ أقيم في يَنبع)، حيث كان هناك مسيحيون يونانيون موظّفون في مفوّضية جيش طوسون باشا مخيّمون ضمن حدود المدينة، قبل رحيلهم إلى مركز الباشا الرئيسي الذي كان حينذاك في مقاطعة القصيم.

وَصفُ لِبَعضِ أماكِنِ الزِيارَةِ

أماكن الزيارة الدينيّة في المناطق المجاورة للمدينة

في اليوم الذي يلي انتهاء الحاجّ في تأدية أولى واجباته في المسجد وعند القبر، فإنّه يقوم عادةً بزيارة مقبرة المدينة تكريماً للعديد من الأئمة الذين يرقدون هناك. وهي تقع خلف جدران المدينة، تماماً قرب البوّابة التي تُدعى باب الجمعة، وتحمل اسم «البقيع». وهي عبارة عن مربّع من عدّة مئاتٍ من الأقدام يُسيّجه جدارٌ يصل إلى الضواحي من الناحية الجنوبية، وتحيط به بساتين النخيل من النواحي الأخرى. وقياساً بقدسيّة الأشخاص الذين تحتوي المقبرة على رُفاتهم، فهي مكان قذرٌ، وقد تكون المقبرة الأكثرة اتّساخاً وبؤساً في أيّ مدينة شرقية لها حجم «المدينة». فليس هناك أي قبر جيد البناء، ولا حتى شواهد حجرية منقوشة على القبور، وبدل ذلك، هناك كومات بسيطة من التراب مع حافّات منخفضة من الحجارة غير المثبّتة وُضعت حولها. وتشير أصابع الإتهام إلى الوهابيّين في تشويه القبور، والدليل على ذلك، بقايا قببٍ صغيرة ومبانٍ مهدَّمة قد أُشير إليها وكانت سابقاً تغطي قبور عثمان والعبّاس وستّنا فاطمة وعمّات محمّد، والتي يرجع تدميرها إلى تلك الطائفة. غير أنّهم بالطبع لم يقوموا بهدم كلّ قبر آخر بسيط مبنيّ من الحجر، وهذا لم يفعلوه في مكّة أو في أيّ مكان آخر. لا بدَّ أنَّ حالة المقبرة البائسة هذه كانت كذلك قبل الهجوم الوهّابي، وبإمكاننا أن نعزو ذلك إلى نفوس أهالي المدينة البخيلة، غير المستعدّين لتحمُّل أيّ نفقات لتكريم بقايا مواطنيهم المشهورين ورُفاتهم. والمكان كلّه عبارة عن تراكم فوضويّ لكومات التراب والحُفر الواسعة والقذارة، مع غياب أيّ قبر حجري سويّ. ويُطلبُ من الحجاجّ زيارة عدد من الأضرحة وتلاوة الأدعية بوقوفهم أمامها. ويجعل العديد من الأشخاص مهنةً لهم الانتظار طوال النهار قرب واحدٍ من القبور الرئيسيّة وقد بسطوا منديلَهم أمامهم، وهم يتوقّعون وصول الحجّاج القادمين لزيارة تلك المقبرة. هذا هو الامتياز الخاص

بالفرّاشين وعائلاتهم الذين قسّموا القبور بينهم حيث يأخذ كلٌّ مكانه أو يُرسل خادمه عوضاً منه.

إنَّ أبرز الشخصيّات التي ترقدُ هنا في هذه المقبرة هي إبراهيم بن محمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي تُوفيَ ولم يزل بعدُ صغيراً؛ وفاطمة ابنته، على وفق آراء الكثيرين القائلين بأنها دُفنت هنا وليس في المسجد؛ وعدّة من زوجات محمد وبعض بناته؛ ومُرضِعتُه؛ وفاطمة ابنة أسد أمّ عليّ؛ وعبّاس بن عبد المطّلب؛ وعثمان بن عفّان، أحد خلفاء محمّد المباشرين الذي جمع سور القرآن المبعثرة في كتاب واحد؛ «والشهداء» كما يُدعَون، الذين ذُبحوا هنا على يد جيش المنشقّين بأُمرة يزيد بن معاوية وبقيادة مُسلم سنة ٦٠ للهجرة (يقول آخرون سنة ٦٢) الذي أتى من سوريا ونهب المدينة التي اعترف سكّانها بعبد اللّه بن حنظلة الثائر قائداً لهم؛ ثم حسن بن عليّ الذي يرقد بدنُه هنا فقط حيث إنَّ رأسَهُ كان قد أُرسل إلى القاهرة ليتمّ الاحتفاظ به في المسجد المدعو الحسنية؛ والإمام مالِك بن أنَس، مؤسِّس المذهب المالكيّ. وبالفعل، فإنَّ غِنى «المدينة» برُفات الأئمة العظماء جعلهم يفقدون شيئاً من أهميّتهم الشخصيّة، في حين أَنَّ رفات شخص واحد من أولئك السابقي الذِكر يكون كافياً لجعل أيّ مدينة إسلاميّة أخرى ذائعة الصيت. وبالنسبة إلى صيغة الدُعاء والابتهال الذي يتوجّه به الناس إلى أرواح الأئمة هنا، سأنقل ذلك الذي يُردِّد بيديْنِ مرفوعتين بعد تأدية صلاة قصيرة من أربع ركعات على قبر عثمان بن عفّان: «السلام عليك يا عثمان، السلام عليك يا صاحب المصطفى! السلام عليك يا جامع القرآن! رضي الله عنك! جعل الله الجنة مسكنك ومثواك ومستقرك ومنزلك! وإني أستودع هذه البقعة في جوارك يا عثمان شهادة دائمة من يومنا هذا إلى يوم القيامة بأن لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمداً عبده ورسوله».

ويدفن سكّان «المدينة كلَّ أمواتهم في هذه الأرض في القبور العاديّة نفسها كقبور الأئمة، وتُفرزُ أغصانٌ من أشجار النخل على القبور ويتمّ تبديلُها مرّةً كلّ سنة عند عيد الفِطر حين تزور العائلة قبر أقاربها حيث تبقى أحياناً لأيام عدّة.

زِيارَةُ جَبَلِ أُحُد

إنَّ إحدى الزيارات الأساسيّة، أو أماكن الزيارة المقدّسة في «المدينة»، هو جبل أُحُد، مع قبر حمزَة عمّ النبي محمّد. يشكل جبل أُحُد جزءاً من السلسلة الكبيرة، ويتفرَّعُ عنها إلى السهل الشرقيّ، ليقف في عُزلةٍ تقريباً وهو يبعد عن المدينة ثلاثة أرباع الساعة سيراً على الأقدام.

في السنة الرابعة للهجرة، حين ركّز محمّد إقامته في «المدينة»، قامت قبيلة قُريش الوثنيّة وعلى رأسها أبو سفيان، بغزو هذه الأجزاء وتمركزت عند هذا الجبل. فخرج محمّد من المدينة،

وبقوّة غير متكافئة أبداً، خاض هناك أشدَّ المعارك عنفاً وقسوةً وبطشاً مما شهده في حياته، وقُتل عمّه حمزة مع خمسةٍ وسبعين من أتباعه، وقد جُرح هو نفسه، لكنّه قتل برمحه الخاص أحد أشجع الرجال في الجهة المقابلة وأحرز في النهاية انتصاراً كاملاً. إنَّ قبر حمزة والشهداء الخمسة والسبعين، كما يُسمَّون، يشكّلون موضوع الزيارة إلى جبل أُحُد.

بدأت سيراً على الأقدام، مع دليلي، في البوّابة السوريّة، برفقة عدّة زائرين آخرين؛ لأنّه لم يكن آمناً الذهاب إلى هناك وحيداً، خوفاً من اللّصوص البدو. وتؤدَّى الزيارة عامةً أيام الخميس. وقد مررنا بالمكان الذي تخيّم فيه قافلة الحجّ السورية، حيث توجد عدّة آبار وخزّانات متداعية مرصوفة بالحجارة، تزوّد الحجّاج بالماء خلال بقائهم في هذا المكان مدّة ثلاثة أيام، في طريقهم من مكّة وإليها. وإلى الأمام قليلاً يقع «كشكٌ» جميل تعلوه قبّة شبه متداعية الآن كذلك وتُدعى «القرين»، حيث يتّخذ زعيم القافلة عادة مسكنه الموقّت. وتصبح الأرض بعد ذلك مستويةً تماماً؛ وتنتصب هنا وهناك أشجار النخيل وتظهر عدّة أراضٍ يزرعها الناس فقط حين تكون الأمطار غزيرةً. وعلى مسافة ميل واحد من المدينة. يقع صرحٌ مهدَّم، من الأحجار والقرميد، تُتلى عنده صلاة قصيرة تكريماً لذكرى محمّد حيث إنّه وضع هنا دِرعه الواقي حين ذهب لملاقاة العدو. وعلى مسافة أبعد، هناك حجر كبير كُتب عليه أنّ محمّداً اتّكأ هنا لبضع دقائق في طريقه إلى أُحُد؛ وعلى الزائر أن يضغط بظهره على هذا الحجر ويقرأ الفاتحة، أو فاتحة القرآن.

بالاقتراب من الجبل، مررنا بسيْلٍ آتٍ من الشرق أو الجنوب الشرقي، مياهه بعمق قدميْن، وهو بقايا الأمطار التي هطلتْ منذ خمسة أيام. وهو يرتفع أحياناً إلى حدّ يصبح معه تجاوزه مستحيلاً، ويُغرق الأراضي المحيطة بأكملها. إلى الشرق من هذا السيْل، تصبح الأرض المؤدّية إلى الجبل جرداء قاحلة وصخرية، وتبدأ بالارتفاع قليلاً، حيث يقع على منحدرها مسجد يحيط به نحو اثني عشر منزلاً مهدّماً كانت في يوم من الأيّام فيلاّتٍ للاستجمام يملكها أثرياء أبناء المدن، ويقع بالقرب منها خزّان تملأه مياه السيْل. والمسجد عبارة عن صرحٍ له شكلٌ مربَّع صغير صلب البناء. وقد رمى الوهابيون قبّته أرضاً لكنّهم لم يمسّوا القبر. يحيط المسجد بقبر حمزة، وقبور أهم رجاله الذين قُتلوا في المعركة، خاصة منهم مصعب بن عُميْر وجعفر بن شمّاس وعبد اللّه بن جحش. وتقع القبور في ساحة صغيرة مكشوفة؛ وهي، كتلك التي في البقيع، عبارة عن كومات بسيطة من التراب تحيط بها بضعة أحجار غير مثبّتة. بالقرب منها، هناك رواقٌ معمَّد صغير كان يُستعمل كمسجد، حيث تؤدى صلاة قصيرة، يتقدَّم بعدها الحاجّ إلى القبور حيث يقرأ سورة «يس» (من القرآن)، أو سورة الخلاص القصيرة أربعين مرّة؛ ثم

يتوسّلُ إلى حمزة وأصحابه للتشفُّع له ولكلّ عائلته عند اللّه ليعطيهم الإيمان والصحّة والمال ويُزهقَ كلَّ أعدائه بشكل مُطلق. ويُقدَّم المال كالعادة عند كلّ زاوية لحرّاس المسجد والقبور، وللمؤذِّن والإمام، إلخ..

إلى الأمام قليلاً، باتجاه الجبل الذي يبعد مسافة مرمى بندقية فقط، تقع قبّة صغيرة لتحدِّد المكان الذي ضُرب فيه محمَّد بحجرٍ أَرْداهُ أرضاً[١] في إحدى المعارك وأدّى إلى إسقاط أربعةِ من أسنانِه الأماميّة. فظنَّتْ جماعتُه أنَّه قُتل؛ إلاّ أنّ الملاك جبرائيل ظهر فوراً ليعلن بأنّه لا يزالُ حياً. وعلى مسافة قصيرة من هذه القبّة التي دُمّرتْ ككلِّ الأخريات، تقع قبور اثني عشر من أتباع النبيّ الذين قُتلوا في المعركة؛ وهي تشكّل مع بعضها عدّة كوماتٍ من القذارة[؟!!][٢] والأحجار التي يصعبُ تحتها تمييز قبورهم. وتُتلى الصلوات مرّة أخرى، مع ذلك المقطع من القرآن الذي يَردُ فيه، في الحديث عن الشهيد: ﴿لا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون﴾؛ وهي آية لا تزال تُستعمل حتى في أيامنا هذه لتشجيع الجنود الأتراك في معاركهم ضدَّ الأوروبيّين.

يتألَّف جبل أُحُد من صخر الغرانيت المختلف الألوان؛ وقد وجدتُ على جوانبه كذلك حجر الصوّان، لكني لم أجد حمماً بركانية. ويبلغ طول الجبل بأكمله أربعة أميال تقريباً، من الغرب إلى الشرق. وليس من المثير للدهشة أن يكون جبل أُحُد محطَّ تبجيل ووقار خاص كونه شهِدَ المعركة الشهيرة التي ساهمتْ إلى حدّ بعيد في تعزيز دين محمّد الجديد وجماعته وتقويتهما. ويعتقد أهلُ «المدينة» أنّه سيُنقل إلى الجنّة في يوم البعث والنشور، وأنَّ الناس سيُجمعون عليه يوم يُعرضون أمام خالقهم، كونه المحطّة المفضّلة[٣]. أما جبل عيرة المذكور أعلاه، والذي يقع إلى الجنوب الغربي من المدينة (تقريباً على المسافة نفسها التي يبعد عنها جبل أُحُد من الجهة الأخرى)، سيشهد في ذلك اليوم مصيراً لا يُحسد عليه كالأوّل؛ فهو قد أنكر الماء على النبيّ الذي أضاع طريقه ذات يوم في أوديته، وراودَهُ الظمأُ، لذا فإنّه سيُعاقبُ على سوء ضيافته وذلك برَمْيِهِ فوراً في جهنّم.

يزور أهل «المدينة» تكراراً جبل أُحُد، فينصبون خيامهم في المنازل المهدَّمة حيث يبقون بضعة أيام، خاصةً منهم الناقهون الذين نذروا في أثناء مرضهم بذبح خروف تكريماً لحمزة، إذا ما

(١) تُروى هذه القصة هنا، بالرغم من أنَّ المؤرِّخين لا يتفقون حول هذا الموضوع.
(٢) يتعمد المؤلف الحاقد ذكر مثل هذه الألفاظ السيئة دائماً.
(٣) هذه افتراءات المؤلف ليس إلاّ.. لأنه لا ينسب ما يدّعيه إلى مصدر موثوق.

تماثلوا للشفاء. ويتوافدُ الناس إلى هنا مرّةً في السنة (في شهر تموز/ يوليو على ما أعتقد) في أفواج وحشود، ويبقون لثلاثة أيام، كما لو كانت تلك أيام عيد النبيّ. ويتمّ حينها فتحُ أسواق اعتياديّة هناك، لأنَّ هذه الزيارة تشكّل أحد مصادر التسلية العامة الأساسية في المدينة.

قَبَاء

يزور الحجّاج كلهم في هذه القرية المجاورة البقعة التي توقَّف عندها النبيّ محمَّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوّلاً عند مجيئه من مكّة. وهي تقع إلى الجنوب من المدينة وتبعد عنها نحو ثلاثة أرباع الساعة. وتمرُّ الطريق المؤدّية إليها عبر سهل تنمو فيه أشجار النخيل بكثرة وتغطّيه الرمال البيضاء في أماكن عديدة. وعلى مسافة نصف ساعة من المدينة تبدأ الحدائق التي تنتشر على مساحة يبلغ محيطها أربعة أو خمسة أميال، وهي تشكل ربما البقعة الأكثر خصوبة ومتعةً في شمالي الحجاز. فتظهر أنواع أشجار الفاكهة كلها (باستثناء التفاح والإجاص التي لا تنمو أيّ منها كما أعتقد في شبه الجزيرة) في الحدائق التي أُحيطت كلّها بالجدران، ويتمّ ريّها عبر آبار عديدة. من هنا تتزوَّد «المدينة» بالفاكهة؛ كالحامض والليمون والرّمان والموز والعنب والخوخ والمشمش؛ وتُزرع أشجار التين وسط أشجار النخيل والنبق، وتشكل بساتين كثيفة كما في سوريا ومصر، في حين تجعل ظلالُها من قَبَاء مقرَّ إقامةٍ مُمتعاً ومُبهجاً؛ كما يكثر الخروع هنا أيضاً. ويزور أهل «المدينة» القريةَ تكراراً، فيتمّ باستمرار تشكيل المجموعات لتمضية النهار، كما يُنقل مرضى كثيرون للتمتُّع والاستفادة من حسنات وفوائد مناخ بارد ومنعش.

يقوم مسجد قَبَاء وسط هذه البساتين، مع نحو ثلاثين أو أربعين منزلاً. وهو مبنى قذر ومتداع، تُزارُ في داخله عدّة أماكن مقدَّسة تؤدى عند كلّ منها صلاةٌ قصيرةٌ من ركعتيْن وتُردَّد تضرُّعاتٌ تكريماً للمكان. وأوّل ما نراهُ هنا هو «مبركُ الناقة»، وهي البقعة نفسها في أرض المسجد التي ربضتْ عليها ناقةُ محمَّد، في رحلته من مكّة، وأَبتْ أن تنهض ثانيةً، فنصحتْ بالتالي سيّدها بالتوقُّف هنا(؟!). وهذا ما فعله لبضعة أيام قبل دخوله «المدينة». وقد بنى محمّد نفسه هذا المسجد لتكريم هذه البقعة وتقديسها[(١)]، بأحجار غير مثبَّتة. وقد تمَّ تغييره في السنة التالية إلى بناءٍ عاديّ من قِبل بني عامر بن عَوْف؛ لكنْ المبنى الحاليّ حديث البناء. وإلى الأمام قليلاً تظهر البقعة التي وقف عليها محمَّد ذات مرّة بعد إنهاء صلواته، ورأى من هناك مكّة بوضوح وكلَّ ما كان يفعله بنو قُريش هناك؛ وثمّ هناك البقعة التي نزل فيها الوحيُ على محمّد

(١) لم يبنِ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد تكريماً وتقديساً للأرض!... بل ليعبد فيه الله سبحانه.

بالسورة القرآنية المتعلّقة بسكّان قباء: ﴿لمسجد أُسّسَ على التقوى من أوّل يومٍ أحَقُّ أن تقومَ فيه، فيه رجالٌ يُحبّونَ أنْ يتطهّروا واللَّه يُحبُّ المطَّهِّرينَ﴾ سورة التوبة/١٠٧.

في هذه الآية، هناك تلميحٌ إلى طهارة أولئك الذين سكنوا قرية قباء، طهارة شخصية مميّزة، وخاصة في بعض أعمال الوضوء.

لم أرَ أيّ نقوش في هذا المسجد باستثناء تلك التي كتبها الحجّاج ليدوّنوا أسماءَهم على الجدران البيضاء اللّون، وهي عادةٌ ينغمس فيها المسافرون الشرقيون تماماً كالسياح الأوروبيّين، فيُضيفون أحياناً إلى الأسماء بعضاً من أبيات الشعراء المفضَّلين أو آيات من القرآن. والمسجد عبارة عن صفّ أعمدة ضيّق حول فناء صغير مكشوف حيث يقع «مبركُ الناقة» الذي تعلوه قبّة صغيرة ترتفع إلى علوّ نحو ستّ أقدام. وقد هاجمتنا مجموعة من المتسوّلين عند خروجنا من المسجد. وبين مجموعة المنازل التي تقع على مسافة قصيرة منه، يقع مسجد صغير يُدعى مسجد عليّ بُنيَ تكريماً لعليّ ابن عمّ النبيّ. بالقرب منه بئر عميقة الغور وسط حديقة، وهي تُدعى «عين الزرقا»، وقد بُني على فتحتها مسجد صغير. لقد كانت هذه البقعة هي المفضّلة لدى محمّد الذي كان يجلس غالباً بين الأشجار مع أتباعه يتمتّعون برؤية الماء يخرج في جدول رائق شفّاف؛ وهو أمرٌ يجذب في الوقت الحاضر بقوة أبناء الشرق؛ ومع إضافة شجرة وارِفةٍ مُظَلِّلة، قد يكون ربما المنظر الطبيعي الوحيد الذي يحبّونه. وقد وقع خاتم النبيّ ذات مرّة في البئر، حين كان يجلس هنا، ولم يتمّ أبداً العثور عليه. ويجعل الافتراضُ بأنَّ الخاتم لا يزال هناك من هذه البئر بئراً شهيرةً. إنَّ المياه فاترةٌ عند منبعها ولها مذاقٌ كبريتيٌّ خفيف تفقده أثناء جريانها. ويتمّ جمعُها مع مياه عدّة ينابيع أخرى في قناةٍ تزوِّد «المدينة» بالماء، وتبقى متدفِّقةً باستمرار بسبب تزويدها بمياه آبار متعدِّدة. وقام عُمر بن الخطاب بادىء ذي بدء بجرّ الينبوع إلى «المدينة»؛ لكنَّ السلطان سليمان بن سليم الأوّل هو الذي بنى القناة الحاليّة نحو سنة ٩٧٣هـ، وهي عبارة عن عمل متين جداً تحت الأرض.

إنَّ هذه القناة إلى جانب قناة مكّة، هي من التحف الهندسية النادرة والعظيمة في الحجاز. وقرب مسجد قَبَاء، يقوم مبنى شيّده السلطان مُراد للدراويش. وخلف القرية بقليل، على الطريق المؤدية إلى «المدينة»، يقع مسجد صغير يُدعىٍ مسجد الجمعة، بُني تكريماً للبقعة التي التقى أهل «المدينة» عليها محمّداً عند وصوله من مكّة.

القِبْلَتَيْن

تتمُّ زيارة مكان يحمل هذا الاسم إلى الشمال الغربي من المدينة، ويبعد مسافة ساعة واحدة عنها. ويُقال أنّه يتألّف من عمودَيْن بسيطيْن (إذ إني لم أرهُ بنفسي)، وهو البقعة التي بدّل

محمّد القِبلةَ عليها[1]، أو الاتجاه الذي يتوجه نحوه المؤمن عند الصلاة، وكان ذلك في الشهر السّابع عشر للهجرة أو لرحلته إلى «المدينة». حتى ذلك الوقت، كان أنصاره، مع البدو اليهود يتّخذون من القدس قِبلةً لهم؛ لكنَّ محمَّداً أدارها الآن باتجاه الكعبة التي يرمز إليها ذلك المقطع الجميل من القرآن: ﴿ولله المشرقَ والمغرب، فأينما تولوا فثمّ وجه الله إن الله واسع عليم﴾، وهي آية أُنزلتْ لتُقنعَ المسلمين بأنَّهم أينما استداروا في صلواتهم، فإنَّ اللَّه يقفُ أمامهم. ويقوم بالقرب من هذا المكان مسجد صغير مهدَّم.

إنَّ الأماكن المذكورةَ أعلاه هي الوحيدة التي يزورها الحجّاجُ. والأراضي الواقعة حول قرية قَباء، وفي الاتجاه الجنوبي الشرقي من المدينة، فيها العديد من الأماكن الجميلة الخلاّبة تماماً مثل قباء، والتي تصبح في فصل الصيف أماكن راحة واستجمام لأهالي «المدينة». غير أني أعتقد أنه ليس هناك أيّ قُرى في أيّ مكان، بل بعض المنازل المنعزلة فقط، أو مجموعات صغيرة من الأبنية المنتشرة بين أشجار النخيل.

(١) الله سبحانه هو الذي بدل القبلة، لا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال تعالى: ﴿فَلَنُولِيَنّك قبلة ترضاها...﴾.

حولَ سُكّان المدينة

إنَّ أهل «المدينة»، كالمكيّن، هم في جزئهم الأكبر من الغرباء، وقد جذبهم إلى هذا المكان قبر النبي والأرباحُ التي يضمنها لجيرانه. والقليل فقط من العرب المتحدِّرين من تلك العائلات التي عاشت في «المدينة» حين أتى محمَّد من مكّة، ما زالوا يعيشون الآن فيها؛ وعلى العكس، فإننا نجد فيها جماعات من المغتربين من كلّ جزء من العالم الإسلاميّ تقريباً، شرقاً وغرباً. وقد أُعلمتُ أنه لم يبقَ من العرب الأصليّين المقيمين، الذين يُطلِقُ الكُتّاب المسلمون عليهم اسم «الأنصار»، والذين كانوا، عند دخول محمّد، يتألّفون بشكل أساسيّ من قبيلتيْ «الأوس والخزرج»، سوى نحو عشر عائلاتٍ ممَّن يستطيعون إثبات نَسْلِهم عبر نَسَبِهم وتاريخهم أو عبر عُرفٍ أكيدٍ ومُثبَت تماماً؛ فهم أناسٌ فقراء يعيشون كفلاحين في الحدائق والضواحي. إنَّ عدد الأشراف المتحدِّرين من الحَسَن، حفيد محمَّد، كبير جداً، لكنَّ أغلبهم ليسوا أصلاً من هذا المكان، إذ إنّ أسلافهم أتوا من مكّة إلى هنا خلال الحروب التي أشعلها الأشراف للسيطرة على تلك المدينة. وهم جميعاً يرقون إلى فئة العلماء، ولا نجد هنا إلاّ القليل من الأشراف العسكريين، كأولئك الذين في مكّة، كما نجد بينهم قبيلة صغيرة من بني حُسين المتحدِّرة من الحُسين أخي الحَسَن. ويُقال أنَّهم كانوا في السابق ذوي سُلطة ونفوذ في «المدينة»، وقد اختصّوا أنفسهم بالجزء الرئيسي من دخل المسجد. ففي القرن الثالث عشر (حسب السمهودي)، كانوا حرّاس قبر النبيّ المتميّزين، لكنّهم تضاءلوا في الوقت الحاضر ليصبحوا نحو اثنتي عشرة عائلة فقط لا تزال تندرج ضمن صفوف النبلاء في المدينة وسكّانها الأوفر ثراءً. وهم يحتلّون حيّاً بأنفسهم ويجنون الأرباح الطائلة، خاصةً من الحجّاج الفُرس الذين يمّرون من هنا. وقد تمَّ الإعلان عالمياً بأنّهم منشقّون عن الدين وينتمون إلى مذهب عليّ الفارسيّ، وبأنّهم يمارسون سِرّاً شعائر تلك العقيدة وطقوسها، بالرغم من أنّهم يُقرّون علانية بعقائد المذهب السُنّي. إن لهذا الرأي من

الشيوع، ومما يلقاه من تأكيد الكثير من الناس المحترمين، ما لا يكاد يجعله عرضة للشك. لكنَّ بني حُسين لهم نفوذ قويّ في المدينة، وهم يتّفقون ظاهرياً مع المبادىء السنّية، وهم لذلك لا يتعرّضون للمضايقة.

ويُقالُ عامةً أنّ البقيّة الباقية من الأنصار والأعداد الكبيرة من الفلاحين العرب، الذين يزرعون الحدائق والحقول في المناطق المجاورة للمدينة، يؤمنون بالبِدعة نفسها. ويُدعى أولئك العرب «نواخِله» (وهو اسمٌ يدلُّ على أنّهم يعيشون بين أشجار النخيل)، وهم كُثُر ومولعون جداً بالحرب. وقد أبَدَوا مقاومةً عنيفةً أمام الوهابييّن، ولطالما أثبتوا في الصراعات المدنيّة أنهم متفوّقون على أهل المدن. ويُقال أنّهم متحدِّرون من أتباع يزيد بن معاوية الذي استولى على المدينة وسلَبها بعد ستّين عاماً من الهجرة. وهم لا يتزاوجون إلاّ مع بعضهم بعضاً، ويُظهرون في كلِّ مناسبة روحاً تضامنية عظيمة. ويتبع العديد منهم عقيدة عليّ حين يكونون في بساتين نخيلهم، لكنّهم يصبحون سُنّيين كلّما أتوا إلى المدينة. وقد استقرَّ بعضُهم في الضواحي واحتكروا مهنة الجِزارة. وفي أثناء الشجارات التي كانت تقع، سمعتُ أشخاصاً منهم يُسمُّونَ علناً بالرّوافض أو المتشيّعين دون أن ينكروا ذلك أبداً. في الصحراء الشرقية وعلى مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من «المدينة»، تعيش قبيلة بدويّة كاملة تُدعى قبيلة بني عليّ، وهي تنتمي كلّها إلى هذه العقيدة الفارسية[1]. وإنّه لِمَنَ المدهش أن نجد البقعتين الأكثر قدسيّة في الدين الإسلاميّ السنيّ، مُحاطتين، إحداهما من الموالين ليزيد والأخرى من الموالين لعليّ، دون القيام بأيّ محاولةٍ لإزاحتهم وطردهم.

وهناك كذلك، من بين العائلات القديمة في «المدينة»، بعض المتحدّرين من العبّاسييّن، وهم الآن يرزحون تحت ثقل الفقر المدقع، وهم يُدعون «خليفية» للدلالة على تحدُّرهم من نسل الخلفاء.

إنَّ معظم السكان هم من أصل أجنبيّ ويشكّلون عنصراً أو عرقاً متنافراً متعدِّد الألوان كسكّان مكّة. فلا تمضي سنة واحدة دون أن يُضافَ إلى عددهم وافدون جُدد. ولا تجتاز أيّ قافلة حجّ «المدينة» دون أن تخلِّف وراءَها بعض المسافرين الذين يتوقفون في بادىء الأمر لنيّة البقاء لسنة أو سنتيْن فقط، لكنّهم يستمرّون عامّة في الإقامة هنا نهائياً. إنَّ المتحدِّرين من شمال تركيا عديدون جداً، لكنَّ الجزء الأكبر منهم يعود أصلُهم إلى المستوطنين في البلاد الجنوبيّة في شبه الجزيرة واليمن وحضرموت، ومن سوريا ومصر، وعديدون كذلك من بلاد المغرب. وكان

(١) يقصد: «الشيعية».

دليلي يدُعى «سعد الدين الكُردي» لأنَّ جدَّهُ كان كردياً استوطن هنا. وكان اسم مالك المنزل الذي كنتُ أسكنُ فيه «سيد عُمر»، وهو شريف من قبيلة اليافعي في اليمن، وقد أتى أسلافُه إلى هنا منذ عدّة مئاتٍ من السنين. ونجد أيضاً الهنود إلاّ أنَّ عددهم أقلُّ منه في مكّة. فهمُ بائعو أدوية ومدبرو متاجر ثانويّون، لكنني أعتقد أنه لا يوجد في «المدينة» تجار جُملة من الهنود الذين يبيعون سلعهم الوطنية. وهم يلتزمون بزيُهم وعاداتهم الوطنية فيشكّلون جاليةٍ صغيرة، وهم نادراً ما يتزاوجون أو يختلطون مع السكّان الآخرين.

إنَّ الأشخاص من الأمم المختلفة المستقرّة هنا، في الجيل الثاني والثالث منهم، كلهم قد أصبحوا عرباً، فيما يتعلّق بالطّبع والسّمات. غير أنّهم مع ذلك، يتميّزون عن المكيّين، فهم ليسوا ذوي بشرةٍ داكنة كأهل مكّة، فيشكّلون بالتالي صِلَةَ وصل متوسّطة بين أهل الحجاز وأهل شمال سوريا. فقَسَماتُهم أكثر وضوحاً بعض الشيء ولحيتهم أشدّ كثافةً وأجسادهم أشدّ صلابةً وقوّةً من المكيّين؛ لكنّ الوجه العربيّ والملامح وبروز القسمات هي نفسها في الجهتيْن.

ويشبه المدينيّون الأتراكَ في زيِّهم أكثر مما يشبهون جيرانهم الجنوبييّن. فقليل منهم يرتدون البَدَن أو العباءة العربيّة الوطنية التي بلا أكمام. لكن حتى الناس الأكثر فقراً يرتدون العباءات الطويلة مع جُبّة أو عباءة فوقية، أو عوضاً عنها، عباءة من القماش المخطَّط بالأبيض والبُنيّ كما هو شائع في سوريا وفي أنحاء الصحراء كلها. كما تُستعمل القلنسوات التونسيّة الحمراء والأحذية التركية هنا أكثر منها في مكّة حيث ترتدي الطبقات الدنيا قلنسوات بيضاء اللّون وصنادل في الرجلين. والميسورون من الناس يتأنقون في لباسهم فيضعون الجبّة ذات القماش الفاخر والعباءات الجميلة، وفي الشتاء يرتدون المعاطف الأنيقة الآتية من القسطنطينية من طريق القاهرة؛ وهي سلعة من الثياب شائعة جداً في شهري كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير، وهو موسمٌ أشدُّ برودةً هنا ممّا يتوقّعه الأوروبيّون في الصحاري العربية. وبشكل عام، بإمكاننا القول بأنّ المدينيّين يتأنّقون في الملبس بشكل أفضل من المكيّين رغم أنّهم أقلّ نظافةً. لكننا لا نرى أيّ زيّ وطنيّ هنا، وخاصة في فصل الشتاء البارد حين تقوم الطبقات الدنيا بلفِّ أجسادهم وتغطيتها بأيّ ثوبٍ يستطيعون شراءه بسعر منخفض في المزادات العلنيّة؛ بحيث أنّه من السائِد جداً رؤية رجلٍ وقد ارتدى ثياب ثلاثة أو أربعة بلدان مختلفة، فيكون بالتالي كعربيّ إلى حدِّ خصره، وكجنديّ تركيّ عند صدره وكتفيه. ويقدّم الناس الأوفر ثراءً عرضاً رائعاً للثياب ويتنافسون مع بعضهم بعضاً في الحُليّ الفاخرة. وقد رأيتُ هنا الثياب الجديدة أكثر ممّا رأيتُ في أيّ جزء آخر من الشرق، حتى بعد انتهاء الأعياد السنويّة. وكما هي الحالُ في مكّة، لا يضع الأشراف اللّون الأخضر إنما العمامات البسيطة من الموسلين الأبيض، باستثناء أولئك القادمين من الجزء الشمالي من تركيا الذين استوطنوا هنا حديثاً، وهم لا يزالون يضعون شارةَ نسبهم النبيل.

قبل الاحتلال الوهابيّ، حين كان السكّان يخوضون شجارات دمويّة كانت تنشبُ بين بعضهم بعضاً، كانوا يتسلّحون دائماً بالجنبية، أو الخنجر العربيّ المعقوف، لكننا حالياً لا نرى إلاّ القليل من تلك الخناجر؛ بينما أنَّ كلّ شخص، من أعلى مرتبة إلى أسفلها، يحمل في يده عصا طويلة ثقيلة. فالثريُّ قد تُوِّجتْ عصاه بالفضّة، ويثبِّتُ آخرون رزّةً أو مسماراً حديدياً ضخماً عليها، فيجعلون منها بالتالي سلاحاً رائعاً يحمله العرب ببراعة وحذق. وكما هي الحال في مكّة، تتزيَّا النساء بعباءات زرقاء اللّون ترتديها الطبقاتُ الدنيا، ومِلاياتٍ حريريّة ترتديها الطبقات الثريّة.

ويستعمل البدو المستوطنون في الضواحي وبالقرب منها، الزيَّ نفسه تماماً كبدو الصحراء السورية؛ وهو يتألّف من قميص وعباءة وقلنسوة على الرأس وحزامٍ جلديٍّ يُعلّق عليه الخنجر وصنادل في الرجليْن. وحتى أولئك الذين أصبحوا مستوطنين، يشكّلون عِرقاً متميّزاً فلا يختلطون مع باقي أهل المدن ويحتفظون بزيّهم الوطني ولغتهم وعاداتهم ويعيشون في منازلهم كما يفعلون تحت الخيم في الصحراء. وقد يُعتبر بدو شبه الجزيرة، من بين الأمم والشعوب الشرقيّة كلها، أنّهم لا يتخلّون عن عاداتهم الوطنية إلاّ بعد ممانعةٍ ومقاومة عظيمة. ففي مصر وسوريا والحجاز، نرى المستوطنات التي أصبح أفرادها مزارعين منذ عدّة قرونٍ خلَتْ؛ غير أنَّهم لم يتبنَّوا سوى القليل من عادات الفلاحين، ولا يزالون يتافخرون بأصلهم البدويّ وأساليب حياتهم ويتباهون بها.

ليس للمدينتيِن الوسائلِ نفسها لكسب الرزق كالمكتيِن. فعلى الرغم من أنَّ هذه المدينة لا تخلو أبداً مِن الحجّاجِ الأجانب، لكن ليس هناك أبداً ذلك الدفق الهائل من الحجّاج الذي يجعل من مكة مكتظّة لعدّة أشهر في السنة، ويحوّلها إلى سوق لكلّ أنحاء الشرق. ونادراً ما يكون الحجّاج الذين يأتون إلى «المدينة» تجاراً؛ أو على الأقلّ، فهم لا يذهبون إلى هناك لأهداف تجارية، لذلك فهم يتركون أمتعتهم الثقيلة على الساحل. وحتى التجار السوريون الذين يمرّون مع القافلة الكبيرة نادراً ما يمارسون التجارة إلاّ فيما يتعلّق ببعض حمولات الجِمال من التبغ والفاكهة المجفَّفة. لذلك، فإنَّ تجارة «المدينة» لا تكاد تتعلّق إلاّ بالاستهلاك المنزليّ وبتزويد بدو الجوار بالثياب والمؤن. وتأتي هذه السلع من طريق يَنبع وتكون حصرياً «تقريباً» من مصر. وليس هناك أيّ من التجار الكبار المستوطنين في «المدينة»؛ حيث إنَّ التجارة فيها هي مجرد تجارة تجزئة؛ كما أن أصحاب رؤوس الأموال يستثمرون عامةً في السلع كما هي العادة في سوريا ومصر، لأنه ليس هناك أيّ مؤسّسات عامة كالبنوك والشركات التجارية أو الاعتمادات المالية الوطنية التي يمكن أن يجني منها الرأسماليّ الفائدة على أمواله. ويمنع القانون التركيّ بشدّة أخذ الفائدة، وحتى إنْ لم يكن الأمرُ كذلك، فليس هناك أيّ حكومةٍ أو أيّ فئة من الرجال الذين

يأتمنهم الناس على مبالغ ضخمة. كما أنَّ استثمار رأس المال في الأراضي هو كذلك عرضة للكثير من المجازفة[١]. والطريقة المعتادة هي الدخول في شراكةٍ مع تجار صغار مختلفين، أو تجار تجزئة، والحصول على نصيب من أرباحهم. لكنَّ ذلك قد يكون مبعثاً للقلق كالتجارة الناشطة، وذلك بسبب الحاجة إلى الحفاظ على محاسبة دائمة مع الشركاء ومراقبتهم باستمرار. وتتمُّ ممارسةُ الرِّبا، ويُدفع لأجل المال في القاهرة سنوياً فائدة تتراوحُ بين ثلاثين إلى خمسين في المئة؛ لكنَّ القليل من التجار الأتراك يمارسون هذا العمل الذي لا يُعتبر مُشرِّفاً. ويسيطر اليهود كلّياً على عمل الرِّبا إلى جانب المسيحيّين الذين نبذتهم أوروبا. وقد لا يكون هناك في الوضع الحالي البائس الذي يعاني منه المجتمع الشرقي ما له الأثر المهلِك على نفوس الناس وسعادتهم أكثر من ضرورة الاستمرار طوال حياتهم في ممارسة أعمال مليئة بالمكايد وتقلبات الحظّ. إنَّ الآمال المفرحة التي تبعث الحماس والحركة في الأوروبيّ في إمكانية التمتّع في سنّ الشيخوخة بأرباح جهوده السابقة مجهولة عند أبناء الشرق الذين لا يجلب لهم تقاعدهم سوى الخطر، إذ إنه يجعل منهم أثرياء في نظر حاكمهم الجشع. إنَّ التأثير المضاعَف للحكومة التركيّة والدين الإسلاميّ، قد أنتج نفاقاً ورياءً عاماً، إلى درجة أننا نادراً ما نرى مُسلماً (الذي يعطي مظهره الهادىء وهو يدخّن غليونه ممدَّداً على الأريكة، فكرةً عن الشعور بالرِّضا التام والسكينة) لا يعاني من وطأة عذاب الشعور بالحسد أو الجشع الذي لم يُشبَع أو الطموح، أو الخوف من فقدان أملاكه التي كسبها بطريقة غير مشروعة.

إنَّ الرحالة الذين يمرّون بسرعة عبر الشرق، دون أن يُتقنوا اللّغة، ونادراً ما يختلطون مع أحدٍ من الناس إلاّ الأشخاص المهتّمين بتقديم فكرةٍ غير صحيحة عن طبعهم الحقيقي، إنما ينخدعون دوماً بالسلوك الجليل للأتراك وسمتهم المترفع وخطاباتهم المهيبة الوقورة؛ رغم أن هؤلاء الرحالة قد يسخرون من فرنسيّ يدعي معرفته الجيّدة بالطبع الإنكليزي ومزاجه وأعرافه، وذلك بعد

(١) بموجب القرار الذي أصدره محمد علي سنة ١٨١٣، أصبح شراء الأراضي في مصر أمراً لا يمكن ممارسته، إذ إنه يضطر كل مُلتَزم (أو أصحاب الأراضي الذين لهم حصّة في أملاك القرى والأراضي، والذين كانوا يشكّلون طبقة تعيش من دخلهم في مدن الريف) بأن يتلقى دخله السنوي من خزينة الباشا حيث كانوا يعانون من كل أنواع الإذلال والظلم؛ وقد أُعلنت الأراضي كلها ملكاً للحكومة، أو بتعبير آخر، ملكاً لمحمد علي نفسه الذي يترك مهمة زراعتها للفلاحين بشروطه الخاصة. وقد حدث مؤخراً أن الفلاحين الذين كانوا يزرعون خمسة آلاف أكْرة من الأراضي التي تخصّ قرية دمنهور قرب القاهرة، قد حُرموا من إيجاراتهم بعد أنْ أُعلنت الأراضي ملكاً عاماً، لأن الباشا كان يرغب في زراعة البرسيم لخيّالته في الأرض التي كان يملكها الفلاحون. وقد عانت كذلك الأملاك التي تتعلّق بالأراضي في سوريا من الكثير من المشاكل. حيث كان المالك يتعرّض للقمع من حاكم كل مقاطعة ومن كل جندي يمرّ بأراضيه، كما كان يعاني في إيصالاته من ابتزاز الباشا الذي يقع عامة على رأس المزارع بثقل أكبر مما يقع على رأس الرجل الثريّ؛ وكان إذا لم يراقب باستمرار فلاّحيه، يتعرض حتماً للغش في أرباحه.

إقامته لبضعة أشهر في إنكلترا دون أن يُتقن اللّغة الإنكليزيّة؛ مع أن من الأسهل على فرنسيّ الحُكم على أمّة وشعب أوروبيّ مجاور، أكثر من أوروبيّ يحاول الحكم على أمُم شرقيّة تختلف أفكارها وعاداتها ومفاهيمها أشدَّ الاختلاف مع أفكاره وعاداته ومفاهيمه. أمّا فيما يتعلّق بي، فإنَّ إقامتي المطوَّلة بين الأتراك والسوريّين والمصريّين تسمحُ لي بالتصريح بأنَّهم يفتقرون تماماً للفضيلة والشرف والعدالة[1]، وبأنهم لا يملكون إلاّ قليلاً من التقوى الفعليّة، وأقلّ منها من الإحسان والتسامح، وبأننا لا نجد الأمانة والاستقامة إلاّ في مغفَّليهم وفقرائهم. وكاليونانيّين القدماء، فقد يعلم تركيٌّ موضع الصواب والعمل المأجور المثاب، لكنّه يترك القيام به للآخرين؛ بالرغم من أنّه يسعى جاهداً لإقناع نفسه وهو يتلفَّظ بالحِكَم الجميلة بأنَّه يتصرَّف بما تُمليه عليه. وهكذا، فإنَّه يظنُّ نفسه مسلماً صالحاً لأنه لا يغفل تأدية بعض الصلوات وإتمام الوضوء، ولأنه يلتمسُ دائماً وتكراراً مغفرة اللّه.

يُمارس العديد من الأشخاص في «المدينة» المعاملات التجارية الصغيرة التي تختصّ بالمؤن بشكل أساسيّ، وهي نادراً ما تكون منتظمة ممّا يتسبَّب في تقلُّب أسعار المؤن باستمرار. إنَّ العاقبة الوخيمة لذلك هي أنَّ تجار الحنطة الأثرياء ينجحون أحياناً في الاحتكار، بحيث لا تبقى حبّة واحدة في غير مخازنهم بعد أن يضطر التجار الصِّغار إلى البيع. وكلَّما تأخّرت القوافل بالوصول لوقت طويل، ارتفع سعر الحنطة بشكلٍ هائل؛ وبما أنَّ زعماء المدينة مستفيدون من ذلك، فلا يمكن افتراض أيّ احتمالٍ بتدخّل الحكّام.

إلى جانب تجارة المؤن مع بدو الجوار، وهي التجارة الأكثر أهميّةً، فهم يزوِّدون المدينة بالزبدة والعسل (عنصر مهمّ وأساسي في المطبخ في الحجاز) والغنم والفحم النباتيّ. ويتقاضون بدلاً منها الحنطة والثياب. كما يتّسم وصولهم إلى «المدينة» بعدم الانتظام. وإذا ما حدث أن اندلعت حربٌ بين قبيلتين، تبقى المدينة لمدّة شهر تحت رحمة بعض التجار الأغنياء الكبار الذين يصادف أن تكون هناك كميّة متوفّرة من تلك السلع في مخازنهم. حين وصلتُ إلى «المدينة»، لم تكن الزبدة متوفّرةً في السوق، وكانت الحنطة نادرةً أكثر منها في يَنْبع بنسبة خمسين في المئة. وما لبث أن اختفتْ كلّياً من السوق. وفي وقت آخر، شحَّ الملح ثم انقطع، وحدث الأمر نفسه للفحم النباتي. وبشكل عام، فإنَّ سوق المؤن كانت سيئة التنظيم. في مدن شرقية أخرى، كما في مكّة وجدّة. هناك موظفٌ حكوميّ يُسمى «المحتسِب» يُعنى بمراقبة بيع المؤن ليحرص

(١) هذا حكم مَن لا يمتلك مثل هذه القيم؛ كالمستعمرين الذين بعثوا بطلائعه إلى بلادنا من أمثال المؤلف قبل أن يأتوا هم محتلّين.

على ألاّ ترتفع أسعارها إلى حدّ مُفرِط فيُحدِّد لتجار المؤن سقفاً للأسعار بحيث يجنون ربحاً عادلاً وغير باهظ. لكنّ الحال ليست كذلك في «المدينة»، لأنّ «المحتسب» هناك لا يتمتّع بأيّ نفوذ أو سُلطة؛ فتُباع الحنطة في جزء من «المدينة» بسعر أعلى بنسبة عشرين في المئة منه في جزء آخر. وهكذا هي الحال بالنسبة إلى كلّ سلعة أخرى، بحيث يصبح الأجانب غير المطّلعين على أساليب هذا المكان ووضعه في نقصٍ ماديّ. خلال إقامتي، كان الاتصال بيَنْبع يتمّ من خلال قافلة تتألّف من مئة وخمسين جملاً تصل إلى «المدينة» كلّ أسبوعين؛ ومن خلال مجموعات صغيرة من البدو التجار الذين يصلون كلّ خمسة أو ستّة أيام مع خمسة إلى عشرة جِمال. وكان الجزء الأكبر من الحمولات مخصَّصاً لجيش طوسون باشا، والباقي عبارة عن سلع ومؤن، لكنّ تلك الأخيرة لم تكن ملائمة لحاجات «المدينة» ومتكيِّفةً معها. وقد سمعتُ من شخص واسع الاطّلاع أنّ الاستهلاك اليوميّ في «المدينة» كان يتراوح من ثلاثين إلى أربعين أردباً، أو من خمس وعشرين إلى خمس وثلاثين من حمولات جِمال الحجاز. ويُقال أنّ محصول الحقول التي تحيط بالمدينة لا يكاد يكفي لاستهلاك أربعة أشهر؛ ويجب لما تبقّى من السنة الاعتماد على يَنْبع أو على الواردات من مصر. كان كلّ ذلك متوفّراً بكثرة في زمن السلم؛ لكن مؤخراً، ومنذ أن تمركز الجيش التركي هناك، يخشى البدو على جِمالهم من الأتراك، ممّا أدّى إلى انخفاض التزوّد بالمؤن إلى ما دون حاجات المدينة بكثير. وقد استاءَ السكّان كثيراً من ذلك وقاموا بتخفيض استهلاكهم من الحنطة واستنفدوا آخر كميّة من مخزونهم. وقام طوسون باشا بالاستيلاء بتهوُّرٍ على عددٍ كبير من جِمال البدو وأرغمهم على مرافقة جيشه الذي أرعبهم إلى حدّ أنهم خشَوا من المجاعة قبل وصول محمّد علي، بسبب الحاجة إلى الحيوانات التي تُستعمل للنقل والنقص فيها. وسعى الباشا إلى استعادة الثقة، فبدأ بعض البدو بالعودة مع جِمالهم. تصل قوافل الحنطة في زمن السلم من نجد كذلك، وخاصة من تلك المقاطعة التي تُدعى القصيم؛ لكنّ تلك كلّها انقطعت عن الوصول بالكامِل. وقد أُعلمتُ أنّ تجارة نقل المؤن من يَنْبع قد أوقفت لعدّة سنوات بعد غزو الوهابيّين «للمدينة»، الذين رغب زعيمهم سعود في إعطاء الأفضليّة إلى أتباعه الخاصّين في نجد؛ وأنّ «المدينة» في ذلك الوقت كانت تأتي بزادِها كلّه من نجد ومن حقولها الخاصة. وباتت المؤن الآن نادرة جداً، حيث كانت الطبقات الدنيا تعيش كلّياً تقريباً على التمر وحده وخبز الشعير الرديء؛ وكان القليل منهم قادرين على شراء بعض الزبدة، والأقلّ منهم بعض اللّحم. وقد أَغْرتهمُ فاكهة اللّوطس أو النبق التي تنضج في شهر آذار/ مارس، في ترك التمر لتصبح تقريباً غذاءهم الوحيد لعدّة أشهر؛ فكانت تُشاهد كوماتٌ كبيرة منها في السوق وكان بإمكان الشخص الحصول على ما يكفي لإشباعه لقاء ما يشتريه بِنسٍّ واحدٍ من الحنطة التي كانت تؤخذ كفرق عملة بدل المال، ويقبلها البدو الذين كانوا يأتون

بالفاكهة إلى المدينة. أما الخضراوات المزروعة في الحدائق، فكانت مخصَّصة للأجانب بشكل أساسيّ، ولها مذاقٌ عاديٌّ جداً. وكان العرب يكرهونها، فلا يأكلها إلاّ أولئك الذين اعتادوا تذوّقها في البلدان الأجنبية. إنَّ البصل الطازج والكرّاث والثوم هي الخضراوات الوحيدة التي يحبُّها العرب.

إنَّ المادة الأولى من الطعام في «المدينة»، كما سبق أن ذكرتُ، هي التمر. فخلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة من قطافه (لأنَّ هذه الفاكهة لا تنضج كلّها في الوقت نفسه لأنّ لكل صنف من الأصناف موسمه الخاص)، من شهر تموز/يوليو إلى شهر أيلول/ سبتمبر، لا تتغذّى الطبقات الدنيا على أيّ شيء آخر؛ وخلال ما تبقى من السنة، يستمرُّ التمر المجفَّف في كونه غذاءهم الأساسيّ. ولقطاف التمر هنا الأهميّة نفسها التي يتمتّع بها القمح في أوروبا، ويسبِّب فشله الإحباط الكبير. «ما هو سعر التمر في مكّة أو «المدينة»؟»، هو السؤال الأوّل الذي يطرحه البدويّ الذي يلتقي بمارّ على الطريق. ويأتي من ذلك التمر جزءٌ كبير إلى «المدينة» من المناطق البعيدة وخاصةً من «الفرع» وهو وادٍ خصب تملكه قبيلة بني عامر، حيث هناك العديد من بساتين النخيل، وهو يبعد مسافة ثلاثة أو أربعة أيام عن «المدينة»؛ ومن «رابغ» في الجبال. ويأتي التمر من هناك في سِلالٍ كبيرة حيث يُكبسُ ويُضغَطُ سوياً في عجينة كما سبق أن ذكرت.

على الرغم من أنَّ المعاملات التجارية عامّة وشاملة، فإنَّ القليل من السّكان يمارسونها ظاهرياً. فأغلب الناس هم إمّا مزارعون، أو من الطبقات العليا من الملاّكين أو من خدّام المسجد. إنَّ امتلاك الحقول والحدائق أمرٌ مرغوبٌ جداً، فأن يكون أحدُهم مالكَ أرض هو أمرٌ مُشرِّف، كما أنَّ ريْعَ الحقول مهمٌ جداً إذا كان موسم التمر جيّداً. وإذا ما كان عليّ الحُكم من خلال الحادثتين اللّتين نُقلتا إليّ، فإنّ الحقول تُباعُ بمعدَّلٍ يتركُ للمالك في السنوات العادية دخلاً بنسبة اثني عشر إلى ستَّة عشر في المئة فوق رأس ماله؛ وذلك بعد أن يتركَ نصف المحصول للمزارعين الفعليّين، كما هي العادة عامةً. غير أنه قد تمَّ تقدير ربحهم في السنة الماضية بأربعين في المئة. ولا تستطيع الطبقات المتوسّطة استثمار رأس مالها الصغير في الحدائق لأنّه غير مجد بالنسبة إليهم، فإنَّ ستّة عشر أو عشرين في المئة تكون نسبة غير كافية من الرّبح؛ كما أنَّ أيَّ شخص في الحجاز يتاجر بأموال بسيطة لا يرضى بأقلّ من خمسين في المئة سنوياً. وبشكل عام، فهم يجدون وسيلةً لمضاعفة رأس مالهم من خلال غشّ الأجانب. وأولئك هم فقط مالكو الأراضي الذين جمعوا ثروةً كبيرة عبر التجارة أو عبر دخلهم من المسجد ومن الحجّاج.

يأتي الدّعم الأساسيُ «للمدينة» من المسجد والحجّاج. لقد سبق أن ذكرتُ الفرّاشين أو خدّام المسجد وأرباحهم؛ وإليهم يجب أن نضيفَ عدداً كبيراً من الأشخاص المرتبطين

بالمسجد، وتقوم وظائفهم على عدم القيام بشيء، وهم يشاركون في دخل الحرم؛ إلى جانب سلسلة كبيرة من الأدلاء أو المزوِّرين، وكلُّ مالك منزل تقريباً، الذي يؤجّر شققاً إلى الحجّاج. وفضلاً عن الحصّة في دخل المسجد فِللْخَدمِ من كلّ طبقة صُرَّة أو راتب دائم يأتي من القسطنطينية والقاهرة؛ كما يتلقى كذلك السكان كلهم هدايا سنوية مماثلة، يُطلق عليها أيضاً اسم «الصُرَّة». وصحيحٌ أنّ هذه الرواتب لا توزَّع دائماً بانتظام؛ وقد حُرم منها الآن العديد من الطبقات الشديدة الفقر التي خُصِّصت تلك الرواتب لها أساساً. غير أنَّ المبالغ تصلُ إلى «المدينة» ويتمُّ تداولُها[1]. وهكذا يَعيش العديد من العائلات كلّياً على الصرّة وتتلقّى ما بين مئة ومئتي جنيه استرليني في السنة، من غير أن تقوم بأيّ واجبٍ كان. ويقول المدينيّون إنّه دون تلك «الصُرّة»، ما تلبثُ المدينة أن تُتركَ للملاّكين والمزارعين؛ وإنَّ هذا الاعتبار كان بالتأكيد الباعث الأساسيّ لاستقرارهم هناك، كما في الأوقاف العديدة أو المؤسَّسات الدينية التي أُرفقتْ بالمدن أو المساجد في أنحاء الأمبراطورية التركية كلها. في الوقت الحاضر، يُساءُ استعمال الصُرَّة التي تساهم فقط في إطعام مجموعة من الأشخاص الكسالى المتعطِّلين، في حين يُترَكُ الفقراء محرومين مُعدَمين، ولا يتمّ أيّ تشجيع أو تعزيز للصناعة. أما بالنسبة إلى غياب الصناعة، فإنَّ «المدينة» لا تزالُ أكثر لفتاً للانتباه من مكّة، فهي بحاجة حتى لأكثر الحِرَفيّين ضرورةً؛ والقليلون ممن يعيشون هنا هم من الأجانب ويستقرون هنا لفترة معيَّنة. وهناك منجّدٌ واحدٌ للأثاث لا غير وصانع أقفال واحد فقط في المدينة؛ أما النجّارون والبنّاؤون فنادرون جداً، بحيث إنَّ عليهم المجيء من يُنبع لتصليح منزل. وكلّما احتاج المسجد إلى عمّال، يتمّ إرسالهم من القاهرة أو حتى من القسطنطينية كما كانت الحال خلال إقامتي حين كان بنّاءٌ معلّمٌ من القسطنطينية منشغلاً في إصلاح سقف البناء. وتزوِّدُ مصر «المدينة» بحاجاتها كلها نزولاً إلى أتفه الأغراض والسلع؛ وحين كنتُ هنا، لم تكن تُصنع حتى جرار المياه الفخاريّة. منذ بضع سنوات، أسَّس أحد أبناء دمشق صناعةً لهذه السلعة الضروريّة جداً، لكنّه غادر المدينة فباتَ السكّان مرغمين على الشرب من الجِرار نصف المكسورة المتبقيّة، أو على استيراد غيرها من مكّة بكلفة عالية. وليس هناك صباغٌ أو صناعاتٌ صوفيّة ولا نسيج على النّول أو دباغة، ولا أعمال جلدية أو حديديّة من أيّ نوعٍ؛ وحتى المسامير وحوافر الأحصنة كانت تأتي من مصر ويَنْبع. في معرض حديثي عن مكّة، عزوتُ المقتَ والكره العام الشديد الذي يُظهره أهل الحجاز للصناعات اليدويّة، إلى كَسَلهم وتراخيهم وكرههم لكلّ الأعمال اليدويّة. لكنَّ الملاحظة

(١) بعد أن قام قائد بك، سلطان مصر، بإعادة بناء المسجد سنة ٨٨١هـ، خصَّصَ دخلاً سنوياً يبلغ سبعة آلاف وخمسمئة أردب لسكّان المدينة، يتمّ إرساله من مصر؛ وخصَّصهم السلطان سليمان بن سليم دخلاً قدره خمسة آلاف أردب. (راجع قطب الدين والسمهودي).

نفسها لا تنطبق على «المدينة» حيث إنَّ المزارعين والبستانيين، على الرغم من عدم كونهم شديدي الاجتهاد في تحسين وضع أراضيهم، غير أنَّهم عمّال نشيطون جداً، وبإمكانهم حمل أنفسهم على القيام بأعمال في المدينة دون القيام بجهد جسديّ أكبر من الذي يبذلونه في حقولهم. وإني أميل إلى الاعتقاد بأنَّ الحاجة إلى الحِرَفيّين هنا يجب أن نعزوها إلى قلّة التقدير والاحترام التي يُكنها العرب لتلك المهن، والذين غالباً ما تبدو كرامتُهم وعزّة نفسهم أكبر بكثير من جشعهم وطمعهم، ممّا يمنع الوالد من تعليم ابنه أيّ صنعة. ولربّما كانوا قد ورثوا هذا الكُره من السكّان القدماء، البدو، الذين ينبذون من قبائِلهم إلى اليوم، كما سبق أن ذكرت، الحرفيّين كلهم ويعتبرون أولئك الذين يستوطنون منهم في مضاربهم من طبقة أدنى، فلا يتزاملون معهم ولا يتزوّجون منهم أبداً. ويُنظر إليهم بطريقة مختلفة في أجزاء أخرى من الشرق، في سوريا ومصر، حيث تتمتّع نقاباتُ الحرفيّين بالتقدير والاحترام نفسه تقريباً والتي كانت في فرنسا وألمانيا خلال العصور الوسطى، بحيث تُعادل منزلةُ معلّم حِرَفيّ منزلةَ تاجرٍ من الطبقة الثانية، وبإمكانه التزاوج مع العائلات المحترمة في المدينة، وهو عادة رجل ذو نفوذٍ في حيِّهِ أكثر من تاجر يملك ثروة تفوق ثروته بثلاث مرّات. وقد سعى الخلفاء الأتراك الأُوَل باذلين كلَّ ما في وسعهم لدعم الصناعة والفنون وتعزيزهما. وكانت تلك الصناعة لا تزال مزدهرةً في سوريا ومصر منذ خمسين سنة خلَتْ، لكنَّها بدأت بالانحسار في سوريا، باستثناء دمشق ربما؛ وفي مصر انخفضت إلى أدنى مستوى. فبينما كان محمّد علي يجذب العمّال الإنكليز والإيطاليّين للعمل في خدمته وعلى حسابه الخاص، من غير أن يزدهر عمل أيّ منهم، فإنه كان يقوم بقمع الصناعة الوطنية، وذلك عبر احتكار سلعها، وعبر استخدامه القسم الأكبر من العمّال بأجر يوميّ أقل بثلاثين في المئة ممّا يجب أن يتقاضوه لو سُمح لهم بالعمل على حسابهم الخاص أو على حساب أشخاص آخرين.

إنَّ الصناعيين الوحيدين الذين نجدهم في «المدينة» هم الحجّاج الفقراء المعدَمون، خاصة أولئك القادمين من سوريا وهم كُثُر، يسعون عبر العمل الجاهد خلال بضعة أشهر لكسب المال الكافي لتأمين نفقات رحلتهم إلى الديار. وهم يعملون فقط في فتراتٍ متقطّعة، وتصبح المدينة عند رحليهم ولفترة طويلة دون أيّ حرفيّين. وبينما كنتُ مقيماً في «المدينة»، لم يكن هناك سوى رجل واحد يغسل الشراشف والمفارش؛ وحين رحل، أُجبر الحجّاج الأجانب كلّهم على القيام بذلك بأنفسهم، لأنَّ النساء العربيّات نادراً ما يتنازلْنَ للقيام بمثل هذه الوظيفة. في ظلّ هذه الظروف، ليس باستطاعة مسافر ما أن يتوقّع العثور على وسائل الراحة الأكثر بدائية هنا، وليس في مقدور المال حتى أن يُلبيّ حاجاته. غير أنَّ هناك طبقة واحدة من الرجال هنا، والذين أشرتُ إليهم في وصف مكّة، ممَّن يسعون لأن يكونوا مفيدين في «المدينة» كذلك، وبالدرجة

نفسها. أعني بهم الحجّاج الزنوج القادمين من السودان. والقليل من الزنوج، يأتون إلى مكّة دون أن يقوموا كذلك بزيارة «المدينة» وهي مدينة أكثر تبجيلاً وتوقيراً في نظرهم من مكّة حيث يحمل المذهب المالكيّ الذي ينتمون إليه احتراماً لمحمّد يفوق أيّاً من المذاهب الثلاثة الأخرى. ويمكن القول إنّ الزنوج، غير المتعلمين جداً كما هم عادةً، يكادون يعبدون النبيّ، فيضعونه في منزلةٍ، إنْ لم تكن كمنزلة الخالق نفسها، فهي على الأقلّ أدنى بقليل منها. وهم يقتربون من قبره بضمير يملأه الرعب والخوف، وبمشاعر عميقة وقويّة أكثر من تلك التي يُظهرونها حين يزورون الكعبة. وهم مقتنعون تماماً بأنّ الصلوات التي يردّدونها وهم واقفون أمام نافذة «الحجرة» ستبلغُ مُرادَها عاجلاً أم آجلاً. وقد سألني حاجٌ زنجيٌّ ذات مرّة، بعد محادثة قصيرة معه في المسجد، عن الصلوات الواجب أداؤها لجعل محمّد يظهر له في منامه لأنه يرغب في طرح سؤال معيَّن عليه. وحين عبّرتُ عن جهلي بذلك، أخبرني أنَّ النبيَّ قد ظهر هنا للعديد من مواطنيه. يزوِّد هؤلاء الأشخاص «المدينةَ» بخشب الموقد الذي يجمعونه من الجبال المجاورة ويبيعونه بسرعة. وإذا صادف عدم وجود أيٍ منهم في «المدينة»، أو كانوا قلة فيها، فلا يمكن الحصول على الخشب حتى وإن كان لقاء المال. وهم يعملون كحمّالين كذلك؛ ومن يعجز منهم عن القيام بأعمال شاقة، يقوم بصنع الحُصُر والسِلال الصغيرة من جريد النخل. وهم عادة يعيشون سوياً في بعض الأكواخ في المكان العام المدعو «المناخ»، ويبقون هناك إلى أن يجنوا من المال ما يكفي لعودتهم إلى الديار. والقليل القليل منهم متسوّلون، فقد رأيتُ هنا، اثنين أو ثلاثة منهم يتسوّلون من بين أربعين أو خمسين متسولاً. وذلك لأنّهم لا يناسبون لأيّ عملٍ آخر. وبشكل عام، فإنَّ المتسوّلين أقلّ بكثير في «المدينة» منهم في مكّة؛ وأغلب المتسوّلين الأجانب هم هنود، كما في مكّة. ويأتي بعض الحجّاج إلى هنا من غير أن يكون في حوزتهم المال اللازم، وهم متأكّدون من كسبِ رزقهم بالعمل؛ كما أنَّ المسافة التي تفصل «المدينة» عن البحر هي أكبر بكثير من تلك في مكّة، كما أنَّ الطريقِ عبر الصحراء يخشاها الفقراء المعدمون. وبإمكاننا القول إنَّ ثلثَ الحجّاج فقط ممَّن يزورون مكّة، يذهبون كذلك إلى «المدينة»، ونادراً ما تمرُّ قافلة الحجّ المصرية بها[1]. ويوجد الحجّاج في «المدينة» طوال السنة لأنه ليس هناك موسمٌ معيّن لزيارة القبر، ويبقون هنا عادة لنحو أربعة عشر يوماً أو لشهر كامل. ويبلغ عددُهم أقصاهُ خلال الأشهر التي تلي الحجّ إلى عرفات، كذلك خلال شهر ربيع الثاني الذي يتمُّ الاحتفال في الثاني عشر منه بعيد مولد النبيّ.

(١) كلّما مرّت قافلة الحجّ المصرية «بالمدينة»، تكون دائماً في طريق عودتها من مكّة، فتبقى لثلاثة أيام فقط كالقافلة السورية. وفي طريقها من القاهرة إلى مكّة، لا تزور تلك القافلة «المدينة» أبداً.

ويعوِّض المدينيّون عن قلّة المتسوِّلين في مدينتهم وذلك بالذهاب إلى مكان آخر للتسوّل. وهي عادة عند السكّان في المدينة الذين تلقّوا بعض العلم والمعرفة والذين يحُسنون القراءة والكتابة، بأن يقوموا برحلة تسوُّل في تركيا مرّة أو مرّتين في حياتهم. وهم يذهبون عادة إلى القسطنطينية حيث يمثلون أمام النبلاء، من خلال الحجّاج الأتراك الذين عرفوهم في مدينتهم، معلنين فقرهم وعَوَزهم فيتلقُّون الهدايا الثمينة من الثياب والمال؛ فهم يحظون بشيء من التقدير كونهم من أهل «المدينة» وجيران قبر النبيّ. ويعمل بعض أولئك المتسوِّلين كأئمة في بيوت عظماء القوم. وبعد إقامة تستمرُّ لسنتين، يقومون باستثمار الصدقات التي جمعوها وذلك في شراء السلع، ثم يعودون ومعهم رأس مال كبير. إنَّ قليلاً جداً من الأشخاص الذين يتمتّعون بتلك المواصفات لم يقوموا بجولة في تركيا، ولو لمرّة واحدة. فقد رأيتُ العديد منهم في القاهرة حيث كانوا يقيمون عند الناس الذين قد تعرَّفوا بهم في «المدينة» بشكل سطحيّ جداً. وباتوا مزعجين إلى حدّ بعيد بسبب توسُّلاتهم ووقاحتهم. وقليلة هي المدن الكبيرة في سوريا والأناضول وتركيا الأوروبيّة، التي لا نجد فيها بعضاً من هؤلاء الأشخاص. ويقوم العديد منهم بتعلُّم شيء من اللّغة التركيّة بسبب الواجبات الملقاة على عاتقهم كأدلاء في «المدينة»، وبسبب الأهداف التي يسعون وراءها عند سفرهم. كما أنَّ إقناع الحجّاج الأتراك بأنَّهم أتراك وليسوا عرباً هي مفخرةٌ لديهم، مهما كانوا لا يحبّون الأتراك.

إنَّ للمدينيّين عامةً مزاجاً أقلَّ بهجةً وحياةً من المكيّين، فهم يُظهرون رزانةً وصرامةً أكبر في تصرّفاتهم، لكن بدرجة أقلّ من تلك التي يُظهرها أتراكُ الشمال. وهم يبدون ظاهرياً أكثر تديُّناً من جيرانهم في الجنوب، كما أنّهم أكثر تشدداً في تأدية شعائرهم المقدَّسة، وتُراعى اللياقة العامة بدرجة أكبر منها في مكّة. غير أنَّ أخلاق السكّان تبدو على المستوى نفسه كتلك التي يتمتّع بها المكيّون؛ ولم تتوصَّل صرامتُهم الدينية إلى نبذ المشروبات الكحولية التي يحضِّرها الزنوج الذين يصنعون نبيذ التمور عبر سكب الماء عليه وتركه ليتخمَّر. وبشكل عام، أعتقد أنَّ المدينيّين عديمو القيمة تماماً كالمكيّين. بل هم أكثر رياءً ونفاقاً[1]. غير أنَّهم يرغبون في الاقتراب أكثر من شخصية أتراك الشمال، لذلك فهم يدعون جانباً الصِّفات الحميدة القليلة التي يمكنُ إطراءُ المكيّين عليها. وإني في تقديمي للشخصية العامة التي يتسم بها المدينيّون، لا أرتكزُ فقط على التجربة القصيرة التي كانت لي معهم في مدينتهم، بل على المعلومات العديدة التي حصلتُ عليها من العديد من الأشخاص الذين هم من أصل مدينيّ التقيتُ بهم في كلّ جزء

(١) يطيب للمؤلف دائماً أن ينثر مثل هذه العبارات المؤذية الحاقدة لأهل مكة والمدينة.

من الحجاز. ويبدو أنهم أثرياء كالمكيّين. وكان هناك فقط اثنان أو ثلاثة أشخاص في «المدينة» تُقدر ثروتهم بعشرة أو اثني عشر ألف باوند استرليني، استُثمر نصفُها في الأملاك المؤجَّرة والنصف الآخر في التجارة. وكانت عائلة عبد الشكور هي الأغنى، ولدى التجار الآخرين عامةً رؤوس أموال صغيرة تتراوحُ بين أربع إلى خمس مئة باوند فقط؛ كما أنَّ معظم الناس الملحقين بالمسجد، أو الذين يكسبون رزقهم من الرواتب والحجّاج، يصرفون دخلهم السنويّ حتى آخر بارة. وهم يبدون ظاهرياً أوفر ثراءً من المكيّين بكثير، لأنَّهم يتأنَّقون في ملبسهم أكثر من أولئك؛ لكن ليس هناك أيّ وجه للمقارنة بين مجموع الأملاك في هذه المدينة وتلك التي في مكّة.

يُقال أنَّ أهل «المدينة» يعيشون في منازلهم الخاصة بفقر وشحّ فيما يتعلَّق بالطعام؛ غير أنَّ منازلهم مفروشة بأثاثٍ جيّد وثمين، كما أنَّ مصروفهم على الثياب كبير جداً. وليس عدد العبيد هنا كبيراً كما في مكّة، غير أننا نجد العديد من الأحباش، وقد استوطنتْ بعضُ الجاريات هنا بعد أن تزوَّجنَ. وتعمل نساءُ المزارعين وسكّان الضواحي لدى عائلات أهل المدن كخادمات، وخاصة في طحن القمح وجرشه في الطاحونة اليدويّة. وتتصرَّف المرأةُ المدينيّةُ بحشمةٍ بالغةٍ وتتمتّع بسمعةٍ عامةٍ في أنَّها أكثر فضيلةً من نساء مكّة وجدّة.

تُنفق العائلاتُ التي تملكُ حدائق مبالغ كبيرة في استضافة الأصدقاء في منازلها الريفيّة، كلٌّ بدورها؛ فيجتمع أفراد العائلات المدعوّة كلها، رجالاً ونساءً مع بعضهم بعضاً. ويُقال أنَّ هذه العادة تبلغ حدّاً بعيداً في وقت الربيع، وإنَّ المدينيّين يتنافسون مع بعضهم بعضاً في هذا المضمار، بحيث يصبح ذلك مسألةً تتعلّق بالشهرة العامة، وتدور حول ما إذا كان فلان قد قام خلال موسم الحفلات الريفيّة بأكثر أو أقلّ من جيرانه.

ويمضي القليل من العائلات السنةَ كلَّها في الحدائق؛ وكان هناك، من بين تلك العائلات، عائلة إمام كبيرة مستقرّة في حديقة مبهجة صغيرة إلى الجنوب من المدينة. ويذيع صيتُ هذا الرجل لطهارته وورعه وتقواه إلى حدّ أنَّ طوسون باشا نفسه قبّل يديه ذات مرّة. وكالعديد من الحجّاج الآخرين، قمتُ بزيارة له في الأيام الأولى من وصولي، فوجدته جالساً في مُختلى مُقنطَر أو محراب في محاذاة المنزل، لم يتحرَّك منه أبداً. وكان مهذَّباً ولائقاً أكثر من أيّ إمام رأيته أبداً، ولم يُبدِ أيَّ نفورٍ من التكلُّم في قضايا ومسائل دنيويّة. وكنتُ قد سمعتُ أنَّه يملكُ بعض الكتب التاريخية التي قد يبيعها. لكن، وبعد البحث، أعلمني بأنّه لم يكلّف نفسه أبداً عناءَ اكتساب أيّ علم باستثناء الشرع والقرآن ولغته. وقد قدَّم لي نارجيلة لأدخّن وطبقاً من التمر من محصول حديقته الخاصة. وعندما همَمْتُ بالرحيل، وضعتُ دولاراً تحت السجادة

التي كنتُ أجلس عليها (وهو عملٌ معتادٌ كما يُقال في مثل هذه المناسبة)، ورافقني إلى بوّابة الحديقة ورجاني بتكرار زيارتي.

إنَّ تدخين النارجيلة أو الغليون الفارسي هو أمرٌ عامٌ شاملٌ هنا كما في مكّة؛ وتُستعمل الغلايينُ العادية هنا أكثر منها في أجزاء أخرى من الحجاز، لأنَّ المناخ أكثر برودةً، كما أنَّ القهوة تستهلك بإسراف. ويمكنُ شراءُ الفاكهة من الحدائق بالمال وبحبوب القهوة كذلك؛ فإنَّ الشغف بالشاي في إنكلترا وهولندا لا يوازي شغف عرب شبه الجزيرة بالقهوة.

لا يحتفظ أهل المدينة بالجياد، فباستثناء جياد شيخ الحرم وبعض حاشيته، أعتقد أنه ليس هناك جوادٌ واحد في المدينة. وبشكل عام، تفتقر هذه الأجزاء من شبه الجزيرة إلى الجياد بسبب عدم وجود المراعي الجيّدة لها. وعلى العكس، فإن لدى البدوي في الشمال والشرق من المدينة، في الصحراء، سلالات كبيرة من الجياد. وباستطاعة حدائق «المدينة» أن تؤمّن مراعي وافرة. في السابق، عندما كان هناك في المدينة أشخاص مولعون بالحروب، كانوا يحتفظون بالجياد، وكانت توضعُ الخطط للقيام بحملات على البدو الذين كانوا في حرب معهم. في الوقت الحاضر، تتّسم روح المدينيّين بطابعٍ أكثر سلمية؛ كما أنَّ الجياد القليلة التي كانت موجودة حين استولى الوهابيون على المدينة، قامَ أصحابُها ببيعها على الفور للفرار من التجنيد الإلزامي الذي كان يخضع له الخيّالة بشكل أساسيّ في الأراضي الخاضعة لسيطرة الوهابيّين. وكانت بعض العائلات الثريّة تحتفظ بالبغال والجِمال العربيّة أيضاً. والحمير موجودة بكثرة خاصةً بين المزارعين الذين يُحضرون عليها إلى المدينة محصولَ حقولهم. وهي من نسلٍ أصغر حجماً من تلك التي في مكّة والحجاز. وقد تسبّبت حاجة الجيش التركي بنقصٍ كبيرٍ في عدد الجِمال التي كان المزارعون يحتفظون بها سابقاً، والذين باعوها خوفاً من مُصادرتها. ويملكُ بدو الصحراء الشرقيّة التي تبعد عن المدينة مسافة ثلاثة أو أربعة أيام، الكثير من الجِمال. وخلال إقامتي، أرسلت مجموعة خيّالة متجوّلة في جيش طوسون باشا سبعمائة منها إلى هنا، كانوا قد أخذوها من مخيّم واحد لقبيلة بني «حاتم».

تجدر الملاحظة أنَّ «المدينة»، حسبما أعلم، هي المدينة الوحيدة في الشرق التي نُبذت منها الكلاب؛ فلا يُسمح لها أبداً بالمرور من البوّابة إلى الداخل، بل يجب أن تبقى في الضواحي. وقيل لي أنَّ حرّاس المناطق المختلفين يجتمعون مرّة في السنة لطرد أيّ من هذه الحيوانات التي قد تكون تسلّلت خِفيةً إلى المدينة. وقد يكون السبب في نبذ تلك الكلاب خارجاً هو الخوف من دخول أحدها إلى المسجد وتدنيس قدسيّته؛ غير أنَّها تُقبل في مكّة.

من بين النعاج في هذه المنطقة، يُلاحظُ وجود نوع بجلد مبرقع باللّونين الأبيض والبنّي،

ويُعرف الصنف نفسه في مكّة كذلك. وهو صنف شديد الصغر، يشتريه الأجانب ويحملونه معهم إلى الديار كأشياء نادرة من الأرض المقدّسة. ويتمّ الاحتفاظ به في القاهرة في منازل النبلاء الذين يصبغونه بالحنّاء باللّون الأحمر، ويعلّقون طوقاً حول عنقه فيه أجراسٌ صغيرةٌ لتسلية الأولاد.

أعتقد أن ليس لأهل «المدينة» أوقاتٌ أخرى للابتهاج العام غير أيام الأعياد العادية، باستثناء عيد مولد النبيّ في الثاني عشر من ربيع الثاني. ويُعتبر هذا اليوم عيداً وطنياً فتُقفل المتاجر جميعها خلال النهار ويبدو الجميع في أبهى حُللهم.

وفي الصباح الباكر، يجتمع العلماء وعدد من الناس المتأنّقين في المسجد حيث يقوم أحدُ الخطباء، بعد خطبة قصيرة، بقراءة مقاطع من إنجازات محمّد منذ ولادته وحتى مماته؛ يُقدّم بعدها عصير الليمون أو شراب السوس إلى الجماعة، أو على الأقلّ إلى الناس الرئيسيّين الحاضرين. ويُمضي المسلمون المتحمّسون اللّيلة التي تسبق ذلك اليوم في الصلاة. وقد أتتْ امرأة محمّد علي باشا إلى هنا، بعد أن أتمّت الحجَّ إلى مكّة، لزيارة القبر ورؤية ابنها طوسون باشا. وأمضتْ معظم اللّيل في التعبّد في المسجد؛ وحين عادت إلى منزل أخذته لذلك الهدف بالقرب من بوّابة المسجد، قام ابنها بزيارة قصيرة لها ثم غادرها لترتاح بينما طلب هو نفسه سجادةً له لتُمدَّ وسط الشارع، ونام هناك على عتبة مسكن والدته؛ وهذا شهادة للاحترام والتواضع اللّذين يمنحان الشرف للابن ولشخصيّة الأمّ التي أوحتْ له بمثل تلك المشاعر. إنَّ زوجة محمّد علي هي امرأة محترمةٌ جداً ومُحسنة إلى حدّ بعيد دون أيّ تباهٍ أو تفاخر. كما أنّ ابنها طوسون باشا هو الوحيد في العائلة، كما أعتقد، الذي يحتوي صدره على أيّ مشاعر نبيلة. حيث يتّسم الباقون بالفساد من الرذائل العديدة التي تُلازم عادة النُبلاء الأتراك. فقد أثبتَ في مناسبات عدَّة غناه بالمشاعر السامية، حتى أنّ أعداءه لا يستطيعون أن ينكروا بسالتَه وكرمه وحبّه البنويّ وأخلاقه الحميدة. ولا بدَّ أن نأسفَ لكونه أدنى ذكاءً وفطنةً من والده وأخيه إبراهيم بقدر ما يفوقهم في الطباع الأخلاقية. وقد ظهرت والدتُه هنا بكلّ الأُبّهة الخاصّة بملكةٍ شرقيّة، فقد اعتبرها الناس ملاكاً أُرسل من السماء، من جرّاء هباتها للمسجد وللفقراء. وقد أحضرتْ لابنها هدايا بقيمة خمسة وعشرين ألف جنيه استرليني لوحظ بينها اثنتا عشرة حلّة كاملة، بما فيها كلّ قطعة ثياب، من أثمن شالات الكشمير نزولاً إلى الخِفّيْن؛ وخاتماً من الألماس يُقدَّر بخمسة آلاف باوند، وجاريتيْن جورجيّتين جميلتيْن. وفي حاشيتها، كان هناك أيضاً جارية جورجيّة بالغة الجمال ونادرة المقدرات؛ وقد تزوَّجها محمّد علي مؤخَّراً في مكّة؛ لكن، وبما أنها لم تكن بعدُ قد أن أنجبتْ أولاداً، فكانت تُعتبر أدنى منزلةً من والدة طوسون باشا التي كان

لها ثلاثة أولاد من الباشاوات[1]. كانت هذه الجارية ملكاً لقاضي مكّة الذي أتى بها من القسطنطينية. وبعد أن سمع محمّد علي نساءَه يمتدِحْنَ جمالها ويُثنينَ على إنجازاتها، أجبر القاضي رغم إرادته، على التخلّي عنها لقاء مبلغ خمسين ألف درهم، وما لبث بعد ذلك أن عرض عليها الزواج.

ليس لديّ الكثير لأقوله عن عادات المدينتين المميَّزة والخاصّة، لأني لم أحظَ بفرص عديدة للاختلاط بهم. غير أني أستطيع القول بأنّهم لا ينسجمون مع القواعد العامة المراعاة في الشرق، فيما يتعلّق بالتشريفات التي يخصّون بها أمواتهم. فأنا أعتقد أنَّ هذه المدينة هي الوحيدة في الشرق التي لا تُولْوِلُ النساء فيها وتبكي على موت أحد أفراد العائلة. فالعادة المعاكسة التي تمارس عامةً هي شائعةٌ جداً بحيث لا تدعو الحاجةُ إلى تكرارها هنا؛ بل يتمُّ، في أجزاء أخرى من الشرق، استدعاءُ طبقة معيَّنة من النساء في تلك المناسبة، ومهنتهُنَّ الوحيدة هي الوَلْوَلةُ والنحيبُ بأشدِّ النبرات تمزيقاً للقلب، وذلك لقاء مبلغ زهيد يُدفع لهنَّ في الساعة. وليس هناك مثل هذه الممارسات هنا (رغم أنَّها معروفة في أجزاء أخرى من الحجاز)، وحتى أنّها تُعتبر مُشينةً. فلقد تُوفيّ ربُّ عائلةٍ في منزل مجاورٍ لذلك الذي كنتُ أسكنُ فيه وحدثت وفاتُه في منتصف اللّيل، فانفجر ولدُه الوحيد بالبكاء، مدفوعاً بمشاعره الطبيعيّة. ثم سمعتُ والدته تقول: «بحقِّ اللّه، لا تبكِ، إنَّه لعارٌ كبير! ستفضحُنا أمام الجيران كلّهم»، وقد وجدتْ بعد بعض الوقت وسيلةً لإسكات ابنها.

وهناك أيضاً عادةٌ وطنيّةٌ تُمارسُ في الجنازات، حيث يُحمل النعشُ عند الخروج من منزل المتوفّى على أكتافِ بعض أقاربه أو أصدقائه، ويتبعهم من تبقّى في الخلف. لكن، حين يتقدَّم موكب الجنازة في الشارع، يُسرع كلُّ واقفٍ أو مارّ لإراحة حاملي النعش للحظة، فيقوم البعض بإفساح المجال للآخرين الذين يتقدَّمون لأخذ النعش بدورهم، وهذا ما يحصل بلا توقُّف. فينتقل النعشُ بالتالي وباستمرار من كتف لآخر إلى أن يوضع أخيراً بالقرب من القبر. وإذا ما افترضنا للحظةٍ أنّ هذه العادة البسيطة والمؤثّرة كانت نتيجة المشاعر الصادقة الحقيقيّة، فإنَّ ذلك سيُظهر حساسيةً مرهفةً أكثر مما يظهره الأوروبيون في موكب الجنازة وهم يرافقون موتاهُم إلى القبر. لكن، كلُّ ما يقوم به الناسُ في الشرق يتمُّ وفق العادات القديمة؛ فإنَّ أصلها يعود بلا شكّ

(١) إسماعيل باشا هو الابن الآخر الأصغر من الاثنين الآخرين المذكورين أعلاه. ويُقال أن إبراهيم باشا ليس ابن محمد علي، لكنه تبنّاه حين تزوّج من أمه التي كانت وقتها أرملة آغا كارالا الواقعة في هيلزبونت، وهي المدينة التي وُلد فيها باشا مصر الحالي.

إلى دفع المشاعر، أو التقوى والإحساس بالواجب لدى الأشخاص الذين استنبطوا تلك العادات؛ غير أنّها تحوَّلتْ في هذه الأيام إلى مجرَّد مسألة شكليّات.

لا ترتدي نساءُ المدينة أبداً ثوب الحداد فيختلِفنَ في هذا الصدد عن نساء مصر. وقد قال بعضُ المسافرين أحياناً إنَّ أهل الشرق لا يعرفون ثوب الحداد، لكنَّ ذلك خطأٌ ومُضلِّل بالنسبة إلى مصر على الأقلّ وجزء من سوريا. وصحيحٌ أنَّ الرجال لا يفعلون ذلك أبداً لأنَّ الشريعة قد نهتْ عنه؛ لكنَّ النساء داخلِ المنازل يرتدين ثياب الحِداد في كلِّ أنحاء مصر؛ وهُنَّ يَقُمْنَ لهذا الغرض بصبغ يديهِنَّ أوّلاً باللّون الأزرق بالنيل؛ ثمَّ يضعنَ برقعاً أسود، أو خِماراً، فيتبعنَ بالتالي الجنازة في الطرقات؛ وإذا ما استطعْنَ، فهُنَّ يرتدين عباءة سوداء وقميصاً تحتياً أسود، ويستمررْنَ في ارتداء ثوب الحداد لسبعة أو خمسة عشر يوماً، أو أحياناً أربعين.

أما في ما يتعلَّقُ بالعِلم، فسأُضيفُ بأنَّ المدينيّين هم عُلماء ضليعون أكثر من المكيّين، على الرغم من وجود عدد قليل من المدارس، إنْ وُجدتْ، كما ذكرتُ آنفاً. ويدرسُ العديد من الأشخاص العلومَ الإسلامية في دمشق والقاهرة حيث يوجد في كِلْتا المدينتيْن مؤسَّساتٌ دينيّة أُنشئت لهذا الغرض. وكما هي الحالُ في مكّة، فليس هناك أيُّ سوقٍ للكُتب، والكتب الوحيدة التي رأيتها وكانت معروضةً للبيع، كانت في متجر تجزئة للثياب قرب باب السلام. ويُقال أنَّ هناك بعض المكتبات الخاصة المهمَّة الغنيّة؛ وقد رأيتُ واحدة منها في منزل شيخ، كان فيها على الأقلّ ثلاثة آلاف من المجلَّدات المكدَّسة، لكنّي لم أتمكّن من معاينتها. وكما يحدث غالباً في الشرق، فإنَّ هذه المكتبات كلّها هي وقْف، أي أنَّها عُرضت على أحد المساجد من قبل مؤسِّسها أو أنَّها وُقِفت لإحدى العائلات كي لا يتمّ نقل ملكية هذه الكتب. ويُقال أنَّ الوهابيّين قد أخذوا الكثير الكثير من الكتب. على الرغم من أبحاثي وتحقيقاتي المتكرِّرة هنا، كما في مكّة، فإني لم أسمع أبداً عن شخص واحد قام بتأليف، أو حتى بتدوين ملاحظات قصيرة عن تاريخ أيامه أو أيّام الوهابيّين. ويبدو لي بشكل عام أنّ الأدب ازدهر بالنسبة البسيطة نفسها في «المدينة» كما في أجزاء أخرى من الحجاز؛ وأنَّ المهنة الوحيدة التي كان يمارسها الجميع هي كسب المال وإنفاقه في مسرّاتٍ جسديّة حِسّية.

إنَّ لغةَ المدينيّين ليست نقيّة بالقدر نفسه كلغة المكيّين. فهي تقترب أكثر من لغة مصر؛ كما أنَّ السوريّين المستوطنين هنا يستمرّون لأجيالٍ عدَّة في الحفاظ على مسحةٍ أو أثرٍ بسيط من لهجتهم الوطنية. وإنّه من السائد سماعُ أهل البلاد يتكلّمون، أو على الأقلّ يتلفّظون ببعض الكلمات من اللُغة التركية. والبستانيون والمزارعون في الجوار لهم لهجةٌ وجُملٌ خاصة بهم، ممّا يشكّل موضوع سخرية لسكّان المدينة.

حَولَ حُكومَةِ «المدِينَة»

كانت «المدينة» دائماً ومنذ فجر الإسلام تُعتبر ولايةً مستقلّةً منفصلة. وعندما أصبح الحجاز خاضعاً لسُلطة الخلفاء، كان هؤلاء يُعيّنون أشخاصاً ليحكموا «المدينة»، وهم مستقلّون عن حكّام مكّة. وحين خفَّت سُلطة الخلفاء وانحسرَ نفوذهم، جعل زعماء «المدينة» أنفسهم مستقلّين، ومارسوا النفوذ نفسه في شمالي الحجاز، كذلك الذي كان يمارسه زعماء مكّة في الجنوب. وكان زعماء مكّة ينجحون أحياناً في بَسْطِ سُلطةٍ موقّتة على «المدينة». وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر، بدا أنَّ هذه السلطة قد ترسخت تماماً. لكّنها غالباً ما كانت تصبح متعلّقةً بسلاطين مصر الأقوياء، كلّما كانوا يسطون سيادتهم على مكّة. وحين اعتلى العثمانيون العرش التركيّ، كان الخليفة سليمٍ الأوّل، وابنه سليمان (اللذان أولَيا عامةً عنايةً أكبر لخير الحجاز أكثر من أيّ من سلفهما) يفكّران في ضرورة الحصول على موطىء قدم ثابت ومنزلة قويّة في هذه المدينة التي هي مفتاح الحجاز. فأصبحت بالتالي تتمتّع بأهميّة بالغة لدى قوافل الحجّ. فتمَّ إرسال فرقة من الجنود الأتراك إلى هنا، وكانت مؤلّفةً من الانكشاريّين والسّباهيّين (فارس في جيش السلطان العثماني) تحت إمرة آغا يكون آمر المدينة العسكريّ، بينما وُضعت الحكومة المدنية في يد شيخ الحرم أو آغا الحرم، حاكم المسجد الذي كان عليه مراسلة العاصمة باستمرار وبانتظام، والذي يتمتّع بالمنزلة نفسها التي يتمتّع بها الباشا في مدن أخرى. وباستثناء فترةٍ قصيرة قرب نهاية القرن السابع عشر، حين وقع شيخ الحرم والمدينة بأكملها في يد شريف مكّة وسُلطانه، فقد استمرّت هذه الطريقة في الحكم حتى فترة الغزو الوهابيّ. وكان هناك آغا على رأس بضعة جنود، كان بعضهم يسيطر على القلعة؛ وكان آغا الحرم، الذي كان له كذلك مجموعة صغيرة من الجنود، زعيم المدينة الاسميّ. لكن أُسيءَ استعمالُ السُلطة وعمّت المفاسد والتعسّفات في القرن الأخير؛ فلم يَعُد السلطان يعيِّن الحاكم العسكريّ، لكن

تعيّنهُ جماعته الخاصة؛ ولم يعد هناك أيّ جنود أتراك وإنّما فقط المتحدِّرون من أولئك الذين أُرسلوا إلى هنا في الأصل والذين تزاوجوا مع أهل البلاد. وأصبح هذا الآغا السيِّد الفعليّ للمدينة، وانتشرتْ جماعته على العائلات الأولى كلِّها. ولم يكن يملك جنوداً سوى أهل المدينة نفسها، وكان يُعيِّنه أعلى الضباط في الفرقة الذين استمرَّ المتحدِّرون من نسلهم بالاحتفاظ بوظائفهم كما كانت محدَّدة في السابق بالرّغم من أنَّ القسم الأكبر منهم قد ترك الوظيفة العسكرية. وتمَّ توسيع هذه الفرقة من الجنود التي تُدعى «المرابطين»، لتقوية فرقة الآغا وتعزيزها. وامتدّت إلى العديد من سكّان المدينة الآخرين والأجانب الذين استوطنوا هنا. وكان يحقّ لهم المشاركة في الرواتب السنويّة التي يُحدِّدها السُلطان أصلاً ليتمّ دفعها للفرقة، وكانت تُنقل من القسطنطينية بانتظام. وإلى جانب ذلك، فقد اغتصبوا حصّةً من الصُرّة أو الرواتب التي كانت تُرسلُ إلى المسجد وإلى المدينة بأَسْرِها.

في ظلِّ الظروف المذكورة أعلاه، فقد أصبح آغا الحرم، إلى جانب القاضي الذي كان يُرسَل من القسطنطينية سنوياً، مجرَّد صِفْرَيْن لا شأنَ لهما. وكان الأوّل أحد الخصيان الذين لا يعرفون شيئاً من اللّغة العربيّة، ويحصل على التعيين في هذا المركز بدافع النفي لا الترقية. ولم يكن دخلُه الذي يتلقّاه على القسطنطينية يمكنه من وضع أيّ حرس عسكريّ يكفي ليضعه في مستوى خصمه، آغا المدينة، على الرغم من أنَّ دخلَه كان يُعتبر جيداً؛ وسرعان ما وجد نفسه متروكاً في عهدة المسجد فقط وإمرة الخصيان والفرّاشين. لكنَّ آغا المدينة نفسه لم يكن سيِّداً مُطلقاً، حيث كان للعديد من زعماء الأحياء المختلفة سُلطة كبيرة. وكان للأشراف الذين استوطنوا هنا زعيمهم الخاص ويُدعى شيخ السادات، وهو رجلٌ ذو سُلطة ونفوذٍ عظيمَيْن؛ فعمّت بالتالي الفوضى العارمة. غالباً ما كان سكّان الضواحي وأهل المدينة والمزارعون يتنازعون مع بعضهم لأشهر عدّة، فكانت تنشبُ داخل المدينة نفسها صراعاتٌ دمويّة بين سكّان الأحياء المختلفة، فكانوا يسدّون الطرقات أحياناً بمتاريس في مثل هذه الظروف، ويُطلقون النار على بعضهم بعضاً من على سطوح منازلهم. وتُروى أحداث عن أُناسٍ قاموا بإطلاق النار داخل المسجد حتى، على أعدائهم بينما كانوا يُصلّون.

خلال السنوات العشرين المنصرمة، تمَّ تعيين آغا للقلعة وهو رجلٌ اسمه حسن ممّا أعطاه لقب حسن القلعي. إنَّ ما رفعه إلى هذا المنصب، رغم ولادته بين حثالة الناس، هو مهارتُه ومكره وبسالتُه وعزمُه الشديد. لقد كان رجلاً ذا قوام قصير جداً ومشية مترنِّحة فرحة على الرغم من قوّته الجسدية. ويُقال أنَّ صوته حين يكون غاضباً كان يبثُّ الرّعب في نفس أجرأ الناس. وبعد عدّة سنواتٍ من الصراع العنيف، نجح هذا الرجل في أن يصبح سيِّداً مُطلقاً وطاغية في المدينة. وكان يحتفظ بحرسٍ من أهل المدينة والبدو والمغاربة يضعهم في خدمته، كما كان رعاع المدينة

إلى جانبه. وكان مجرماً يمارسُ أشدَّ الأعمال إثماً وفظاعةً وظلماً، فكان يقمع الحجّاج وينتزع المال منهم ويستولي على أملاك كلّ الحجّاج والأجانب الذين يموتون هنا ويقوم بمصادرتها، ويوقف الصُرَّة، فيجمع ثروةً طائلة. وقد سُجِّلتْ أحداثٌ عن الاستبداد والطغيان والعنف التي سبغت اسمه بالعار. فقد كانت أرملةٌ مُسنَّةٌ ثريةٌ قد وصلت مع ابنتها إلى «المدينة» من القسطنطينية لزيارة القبر، فقام بالقبض عليها وأرغمها على الزواج منه، وبعد يومين وُجدتْ ميتةً فاستولى على أملاكها. وبعد وقتٍ قصير، أجبر الابنة على الخضوع والاستسلام لمعانقاته. وقُدِّمت العديد من الشكاوى في القسطنطينية على هذا الرجل، لكن لم تكن للسلطان السُلطة الكافية لعزله؛ وكلّما كانت القافلةُ تصل من سوريا، كان حسن القلعي يُظهر مسلكاً جليلاً مُهيباً كي لا يحاول زعماؤها القيام بأيّ عملٍ ضدَّه. ولكنه كان يضع العقبات والحواجز الكبيرة في طريقهم. ويُنسبُ إليه عامةً بأنّه أرغم القافلة الأخيرة الآتية من دمشق، والتي حاولت أن تُكمل رحلتها بعد الاحتلال الوهابي، على العودة إلى سوريا.

حين بدأ الوهابيّون بشنِّ غاراتٍ على الحجاز وتوجيه قوّاتهم نحو «المدينة»، أصبح سلوك حسن أكثر عُنفاً، فلم يضع حدوداً لقمعه وظُلمه. خلال اليومين أو الثلاثة أيام التي سبقت الاستيلاء على المدينة؛ كان أحياناً يحكُم بأشدِّ العقوبات على الأشخاص الذين يصادف أن يضحكوا بين أنفسهم خلال مروره، مُدَّعياً أنَّ مشيتهُ المترنّحة العرجاء هي سببُ ضحكهم. وكان العرب الذين يعملون في خدمته ينهبون المتاجر ليلاً وهم يقومون بدوريّات في الشوارع في مجموعات كبيرة، ولم يكن بالإمكان محاكمتهم. وحين رأى استحالة صمود المدينة لمدّة أطول في وجه الوهّابيّين، بعد أن قام بدو المناطق المحيطة، ومكّة نفسها كلهم بالاستسلام، سلَّم المدينة إلى سعود بشرط أن يستمر في سيطرته؛ وقد وُعد بذلك وتمَّ تنفيذ الوعد. ووُضعت حينها فرقة جند وهابيّة في القصر، فأُجبر آغا الحرم والأتراك المقيمون في «المدينة» كلهم على مغادرتها؛ بعد أن كان آغا الحرم لعدّة سنوات مجرَّد ظلّ ليس إلاّ. وبقي حسن القلعي حاكماً في ظلِّ الوهابيّين. وبما أنّه باتَ الآن عاجزاً عن التصرُّف بالظلم نفسه كالسابق، فقد أظهر حماسةً شديدةً للدين الجديد، وقمع السكّان بأن فرض عليهم بصرامةٍ شديدة الدقّة تعاليم العقيدة الوهابيّة وشعائرها. وقد أظهر سعود احتراماً «للمدينة» أقلّ بكثيرٍ مما أظهره سابقاً لمكّة، لأنَّ دخل تلك الأخيرة كان يُتركُ كما هو في يدي الشريف، وكان السكّان معفيّين من الزكاة، التي كان يدفعها الوهابيون الآخرون للزعيم الذي تنازل هنا عن حقّه لمصلحة غالب. ولم يكن النظام نفسه يُتّبع في «المدينة»؛ فإنَّ السكّان الذين كانوا يجهلون ماهيّة الضريبة، باستثناء دفع رسمٍ بسيط على الأراضي، وجدوا أنفسهم وقد تعرَّضوا للقمع والاستبداد الشديد؛ ففرض حسن القلعي مع جابي ضرائب سعود، الضرائب بالطريقة الأشدّ قسوة وصرامة.

وتوقّفت وقتها قوافل الحج؛ وكان القليل من الحجّاج يصلون من طريق يَنْبع؛ وما لبث سعود بعد ذلك أن منع مرور الحجّاج الأتراك كلهم إلى المدينة؛ فتمّ بالتالي إيقاف الصُرَّة أو الرواتب طبعاً. وقد شعر المدينيّون في ظلّ هذه الظروف، بثقل وطأة الأيام وباتوا ساخطين على الوهابيّين. وتوجد بعض التفاصيل الإضافية حول هذا الموضوع في تقريري عن حملة محمّد علي.

حين بدأ محمّد علي بالتحضير لشنّ حملةٍ على الحجاز، تمّ وضع فرقة جند قويّة جداً في «المدينة»، تتألّف بشكل أساسيّ من بدو محاربين من «نجد» والمقاطعات الجنوبية بإمرة مضيان، الذي كان سعود قد عيّنه شيخاً لقبيلة حرب. وأبدى حسن القلعي حماسةً شديدةً للاتّحاد ضد العدوّ. وبعد الهزيمة الأولى التي مُنيَ بها طوسون باشا في الجديدة تعزز موقع حسن في «المدينة». لكن، حين عاد طوسون مرّةً ثانية بقوّة أكبر، قام حسن، بعد أن توقّع له الانتصار، بالدخول معه في مفاوضاتٍ سرّية، وتلقّى وعداً بإبقائه في مركزه شرط أن يُسهِّل عملية الاستيلاء على المدينة من قِبل العثمانيّين. وعند وصولهم أمام بوّاباتها، انضمَّ إليهم فاستقبله أحمد بونابارت، الآمر التركيّ، بتشريفاتٍ مميَّزة؛ وما لبثت المدينة أن هوجمتْ وتمَّ الاستيلاءُ عليها عن طريق الاستسلام. لكن، بعد أن قُمعت الفرقةُ الوهابيّةُ وهُزمتْ كلّياً في هذه الأجزاء، أُلقي القبض على مضيان الذي وُعد بالأمان، وعلى حسن القلعي، وقُيِّدا بالسلاسِل وأُرسلا إلى القسطنطينية عن طريق القاهرة حيث لقيا مصيراً استحقَّهُ الأخير على الأقلّ بجدارة، بالرغم من أنَّ جرائمه لا يمكنُ أن تبرّر الخيانة التي تعرّض لها من قِبل من ألقى القبض عليه.

بعد هذه الأحداث المذكورة أعلاه بقليل، أعاد السُلطان سليم آغا الحرم وكان مشرفاً على حريم السلطان سليم، فاستعاد الآغا جزئياً سلطته. لكنَّ الحكم الفعليّ كان الآن في يد الحاكم التركيّ. وعند نهاية السنة تقريباً، في ١٨١٤، أتى طوسون باشا إلى هنا كحاكم تحضيراً لهجومه المنويّ القيام به على نجد؛ وقد وجدتُه هنا عند وصولي ولم تكن حكومته سيئة لأنَّ نواياه كانت سليمةً، وقد أحبّه السكّان لكرمه وإخلاصه. لكنَّ إجراءاته كانت متهوِّرة جداً، فقد أخاف البدو وأبعدهم عبر الاستيلاء على جِمالهم، ممّا أدّى إلى قطع المؤن عن المدينة وخلق حاجة عامة إلى أنواع المؤن والحاجات الأخرى كلها. ثم ما لبث جنوده أن بدأوا يمارسون تجاوزاتٍ أهملَ قمعها ووقْفَها بالعقاب. وبعد رحيل طوسون، وصل والدُه محمّد علي إلى هنا في شهر نيسان/ إبريل، سنة ١٨١٥، وقام على الفور باتّخاذ الإجراءات المناسبة لإصلاح أخطاء ابنه معتمداً على حُكمه المبنيّ على خبرة أعمق وتجربة أوسع.

تستمرُ «المدينة» الآن في ظلّ حكومة آمرٍ تركيّ؛ وهو مركزٌ شغله رجلٌ اسكتلنديّ لبضعة

أشهر، ويُدعى توماس كيت Thomas Keith، أو إبراهيم آغا، الذي ذكرتُ أنه كان أمين صندوق طوسون باشا. ويحتفظ آغا الحرم بنحو ستّين أو ثمانين جندياً وهم جماعة مسلّحة متنافرة من الأتراك والعرب والمغربيّين وأهل «المدينة». كما كانت الأعمال الدينيّة والمالية التي تخصُّ المسجد كلها متروكةً بين يديه. ويوازيه القاضي في الأهميّة، وقد كان في زمن الوهابيّين قد أُكرهَ على التقاعد والانسحاب. ويستمرُّ شيخ الأشراف أو السادات بالتمتُّع بتقدير واحترام كبيرَيْن، فضلاً عن عدّة شيوخ آخرين في المدينة. وأعتقد أنَّ كره المدينيين لأسيادهم الحاليّين، الأتراك، أقلّ من كره أيّ طبقة أخرى من أهل الحجاز، على الرغم من أنّهم لم يكونوا بعدُ قد تصالحوا معهم حُبّياً.

قبل الغزو الوهابي، كان شريف مكّة يحتفظ هنا بموظّفٍ ذي منزلةٍ أدنى، ليقبض بعض الرسوم الزهيدة على الخضراوات واللُّحوم والمؤن الأخرى التي تأتي إلى السوق؛ وهي الضريبة الوحيدة من نوعها التي يدفعها المدينيّون، وهي آخر أثرٍ للسُلطة التي كان يتمتَّع بها شريف مكة على «المدينة»، والتي زالتْ كلياً في الأوقات الأخيرة. ولا يتمتّع الشريف غالب هنا بأيّ سلطة كانت؛ ولكني أعتقد ـ وإن لم أكن واثقاً ـ أنه ما يزال يتمتع بالسيطرة الاسمية، أو بلقب زعيم المدينة، وأنَّ «المدينة» كانت تشكِّلُ بالنسبة إلى الباب العالي جزءاً من الحجاز تحت قيادة شريف مكّة.

ويؤكّد العديد من الكتّاب العرب المهمّين أنَّ «المدينة» تشكِّل جزءاً من نجد وليس من الحجاز، في موقعها الحالي على الجهة الشرقية من السلسلة الكبيرة. ويبدو أنَّ هذا الرأي مبنيٌّ على أساسٍ متينٍ إذا ما أخذنا في الاعتبار الحدود الطبيعيّة؛ لكن من ناحية تقبُّل الكلمة على الساحل وفي مكّة و«المدينة»، فيُفترضُ أنَّ تلك الأخيرة تشكّل جزءاً من الحجاز، على الرغم من أنَّ بدو الداخِل يعطون معنىً مختلفاً جداً لهذه التسمية.

مُناخ «المدينة» وأمراضها

لقد أَلفيتُ المناخ في «المدينة» خلال أشهر الشتاء، أشدّ برودةً منه في مكّة. ولا أحد يعرف الثلج هنا، بالرغم من أني سمعتُ بعض الناس المسنّين يذكرون رؤيته على الجبال المجاورة. وليس للأمطار فترة محدَّدة في الشتاء، بل تهطل في فتراتٍ متقطّعة، وبغزارة عنيفة تستمرُّ ليوم واحدٍ عادة أو ربما ليومين فقط. ويمرُّ فصلُ شتاء كاملٍ أحياناً حيث يهطل المطر مرّةً واحدة لا غير، باستثناء القليل من الأمطار الخفيفة؛ فينتج عن ذلك مجاعةٌ عامة. ويقول المدينيّون إنّه لريّ تربتهم، يجب أن يتساقط المطر ثلاث أو أربع مرّات؛ فتغمر حينها السيول أجزاءً عديدة من البلاد وخاصة المراعي الخاصة بالبدو. ولا تُعرف هنا الأمطار التي تتساقط لأسبوع أو أكثر وبشكل متواصل كما يحدث غالباً في سوريا. وبعد كلّ فترة من تساقط الأمطار، التي تدوم أربعاً وعشرين ساعة، تصبح السماء صافية ويسود طقس الربيع الجميل لبضعة أسابيع. وتكون آخر العواصف عادةً في شهر نيسان/ أبريل؛ لكنَّ هناك أمطاراً خفيفة عرضيّةً تتكرَّر حتى في منتصف فصل الصيف.

ويؤكِّد المدينيّون والعديد من الأجانب أنَّ حرارة فصل الصيف هنا أشدُّ وطأةً منها في أيّ جزء آخر من الحجاز؛ غير أني لم أتمكّن من الحكم بنفسي. لقد سبق وذكرتُ أنَّ طبيعة المياه والتربة المالحة، والبرك الراكدة من مياه الأمطار حول «المدينة»، وربما الزفير والأبخرة التي تبثّها بساتين النخيل الكثيفة في المناطق المجاورة، كلُّ ذلك يجعل من هواء «المدينة» هواءً غير ملائم للصحّة.

والحمّى هي المرض الأكثر شيوعاً، ويتعرَّض لها العديد من السكّان أنفسهم ونادراً ما ينجو منها الغرباء الذين يبقون هنا لفترة ما، خاصةً في فصل الربيع. وقد أكّد لي يحيى أفندي، طبيب طوسون باشا، حين كنتُ مريضاً، أنّه كان يرعى ثمانين شخصاً مصابين بالحمّى، وبدا أنّه كان

محظوظاً في علاجهم أكثر ممّا كان معي. والحمّى كلّها تقريباً متقطّعة، ويُرافقُ الشفاءَ منها وهنٌ وتراخٍ فظيع؛ وأكثر ما يُخشى حينها الانتكاسُ من جديد. حين خرجتُ من المنزل بعد شفائي، وجدتُ الشوارع مكتظَّةً بالناقهين الذين رأيت بوضوحٍ من خلال مظهرهم العدد الكبير من الذين كانوا يشاركونني المعاناة في المدينة. وإذا لم يُشفَ المريض خلال وقت معيّن، تؤدّي هذه الحمّى غالباً إلى انتفاخاتٍ مؤلمة في المعدة والأرجُل لا تزول إلاّ بصعوبة بالغة. ولا يولي المدينيّون عنايةً كبيرةً لهذه الحمّى المتقطّعة التي اعتادوا عليها والتي نادراً ما تكون مميتة؛ لكنّ الحال يختلف مع الغرباء. فهي تتّخذ طابعاً وبائياً في بعض المواسم، حين يُعلن عن وفاة ما يقدَّرُ بثمانين شخصاً في أسبوع واحد؛ غير أنّه نادراً ما تحصل حوادث من هذا النوع.

ويُقال أنَّ حالات الإسهال الحادّ أو «الزُّحار» (الديزنطاريا) نادرة هنا. أما الشكاوى من صفراء الكبد واليَرَقان فشائعة جداً. وبشكل عام، يبدو أنَّ نسبة الوفيات هنا تفوق النِسَبَ في أيّ جزء آخر قد زرته من الشرق. ويقع مسكني بالقرب من إحدى البوّابات الرئيسيّة للمسجد التي تُمرَّر عبرها الجثث لأداء الصلوات عليها. وكنتُ أسمعُ من سريري مناجاة «لا إله إلاّ الله» التي كانت تُرافق تلك المراسم. وخلال الأشهر الثلاثة لمكوثي في المنزل، كانت تمرُّ كلَّ يوم تحت نافذتي جنازة على الأقلّ وأحياناً اثنتان وإذا ما اعترفنا بمعدَّل ثلاث جثث في اليوم تُنقل إلى المسجد عبر هذه البوّابة وعبر الأخريات أيضاً، إلى جانب العرب الفقراء الذين يموتون في الضواحي، والذين تؤدى الصلوات على أجسادهم في المسجد الواقع في «المناخ»، فإنَّه سيكون لدينا نحو ألف ومئتيْ حالة وفيات سنوياً في هذه المدينة الصغيرة، التي يبلغ عدد سكّانها كلّهم كما أعتقد من ستّة عشر إلى عشرين ألفاً على أكثر تقدير؛ وهي نسبةُ وفيات لا يمكن التعويض عنها عبر الولادات؛ وقد كان من شأنها أن تجرد المكان من السكّان منذ زمن بعيد، لولا وصول الأجانب إليها باستمرار لسدّ هذا النقص. ومن السكّان، هناك نحو عشرة آلاف أو اثنا عشر ألفاً يعيشون في المدينة نفسها، والباقي في الضواحي.

الرِّحْلَةُ مِنَ «المدِينَةِ» إلى يَنْبع

في الواحد والعشرين من شهر نيسان/أبريل، سنة ١٨١٥، تجمَّعت قافلتنا الصغيرة في فترة بعد الظهر قرب البوّابة الخارجيّة للمدينة. وعند الساعة الخامسة من بعد الظهر، مررنا عبر البوّابة نفسها التي دخلت منها عند وصولي منذ ثلاثة أشهر. وكنتُ حينها في كامل صحّتي وفي أعلى معنويّاتي، مطلقاً العنانَ للآمال العزيزة التي أُعلّقها على استكشاف أجزاء مجهولة ومثيرة للاهتمام في الصحراء عند عودتي إلى مصر. أما الآن، وقد أنهكني مرضٌ مطوّل، وبتُّ واهنَ العزيمة مكتئباً، لا تتملّكني إلاّ رغبة عارمة في بلوغ مكانٍ وُدّيّ دافىء وصحيّ حيث أتمكَّن من استعادة عافيتي. إنَّ الأرض المؤدّية إلى المدينة في هذه الجهة، هي أرضٌ صخريّة. وعلى مسافة نحو ثلاثة أرباع الساعة، تنحدر الطريقُ بشدَّةٍ لمسافة قصيرة، وقد طوَّقتها الصخور، وعُبِّدتْ لتسهيل مرور القوافل. وكنّا نتّجه جنوباً غرباً وجنوباً. وفي ساعة واحدة، وصلنا إلى قاع سيلٍ يُدعى «وادي العقيق» الذي تلقّى في الفترة الأخيرة كميّةً غزيرةً وافرة من الأمطار من الجبال المجاورة، بحيث أصبح كنهرٍ عميقٍ وعريض لم تستطع جِمالُنا حتى محاولةَ اجتيازه. وبما أنَّ الطقس في النهار كان جيداً، فقد توقّعنا رؤيته في الصباح التالي وقد خفَّ وانخفض. لذلك، خيّمنا على ضفافه، في مكانٍ يُدعى «المدّرجة». هنا تقع قرية صغيرة مهدَّمة، كانت منازلها حجريّة متقنة البناء، وبالقرب منها تقع بركةٌ صغيرة أو خزّان وبئر متداعية. ويزرعُ سكّانها بعض الحقول على ضفَّة وادي عقيق، لكنَّ غزوات البدو أرغمتهم على الانسحاب.

يتغنّى الشعراء العرب بوادي العقيق[١]. وينمو على ضفافه عدد من أشجار الحور التي كانت

(١) يقول السمهودي إنَّ هذا السيل يصبّ في الأرض المنخفضة التي تُدعى «الغابة» أو «زغابة» إلى الغرب من «المدينة» في

الآن مُزهرةً تماماً. وقد رافقَنا إلى الآن عددٌ من الناس من «المدينة» لمجاملةِ مُفتٍ من مكّة كان يزور المدينة، وكان الآن عائداً إلى دياره، وهو ينوي تركَ قافلتنا عند الظفرة، وكان معه العديد من الخيم والنساء. أما زملائي من المسافرين الآخرين، فهم تجارٌ صغار في «المدينة»، كانوا ذاهبين إلى جدّة لانتظار وصول السفن الهنديّة؛ وكان بينهم تاجرٌ ثريٌّ من مسقط، كنتُ قد رأيته في مكة حين كان يحجُّ، وكان يملكُ عشرة جِمال لنقل نسائه وأطفاله وخدمه وأمتعته؛ وكان يُنفقُ عند كلِّ محطَّةٍ مبالغ كبيرة من المال للصّدقات. وبدا أنّه عربيٌّ كريم وفاضلٌ من كلّ النواحي.

في الثاني والعشرين من شهر نيسان/ أبريل، خفَّت حدَّة السيول، فاجتزناها في فترة ما بعد الظهر. ومشينا لساعةٍ في وادٍ ضيّقٍ يتبع السيل إلى أعلى. وبعد مرور ساعة ونصف، غادرنا السيل فتبدّى لنا السهل إلى الشرق، وهو يُدعى هنا «السلسلة»؛ وكانت طريقنا عليه تتّجه نحو الغرب والجنوب الغربيّ. وكانت الصخور الكلسيّةُ منتشرةً على السهل. بعد مرور ثلاث ساعات ونصف، دخلنا الجبل مجدَّداً وتابعنا في أوديته ونحنُ نهبط ببطءٍ طوال اللّيل. وعند انبلاج النهار، مررنا بالسهل المدعو «الفريش»، حيث كنتُ قد خيَّمتُ في اليوم الذي سبق وصولي إلى «المدينة». وترجّلنا بعد مسيرةٍ استمرّت اثنتي عشرة ساعة ونصف في القسم العلويّ من وادي الشهداء[1].

في الثالث والعشرين من شهر نيسان/أبريل. ما لبثنا أن أودعنا أمتعتنا حتى انهمرتْ أمطار غزيرةٌ يرافقُها قصفُ الرعد الهائل المروِّع وومضات البرق. وفي لحظة، غُمر الوادي بأسره، فتوقّعنا ضرورة تمضية النهار كلّه هنا. وقد أوَيتُ إلى خيمة تاجر مسقط. وتوقّفت العاصفة بعد الظهر، فانطلقنا عند الساعة الثانية من بعد الظهر. وبعد مرور ساعة، مررنا بقبور الشهداء، أتباع محمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين يرقد هنا أربعون واحداً منهم كما يُقال. وتابعنا طريقنا ببطء هابطين في الوادي في الاتجاه الجنوبي والجنوبي الغربي على الأرجح. عند قمّة وادي الشهداء، تبدأ صخور الغرانيت، حيث إنَّ الطبقات العليا من تلك السلسلة هي ذات طبيعة كلسيّة. وخرجنا من الوادي بعد مرور خمس ساعات. وفي اللّيل، عبرنا سَهْلَيْ شب الهال

الجبال التي تصبُّ فيها كلُّ السيول في هذا الجوار. ويقول أيضاً: إنّه على ضفاف هذا السيل، باتجاه الشرق، يقع الحصن العربيّ الصغير المدعو «قصر المراجِل»، ويقطع السيل من هناك باتجاه «الغابة» منطقةً تُدعى «النقيع». وعلى مسافة نحو خمسة أميال من «المدينة»، كان هناك محطّة تُدعى «ذي الحليفة» وتقع على منحدر وادي العقيق، فيها قصر صغير وبركة أُعيد بناؤها سنة ٨٦١هـ. وربّما تكون هذه «المدّرجه» هي نفسها المعنيّة.

(١) إنَّ المسافات في هذه الرحلة لا تتوافق تماماً مع تلك التي قدّمتها في أثناء مجيئي إلى «المدينة»؛ لكني أفضّل أنْ أُبقي عليها كما وجدتها مدوّنة في دفاتري.

ونزيه. وبعد مسيرةٍ استمرّت ثلاث عشرة ساعة ونصف، خيّمنا في الجبال، في الوادي الفسيح المدعو «وادي مديق» الذي يقع على الطريق من نزيه إلى الجديدة، على مسافة ساعتين من الأوّل الذي كنا قد اجتزناه في اللّيل في رحلتي السابقة. وسمعتُ أنَّ في هذه الجبال، بين «المدينة» والبحر، على طول الطريق باتجاه الشمال، قد نلتقي بماعز الجبال، كما أنَّ الفهود ليست نادرة كذلك.

في الرابع والعشرين من شهر نيسان/أبريل. لقد قام بعض العرب من قبيلة بني سالم بزراعة بعض الحقول هنا بالذرة، وهم يروونها بواسطة نبعٍ من المياه الجارية يتدفّق من صَدْعٍ في الصخور في الجبال، حيث يشكّل عدّة بركٍ صغيرة وشلاّلات جميلة. كما أنَّ مياهه هيَ من أفضل الأنواع التي شربتها منذ مغادرة جبال الطائف.

انطلقنا من هنا في فترة ما بعد الظهر وصادفنا أمطاراً أشدّ غزارةً، استمرّتْ من منتصف النهار إلى مغيب الشمس. وكان في القافلة عدّة مرضى وناقهين، خاصةً من النساء اللّاتي كُنَّ يتذمّرنَ. وتملكتْني حُمّى قويّة وعنيفة خلال اللّيل، ثم عادتْ في النهار واستمرّتْ إلى أن وصلت إلى يَنبع. وما كان يُسبّب لي الإحباط بشكل خاص هو ما رافقَ الحمّى من تعرّقٍ غزير خلال اللّيل تبعتهُ نوباتُ ارتعاشٍ مع طلوع الفجر. وبما أنَّ القافلة لا تستطيع التوقُّف لأجلي أنا، فلم تسنح لي الفرصة لتبديل ملابسي الكتّانيّة. فضلاً عن ذلك، فقد كنّا مضطرين إلى التخييم على أرضٍ مبلّلة؛ وبما أنَّ عددَ سائقي الجِمال كان صغيراً جداً، نظراً إلى كميّة الأمتعة، فلم أستطع تجنُّب تقديم يد العون في التحميل، إذ إنَّ البدويّ الذي كان يرافقني كان من أكثر الأشخاص تكاسُلاً وأسوأهم طبعاً ممَّن التقيتُهم من أهل أُمّتِه.

سِرنا في الوادي المتعرّج لساعتين ونصف الساعة إلى «النحيف»، وهو بداية «وادي جديدة» Djedyde، حيث قام زعيم المركز التركيّ المتمركز هنا بالاستعلام عن أخبار المركز الرئيسيّ. فقد كان هنا منذ أربعة عشر يوماً دون سماع أيّ شيء عمّا كان يجري في «المدينة». وخلال الحملة التركية بأسرها في الحجاز، لم يتمّ تأسيس أيّ بريدٍ منتظم في أيّ مكان. وكان طوسون باشا يُترك أحياناً لأشهرٍ في «المدينة» وهو يجهل وضع الجيش الذي بأمرة أبيه. وحتى هذا الأخير كان يتلقّى أنباءهُ من مكّة وجدّة عبر قوافل عاديّة. ونادراً ما كان يتمّ إرسال البرقيّات العاجلة؛ كما كانت الحال أسوأ فيما يتعلّق بالاتّصالات المنتظمة عبر البرّ بين القاهرة ومكّة. وليست الحال كذلك فيما يتعلّق بهذا الموضوع فقط، ولكن في تفاصيل عديدة أخرى تتعلّق بالحرب، إذ إنَّ أفضل القادة الأتراك يفتقرون بشدّة إلى الحيويّة والحركة أو إلى الحكمة والبصيرة، مما يعرضهم للمباغتة حتى من قبل البدو. وهم يعرّضون عمليّاتهم الحربية إلى الفشل كلّما واجهوا عدوّاً أكثر يقظةً وحذراً من غير أن يكون هناك أيّ تباينٍ أو تفاوتٍ في القوى.

لقد غُمر معسكر الجنود في «الخيف» تماماً بالماء، وغُطّي عرضُ الوادي بأسره بدفقٍ سريعٍ من الماء. وبلا توقّف في أيّ مكان، مررنا «بجديده» بعد ثلاث ساعات ونصف، ثم «دار الحَمرا» حيث قام السكّان بإقامة عدّة مزارع جديدة منذ أن مررتُ من هنا في شهر كانون الثاني/يناير. وكانت الأمطار بشيراً أكيداً بسنة مثمرة وافرة؛ وكانت الأسئلة التي تُطرحُ دائماً وتكراراً على أدلائنا من الناس المارّين على الطريق، تدور حول ما إذا كانت منطقة ما أو أخرى في البلاد الشمالية مشبعة جيداً بالأمطار. وبلغنا الظفرة في سبع ساعات.

وقد انفصلتْ عنّا هنا المجموعةُ التي كانت ترافقنا والآتية من مكّة، لأنّها كانت قد أجّرتْ جِمالها إلى هذا الحدّ فقط، وكانت عازمةً على أخذ آخرين من هنا إلى مكّة. وتبع أولئك الذين نقلتهم إلى هذا الحدّ مجموعتَنا إلى يَنْبع. إنَّ تلك الجِمال التي تُستخدم في النقل والتحميل بين الساحل و«المدينة» كلها ملكٌ لقبيلة حرب.

بقينا هنا لبضع دقائق فقط في منتصف اللّيل، في الظفرة لاحتساء القهوة في أحد المتاجر، ثمّ تابعنا طريقنا إلى الغرب من الطريق التي وصلتُ منها إلى الظفرة عند مجيئي من مكّة. وتشكّل مزارعُ النخيل الكثيفة خطاً متواصلاً على جانبي الوادي الضيّق الذي هبطنا فيه ببطء. بعد مرور تسع ساعات ونصف، مررنا بقرية تُدعى «الواسِط» وقد بُنيتْ بين بساتين النخيل وفيها حدائق ممتدَّة من أشجار الفاكهة في تخومها. وكنّا عند كلّ خطوةٍ نجد المياه في آبار أو ينابيع. وخلف تلك القرية بقليل، غادرنا الوادي إلى اليمين، وتبعنا طريقنا صعوداً إلى جَبل شديد الانحدار، لأنَّ هذه الطريق أقرب من تلك التي تمرُّ عبر الوادي. وكانت الطريق على الجبل صخريّةً ومنحدرةً، وقد أرغمنا أدلاؤنا على المشي، ووجدت صعوبة في استجماع ما يكفي من القوة لبلوغ القمّة. من هناك، هبطنا عبر منحدرٍ أقلّ قسوة. وبعد مسيرةٍ استمرَّتْ اثنتي عشرة ساعة، رجعنا مرّة ثانية إلى الطريق الواقعة في الوادي قرب قرية صغيرة تُدعى «جديد». ويأخذ الوادي الذي غادرناه إلى يميننا استدارةً غير مباشرة، وهو يضمُّ عدة قرى أخرى، سمعتُ بعضاً منها تُذكر وهي التالية: «الحسينيه» قرب «واسِط»؛ ثم إلى الأسفل هناك «فارع» و«بَرَكه»، في تخوم «جديد». تحت «واسِط»، يصبح الوادي كأنّه يخصّ وادي «بدْر»، وفوقها يخصّ الظفرة. وفي «جديد» القليل القليل من أشجار النخيل والحقول، وهي تقع على سهل يمرُّ السيلُ عبره بعد أن يروي المزارع العليا من الوادي. وتابعنا السير على هذا السهل لساعة واحدة باتجاه الجنوب والغرب بدرجة ٥٠. وبعد السير لمدّة ثلاث عشرة ساعة، دخلنا سلسلة جبالٍ تمتدُّ غرباً، هي نفسها التي ذكرتُها في رحلتي إلى «المدينة»، وتتفرّعُ غربي السلسلة الكبيرة قرب بئر الشيخ. تقع طريقنا في وادٍ رمليّ عريض فيه تعرُّجاتٌ صغيرة، وقد أوصلتنا بعد مسيرة مُضنية استمرّت أربع عشرة ساعة ونصف إلى «بَدْر».

في الخامس والعشرين من شهر نيسان/أبريل. إنَّ بَدْراً، أو كما تُدعى أيضاً، «بدر حُنَيْن»، بلدة صغيرة، بُنيتْ منازلها بالحجر والطين، ولها مظهر أفضل من تلك التي في الظفرة، رغم أنّها أقلّ عدداً. يحيط بها جدارٌ بائسٌ فقير من الطين وقد تداعى في أماكن عدّة. وتتدفّقُ ساقيةٌ غزيرةٌ عبر المدينة وترتفعُ في سلسلة الجبال التي تجاوزناها للتوّ، وقد جُرَّت في قناةٍ حجريّةٍ، وتروي بساتين واسعة من النخيل، وحدائق وحقول في الجهة الجنوبية الغربيّة من المكان. وعلى الرغم من بُعدِها عن منبعها، فهي لا تزالُ فاترةً بعض الشيء. ويقول الأعِصَمي، مؤرِّخُ مكّة، إنَّ الغوري، سلطان مصر، بنى خزّاناً جيّداً في بَدْر لقوافل الحج، لكنّي لم أره، وأجهلُ ما إذا كان موجوداً إلى الآن.

تقع بَدْر في سهلٍ تحدُّه من الشمال والشرق جبال شاهقة، وتلالٌ صخريّةٌ من الجنوب، ومن الغرب تلالٌ من الرمال المتحرّكة. وتجعل منها عادةً قوافل الحجّ محطّةً. وقد وجدنا المكان الذي كانوا يخيّمون فيه بالقرب من بوّابة المدينة، منذ أربعة أشهر خلتْ، وكان لا يزال مليئاً بِجيَفِ الجمال والثياب البالية وبقايا أدواتٍ مكسورة، إلخ. وبَدْر مشهورة في التاريخ العربيّ بسبب المعركة التي خاضها محمد هنا في السنة الثانية للهجرة مع قوّة متفوّقة من عرب قُريش أتتْ لمساعدة قافلةٍ غنيّةٍ كان يُنتظر مجيئُها من سوريا، كان محمّد ينوي مهاجمتها في هذا المكان. وعلى الرغم من مرضي الشديد، فقد خرجتُ مع حجّاجٍ من مسقط لمعاينة ساحة المعركة التي أرشدنا إليها رجلٌ من بَدْر. إلى الجنوب من المدينة، على مسافة نحو ميل واحد، تقعُ على سفح التلال قبور أتباع النبيّ وأصحابه الثلاثة عشر الذين لقوا مصرعهم بجانبه. وهي مجرّد كوماتٍ من التراب يحيط بها صفٌّ من الحجارة غير المثبّتة، وتقعُ كلّها بالقرب من بعضها بعضاً. وكما شرح لنا دليلُنا، فإنَّ قريش كانت متمركزةً على التلّة خلف القبور، بينما قسّم محمّد قوّته الصغيرة إلى قسمين، وتقدَّم بنفسه في السهل مع قسم منها لمواجهة العدوّ، وعُهد بالقسم الثاني إلى عليّ بن أبي طالب بعد أن تلقّى الأوامر بالتمركزِ على التلّة الرمليّة في الجهة الغربية. ولم تكن المعركةُ لتُحرزَ النصر دون التدخّل السماويّ؛ فقد أُرسلَ ثلاثة آلاف من الملائكة وجبرائيل على رأسهم لمساندة محمّد. وتمَّ قتلُ الثلاثة عشر المذكورين أعلاه في الهجوم الأوّل. فقام النبيُّ، بعد أن حُشِرَ، بالاختباء وراء صخرة كبيرةٍ انشقَّتْ بأعجوبة لتسمحَ له بدخولها ومكَّنتهُ من بلوغ موقع القسم الثاني من قوّته[1]؛ ثم شنَّ بعدها هجوماً ثانياً أحرز فيه نصراً بمساعدة القوّات السماويّة، دن أن يخسر رجلاً واحداً بالرغم من أنَّ سبعين من خصومه قد قُتلوا في

(١) لا يوثق بأمانة المؤلف في نقل الأحداث أو روايتها؛ لأنه لا يعتمد على مصدر موثوق به.

المكان. فإنَّ حفنةً من الحجارةِ أو الغبار اللذين رماها (أو حسب القرآن، رماها اللّه) باتجاه أعدائه، أدَّت إلى جعلهم يتلاشون. وبعد أن اقتحم موقعهم، ارتاحَ قليلاً على حجرٍ اتّخذ على الفور شكلَ مقعد بعد أن أثَّر فيه هذا الشرف الكبير. ويتمّ عرض الصخرة والحجر وهما يخدمان في كلّ الظروف هدفاً واحداً وهو إثارة رأفة الزائرين تجاه الفقراء في بَدْر، الذين يحتشدون فيها كلّما وصلت قافلة ما.

إنَّ موقع فرقة عليّ على التّلة البعيدة، وذلك الخاص بفريق محمّد بالقرب من العدو، والسهل خلف تلك التلّة، حيث تابعت القافلة القادمة من سوريا طريقها خلال المعركة؛ تفسّر المقطع الوارد في القرآن والذي يلمّحُ إليها: ﴿إذ أنتمُ بالعُدْوَةِ الدُّنيا وهُمْ بِالعُدْوَةِ القُصْوَى والرَّكْبُ أسْفَلَ مِنكم...﴾ (سورة ٨، ٤٢). غير أنّي لم أتمكّن من فَهْم هذا المقطع جيّداً، حسب التفسير العادي له. بل وأعتقد أنَّ كلمة «رَكْب»، التي تعني هنا قافلة، نفهم منها فرقة الخيّالة التي كانت بقيادة عليّ، وكان موقعها منخفضاً، بالرغم من وجودها على تلّة، حسب منطقة بَدْر، حيث تنخفض الأرض قليلاً. لقد دمَّر الوهابيّون القبب الصغيرة العديدة التي شُيّدتْ هنا. وبالعودة إلى القرية، مشينا، عند طرفها الجنوبيّ، إلى داخل المسجد الذي يُدعى مسجد «الغمامة»، وقد بُني على البقعة التي جلس عليها محمّد ذات مرّة تحت أشعة الشمس ودعا اللّه لتمرَّ غيمةٌ وتظلّله؛ وقد استُجيب طلبُه على الفور؛ وأخذ المسجد اسمه من الغيمة. وهو مسجد مُتقن البناء وفسيح أكثر ممّا يُمكن توقُّعه في مثل هذا المكان الفقير.

تتزوَّدُ سوق بَدْر بالسلع نفسها التي في الظفرة، وقد عُرض للبيع فيها البطيخ الأحمر الذي تنتجه الحدائق. واشترى تاجر مسقط دون أن أدري خمسة باوندات من بلسم مكّة كان ينوي إهداءَها لإمام مسقط. وكان هذا البلسم مغشوشاً تماماً كذلك الذي في الظفرة وبالطريقة نفسها.

إنَّ سكّان بَدْرهم بدو بشكل أساسي، من قبيلة «صُبْح» التي تنتمي إلى قبيلة حرب، وقد أصبح بعضهم مستوطنين هنا. ويملكُ الآخرون هنا متاجر ليس إلاّ، فيعودون كلَّ مساء إلى خيم عائلاتهم في الجبال المجاورة. ويكثر الطلبُ على المنازل في بدْر التي يرتادُها البدو والمسافرون كثيراً؛ ويبلغ إيجاد متجر صغير في السوق عشرين دولاراً في السنة. كما نجدُ هنا بعض عائلات الأشراف التي استقرّتْ هنا والتي تدفع لها قوافل الحجّ عند مرورها رواتبَ ضخمة.

في المساء، أتتْ عدّة مئاتٍ من جِمال البدو لترتوي عند الساقية، تُرافقها النساء بشكل أساسيّ اللاّتي تحادثْنَ معنا بحرّية. ويعطي بنو حرب، المستوطنون في الجديدة والظفرة وبَدْر، بناتهنَّ للزواج بغرباء ومن مستوطنين حتى. وقد استقرَّ هنا بعضُ الجنود الأتراك الذين جذبهم

جمالُ بعض البدويّات اللاّتي تزوَّجوا بهُنَّ. بل إنَّ أحدهم، وكان يُدعى الأرناؤوط كان ينوي اللّحاق بزوجته الفتيّة إلى الجبل؛ وكان يُتقن اللّغة العربيّة جيداً وقد اعتاد منذ صغره على حياة الجبليّين المحاربين البريّة. هناك أعدادٌ هائلة من النسور (Rakham) في الجبال المجاورة، فكان المئاتُ منها تحوم حولنا باستمرار، وقام بعضها بالانقضاض فعلاً إلى أسفل وحَمْل اللّحم من أطباقنا.

في السادس والعشرين من شهر نيسان/أبريل: لقد بقينا هنا اليوم كله أمس. وقام البعضُ من أهل بدْر بحراسة قافلتنا في الليل، وتلقّوا لذلك إطراءً بسيطاً. يعجُّ هذا المكان باللّصوص، ونحنُ كنّا نخيّمُ خارج بوّابة المدينة. وغادرنا بدْر في المساء وأخذنا الاتجاه الشماليّ الغربيّ بدرجة ٤٥. وبعد متابعة السير لثلاثة أرباع الساعة، وصلنا إلى سلسلة التلال الرمليّة المذكورة أعلاه، وتُدعى أعلى قمّة فيها «قوز علي» تخليداً لذكر المركز الذي شغله عليّ هناك خلال معركة بَدْر. وقطعنا هذه التلال بصعوبة في نصف ساعة، لأنَّ الرمال عميقةٌ جداً؛ ثم نزلنا إلى السهل الغربيّ الكبير الذي يمتدُّ حتى البحر، والذي نبلغُه من بدْر بعد ليلة واحدة من السَّيْر عند ميناء صغير إلى الجنوب من يَنْبع ويُدعى «بريكه» وترتاده السفن كثيراً. وتنمو الجنبَاتُ بكثافة في السهل الذي دخلناه في الاتجاه الغربي الشمالي بدرجة ١. وفي أثناء سيرنا ليلاً، رأينا النيران التي أُوقدت في مخيّماتٍ مختلفة للبدو. والتقينا بحاجَّيْن زنجيّيْن انطلقا من يَنبع بنفسهما وكانا في حاجة ماسّة إلى الماء؛ فقدَّمنا لهما اللّحم والشراب وأرشدناهما إلى مخيّمات البدو. يجدُ هؤلاء المسافرون المغامرون طريقهم عبر الصحارى من غير الاستعانة بأيّ بوصلة، فيستدِلّون على وجهة الطريق عند الانطلاق ثمّ يتبعونها في خطّ مستقيم ليلاً ونهاراً إلى أن يصلوا إلى المكان المقصود. وبعد عشر ساعات من انطلاقنا من بَدْر، خيّمنا عند بزوغ الفجر في جزء من السهل نمتْ فيه أشجار الأقاقيا المنخفضة وتُدعى «عضيبة».

في السابع والعشرين من شهر نيسان/أبريل: لقد ألفيْتُ نفسي هذا الصباح في حالة من الاكتئاب الفظيع. فالتقيّوء العنيف والتعرُّق الغزير جعلا من الليلة الماضية إحدى أسوأ الليالي التي أمضيتُها في رحلاتي. كما أنَّ شجاراً وقع مع دليل حول المؤونة قد ساهم في زيادة حدّة الحمّى اليوم، وربما ساهم في ذلك الارتخاء في الأعصاب الذي كنتُ أُعاني منه مؤخراً جرّاء المرض الذي ألمَّ بي. وتمتدُّ سلسلة من الجبال الشاهقة باتجاه البحر على مسافة ستّ ساعاتٍ إلى يميننا باتجاه الشمال. وعلى مسافة أقرب منّا تأخذ الاتجاه نفسه سلسلة أخرى من الجبال الأقل ارتفاعاً. كما كان السهل الذي خيّمنا عليه رملياً تغطيه الحصى، فانطلقنا بعد الظهر، وبعد مرور أربع ساعات ونصف من السير في الاتجاه الشمالي والشمالي الغربي، تغيب الأشجار والجنباتُ عن الرؤية، فلا تشير إلى اقتراب البحر سوى بضع شجيْراتٍ مالحة. وإلى الأمام قليلاً، تصبح الأرض مغطّاة بقشرة من الملح، في حين تشرَّبَ الهواء أبخرةَ البحر. وبعد مرور سبع ساعات

ونصف، وجدنا مجدَّداً بعض الأشجار في السهل وقد انتشرتْ عليها بقعٌ من قشرةٍ مالحة. وعند مرور أربع عشرة ساعة، رأينا يَنبع عند شروق الشمس، بعد السفر طوال اللّيل على أرض غير صالحة. وبلغنا بوّابة المدينة بعد خمس عشرة ساعة ونصف، وكنا نسير بخُطىً بطيئة. وقبل بوّابة المدينة مباشرةً، اجتزنا خوراً صغيراً في الميناء حيث كانت المياه منخفضة لكنُّها تمتدُّ إلى مسافة كبيرة في مَدّ داخل اليابسة.

يَنبُع

لقد لاقيتُ بعض الصعوبة في إيجاد غرفةٍ في أحد خانات المدينة التي كانت ملأى بالجنود الذين حصلوا على إذنٍ بالعودة إلى القاهرة بعد آخر حملةٍ لهم على الوهابيّين الجنوبيّين، وقد أتوا إلى هنا من جدّة ومكّة. وكان هناك، فضلاً عنهم، العديد من الحجّاج الذين عقدوا النيّة على الإبحار إلى السويس أو القُصير، بعد عودتهم من «المدينة». من بين هؤلاء، كانت امرأة محمّد علي باشا التي كانت قد وصلتْ من «المدينة»؛ وكان هناك أربع سفن تتحضّر لنقل حاشيتها ومرافقيها وأمتعتها. وبعد أن أودعتُ أمتعتي في غرفةٍ مبهجة على سطح أحد الخانات، مشيتُ نحو الميناء، لأستعلم عن السفر إلى مصر. وسرعان ما علمتُ أنَّ ذلك كان أمراً مستحيلاً في الوقت الحاضر. فقد أُعطيتْ أوامرُ صارمة بمنع أيّ كان من الإبحار إلاّ الجنود الذين كانوا قد حجزوا ثلاث أو أربع سفنٍ جاهزة للانطلاق؛ وكان منهم ما يفوق الألف وخمسمائة، بمن فيهم العديد من الحجّاج الأتراك الذين ظنّوهم جنوداً لأنّهم يحملون السلاح وقد ارتدوا ثياباً مماثلة لثيابهم، لا يزالون ينتظرون وسيلة تؤمّنُ نقْلَهم.

بينما كنتُ جالساً في مقهى قرب الميناء، مرّتْ ثلاث جنازاتٍ على فتراتٍ قصيرة ومتلاحقة. وعند التعبير عن دهشتي أمام هذا الأمر، علمتُ أنَّ العديد من الناس قد تُوفُّوا خلال تلك الأيام القليلة التي انتشرت فيها الحمّى. وقد سمعتُ، حين كنتُ في بَدْر، أنَّ حُمّى خبيثة كانت سائدة في يَنْبع، لكنني لم أُعِر الخبر اهتماماً كبيراً. ثم رأيتُ عدّة جنازات أخرى فيما تبقى من النهار، إلاّ أنّه لم تكن لديّ أدنى فكرة عن السبب الذي يكمنُ وراء ذلك العدد الكبير من الوفيات. إلى أن جاء الليلُ وصعدتُ إلى غرفتي التي كانت تُشرف على جزءٍ كبير من المدينة. وسمعتُ حينها أصواتاً لا تُعدُّ ولا تُحصى تتعالى في كلّ اتجاه في صُراخٍ يفطر القلب، وهو صراخٌ يُرافق النفس الأخير الذي يتلفّظُ به صديقٌ أو قريب، في أنحاء الشرق كلها. في

تلك اللّحظة، راودتني الفكرةُ باحتمال وجود الطاعون. وحاولتُ عبثاً طردَ مخاوفي، أو على الأقلّ إخمادها عبر النوم. لكنّ الصُراخ المروِّع أبقاني مستيقظاً طوال اللّيل. وعندما نزلتُ في الصباح الباكر إلى الخان، حيث كان العديد من العرب يشربون قهوتهم، عبّرتُ لهم عن مخاوفي؛ لكنّني ما لبثتُ أن تلفّظتُ بكلمة طاعون حتى أرسلوا في طلبي يسألونني عمّا إذا كنتُ أجهلُ أنّ الله قام بنبذ ذلك المرض وإلى الأبد من الأراضي المقدّسة في الحجاز؟ إنّ منطقاً كهذا لا يقبل الجدَلَ أو الجواب بين مسلمين، لذلك فقد خرجتُ بحثاً عن بعض المسيحيّين اليونانيّين الذين رأيتهم في الشارع في اليوم السابق، وحصلتُ منهم على تأكيد لمخاوفي.

فقد انتشر الطاعون منذ عشرةِ أيّام، وقد كان لعدّة أشهر يفتك في القاهرة بحدّةٍ شديدة، وقد ماتت نسبة كبيرة من السكّان في السويس. ونقلتْ، من ذلك المرفأ، سفينتان محمّلتان بالأقمشة القطنيّة حمولتيهما إلى جدّة، ومنها إلى يَنْبع. ولم يشهد أحدٌ من قبل الطاعون في الحجاز، أو على الأقلّ، ليس ما يمكنُ أن تسترجعه ذاكرةُ الإنسان. وكان من الصعب على السكّان إقناع أنفسهم بوقوع مثل هذا الحدث، خاصةً في وقتٍ تمّ فيه استرجاع المدن المقدّسة من أيدي الوهابيّين. ولم تكن علاقات التبادل مع مصر بمثل هذا الحجم كما هي الحالُ الآن، لذلك، فليس غريباً أن يتمّ نقلُ هذا البلاءِ إلى الحجاز. وفي حين كان عشرة أو خمسة عشر شخصاً يموتون كلَّ يوم، لم يستطع عرب المدينة التصديق بأنّ الوباءَ كان هو الطاعون. بالرغم من أنّ مظهر الصُّفراء المعتاد على أجساد المصابين وتطوُّر الوباء السريع الذي نادراً ما كان يستغرق أكثر من ثلاثة أو أربعة أيّام، كان من شأنه أن يشكّلَ أدلّةً مقنعةً. وازدادت نسبة الوفيات بعد وصولي بخمسة أو ستّة أيام، فكان أربعون أو خمسون شخصاً يموتون في يوم واحد. وهي، في شعب يُقدَّر عدده بخمسة أو ستّة آلاف، نسبة فظيعة. وبدأ السكّان الآن يشعرون بالذُعر. وبما أنّهم غير مُهيئين للخضوع للخطر بصبرٍ ورويّةٍ كما يفعل الأتراك في كلِّ جزء آخر من الشرق، فقد تدفّقت الأغلبيّةُ الساحقة منهم إلى الطبيعة، فباتت المدينة مهجورةً. لكنّ الوباء لحقَ بالمهجّرين واللاجئين الذين خيّموا قرب بعضهم بعضاً، فعاد الكثير منهم بعد أن عجزوا عن إيجاد حلّ للمشكلة. وقد برّروا فرارهم بالقول: «إنّ الله يُرسل هذا الوباء برحمته ليدعونا إليه، لكنّنا نعي حقارتنا ونُدركُ أننا لسنا جديرين بِنعمَه وفضْلِه، لذلك، نرى من الأفضل تجنّبه والفرار منه»، وهي حجّةٌ سمعتها تُردَّدُ مراراً وتكراراً. ولو أني كنتُ بصحّة جيّدة وأتمتّع بكامل قواي، لكنتُ بلا شكّ لحقتُ بهم إلى الصحراء، لكني شعرتُ بالوهن الشديد وعدم القدرة على بذل أي جهد. فضلاً عن ذلك، فقد فكّرتُ في احتمال هروبي من الوباء بالانغلاق في غرفتي المنعزلة، وبدأتُ أُمنّي النفسٍ أكثر فأكثر بالآمال في الذهاب إلى مصر سريعاً. غير أنّي أصبتُ بخيبة الأمل. ولعلّي كنتُ تمكنتُ من إيجاد وسيلة للإبحار على الفور عبر تقديم بعض

الهدايا وقليل من الرشوة؛ لكنَّ السفن الجاهزة للإبحار كانت الآن مكتظَّة جداً ومليئة بالجنود المرضى، بحيث إنَّ البقاء في المدينة الملوَّثة بالوباء كان أفضل من الرحيل في وسيلة النقل تلك. وبعد بضعة أيام، علمتُ أنَّ مركباً صغيراً مكشوفاً وخالياً من الجند كان جاهزاً للإبحار إلى القُصير، فوافقتُ فوراً على الذهاب على متنه؛ لكنَّ انطلاقه كان يؤجَّل من يوم إلى يوم حتى الخامس عشر من شهر أيار/ مايو، حين غادرتُ أخيراً يَنْبع بعد إقامة دامت ثمانية عشر يوماً وسط الطاعون.

لربَّما كانت حالتي الصحية المتدهورة والحمّى الوضيعة التي رزحتُ تحت وطأتها هي التي أمَّنت لي الحماية. ففضلاً عن كلِّ رعايتي وحرصي، كنتُ مُعرَّضاً لمرّاتٍ عديدة لالتقاط العدوى. لقد كان شارع يَنْبع الكبير مرصوفاً بالمرضى ممَّن ينازعون الموت ويطلبون الصدقات. وكان هناك عربيٌّ يلفظُ أنفاسه الأخيرة في فناء الخان حيث كنتُ أُقيم. كما أنَّ سيِّدَ الخانِ فقدَ أختاً له وابناً من عائلته؛ وروى لي حين جلس على سجادتي، كيف ماتَ ابنه في الليلة الفائتة بين ذراعيه. وقد عارضت قلّة الحِرص لدى خادمي كلَّ الإجراءات التي اتّخذتها بدافع الحيطة؛ فبعد أن افتقدته لعدَّة أيام في الصباح الباكر، استعلمت عن سبب غيابه، فأخبرني أنّه ذهب لتقديم يد العون في غسل جثث الموتى. فالفقراء الذين ماتوا خلال اللّيل، قد عُرضوا في الصباح الباكر على النعوش، على شاطىء البحر بغية غسلهم قبل الصلاة على أجسادهم في المسجد، واعتقدَ خادمي أنَّ الاشتراك في هذه المهمَّة هو عملٌ مُثابٌ كان يقوم به عدّة زنوج حجّاج صدف وجودهم في يَنْبع. وعبّرتُ له عن رغبتي في بقائه في المنزل من الآن فصاعداً، في تلك الساعة، ليقوم بتحضير الفطور لي؛ غير أني عجزتُ عن منعه من الخروج في أوقاتٍ أخرى كما كنتُ أستطيع الاستغناء عن ذلك الواجب؛ فنادراً ما يستطيع أحدٌ المرور في السوق من غير أن يمسَّ أُناساً مصابين بالمرض أو على الأقلّ، أولئك الذين كانوا على اتّصالٍ مباشر معهم.

إنَّ الإحساس بالخطر الذي كان يهدِّدني حينها هو أكبر بكثير ممّا كنتُ أشعر به في ذلك الوقت، الآن وقد ألفيتُ نفسي بعيداً عنه. لقد بِتُّ معتاداً، بعد الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى، على فكرة الطاعون بشكل مقبول، وقمتُ بمقارنة الأعداد الضئيلة للذين ماتوا كلَّ يوم بمجموع السكّان المتبقيّن. إنَّ وجود حالات عديدة من أشخاص بقوا في صحّة جيّدة على الرغم من اتّصالهم المباشر بالأموات، أزالتْ إلى حدّ بعيد المفاهيم القائلة بانتقال المرض بالعدوى. كما أنَّ للأمثال تأثيراً كبيراً على الذهن، بحيث إني حين رأيتُ عددَ الأجانب الذين كانوا حينها في المدينة غير مكترثين بالمرض إطلاقاً وغير آبهين له، بدأتُ بالشعور بالخجل من نفسي لعدم امتلاكي القدر نفسه من الشجاعة التي كانوا يُبدونها. لكن ممّا كان يبدو أنَّ الوباء من النوع الأشدّ خبثاً إذ إنَّ القليل جداً من المصابين تمكنوا من النجاة منه؛ كما سادت الحالة

نفسها في جدّة. ولم يكن العرب يستعملون أيّ نوع من الأدوية، فسمعتُ عن أُناسٍ استخدموا الحجامة، وعن آخرين عولجوا عبر وضع لزقةٍ ساحبة على عنقهم؛ غير أنَّ هذه الحالات ظلّت نادرة، ولم يقم الناس كلُّهم باعتمادها وتقليدها. وكما هي العادة، يُدفنُ الميتُ بعد بضع ساعاتٍ من الوفاة؛ وقد جرت حادثتان خلال إقامتي في يَنْبع حين تمّ دفنُ شخصين وهما بعدُ على قيد الحياة، بعد أن ظنّوهما ميّتيْن، بسبب الغيبوبة التي وقعا فيها حين اشتدَّ المرض عليهما، والتي اعتُبرت موتاً. وقد أعطى أحدهما إشاراتٍ تدلُّ على أنّه لا يزالُ حياً، وذلك في اللّحظة التي كانوا يضعونه فيها في القبر، فتمَّ إنقاذه. أما جسدُ الآخر، فقد وُجدَ ويداه تُغطيهما الدماء وكذلك وجهه وقد مُزِّق الكفنُ تماماً من جرّاء الجهود والمحاولات غير المجدية التي بذلها في محاولته النهوض؛ وذلك حين تمّ فتح قبره بعد عدّة أيامٍ من دفنه لوضع جثة قريب له. وعند رؤية ذلك، قال الناس إنَّ الشيطان قام بتشويه جسده بعد أن عجز عن إيذاء روحه.

لقد أَوْلى حاكم يَنْبع عنايةً وحِرصاً كبيريْن لإخفاءِ معدَّل الوفيات الصحيح في المدينة. لكنَّ هِتافات «لا إله إلاّ اللّه» الدينية، التي تُشير إلى جنازة أحد المسلمين، كانت تتناهى إلى الأذن من كلِّ حيّ وجهة في المدينة. وقد أحصيتُ منها بنفسي اثنتين وأربعين في يوم واحد. ويصبحُ الطاعون بالنسبة إلى الفقير عيداً حقيقياً؛ حيث إنَّ كلَّ عائلة تذبحُ خروفاً عند وفاة أيّ واحد من أفرادها، إذا ما كانت قادرة على تحمُّل النفقات، وتقوم في اليوم التالي باستضافة النساء والرجال في الجوار كلّه في منزلها. فتدخل النساء إلى الشقق وتُعانقُ كلَّ نساء العائلة وتؤاسيهنَّ، فيعرّضنَ أنفسهنَّ للعدوى في كلِّ لحظةٍ. ويجب أن نعزو الانتشار السريع للطاعون في المدن الإسلامية إلى هذه العادة المتّبعة أكثر من أيّ سبب آخر؛ فما إن يضربَ الطاعونُ عائلةً ما حتى ينتقل بنجاحٍ إلى الجوار كلّه.

إنّه لمعتقد شائع بين الأوروبيّين، وحتى بين مسيحيّي الشرق، أنَّ الدين الإسلامي يمنع أو يحرّمُ أيّ إجراءاتٍ وقائية ضدَّ الطاعون؛ لكنَّ ذلك أمرٌ خاطئٌ. إنَّ ذلك الدين يمنع أتباعه من تجنُّب المرض إذا ما دخل مدينةً أو بلداً، لكنّه يحذّرهم في الوقت نفسه من الدخول إلى أيّ مكانٍ ينتشر فيه الطاعون وهو يمنع الأفراد، على وفق ذلك، من الانغلاق في المنزل والانقطاع عن التواصل مع باقي المدينة المصابة، لأنَّ ذلك يكون كالهروب من الطاعون. غير أنه يرحّبُ بإجراءات الحجر الصحيّ لتفادي انتقال الوباء أو نقله لغرباء حين وصولهم(١). بيد أنَّ الاعتقاد

(١) من حديث الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم: «إذا وقع الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا كان بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه..»، أو بما معناه وهذا هو الحجر الصحي الذي تلجأ إليها الدول الآن.

بالقضاء والقدر متجذّرٌ بعمق وشموليّة في أذهان الشعوب الشرقيّة، بحيث لا تُتَّخذ أيّ إجراءات وقائية في أيّ مكان. كما أنَّ الحالات التي لا تُحصى عن المرض الذي لا ينتقل إلى أولئك الذين قاموا باتّصال مباشر معه تؤكّد لهم، في رأيهم، أنّه ليس وبائياً. فضلاً عن ذلك، فقد أعلن لهم نبيُّهم «أنَّ الطاعون سببه هجوم الشيطان العدائيّ على البشر»[1]، و«أنَّ الذين يموتون بسببه هم شهداء». إنَّ الرأي العام السائد بين المسلمين هو أنَّ ملاكاً للموت خفيّاً ومسلَّحاً برمحٍ يلمسُ به الضحايا الذين يقدَّرُ لهم الطاعون، وأنَّه قادرٌ على العثور عليهم حتى في المخبأ السريّ. وهناك، في أحد شوارع يَنْبع، جذعٌ لشجرة نخلٍ مُمدَّدٌ على الطريق، لوحظ أنَّ العديد من الناس الذين مرّوا فوقه ما لبثوا أن أصيبوا بالطاعون؛ لذلك سادَ الظنُّ بأنَّ الشيطان قد اتَّخذ هناك موقعه المفضَّل لإصابة المارّين. لذلك، عمدَ العربُ إلى اتّباع طريق فرعيَّة غير مباشرة لتجنّب عدوِّهم على الرغم من اقتناعهم بأنّه رشيقٌ خفيف الحركة وقادر على التقاطهم أنَّى ذهبوا!!

إنَّ نجاةَ المسيحيّين والأجانب من الوباء عبر انغلاقهم في المنازل، لا تقدِّم إلاّ دليلاً ضعيفاً على العكس. فقلَّةُ الحذر والفطنة والاعتماد المتأخِّر لهذه الإجراءات، كلُّ ذلك يؤدّي دائماً إلى نسبة ضئيلة من الوفيات حتى بينهم هُم. وتُقدِّم مثل تلك الحالات بعد ذلك دليلاً على الغباء في القيام بمحاولةٍ لمعارضة حُكم الخالِق. فضلاً عن ذلك، فهناك العديد من المسيحيّين في الشرق الذين يتّبعون المبادىء التركية وقد انطبعت في ذهنهم المفاهيم نفسها عن القضاء والقدر؛ فيعتبرون أنَّ اتّخاذ أيّ خطوات لتأمين سلامتهم هو أمرٌ غير ضروريّ. ويسخر الأتراك من العديد من الواجبات المفروضة في دينهم، بحيثُ إنّه ليس من الصعب مثلاً جعلهم يتبنَّونَ آراءً منطقيّةً؛ بل أكثر من ذلك، بما أنّ القرآن لا يذكر شيئاً عن هذا الموضوع، فإنَّ أياً من الإجراءات الخاصة لا يمكنُ اتخاذها وتطبيقها بصرامة طالما أنَّ كلَّ فردٍ تقريباً مقتنعٌ في ذهنه بسُخْفِها وعدم فعاليّتها. ولو لم تكن هذه الحالةُ عامةً وشاملةً، لكان الأتراك وجدوا منذ زمن بعيد الوسائل لاستعمال الأدوات الوقائية بدل عقائدهم الدينية، كما فعل العرب الآن في الحجاز، ولكان عُلماؤهم زوَّدوهم بالفتاوى والشواهد من الشريعة لتعزيز ما كان منطقهم السليم قد قادَهُم لِتَبنّيه. وفي «الحديث»، أو الأعراف المقدّسة، سُجِّل قولٌ لمحمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو: «فرَّ من المجذوم فرارِكَ من الأسد».

تختلف الحالةُ بالنسبة إلى وسائل الوقاية من انتقال الطاعون، أو إلى اعتماد الحجر الصحيّ.

---

(١) من أين يأتي المؤلف بهذه الأقوال.

فهذا إجراءٌ يرتبط كلّياً بالحكومة. وقد تبنّى هذا النظام المسلمون الأكثر تعصُّباً والسُنَّة من بلاد المغرب؛ وتُفرضُ قوانين الحجْر الصحّي بشكل صارم في موانئهم، كما هي الحال في المرافىء الأوروبيّة على الشواطىء الشماليّة للبحر المتوسّط. وإنَّ عدم انتهاج نظام كهذا في تركيا حتى الآن هو أمرٌ يدعو إلى القلق، ويمكن عزوُه إلى بواعث ودوافع هامّة جداً أكثر من التعصُّب الأعمى. ولم أقِم بنفسي بزيارة القسطنطينية ومرافىء الأرخبيل؛ غير أني أعلمُ أنّه سيكون من السهل على حُكّام مصر، استعمال سلطتهم لإدخال نظام الحجْر الصحّي على الساحل، من غير الخشية من نشوء معارضة شعبية. لكن يجب أن يتمّ توجيه حكومات سوريا في مثل تلك المسائل من قبل الباب العالي، وستعمدُ بصعوبة إلى انتهاج نظام الحجْر الصحيّ من غير تدخّل سلطة عاهلها. غير أنّه غالباً ما تصرَّف محمّد علي بعكس أوامر الباب العالي مباشرةً حتى في المسائل التي تختصُّ بمصالح العاهل الماليّة. وقد نعتقد أنَّ السبب الذي منعه من الاستماع إلى النصائح المتكرّرة التي قدّمها له الأصدقاء والنظر في العروض التي قُدّمت له في هذا الموضوع من السُلطات الأوروبيّة، يعود فقط إلى الخوف من إثارة استياء سيّده. في الوقت نفسه، فإنَّ مبادئه الدينيّة المتحرّرة معروفةٌ جداً بحيث لا نفترض أنَّ التعصُّب الأعمى هو الذي يمنعه من الانصياع إلى مُطالباتهم.

في حين انتشر الطاعون في مصر للسنوات الأربع المتتالية، من سنة ١٨١٢ إلى ١٨١٦، في كلِّ فصل ربيع منها، قام محمّد علي نفسه، مع عائلته وضبّاطه الرئيسيّين بالانغلاق في قصورهم مع رعايةٍ دقيقة؛ فقاموا بالتالي بإثارة فضيحةٍ أمام الشعب أكثر ممّا كانوا فعلوا باتّباع أنظمة الحجْر الصحّي. ورغبةً منه في أن ينظر إليه الأوروبيّون كرجُلٍ ليبراليّ التفكير، مُجرّدٍ من الأذى والإجحاف، قام فعلاً بإعطاء الأوامر سنة ١٨١٣ و١٨١٤ بإنشاء نظام الحجْر الصحيّ في الإسكندريّة. لكنَّ الطريقة المخزية التي أُدير بها هذا النظام أثبتت وبوضوح عدم صِدْقهِ في حماية شعبه من فظائع الإصابة بالمرض. وسرعان ما وُضعت هذه الخطّة كلّها جانباً بعد ذلك. إنَّ تحقيقاتي الشخصيّة، وآراء العديد من الأتراك أنفسهم، الذين يستطيعون الحكم على إجراءات حكومتهم أفضل ممّا نتوقّعه عامةً، جعلتني أعتقد أنَّ الصدر الأعظم والباشا يتْركان الطاعون في أراضيهم لأنَّ الوفيات العديدة تملأ محفظاتهم. وبما لا يقبل الجدل، أعتقد أنَّ ذلك هو السبب الخفيّ فيما يتعلّق بمصر. فمدن القاهرة والإسكندرية ودمياط التجاريّة مكتظّة بالتجار الأجانب وبغرباء آخرين من كل أنحاء الشرق الذين استوطنوا هناك. وحسب القانون، تتم المطالبةُ بأملاك الأشخاص المتوفّين كلهم الذين لا وريث لهم، وتوضع في «بيت المال»، وهي خزينةٌ، كانت سابقاً تهدفُ إلى مساعدة الشعب لكنّها أصبحت الآن كلّها في تصرُّف الحكّام. ويؤديّ معدَّل الوفيات المرتفع بالتالي إلى تدفُّق مبالغ طائلة إلى أيديهم. وعلى مختار كلّ حيّ

في المدينة أنْ يبلّغ الحكومة عن أيّ غريبٍ أو أيّ شخص يموتُ ضمن مقاطعتها ممَّن ليس لهم وَرَثة، وذلك تحت طائلة التعرّض لأشد العقوبات وطأةً. ولا يتمّ الاستيلاء على أملاك أولئك فقط، بل تلك التي يكون ورثتُها غائبين في بلدان أجنبيّة أيضاً على الرغم من معرفة هُويَّتهم؛ وليس لهم في المقابل أيُّ حقّ سوى التوجّه بمطالبهم غير المجدية إلى الحاكم نفسه الذي يحوّل دخل «بيت المال» إلى استعماله الشخصيّ. وتتمّ ممارسة الظلم الأشدّ فظاعة فيما يتعلّق بأملاك الأشخاص الذين يموتون خلال انتشار الطاعون، كما في أوقاتٍ أخرى. ويُشارك القاضي ومعه لفيفٌ كاملٌ من العلماء والضبّاط وموظفون بدرجات أدنى، في الفساد غير الشرعي. وتتمّ بالطريقة نفسها مصادرة أملاك الضبّاط العسكريّين والعديد من الجنود حين موتهم. وعلى وفق عملية حسابٍ بسيطة، فإنَّ الطاعون في مصر هذه السنة، الذي أطاح في مدينة القاهرة وحدها بنحو ثلاثين إلى أربعين ألف شخص، قد أضاف إلى صندوق الباشا عشرين ألف محفظة من المال، أو ما يُعادل عشرة ملايين ليرة؛ وهو مبلغ كبير يكفي لإخماد أيّ مشاعر إنسانية في قلب تركيّ. أما تناقص عدد السكان الذي يؤدي بالتالي إلى انحسار الموارد العامة المنتظمة فهذه حسابات لا يقوم بها أبداً حاكم تركي تقتصر حساباته على النتائج الفورية للحدث. وإنْ كان هو نفسه سليماً، وإنْ كانت ثروته تتضاعف، فهو لا يهتّم بمصير شعبه. وبما أنَّ الطاعون قلّما يجتاح الأراضي المكشوفة ولا يحرمُ الأرض بالتالي من مزارعيها، فذلك لا يحمل الباشا على الخوف من نتائجه وتأثيره. فهو لن يقتنع أبداً بأنَّ السياسة والإنسانية تفرضان إزالة أسباب الطاعون، حتى يرى مقاطعةً بأكملها تخلو من السكّان والحقول التي تدرّ عليه الدخل مهجورةً[١].

يبدو كما لو أنَّ القسطنطينية والقاهرة هما وعاءان للطاعون في الشرق حيث تتناقلانه بالتبادل من الواحدة إلى الأخرى وإلى البلدان المجاورة. إنّه من الصعب أن أقول إلى أيّ مدى يمكن أن تقنع الضغوطات الموحّدة والحيويّة للسلطات الأوروبيّة الصدر الأعظم وتدفعه إلى اتّخاذ إجراءات السلامة في عاصمته لضمان سلامة سكّان تركيا الأوروبية والأناضول. ولكن لا يراودني الشك بأن من شأن موقف حازم من الحكومة الإنكليزية أن يدفع باشا مصر

(١) إنَّ العناية القليلة جداً التي توليها الحكومة في مصر للحفاظ على أرواح الرعايا وحياتهم تمّ إظهارُها بطريقة غريبة عبر الإهمال الذي كان يُعامل به مرضى الجدري، وهو مرضٌ يجتاح جنوب مصر بطريقة أعنف من الطاعون الذي نادراً ما ينتشر في المقاطعات الجنوبية. إنَّ العروضات العديدة التي قُدِّمت إلى محمّد علي لاعتماد نظام التلقيح كانت دون جدوى، ولو أنّه تحقّق بنفسه لكان علم أنه في سنة ١٨١٣، وقع ضحيّة مرض الجدري ما يفوق المئتين وخمسين شخصاً من الأولاد والبالغين، وذلك في بلدة Esne الصغيرة وحدها. ويأتي هذا المرض في هذا المناخ بعنف أشدّ وطأة منه في أوروبا.

للاستجابة إلى نداء الإنسانيّة فيفيد بالتالي مصر وسوريا والممتلكات الإنكليزية في منطقة البحر المتوسّط.

لقد كانت هجمات الطاعون في جدّة أكثر بعثاً على الأسى وأشدَّ بؤساً منها في يَنْبع. فقد بلغ عدد المتوفّين هناك يومياً مائتين وخمسين شخصاً. وتدفّق عدد كبير من السكّان إلى مكّة ظنّاً منهم أنّهم سيكونون في أمانٍ في ذلك الحرم المقدّس، لكنّهم حملوا المرض معهم ومات عدد من المكيّين لكنَّ نسبتهم كانت أقلَّ منها في جدّة. حتى أنَّ القاضي في جدّة، وهو عربيّ، قد لاذَ بالفرار إلى مكّة مع كلّ علمائه. لكنَّ حسن باشا الذي كان آنذاك حاكماً للمدينة المقدّسة، أمره بالعودة إلى مركزه فوراً، تحت طائلة الإعدام؛ لكنه مات على الطريق. وكان شارع السوق الرئيسيّ في جدّة مهجوراً تماماً، وقد دُمّرت أعداد كبيرة من العائلات وأبيدت بالكامِل. بما أن العديد من التجّار الأجانب كانوا في جدّة آنذاك، فقد زادت أملاكهم في ثروة محمّد علي بشكل كبير. وسمعتُ من شهود عيان أنَّ العمل الوحيد الذي كان يتمّ في المدينة هو نقل الجثث إلى المقبرة، ونقل أملاك المتوفّى القيّمة إلى منزل الآمر. وظلّت «المدينة» نظيفةً وخاليةً من الطاعون كما كانت الأراضي المكشوفة بينَ يَنبع وجدّة.

سأذكر هنا عادة مميّزة عند العرب خاصةً. فعندما بلغ الطاعون أَشُدَّهُ في يَنبع، قام العرب بجرِّ ناقة في موكب عبر المدينة وقد غُطّيتْ تماماً بكلِّ أنواع الزينة والريش والأجراس، إلخ. وعندما بلغوا المقبرة نحروها ورموا بلحمها إلى النسور والكلاب. لقد أمِلوا في أن يُسرعَ الطاعون المنتشر في المدينة ويأوي إلى جسد الجمل، وفي أنّهم، عبر نحر الضحيّة، سيتخلصون من الوباء على الفور. وقد سَخِر العديد من العرب العاقلين من ذلك، غير أنَّ هذا الأمر كان نافعاً نوعاً ما إذ إنه ألْهَمَ الطبقات الدنيا الشجاعة.

لقد بُنيتْ مدينة يَنْبع على الجهة الشمالية لخليج عميق يؤمّن مكاناً ملائماً لرسوّ السفن، وتحميه من الرياح العنيفة جزيرةٌ واقعةٌ على مدخله. وترسو السفن قريباً على الشاطىء، والمرفأ فسيح بما يكفي لاحتواء أكبر أسطول. والمدينة مقسّمةٌ إلى قسميْن بخور صغير ويُدعى القسم الأكبر «يَنبع» بشكل حصريّ؛ ويحملُ الآخر، على الجهة الغربية، اسم «القعد»، ويسكنه الملاّحون بشكل أساسيّ. ويواجه القسمان البحر، وقد أحاط بهما في الجهات الأُخرى جدارٌ مشترك متينٌ جداً، تمَّ بناؤه بإتقان أكبر من ذلك الذي في جدّة والطائف و«المدينة»، وتحميه بروجٌ عديدة. لقد تمَّ تشييده بجهد السكّان وعملهم الموحّد ليشكّل حمايةً من الوهابيّين إذ إنَّ الجدار القديم كان مهدّماً ويحيط بجزءٍ واحد فقط من المدينة. ويضمّ الجدارُ الجديد منطقةً تبلغ تقريباً ضعف المساحة التي تشغلها المناطق السكنيّة، ويبقى بينه وبين تلك الأخيرة مربّعاتٌ كبيرة

مكشوفة، يتمّ استعمالها كمقابر أو كأمكنةٍ لتخييم القوافل أو لتدريب الجنود، أو تُترك أرضاً مهجورة. ويتطلّب امتدادُ الحائط ومساحته فرقةً كبيرة من الجند لحمايته عند النقاط كلها؛ والأشخاص المسلَّحون في يَنبع كلهم غير مناسبين لذلك. إلاّ أنَّ المهندسين الشرقيّين يقدِّرون دائماً قوّة حصن من الحصون عبر حجمه؛ ومن وجهة النظر نفسها، تمَّ مؤخراً بناءُ جدار سميك وخندقٍ عميق على طول ضواحي مدينة الإسكندرية القديمة، ممّا يتطلّبُ على الأقلّ خمسة وعشرين ألفاً من الرجال لحمايته.

ليَنْبع بوّابتان باتجاه الشرق والشمال، باب «المدينة» وباب «المصري». وقد بُنيتْ منازل المدينة بشكل أسوأ منه في أيّ مدينة أخرى في الحجاز. فبُنيتُها خشنة غليظة بحيث إنَّ القليل من الحجارة التي استعُملتْ في بنائها قد صُقل سطحُها. والحجر كلسيّ مليءٌ بالثقوب وذو لونٍ أبيض ناصع ممّا يجعل من منظر المدينة أمراً مزعجاً للنظر. ولأغلب المنازل طابق أرضيٌ فقط. وليس هناك أيُّ صَرْحٍ كبير في المكان باستثناء ثلاثة أو أربعة مساجد سيّئة البناء وبضعة خاناتٍ عامة شبه مهدّمة ومنزل الحاكم على شاطىء البحر (وهو كذلك سيّىء البناء).

إنَّ يَنْبع مدينة عربيّةٌ كاملة، فالقليل من الأجانب قد استوطنَ هنا. ومن الهنود الذين لهم مستعمرات عديدة في مكّة وجدّة و«المدينة»، نجد فقط شخصين أو ثلاثة، وهم أصحاب متاجر؛ إذ إنَّ التجارِ كلهم من العرب باستثناء بعض الأتراك الذين يقيمون هنا أحياناً بشكل مؤقّت. وينتمي معظم السكّان إلى قبيلة «جهينة» البدويّة في هذا الجوار (الذي يمتدُّ شمالاً على طول شاطىء البحر)، وقد أصبح العديد منهم مستوطنين؛ واختلطت بهم عدة عائلات من الشرفاء الذين هم أصلاً من مكّة. ولا يزالُ المستوطنون في هذه المدينة، أو كما يُدعَوْن الينبعاويين، يعيشون ويتزيّون كالبدو. فهم يعتمرون «الكفيّة»، أو المنديل الحريريّ، يربطونها على أجسادهم بحزام جلديّ. إنَّ مأكَلَهُم وطريقة عيشهم كلُّها كمأكلُ وطريقة عيش البدو، كذلك سلوكهم وعاداتهم. ولكلّ من الفروع المختلفة لقبيلة «جهينة» المستقرّة هنا، شيخها. وهم يتعاركون مع بعضهم بعضاً كما يفعلون لو كانوا يخيّمون في الطبيعة، فيتّبعون القوانين نفسها في عدائيّتهم وثأرهم الدمويّ كالبدو.

إنَّ المهنة الأساسيّة لأهل ينبع هي التجارة والملاحة. وتملكُ المدينة نحو أربعين أو خمسين سفينة مرتبطة بفروع تجارة البحر الأحمر كلها، ويقودها أبناء المدينة أو العبيد. وتتكرَّر باستمرار الرحلات بين يَنبع ومصر. وقد استقرَّ العديد من أهل ينبع في السويس والقُصير، وبعضهم استقرَّ في القاهرة وقنا في شمال مصر حيث يتاجرون مع بلدهم الأصليّ ويتاجر آخرون مع بدو الحجاز وعلى شواطىء البحر الأحمر حتى «مُوَيْلح»، ويتبادلون في مخيّماتهم المؤن التي تأتي

إلى يَنبع من مصر، لقاء الماشية والزبدة والعسل، ثمّ يبيعونها مجدّداً عند عودتهم إلى المدينة وبربح كبير.

إنَّ أهل يَنبع هم أقلّ تحضُّراً من أهل جدّة أو مكّة، ويتّسم سلوكهم بالفظاظة والوحشيّة أحياناً. لكن، من جهة أخرى، فإنَّ تصرّفاتهم أكثر تنظيماً كما أنَّهم أقلّ انجرافاً في الرذائل من الأخيرين، وهم يتمتّعون عامةً، في أنحاء الحجاز كلها، بكلّ الميزات التي يُضفيها الاسم المحترم.

وعلى الرغم من عدم وجودِ أفرادٍ واسعي الثراء في المدينة، إلاّ أنَّ الجميع يتمتَّعون بوفرة ويُسر أكثر مما يتوفر حتى ممّن في مكّة. فالعائلات المحترمة كلها في يَنبع لها منزل ريفيّ في الوادي المثمر الخصب المدعو «يَنبع النخل» أو «قَرا يَنبع»، أو «يَنبع البرّ»، الذي يقع على مسافة ستّ أو سبع ساعات من هنا، على سفح الجبال في الاتجاه الشمالي الشرقي. وهو يشبه الأودية في الجديدة[1] والظفرة، حيث تنمو أشجار النخيل وتُزرعُ الحقول، وهو يمتدُّ مسيرة سبع ساعاتٍ طولاً ويحتوي على ما يفوقُ الاثنتي عشرة قرية صغيرة منتشرة على جانب الجبل. إنَّ القرية الأساسية هي «سويقة»، وهي المكان الذي تُقام عليه السوق، حيث يقيم شيخ قبيلة «جُهينة» الجليل والذي يعترفُ به بدو هذه القبيلة وأهل يَنبع كذلك.

يزرع أهلُ «جُهينة» وادي يَنبع دون غيرهم، وهم إمّا مستوطنون ويبقون هنا طوال السنة، وإمّا يُبقون بعضَ المزارعين في مزارعهم بينما يظلّون هم مخيّمين في الجبل، فلا يُقيمون في الوادي إلاّ عند قطاف التمر، حيث يذهب كذلك أهل ينبع كلهم الذين يملكون حدائق فيه ويبقون لمدّة شهر. ويتمّ هناك زرع أنواع الفاكهة كلها التي تتزوّدُ بها سوق يَنبع. وسمعتُ أنَّ المنازل قد بُنيتْ من الحجر وأنَّ لها مظهراً أفضل من تلك التي في الجديدة. ويعتبر أهل ينبع هذا الوادي كمقرٍّ إقامتهم الأصليّ الذي يُشكِّل له المدينة والمرفأ مستعمرةً. وتمرُّ قافلة الحجّ المصريّة عبر يَنبع النخل حيث تذهب إلى بَدْر في رحلة تستمرُّ ليلةً واحدةً. لذلك لا تمرُّ أبداً هذه القافلة من مرفأ يَنبع بالرغمِ من أنَّ العديد من الأفراد فيها، يأخذون من «المستورة» الطريق إلى يَنبع، عند عودتهم من مكّة، وذلك للقيام ببعض المعاملات التجارية في المدينة، ثمّ ينضمّون إلى القافلة شمال يَنبع على مسافة يومٍ واحد.

تتعاطى تجارة يَنبع بالمؤن بشكل رئيسيّ؛ ولا نجدُ مخازن كبيرة للبضائع هنا، لكن تُعرضُ في المتاجر بعضُ السلع الهنديّة والمصريّة من الألبسة للبيع. وليس مالكو السفن تجاراً، كما هُم في جدّة، ولكنهم مجرد ناقلين للبضائع، غير أنَّهم يستثمرون دائماً أرباحهم في بعض المضاربات

(١) هناك طريق صعبة تمتدُّ من يَنبع النخل إلى الجديدة، وتمرُّ على الجبال شمال الطريق الواسعة.

التجارية الصغيرة. وتشغلُ تجارة النقل إلى «المدينة» العديدَ من الناس؛ ولتجار هذه المدينة كلها عُملاء بين عرب يَنبع. وفي زمن السّلم، تنطلقُ القافلةُ إلى «المدينة» كلّ أسبوعين؛ لكنّها كانت مؤخَّراً ترحلُ كلَّ شهر فقط بسبب قلة الجِمال. وهناك أحياناً عرباتٌ برّيةٌ تتّجه إلى جدّة ومكّة وأحياناً إلى «الوجه» و«مُوَيْلح»، وهما المحطّتان المحصّنتان للقافلة المصرية على البحر الأحمر. إنَّ أهلَ يَنبع هم مُهرِّبو بضائع جسورون؛ فلا تدخل أيّ سفينة لهم المرفأ من غير أن يتمّ إرسال جزء كبير من حمولتها على الشاطىء خلسةً للتهرُّب من الضرائب الكبيرة. وتذهب لهذا الغرض إلى المرفأ ليلاً مجموعاتٌ من عشرين أو ثلاثين رجلاً وقد تسلَّحوا جيّداً. وهُم إذا ما تمَّ اكتشافُهم، يقاومون ضبّاط الجمارك بالقوّة غالباً.

إنَّ ضواحي المدينة جرداء قاحلة تماماً، فلا نرى فيها أيّ أشجارٍ أو خضرةٍ، سواء أكان داخل الجدران أم خارجها. وقد غُطّيَ السهل بالرمال خلف أرض الملح، بالقرب من البحر، ويبقى كذلك حتى يبلغ الجبال. ونرى جبلاً شاهقاً إلى الشمال الشرقي حيث تأخذ السلسلة الكبيرة اتجاهاً يميل أكثر إلى الغرب باتجاه بَدر. وأعتقد أنّه جبل «رضوى» الذي يذكره الجغرافيّون العرب أحياناً، والذي يضعه السمهودي على مسافة يومٍ واحدٍ من يَنبع وأربعة أيام من «المدينة». وعلى مسافة نحو ساعة واحدة شرقي المدينة، تقع مجموعة آبار للمياه العذبة، وتُدعى «عسيلية»، وقد بُنيتْ لريّ بعض حقول الشمّام (أو البطيخ الأصفر). ويخيّم البدو هناك أحياناً. وقد قامتْ في ذلك الوقت فرقةٌ من الخيّالة الأتراك بنصب الخيم قرب تلك الآبار.

في المدينة عدّة آبار للمياه المالحة، لكنّها تخلو من الخزّانات. ويتمّ التزوُّد بالمياه الصالحة للشرب من بعض الخزّانات الكبيرة التي تقع على مسافة خمس دقائق سَيْراً من بوّابة «المدينة»، حيث تُجمع مياه الأمطار. وقد حُفرتْ أقنية صغيرة عبر السهول المجاورة لتحويل مجرى جداول مياه الأمطار إلى هذه الخزانات. وهي فسيحةٌ ومرصوفةٌ بطريق جيّدة تحت الأرض، ويكفي بعضها لتزويد المدينة بأسرها لعدّة أسابيع. وهي ملكٌ لعائلات خاصة بناها أسلافها؛ وهم يبيعون المياه بأسعار معيّنة يحدّدها الحاكم الذي يأخذ كذلك من كلّ منهم ضريبةً. والمياه ذات نوعيّة ممتازة وهي أفضل من أيّ مياه في أيّ مدينة أخرى في الحجاز حيث لا يجتهد السكان بما يكفل إنشاء خزانات مماثلة. وحين تتخلّفُ أمطار الشتاء، يُعاني سكّان يَنبع بشدّة، ويُرغمون على ملءِ قِرباتهم من آبار «عسيليّة» البعيدة.

كانت يَنبع سابقاً مُلحقة بحكومة شريف مكّة الذي قام حتماً بتقسيم محصول الضرائب مع الباشا التركي في جدّة. أما غالب، فكان يستولي عليه بالكامل لخزينته الخاصة؛ وكان يحتفظ هنا بوزير، أو حاكم، مع حرسٍ من نحو خمسين أو ستّين رجلاً. ويبدو أنّه كان يتمتّع

بسُلطة إضافيّة غير تلك التي تُخوّله جبي الضرائب، في حين تُرك عربُ المدينة لحكومة شيوخهم، فكانوا يتمتّعون بحريّةٍ أكبر بكثير من أهل مكّة وجدّة. ولم يكن الشريف ليستخفَّ بقبيلة «جُهينة» القويّة؛ وكان كلّما عانى أحدُ الرجال من الاضطهاد في يَنبع بغير عدلٍ، كان يُسرعُ إلى أقاربه في الصحراء الذين كانوا يردّون بإلحاق الأذى برجال الشريف أو قوافله، إلى أن تتمّ تسويةُ المسألة.

عندما قام سعود، الزعيم الوهابيّ، بمهاجمة الأجزاء الشمالية من الحجاز، كانت محاولاتُه الأولى إضعاف قبيلتيْ بني «حرب» وبني «جُهينة» البدويَّتين بما يكفل إخضاعهما له، وقد ساعده على ذلك العداوة التي كانت بين القبيلتين. وبعد استسلام «جُهينة»، وبعد أن دخلت إلى يَنبع النخل فرقةٌ من الجنود الوهابيّين، هاجم سعود يَنبع للمرّة الأولى سنة ١٨٠٢ مع قوّةٍ كبيرةٍ بقيتْ متمركزةً أمامها لعدّة أسابيع في محاولاتٍ متكرِّرة لاغتصابها والاستيلاء عليها.

بعد انسحابه، بنى أهل ينبع الجدار القويّ الجديد حول البلدة، بأمرٍ من الشريف الذي جعلهم يتحمّلون نفقات هذا العمل كلها. وبعد أن أذعن غالب نفسه لسُلطة سعود المتفوّقة الذي استولى على مكّة، بقيتْ ينبع صامدة لعدة أشهر وعندما تحضَّر جيشٌ جرّارٌ قويّ لمهاجمتها وهرب الوزير نفسه، قام حينها أهل ينبع بإرسال رسولٍ إلى سعود، فاستسلموا وتبنوا عقيدته في الوقت نفسه. ولم يضع الوهابيون فرقة جند في المدينة؛ واستمر الشريف في إبقاء حاكمه هناك. لكن أتى جباة الضرائب الوهابيّون، فباتَ السكّان الذين لم يتعرّضوا قبلاً لأيّ مضايقات، باستثناء مركز الجمرك، يشعرون أنَّ حكومةَ الوهابيّين تضغط عليهم بشدّة.

في خريف سنة ١٨١١، حين نفّذ الجيشُ التركيُّ، بقيادة طوسون باشا، تمركزه الأوّل قرب المدينة، كان أهل ينبع راغبين في التخلُّص من حكومة الشريف والوهابيّين على حدٍ سواء. وقد أسرع في الهرب ضبّاطُ غالب وسعود الذين كانوا آنذاك في المدينة؛ وبعد عرضٍ تافهٍ للمقاومة في اليومين الأوّلين، والذي قدّمه آمِر جيش غالب الذي لم يكن معه سوى بضعة جنود، رأى أنَّ السكّان كانوا ضدَّ القتال تماماً، ففتحت المدينةُ أبوابها وتعرّضت لبعض الأضرار من الجنود الأتراك غير المنظّمين. منذ ذلك الوقت، كانت يَنبع مليئةً بهم، وقد جعلوا منها محطّةً للمفوّضيّة لتدريب الجيش التركي المتأهّب ضدّ العدوّ في جوار «المدينة». وبما أنَّ الجنود كانوا على مسافة من الباشا أو ابنه، فقد كانوا يتصرَّفون بفوضويّة أكبر بكثير ممّا كانوا سيجرؤون على فعله في جدّة أو مكّة. وكان كلُّ بمباشي Bimbashy، أو آمِرُ مجموعة يصلُ إلى هنا مع جنوده، يأخذ على عاتقه حكومة المدينة خلال إقامته؛ في حين أنَّ الحاكم الفعليّ، سليم آغا، الذي كان يملك بضعة جنود فقط تحت إمرته، كان يُهمَّشُ ويتحوّلُ إلى لا شيء. وقد نشبتْ عدّةُ نزاعاتٍ حين

إقامتي مما أثار سخط السكّان. فقد قام ضابطٌ تركيٌّ بقتل شابٍ عربيّ في الشارع بمسدَّسه في منتصف النهار، وكان ذلك الضابطُ يقدِّم للشاب لفترة من الوقت عروضاً شائنة يراوده فيها عن نفسه. وقد ارتكبَ هذه الجريمة برباطة جأشٍ عظيمة انتقاماً منه بعد رفضِه، ثمَّ اختبأ في مقر البمباشي الذي دعا جنوده لحمايته من سخط الناس وحَنَقهم. وأسرعَ أقاربُ الشاب العربيّ إلى «المدينة» لطلب دم المعتدي من محمَّد علي باشا؛ وقد غادرتُ يَنبع قبل أن تتمَّ تسويةُ المسألة.

وأهل ينبع كلُّهم مسلَّحون على الرغم من أنَّهم نادراً ما يُظهرون ذلك علناً، وهم عادةً يحملون هِراوةً ثقيلةً في يَدِهم. ويحتفظ القليل منهم بالجياد، إلاّ أنَّ لقبيلة جهينة المستقرّة في يَنبع النخل سلالة جيدة من جياد نجْد، لكنَّ عددَهُا قليل. وتحتفظ كلُّ عائلة بالحمير لإحضار المياه إلى المدينة. كما أنّنا نحس هنا بقلة الخدم والعمال أكثر ممّا نحس به في مدن الحجاز الأخرى. فإنَّ أياً من أهل ينبع لن يشترك في أيّ عملٍ يدويّ إذا ما كان لديه أملٌ ولو كان ضئيلاً في تأمين لقمة عيشه بوسائل أخرى. إنَّ الفلاّحينَ المصريّين الذين تمَّ تركُهم هنا على هذا الساحل بعد تأديتهم الحجّ. والمرغمون على كسب المال لكي يتمكّنوا من العودة إلى ديارهم، يعملون حمّالين وعمّال، فيُحضرون الخشب والماء، إلخ. وقد رأيتُ أحدَهم يدفع ليرة ونصف لأحد الرجال ليحمل له ثقلاً لمسافة خمسمئة ياردة من الشاطىء إلى أحد المنازل.

يَنبع هي الأرخص مكاناً في الحجاز فيما يتعلّق بالمؤن، وتتوافر فيها المياه الجيّدة التي تبدو أكثر منفعة للصحّة منها في جدّة. وكان يمكنُ أن تكون الإقامة فيها مقبولةً لولا تلك الكميّة غير المعقولة من الذباب الذي يكتظّ به الساحل. فلا يخرجُ أحدٌ من منزله دون أن يحمل مروحةً يدويّةً في يده لطرد تلك الحشرات؛ كما أنه من المستحيل تناول الطعام دون ابتلاع بعضها التي تدخل إلى الفم فور فتحه. ونرى سُحُباً منها تمرُّ فوق المدينة، وهي توجد حتى على السفن التي تُبحرُ مبتعدةً عن المرفأ وتبقى على متنها خلال الرحلة كلّها.

مِنْ يَنبُع إلَى القاهِرَة

أبحرتُ من يَنبع في صباح يوم الخامس عشر من شهر أيار/ مايو في «سمبوك» مكشوف، أو قارب كبير متَّجه إلى القُصير لتحميل الحنطة هناك. وكان الريِّسُ أو الربّان ابنَ المالِكِ، وهو من أهل يَنبع. وقد اتّفقتُ معه على عبوري من هنا إلى القُصير مع عبدي لقاء خمسة دولارات؛ حيث يدفع الحجّاجُ عادةً دولارين ودولاراً واحداً يدفعه الفقراء والخدم. وقد سمحت الحكومة لمالكي السفن بنصف دولار للشخص فقط لنقل الجنود. وبما أنّه كانَ لشريك آمِرِ يَنبع حصّةٌ في هذا القارب، فقد سُمحَ له بالانطلاق بلا جنود. وقال لي الريِّس إنّ هناك اثني عشر عربياً فقط مسافرين على متن قاربه. وبعد أن جعلني أدفع دولارَيْن إضافيَّيْن عن التعرفة المعتادة، وافقَ على منحي مكاناً صغيراً خلفَ المكان المخصَّص للمسافرين لي وحدي. غير أنيّ حين صعدتُ على متنِه، وجدتُ نفسي وقد أُصبتُ بخيبة الأمل؛ حيث كان هناك ما يفوقُ الثلاثين راكباً، خاصةً من السوريّين والمصريّين وقد احتشدوا في القارب مع نحو عشرة بحّارة. كما كان الريِّسُ وأخوه الأصغر سنّاً والقبطانُ والمضيفُ قد استقرّوا في المكان الواقع خلف الدفّة والذي قد اتفقتُ على شغله بنفسي. إنَّ زيارة يَنبع من جديد، وهي موطنُ الموت، أمرٌ لا يُنصحُ به؛ وعندما لم أرَ أيَّ مظاهر للطاعون على متن القارب، أذعنت لِقسمتي ونصيبي من غير الخوض في جِدال عقيم. فأبحرنا على الفور على مسافة قريبة من الشاطىء. وفي المساء ألفيتُ نفسي وقد باتتْ حالتي أسوأ بكثير ممّا توقّعته حين أتيتُ إلى القارب؛ فكان هناك في المحتجز ستّة أشخاصٍ من المرضى، كان اثنان منهم في حالةٍ من الهذيان العنيف. وقد ماتَ أحدُهم في اليوم التالي وتمَّ رميُ الجثمان في البحر. ولم يعد هناك شك في وجود الطاعون فعلاً على متن القارب على الرغم من إصرار البحّارة على النفي قائلين إنَّ ذلك كان مرضاً مختلفاً. في اليوم الثالث، شعر الصبيُّ، أخو الريِّس، بألمٍ فظيعٍ في رأسه؛ وخوفاً من الطاعون، أصرَّ على إنزاله إلى

الشاطىء. كنّا حينذاك في خليج صغير، فأذعن الريّس لتوسُّلاته واتَّفقَ مع بدويّ على الشاطىء لحمله على ظهر الجمل في طريق العودة إلى يَنْبع. وقد تمَّ إنزالُه إلى البرّ، وأنا أجهلُ مصيره. إنَّ الوقايةَ الوحيدةَ التي استطعتُ اتِّباعها لتجنُّب العدوى كانت بوضع أمتعتي حولي، كأنيّ أشكّلُ بقعةً منعزلةً حيث كان لي فيها مجالٌ كافٍ للجلوس بطريقة مريحة، ليس إلاّ. لكن، على الرغم من ذلك، فقد كنتُ مضطراً كلَّ لحظة للاحتكاك مع مجموعة القارب. ولحسن الحظ، لم ينتشر الوباء؛ وقد حدثت وفاةٌ واحدة أخرى في اليوم الخامس من انطلاقنا بالرغم من إصابة عدّة مسافرين بالمرض الذي أعجز عن الجزم بأنه الطاعون، حيث أني لم أقُم بفحص الجثث؛ غير أنَّ كلَّ ما كان يُحيط بي قد دفعني إلى ذلك الاعتقاد. كما أنَّ دُوار البحر المتواصل والتقيؤ الذي عانى منه المسافرون كان بالنسبة إليهم عمليّة إنقاذ طبيعيّة. أما بالنسبة إليّ، فقد كنتُ في صحَّةٍ غير جيّدة أبداً طوال الرحلة وقد أضنَتْني القشعريرة والبُرداءُ التي تفاقمتْ من جرّاء النقص في وسائل الراحة على متن القارب. وقد اشمأزَّتْ نفسي من كلِّ أصناف الطعام باستثناء الحساء الخفيف. فكنتُ، كلّما دخلنا في ميناءٍ، أشتري خروفاً من البدو بُغيةَ تحضير طبقٍ من الحساء. وعبر توزيع اللَّحم على المسافرين في القارب تمكَّنتُ من كسب مودَّتهم بحيث كانوا يُكرمون وفادتي في كلِّ مناسبةٍ، وكنتُ أستطيع طلب المساعدة منهم كلَّما احتجتُ إليها، إما لرفعِ الظِلَّةِ كلَّ صباحٍ وإمّا لملءِ قربة الماء خاصَّتي على الشاطىء.

إنَّ الملاحةَ هنا هي نفسها التي سبق أن وصفتُها في سفري من السواقين إلى جدّة. فكنّا ندخلُ إلى ميناءٍ كلَّ مساء ولا نُبحر أبداً خلال اللّيل، لننطلقَ مجدَّداً عند طلوع النهار. وإذا ما علمنا أنّه لا يوجد أمامنا أيّ خور صغير أو ميناءٍ قريب بحيث نبلغه قبل غياب الشمس مع الرياح التي تكون آنذاك، كنّا نتوقَّف أحياناً في مكانٍ للإرساء بعد منتصف النهار بقليل. ولسوء الحظّ، فقد جرفَتْ بعيداً أمواجُ البحر العاتيةِ قاربَ السفينة الصغير في رحلة سابقة، لذلك نادراً ما كنّا نستطيع الوصول إلى الشاطىء، إلاَّ حين نجد سفناً أخرى نأخذ قواربها، لأننا كنا نرسو عادةً في المياه العميقة. وقد أظهر البحّارةُ هنا جُبناً عظيمَ الشأنِ كأولئك في السواقين في مناسبة سابقة؛ فكانوا، كلّما هبَّتْ ريحٌ يُنزلون الأشرعةَ؛ كما أنَّ الخوف من هبوب عاصفة ما، كان يجعلهم يأوون إلى أحد المرافىء. فلم نقم بالتالي أبداً بالإبحارِ لمسافات تتعدّى خمسةً وعشرين إلى خمسة وثلاثين ميلاً في اليوم. ولم يكن هناك على متن السفينة سوى برميل ماء واحد كبير ومُربَّع، كان يحتوي على كميّة تكفي لثلاثة أيام لاستعمال طاقم السفينة فقط. ولكلِّ من المسافرين قِربة ماءٍ خاصةٍ به، وكلّما بلغنا مورد ماء، كان يأتي البدو إلى الشاطىء ويبيعوننا ما تحويه قرباتهم المليئة. وكما كان يحدث أحياناً حين تتوقّف السفن في خليج بعيد عن أيّ آبار،

أو تُمنع من تركه بسبب الرياح المعاكسة، كان الطاقم يتعرّضُ لمعاناةٍ كبيرة جرّاءَ العطش إذ إنّهم لا يملكون على متن السفينة أبداً إلاّ ما يكفي لثلاثة أو أربعة أيّام.

لقد أبحرنا للأيام الثلاثة الأولى على طول شاطىء رمليّ قاحل تماماً وغير مأهول؛ وكانت الجبالُ ممتدّة إلى مسافاتٍ داخل الأرض. وعلى مسافة ثلاثة أيام برّاً وبحراً من يَنبع، كما يتمّ إحصاؤها عادةً، يقع الجبل المدعو «جبل حَصَّاني» الذي يصلُ إلى مسافة قريبة من الشاطىء. ومن هناك تقع شمالاً سلسلة الجبال المنخفضة في جوار الشاطىء التي يقطنها قليل من البدو. وتمتدُّ مخيّماتُ قبيلة «جُهينة» حتى هذه الجبال. وإلى الشمال منها، وحتى محطّة الحجّ التي تُدعى «الوجه»، أو كما تُلفَظ «الوشّ»، تقع مساكن بدو قبيلة «حطيم». وهناك العديد من الجزر في مقابل جبل «حَصَّاني»؛ كما أنَّ البحر هنا مليء بالضَّحل والصخور المرجانية بشكل خاص، والتي ترتفع قريباً من السطح، فتكتسبُ المياهُ من ألوانها المتنوّعة، إذا ما شوهِدتْ من بعيد، كلَّ ألوان قوس قُزح. وبعد الأمطار، في فصل الربيع، يسكنُ بدو الساحل تلك الجُزر الصغيرة حيث يرعون ماشيتَهم هناك طالما توافر الكلأ. وهم جميعاً صيّادون نشيطون ولديهم قوارب صغيرة. وهم يقومون بتمليح السمك. ويحملونه في قواربهم إلى يَنبع والقُصير. أو يبيعونه إلى السفن المارّة من هناك. وتخصُّ إحدى تلك الجُزر قبيلة بني عبس، وهي تُدعى «الحرّة»؛ وقد كانت هذه القبيلة البدويّة فيما مضى قويّةً نافذةً، إلاّ أنّها باتت الآن بضع عائلات تعيش مع بني «حطيم»، وهُم مثل هؤلاء، ذوو سمعة سيّئة عند كلّ جيرانهم. وهناك، على جزيرة أخرى، قبر إمام يُدعى شيخ حسن المرابط، وهو يضمُّ بعض المباني المنخفضة والأكواخ المحيطة به حيث تمركزت عائلة بدويّة من قبيلة «حطيم» التي تؤول إليها حراسة القبر. إنَّ خطَّ إبحار السفن العربيّة يمرُّ عادةً بالقرب من هذه الجزيرة، فيقوم الطاقم غالباً بإرسال قاربٍ بكميّات قليلة من الحنطة لأولئك الناس، أو بعض الزبدة والبسكويت والقهوة، لأنّهم يعتبرون الشيخ حسناً سيّد هذه البحار. وحين أبحرنا بالقرب منها، صنع ريّسُنا رغيف خبز كبيراً أعدّه في الرماد ووزّع قطعةً منه لكلّ شخص على متن السفينة يأكله تكريماً للإمام، ثمّ قدّم لنا بعدها فنجاناً من القهوة.

إنَّ البحّارة العرب بشكل عام يؤمنون بالخرافات، فيعتبرون بعض الممرّات مثيرةً للرّعب الشديد، ليس لأنها أخطر من غيرها، بل لأنّهم يعتقدون أنّ الأرواح الشرّيرة تسكنُ بين صخور المرجان، ويمكن أن تقوم بجذب السفينة باتجاه الضَّحل فتسبّب لها الغرق. وهم يُحافظون للسبب نفسه، على العادة الثابتة والدائمة برمي حفنةٍ من الطعام المعدّ إلى البحر عند كلّ وجبةٍ قبل أن يجلسوا هم أنفسهم لتناوله. ويقولون إنّه يجب أن يحصل سكّان البحر أيضاً على

حصّتهم وإلاّ فهم سيعمدون إلى عرقلة سير السفينة. وقد غفل ريّسُنا ذات مرّة عن القيام بذلك؛ لكنّه حين فَطِنَ للأمر، أمرَ بإعداد خبز طازج ورمى به إلى البحر.

خلال هذه الرحلة، كنا نلتقي كلَّ يوم بسفن قادمةٍ من مصر، وكنّا نرسو أحياناً في الخليج نفسه مع ثلاثة أو أربعة منها في المساء. وتَنشبُ أحياناً في تلك الظروف المشاجرات حول الماء، فترغم السفن في بعض الأحيان على الانتظار ليوم أو يومين حتى يأتي البدو بمؤونة كافية إلى الساحل. وتتوافر الزبدةُ في كلِّ مكانٍ بغزارةٍ فضلاً عن الحليب والعسل والخِراف والماعز والسمك المملَّح وخشب الموقد وأغصان رفيعة من جنبات «الأراك» التي يصنع منها العربُ فرشاةَ أسنانهم والتي يجمعها البدو على هذا الساحل. وتتمّ عادة مقايضة تلك المواد بالحنطة أو التبغ. إنَّ هؤلاء البدو لصوصٌ جسورون، وهم يعومون أحياناً إلى السفن خلال اللّيل لانتظار فرصة مناسبة للسلب والنهب. والمياه على كلِّ الساحل سيّئة النوعيّة إلاّ عند «الوجه» و«ضُبا». إنَّ «الوجه» التي تُعرفُ عادةً ببعدها عن جبل «حصاني» بثلاثة أيام شمالاً هي عبارةٌ عن حصن يقع على طريق الحجّ بنحو ثلاثة أميالٍ داخل الأراضي. وهناك بالقرب منه نبعٌ للمياه مميّز؛ وهناك كذلك آبار غزيرة من المياه المتوسّطة النوعيّة التي تقع في تخوم خليج صغير هو عبارة عن مرفأ للحصن، ويُدعى بالتالي «مرسى الوجه». ويحمي بعضُ الجنود المغربيّين هذا الحصن الذي يُقال إنّه يفيض بالمؤن. وقد تزوّج العديد منهم من نساءٍ بدويّات؛ وهم يمارسون تجارةً بسيطةً في المؤن مع السفن المارّة من هناك.

يسكن الجبال المجاورة «للوجه» بدو قبيلة «البِلي». وإلى الشمال من «الوجه»، على مسافة يومين جنوبي «مُوَيْلح»، يقع «مرسى ضُبا» المشهور بآباره الممتازة. ويقع مكان المرسى في خليج واسع هو أحد أفضل الموانىء على هذا الساحل؛ وتقع الآبار على مسافة نصف ساعة داخل الأراضي في بستان نخل تحت أشجار النخيل. وتمرُّ طريق قافلة الحجّ المصرية من هنا، وتمّ بناء بركة أو خزّانٍ لتأمين راحتها. وتقف السفن التي تُبحر من القُصير إلى يَنبع في هذه النقطة عامةً، ثمَّ تتابع من هناك رحلتها الساحليّة باتجاه الجنوب. وإلى الشمال من «ضُبا»، على مسافة يومين منه، يقع حصن مُوَيْلح وقريتها الصغيرة في أراضي بدو قبيلتي الحويطات وعُمران. وقد مررنا بها على مسافة معيَّنة، لكنّي تمكّنتُ من رؤية مزارع كبيرة من أشجار النخيل قرب الشاطىء. إنَّ ما يدْعونه الحصن، يبدو كبناءٍ مربَّع يقع على السهل الكبير القريب من المياه. وموقعُ مُوَيْلح مميَّز جداً بسبب الجبل الشاهق الذي يقع خلفها تماماً وله ثلاث قِمم مستدِقّة الرأس ترتفع عن الأخريات بحيث تمكن رؤيتها من مسافة ستّين إلى ثمانين ميلاً. وقيل لي أنّه يمكن رؤيتها من القُصير عند شروق الشمس في أيام الشتاء الصافية. ومُوَيْلح هي المركز الرئيسيّ على هذا الساحل من العقبة نزولاً حتى يَنبع. ويُمارس سُكّانها، وهم بقسمهم الأكبر من البدو

المستوطنين، تجارة الماشية والسمك مع يَنبع وطور، ويرتادُ سوقهم العديد من البدو من داخل البلاد. وهي المكان الوحيد على هذا الساحل حيث تُقام سوقٌ بشكل منتظم، وحيث تتوافرُ المؤن باستمرار؛ وبالتالي فإنّها تؤمّنُ الراحة الموقّتة للسفن التي تعوق مرورها الريّاح المعاكسة. وبما أنَّ المؤن عزيزةٌ جداً ونادرة في الحجاز ورخيصة الثمن في مصر، فلا تتوقّف السفن أبداً أكثر ممّا هو ضروريّ، عند مغادرة مرافىء الحجاز باتجاه القُصير أو السويس؛ إلاّ أنَّ مرورَها الذي يتوقّعونه عادة أن يكون في عشرين يوماً، يدوم غالباً شهراً وأحياناً شهرين.

من مُوَيْلح، تبدو شبه جزيرة سيناء بوضوح، عبر النقطة التي تُدعى «رأس أبو مُحمَّد». وتأخذ السفن المتّجهةُ من يَنبع إلى القُصير هذا الرَّعن عامةً، أو إحدى الجزر الواقعة خلفه، ومن ثم تُبحر جنوباً إلى القُصير. وهم يقومون بذلك بُغية الاستفادة من الرياح الشمالية التي تهبُّ في تلك الأجزاء من البحر الأحمر لتسعة أشهر في السنة. وهم يفضّلون طريقة السفر الساحلي البطيء المملّ لأنّه الأكثر أماناً، ولأنّهم يتمتّعون خلاله غالباً بنسمةٍ آتيةٍ من البرّ، فيفضّلونه على المخاطر والجهد المضني الذي يتعرّضون له عند الإبحار في عرض البحر ضدَّ مجرى الرياح؛ أو على البقاء في خطّ مستقيم من جدّة أو يَنبع إلى الساحل الإفريقيّ حيث لا يلتقون في المرافىء جنوب القُصير سوى بالقليل من سفن البحر الأحمر، كما أنَّهم يخشونَ جداً سكّان البدو من تلك المنطقة.

عند بلوغ «رأس محمَّد»، يُلقون مرساتَهم بالقرب من إحدى الجُزر الصغيرة، أو يدخلون المرفأ المدعو «شِرم» حيثُ ينتظرون هبوب ريح معتدلة تحملهم عادةً إلى القُصير في يومٍ أو يومين. أما فيما يتعلّق بنا، فلم يحدث معنا خلال الرحلة بأكملها أيّ نوعٍ من الحوادث غير السارّة، بالرغم من أنَّ الريح، التي نادراً ما كانت معتدلة، أرغمتنا ذاتَ مرّةٍ على البقاء في المرسى نفسه لثلاثة أيام. ولطالما توقّعتُ أن تتحطّم السفينةُ عند رؤية الربّان يُبحر بين الطّحل على الشاطىء. وهو عملٌ اكتسبَ فيه هؤلاء خبرةً واسعة يُظهرون في أثنائه جسارةً بالقدر الذي يُظهرون فيه الجُبنَ في عرض البحر.

بعد سفرٍ دام عشرين يوماً، بلغنا جوار «رأس أبي محمَّد» في الرابع من شهر حزيران/ يونيو. وقد تمَّ تأمين القارب ليلاً عبر كُلاّباتٍ عُلّقت ببعض الصخور المرجانيّة من جهة الريح، في جزيرة صغيرة أمام الرَّعن؛ حيث ينوي الربّانُ الإبحار عبرها في الصباح التالي.

بما أنّي علمتُ أنَّ البدو يكونون دائماً في ميناء «الشرم» لنقل المسافرين عبر البرّ إلى طور أو السويس، فقد رغبتُ في إنزالي إلى الشاطىء هنا. وكانت الطريقُ من هنا إلى القاهرة أقصر بكثير من تلك التي تمرُّ عبر القُصير؛ كما أنَّ حالتي الصحيّة السيّئة جعلتْ من الأفضل لي تركُ

السفينة حيث لم يكن متوفّراً لديّ أيّ من أسباب الراحة، وحيث الخوف من الطاعون لم يكن قد زال بعدُ، بالرغم من أنَّ أحداً لم يمتْ على متن السفينة خلال الأسبوعين الأخيرين. وكان الرّيسُ والربّان من اللطف بحيث خرجا عن مسارهما لقاء مبلغ أربعة دولارات أعطيتُها للأوّل، ودولار للثاني. وفي صباح اليوم التالي، في الخامس عشر من شهر حزيران/يونيو، دخلنا مرفأ «شرم».

يبعدُ «الشرمُ» مسافة أربع أو خمس ساعات عن النقطة المسمّاة «رأس أبو محمّد». وهو مرفأ فسيح جيّد فيه مرسى للسفن الكبيرة، ويقع عند مدخل خليج العقبة، وهو أفضل مرفأ على الجهة الغربيّة من ذلك الخليج. وتحت اسم «شرم»، أو «شروم» (في الجمع)، لكن يتمّ ارتياد المرفأ الجنوبي أكثر من الآخر. وبما أنَّ هناك بئراً غزيرة تقع بالقرب منهما، فإنَّ السفن القادمة من الحجاز أو إليه تزور هذين المرفئين غالباً. كما أنَّ المسافرين الراغبين في توفير الوقت الذي يتطلّبه السفر عبر خليج السويس (والذي يدوم طويلاً حين تسود الرياح الشمالية) ينزلون هنا فينقلهم البدو على الجِمال إلى طور والسويس.

يرى هؤلاء البدو الذين يعيشون في الجبال السفنَ من بعيد، وعند وصولها، يُسرعون إلى الساحل لعرض خدماتهم. في السابق، حين كان باشا مصر يتمتّع بسُلطةٍ اسميّةٍ على بدو الجِوار، كان طاقم السفن يخشى عرب طور أكثر من غيرهم، لأنهم كانوا ينتزعون منهم ضرائب منتظمة كلّما دخلوا إلى مرافئهم كما كانوا يتصرّفون بطريقة عدائية ووحشية جداً. أما في الوقت الحاضر، فقد نجح محمّد علي في ترهيب هؤلاء البدو، بالآمِر في السويس؛ فأصبح سلوكهم الآن ودّياً جداً والسفر معهم آمناً جداً. لكن، إذا ما صادف تحطّم سفينة ما على سواحلهم أو على الجُزر القريبة منهم (وهو أمرٌ ليس نادر الحدوث)، فهُم ما زالوا يدافعون عن حقّهم القديم في سلب الحمولة ونهبها.

عند المساء، قَدِمت سفينةٌ محمّلة بالجنود، كانت قد تركتْ يَنبع قبلنا بستّة أيّام. وتمَّ إنزالُ آمِر الجنود وأربعة أو خمسة من مجموعته، على الشاطىء ليتابعوا رحلتهم برّاً إلى القاهرة. وتابعت السفينتان في الصباح التالي رحلتهما إلى القُصير. ولم نلقَ صعوبةً في الحصول على جِمال، فأكثر من ثلاثين منها كانت جاهزة للاستئجار. وقد انطلقنا في اللّيلة التي وصلنا فيها في مجموعتين، وكانت المجموعة الأماميّة مؤلّفة من الجنود، والأخرى التي كانت على بُعد ساعتين خلف الأولى، تتألّف مِنّي أنا وعبدي ومُسافرين من دمشق قد سَرّهما الحصول على فرصةٍ لاختصار رحلتهما إلى الديار. ومشينا ذلك المساء لنحو ساعة ونصف في وادٍ، ثم توقّفنا لنرتاحَ ليلاً.

في السادس من شهر حزيران/يونيو، تابعنا طريقنا في أودية جرداءَ تقريباً تحت صخرةٍ وارفةٍ ناتئة أمَّنت لنا بعض الظلال. وذهب الجبليّون لإحضار الماء من مكانٍ في الجبال الغربيّة ويُدعى «الحمرا»، وقد ثبتتْ جودةُ تلك المياه ونوعيّتها الممتازة. وكانت تعيش في الوادي امرأةٌ وحيدةٌ تماماً وفقيرة مع مِاعزين. ويسودُ الأمنُ الكامل التام بين البدو أنفسهم في هذه المنطقة، فلا يخرقُه سوى سلوك الجنود الأتراك المشين الفاضِح الذين يمرّون من هنا. وقد عرفتُ هؤلاء الرجال حقَّ المعرفة من خلال تجربتي المتكررة، لذلك، فقد عدلتُ عن الانضمام إلى مجموعتهم. وعندما تابعنا طريقنا نحو المساء، التقينا على الطريق بأحد صِبْيَةِ البدو الذين يعملون كسائقي جِمال مع المجموعة أمامنا. ولم يكنْ جملُه الذي كان يركبه أحد الجنود قادراً على متابعة الرحلة مع الآخرين؛ فقام راكبُه، وهو غاضبٌ من هذا التأخير، بسَحْب سيفه وجرحِ الحيوان لحثّه على السَّير بخُطىً أسرع. وحين احتجَّ الصبيُّ وأمسكَ بالرَّسنِ، تلقّى هو كذلكَ ضربةً من السيف على كتفه. وبعد أن استمرَّ في الحفاظ على موقفه، قام الوحشيُّ بإطلاق النار عليه، ففرَّ الصبيُّ مبتعداً وانتظر وصولنا. وسمعنا، وعلى بُعد بضعة أميال، اللّعنات التي كان يُطلقُها الجنديّ عالياً، ووجدناهُ يسير خلف الجمل. ولأنّي توقَّعتُ نشوبَ عِراكٍ فقد عبّأتُ مُسدَّسي وبندقيّتي. وحين رآني أركبُ في مقدِّمةِ المجموعةِ أسرعَ على الفور نحوي وصرخ عالياً في وجهي باللّغة التركيّة طالباً منّي الترجُّل ومبادلة الجِمال معه. سخرتُ منه قائلاً باللّغة العربيّة بأني لستُ فلاّحاً لأُخاطبَ بمثل هذه الطريقة. وبالأسلوب المعتاد لأولئك الجنود الذين يحسبون أنّه على كلِّ شخص غير جنديّ الإذعان لأوامرهم والانصياع لها، استدار نحو عبدي وأمره بالترجُّل عن جمله مُقسِماً بإطلاق النار على واحدٍ منا إذا لم نستجب لأمره. عند سماع ذلك، أخذتُ بندقيّتي وأكّدت له بأنّها مُعبّأة بالبارود الجيّد النوعيّة وبأنّها قادرة على إرسال رصاصة إلى قلبه أفضل ممّا تستطيع بندقيّته أن تفعل بقلبي. وخلال هذه المشادّة الكلامية، شردَ جملهُ قليلاً في الوادي، وخوفاً على أمتعته، ركض وراءهُ فتابعنا السير. ولعجزه عن اللّحاق بنا في الرمال، أطلق النار عليَّ من بُعد، فأجبتُه على الفور، وهكذا انتهتْ المعركة. إلى الأمام قليلاً، وصلنا إلى رفاقه الذين ترجّلوا. فأخبرتُهم أنَّ رفيقَهم في الخلف كان منزعجاً من جَمَله، فأرسلوا عندها أحدَ البدو للبحث عنه وإحضاره في حين تابعتُ أنا السَّير، وخيّمتُ تلك اللّيلة في وادٍ جانبيّ خارج الطريق حيثُ انضمَّ إلينا الصبيُّ البدويُّ ثانيةً غير راغبٍ في أن يراهُ الجنود الآخرون.

ووجَّهنا سَيْرَ رحلتنا الآن بطريقة لا تؤدّي بنا إلى المواجهة مجدَّداً مع الجنود. لكن، بعد يومين، التقيتُ بالرجل ثانيةً في طور. وكان حاكمُ السويس آنذاك هناك، وكان بإمكاني التوجُّه إليه بشكْواي؛ وهذا ما كان هو يخشاه، لذلك مشى نحوي مبتسماً وقال لي بأساريرَ مُنفرجة إنَّه يأمل ألاّ يكون الحقدُ باقياً بيننا، وأنَّ الرصاصة التي أطلقها كانت فقط لاستدعاء رفاقه كي

يساعدوه مع جمله. وجواباً على ذلك، أكّدتُ له أنَّ رصاصتي أنا كان لها هدفٌ مختلفٌ تماماً وأنّي آسفٌ لأنّها أخطأتِ الهدف. فضحكَ عندها وذهب مبتعداً. ليس هناك على وجه البسيطة أشخاصٌ أكثر غطرسة وتعالياً وأشدَّ خِسَّةً وحقارةً ووضاعةً في الوقت نفسه من الجنود الأتراك. فهم يتصرَّفون بالطريقة الأكثر استبداديّة وطغياناً حين لا يتوقّعون أيّ مقاومةٍ، فلا يأبهون لقتل شخص أعزل مسالم عند أدنى نوبات الانفعال. لكنَّهم حين يواجهون مقاومةً شديدةً، أو يخشون أيّ عواقبَ وخيمة قد تتأتّى من سلوكهم، فليس هناك أيّ حقارة أو دناءة لا يخضعون لها على الفور.

وقد حدثَ مرّاتٍ عديدة أن التقيتُ بالجنود خلال رحلتي التي قمتُ بها عبر مصر برّاً من القاهرة إلى أسوان. وعليَّ أن أضع قاعدةً للمسافرين بأن يُعاملوا هؤلاء الأشخاص باستمرار بتعالٍ كبير، لأنّهم يعتبرون أيّ تنازل خوفاً منهم فيصبح سلوكهم بالتالي لا يُطاق. وقد سافرنا هذا اليوم لنحو تسع ساعات.

في السابع من شهر حزيران/يونيو، تابعنا سيرنا في أوديةٍ لنحو ساعتين ونصف الساعة حين وصلنا إلى جبل شاهق حيثُ أُرغمتُ على الترجُّل. ولاقيتُ صعوبةً بالغةً في الوصول إلى القمّة لأنَّ قوايَ كانت خائرة وكنتُ أرتجفُ من الحُمّى طوال اللّيلة الفائتة. وقد تطلَّب منا اجتيازُ الجبل نحو ساعتين ونصف للنزول إلى الوادي في الجهة الأخرى. وقد تجلّى لنا من على القمّة منظر رائع لخليج العقبة. يتألّف الجزء العلويّ من هذا الجبل من صخر الغرانيت وتتألّفُ السلاسل المنخفضة التابعة له من صخر غرونشتاين Grünstein. وخرجنا من هذه السلسلة بعد الظهر إلى السهل الغربيّ الذي ينحدر ببطء نحو بحر السويس، وخيّمنا فيه بعد مسيرةٍ دامت نحو عشر ساعات.

في الثامن من شهر حزيران/يونيو، بلغنا الطور بعد نحو ثلاث ساعات ونصف من المكان الذي استرحنا فيه. هنا، وجدنا كلَّ شيء في حالةٍ من الحيويّة والاهتياج. فقبل بضعة أيام، وصلتْ إلى هنا من يَنبع امرأةُ محمَّد علي باشا التي التقيتُ بها عند كلِّ محطّةٍ تقريباً في هذه الرحلة؛ وكانت قد نزلتْ إلى الشاطىء كي تُتابع برّاً إلى السويس لأنَّ الرياح كانت تعصفُ بشدّة من الشمال. وقد أتى لملاقاتها حاكم السويس وشقيقُها مصطفى بك وأحد ضباط الباشا الرئيسيّين. وكانت خيمُها منصوبةً قرب قرية الطور الصغيرة. وطُلبَ إحضار أربعمئة إلى خمسمئة جمل لنقل حاشيتها وجنودها إلى السويس؛ وكانت تنتظر هنا منذ أسبوعٍ كامِل حيث لم يتمّ توفير هذا العدد.

عقدتُ العزمَ على التوقّف عند الطور لبضعة أيّام حتى أستعيد ما يكفي من القوة لمتابعة

الرحلة إلى القاهرة. لكني حين علمتُ أنّ الطاعون كان لا يزال منتشراً في السويس، كما في القاهرة، بدّلتُ مُخطّطي وصمّمتُ على البقاء هنا لبضعة أسابيع إلى أنْ يمرّ موسم الوباء. غير أنّي ما لبثتُ أن وجدتُ الإقامةَ في الطور غير باعثةٍ على السرور. فقد بُنيتْ هذه القرية الصغيرة في سهلٍ رمليّ بالقرب من الشاطىء بلا أيّ مأوى من الشمس؛ وكان هناك بضع مزارع نخيل على مسافةٍ معيّنة خلفها. ومنازلها فقيرة بائسة، تسدُّ السبيل إليها مجموعاتُ من الذباب والبرغش. بقيتُ في طور ليلاً؛ وحين سمعتُ من البدو عن قريةٍ صغيرةٍ أخرى تبعد مسافة ساعة واحدة من هنا، وفيها حدائق وافرة ومياه ممتازة، عزمتُ على إيجاد مسكنٍ لي هناك.

يُحيط بهذه القرية جدارٌ شبه مهدّم. ونرى كذلك آثار حصن صغير بناهُ، كما يُقال، السلطان سليم الأوّل الذي حصّنَ المراكز الخارجيّة في امبراطوريّته كلها. وقد نوى الفرنسيّون إعادةَ بنائه لكنّهم غادروا مصر قبل المباشرة بالعمل. وهناك قريتان صغيرتان تبعدان نحو ميل واحد على جانبي الطور سكانهما من اليونانيّين فقط، وهم قرابة العشرين عائلة، ومعهم كاهنٌ تابعٌ لرئيس الأساقفة في جبل سيناء. وهُم يكسبون رزقهم عبر بيع المؤن إلى السفن التي ترسو هنا لتتزوّد بالمياه التي تتوافر بغزارة هنا في الآبار والتي تتمتّع بنوعيّة جيّدة. والمؤن هنا نادرةٌ وعزيزةٌ أكثر منها في القاهرة بمرّتين. ويملكُ أهلُ الطور قوارب صغيرة خاصة يُبحرون فيها إلى السويس لأجل تلك المؤن. ولولا مرور الجنود الأتراك، لكان هؤلاء السكّان أغنياء، لكنّهم يعيشون في شحّ فائق، لأنَّ طمعَ هؤلاء الرجال وجشعهم غالباً ما يجرّدهم في يومٍ واحدٍ من الأرباح التي جَنَوها خلال سنة كاملة. ولا يحتفظ الباشا هنا بأيّ فرقة من الجنود.

في التاسع من شهر حزيران/ يونيو صباحاً، ذهبتُ على السهل إلى القرية المذكورة أعلاه والتي تُدعى «الوادي»، بعد أن تركتُ مخزوناً كافياً من المؤن في الطور. وقد وجدتُ مسكناً بسهولة، وسُرِرتُ حين لم أُصَبْ بخيبة الأملِ عند رؤية هذه القرية، إذ إنها تتألّف من نحو ثلاثين منزلاً بُنيتْ في الحدائق وسطَ أشجار النخيل؛ فكان لكلّ منزلٍ حديقته الصغيرة الخاصة. وقد استأجرتُ مبنىً صغيراً نصف مكشوف قمتُ بتغطيته بسعف النخيل، ولقد سرّني وجود أرضٍ مظلّلةٍ مبهجة بالقرب مني حيث ينمو النخل وشجر النبق والرمّان والمشمش؛ وكنتُ أتزوّد بالمياه الممتازة من بئر كبيرة تقع وسطها؛ فلم يبقَ لي ما أتمنّاهُ في الوقت الحاضر. ولم تُراوِد أهل هذه القرية، وأغلبهم من البدو المستوطنين، أيّ شكوكٍ حول الدوافع التي أتَتْ بي للإقامة هنا بعد أن رأوني شبه عاجزٍ عن الوقوف على رجليّ. فقاموا بالتالي بمعاملتي بلُطفٍ، كما أنَّ الهدايا البسيطة التي وزّعتها عليهم من اللّحم والمؤن الأخرى، ما لبثَتْ أنْ أمّنتْ لي حُسْنَ ضيافتهم، فكنتُ أملكُ الأسباب كلّها التي تُشعرني بالرّاحة في سلوكهم. وما لبثتُ أن

استعدتُ قواي وصحّتي بعد أن أخذتُ قسطاً كبيراً من الراحة التامّة وبعد أن تمتّعتُ بهواء الجبل الصحيّ في هذه القرية التي تقع على ارتفاعٍ أكبر من قرية الطور.

لم أجدْ نفسي للسنوات الأربع الأخيرة مرتاحاً كما كنتُ هنا، وذلك منذ أن غادرتُ صحبة صديقيَّ السيّد باركر والسيّد Masseyk، وحدائق حلب المبهجة. حتى إنَّ اليوم الأوّل الذي أمضيتُه في هذا المختلى، أدّى إلى تحسُّن واضحٍ وجليّ في صحّتي. وذهبتُ إلى الحمّام لاعتقادي أنَّ تمريناً بسيطاً قد يكون ذا فائدةٍ لي؛ وهو حمّامٌ دافىءٌ يقع خلف زاوية الجبل إلى الشمال من الطور، ويبعدُ عن «الوادي» بنحو نصف ساعة. هناك، تنبثقُ عدّةُ ينابيع دافئة من الجبل الكلسيّ؛ وإنَّ لأحدِها وهو الأهمّ، سقفاً بُنّياً، ويزوره كلُّ بدو الجِوار. وكان يؤمِّنُ راحة الزائرين في السابق هناك بعض الأبنية شبه المتداعية التي قد تكون بِقَدَمِ حصن الطور المهدَّم.

إنَّ للمياه حرارةً معتدلة، ويبدو أنَّها مُتشرِّبةٌ بالنيترات بعمق. وتقع مزارعُ النخيل الشاسعة بالقرب من هذه الينابيع. لم أرَ قط في حياتي أشجار نخيل تنمو بمثل هذا الغِنى والترف كما هي في هذا المكان، حيث تُشكّل غابةً كثيفةً جداً يصعبُ على أحد ما أن يعثُر على طريقه عبرها. وتخصُّ هذه المزارعُ بدو شبه الجزيرة الذين يأتون إلى هنا مع عائلاتهم عند قطاف التمر. غير أنَّ البستان الأكبر يملكه كهنة جبل سيناء اليونانيّون؛ ويعيشُ أحدُهم كناسِكٍ في بُرجٍ منعزلٍ يقعُ في وسطه، إذ إنّه المقيم الوحيد الدائمُ في هذا المكان. ويبقيه الخوف من البدو منغلقاً في بُرجه لأشهر عدّة. ويتمُّ الدخول إلى ذلك البرج عبر سُلَّم، والشخصُ الوحيد الذي يقتربُ منه هو رجلٌ يؤمّن له زاداً من الماء كلَّ أسبوع. ويوجد الكاهنُ هنا كحارسٍ للدير، لكنَّ التجربة قد أثبتتْ عدم فعاليّة المحاولات كلها لحماية الأشجار من اللّصوص البدو. لذلك، فقد أعطوا الفاكهة لأوّل قادم إلى المكان بحيث أصبح هذا البستان، الذي تبلغُ قيمةُ محصوله أحياناً أربعة أو خمسة آلاف لَيرة، ملكاً عاماً.

وقد لاقيتُ بعض الصعوبة في تأمين اللَّحم لي في «وادي»؛ لأنَّ الخِراف نادرةٌ جداً في شبه الجزيرة كلِّها، كما أنَّ أيَّ عربيّ لا يرغبُ في بيع ما يملك. وقد تمَّ إرسال قطيعٍ منها من السويس إلى الطور لتزويد امرأة محمّد علي وحاشيتها باللَّحم. وكنتُ هنا مُرغماً على دفع اثنتي عشرة ليرة لقاء جَدْيٍ صغير.

لقد ساهم الأسبوع الثاني من إقامتي في «وادي» في تحسين وضعي الصحيّ إلى حدّ بعيد. ولم أكُن قد شُفيتُ تماماً، إلاّ أنيّ أمِلْتُ في الوقت الحاضر، فقط في استرجاع ما يكفي من القوّة لمتابعة رحلتي إلى القاهرة حيث أتمكّن من العثور على وسائل الشفاء الكامل التامّ. وكنتُ أميلُ جداً لتسريع رحيلي بعد أن علمتُ أنَّ البدو الذين يملكون جِمالاً للإيجار ولم يقوموا

بتقديمها لنقل نساء الباشا، سيرحلون عمّا قريب من هذا الجِوار إلى القاهرة مع حمولةٍ من الفحم النباتي؛ ممّا قد يجعلُ من الصعب لي حينها تأمين حيواناتٍ للنقل.

لقد مضى ثمانية عشر شهراً دون أن أتسلم أيَّ رسائل من أوروبا، وشعرتُ بقلّة الصبر لبلوغ القاهرة حيث كنتُ أعلم أنَّ العديد منها في انتظاري. وعلمتُ أنَّ الطاعون يكون قد زال تقريباً عند وصولي لأنَّه ينحسرُ في نهاية شهر حزيران/ يونيو ويستسلمُ بسبب تأثير الموسم الحارّ. فقمتُ لذلك بحجز جملين من هنا إلى القاهرة ودفعتُ لقاءهما اثني عشر دولاراً.

وقد وضع العربُ في تلك الأنحاء ضرائب خاصة على النقل؛ فمن الذين يقطنون شبه الجزيرة هذه، كان لقبيلة «صوالحة» الحقُّ في نصف النقل، وكانت قبيلتا مزيِّن والعليقات تتقاسمان النصف الآخر. ولأني كنتُ بحاجة إلى جمَلين، كان على أحد أفراد «صوالحة» أن يؤمن لي واحداً وكان على أحد أفراد قبيلة مزين وعليقات أن يؤمِّنَ لي الآخر. وإذا صادف غياب أيّ أفرادٍ من هذه القبائل الثلاث، تتمُّ تسوية هذه المسألة مع أحدهم، فلا يكون للآخرين بعد ذلك أيّ حجّةٍ أو مطلب. لكن إذا كان العديد منهم موجودين في المكان، فذلك يؤدّي دائماً إلى نشوب الصّراع بينهم، فيكون على من يقود المسافر بنفسه، أن يُعطي للآخرين مبلغاً صغيراً من المال لإسكاتِ مطالبهم. كما تُحدِّد الضريبةُ نفسُها، أو القانونُ نفسه، حدوداً معيَّنةً حين يجتازها المسافر ودليله، لا يعود لمواطني هذا الأخير أيّ مطالب على النقل، وتقع تلك الحدود من الطور إلى الشمال، في منتصف الطريق بين الطور و«وادي»؛ وقد اجتازَ البدويُّ الذي نقلني على هذه الطريق، الحدود هذه خلسةً دون أن يقومَ بإبلاغ أصحابه. وقد لحقوا بنا حين رأونا على الطريق، لكنّنا كنّا قد اجتزنا الحدود قبل أن يتمكنوا من إدراكنا. فبات مصيري بالتالي مُعلّقاً بهذا الدليل. وحين استعلمتُ في «وادي» عن دليلٍ جديد يقلّني إلى القاهرة، قيلَ لي أنَّ أيَّ شخصٍ لا يستطيع التعهُّد بذلك دون عِلْم البدويّ الذي اجتزتُ الحدود على جمله، والذي أتى بي من الطور إلى «وادي»، أو دون الحصول على إذنٍ منه. فتمَّ استدعاءُ الرجل، إلاّ أنَّ جِماله لم تكن جاهزة، فتنازلَ عن حقِّه لآخرَ لقاء دولارين؛ فانطلقتُ مع هذا الأخير. إنَّ هذه المشاحنات التي تقع على النقل غريبةٌ جداً، وتكونُ معقَّدةً أحياناً بحيث يصعبُ معها اتّخاذ القرار؛ ويظلُّ المسافر في هذه الأثناء مستسلماً لكنّه لا يخشى خطر تكبُّد عبءٍ ثقيل لأنَّ المبلغ الواجب دفعه هو معروف عامةً، كما أنَّ أكبر مبلغ قد يخسره يصل إلى دولارٍ واحد.

غادرتُ «وادي» في السابع عشر من شهر حزيران/ يونيو، وكانت طريقُنا تقع أسفل من التلال الكلسيّة التي تفصلُ السهل عن البحر وتمتدُّ بموازاته لخمسٍ أو ستّ ساعات. ويُدعى هذا السهل القاحلُ ذو التربة الحصباء «القاع»، ولا يرغب فيه البدو لخُلوِّه من الينابيع واشتداد الحرارة

فيه إلى حدّ بعيد بسبب موقعه. وهكذا، وجدتُه بنفسي. وقد عانينا خلال هذا النهار بشدَّةٍ من إحدى الرياح الحارّة جداً أكثر ممّا خبرتُه في حياتي. وتوقّفنا في السهل المكشوف خلال ساعات الظهيرة من غير أن نجد أيَّ شجرةٍ تؤمِّنُ لنا الظِلّ. وقد صنعنا خيمةً من عباءةٍ بدويَّةٍ شُدَّتْ من الجهات الأربع، فساهمتْ بالكاد في إيوائي من الشمس، في حين لفَّ الدليل وعبدي نفسيهما بمعاطفهما واستلقيا في الشمس مسترسلين في النوم. وبدلَ أن يؤدّي إلى التعرُّق، فإنَّ هواء «السموم» الحارّ يخنُقُ المسامات كلَّها فيسدُّها. وفي المساء عُدتُ لأشعر بالبرداء مجدَّداً والتي استمرَّت في نوباتٍ غير منتظمة إلى أن وصلتُ إلى القاهرة. وخيّمنا هذه اللّيلة في «القاع».

في الثامن عشر من شهر حزيران/يونيو، صباحاً، دخلنا في وادي فيرار، وتبعناهُ نزولاً باتجاه البحر، ثمَّ تابعنا لبقيّة النهار على طول الشاطىء إلى أن بلغنا جوار البئر التي تُدعى «المرخا»، وتقع أمام الخليج الذي حمل اسم «بركة فرعون».

في التاسع عشر من شهر حزيران/ يونيو، تابعنا مجدَّداً السير من «المرخا» على طول الشاطىء، ثم دخلنا وادي طيبة، تاركين إلى يسارنا الجبال التي تصلُ إلى مسافة قريبة من الشاطىء، والتي يقع في وسطها الحمّام ويُدعى «حمّام سيدنا موسى». وطيبة هو وادٍ مليءٍ بالأشجار الذابلة بسبب نقص الأمطار. وعند بلوغ قمّته، تابعنا على سهلٍ عالٍ واجتزنا وادي «أسيط»، ونمنا في تلك الليلة في وادي «غرندل».

في العشرين من شهر حزيران/يونيو. بمرورنا بالقُرب من ينبوع «حواره» المالح، اجتزنا سهلاً قاحلاً وبلغنا وادي «وردان» عند منتصف النهار، وخيّمنا في المساء في وادي «سِدِر». وكانت رحلاتُنا النهاريّة طويلة جداً، وقد سافرنا لبضع ساعاتٍ خلال اللّيل لكيْ نبلغ السويس في وقتٍ ننضمُّ فيه إلى القافلة التي كانت هناك تتهيَّأ لنقل نساء الباشا إلى القاهرة. ولأني سأتحدّثُ عن هذه الطريق بالتفصيل في يوميّات زيارتي لجبل سيناء، فإني لن أدخل هنا في أيِّ أمورٍ محدّدة وخاصة. كما أنَّ الملاحظات التي دوَّنتُها في هذا الوقت كانت سطحيّة جداً.

في الواحد والعشرين من شهر حزيران/ يونيو، صباحاً، اجتزنا «عيون موسى»، وبلغنا السويس بعد الظهر. كانت القافلةُ تهمُّ بالرحيل، فانطلقنا معها في المساء. كانت الحراسةُ شديدةً، وكنّا كلُّنا نملكُ نحو ستمئة جمل. وسافرنا طوال اللّيل دون انقطاع.

وفي صباح الثاني والعشرين من شهر حزيران/يونيو، توقّفنا عند المكان المدعو «الحمرا» وهو محطّة الحجّ بين القاهرة و«أجرود». لقد أحضرتْ نساء الباشا عربتيْن من الحجاز سافرنَ فيهما على طول الطريق من الطور إلى السويس، حيث كانت الطريقُ سهلةَ العبور في كلِّ مكان. وتمَّ إرسالُ عربتين إضافيّتين لهنَّ من القاهرة إلى السويس، وكان يجرُّ إحداها أربعة أحصنة، وهي

برّوشة إنكليزيّة أنيقة (مركبة ذات أربع عجلات ومقعديْن متقابليْن وغطاء قابل للطيّ). فركبْنَ في هذه في السويس، وكُنَّ أحياناً يتركْنَها ليركبْنَ في حمّالات أو مِحفّاتٍ رائعة تجرُّها البغال. في المساء، انطلقنا مجدَّداً وسافرنا طوال اللّيل إلى أن بلغنا «بركة الحجّ» في صباح يوم الثالث والعشرين؛ فقمنا بالتالي بالرّحلة كلّها من الطور في ستّة أيام؛ وهي مسيرةٌ أنهكتْ قِواي جداً جرّاء الموسم الحارّ. عند «بركة الحج»، قام العديد من نبلاء القاهرة بملاقاة القافلة؛ وكان في نيّة نساء الباشا التخييم هناك لبضعة أيام بين بساتين النخيل. ولعجزي عن مواصلة الرحلة بنفسي، بسبب وهَني الشديد، في اليوم نفسه (على الرغم من أنَّ القاهرة لا تبعد سوى أربع ساعات)، فقد نمتُ هنا، ودخلتُ المدينة في صباح الرابع والعشرين من شهر حزيران/ يونيو، بعد غيابٍ دام سنتين ونصف السنة تقريباً. ووجدتُ أنَّ الرسالتين اللّتين كنتُ قد أرسلتهما من «المدينة» لم تكونا بعدُ قد وصلتا، فظنَّ معارفي أنيّ ضلَلْتُ. وكان الطاعونُ قد زال تقريباً، وخفَّتْ حِدَّتُه، وأعاد المسيحيّون فتح منازلهم؛ لكنَّ اكتئاباً شديداً كان يبدو سائداً في المدينة بسبب الوفيات التي حدثتْ فيها.

لقد تضاعفت الفرحةُ العارمة التي شعرتُ بها لعودتي إلى القاهرة بسبب رسائل المديح المشجّعة التي تلقَّيتُها من إنكلترا؛ إلاَّ أنَّ حالتي الصحيّة كانت ضعيفة جداً فلم أتمكّن معها من الانغماس كليّاً في ملذّات النجاح.

إنَّ أطباء القاهرة هم صنف الدّجالين والمشعوذين الأوروبيّين نفسه الموجودين بكثرة في أجزاء أخرى من الشرق؛ فقد جعلوني أبتلع كميّات من اللّحاء، وزادوا بالتالي مرضي سوءاً. ولم أتمكّن من استعادة عافيتي كاملةً إلاّ بعد شهرين في الإسكندريّة حيث ذهبتُ لزيارة الكولونيل Misset البريطاني المقيم في مصر، والذي كان قبلاً قد أَسَرَني بكثير من ألطافه؛ وأنا أدينُ بشفائي لرعايته اللّطيفة وعلى التمرين المنتظم على الخيل معه، أكثر من أيّ شيء آخر.

كما أنَّ رحلةً ممتعةً قمتُ بها في أشهر الشتاء عبر شمال مصر وبُحيرة منزلة، قد أعانتني على استعادة صحّتي وقوّتي المعتادة التي يسرُّني القول إنّها لم تشهد منذ ذلك الحين أيّ اضطراباتٍ أخرى.

الملاحق

ملحق

رقم - ١ -

محطّات قافلة الحجّ، وتُدعى «حجّ الكبسي»، عبر الأراضي الجبليّة بين مكّة وصنعاء في اليمن.

مَكَّة

اليوم الأوّل: شداد، فيها بعض المقاهي.

٢: قُرىٰ، وهي قرية صغيرة على قمّة الجبل المدعو بهذا الاسم.

٣: الطائف.

٤: عباسة، في مقاطعة عرب ثقيف.

٥: ملاوي جداره، وهي مقاطعة عرب بني سعد.

٦: مخره، وهي مقاطعة عرب ناصرة. إنَّ القرية الرئيسيّة لقبيلة بني سعد هي لغم، ولقبيلة ناصرة هي صور التي تبعد مسافة يوم واحد شمال أقصى حدود زُهران. في هذه المقاطعة أيضاً قرية بجيله المحصَّنة.

٧: السرار لعرب ثقيف.

٨: برحرح، وتقع على الطرف الشمالي من زُهران، وهي مقاطعة يسكنها عرب يحملون الاسم نفسه. والزهران هذه هي إحدى البلاد الأكثر خصوبة في السلسلة الجبلية، على الرغم من أنَّ قُراها تنفصل عن بعضها بعضاً بصخور جرداء. وتقطنها قبائل زُهران من بني مالِك وبني غامِد. إنَّ زعيم زهران، باخروج، بعد أن قاوم محمَّد علي باشا بشجاعة، أُخذ على حين غرّة في آذار/ مارس، سنة ١٨١٥، وتمَّ تقطيعُه بوحشية بأمر من ذلك الجنرال التركيّ.

٩: وادي علي، في المقاطعة نفسها.

١٠: مِشنيّة، وتقع على حدود زُهران الجنوبيّة.

١١: رغدان، وهي سوقٌ لعرب غامِد.

١٢: قُرنُ المغسَل، لعرب غامِد.

١٣: الزاهِرة، للعرب نفسهم. تملك قبيلتا زُهران وغامد الحجاز والمقاطعات المحاذية في تهامة، أو السهل الغربي باتجاه البحر، فضلاً عن السهل الشرقي الأعلى. إنَّ المركز الرئيسي لقبيلة غامِد، هو مخوع، وهي مدينة لا يجب الخلطُ بينها وبين مُخا.

١٤: الرهيطة، لقبيلة شمران القويّة النافذة.

١٥: أَدَمه، لعرب شمران.

١٦: تباله، لعرب شمران، وهي تمتدُّ على طرفيْ الجبال في السهل الغربي والشرقي.

١٧: الحصبا، وهي سوق عرب شمران.

١٨: العسابلي، وهي قرية لقبيلة عسابلي.

١٩: بنو شفره، وهي سوق لهذه القبيلة التي كانت سابقاً موحّدة مع عسابلي، لكنَّ الزعيم الوهابي جعل منها قبيلة مختلفة وبارزة.

٢٠: شط ابن عريف.

٢١: سِدوان، ويسكن هذا المكان، وشط ابن عريف، عرب قبيلة تُدعى أهل العريف.

٢٢: المطسا.

٢٣: ابن معان، وهي تخصُّ مع المطسا، عرب ابن قطلان.

٢٤: عِبل، وتقع في أراضي قبيلة عسير القويّة.

٢٥: ابن الشاير، لقبيلة عسير.

٢٦: دهبان، لعرب قحطان، وهي إحدى القبائل الأشدّ قوّةً ونفوذاً في الصحراء الشرقية.

٢٧: درب ابن العكيدة، وهو وادٍ تسكنه قبيلة رفيضة التي تنتمي إلى عسير، وهم خيالة أشدّاء.

٢٨: درب سلمان، لقبيلة رفيضة.

٢٩: وَكَشَة، لعرب عبيدة. في مقاطعة عبيدة، هناك مدينة عرين في أراضٍ شديدة

الخصوبة. ومن عرين جنوباً، يحتفظ العرب ببعض الجِمال على الجبال والعديد من الخِراف والمعز. وهم ما يدعونهم البدو باسم شواوي، أو أهل شاه، أو أهل بُل.

٣٠: وادي يعود، لعرب عبيدة.

٣١: حوض ابن زياد، لعرب عبيدة.

٣٢: ظهران، وهي مقاطعة وسوق لقبيلة وادعة.

٣٣: كراض، لقبيلة وادِعة.

٣٤: رُغافة، لعرب صَحّار.

٣٥: ضُحيان، لعرب صحّار.

٣٦: صعدة، لقبيلة صحّار. من صعدة تنطلق القافلة، أو حجّ الكبسي، وهي تُدعى كذلك من الأمير أو زعيم الحجّ، المصنَّف بالكبسي. يجتمع الحجّاج كلهم من الأجزاء الداخلية كلها في اليمن في صعدة، وهي مدينة كبيرة لكنّها في حالةٍ متداعية، وهي مشهورة في شبه الجزيرة العربيّة بأنها مكان مولِد يحيى بن حُسين، المتعهِّد الرئيسي للمذهب الزيديّ، الذي له موالون عديدون في تلك البلاد. وقد ظهر مؤخراً قدّيس جديد في صعدة ويُدعى سيِّد أحمد الذي يُبجّله الزيديّون جداً، أو المذهب الزيديّ، وهم يُلقِّبونه بالولي أو القدّيس حتى خلال حياته. ويحكم العرب صعدة، وامتدَّ النفوذ الوهابي إلى هذه الأنحاء. ويسكنُ العربُ البلادَ من صعدة باتجاه صنعاء، تحت رعاية إمام صنعاء.

٣٧: عاشميه، لقبيلة سُفيان.

٣٨: سوق لعرب بكيل.

٣٩: سوق أخرى للقبيلة نفسها. يخدم عرب بِكيل وحاشِد في هذه المقاطعة في جيش إمام صنعاء؛ ويذهب العديد منهم إلى الهند، ويفضّلهم هناك الأُمراء على أيّ طبقة جنود أخرى. ولدى الصاحب تيبو عدّة مئات منهم في خدمته. وهم يُبحرون عادةً عند شاهر في حضرموت، ووجهتهم الرئيسيّة في الوقت الحاضر هي غوزيرات وكوتش.

٤٠: غولة عجيب، لعرب حاشِد.

٤١: ريدة، لعرب عُمران.

٤٢: عيال سُراح، لقبيلة حمدان.

٤٣: صنعاء. من مكّة إلى صنعاء، رحلة استمرّت ثلاثة وأربعين يوماً حيث يقوم أغلب الحجّاج بالرحلة سيراً على الأقدام.

رقم - ٢ -

حول البلاد التي يُسافر عبرها الحجّاج «الكَبسيّ»، وحول عادات بعض القبائل العربيّة الاستثنائية

تقع طريق الحجّ هذه كلّها على طول جبال الحجاز واليمن، ويمتدّ السهل الشرقيّ على جهة منها، وتهامة، أو ساحل البحر، على الجهة الأخرى. وتمرُّ الطريق أحياناً عبر ممرّاتٍ صعبة وشائكة على قمم الجبال؛ والمياهُ وافرة في الآبار والسواقي. وأصقاع البلاد كلها مأهولة بكثافة، لكنّها غير مزروعة في كلّ مكان، حيث نجد الحقول المسيَّجة والأشجار في جوار الماء فقط. وهناك قرية عند كلّ محطّة للحجّ، وقد بُنيَ معظمها من الحجر وتقطنها قبائل عربيّة آتية أصلاً من هذه الجبال وانتشرت الآن على السهول المحاذية. وبعضُها قبائل مهمّة كزُهران وشمران وعسير وعبيدة؛ وبإمكان كلّ منها أن تؤمّن من ستّة إلى ثمانية آلاف بندقية قديمة (ذات الزناد)، حيث تكمن قوتّهم الأساسية في هذه البندقيات. والجياد قليلة في هذه الجبال؛ لكنّ قبائل قحطان ورفيضة وعبيدة المنتشرة كذلك على السهل، تملكُ سلالة كُحيل الجيّدة. إنَّ إنتاج هذه البلاد لا يكفي السكّان فحسب، بل يمكّنهم من تصدير كميّات كبيرة من القهوة والحنطة والفاصولياء والعنب واللّوز والمشمس المجفّف، إلخ..

يُقال أنَّ شجرةَ القهوة لا تنمو شمالاً خلف مشنيّة، في بلاد زُهران؛ إذ إنَّ الشجرة يتحسَّنُ نوعها باتجاه الجنوب. ويُنتج أفضل أنواع القهوة في جوار صنعاء. وينمو العنب بغزارةٍ في هذه الجبال، فالعنب يشكّلٍ صنفاً شائعاً من الغذاء لدى العرب، ويتمُّ تصديره إلى المدن على ساحل البحر، وإلى جدّة ومكّة حيث يُصنع منه نوعٌ من النبيذ، بالطريقة التالية: - يوضع العنب في جِرارٍ فخاريّة تُملأُ بالماء وتُدفنُ في الأرض وتُترك هناك لشهر كاملٍ تتمُّ خلاله عمليّة التخمير. وكما تُزرعُ في هذه الجبال أصنافٌ أخرى من الفاكهة حيث تتوافرُ المياهُ بغزارةٍ في الأوقات كلها وحيث المناخ معتدل. وقد تساقط الثلج أحياناً وتجمَّدت المياه حتى صعدة. ويشتري العرب ثيابهم القطنية في سوق تهامة أو على الساحل؛ كما يبيعهم الحجّاج المارّون بعض الأدوية والتوابل والإبر، ويتابعون طريقهم في أمانٍ تامّ، على الأقلّ منذ أن أخضعَ الوهابيّون البلادَ كلَّها عبر السيطرة والطغيان، بعد معارك دامية، على الشيوخ المعادين الذين كانوا مُرغمين على دفع ضريبة أو إتاوةٍ سنويّة.

تنتمي معظم القبائل العربية جنوب زهران إلى المذهب الزيديّ، وهم يعيشون في قُرى، كما أنّهم على الأخصّ من يدعوهم العرب بالحَضَر، أو المستوطنين، وليسوا بدواً. لكن، بما أنّهم يملكون قطعاناً من الماشية كبيرة، فهم ينزلون في وقت المطر إلى السهل الشرقي الذي يؤمّن

مرعىً وافراً خصباً للأبقار والجِمال والخِراف. ويحصلون على الثياب والأدوية والمعدّات، إلخ، من المرافىء البحريّة في اليمن حيث يبيعون الفاكهة المجفّفة والبلح والعسل والزبدة والقهوة، إلخ. وهم يقايضون الذرة بالماشية مع بدو السهل الشرقيّ. ويتمّ بينهم تداول الدولار الإسباني؛ لكنّ البضائع كلها في أسواقهم تثمَّنُ بمكاييل الحنطة. ويتألّف زيّ هؤلاء البدو عامةً من القماش القطني والجلد.

قبل أن يقوم الوهابيون بتعليمهم المبادىء الإسلامية الحقيقيّة، لم يكونوا يعرفون من دينهم أكثر من «لاإله إلاّ اللّه، محمّد رسول اللّه»؛ ولم يقوموا أبداً بتأدية الشعائر والطقوس المفروضة. وكانت قبيلة المريقدة وهي فرعٌ من قبيلة عسير الكبيرة، تُمارسُ عادةَ آبائهم الأوّلين وأجدادهم القديمة عبر تقديم إحدى نساء العائلة إلى الغريب الذي ينزل في خيمهم أو منازلهم لتكون رفيقةً له خلال اللّيل؛ وتكون عادةً زوجة المضيف نفسه. لكنّ هذا النوع من الضيافة البربريّة لم يكن ينطبقُ على العذارى. وإنْ كان هذا الغريب لبقاً مع شريكته، يُعاملُه مُضيفُهُ بعنايةٍ فائقة في الصباح التالي فيزوِّده عند رحيله بمؤن تكفي لما تبقّى من رحلته. لكنَّه، إذا لم يُرضِ السيّدة، لسوء حظّه، فإنّه يجد عباءته في اليوم التالي ممزّقةً كإشارةٍ منها على استيائها وعدم رضاها. وحين يعمُّ الخبر، يتمُّ إبعاد المسافر سيّىء الحظ، وتُلحقُ به نساء القرية وأولادها كلهم الخزي والعار. ولم يكن من السهل على الوهابيّين دفعهم إلى ترك هذه العادة جانباً. ولأنَّ المطر كان نادراً في السنتين التاليتين، فقد اعتبر عرب مريقدة أنَّ هذه البليّة كانت عقاباً لهم لتخلّيهم عن شعائر الضيافة الجديرة بالثناء وطقوسها، والتي مارسها أسلافُهم خلال قرونٍ عديدة.

لقد سمعتُ عن انتشار هذه العادة الغريبة في قبيلة مريقدة خلال أسفاري بين البدو السوريّين. غير أني لم أستطع تصديق مثل ذلك الخبر الذي لا ينسجم، أو بالأحرى يتناقض مع مفاهيمنا الثابتة تجاه الاحترام الذي يُراعى به شرف المرأة عند العرب. لكنّي لم أعُد قادراً على التشكيك في هذا الموضوع بعد أن حصلتُ في مكّة والطائف على إثباتاتٍ لا تقبل الشكّ من أشخاص مختلفين شهدوا فعلياً هذا الأمر وأكّدوا لي صحّته.

قبل الاحتلال الوهابيّ، كانت العادة السائدة بين عرب عسير هي بأن يأخذوا فتياتهم اللاّتي بلغنَ سنَّ الزواج إلى السوق العامة وهُنَّ في أحلى حللهنَّ. وكانوا هناك يسيرون أمامهُنَّ وينادون عالياً «من يشتري العذراء؟». ويتمُّ الزواج المتَّفق عليه من قبل أحياناً، في السوق دائماً، بحيث لم يكن يُسمح لأيّ فتاة بالزواج بطريقة أخرى.

وسمعتُ أنَّ النمور والذئاب تكثر في هذه الجبال، لكن ليس هناك أيّ نوعٍ من الأسود. وللعرب هنا نسلٌ جيّدٌ وأصيل من البغال والحمير.

رقم - ٣ -

الطريق من الطائف الى صنعاء

لقد أطلعني على هذه الوجهة رجلٌ فقير كان سافر مع زوجته سنة ١٨١٤ من صعدة إلى مكّة. وكان من أبناء مكانٍ ما يقع قرب صنعاء. وبما أنَّ الحجّ، أو حجّ الكبسي، قد انقطع لبضع سنوات، ولم يكن بإمكانه تحمّل نفقات الإبحار إلى جدّة، فقد أخذ هذه الطريق العمليّة جداً، حتى في هذه الأيام العصيبة، لأولئك القادرين على المرور كحجّاج دون إثارة الشبهات. وكانت تُكرمُ وفادةُ هذا الرجل أينما كان. وعند وصوله إلى قرية ما، يذهب إلى المسجد ويتلو سورةً من القرآن؛ فكان العرب حينها يسألون عن هُويَّته ويزوِّدونه بالكثير من القمح والحليب والعنب واللَّحم، إلخ. ولم يعترض اللُّصوص طريقه أبداً إلى أن وصل إلى مراكز جيش محمَّد علي التركيّ المتقدِّمة، حيث تمَّ سلبُه وتجريده من كلِّ مؤونته بفعل بعض الجنود. وهو يعجز عن تحديد أي يومٍ لرحلته تماماً لأنّه كان يتسكَّع من مركزٍ إلى آخر منتظراً أحياناً لعدّة أيام علَّه يحصل على بعض الرفقة له على الطريق. وقد استغرقت رحلته كلّها ثلاثة أشهر. وكان يُعيل نفسه عبر الغناء خلال اللّيل أمام منازل الحجّاج الأثرياء، فيردِّدُ سوراً تكريماً للنبيّ والحجّ. وكانت طريقه كما يلي: ـ

الطائف؛ عرب بني سعد؛ عرب الناصرة؛ سوق بقيلة، أو بجيلة؛ سوق رحاح؛ المندق في بلاد زُهران؛ البقاع في بلاد زُهران؛ رغدان في مقاطعة عرب غامِد؛ صُلّبات ويقطنها عرب غامِد وأولئك المدعوّون «خُثَم»، وهي قبيلة قديمة جداً ازدهرت في فجر الإسلام؛ عرب شُمران؛ بلِ قُرن ابن دُهمان، وهي قبيلة تُدعى كذلك؛ ابن الأحمر، وهي قبيلة عربيّة أخرى؛ ابن الأسمر، قبيلة عربيّة ـ إنَّ البلاد هنا تُدعى باسم سكّانها الذين لم يغفل عنهم هذا الرجل رغم أنّه لم يسترجع دائماً أسماء القُرى التي مرَّ بها في مقاطعات كلِّ قبيلة ـ عسير، إنَّ هذه القبيلة الآن قد توحَّدت مع الثلاثة السابقة تحت قيادة واحدة، زعيم عسير، الطامي، وقد ثَبُتَ أنَّه خصم محمّد علي الأكثر ثباتاً؛ وكان مقرُّ إقامته الرئيسي في حصن الطور المنيع الواقع على مرتفع وتُحيط به الجبال. وكان له كذلك قصرٌ آخر أصغر حجماً ويُدعى قصر الطُباب، في مدينة تبعد عن القنفذة على ساحل البحر مسافةً تتراوح بين أربعة إلى خمسة أيام.

في مقاطعة عسير، مرَّ الحجاجُ بالمدن التي تُدعى «شقرتين» و«الضحية» و«شوهطة» و«الجوف». كانت الطريق حتى الآن تقع دائماً على قمّة الجبل. وتابع المسافر من هنا إلى الأمام على طول الأودية التي تؤلّف السلسة المنخفضة من التلال التي تقطع السهل الشرقيّ.

عرب رفيضة؛ وعرب عبيدة؛ وحرجة، وهي مدينة في مقاطعة عرب سنحان، وتحتوي أيضاً على الوادي الخصب الذي يُدعى «الراحة»؛ ثم حُمرة، وهو مكان يسكنه عرب سنحان يقع على مسافة يوم واحدٍ شرقيّ وادي نجران، وهو يخصُّ قبيلة زُهران؛ ويَم، وتسكنه قبيلة وداعة، ويقع على الجبال، لكنَّ أهل وداعة يحتلّون أيضاً الأودية السفليّة؛ باقِم، وهي قبيلة عربية، وتقيم إلى الشرق منها قبيلة عرب خولان القويّة؛ ضُحيان، من قبيلة صحّار؛ صعدة. والمحطّات العاديّة من صعدة إلى صنعاء هي: بيت مجاهد؛ جُرف؛ خيوان وحوث، وهما مكانان يقعان في مقاطعة قبيلة حاشِد؛ ذيبين؛ عُمران؛ صنعاء ـ سبعة أيام من صعدة إلى صنعاء.

رقم - ٤ -

ملاحظاتٌ تتعلّق بالبلاد الواقعة جنوب مكّة

لقد سبق أن وصفتُ الطريق من مكّة إلى الطائف. يقعُ «لية» على مسافة تبعد أربع ساعات عن الطائف، في الاتجاه الجنوبي الشرقي؛ وهو وادٍ فيه ساقيةٌ وحدائق غنّاء ومنازل عديدة على ضفاف الجدول. وعلى مسافة نحو ساعتين جنوب لية، يقع قصر «بِسل» الشهير على الجبل، والذي شيّده زعيم عرب الحجاز كلّهم الأخير، عثمان المضايفة الذي سُجن بالقرب منه في شتاء سنة ١٨١٢. وهنا، خاضَ محمّد علي باشا معركته الحاسمة مع القوّات الوهابية الموحِّدة، في شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٨١٥. من لية، تمرُّ الطريق على مسافة سبع أو ثماني ساعات من وادي لية، واثنتي عشرة ساعة من الطائف. وهنا كانت مراكز الجيش التُركي الرئيسيّة لأشهر عدّة سنة ١٨١٤. وهو مكان مكشوف خالٍ من الأشجار أو أيّ سياج، وفيه العديد من حُفَر المياه؛ ويمتدُّ من الطائف بالاتجاه الشرقي والجنوبي الشرقي. ويعيشُ عرب قبيلة أُسامة حول لية وكُلاخ، وهم يشكّلون جزءاً من قبيلة عتيبة الكبيرة. وتقع أبيلة بين كُلاخ وتَربة، خارج الطريق المستقيمة، وكانت فيما مَضى مقرَّ إقامة الزعيم الكبير المضايفة. وتمرّ عبر كُلاخ، الطريقُ الأكثر ارتياداً من نجد إلى ظهران، ومن هناك إلى المرافىء البحريّة في اليمن. وبالتقدُّم على السهل من كُلاخ حيث نميل أكثر إلى الجنوب لمدّة ثماني عشرة ساعة تقريباً، نصل إلى مدينة تَربة كما يدعوها أهل الطائف ومكة، أو تُربة، حسب اللّفظ البدوي. وقال لي جندي يحملُ ساعةً إنّه قد أحصى ثلاث ساعات سيراً بين الطائف وتربة. وهي مدينة هامّة بحجم الطائف. ومميّزة بمزارعها التي تزوّد البلدان المجاورة كلها بالتمور؛ كما يذيع صيتُها للمقاومة التي أبدتها ضدَّ القوات التركيّة التابعة لمحمّد علي، حتى شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٨١٥، حين أرغم سكّانُها على الاستسلام. وتُحيط بتربة بساتين النخل والحدائق ويرويها العديد من السواقي أو

الأنهار الصغيرة؛ وتقع بالقرب منها تلال غير ذات شأنٍ يزرع العرب على سفحها الذرة والشعير. وسكّانها هم من قبيلة بقوم وشيخهم هو ابن قُرشان. وقد خلّدت إحدى النساء وتُدعى غالية اسمها، وهي أرملة شيخ مُتوفّى، وذلك عبر التضحية بممتلكاتها للدفاع عن المدينة وحمايتها، كما اضطلعت بدورٍ هامّ وفعّال في مجلس الزعماء. ويقطُن عرب عتيبة البلاد حول تَرَبة ومن هناك إلى كُلاخ، وهي القبيلة الأكثر عدداً في قبائل الحجاز. وقام شعبُ البقوم بتسييج تَرَبة بجدار وببناء بعض الأبراج. وهناك في الوقت الحاضر فرقة جند تركية متمركزة، لأنّه مركزٌ رئيسيّ على الطريق العام الكبير بين نجد واليمن.

وباتّباع الطريق من تربة جنوباً، إلى الشرق من سلسلة الجبال الكبيرة، على أرضٍ غير مستوية تقطعُها عدّة أودية، نصل بعد يومين من تربة إلى مدينة رنية التي تسكنها قبيلة سبيعة العربية، وشيخها هو ابن قطنان، وهو شخصية تميّزت بالشجاعة في الحملة على جنود الباشا الأتراك. وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة أيام من رنية، تقع مدينة بيشه، وهي مساحة متوسّطة تسكنها قبيلة بني أَقلُب. إنَّ بيشة هي المركز الأشدّ أهميّة بين الطائف وصنعاء، وهي مقاطعة شديدة الخصوبة وغنيّة جداً بأشجار النخيل. إنَّ جيش محمّد علي التركيّ وأتباعه وحلفاءه البدو الذين يبلغ عددُهم عشرة أو اثني عشر ألفاً من الرجال قد وجدوا هنا مؤناً كافية لتوقُّف دام أسبوعين، وزاداً يكفيهم في مسيرتهم جنوباً لعدّة أيام. ويُطلقُ العرب على بيشة اسم مفتاح اليمن؛ لأنها تقع على إحدى أكبر الطرق من نجد إلى اليمن؛ وقيل إنَّ جِمالاً ثقيلة الحمولة لم تستطع المجيء من مكّة إلى اليمن من أيّ طريق آخر؛ وإنَّ هناك ممراً سهلاً على شاطىء البحر خلف بيشة غرباً يمرُّ عبر سلسلة الجبال الكبيرة. وقد نشبتْ عند بيشة معارك عديدة بين الشريف غالب وسعود، الزعيم الوهابي الذي قام بعد انتصاره بتشييد قصرين في الجوار وأوكلهما إلى ابن شُكبان Shokbán الذي جعل منه كذلك زعيمَ قبيلة بني سالم، وهُم سُكّان بيشة القادرون على تأمين نحو ثمانية إلى عشرة آلاف بندقية. وقام ابن شُكبان بعد ذلك بمعارضة الجيش التركيّ بلياقةٍ والوقوف في وجهه. وأعتقد أنَّ شُرفاء مكّة كانوا سابقاً يملكون على الأقلّ سلطةً اسميّة على البلاد كلها من الطائف حتى بيشة. ونجدُ في تاريخ «الأعصمي» العديد من الأمثلة حيث سكن الشُرفاء في بيشة مؤقتاً وكان في جيشهم متطوّعون من قبيلة بني سالم.

وبيشة هي وادٍ عريض فسيح يبلغ طوله مسيرة ست إلى سبع ساعاتٍ وتكثُر فيه السواقي والآبار والحدائق. والمنازل هنا أفضل منها في الطائف وهي منتشرة بغير انتظامٍ على المساحة كلها. والحصن الرئيسيّ متينٌ وحصين ومنيعٌ جداً، وله جدارنٌ ضخمة شامخةٌ وقد أحاط به خندقٌ. وعلى مسافة ثلاثة أو أربعة أيام، إلى الشرق والجنوب الشرقي من بيشة، تُغطي السهل مخيّمات عديدة لعرب قحطان، وهم إحدى القبائل الأكثر قِدماً التي ازدهرت قبل محمّد

المؤرّخ المسعودي كسكّان أسوان. وقد لاقى الوهابيون صعوبة فائقة في إخضاع هذه القبيلة التي أصبحت، على الرغم من ذلك، مرتبطة بالفاتحين الغُزاة، ولا تزالُ كذلك. ويملك بنو قحطان مراعي خصبة حيث يربّون العديد من الجياد الأصيلة. وقد أصبح العدد الكبير من الجِمال التي يملكونـها مضربَ مثلٍ في شبه الجزيرة. والقبيلة منقسمة إلى فرعين أساسيَّين وهما «السَّهامة» Es-Sahama و«العاصي» El Aasy. في شهر كانون الأوّل/ ديسمبر، قام القحطانيّون بغارةٍ باتجاه جدّة وأخذوا أمتعة بعض الخيالة الأتراك الذين كانوا متمركزين لحماية الطريق بين جدّة ومكّة؛ ويرعى العديد منهم ماشيتهم أحياناً في مقاطعة نجد.

من بيشة إلى عرين، في بلاد عرب عبيدة، هناك مسافة خمسة أيام، حسب الطريقة البدويّة في السفر، لكنّها تبلغُ ستة أو سبعة أيام حسب مسيرة حجّ الكبسي. وبيشة نفسها تبعد نحوَ يومين من الجبل الغربي. وهناك على الأقلّ مسافة أربعة أيام من بيشة إلى مقاطعة زُهران. وكلُّ العرب من تَربَة إلى بيشة، ومن هناك غرباً، هم مزارعون؛ وأولئك في الجنوب والشرق هم بدو أو غجر متنقّلون.

ويعيش عرب الدواسِر إلى الجنوب الشرقي من بيشة، على مسافة أربعة أو خمسة أيام، وذلك خلال فصل الشتاء. لكنّهم ينتقلون في الصيف إلى أراضٍ تتوافر فيها المراعي الأكثر خصوبة في نجد، وهي الحدود الأقرب التي تبعد فقط مسافة ثمانية أيام. وهم لا يملكون الجِياد لكنّهم يزوّدون الوهابيّين خلال حروبهم بنحو ثلاثة آلاف من سائقي الجِمال. ويُقال أنَّ الدَّواسِر هم رجال فارعو القامة وذوو لونٍ أسود تقريباً. وكانوا في السابق يبيعونَ ريش النّعام في مكّة إلى الحجّاج الشماليّين، فكان العديد من الباعة المتجوّلين يأتون من مكّة إلى هنا في الشتاء لمقايضة الأقمشة القطنية بهذا الريش.

بمحاذاة الدّواسِر، هناك بنو كلب، غير أني لستُ قادراً على تحديد الاتجاه تماماً. وهُم بدو يُروى عنهم العديد من الخُرافات غير المنطقية في الحجاز. فيُقال أنَّ الرجال لا يتكلّمون العربيّة أبداً بل هُم ينبحون كالكلاب؛ وهو مفهومٌ قد يكون نشأ من اسم «كلب». غير أنّه من المسموح للنساء التكلُّم بالعربيّة؛ والحقيقةُ هي أنَّ النساء هُنَّ اللاّتي يُرفِّهْنَ عن الغريب الذي ينزلُ ضيفاً في خيمهم وليس الرجال.

على منتصف الطريق بين وادي دواسِر، أو أرض المراعي الشتوية، أراضي عرب قبيلة (وداعة)، وعلى مسافة أربعة إلى خمسة أيام من مدينة صعدة، يقع وادي نجران على أوّل سلسلة من سلسلة الجبال الكبيرة. وهو وادٍ خصب بين الجبال التي يتعذَّر المرور فيها بسبب ضيق ممرّاتها إلى حدّ يصعب معه لجمليْن أن يمرّا جنباً إلى جنب. وتروي الأنهار الصغيرة الوادي الذي تكثر

فيه أشجار النخيل. ويُقيم هنا بنو يمّ، وهم قبيلة قديمة تميَّزت مؤخراً بمعارضتها للوهابيّين؛ وهي تتألّف من مستوطنين ومن بدو، المستوطنون هم شيعة أو منشقّون عن المذهب الفارسي، أتباع علي، في حين أنّ البدو هم في أغلبهم من أهل السُنّة أو من المسلمين السُنَّة. وهؤلاء الأخيرون منقسمون إلى قبيلتي عقمان والمرّة، وهُم أضعف من أتباع علي وغالباً ما يكونون على خلاف ونزاعٍ معهم على الرغم من أنَّ الفريقين يتّحدان كلّما هاجم نجران عدوٌّ غريب. ويمكن للمستوطنين جمع نحو ألف وخمسمائة بندقية. وقد قاموا مرّتين بإبعاد الزعيم الوهابي سعود الذي كان قد أخضعَ القبائل العربية الأخرى كلها باستثناء بني صُبح، من نسل بني حرب، الذين يقطنون في الأجزاء الشمالية من الحجاز. وقد عقد بنو يَمّ نوعاً من اتفاقية أو معاهدة مع الوهابيّين فسُمحَ لهم بتأدية الحجّ سنوياً. ويزور بعضُهم قبر عليّ عند «مشهد عليّ» لكن في ظروف صعبة جداً لأنّهم قد يدفعون حياتهم ثمناً لاندفاعهم وحماستهم الدينية إذا ما تمّ اكتشافهم على الطريق، وهذا ما يحدث تكراراً، فلهجتُهم الغريبة تخونهم أحياناً فتكشف هُويَّتهم. وإنَّ من يؤدّي واجباته عند قبر عليّ يُعتبر قديساً في نجران.

حين يقوم رجلٌ من بني يمّ برحلة، فإنّه يُرسلُ زوجته إلى منزل صديق له من المعروف أنَّ عليه الحلول مكان الزوج في كلّ المجالات في أثناء غيابه، ثمّ يعيدُ له السيّدة عند عودته. وقد يُلاحظُ هنا أنَّ اسم «نجران اليمن» مذكور في تعاليم الدروز؛ حيث يُطالعنا أحدُ الأسئلة وهو: «هل نجران اليمن مهدَّمة أم لا؟». كما أنَّ المدابغ في نجران مشهورة في أنحاء شبه الجزيرة كلها.

لا يصلُ إلى المناطق القليلة الجبال، المذكورة هنا، جنوب مكّة، إلاّ البدو أو التجارُ البدو، حتى في زمنِ السّلم؛ وليس لها أيّ وسيلة اتّصال منتظمة مع مكّة غير القوافل؛ باستثناء تَرَبة التي ينقلُ سُكّانها تمرهم في قوافل إلى مكّة وجدّة شهرياً. ويمرُّ أهل نجد باستمرار في هذه المنطقة بحثاً عن القهوة. وخلال سيطرة الوهابيّين، لم يكن هناك أيّ طريق أخرى بين اليمن والمقاطعات الشمالية في شبه الجزيرة. ونادراً ما تنعمُ هذه البلاد بالسلام، إذ إنَّ الجبليّين يُضمرون العداء للسكّان الريفيّين في المقاطعات السفلى، وهم غالباً في نزاعٍ وخلاف معهم. كما أنّهم جميعاً شغوفون بالحروب، إلاّ أنَّ الوهابيّين نجحوا في كبتِ عداواتهم الشخصية وضبطها.

إنَّ البلاد من مكّة باتجاه الجنوب إلى شاطىء البحر، غربي سلسلة الجبال، مسطَّحةٌ تقطعها تلال تختفي تدريجياً عند الاقتراب من البحر، فيشكّل الشاطىء سهلاً منبسطاً مستوياً في كلّ اتجاه تقريباً على مسافة عدّة ساعات. وترتادُ القوافل الطريق البريّة في زمن السّلم، فإمّا تُتابع

سيرها بمحاذاة الساحل قريباً من المرفأ، وإمّا على سفح الجبال؛ ولا تؤمّن الطريق الأولى إلاّ القليل من الماء.

أول مكان مأهول جنوب جدّة هو ليث الذي يقع على مسافة أربعة أيام منها. وهو ميناءٌ صغير يهجره الناسُ الآن خوفاً من الجبليّين. وسكّان ليث هم في معظمهم من قبيلة بني حرب، وهم عديدون وأقوياء في البلدان الواقعة بين مكّة و«المدينة». وهناك العديد من المخيّمات لعرب «هيثم» على هذا الساحل. وتستغرقُ الرحلة من ليث صعوداً في الجبال إلى مقاطعة زُهران ثلاثة أيام ونصف. فمن ليث إلى الشَقَّة، وهي بلدة صغيرة، يمرُّ يومٌ واحد، ومن هناك إلى دوقة المسافة نفسها. وتقع دوقة قرب المنطقة الجبليّة وهي سوق كبيرة وهامّة؛ إلاّ أنَّ منازلها وأكواخها قد بُنيتْ بالأخشاب والقصب فقط وليس من الحجارة. وسكّانها هم في أغلبهم شُرفاء، مرتبطون بالنَّسب مع عائلات شرفاء مكّة الذين أمّنوا لهم المنفى في الحروب المدنيّة الأخيرة. وتستغرقُ الرحلة من دوقة إلى ميناء قنفذة المشهور؛ يوماً واحداً. ويقع مرفأ حَلي الصغير على مسافة يوم ونصف جنوبي القنفذة؛ وهو كان يُمثّل الحدود الجنوبية للأراضي الخاصة بشريف مكّة الذي كان يحتفظ بمركز للجمارك وموظفين في المرفئين. وقد استولى الزعيم الوهابي عثمان المضايفة من الشريف على القنفذة سنة ١٨٠٥ أو ١٨٠٦؛ ووقع كلُّ الساحل من هناك إلى جدّة في سيطرة الوهابيّين. وسنة ١٨١٤، سعتْ فرقُ جيش محمّد علي التركيّة جاهدةً لتركيز نفسها هناك لكنّها ما لبثتْ أن طُردتْ بعدما تكبّدت خسائر فادحة على يد طامي. غير أنّ محمّد علي نفسه عادَ واستولى على القنفذة سنة ١٨١٥، بعد عودته من الحملة التي شنَّها ضدَّ طامي، شيخ قبيلة عسير.

تبلغ مسافة الرحلة في القافلة بين جدّة والقنفذة سبعة أيّام من السفر السهل المريح بمحاذاة الساحل. ومن جدّة إلى ليث، هناك طريق أخرى تقع أكثر إلى الشرق، وهي جبليّة نوعاً ما، وتقع على بُعد خمسة أيام، وتتوافر المياه فيها بغزارةٍ؛ في حين أننا لا نجد على طريق الساحل سوى بئر واحدة بين المدينتين.

في زمن السّلم، يكثر ارتيادُ الطريق الأخرى من مكّة إلى اليمن بمحاذاة السفح الغربي للجبال الكبيرة. فتصل القوافل أسبوعياً، خاصة من مُخواه التي تبعد خمس عشرة ساعة عن دوقة، ويوماً واحداً عن مقاطعة زُهران، في الجبال. ومخُواه هي مدينة كبيرة تبعد عن مكّة مسافة تسعة أيام حين تسير القوافل ببطء. وفيها أبنية حجريّة؛ وهي السوق التي يبيع فيها تجّار زُهران والمناطق المجاورة إنتاجَ عملهم إلى تجّار مخواه الذين يرسلونه إلى مكّة وجدّة. والبلاد حول مخواه خصبة جداً وتسكنها قبائل بني سليم وبني سعيدان وبني علي الثلاثة؛ وقد

خضعت القبيلتان الأخيرتان للوهابيّين وحَكمَهما طامي، شيخ قبيلة عسير. وهناك أيضاً في مخواه العديد من قبيلة بني غامِد. إنَّ التفاعل بين هذه المدينة ومكّة كبير جداً في زمن السّلم؛ وربما تتزوَّد مكّة من هذا المكان بثلث مؤنها من الحبوب من مختلف الأنواع. وتقع الطريق بين هاتين المدينتين عبر الأودية بشكل أساسيّ، وتقطع القليل فقط من التلال. كما تقع عليها بعض القرى التي يسكن في أكواخها البدو والمزارعون. ويجدر بي هنا أنْ أكرِّر التشديد على عدم الخلط بين مخواه ومُخا.

ويمرُّ اليومان الأوَّلان في السفر في أراضي قبيلة جِهادلة التي يحدُّها من الجنوب وادي لَمْلم، وهو وادٍ خصب فيه ينابيع عديدة. ويعيش خلفها بنو فَهم، وهي قبيلة قديمة قلَّ عددها الآن جداً؛ وقد اشتُهروا عبر الحجاز بمحافظتهم على نقاء لغتهم أكثر من القبائل الأخرى، إذ إنَّ من يسمعُ أحدَ صِبْيتهم يتكلَّم سيقتنع بأنَّهم يستحقّون هذا التقدير.

تُدعى البلاد الواقعة غربي السلسلة الجبليّة الكبيرة، نزولاً إلى البحر، تهامة. وهي تسميةٌ لا تُطلقُ على أيّ مقاطعة خاصة، على الأقلّ في هذا الجزء من شبه الجزيرة، بل تُطلقُ عامةً على الأراضي المنخفضة باتجاه الساحل. ويشمل البدو بهذه التسمية المناطق الواقعة كذلك باتجاه الشمال حتى يَنبع. إنَّ شعب تهامة هو شعب فقير باستثناء من يتعاطى منهم التجارةَ، لأنَّ في البلاد القليل من المناطق الخصبة، وفيها مراعٍ أقلّ من الجبال حيث تهطل الأمطار بغزارة أكبر. وهناك أحياناً، في تهامة السفلى، تهطلُ الأمطار لثلاثة أو أربعة أيّام فقط، خلال سنة كاملة. وقد تراجع بدو تهامة القاطنون جنوب مكّة إلى الجبال، حين اجتاح محمّد علي الحجاز، ليس خوفاً من الأتراك، لكن في مثل هذا الوضع غير المستقرّ، تُصبح القبائل الضعيفة غير آمنة في الأراضي المكشوفة، فتخشى أن يفاجئها البدو المحاربون الذين ينتمون إلى القبائل العدائية الأشدّ قوّة، والذين لم يُغامروا خلال حُكم الوهابيّين في إظهار عداوتهم، ولكنهم انطلقوا الآن لا يردعهم شيء. وبين بدو تهامة، هناك العديد من قبائل بني حطيم، وهي قبيلة منتشرةٌ أكثر من أيّ قبيلة أخرى في شبه الجزيرة العربيّة.

إنَّ الصحراء الكُبرى الواقعة شرق بيشة ووادي دواسِر، وجنوبي مقاطعة نجد، والتي تمتدُّ شرقاً إلى حدود عُمان، يدعوها البدو «الربع الخالي»، أو المكان المقفر المهجور. وهي تصبح مهجورةً تماماً في فصل الصيف حيث لا يوجد فيها أيّ بئر. وفي فصل الشتاء، بعد هطول الأمطار وحين ينمو العشبُ في الرّمال، تأتي قبائل نجد والحجاز واليمن الكبيرة كلها لترعى ماشيتها في الأجزاء التي تقع على حدود بلادها في هذه الصحراء. وترتادُ التربةُ الرملية النّعام التي يقتلها عرب دواسِر. وقد أكدَّ العديد من البدو أنَّ هناك في «الربع الخالي» أجزاء عديدة لم

يتمّ اكتشافها بعد، حيث إنّها تخلو، باتجاه الشرق، من أيّ نوع من الخُضرة، حتى في فصل الشتاء. والبقعة الوحيدة التي تصلحُ للسكن في هذا الامتداد الرمليّ الكثيب الموحش هي وادي جبرين. وتمرُّ من هناك الطريق التي يُسافر عبرها عرب نجد في فصل الشتاء إلى حضرموت. وهي أرضٌ منخفضة فيها أشجار النخيل والآبار؛ إلاّ أنَّ المناخ الوبائي الضارّ والمزعج الذي يسود فيها يحول دون إقامة الناس هناك. كما يجمع المسافرون المارّون التمور من هناك.

رقم - ٥ -

محطّاتُ الحجّ، أو قافلةُ الحجّ من القاهرة الى مكّة

يتعلّقُ التقرير التالي بطريق القافلة سنة ١٨١٦، حيث كانت المحطّاتُ في السابق مختلفةً في العديد من المراحل، كما علمتُ من بعض الكُتّاب العرب.

تجتمع القافلة لأيام عديدة في مكان يقع شرق الحدائق، قرب القاهرة، على مسافة ساعة واحدة منها؛ ويُدعى الحصوة، ثمّ تسيرُ قُدماً إلى بركة الحجّ على مسافة أربع ساعات حيث تبقى ليومين اثنين. وتبدأ القافلة من هذا المكان في السابع والعشرين من شهر شوّال. وهي تُسافر في اللّيل فقط، فتنطلق عامةً في الساعة الرابعة من بعد الظهر، ثمّ تتوقّف بعد شروق الشمس بقليل عند المحطّة حيث يخيّمون حتى المساء.

من بركة الحجّ:

الليلة الأولى: إلى دار الحمرة.

٢: إلى عجرود. تتوقّف هنا طوال النهار واللّيلة التالية. وتتزوّد القافلة بالماء من السويس لأنَّ المياه في عجرود سيّئة جداً.

٤: إلى روس النواطير، وهو سهل يقع في الجبل ويخلو من الماء. تتوقّف هنا بضع ساعات فقط ثم تتابع طريقها.

٥: إلى وادي التيه، وهو المدخل إلى صحراء التيه. تتوقّف هنا بضع ساعات وإذا لم تجد ماءً تُتابع سيرها.

٦: إلى قصر نخل حيث تستريح بعد مسيرةٍ مُضنية، النهار كله واللّيلة التالية فتتزوّد بالماء وتنطلقُ في المساء التالي.

٨: إلى العلايا، حيث تستريح بعد مسيرةٍ مُضنية، النهار كله واللّيلة التالية فتتزوّد بالماء وتنطلقُ في المساء التالي.

٩: إلى سطح العقبة، وهي قمّةُ سلسلة العقبة الغربية. تقع هنا قرية صغيرة. والطريق في الجبل صعوداً ونزولاً صعبة جداً. تسيرُ من هذه المحطّة ليلةً كاملة لتهبط في الممرّات الضيّقة إلى سهل العقبة وقلعتها.

١٠: تبقى هنا النهار واللّيل.

١٢: إلى ظهر الحُمار، وهي أرضٌ صخريّة فيها مياه سيّئة والعديد من أشجار النخيل.

١٣: إلى شُرَفه ليلاً، وهو وادٍ قاحل ممتدّ وطويل، ويخلو من الماء.

١٤: إلى مغاير شعيب حيث هناك العديد من آبار المياه العذبة ومزارع النخيل وأشجار نمتْ بين الصخور تجعل من هذه المحطّة أجملَ المحطّات على هذه الطريق؛ غير أنّها ملوّثة باللّصوص.

١٥: إلى عيون القَصَب، وهي أرضٌ منبسطة فيها أشجار النخيل والماء. وهي تدخل ضمن أراضي أهل مُويْلح.

١٦: إلى مُويْلح حيث هناك أرض جيّدة للرّعي ومياه عذبة. تتوقّف القافلة هنا الليل وتبقى حتى المساء التالي.

١٨: إلى سَلما، وهو مكان تتوافر فيه المياه بغزارة.

١٩: إلى قلعة أَزْلَم.

٢٠: إلى الإصطبل أو إصطبل عنتر. إنّ المياه الوحيدة المتوافرة هنا موجودة في حُفر قليلة في رمال الوادي فقط.

٢١: إلى قلعة الوجه، حيث المياه عذبة. تتوقّف للّيلة ثمّ تتابع سيرها في المساء التالي.

٢٣: إلى عقرة؛ وهي مسيرةٌ طويلة جداً، فتصل إلى عقرة في المساء. إنّ للمياه هنا رائحة مؤذية ومزعجة جداً. تتوقّف القافلة لساعة واحدة.

٢٤: إلى الحورة، وتُدعى كذلك «دار العشرين»، لأنها المحطّة العشرين من القاهرة. وبين عقرة وحورة يقع الحنك، وهو وادٍ يخلو من الماء. وهناك العديد من الأشجار في الحورة، كذلك شجر «أراك» الذي يقطع منه الحجّاج الأغصان ليستعملوه كفرشاة أسنان. والمياه هنا سيّئة وذات نوعية مُسهلة ومليّنة للمعدة.

٢٥: إلى النبط.

٢٦: إلى الخضيرة، حيث تقف القافلة لساعة واحدة في الصباح، وتسير فيما تبقّى من النهار واللّيل كله واليوم التالي حتى المساء.

٢٧: إلى يَنبع النخل، حيث تمضي اللّيل ثم تتابع سيرها.

٢٩: إلى بَدْر؛ حيث تبقى ذلك النهار واللّيل وتنطلق باكراً في الصباح التالي وتصل إلى القاع في فترة بعد الظهر حيث تتوقّف إلى المساء، ثمّ تتابع سيرها.

٣١: إلى رابغ.

٣٢: إلى جرينات.

٣٣: إلى عقبة السُكَّر.

٣٤: إلى خُليص.

٣٥: إلى عسفان.

٣٦: إلى وادي فاطمة.

٣٧: إلى مكّة.

ممّا يجعلها سبعة وثلاثين يوماً على الطريق، منها إحدى وثلاثون ليلة من السَّير وسبعة أيام من التوقُّف.

رقم - ٦ -

ملاحظاتٌ جغرافيّةٌ حول البلاد شمال «المدينة» وشرقها

إنَّ محطّات القافلة بين دمشق و«المدينة» معروفة جيّداً؛ والمكان الأكثر أهميّة على هذه الطريق، ضمن حدود شبه الجزيرة العربيّة، هو «هجر» على ما يبدو، أو كما يُدعى أحياناً، مدائن صالح. وهو يبعد سبعة أيام شمال «المدينة»، كان يسكنُ هذا المكان، حسب آيات عديدة من القرآن (له فصلٌ بعنوان هاجر)، عِرقٌ بشريٌّ ضخم يُدعى بنو ثمود، وقد دُمِّرت منازلهم لأنَّهم أبوا الانصياع إلى نُصح النبيّ صالح وتحذيره. ويمتدّ محيط هجر عدّة أميال؛ وتربته خصبة ترويها آبار عدّة وجدول متدفّق من المياه الجاري. وهنا أيضاً أُقيمت مخيّمات شاسعة للبدو. وكان الزعيم الوهابيّ سعود ينوي بناء مدينة على هذه البقعة لكنَّ علماءه منعوه حين أعلنوا أنَّ ذلك قد يكون عملاً غير تقيّ جرّاء إعادة بناء مكان قد صبَّ الخالقُ عليه جامَ غضبه وعقابه. ويحدُّ هذا السهل الخصبُ من الغرب جبلٌ غير ذي شأن، ويقع على بُعْد أربعة أميالٍ من الأرض التي تخيّم عليها قافلة الحجّاج عادة.

في هذا الجبل، هناك كهوف كبيرة، أو مساكن حُفرت في الصخر فيها رسومات منقوشة لرجالٍ وحيوانات متنوّعة، ولها أعمدة صغيرة على الجانبين عند المدخل. وإذا صدَّقتُ شهادة البدو، فإنّ هناك العديد من المخطوطات المنقوشة على الأبواب؛ لكنني أعتقد بأنَّ العرب ظنّوا النقوشات تلك أحرفاً. وللصخور لونٌ مائلٌ إلى الأسود، وقد تكون بُركانية لأنَّ هناك بئراً من المياه الفاترة في الجوار. إنَّ مرضي في «المدينة»، والوهن الذي تلاه، حالا دون زيارتي لهذه البقعة التي تابعتُ منها إلى العقبة مباشرةً على طرف الخليج الشرقي للبحر الأحمر.

يدعو البدو البلاد الواقعة بين هدية ودلة كلها (وهي محطّة للحجّاج تقع أكثر إلى الشمال) مقاطعة شفَّة. وتُدعى البلاد من هناك إلى عقبة الشام، أو العقبة السورية (وهي كذلك محطّة للحجّ)، الصَّفحا. إنّها هذه العقبة التي يمكنُ أن توصفَ بدقّة على أنّها حدود شبه الجزيرة باتجاه سوريا. ويمتدُّ هنا جبلٌ شديد الانحدار غرباً لعدّة أيام باتجاه البحر الأحمر، وشرقاً باتجاه داخل الصحراء. إلى الشمال من ذلك الجبل، ندخل السهل الأعلى الذي يتابع حتى دمشق. وبين العقبة السورية والعقبة المصرية هناك ممرٌّ آخر عبر الجبل نفسه ويُدعى باب النجد، أو بوّابة النَّجد، لأنَّ بدو سوريا الجنوبية (أو كما يدعوهم البدو العرب، أهل الشمال) يمرّون من هنا في طريقهم إلى نجد. في هذه الممرّات، يتركُ الوهابيّون حراسةً شديدةً حين يقومون بحملات على البدو، وذلك كي يؤمّنوا انسحابهم الخاص.

لا يتمُّ ارتياد طريق الحجّ من «المدينة» مباشرة إلى سوريا كثيراً، حتى في زمن السِّلم. وأحياناً يقوم بعض التجار البدو بأخذ حمولات على الجمال من القهوة عبر هذه الطريق إلى دمشق؛ لكنّها مليئة بمجموعات متجوّلة من قبيلتي بني عُمران والحويطات اللّتين تعيشان في الجبل الغربيّ؛ وهم ينزلون مراراً وتكراراً لسرقة المسافرين في السهل. إنَّ الطريق الأكثر ارتياداً إلى الشمال من «المدينة» هي باتجاه بلاد قصيم التي تزوِّد «المدينة» في زمن السِّلم، كما سبق وذكرت، بأنواع المؤن كلها. وتقع الطريق إلى قصيم بين طريق الحجّ من جهة، وبين الطريق المباشرة إلى الدرعية (عاصمة الوهابيّين) من الجهة الأخرى. وكانوا في المدينة يدلونني إلى اتجاه منطقتي قصيم ونجد، وكنتُ أجدها دائماً تقعُ:

- شرقاً، ونصف شمالاً بالنسبة إلى قصيم/ من «المدينة».

- شرقاً جنوباً بالنسبة إلى الدرعية/ من المدينة.

وتقع طريق ثالثة بين طريق الحجّ والطريق المؤدّية إلى قصيم؛ وهي تؤدّي مباشرة من «المدينة» إلى مقاطعة جبل شمّر الذي يتمّ ارتياده كثيراً في زمن السِّلم. لكنَّ الطريق الأكثر شيوعاً من

«المدينة» إلى جبل شمّر، تمرُّ عبر قصيم؛ وهي أطولُ بيومين من تلك الأخيرة، لكنّها أسهل للجِمال وأقلّ مشقّةً لأنّ الماء يتوافرُ فيها بغزارة في حين أنه قليل في الطريق الأخرى.

تزور القوافل المتّجهة من «المدينة» إلى القصيم المحطّات التالية:

ـ «المدينة» ـ على مسافة ساعة من السير خلف الحدائق (الطريق المارّة شرق جبل أُحُد) هناك فسحةٌ مكشوفةٌ تُدعى العريض وفيها قبر شيخ تعلوه قبّة. وبالقرب منه، هناك بئر تُدعى بئر رشيد.

ـ على مسافة ثلاث ساعات من هناك، تقع الحفنا، وفيها قاعُ سيل من السيول.

ـ على مسافة تسع عشرة ساعة، هناك الصويدِر. والطريق من حفنا إلى هذا المكان صخريّة، وترتفع مرّتين، وهي صعبة للجِمال وخالية تماماً من الماء. تقع صويدر بين جبليْن وفيها بعض آبار المياه المالحة وقد حُفرتْ في الأرض؛ وكذلك أشجار النخيل. ويسكن الطريق من «المدينة» إلى هذا المكان «مزينة» (أو أُمزينة)، وهم عربٌ من قبيلة بني حرب؛ وعرب حطيم؛ وبني صَفَر من القبيلة نفسها كذلك.

ـ على مسافة أربع ساعات، هناك وادٍ فيه آبار وأشجار نخيل.

ـ على مسافة سبع ساعات، تقع حناكيّة في السهل وفيها العديد من البرك وآبار المياه العذبة المحفورة في الأرض. وتتوافرُ المياهُ هنا دائماً على عمقٍ معيّنٍ في الأرض. كما تظهر آثار قصر قديم ذي نمط عربيّ إسلاميّ، وتنمو هنا أشجار النخيل. إنَّ هذا الموقع هامّ جداً وتزوره القبائل البدوية دائماً.

ـ بعد مرور ستّ ساعات، تقعُ أبو خشيب، وتمرُّ الطريق من حناكيّة إلى هذا المكان على سهل رمليّ. ويقع هذا الموقع بين جبلين، وفيه مياه آبار جيّدة.

ـ بعد مرور اثنتي عشرة ساعة، هناك الهيمج، وهي محطّة فيها المياه العذبة والمالحة.

ـ بعد ثماني ساعات، تقعُ الماوات، والطريق إليها من المحطّة السابقة رمليّة مع جبال منخفضة خالية من الأشجار؛ كما ينمو هنا العشب المدعو عجرف. تمتدُّ أرض المراعي التابعة لقبيلة بني حرب حتى هيمج، ثم تبدأ مراعي عرب المطير. وفي الماوات تتوافرُ أفضل مياه على الطريق كلّها. وهي عبارة عن بقعة رمليّة تقع عند مدخل صغير من الجبال.

ـ بعد مرور ستّ عشرة ساعة، هناك البعجة، والطريق إليها من الماوات خالية من المياه وتقع على سهل رمليّ مع الجبال على الجانبين؛ وتُدعى السلسلة الواقعة إلى اليسار طاعية. وبعجة هي عبارة عن بقعة أرض ممتدّة مع أشجار وعشب وآبار من المياه العذبة والمالحة.

ـ وعلى مسافة ثلاث ساعات، هناك نفود، أو كما تُدعى بسبب التربة «غرق الدسم». وهي سهل من الرمال العميقة يمتدُّ مسافة أربع ساعات طولاً حيث تصبح الطريق بعده أقلّ رمليّة وصعوبة، بل مغطّاة بحصى صغيرة.

ـ بعد أربع عشرة ساعة، تقع جرداوية، وهي سهل فيه آبار للمياه العذبة. ومن هناك، بعد سبع ساعات، نصل إلى الذات، المدينة الأولى في منطقة قصيم: في المجموع، مائة ساعة.

ـ من الذات إلى الرسّ، وهي إحدى المدن الرئيسية في قصيم، تبلغ المسافة من أربع إلى خمس ساعات. ومن الرسّ إلى مكان يُدعى خَبَره، هناك خمس ساعات. ومن خَبَره إلى شبيبه، أربع ساعات.

حسب الرحلات اللّيلية التي يقوم بها البدو، فإنَّ مئة ساعة تُعادل عشر أو إحدى عشرة مسيرة نهاريّة. وقد قام بالرحلة هنا بالتفصيل جيش طوسون باشا ليلاً. فاستغرقت ثلاثة أيام من «المدينة» إلى حناكية، وثمانية أيام من هناك إلى الذات. وقام شخص ينتمي إلى بلاط طوسون باشا بقياس المسافة عبر ساعته. وتسير القوافل المحمّلةُ بالحنطة لعشرة أو أحد عشر يوماً على الطريق بين «المدينة» والرسّ.

وقصيم، وهي المقاطعة الأوفر خصوبة في منطقة نجد، تبدأ عند الذات. ويُطلقُ اسم نجد، الذي يعني الأرض المرتفعة أو العالية، على هذه البلاد؛ مقابل تهامة، أو «الأرض المنخفضة»، التي تُطلق على ساحل البحر. وهي تبدو كأنّها أرض مستطيلة تمتدُّ بين ثلاثة إلى أربعة أيام من الشرق إلى الغرب، ورحلتان عرضاً من الجنوب إلى الشمال. وهناك ضمن هذه المساحة ما يفوقُ الستّ والعشرين مدينة صغيرة أو قرية مأهولة بكثافة في منطقة مزروعة تُروى من مياه آبار عديدة. والمدينة الرئيسية هي بِريْدَة حيث يقيم شيخ قصيم، وهو رجلٌ كهلٌ يُدعى الحجيلان، وقد كان فيما مضى عدوّاً للوهّابيّين لكنّه الآن ارتدَّ واعتنق عقيدتهم. وتنتج المنطقة المجاورة للرسّ الكميّة الأكبر من الحنطة. ويقع ذلك الجزء من قصيم حول الذات والرسّ، بالقرب من «المدينة». في زمن السّلم، تصل قوافل بانتظام كلّ شهر إلى «المدينة» من الرسّ. وقد وجد جيش طوسون باشا الكثير من المؤن في قُرى قصيم القليلة التي احتلّوها.

إنَّ المكان الأكثر أهميّة في قصيم هو عِنيزة، ويُقال إنّه يُضاهي من ناحية الحجم أسيوط في شمال مصر، التي كانت تحتوي على ثلاثة آلاف منزل، حسب الإحصاءات الفرنسية. ويسكن عنيزة تجار عرب محترمون، وفيها أسواق كثيرة. من المدن الأخرى والقُرى، فإنَّ التالية هي الأكثر أهميّة: الشنانه وبلغا وحشاشيه، والهلاليه والبكيريه وبطاح النبهانية والشبيبه وعيون وقوار ومذنب.

تخيّم قبائل صغيرة من عنيزة والعتيبة (التي يقع مجلس زعيمها على جبال الحجاز التي يسكنها بنو حرب) والمطير وقبائل أخرى، خلال السنة كلّها بين سهول قصيم والدرعية، عاصمة نجد، المقاطعة المتوسّطة، وهي صحراء في أغلبها وتُدعى الوشم. وهناك، من الطريق الشرقيّ لمقاطعة قصيم إلى الدرعية، مسافة خمسة أيام. إنَّ المكان الأخير في قصيم، من هذه الجهة، هو مذنب: ثم يبدأ وادي سَرّ، وهو وادٍ عريض رمليّ فيه مراعٍ، ويمتدُّ لعدّة أيام باتجاه الدرعية عبر وشم.

وتحمل نجد، قرب الدرعية، اسم العارض؛ وكانت فيما مضى مقاطعة منفصلة عن نجد، لكنّها تُعتبر ضمنها الآن. والعارِض أقلّ خصوبة من قصيم التي تزوِّدها بالمؤن بشكل جزئيّ في الواقع. ومدينتها الرئيسية هي الدرعية التي كانت دائماً مكاناً هاماً، وأصبح أكثر أهميّة منذ أن تحوّلتْ إلى عاصمة سُلطة الوهابيّين ومذهبهم. وقد تمَّ أحياناً إرشادي إلى وُجهتها، فوجدتها تقع شرقاً جنوباً من «المدينة» (دون إحصاء التغيير). كما أنَّ اتجاه قصيم من «المدينة» يقع شرقاً، ونصف شمالاً.

وتقع الدرعية في وادٍ مداخله ضيّقة جداً في الجهتين الشمالية والجنوبية، وتسمح فقط بمرور جملٍ واحدٍ في آن. وتقع المنازل (بُني العديد منها من الحجر) على منحدرات الجبلين، لأنَّ الوادي نفسه ضيِّقٌ جداً. ولم يتمّ تسييج المدينة بجدار. وبالإمكان تقدير عدد السكّان، بثلاثة آلاف رجل مُسلّح بالبندقيات، وذلك حسب تقرير البدو الذين يُصرِّحون بأنَّ المدينة قد زوَّدت الزعيم الوهابي بهذا العدد من الرجال. وهم يتألّفون من قبائل مختلفة، خاصةً من «مقرن» وهي فرعٌ من قبيلة «المساليخ» التي هي جزءٌ من عرق عنيزة العظيم. وينسبُ سكان نجد كلهم جذورهم إلى قبيلة من القبائل البدويّة؛ وهكذا، يدّعي أهلُ الرضّ أنّهم يتحدَّرون من بني تمّ الذين يقيمون الآن في نجران، في اليمن. والقبيلة الأصغر عدداً وهي بنو لَمّ (وهي مرتبطة بأولئك الذين يحملون الاسم نفسه على نهر الفرات، لكنّهم ليسوا مثلهم من مذهب علي)، وقبيلة السّحون الصغيرة، وتسكن في العارِض، ونادراً ما تخيّم خلف حدودها. وتتزوَّد الدرعية بالماء من الآبار. وقد اكتشف ابن سعود، الزعيم الوهابي الأخير، ينبوعاً خلف المنزل الذي بناهُ، ورغب في إقناع الناس بأنَّ الله قد أوحى له في هذه المناسبة. ويقع منزل الزعيم الوهابي على الجبل، على مسافة عشر دقائق من المدينة، سيراً على الأقدام؛ وهو فسيحٌ لكن ليس فيه أيّ شقق فاخرة أو فخمة؛ ولكلِّ أعضاء العائلة الحاكمة المتزوّجين غرفهم الخاصة فيه؛ وهناك العديد من الغرف للضيوف الذي يملأون المنزل باستمرار. فكلّ زعماء القبائل الذين يأتون إلى الدرعية من أجل الأعمال، يُدعَون إلى منزل الشيخ الكبير، أو قصره. وليس هناك أيّ خانات أو فنادق عامة، فيتّخذ كلُّ غريب مسكناً له عند أحد السكّان. كما أنّ أهل الدرعية هم مضيافون

بشكل يُضرب به المثل. والمنطقة المجاورة مباشرة، جرداء قاحلة وتنمو فيها بعض أشجار النخيل فقط. وتتزوَّد الدرعية بالمؤن بشكل رئيسيّ من ضُرمة، وهي قرية كبيرة كثيفة السكان وتبعد مسافة يوم واحد في الاتجاه الشرقي أو الشمالي الشرقي؛ وفيها حدائق وبساتين تُروى من آبار غزيرة.

من الدرعية إلى مكّة مسافة أحد عشر أو اثنا عشر يوماً من رحلات القوافل الطويلة. وعلى مسافة ثلاثة أيام خلف الدرعية، بقع من الأرض مزروعة ومستوطنات صغيرة للعرب. ويمرُّ ما تبقّى من الطريق عبر أرض صحراء حتى وادي زيمة على مسافة يومين من مكّة. وتُحسب المسافة من الرسّ (في القصيم) إلى مكّة باثني عشر يوماً. وتغزرُ المياه في هذه الطريق الأخيرة أكثر من الأولى، وتمرُّ كذلك بوادي زيمة.

هناك طريق مستقيمة من نجد إلى جبال الحجاز (أستعمل هذه الكلمة هنا بالمعنى البدويّ، وأعني بها الجبال جنوب الطائف)، وإلى بلاد بيشة واليمن، وهي تمرُّ بقرية دِرية على الطرف الجنوبي من نجد، على الطريق الواسعة من القصيم إلى مكّة. وتقع الطريق من دِرية إلى بيشة على مسافة أربعة إلى خمسة أيام شرقي مكّة. وبين دِرية وتَرَبة (المذكورة أعلاه) مراعٍ فيها العديد من الآبار وتُدعى البقرة، وهي مكان للاستراحة معروف جداً من قِبل بدو هذه البلاد كلهم؛ وهي تخصُّ قبيلة قريشات، فرع من عرب صَبْية الذين يسكنون رَنْية.

وتشتهر نجد في أنحاء شبه الجزيرة كلها بمراعيها الممتازة التي تكثر حتى في صحاريها بعد الأمطار. ويرتاد سهولها عددٌ لا يُحصى من البدو الذين يبقون هناك معظم السنة ويشترون الحنطة والشعير من السكّان. خلال موسم الأمطار، يذهب هؤلاء البدو باتجاه قلب الصحراء حيث يبقون إلى أن تستهلكَ مواشيهم مياه الأمطار التي تجمّعت في الأراضي المجوَّفة. قبل الاستقرار الوهابي في المنطقة، كانت مراعي نجد تخصُّ العنيزة بشكل حصريّ، الذين ذكرتهم سابقاً بأنّهم أكبر القبائل البدويّة في شبه الجزيرة العربية. وكانت أعداد كبيرة منهم ترتادُ هذه الأراضي في فصل الربيع ويُبعدون عنها القبائل الأخرى كلها باستثناء قبيلة المطير القوية التي تقيم في الصحراء بين قصيم و«المدينة». وقد عزّز هؤلاء قوّة فرقتهم عبر تحالُفهم مع عرب قحطان، في حين أن العنيزة كان يعاونهم بنو شمان. وكان بين هذه القبائل كراهية وبغضاء متأصّلة ومتواصلة كانت في كلّ ربيع تكمنُ وراء الكثير من سفك الدماء، كما كانت تعترضُ المعاملات التجارية مع الحجاز وتوقفها. وكانت القبيلتان تفرضان إتاوات قسرية على السكّان المستوطنين في نجد. غير أنَّ الوهابيّين أزالوا هذه العادة، وقام زعيمهم عوضاً عن ذلك بتلقّي ضريبة أو رسم منتظم؛ وقام بمصالحة الفريقين المتخاصمين وفتح مراعي نجد أمام أيّ قبائل وهابية

تشاء ارتيادها. وقد أكَّد لي بدويّ أنه بالإمكان رؤية عشرين مخيّماً لقبائل مختلفة هنا خلال مسيرة يوم واحد. هذا هو الأمر الذي فرضه الزعيم الوهابي الذي كان صلباً لا يرحمُ في معاقبة اللّصوص.

وقد أنتجت مراعي نجد الجيدّة الوافرة نسلاً من الجِمال أصيلاً، ويكثر عددها هنا أكثر من أيّ مقاطعة أخرى في شبه الجزيرة. ويدعو العرب هذه البلاد «أمّ الإبل» أو أمّ الجِمال، ويأتون إليها من المناطق كلها لتزويد قطعانهم. وهي لا تزوّد الحجاز فقط بل سوريا واليمن أيضاً بالجِمال التي يُباع الجمل العاديّ منها بنحو عشرة دولارات في نجد. وهناك أيضاً في هذه البلاد نسلٌ جيّد جداً من الجياد ومميّز يُطلق على أجودها وأكثرها أصالةً اسم «خيل نجادي». لكنَّ النفوذ الوهابيّ قد تسبَّب في إضعاف هذا النسل حيث باعَ العديد من العرب أجود خيلهم في أجزاء بعيدة، وإلاّ كانوا سيُرغمون على المثول أمام الزعيم الوهابي الذي كان يطلب دائماً فرقاً من الخيالة في أثناء حروبه.

غير أنَّ نجداً تتعرَّض غالباً لندرة المؤن بسبب قلّة الأمطار التي تؤدي إلى ندرة المراعي. وسرعان ما يؤثّر ذلك في ماشية البدو الذين نادراً ما يتوقّعون في هذه البلاد أكثر من ثلاث أو أربع سنوات متتالية من الوفرة، على الرغم من أنَّ المجاعة التامة لا تحدث أكثر من مرّة كلّ عشر أو ربّما خمس عشرة سنة. وترافق ذلك عامةً أمراضٌ وبائية كالطاعون مثلاً، وهو عبارة عن حُمّى عنيفة (لكن دون الصّفراء أو الدُّبل: ورمٌ في غدّة لمفاوية) تكون مميتةً لدى أعداد كبيرة من الناس. وتسكن نجداً قبائل بدوية صغيرة لا تتركها أبداً، إلى جانب مستوطنين متزاوجين معهم يسافرون غالباً كتجّار إلى دمشق وبغداد و«المدينة» ومكّة واليمن. وهم يُصدِّرون الجِمال والعباءات الصوفية التي يُصنع أفضلها في الحسا. ويتلقّون الأرز من بغداد (إنتاج ضفاف نهر دجلة، والألبسة، خاصة «الكفيّة»، أو المناديل المخطّطة باللّونين الأخضر والأصفر، والقطن والصوف أو الحرير؛ ويعتمرها البدو فوق قلنسوتهم. ويحصلون من مكّة على القهوة والأدوية والعطور الشائعة الاستعمال بينهم، خاصة العطر المسمّى «أرز» الذي يأتي من مُخا. وبشكل عام، تسود في نجد روح تجارية بشكل واسع، حيث يذيع صيتُ التجار الأثرياء لصدقهم ونزاهتهم أكثر من معظم التجار الشرقيين. والمستوطنون هنا مسلَّحون بالبندقيات ويشكّلون النسبة الفضلى والكبرى من جنود المشاة الوهابيّين؛ فهم عامةً يتفوَّقون على البدو الذين يغزون محاصيلهم ومراعيهم. وبما أنَّ الملح الصخريّ موجود في نجد، فكلُّ عائلة تصنع مؤونتها الخاصة من البارود سنوياً.

وهناك في نجد العديد من الآبار القديمة المرصوفة بالحجارة، وينسبُها السكّان إلى عرقٍ بدائيّ

من العمالقة. ويبلغ عمقها عامةً من خمس وعشرين إلى ثلاثين قدماً. وهي في معظمها ملكٌ لأفرادٍ يأخذون رسماً معيناً من القبائل التي تزوِّد ماشيتها بالماء. وهنا أيضاً العديد من آثار الأبنية القديمة ذات البنية الكثيفة المتينة والحجم الكبير، لكنَّها مهدَّمة كليّاً. وتُنسب هذه إلى قبيلة عربيّة بدائية (أو ربما خُرافية)، وهي بنو تعمور، التي تظهر آثار أعمالها المزعومة أيضاً في الصحاري السورية شرقي سهول حوران.

إننا نجد من القبائل البدويّة كلها الموجودة في شبه الجزيرة العربيّة، عائلات معدودة على الأقلّ في نجد، التي يلجأ إليها الهاربون ليأمنوا شرَّ أعدائهم. وليست هذه البلاد في الواقع موقع الحكومة الوهابية فقط، بل تبدو المنطقة الأكثر أهميّة بين المقاطعات الداخلية في شبه الجزيرة، بسبب خصوبتها وكثافة سكّانها وموقعها المركزيّ وسهولة تواصلها مع المقاطعات الأخرى. ولاكتساب معرفة تامّة بالبدو، لا بدّ من مراقبتهم في نجد حيث تستمرُّ عاداتهم دون تغيير ناتج عن الاحتلال الوهابي؛ وهم يُحافظون على كامل نقائهم الأصليّ؛ وكذلك لم يتمّ تلويثهم بتدفّق غريب من الخارج؛ حيث لا غرباء يمرّون عبر نجد أبداً، باستثناء قافلة الحجّ القادمة من بغداد. لهذا السبب، فإني أعتبر نجداً والجبال بين الطائف وصنعاء، الجزء الأكثر أهميّة في شبه الجزيرة الذي تتوافر فيه موضوعات عديدة للبحث والتحقيق التي تهمّ المسافر، أكثر من أيّ جزء آخر فيها.

وتُدعى البلاد الواقعة من الدرعية شرقاً باتجاه الخليج الفارسي، وحتى حدود مقاطعة الحسا التي تبعد ستّة أيام عن الدرعية، «زدير»، منها ثلاثة أيام بلا ماء. إنَّ مقاطعة الحسا (أو كما تُكتب أحياناً «الأحساء») مشهورة بكثرة آبارها، وهي تمتدُّ مسافة يومين بموازاة ساحل البحر الذي تبعد عنه مسافة خمسين أو ستّين ميلاً،؛ ويبلغ عرضها نحو خمسة وثلاثين ميلاً. وتُمكّن غزارة المياه العرب من زراعة البرسيم الذي يُساهم في إطعام أجود خيلهم، فيقوم الزعيم الوهابي بإرسال كلّ ما لديه من خيل كلِّ موسمٍ إلى هذا المكان.

إنَّ مدينة «الحسا» (التي بناها القرامطة في القرن العاشر) كثيفة السكّان، ويقيم فيها بعض التجار الأثرياء. وتحيطها جدران وأبراج؛ وقد صمدت بنجاح في وجه باشا بغداد سنة ١٧٩٧م وهي أحد أهمّ حصون الوهابيّين الرئيسية. ويحصل زعيمهم من هذه المقاطعة الخصبة على الجزء الأكبر من دخله. إنَّ مرفأ البحر في الحسا هو «عقير»، وهي مدينة صغيرة على الخليج الفارسيّ يرتادها عرب مسقط كثيراً وقراصنة قبيلة القواسِم (أو الجواسم)[1] الذين يسكنون مرفأ «رأس

---

(١) يسمي الإنكليز القراسم الذين وقفوا في وجه المستعمر الإنكليزي ـ وبخاصة في البحر ـ بالقراصنة.

الخيمة»، ويكثر الطلب على العباءات الصوفية المصنوعة في الحسا، في أنحاء شبه الجزيرة العربيّة كلها وبلاد ما بين النهرين؛ ويبلغ ثمن الواحدة منها من عشرة إلى خمسة عشر دولاراً.

وتحتوي أراضي الحسا على نحو عشرين قرية، وأهمّ البدو الذين يقطنونها هم بنو خالد (وهي قبيلة تمتدُّ على أجزاء عديدة من شبه الجزيرة)، وعرب بِشر، وهي قبيلة من Benezes وقبيلة الزُّعب. وهنا أيضاً، كما في نجد، بعض بني حسين، وهي قبيلة تنتمي إلى مذهب الفرس الإسلامي «الشيعة».

تتوافر المياه بغزارة بين الحسا والبصرة. وتمرُّ الطريق من الدرعية إلى بغداد عبر مقاطعات القصيم وجبل شمَّر، فتتَّخذ اتجاهاً غربياً، إذ إننا لا نجد الماء في الصحراء في خطٍ مستقيم. بعد بلوغ قُوار، وهي مدينة صغيرة على حدود قصيم، باتجاه جبل شمَّر (على مسافة ثمانية أيام من الدرعية) يتابع المسافر التقدّم يوماً واحداً إلى «كهفة»، وهي قرية تقع ضمن أراضي جبل شمَّر. وتتابع الطريق يومين اثنين في الأجزاء المروعة من هذه المقاطعة حتى بئر شبيكة التي تحدُّ شمَّر على هذه الجهة. من هناك إلى لينة يوم واحد، وهي مشهورة بآبارها العديدة والغزيرة التي زوَّدت الجيش الوهابي كله بالماء. ويرتاد هذا المكان عرب عنيزة كثيراً. وهناك بئر بين نجد والفرات في الصحراء تزوِّد مصانع البارود في نجد بالكبريت.

بعد ثلاثة أيام من لينة، في صحراء خالية من المياه، يصل المسافر إلى بئر شبيكة، ومنها إلى مدينة مشهد عليّ، بعد يوم واحد. وهذه هي الطريق الصيفيّة؛ ففي الشتاء، حين تُجمع مياهُ الأمطار في برك على الطريق، يسافر العرب من بئر شبيكة عبر الطريق المدعوّة «درب بريدة»، وهي طريق الحجّ القديمة التي كان يسلكُها الخلفاء حين يذهبون إلى الحجّ. وهنا خزّانات عديدة مرصوفة بالحجارة بناها الخلفاء لتزويد الحجّاج بالماء. وتمرُّ الطريق مباشرة من مشهد علي باتجاه جبل شمَّر، دون المرور بلينة. وتبلغ المسافة من مشهد علي إلى جبال شمَّر ثمانية أيام، ويمرُّ المسافر دائماً من بغداد إلى نجد بقبر عليّ. ويرتاد هذه الطريق كثيراً عرب عجيل خاصة، من بغداد، ومن بينهم عديدون من نجد، يقومون بزيارةٍ كتجّار متجوِّلين غالباً. وتشمل تسمية «عجيل» كلَّ بدو شبه الجزيرة المستوطنين في ضواحي بغداد؛ وكانت هذه القبيلة فيما مضى قويّة غير أنّها ضعفت الآن كثيراً.

عبر مقاطعة جبل شمَّر، أو كما يُدعى عامةً «الجبل»، تقع أيضاً الطريق من نجد إلى دمشق. وهي أرضٌ جبليّةٌ تقع شمال شرقي مقاطعة قصيم، باتجاه المدينة إلى الشرق الشمالي. وسُكّانها هم بنو شمَّر الأقوياء، وهي قبيلة انتقل منها البعضُ إلى بلاد ما بين النهرين. وشيخهم هو ابن عليّ، وهو أحد داعمي أو مناصري الحكومة الوهابيّة الرئيسيّين. ويُقال أنّهم قادرون على جمع

سبعة آلاف بندقية. وهُم، مثل جيرانهم في نجد، يزرعون أشجار النخيل مع مياه يجرّونها من الآبار عبر قربات جلدية على الجمال. إنَّ إحدى المدن الرئيسية في جبل شمَّر هي المستجدّة؛ ويُقال أنَّ المدينة الأساسيّة هي حائل، والثانية حجماً هي كُفار.

من جبل شمّار إلى دمشق، تمرُّ الطريق بمقاطعة الجوف التي تبعد عنه خمسة أيام. والطريق رمليّة عميقة وخالية من المياه إلاّ ما تؤمّنه بئر شقيق التي تبعد عن جبل شمَّر أربعة أيام، ويوماً واحداً من الجوف. وأعتقد أنه ليس هناك أيّ محطّة أخرى تعادُلها طولاً، وتخلو تماماً من المياه في أيّ جزء من شبه الجزيرة ترتاده القوافل، كما هي الحالُ خلال الأيام الأربعة بين «الجبل» وشقيق. وتخصُّ بئر شقيق قبيلة عنيزة في الروالة. ولا بدَّ لكلّ من يرغب في الذهاب من جنوب سوريا إلى نجد، من المرور من هنا حتماً. وتغيبُ المياه كلّياً من الجوف جنوباً، في خطٍ مستقيم باتجاه خَيْبَر و«المدينة»؛ لذلك لا يتمّ ارتياد هذه الطريق. ولا بدّ للعرب الذاهبين من الجوف إلى «المدينة» من المرور عبر شقيق وشمّار وقصيم مُتّبعين طريقاً جانبيّة ثانويّة.

إنَّ إقامتي في «المدينة» في زمن الحرب، حين كان العداء ناشباً بين بدو الشرق وبدو الشمال الذين لم يأتوا إلى المدينة، حالت دون حصولي على معلومات كنتُ حصلتُ عليها لو أنَّ السلام كان يعمُّ حينها. فحين تكون الحال هكذا، تذهب قوافل صغيرة من خيبر وتيماء إلى «المدينة» باستمرار. وخيبر مشهورة جداً في تاريخ شبه الجزيرة لأنّها كانت مسرحاً لحروب إسلامية أوّليّة في ظلِّ محمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليّ وخلفائهما. ويُقال أنّها تبعد عن «المدينة» مسافة أربعة أو خمسة أيام (يقول البعض ثلاثة فقط)، على الطريق التي تمرُّ بين طريق الحجّ إلى دمشق، والطريق المؤدية إلى قصيم. ويأتي عربُ خيبر في السّلم بالتمر يبيعونه في «المدينة». ويُقال أنَّهم ذوو بشرة قاتمة داكنة أكثر من بدو الجوار؛ وقد يكون السبب في ذلك الحرارة المرتفعة جداً التي تسيطر في هذا المكان المنخفض. وتبعد خيبر عن طريق الحجّ إلى سوريا مسافة ستّ ساعات تقريباً؛ وهي تقع، كما أعتقد، في الاتجاه الشمالي الشرقي من «المدينة». ويبدو أنّها كانت تشكّل في السابق جزءاً من أراضي شريف مكّة. وحين استقرّ الشريف حسن أبو النما سنة ٩٦٦هـ، كانت أراضيه تشمل مكّة والطائف والقنفذة وهالي ويَنْبع و«المدينة» وخيبر، كما علمنا من الأعصَمي. وسكّان خيبر الحاليّون هم «وُلد علي»، وهي قبيلة من عنيزة، تجمع نحو ثلاثمئة من الخيّالة. وقد ميَّز شيخهم «عليدة» نفسه في الحرب الوهابيّة. ويسكنُ فرعٌ آخر من «وُلد علي» الصحارى قرب حوران جنوب دمشق. وهناك كذلك في خيبر مخيّماتٌ «لأولاد سليمان»، وهي قبيلة من عرب بيشة (كشعب عنيزة)؛ لكنَّ «وُلد علي» يملكون الأرض ومزارع النخيل.

وكان هناك سابقاً جاليةٌ يهوديّة مستوطنة في خيبر، وقد اختفتْ تماماً. والاعتقاد الشائع في مكّة وجدّة يقول إنَّ سُلالاتهم لا تزال موجودةً هناك وهم يمارسون شعائر دينهم بدقّة. لكن، بعد التحقيق والبحث الدقيق في «المدينة»، علمت أنَّ هذا الاعتقاد ليس مبنياً على أساسٍ متين، وأنّه لا يوجد أيّ يهود في الأجزاء الشمالية من الصحراء في شبه الجزيرة العربية. وينتمي اليهود الذين كانوا مستوطنين سابقاً في شبه الجزيرة، إلى قبيلة بني قُرَيْظَة؛ وقد أتوا إلى «المدينة» بعد أن استولى نبوخذنصَّر على القدس؛ حين قام «كرب بن حسان الحميري» (أحد ملوك تبع في اليمن الذين استولوا على مكّة) بغارةٍ على «المدينة» التي طوَّقَها؛ وحمل معه عند عودته من هناك بعض بني قُريظة إلى اليمن.

وكان هؤلاء أوّل يهود يستقرّون في تلك البلاد، ولا يزال نسلُهم في صنعاء (راجع تاريخ السمهودي عن «المدينة»).

تبعد مدينة تيماء الصغيرة مسافة ثلاثة أيام عن خيبر، والمسافة نفسها عن هجر، في الاتجاه الشرقي. ويسكنها عرب عنيزة، وتكثر فيها أشجار النخيل. وهي لا تنتمي إلى نجد ولا إلى قصيم؛ وهي، مثل خيبر، كانت مستوطنة بدويّة مستقلّة قبل زمنِ الوهابيّين. وتشبه تلك المدن الصغيرة داخل شبه الجزيرة الواحات في الصحراء اللّيبيّة؛ وتشكّل نقاط التواصُل بين البدو والبلاد المزروعة المجاورة. وسكّانها البدو مزارعون؛ وهُم في أغلبهم تجّار صغار يبيعون إخوانهم المتجوّلين في الصحراء البضائع التي يشترونها من الساحل في المدن السورية أو في مدن شبه الجزيرة. وبإمكاننا رسم خطّ لهذه الواحات التي تشكّل نقاط تقدّم باتجاه الصحراء على طول الطريق جنوباً حتى «المدينة»، بدءاً ببلدة «الدير» الصغيرة على الفرات. ويسكن البدوِ «الدير»[1] والسخنة وتدمُر والجوف ومعان وعُلا وخيبر وتيماء. وهم يحرثون التربة ويشكّلون طبقةً متوسّطة بين البدو والفلاحين. وقد تكون هذه المواقع بالغة الأهمية لمن يرغبُ في إخضاع البدو أو مُراقبتهم؛ وقد تصبح ذات أهميّة فائقة عبر جعلها وسائل إلهامٍ للشعب البدويّ كله بمشاعر أكثر ودّية تجاه السوريّين وسكّان الحجاز.

(١) هي: دير الزور، الحالية.

رقم - ٧ -

مُلحق لوصف بيت الله أو مسجد مكّة

تمنعُ الشريعةُ سفك الدماء في مسجد مكّة أو في المدينة نفسها، أو ضمن مساحة صغيرة حولها. كما تحظّر قطع الأشجار هناك أو قتل الحيوانات الذي يُعتبر أمراً مخالفاً للشريعة. ويتمّ احترام هذه الخاصيّة للمسجد بشكل عام في الحالات الشائعة من ارتكاب الجُنَح. يلجأ العديد من المجرمين إلى بيت الله لهذا السبب؛ إلاّ أنَّ ذلك يتمُّ خرقُه أيضاً. فقد رأيتُ بنفسي جنود محمّد علي يلحقون بأحد الفارّين من الجيش ويقبضون عليه ويجرّونه من غطاء الكعبة الذي تعلّق به. كما يقدِّم تاريخ مكّة أمثلة عديدة عن رجال قُتلوا في المسجد، من بينهم شريف مكّة، جازان ابن بركات، حيث اغتيل في أثناء تأدية الطواف حول الكعبة. وقد نشبت معارك دامية سنة ٨١٧هـ، ضمن حدودها المقدّسة التي تمثّل البقعة الأكثر اتّساعاً وانفتاحاً في المدينة للمناوشات. وقد دخل أحياناً بعض الخيّالة وأمضوا اللّيل بأكمله في الداخل. فيمكنُنا القول بالتالي إنَّ هذه الميزة تصبح عديمة الفائدة عندما تكون الحاجة إليها ماسة جداً كحماية اللاّجئين مثلاً من التسلّط الطاغي المستبدّ. أما فيما يتعلّق بقدسيّة الأرض، فليست سوى اسم، ويبدو أنه لا يتمّ احترامها إلاّ قليلاً حتى في العصور الأولى للإسلام[1]. إنَّ مساحة الأراضي المقدّسة وامتدادها تمّ تحديدها بشكل مختلف من قِبل المؤرّخين الثلاثة الذين أملكُ كتبهم، والذين كانوا أنفسهم مكيّين. كما يختلف الأئمّة أو المؤسّسون الأربعة للمذاهب السنيّة حول هذا الموضوع. ويبدو في الوقت الحاضر أنَّ امتياز الأرض المقدَّسة قد تمَّ نسيانه تقريباً وقد مرَّ بها في كلِّ اتّجاه، مسيحيّون غير مؤمنين من جيش محمّد علي أو طوسون باشا الذين زاروا جبل عرفات، رغم أنّهم لم يدخلوا مكّة. وخلافاً لتعاليم محمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتمّ الآن قطع الأشجار في الجبال القريبة خلف مكّة؛ كما لا يُمنع أحدٌ من إطلاق النار في الأودية المجاورة. ولا يُحترم إلاّ سهل عرفات وحده، فلا تُقطع الأشجار هناك أبداً. إنَّ المنطقة المقدَّسة، أو كما تُدعى «حدود الحرَم» يُفترضُ أنّها في الوقت الحاضر، مُسيَّجةٌ بتلك المواقع التي يوضع فيها الإحرام عند الاقتراب من مكّة. وهي: الهدا إلى الغرب وعسفان إلى الشمال ووادي مُحرم إلى الشرق وذات أرك إلى الجنوب. وقد أشار علي بك العبّاسي إلى هذه المنطقة في خريطته كمقاطعة خاصة أو أراضٍ مقدَّسة، وتُدعى «بلاد الحرَمين». لكنَّ الواقع أنَّ مثل هذه المقاطعة لم تكن أبداً

(١) يلقي المؤلف كلامه على عواهنه، من غير دليل.

موجودة، ويُطلق اسم بلاد الحرمين على أراضي مكّة و«المدينة» وليس على هذه المساحة المقدَّسة.

رقم - ٨ -

مُلاحظاتٌ لغوية

إنّنا نسمعُ في محادثات الناس العامّة والعاديّة في مكّة العديدِ من الكلمات العربية التي باتت مهجورة في أماكن أخرى، والتي لا يستعملها سوى الكُتّاب القديرين، إلى جانب عبارات عديدة من القرآن أيضاً، التي لم تعد تُستعمل في مكانٍ آخر. فهم ما زالوا يُحافظون، ولو جزئياً، على لغة قُريش الأصليّة. وتستعمل بعض القبائل البدويّة المجاورة خاصة منها قبيلة فَهم وهذيل، لهجة أكثر نقاءً وتخلو من الاصطلاحات والتعبيرات العامية والأخطاء في قواعد اللّغة. وقد حضرتُ أحياناً دروس أحد الشيوخ في المسجد، الذي أضاف إلى لغته العربيّة الممتازة، نتائج دراسته في القاهرة؛ فلم أسمع في حياتي لغةً عربيةً محكيّة بهذه البراعة والإتقان. وكان يتفاخر بترنيم كلّ حروف اللّين، ليس فقط في أثناء القراءة بل أيضاً في حديثه؛ فكانت كلُّ كلمة تفوّه بها نقيّة تماماً.

لا بُدَّ أن نعزو فساد اللّهجة المحكيّة المكيّة إلى انتشار تجارتهم مع الغرباء، حين نقارنها مع لهجة بدو الجوار؛ رغم أنّها لا تزال مثالاً للنعومة بالنسبة لأبناء سوريا ومصر. ويقلّد المكيون في لفظهم نقاء اللّهجة البدويّة؛ إذ إنَّ لكلِّ حرف صوته ورنينه ونغمته المحدَّدة والمتميِّزة. فهم يلفظون حرف الكاف (ك) مثل حرف (K) في اللّغة الأجنبية، وحرف القاف (ق) مثل حرف (G) الرقيق (كما في كلمة Going الأجنبية)، رغم أنّهم، في أثناء صلاتهم في المسجد، وفي أثناء قراءة القرآن، يلفظون هذا الحرف من الحنجرة بملء النفس الذي يلفظونه به في سوريا، وهو اللّفظ الحقيقي له. ويُلفظُ حرف الجيم (ج) (دجيم)، لكنّه في الجبال إلى الجنوب وفي داخل اليمن، يُلفظُ (غيم) كما في القاهرة. وإنَّ لفظ ألف (أ) الحنجريّ تتمُّ مُراعاته هنا حيث يُهمل في أماكن أخرى غالباً.

إنَّ الخطأ الوحيد في اللّفظ المكيّ هو أنّهم، إلى جانب البدو، يُشدِّدون جداً على القسم الأخير من الكلمات المؤلّفة من مقطعيْن لفظيَّيْن؛ فيقولون مثلاً: ذهب (مع التشديد على الفتحة الثانية)، وسفر (مع التشديد على الفتحة الثانية) وهكذا مع لحم ومطر وصبي وغيرها.

لقد كان أهل اليمن الذين رأيتهم في مكّة يتكلّمون العربيّةَ، فيلفظون هذه اللّغة بالجدارة

والإتقان نفسيهما تقريباً كالمكيّين. فكان أهل صنعاء يتكلّمون بنقاء لكن مع لهجة حادّة؛ إلاّ أنّ اللّفظ الحجازيّ، كاللّهجة البدويّة، هو بالنعومة التي تقبلها اللّغة.

لقد قيل أنّ اللّهجات العربيّة تختلف اختلافاً شاسعاً عن بعضها بعضاً؛ ويؤكّد Michaelis، وهو أحد المستشرقين عميقي المعرفة، على أنّ اللّهجة الحجازية تختلف عن المغربية اختلاف اللاّتينية عن الإيطالية. كما يميّزُ أحد المسافرين الشرفاء النبلاء تمييزاً دقيقاً بين لغة الموريتانيين واللّغة العربيّة، زاعماً أنه يفهم الأخيرة وليس الأولى. وحتى Niebuhr الدقيق المجتهد، يبدو أنّه كانت لديه بعض المفاهيم غير الصحيحة حول هذا الموضوع. لكنّ أبحاثي وتحقيقاتي الخاصة قادتني إلى تكوين رأي مغاير تماماً. فهناك بالتأكيد تنوّع واسع في اللّهجات العربيّة، ربما أكثر منها في لغاتٍ أخرى. لكن، على الرغم من الامتداد الشاسع للبلاد التي تسود فيها اللّغة العربيّة، من أغادير إلى مسقط؛ فإنّ من تعلّم لهجةً سيفهمُ الأخريات كلها وبسهولة. أما فيما يتعلّق باللّفظ، فكلٌ من بإمكانه التهجئة بشكل صحيح، لن يشعر إلاّ بقليل من الإحراج والانزعاج من تنوّع الأصوات، لكنّه سرعان ما يعتادُ على ذلك. ويتمُ التعبير عن المعنى نفسه غالباً بكلماتٍ مختلفة، لكنّ ذلك ينطبق على الأسماء المستقلّة أكثر من الأفعال. كما أنّ العديد من الكلمات التي تُستعمل في بلدٍ ما لا تُستعمل في آخر. فيُقال في سوريا مثلاً: «خُبز»، بينما يُقال «عيش» في مصر؛ والكلمتان عربيّتان أصليّتان، فهي لغةٌ غنيّةٌ بالمفردات. غير أنّ اللهجة السورية ما زالت تحتفظ بما قد باتَ مهجوراً في مصر. وانطلاقاً من النموذج الذي قدّمه Niebuhr عن اللّهجتين المصرية والحجازية، أستطيع أن أُظهر، كلمةً كلمة، أنه ليس هناك أيّ كلمات أو عبارات ريفيّة في المجموع. فإذا قال المصريُّ «اقعد»، وقال ابن شبه الجزيرة «اجلس»، فالاثنان يستعملان الكلمات العربيّة الأصليّة للتعبير عن الشيء نفسه، وإحداها شائعة أكثر في شبه الجزيرة، والأخرى في مصر؛ في حين أنّ كلٍّ من اختلط مع الحشود، أو تلقّى ثقافة عادية، يستطيع فهم الكلمتين. وهناك ما يبرّر استعمال الإنكليزيّ لكلمة "Steed"، وهي تعني الجواد (خاصةً المطهّم)، بدلَ حصان "Horse"؛ وهكذا، يدعو المغربي الحصان «عود»، والعربي الشرقيّ يدعوه «حصان»؛ غير أنّ العديد من الشعراء يستعملون كلمة «عود»، التي باتت في الوقت الحاضر مجهولة تماماً لدى العامّة في مصر. ربما نشأ هذا الاختلاف أو التنوّع في العبارات من استيطان قبائل مختلفة، لكلّ منها معجم خاص متميّز. فمن المعروف أنّ «الفيروزآبادي» جمع المواد وصنّفها في معجمه الشهير «القاموس المحيط»، وذلك عبر التنقّل من قبيلة إلى أخرى. وقد أخذ العرب المنتشرون في البلاد المحتّلة، مصطلحاتهم ولهجاتهم معهم؛ إلاّ أنّ المخزون الموحّد للّغة بقي معروفاً لكلٍّ من يُجيد القراءة والكتابة.

وقد يكون اللّفظُ قد تأثّر بطبيعة البلدان المختلفة، حيث حافظ على نعومته في أودية مصر

السُفلى وبلاد ما بين النهرين، وأصبح فظاً غليظاً بين الجبال المثلجة في بلاد المغرب وسوريا. وكما أعلم، فإنّ الفارق الأكبر يظهر بين مغاربة المغرب وبدو الحجاز قرب مكة ولكن اختلاف اللهجتين ليس أكبر من الاختلاف بين ألمانية فلاح «سوابي» وألمانية رجل سكسوني. وقد سمعتُ رجالاً متعلّمين في سوريا يُعبّرون عن جهلهم للعديد من العبارات البدويّة التي تستعملها القبائل داخل الصحراء، خاصة «عنيزة» التي، من جهة ثانية، لا يفهم أفرادها بعض الكلمات في اللّهجة المدينيّة السورية. لكنّ حاجات البدويّ وعاداته تختلف إلى حدّ بعيد عن تلك الخاصة بأحد أبناء المدينة، إذ إنّ أحدهم لا يستطيع العثور على العبارات التي تعبّر عن أفكار الآخر.

أما بالنسبة إلى اللّفظ، فإنّ أفضله يعود لبدو شبه الجزيرة والمكيّين وأهل الحجاز. ويليه في النقاء لفظ بغداد واليمن. إنّ اللّفظ في القاهرة هو أسوأ منه في أيّ جزء آخر في مصر؛ وأضع بعده لغة أو لهجة العرب اللّيبيّين الذين يملكون لكْنة اللّفظ المغربيّ الممزوج بالمصريّ. ثمّ تأتي العربية المحكية في السهول الشرقية والغربية في سوريا (في دمشق وحلب وساحل البحر)؛ وتليها لهجة الجبليّين السوريّين والدروز والمسيحيّين؛ وإلى جانبها لهجة ساحل بلاد المغرب، وطرابلس وتونس؛ وأخيراً اللُّكنة القاسية الفظّة التي يتميّز بها المغربيّ، وأهل فاس الذين لهم بعض الأصوات المختلفة عن أيّ نغمة أخرى، وهي تنقسمُ إلى عدّة لهجات. غير أنّ العرب في الجانب الشرقي من جبل «أطلس»، يلفظون لهجتهم المغربيّة بفظاظة أخفّ بكثير من جيرانهم الغربيّين. لكن لا بدَّ لي من أن أعترفَ أنّه من بين اللّهجات العربية كلها، لا تبدو لي أيّ واحدةٍ أكثر إزعاجاً وتشويهاً من لهجة الرجل الغندور الشاب المسيحيّ في القاهرة وحلب.

رقم - ٩ -

ملاحظات طوبوغرافية عن وادي مكّة وجبالها (مقتطفة من تاريخ الأزرقي) مع ذِكر الأسماء التي تُطلق على كل جزء(*)

إنّ الجبال المختلفة التي تشكّل السلسلة الجنوبية من وادي مكّة هي:

ـ جبل فاضِح، في الجزء الأسفل من جبل قُبيس، بالقرب من المدينة ـ الخَندمة، وهو كذلك

(*) قد يُلاحظُ هنا، أنّ بدو الزمن الحاضر لا يزالون يستعملون للتلّة الصغيرة أو الصخرة الناتئة أو السهل الصغير، اسماً خاصاً فريداً، وهو أمرٌ يجعل من تاريخ شبه الجزيرة غامضاً أحياناً، لأنّ الأسماء تغيّرت أحياناً مع مرور الزمن.

جزء من قُبيس ـ جبل الأبيض، ويدعوه العرب الوثنيون: مِسْتَبزرة، وهو ينتمي أيضاً إلى جبل قُبيس ـ مُزازِم ـ قُرن مصقلة، وهو السلسلة السُفلى من شعب عامر ـ جبل بنهان، يقع في المكان نفسه ـ جبل يقيان، على طرف شعب عامر ـ جبل أعرج، قرب الأخير ـ جبل المطابخ، أو شعب عامر، وهو يُدعى كذلك لأنَّ ملوك تُبَّع في اليمن أسَّسوا هنا مطبخهم، حين اجتاحوا مكّة ـ شعب أبو دُبّ ـ شعب الصفا، أو جبل راحة، شعب بني كنعان ـ شعب الخور ـ شعب عثمن.

على الطرف الشمالي، هناك: ـ الحزورة، كانت هنا سابقاً سوق مكّة ـ الجثمة ـ زُقاق النار ـ بيت الأزلام ـ جبل زِرزرة في الجاهلية التي تُدعى القايم ـ جبل عُمَر، في الجاهلية التي تُدعى داء عسير ـ جبل الأدخر(*)، في زمن الجاهلية التي تُدعى المزهبات، أو العضاض ـ جبل الحزنة ـ شعب أرني ـ ثنية كِدا ـ بطن ذي طوى ـ جبل المقتا ـ فاه، وهو وادٍ خلف بوّابة جدّة ـ الممدرة ـ المغش، حيث اقتُطعتْ قطع الرّخام المستعمل في المسجد ـ الحرورة ـ جستير ـ مقبرة النصارى ـ جبل البرود ـ ثنية البيضة ـ الحصاص ـ داء المدوَّر ـ جبل مُسلم ـ وادي ذي طوى ـ ثنية أم الحرث ـ جبل أبو القيط ـ فجّ ـ شعب أشرس ـ شعب المطّلب ـ ذات خليلين ـ جبل كبش ـ جبل رحى ـ البغيبغة ـ جبل كيد ـ الأرق ـ ذات الحنظل ـ العقلا ـ شعب العرنية ـ العلقا ـ شعب اللّبن ـ ملحة الغربا ـ ملحة الحروث ـ قبر العبد.

على الطرف السفلي من مكّة، هناك: الجياد أو جياد ـ راس الإنسان، يقع بين جبل قُبيس والجياد ـ شعب الختم، قرب الجياد ـ جبل خليفة ـ جبل عُراب ـ جبل عُمر ـ غداف ـ المقبعة ـ اللحجة ـ القدفدة ـ ذات اللُّحى ـ ذو مِراح ـ السلفين ـ الضُخاضخ ـ ذو الشديد ـ ذات السليم ـ أضات النبط، وتُدعى كذلك من قِبل بعض النبطيّين الذين أقاموا هنا، وقد أرسلهم معاوية بن أبي سُفيان لصنع الهاون في مكّة ـ أمّ قردان.

على الطرف الشمالي من المعلا، هناك: جبل ديلامي ـ جبل شيب ـ جبل حبشي ـ شعب المقبرة ـ أبو دجانة ـ جبل ليام ـ الغُراب ـ شعب الأخنس، ويُدعى كذلك الخوارج، أو الغيشوم ـ القاعِد.

على الطريق باتجاه مكّة، هناك: المفجر أو الخُضر ـ شعب حوّا ـ الرّباب ـ ذو الأراكة ـ العنبرة، في الجاهلية تُدعى سميرة ـ السّدِر.

(*) الإذخر هي جَنَبة أو عشبة، يخلطها المكيّون مع المِلاط عند بناء منازلهم. والعضاض هي شجرة شائكة، سائدة في شبه الجزيرة.

على الطريق باتجاه جبل ثور، إلى الجنوب من مكّة، هناك: ـ ذات اللُّخُب ـ ذات أرجاء ـ القفلية ـ ثور ـ البانة.

رقم ـ ١٠ ـ

ملاحظاتٌ اضافيّة

لا يجب الخلطُ بين «مخواه» المذكورة في الصفحات ١١٢ و١٨٩، إلخ؛ وبين مُخا على ساحل البحر. ومُخواه هي مدينة تبعد عن مكّة عشرة أيام على السفح الغربي لسلسلة الجبال الكبيرة.

إنَّ كلمة Hedjer، حَجِرْ، المذكورة في الصفحة ١٣٩ (من الكتاب الأصليّ) لا يجب أن يُفهم منها Hadjar الحَجَرْ: فالمساحة من الأرض تُدعى حجر «بسبب أنها محجورة من بيت اللّه أو الكعبة».

صفحة ٢٩٩ ـ «بنو عامر» Amer ـ إنَّ كلمة عامر في هذا المكان، لا يجب الخلط بينها وبين عمرو، وهي قبيلة أخرى من حرب. إن الواو في كلمة عمرو لا يلفظُها العربُ أبداً فيقولون عَمْرو بن العاص، وليس عمرو، فيضعون الواو لمجرد تمييز الكلمة عن عمر Omar.

هذا الكتاب هو عبارة عن يوميات كتبها الرحَّالة جون لويس بيركهارت خلال رحلة قام بها إلى الجزيرة العربية سنة ١٨١٤، وكانت جدة حينئذ قيادة القائد المصري إبراهيم باشا الذي كان ينوي القضاء على الحركة الوهابية التي انتشرت في الجزيرة العربية.

وكما هي العادة في تلك المرحلة، فإن الرحلة التي قام بها هذا الرحَّالة بتكليف من جمعية التعرف إلى مجاهل إفريقيا واكتشافها، وقد قدم بيركهارت إلى هذه الجمعية آنئذ أدق وأشمل تقرير وصل إلى أوروبا عن الحجاز ولا سيما مدينتي مكة والمدينة. أن معرفته باللغة العربية وبعادات المسلمين قد مكّنته من انتحال صفة المسلم بنجاح حيث أقام في مكة طوال موسم الحج وأدى «الشعائر الواجبة» دون أن يثير أية شكوك في شخصيته الحقيقية.

هذا الكتاب من أهم المراجع التاريخية حول الحياة في شبه الجزيرة العربية وعادات سكانها والأحوال السياسية والاجتماعية والدينية، التي كانت تتفاعل في تلك المرحلة التاريخية كما يتضمن فصولاً عن نشأة الحركة الوهابية وانعكاساتها على حياة السكان.

